



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الوادي



كلية: العلوم الإسلامية
مخبر: إسهامات علماء الجزائر في إثراء العلوم الإسلامية

أطروحة دكتوراه

مقدمة لاستكمال متطلبات نيل شهادة الدكتوراه في الطور الثالث (LMD)
الشعبة: أصول الدين
التخصص: التفسير وعلوم القرآن

الاتجاه الاجتماعي في تفسير القرآن بالجزائر - تفسير الدر الثمين للتواتي بن التواتي أنموذجا -

إعداد الطالبة: أمينة بوزيب

أعضاء لجنة المناقشة

الاسم واللقب	الرتبة العلمية	مؤسسة الانتماء	الصفة
ميلود عمارة	أستاذ	جامعة الشهيد حمّـة لخضر - الوادي	رئيسا
عبد القادر شكيمة	أستاذ	جامعة الشهيد حمّـة لخضر - الوادي	مشرفا ومقررا
عباس منصر	محاضر - أ -	جامعة الشهيد حمّـة لخضر - الوادي	مناقشا
الصادق ذهب	محاضر - أ -	جامعة الشهيد حمّـة لخضر - الوادي	مناقشا
محمد لقريز	أستاذ	جامعة محمد بوضياف - المسيلة	مناقشا
عبد المطلب بوغراة	محاضر - أ -	جامعة الأمير عبد القادر - قسنطينة	مناقشا

السنة الجامعية: 2024-2025 م / 1446-1447 هـ



إهداء

إلى والدَيَّ الكريمين، اللّذين شجعاني

وغمراني بالدعوات والدعم النفسي لإتمام هذا العمل .

إلى والدَيَّ نزوجي اللّذين كانا بمثابة الوالدين لي .

إلى نزوجي الدكتور: هشام شوقي، الذي كان نعم المعين

لي في مرحلتي العلمية مع إنجاء هذه الأطروحة .

إلى أبنائي: عبد المصور، عبد الباري، محمد، تسنيم، الذين مرافقوني

وتحملوني خلال فترة إنجاء البحث .

إلى إخواني وأخواتي، خاصة أختي التي ماتت وهي تنتظر نرفافها -رحمها الله- .

إلى كلّ من شجعني ولوب كلمة طيبة لإتمام هذا البحث

إلى كلّ أساتذتي الذين علّموني في مختلف مراحل دراستي . . .

أهدي هذا العمل

الطالبة: أمينة بوذيب

شكر وتقدير

أولاً أحمد الله سبحانه وتعالى وأشكره على توفيقه

إياي لإنجاز هذا البحث.

ثم اقتداء بنبي الرحمة ﷺ الذي قال (لا يشكر الله من لا يشكر الناس) الترمذي

فإني أتقدم بالشكر الجزيل إلى المشرف الأستاذ الدكتور: عبد القادر

شكيمة، الذي تكرم بالإشراف على هذا البحث، ولم يخل عليّ فيه بالنصح

والتوجيه والتصحيح، فجزاه الله خير الجزاء.

كما أشكر جميع الأساتذة الذين درسوني بهذه الكلية المباركة،

وأثني بالشكر لجميع الطاقم الإداري بدءاً من العميد إلى جميع الموظفين، وذلك نظير

التسهيلات التي يقدمونها للطلبة.

كما أشكر: أعضاء لجنة المناقشة الذين تحمّلوا عناء قراءة هذه الأطروحة،

ليضيفوا إليّ ما نقصته، أو يصبّوا لي ما أخطأت فيه.

وأشكر كذلك كل من أعانني على إنجاز هذا البحث من قريب أو بعيد، بدعاء أو

توجيه أو نصيحة أو كتاب.

فأسأل الله تعالى أن يجعل ذلك في ميزان حسناتهم.

الطالبة: أمينة بوذيب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أما بعد:

فإن القرآن الكريم أنزله الله هدى للعالمين يستنير بنوره المؤمنون ويكون كالشهاب الثاقب للكافرين والمجرمين، ولذلك اعتنى به العلماء قديما وحديثا بمختلف تخصصاتهم ومشاربهم وكل واحد منهم يجد فيه ما يروي ظمأه، ومن أبرز تلك الاختصاصات: تفسير القرآن الكريم الذي ساهم فيه جمع من العلماء، ونتج عن ذلك ظهور اتجاهات متنوعة في التفسير بحسب العلم الذي يغلب على المفسر، فظهر الاتجاه اللغوي عند المتخصصين في اللغة، والاتجاه الفقهي عند المتخصصين في الفقه، والاتجاه العلمي عند المشتغلين بالعلوم الكونية... الخ.

ومن أهم الاتجاهات التي ظهرت في مدونات التفسير "الاتجاه الاجتماعي" الذي ظهر عند طائفة من المفسرين خاصة عند المتأخرين والمعاصرين منهم، حيث سعى هؤلاء إلى محاولة إصلاح ما أصاب الأمة من أمراض وأدواء بسبب الاستعمار العسكري والفكري من الدول الغربية، وأرادوا إرجاع الأمة إلى سبب عزها وشرفها وهو القرآن الكريم، فراحوا يستنتقون آيات القرآن الكريم ويستخرجون هداياته، ويحاولون ربطها بحال الأمة واصفين لها العلاج الذي جاء به القرآن الكريم ومرغبين في التمسك به، وقد انتشر هذا الاتجاه وظهرت معالمه عند كثير من المفسرين في المشرق والمغرب، مواكبة لليقظة التي عرفتها الأمة على أيدي رجال الإصلاح المجددين.

ثم إن من أهم الأقطار التي انتشر فيها الاتجاه الاجتماعي في التفسير، الجزائر المحروسة التي حمل لواءه فيها علماء جمعية المسلمين وعلى رأسهم الشيخ ابن باديس، ثم سلك هذا المسلك حلقهم من علماء هذا البلد، ومنهم الشيخ: التواتي بن التواتي الأغواطي الذي فسر القرآن الكريم كاملا في كتاب سماه "الدر الثمين في تفسير الكتاب المبين"، حاول فيه الشيخ إحياء علم التفسير وربط القرآن الكريم بواقع الأمة لوصف العلاج لما أصابها من علل وأسقام، فجمع في تفسيره بين المشافهة فكان يلقي درس التفسير في المساجد ليسهل فهمها على العوام، وبين الكتابة ليقرأه ويستفيد منه المثقفون وطلبة العلم، وكان يستغل كل مناسبة في تفسيره فيربط فيها القرآن الكريم بالواقع، حتى ظهر الاتجاه الاجتماعي في

تفسيره بوضوح تام ومنهج منضبط - وقد حاولت عقد لقاء مع الشيخ عدّة مرات والسفر إلى مدينة الأغواط للقاءه، ولكن الأمر تعذّر بسبب كثرة أسفاره وحالته الصحية لكبر سنه -.

وفي هذا السياق جاء هذا البحث ليرز معالم الاتجاه الاجتماعي عند الشيخ التواتي في تفسيره المذكور ويبيّن طرق تطبيقه لهذه المعالم. وفيما يلي تعريف بالموضوع وحيثياته من خلال النقاط الآتية:

أولاً: عنوان البحث: جاء البحث بعنوان:

"الاتجاه الاجتماعي في تفسير القرآن بالجزائر"

- تفسير "الدر الثمين" للتواتي بن التواتي أنموذجاً -

فيظهر بوضوح أن موضوع هذا البحث يتضمن الحديث عن ثلاث مسائل:

- **أولها:** الاتجاه الاجتماعي في التفسير عموماً، وذلك ببيان معناه ومعالمه ورواده... الخ.
- **ثانيها:** تخصيص الحديث عن هذا الاتجاه بالقطر الجزائري ببيان أهم رواده وبعض معالم تطبيقهم له، واخترت أربعة منهم ممثلين لمدرستي التفسير في الجزائر - المالكية والإباضية - وهم: ابن باديس، الشيخ بيوض، أبو بكر الجزائري - رحمهم الله تعالى -، والأستاذ كعباش.
- **ثالثها:** استقراء تطبيقات هذا الاتجاه الاجتماعي عند مفسّر جزائريّ معاصر وهو "التواتي بن التواتي"، في تفسيره "الدر الثمين" لبيان معالم هذا الاتجاه ومنهج تطبيقه لها بالتفصيل.

ثانياً: إشكالية البحث:

تبرز الإشكالية الرئيسة التي تسعى الباحثة للإجابة عنها فيما يلي:

ماهي معالم الاتجاه الاجتماعي التي وظّفها الشيخ التواتي في تفسيره "الدر الثمين"؟ وما هو منهج توظيفه لها؟ وما هي أهم المسائل والقضايا التي نزل فيها الشيخ التواتي آيات القرآن الكريم على واقع الجزائر خصوصاً والعالم الإسلامي عموماً؟.

وهذه الإشكالية تتفرع عنها عدّة إشكاليات فرعية لتحقق المقصد العام وهي:

- 1- **المقصود بالاتجاه الاجتماعي في التفسير؟ وماهي معالمه التي يقوم عليها؟ ومن هم أشهر رواده في العصر الحديث؟ .**
- 2- **من هم أبرز المفسرين الجزائريين الذين سلكوا طريق الإصلاح في تفسيرهم للقرآن الكريم، حتى ظهر في تفاسيرهم الاتجاه الاجتماعي؟ وما هي معالم توظيفهم له؟.**

- 3- من هو الشيخ التواتي بن التواتي الأغواطي؟ وماهي الظروف التي نشأ فيها حتى نال تلك المكانة العلمية التي تبوأها في العالم الإسلامي ويؤلف تفسيراً مثل "الدر الثمين"؟.
- 4- ما سبب تأليف التواتي لتفسيره "الدر الثمين"؟، وما هو المنهج الذي سلكه فيه لتحقيق غرضه منه؟.
- هذه التساؤلات سيجد لها القارئ أجوبة في ثنايا هذا البحث ونتائجه - بإذن الله تعالى -.

ثالثاً: أهمية البحث:

يستمد هذا البحث أهميته من خلال الموضوع الذي يبحث فيه، حيث يسلط فيه الضوء على اتجاه تفسيري يخدم الأمة في كل زمان بحسبه من خلال تشخيص الداء من الواقع والدواء من هدايات القرآن الكريم. فيأتي هذا البحث ليسلط الضوء على نموذج من المفسرين المعاصرين وهو الشيخ التواتي الجزائري وبيان كيفية علاجه لمشكلات المجتمع من خلال تفسيره للقرآن الكريم. ويمكن تفصيل أهمية البحث في النقاط الآتية:

- 1- تعلقه بكتاب الله تعالى الذي هو أشرف كتاب وأعظمه، وشرف العلم بشرف المعلوم.
- 2- مساهمته في خدمة التراث الجزائري بإبراز جهود علماء هذا البلد في الإصلاح الاجتماعي من خلال تفسير القرآن الكريم.
- 3- تعلقه بأعلام الجزائر وبيان مكانتهم العلمية التي تبوأوها في العالم الإسلامي لمعرفة قيمة علماء بلدنا والرد على مقولة "الجزائر ليس فيها علماء".
- 4- تعريفه بالشيخ التواتي بن التواتي من الناحية الشخصية والعلمية، وتعريفه بتفسيره "الدر الثمين" الذي يعتبر أضخم تفسير للقرآن الكريم في المؤلفات الجزائرية المطبوعة.

رابعاً: أسباب ودوافع اختيار البحث:

- هناك عدة أسباب ودوافع جعلتني أختار هذا الموضوع وأبحث فيه، أهمها:
- 1- توجه الجامعة نحو خدمة التراث الجزائري، ممثلة في مخبر "إسهامات علماء الجزائر في إثراء العلوم الإسلامية"، فيأتي البحث ضمن أعمال المخبر وخدمة مقاصده وتحقيق أهدافه.
 - 2- قلة الدراسات الأكاديمية في البحوث والرسائل العلمية المتعلقة بتفسير "الدر الثمين" للشيخ التواتي بن التواتي، وربما يعود ذلك لأسباب أهمها:
- أ- جهل كثير من الباحثين بوجود هذا التفسير أصلاً لأنه طبع سنة: 2016م فقط.
 - ب- عدم وجود نسخة إلكترونية للتفسير تسهل على الباحثين الاطلاع عليه من خلال وسائل التواصل، خاصة في ظل ميل الباحثين الأكاديميين للتعامل مع النسخ الإلكترونية.

- ج- عدم توفر "الدر الثمين" في المكتبات؛ لأنه طبع بكميات محدودة، ولم يطبع طبعات أُخر.
- د- عدم معرفة قيمة هذا التفسير العلمية ومضمونه، وأنه موسوعة احتوت اتجاهات تفسيرية عديدة.
- 3- حاجة الساحة العلمية لإبراز مناهج العلماء في توظيف معاني القرآن الكريم وهداياته في خدمة المجتمعات الإسلامية المعاصرة، والمساهمة في تطويرها وإيجاد حلول لمشكلاتها لتصل إلى برّ الأمان في ظل الهدايات الربّانية، وهذا كله إنما يكون بالاتجاه الاجتماعي في التفسير.
- 4- المساهمة في إبراز جهود علماء الجزائر المحروسة الذين أسهموا في إنقاذ الأمة من الاستعمار الفكري والعسكري، حبًا منهم لهذا الوطن وإرادة الخير للمنتسبين له وربطهم بدينهم.
- 5- الرغبة في معرفة كيفية ربط الآيات القرآنية بالواقع المعيش، من أجل إيجاد حلول للمشكلات والآفات التي يعيشها الناس في مجتمعاتهم سواء في الجانب الديني أو الدنيوي، وذلك بجمع المسائل التي ذكرها التواتي بن التواتي في هذا المجال.
- 6- الردّ على من يعتقد أن القرآن الكريم كتاب ولىّ زمنه في زمن النبوة، وأنه كتاب لا يساير العصر ولا يستطيع تقديم حلول للمشكلات المعاصرة، فيأتي هذا البحث ليبين أن القرآن الذي مرّت على نزوله أكثر من ألف وأربعمائة سنة لازال العلماء يستنطقونه بفهمهم ليستخرجوا منه الحلول لمشكلاتهم المعاصرة والمتجددة.

خامساً: أهداف البحث:

- تعدّدت الأهداف التي أريد تحقيقها من خلال هذا البحث، ويمكن تلخيصها فيما يلي:
- 1- تسليط الضوء على شخصية التواتي وكيف كانت نشأته الشخصية والعلمية، لمعرفة الظروف التي تُسهم في تكوين العلماء في بلدانهم، وأن الله تعالى يصطفي لحمل هذا العلم من يشاء من عباده.
- 2- التعريف بكتاب "الدر الثمين في تفسير الكتاب المبين" من عدة جوانب، وبيان المنهج الذي سلكه التواتي فيه ليقرب معاني القرآن الكريم لمن كان يسمع تفسيره ويقرؤه.
- 3- التعرّف بالتفصيل على الاتجاه الاجتماعي في التفسير، وذلك من خلال بيان مقصوده ورواده وأهم المؤلفات التي اعتنت به، والتي يمكن الاستعانة بها في معرفة أمراض الأمة والحلول الفعّالة لها في ضوء القرآن الكريم.
- 4- إبراز الاتجاه الاجتماعي عند المفسرين الجزائريين وأهم المؤلفات فيه، باختلاف مناهجهم ومدارسهم بين المالكية والإباضية.

سادسا: الدراسات السابقة:

بعد البحث والتنقيب الذي قمت به وسؤال أهل الاختصاص لمعرفة ما كتب من دراسات علمية حول الشيخ التواتي فيما يتعلق بتفسيره "الدر الثمين"، لم أجد دراسة مفصلة تناولت الحديث عن الاتجاه الاجتماعي بالتفصيل في تفسير "الدر الثمين" -الذي هو موضوع بحثي-، غير أنني وقفت على بعض الدراسات التي أنجزت حول الشيخ التواتي في جانب من جوانب تفسيره؛ بعضها له علاقة بموضوعي مباشرة غير أنه تناول جزئية منه فقط، وبعضها في جانب آخر يتعلق بالشيخ التواتي وتفسيره عموما. وأهم دراسة وقفت عليها فيما له علاقة مباشرة ببحثي هي:

- رسالة دكتوراه بعنوان "اتجاهات التفسير في الجزائر في العصر الحديث: التواتي وكعباش أنموذجا"، أنجزها د: إبراهيم محفوظ حاج، وهي رسالة دكتوراه في تخصص: التفسير وعلوم القرآن، بإشراف: د: شطناوي يحيى بن ضاحي، قُدمت بجامعة: اليرموك -الأردن-، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، وتمت مناقشتها سنة: 2018م.

وبعد اطلاعي على هذه الرسالة، وجدت صاحبها تحدّث فيها عن أربعة اتجاهات في التفسير مقارنا بين الشيخين: التواتي وكعباش، وهي: الاتجاه العقدي، والاتجاه اللغوي، والاتجاه الفقهي، والاتجاه الهدائي. وهذا الأخير هو الذي له علاقة مباشرة ببحثي، غير أنني لاحظت ما يلي:

1- كلامه المختصر، حيث تحدّث عن الاتجاه الهدائي (الاجتماعي) عند التواتي باختصار كبير، واكتفى فيه بإشارات عامة عن معالم هذا الاتجاه بلغت تسع صفحات فقط، وحوالي ثلاث صفحات في قضايا الإصلاح عند التواتي. وقد أشار في ذلك إلى شيء من منهج التواتي في توظيف الاتجاه الإصلاحي ومثّل له بالمواعظ والتذكير الذي كان التواتي يختم به دروسه التفسيرية، واهتمامه بالقضايا الاجتماعية... الخ. ولا لوم على الباحث في ذلك فإن طبيعة الموضوع تستدعي هذا الاختصار إذ إن بحثه مقارنة بين تفسيرين في أربعة اتجاهات.

2- ميل صاحب الرسالة في كثير من المواضع لترجيح الكفة للأستاذ كعباش في حسن توظيف تلك الاتجاهات في تفسيره أو في النقل الموسع عن الشيخ كعباش والمحدود عن الشيخ التواتي، ولعلّ سبب ذلك: المادة العلمية المحدودة التي توفرت عند الباحث فيما يتعلق بالتواتي، فمثلا: في الاتجاه الهدائي في القضايا الاجتماعية كان يذكر كلاما طويلا للأستاذ كعباش ويفصّل فيه تفصيلا، فلما يصل إلى التواتي يقول "وكان له آراء لكنها قليلة" أو "ويجدر الإشارة أن للشيخ التواتي اهتماما بهذه القضايا الاجتماعية...". -ص: 222 من الرسالة- مع أن التواتي كانت له آراء كثيرة ونصوص طويلة في هذه

الموضوعات - كما سيأتي عرضه في طيّات البحث - والإنصاف أن يُمثّل للتواتي بنقل النصوص كاملة كما كان ينقلها عن كعباش كاملة.

ومّا سبق يظهر الفرق بين بحثي والبحث المذكور، إذ إن بحثي يختص باتجاه واحد عند التواتي وهو الاتجاه الاجتماعي الذي درسته بالتفصيل واستقراء تامّ في جميع مسائله وفروعه، بينما البحث الذي بين أيدينا دَرَسَ هذا الاتجاه دراسة سطحية لم توفّر هذا الاتجاه حقه.

غير أنني استفدت من هذه الدراسة في بعض المسائل، مثل: ترجمة الشيخ التواتي، ومعرفة بعض معالم الاتجاه الاجتماعي عند المفسرين الجزائريين.

هذا وجدير بالذكر أن هناك بحوثاً أخرى وقفت عليها أثناء جمعي للمادة العلمية، غير أنها لم تتناول لبّ إشكالية بحثي وهي توظيف الاتجاه الاجتماعي عند الشيخ التواتي في تفسيره "الدر الثمين" بل ركّزت على ترجمة التواتي ومنهجه في تفسيره لأنها كُتبت بعد طبع التفسير بمدة غير طويلة فأرادت أن تعرف به، لذلك فإنني استفدت منها في جانبي: ترجمة الشيخ التواتي، ومعرفة منهجه في تفسيره، وأقتصر من تلك البحوث والدراسات على ما يلي:

1- دراسة بعنوان "منهج الشيخ التواتي بن التواتي في تفسيره "الدر الثمين في تفسير الكتاب المبين"، وهي مذكرة ماستر للطالبة: فتيحة شيباني، بإشراف: أ.د: عبد الرحمن معاشي، تخصص: التفسير وعلوم القرآن، بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، للموسم الجامعي: 2017/2018م، وهي دراسة مقبولة في العموم ترجمت للشيخ التواتي ووصفت منهجه بما يناسب مرحلة الماستر، وقد استفدت منها في بعض الجوانب من ترجمة الشيخ التواتي.

2- حوار تضمن مقابلة بين الطالبة: هاجر بوغرارة مع الشيخ التواتي في بيته، يوم: 13 نوفمبر 2018م، على الساعة: 14:11. ورابطها: https://justpaste.it/Imam_touat

وقد استفدت منها بعض الجوانب من ترجمة الشيخ التي لم أجدها عند من ترجموا له، حيث سألتها الطالبة عن جوانب خاصة من حياته فأجاب الشيخ عنها، فجازاها الله خيراً.

3- مقال "المقاصد الإصلاحية والتربوية في تفسير (الدر الثمين في تفسير الكتاب المبين) للشيخ الدكتور التواتي بن التواتي الأغواطي الجزائري"، وهي لابنه د: عبد القادر بن التواتي، جامعة عمار ثلجي - الأغواط، الجزائر، نشر بتاريخ: 14/09/2021، ضمن كتاب جماعي عن "التفسير الأصولي والمقاصدي للقرآن الكريم"، وكان من المفترض أن تكون الترجمة المذكورة موسّعة تمسّ جوانب عديدة من حياة الشيخ الشخصية والعلمية باعتبار أن صاحب المقال هو ابن الشيخ التواتي، إلّا أن الترجمة جاءت

محصرة جدًا وكلّ المعلومات التي ذكرها موجودة في غيره، مع إشارات عامة وسريعة فقط للجانب الإصلاحي في تفسير "الدر الثمين" بما يتناسب مع طبيعة المقال العلمي.

4- مقال "منهج الشيخ التواتي في تفسيره الدرّ الثمين"، أ: محفوظ حاج إبراهيم، ويحيى ضاحي شطناوة، نشر بالمجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية، مج:15، عدد:3، سنة: 1441هـ-2019م، ورابطه: <https://digitalcommons.aaru.edu.jo/jois/vol15/iss3/6>.

وواضح من العنوان أن البحث اهتم بترجمة الشيخ التواتي وبيان المنهج العام في تفسيره والذي وصفه بأنه "تفسير فقهي تربوي"، واستفدت منه في الترجمة للشيخ.

5- مقال بعنوان: ملامح التجديد في التفسير عند التواتي بن التواتي من خلال كتابه "الدر الثمين في تفسير الكتاب المبين"، عبد الرحمن سفيسي، وباي بن زيد، وهو مقال نشر بمجلة الحكمة للدراسات الفلسفية، مج:11، العدد:20، سنة: 2023، ص: 893-912. ورابطه: <https://asjp.cerist.dz/en/article/234855>. وقد تحدّث فيه صاحبه عن ملامح التجديد

عند التواتي، وذكر منها: تفسيره للقرآن الكريم وفق مقتضيات الواقع وعصر المؤلف، ونص على مسألة: تنزيل النصوص على الواقع في تفسير "الدر الثمين"، غير أنني لم أستفد من هذا البحث في رسالتي كونه عرض المسائل باختصار شديد مع ما يناسب المقالات العلمية. فهذه الدراسات العلمية كلّها كتبت بعد طبع التواتي لكتابته "الدر الثمين" بمدة غير طويلة، ولذلك كان غالب تركيزها على ترجمة المؤلف وبيان منهجه، دون التدقيق في بعض المسائل والجوانب التفسيرية في الكتاب، فاستفدت منها في ذلك -والله ولي التوفيق-.

سابعا: المنهج المتبع في البحث:

إن طبيعة هذا البحث والتي اشتملت على جانبين؛ الأول: نظري: وفيه عرضٌ للاتجاه الاجتماعي في التفسير وبيان معالمه ورواده والتعريف بالتواتي وتفسيره، والثاني تطبيقي: وهو استقراءً لتطبيقات التواتي لهذا الاتجاه في تفسيره "الدر الثمين"، جعلتني أعتمد على عدد من المناهج العلميّة التي يكمل بعضها بعضا لخدمة مقصود البحث وهي:

1- المنهج الوصفي: واستخدمته في المباحث المتعلقة بالحديث عن الاتجاه الاجتماعي وبيان معالمه ورواده ونشأته، وذلك بالنقل من الكتب المتخصصة في هذا الموضوع.

2- المنهج التاريخي والوصفي: واستخدمته في ترجمة الشيخ التواتي وتتبع الظروف التاريخية التي نشأ فيها من الناحية الاجتماعية والسياسية وغيرها، كما استخدمته في الترجمة لبعض الأعلام الجزائريين الذين

ورد ذكر أسمائهم في ثنايا البحث، خاصة الأعلام الجزائريين الأربعة الذين درّست معالم الاتجاه الاجتماعي عندهم (ابن باديس، بيوض، أبو بكر الجزائري، كعباش).

3- المنهج الاستقرائي التام: واستخدمت هذا المنهج في استقراء منهج التواتي في تفسيره والمعالم التي طبقها التواتي في تفسيره، حيث استقرأت تلك المعالم من أول التفسير إلى آخره في عشرين مجلداً، فكنت أمثل لها بأمثلة في المتن وأحيل إلى مواضع أخرى في الهامش.

4- المنهج التحليلي: وذلك في المسائل المتعلقة بمعالم الاتجاه الاجتماعي التي طبقها التواتي في تفسيره، حيث وزعتها على فصول ومباحث ومطالب وفروع واجتهدت في وضع عناوين مناسبة لذلك، وكنت أتبع النصوص المنقولة بتعليق يُبيّن ما يحتاج إلى بيان بقدر الحاجة إلى ذلك.

ثامناً: منهجيتي في كتابة البحث:

و أما عن المنهجية التي اخترتها في تحرير مسائل هذا البحث (إجراءات البحث) فهي:

1- قسمت البحث إلى أربعة فصول تحتها مباحث وقسمت المباحث إلى مطالب، وكلّ مطلب تحته فروع، ونظراً لكثرة التفرعات والمسائل في البحث فإنني قسّمت ما يندرج تحت الفروع إلى ما اصطلح عليه بـ أولاً، وثانياً، وثالثاً... الخ، فإن احتجت إلى ترتيب مسائل تحتها جعلتها تحت أرقام أو حروف أبجدية.

2- استفتحت كلّ الفصول الأربعة للبحث بتوطئة تمهد لما سيذكر في الفصل، وختمته بخلاصة تلخص ما ورد في الفصل وتخبر بما يأتي في الفصل بعده، وذلك ليتمّ تصوّر محتوى الفصول.

3- قمت بشرح بعض الألفاظ الغريبة إما من كتب معاجم اللغة، أو كتب التعريفات.

4- اعتمدت على طريقة الجداول في بعض المسائل التي تكون مادتها العلمية طويلة، وهي تحتاج إلى إشارة باختصار فقط، فأدرجتها في جدول لعدم تطويل صفحات البحث.

5- اعتمدت في كتابة الآية وتخريجها على مصحف المدينة برواية حفص عن عاصم، وكان من المفترض أن تكون الآيات برواية ورش لأنها الرواية المتبوعة في بلد التواتي -الجزائر-، ولكنني لما رأيت تفسير "الدر الثمين" طبع برواية حفص عن عاصم عدلت عن ورش إلى حفص موافقة للمفسّر في الرواية التي اختارها لطباعة تفسيره.

6- فيما يتعلّق بالأحاديث النبويّة: فإنني خرّجت أغلب ما ورد في الرسالة منها، فإن كان الحديث في الصحيحين اكتفيت بتخريجيه منهما مبيناً كتابه وبابه ورقمه، وإن كان في غيرهما خرّجته واجتهدت في نقل حكم أحد المحقّقين فيه تصحيحاً أو تضعيفاً.

- 7-** فيما يتعلق بالمصادر والمراجع التي أحلت إليها: هي على أنواع وكل واحد منها له خصوصيته:
- فإن كان المرجع كتابا: فإنني أذكر جميع معلوماته في أول نقل منه في البحث، مرتباً لها كما يلي: أذكر اسم الكتاب ثم مؤلفه، ثم محققه إن وجد، ثم دار النشر ومكانها ورقم الطبعة وسنتها، ثم الجزء والصفحة، فإن كان المصدر سبق النقل منه فإنني أكتفي بذكر عنوان الكتاب ومؤلفه، والجزء والصفحة. وإذا تكرّر المصدر في نفس الصفحة، اكتفيت بقولي "المصدر نفسه" مع ذكر الجزء والصفحة، وإن تكرّر المصدر في بداية الصفحة الموالية عبّرت عنه بقولي "المصدر السابق" مع ذكر الجزء والصفحة، ومالم يتوفر عندي من معلومات مما سبق فإنني لا أشير إليه بالرموز مثلاً: (د.ط).
 - وإذا كان المرجع دراسة أكاديمية، فيكون ذكر معلوماته كالاتي:
- إن كان رسالة علمية؛ ذكرت معلوماتها المتوفرة كالاتي (الدرجة العلمية للرسالة، صاحبها، المشرف عليها، التخصص العلمي لها، جامعة الانتساب، السنة الجامعية التي نوقشت فيها).
- وإن كان مقالا علميا؛ ذكرت عنوانه، ومؤلفه، والمجلة التي نشر فيها والمؤسسة التي تنتمي لها، إضافة إلى العدد وتاريخ النشر، ورابط المقال. إلا إذا كان المقال منشورا في موقع إلكتروني، فإنني أذكر عنوان المقال وصاحبه، واسم الموقع، وتاريخ النشر فيه، والرابط.
- وقد يلاحظ القارئ تحلّف معلومة أو أكثر ممّا سبق في المراجع بأنواعها الثلاثة، فسبب ذلك يعود إلى عدم توفرها مع اجتهادي في تحصيلها.
- 8-** وفيما يتعلّق بتراجم الأعلام: فإنني ترجمت ترجمة مختصرة لصنفين من الأعلام، أولهما: من كانت له بصمة في الاتجاه الاجتماعي من المعاصرين -رواد الاتجاه الاجتماعي- من الجزائريين وغيرهم، والصنف الثاني: الأعلام الجزائريين الذين كانت لهم علاقة مع التواتي مَشِيخة أو زَمَالَة، وكذلك تَرَجَمْتُ لأعلام جمعية العلماء المسلمين، وربما ترجمت لبعض الأعلام الذين رأيت وجود حاجة للتعريف بهم. وتركت الترجمة لغيرهم من الأعلام المشهورين من الصحابة ومن دونهم.
- 9-** وختمت البحث بفهارس علمية متنوعة، (فهرس الآيات، فهرس الأحاديث النبوية، فهرس الأعلام المترجم لهم، فهرس غريب الألفاظ، فهرس المصادر والمراجع، فهرس الموضوعات).
- 10-** بالنسبة للإحالات المتعلقة بأجزاء وصفحات الكتب اتبعت المنهج الآتي:
- إن كان نفس الجزء والصفحات متتالية في نفس المسألة أحلت إليها بالرمز (ج/ص - ص).
 - وإن كان الجزء المحال إليه واحدا والصفحات في مسائل متنوعة سواء كانت متتالية أو متفرقة أحلت إليها بهذه الطريقة (ج/ص و ص و ص...).

11- قد يلاحظ القارئ للبحث طول النصوص التي نقلتها عن التواتي: وعذري أنني لم أجد بُدًا من تجنب ذلك لأن تفسير التواتي كان تفسيراً شفافاً في أصله يُخاطب به عموم المسلمين مما تسبب في طول النص المتعلق بالموضوع الواحد، ومع ذلك فإنني حاولت الاختصار على موضع الشاهد الذي لا يحتلّ به المعنى، ولا ينقص من كلام التواتي حول الموضوع.

تاسعا: خطة البحث:

حاولت الإحاطة بجميع مسائل البحث لتنظم تحت خطة متكاملة، فاستقر الأمر على أربعة فصول يمهّد أحدها للآخر، كما حاولت المقاربة بين أحجام الفصول قدر المستطاع، إلا أن المادة العلمية قد تتحكم في طبيعة الفصل فتُخلّ بالحجم، كما هو ملاحظ في طول الفصل الأول لأنه مفتاح البحث. وقد استقرت خطة البحث بعدما غيرتها عدّة مرات على ما يلي:

1- المقدمة: وفيها عناصرها المعروفة، (عنوان البحث، وإشكاليته، وأهميته، أسباب ودوافع اختياره، أهدافه، الدراسات السابقة فيه، المنهج المتبع فيه، منهجيتي في كتابته، خطته، مصادره، صعوباته).

2- محتوى البحث: يحتوي البحث على أربعة فصول تحتها مباحث ومطالب وفروع، وهي باختصار:

الفصل الأول: مدخل مفاهيمي لدراسة مصطلحات البحث. ويندرج تحته أربعة مباحث هي:

المبحث الأول: مفهوم الاتجاه الاجتماعي في التفسير ونشأته. وتحتة مطلبان، أولهما: تعريف

الاتجاه الاجتماعي في التفسير وبيان خصائصه وأهدافه وموضوعاته. وثانيهما: نشأة الاتجاه

الاجتماعي وأسباب ظهوره في العالم الإسلامي عموماً والجزائر المحروسة خصوصاً.

المبحث الثاني: معالم الاتجاه الاجتماعي في التفسير وأهم رواده. وتحتة مطلبان، أولهما: معالم

الاتجاه الاجتماعي في التفسير. وثانيهما: أهم رواد التفسير الاجتماعي في العصر الحديث.

المبحث الثالث: ترجمة الشيخ التواتي بن التواتي. وتحتة مطلبان، أولهما: الأوضاع والظروف العامة

التي نشأ فيها الشيخ التواتي. وثانيهما: الحياة الشخصية والعلمية للشيخ التواتي.

المبحث الرابع: تفسير "الدر الثمين في تفسير الكتاب المبين"، ومنهج التواتي في تحريره. وتحتة

مطلبان، أولهما: التعريف بتفسير "الدر الثمين في تفسير الكتاب المبين"، ومصادر المؤلف فيه.

وثانيهما: منهج الشيخ التواتي في تفسيره "الدر الثمين".

الفصل الثاني: معالم الاتجاه الاجتماعي عند المفسرين الجزائريين. ويندرج تحته أربعة مباحث هي:

المبحث الأول: معالم الاتجاه الاجتماعي عند ابن باديس في تفسيره "في مجالس التذكير". وتحتة

مطلبان، أولهما: ترجمة عبد الحميد ابن باديس وتعريف بتفسيره "في مجالس التذكير". وثانيهما: نماذج من معالم الاتجاه الاجتماعي في تفسير "في مجالس التذكير".

المبحث الثاني: معالم الاتجاه الاجتماعي عند الشيخ بيوض في تفسيره "في رحاب القرآن". وتحتة مطلبان، أولهما: ترجمة الشيخ بيوض وتعريف بتفسيره "في رحاب القرآن". وثانيهما: نماذج من معالم الاتجاه الاجتماعي في تفسير "في رحاب القرآن".

المبحث الثالث: معالم الاتجاه الاجتماعي عند الشيخ: أبي بكر الجزائري في تفسيره "أيسر التفاسير". وتحتة مطلبان، أولهما: ترجمة أبي بكر جابر الجزائري وتعريف بتفسيره "أيسر التفاسير". وثانيهما: نماذج من معالم الاتجاه الاجتماعي في تفسير "أيسر التفاسير".

المبحث الرابع: معالم الاتجاه الاجتماعي عند الأستاذ محمد كعباش في تفسيره "نفحات الرحمن". وتحتة مطلبان، أولهما: ترجمة كعباش وتعريف بتفسيره "نفحات الرحمن في رياض القرآن". وثانيهما: نماذج من معالم الاتجاه الاجتماعي في تفسير "نفحات الرحمن في رياض القرآن".

الفصل الثالث: معالم الاتجاه الاجتماعي في التفسير عند التواتي بن التواتي من خلال تفسيره

"الدرّ الثمين". ويندرج تحتة أربعة مباحث هي:

المبحث الأول: المعالم المتعلقة بأسس بناء المجتمع وقيام الأسرة المسلمة. وتحتة مطلبان، أولهما: معلم "أسس قيام المجتمع المسلم وخصائصه". وثانيهما: معلم "قيام الأسرة المسلمة في الإسلام".

المبحث الثاني: المعالم المتعلقة بربط القرآن بأحوال المجتمعات. وتحتة ثلاثة مطالب، أولها: معلم "شمول القرآن". وثانيها: معلم "تنزيل الآيات على الواقع". وثالثها: معلم "الوعظ والإرشاد".

المبحث الثالث: المعالم المتعلقة بإعجاز القرآن الكريم. وتحتة مطلبان، أولهما: معلم "الإعجاز العلمي للقرآن الكريم". وثانيهما: معلم "الإعجاز التشريعي والحكمة من تشريعات القرآن الكريم".

المبحث الرابع: المعالم المتعلقة بالوحدة الموضوعية للقرآن الكريم. وتحتة مطلبان، أولهما: معلم "الوَحدة الموضوعية في القرآن الكريم". وثانيهما: معلم "الوَحدة الموضوعية في السورة القرآنية".

الفصل الرابع: تنزيلات التواتي بن التواتي للآيات على الواقع من خلال تفسيره "الدرّ الثمين".

ويندرج تحتة أربعة مباحث هي:

المبحث الأول: التنزيلات المتعلقة ببيان الأحكام الشرعية لمسائل فقهية وعقدية. وتحتة ثلاثة مطالب، أولها: بيان الأحكام الشرعية لمسائل فقهية. وثانيها: الردّ على فتاوى باطلة متعلّقة بمسائل

فقهية. وثالثها: بيان الأحكام الشرعية لمسائل عقدية.

المبحث الثاني: التنزيلات المتعلقة بأحوال المنتسبين للأمة الإسلامية. وتحتة ثلاثة مطالب، أولها: حال حكام الأمة وعلمائها. وثانيها: بيان الحالة العامة لأبناء الأمة. وثالثها: ظاهرة الضعف والفرقة والاختلاف وسط الأمة الإسلامية.

المبحث الثالث: التنزيلات المتعلقة بالأحوال العامة للأمة الإسلامية. وتحتة ثلاثة مطالب، أولها: ضعف الأمة الإسلامية وذهاب هيبتها بين الأمم. وثانيها: حال الأمة الإسلامية مع القرآن الكريم. وثالثها: حال الأمة الإسلامية مع مقدساتها.

المبحث الرابع: التنزيلات المتعلقة بالمجتمعات غير الإسلامية. وتحتة أربعة مطالب، أولها: تنزيلات مشتركة بين أهل الكتاب (اليهود والنصارى). وثانيها: تنزيلات خاصة باليهود. وثالثها: تنزيلات خاصة بالنصارى. ورابعها: تنزيلات متعلقة بالدول الغربية. ولم أذكر الفروع خشية الإطالة، وسيأتي ذكرها بالتفصيل.

3- الخاتمة: وفيها أهم النتائج المتوصل إليها في البحث.

عاشرا: مصادر ومراجع البحث:

لقد اعتمدت في هذا البحث على مصادر ومراجع كثيرة وفي فنون متنوعة بسبب تنوع مسائل البحث، أذكر بعضها هنا وسيأتي بيانها مفصلة في فهرس المصادر والمراجع، وذلك كما يلي:

أ- كتب التفسير: ومنها:

* "الدر الثمين في تفسير الكتاب المبين" التواتي بن التواتي، وهو الكتاب محل الدراسة.

* جامع البيان في تأويل آي القرآن، الطبري.

* المحرر الوجيز، القاضي ابن عطية الأندلسي.

* الجواهر الحسان، عبد الرحمن الثعالبي.

* أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي.

* التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور. وغيرها من كتب التفسير المتنوعة.

ب- كتب علوم القرآن: ومنها:

* البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي.

* الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي.

* أسباب النزول، الإمام الواحدي.

* مناهل العرفان في علوم القرآن، عبد العظيم الزرقاني.

* لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير، محمد بن لطفي الصباغ.

ج- كتب الحديث وعلومه: ومن أهمها:

* الصحيحين، للبخاري، ومسلم.

* الكتب الستة.

* مسند الإمام أحمد بن حنبل.

* السلسلة الصحيحة والضعيفة، محمد ناصر الدين الألباني.

د- اللغة وعلومها: ومنها:

* تاج العروس من جواهر القاموس، مرتضى الزبيدي.

* القاموس المحيط، مجد الدين الفيروز آبادي.

* لسان العرب، ابن منظور.

* معجم اللغة العربية المعاصرة، د أحمد مختار عبد الحميد عمر بمساعدة فريق عمل.

هـ- كتب الفقه وأصوله: وأهمها:

* أصول الفقه الذي لا يسع الفقيه جهله، عياض بن نامي السلمي.

* موسوعة مسائل الجمهور في الفقه الإسلامي، محمد نعيم محمد هاني ساعي.

* موسوعة الفقه الإسلامي، محمد بن إبراهيم التويجري.

و- كتب السير والتراجم: ومنها:

* الأعلام، للزركلي .

* معجم المؤلفين تراجم مصنفى الكتب العربية، رضا كحالة.

* معجم المفسرين، عادل نويهض.

* التفسير والمفسرون في غرب أفريقيا، محمد بن رزق بن طرهوني.

حادي عشر: صعوبات البحث:

لا يخلو أيّ بحث من صعوبات تعترى الباحث وتحوّل بينه وبين ما يصبو إليه في بحثه، وانطلاقاً من ذلك فقد اعترتني عدّة صعوبات أجملها فيما يلي:

1- طول النصوص المتعلقة بالمسألة التي يتحدث فيها التواتي، ويرجع ذلك إلى طبيعة الدرس التفسيري الشفاهي الذي يخاطب فيه المفسّر الحضور مباشرة، فيحتاج للتفصيل ليتفاعل معه الحضور أو بسبب سؤال سائل أو غير ذلك، وهو ما أدى إلى طول النصوص مما زادني جهداً في الكتابة والتنقيح.

2- كثرة الأخطاء المطبعية، فالقارئ لتفسير التواتي لا تمر به صفحة أو صفحتان إلا ويجد خطأ مطبعيا بإدراج حرف أو كلمة أو إنقاصهما، مما يصعب علي فهم مراد الشيخ إلا بعد قراءة السياق الذي ورد فيه الخطأ عدة مرات.

3- كثرة المادة العلمية، وذلك نظرا لطبيعة التواتي في تفسيره حيث كان يكرر الكلام حول الموضوع الواحد في عدة مواضع، مما جعلني أجمع بينها وأضيف ما ذكره في موضع لم يذكره في غيره لتتكون صورة كاملة حول الموضوع.

4- علامات الترقيم التي وُضعت في غير موضعها، وهي كثيرة جدا خاصة النقطة التي تدل على نهاية الكلام، ولكنني أجدها في مواضع لم يكتمل فيها الكلام ، مما يجعلني أقرأ النص عدة مرات لأعرف أول الكلام من آخره.

5- طول تفسير "الدر الثمين" الذي بغلت مجلداته عشرين مجلدا، وعدم إمكانية الاختصار على جزء منه فقط، لأن ذلك لا يعطي تصورا عاما لآراء التواتي الإصلاحية في القضايا الاجتماعية، ولذلك تتبعته منهج الاستقراء التام لجميع الكتاب مما صعب علي المهمة نوعا ما نظرا لطول الكتاب.

6- عدم وجود نسخة إلكترونية، وفي المقابل طول الكتاب الذي بلغ عشرين مجلدا، مما نشأ عنه اقتصار البحث في البيت -في الغالب- لصعوبة نقله كاملا إلى مكان آخر، مما عطل العمل نوعا ما. ومع كل تلك الصعوبات، فقد استعنت بالله تعالى فسخر لي أسبابا سهل بها علي إكمال البحث، فله الشكر أولا وآخر.

فأسأل الله تعالى أن يجعل هذا البحث نافعا لي ولأمتي وأن يرزقني الإخلاص فيه، وأن يعذرني فيما أخطأت أو لم أوف حقّه من مباحثه أو لغوت فيه من غير فائدة، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه.

وهذا أوان الشروع في ذكر محتوى البحث و مسائله وذلك كما يلي:

* * * * *

الفصل الأول:

مدخل مفاهيمي لدراسة مصطلحات البحث.

ويحتوي هذا الفصل على أربعة مباحث هي:

المبحث الأول:

مفهوم الاتجاه الاجتماعي في التفسير ونشأته.

المبحث الثاني:

معالم الاتجاه الاجتماعي في التفسير وأهم رواده.

المبحث الثالث:

ترجمة الشيخ التواتي بن التواتي.

المبحث الرابع:

تفسير "الدر الثمين في تفسير الكتاب المبين"،

ومنهج التواتي في تحريره.

تمهيد:

تعتبر المصطلحات التي يتشكل منها عنوان البحث هي المفاتيح التي تدلّ على محتوى البحث وتعطي صورة عامة عن المسائل التي تم تناولها والحديث عنها في طياته، ونظرا لتداخل المصطلحات في العلوم واختلاف معانيها حسب السياق الذي تستعمل فيه، كان لابد من الاعتناء بتلك المصطلحات والحديث عنها بالتفصيل، فجاء هذه الفصل ليتحدّث عن بعض المصطلحات التي شكّلت مجموعها عنوان البحث وتفصيل المفاهيم المرادة منها وهي أربعة مصطلحات؛ "الاتجاه الاجتماعي في التفسير"، و"المفسرون الجزائريون"، و"التواتي بن التواتي"، و"الدر الثمين"، وقد جاء الحديث في هذا الفصل عن ثلاثة منها فقط، بينما أخّرت الحديث عن مصطلح "المفسرين الجزائريين" إلى الفصل الثاني، لأهمية هذا المصطلح وسعة المادة العلمية فيه، فكان الحديث عن المصطلحات الأخرى فقط، وقد راعيت ترتيب المصطلحات حسب ورودها في العنوان.

مع التنبيه إلى أن القارئ قد يلاحظ تفاوتاً بين حجم هذه المباحث مع أنني حاولت التقريب بينها قدر المستطاع، ولكن المادة العلمية المتوفرة أو التي توفّي بالغرض المطلوب قد تختلف بين مبحث وآخر فيحدث التفاوت بينها.

وتفصيل هذه المباحث كما يلي:

المبحث الأول: مفهوم الاتجاه الاجتماعي في التفسير ونشأته.

لابد لأي بحث أن يستفتح الحديث عنه بتعريفه وبيان مفهومه في الناحيتين اللغوية والاصطلاحية، كما ينبغي الحديث عن نشأة الموضوع المراد ببحثه لتُعرف المراحل التي مر بها حتى تطوّر ووصل إلى المرحلة التي وافقت كتابة البحث، وهذا ما جاء في هذا المبحث حيث عرّفت فيه بمصطلح "الاتجاه الاجتماعي في التفسير" مفردا ومركبا، ثم بيّنت تاريخ نشأته وكيف كانت بداية ظهوره في العالم عموما ثم في الجزائر خصوصا لأن بحثي مختص بهذه الرقعة الجغرافية، وذلك في مطلبين هما:

المطلب الأول: تعريف الاتجاه الاجتماعي في التفسير وبيان خصائصه وأهدافه وموضوعاته.

المطلب الثاني: نشأة الاتجاه الاجتماعي وأسباب ظهوره في العالم الإسلامي عموما والجزائر المحروسة خصوصا. وتفصيل هذين المطلبين كما يلي:

المطلب الأول: تعريف الاتجاه الاجتماعي في التفسير وبيان خصائصه وأهدافه وموضوعاته.

وسأعرف في هذا المطلب ببعض المسائل المهمة والمتعلقة بالاتجاه الاجتماعي في التفسير؛ من حيث بيان معناه مفردا ومركبا ثم خصائصه ... الخ، وقسمت مسأله إلى فروع تفصيلها كالآتي:

الفرع الأول: التعريف التجزيئي لمصطلحات "الاتجاه" و "الاجتماعي" و "التفسير":

وفيما يلي تعريف بهذه المصطلحات الثلاثة من ناحيتي اللغة والاصطلاح، ليتبيّن المراد منها في هذا البحث، وذلك كما يلي:

أولا: مصطلح "الاتجاه":

1- لغة: لفظة الاتجاه مأخوذة لغة من مادة "و ج هـ" و لها أصل واحد يدل على مقابلة لشيء¹. والوجه: معروف وهو مستقبل لكل شيء، والجمع: الوجوه، وهذه المادة لها عدّة إطلاقات في استعمال العرب؛ فيقال: وجه البيت: وهو الخد الذي يكون فيه بابه، ووجوه البلد: أشرفه، ويقال: هذا وجه الرأي؛ أي: هو الرأي نفسه. والوجه والجهة بمعنى واحد، واتّجه له رأي؛ أي: سنح².

ويقال: وجه الفرس: ما أقبل عليك من الرأس من دون منابت شعر الرأس، ووجه النهار: أوله، وجاهاه: إذا فاخره، ووجه إليه كذا: أرسله، والمواجهة: المقابلة، ولقيه وجاها ومواجهة: قابل وجهه

¹ معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، ت: عبد السلام هارون، دار الفكر، ط: 1، سنة: 1399هـ-1979م، (6/88).

² لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، ط: 3، سنة: 1414هـ، (13/555)، ومختار الصحاح، الحنفي الرازي، المكتبة العصرية، بيروت، صيدا، ط: 5، سنة: 1420هـ-1999م، (ص: 740).

بوجهه. وتواجه المنزلان والرجلان: تقابلا، وأوجهت المرأة: قعدت عن الولادة، والوجه والتجاه: الوجه الذي تقصده. ووجه الكلام: السبيل الذي تقصده به، والجهة: الجانب والناحية والموضع الذي تتوجه إليه وتقصده، والوجهة: الجانب والناحية والموضع الذي تتوجه إليه وتقصده¹.

وكما يظهر من استعمالات لفظة "وجه" اللغوية؛ فإن معانيها متقاربة، والمعنى الذي له علاقة مباشرة أكثر من غيره بما أقصده في بحثي هو المعنى الأخير وهو: الناحية والجانب الذي يتوجه إليه المفسر في تفسيره من خلال تفسيره للآيات القرآنية ليحقق أهدافا معينة.

2- اصطلاحا: عُرِف الاتجاه في الاصطلاح بأنه: الهدف الذي يتوجه إليه المفسرون في تفاسيرهم ويجعلونه نصب أعينهم، وهم يكتبون ما يكتبون².

وتحدّث د: "فهد الرومي" عن الفرق بين مصطلح "الاتجاه" والمصطلحات المقاربة له (المنهج والطريقة)، فقال: أضرب لذلك مثلا: جماعة يريدون السفر إلى مدينة واحدة، فانطلقوا واتجاههم تلك المدينة لكنهم سلكوا مناهج مختلفة، منهم من سلك المنهج البري الأول ومنهم من سلك المنهج الثاني ومنهم من سافر جواً ومنهم من سافر بحرا وغير ذلك، وهذه كلّها مناهج للاتجاه واحد.

أما الطريقة: فنظهر في أنّ أحد هؤلاء اتجه مباشرة إلى الهدف، وجعل آخرون سفرهم سياحة؛ فلا يمزّون في استراحة إلا واستراحوا فيها، ولا يمزّون بمدينة أو بقرية إلا ويتجولون فيها، ولا يمزّون بروضة أو حديقة إلا ويقضون سحابة يومهم فيها، ولا يمزّون بوادٍ وبجبل إلا ويملّؤون النظر من تأمله؛ يفعلون هذا وهم سائرون على المنهج لا يخرجون عنه بعيدا ولا يسلكون منهجا آخر بعيدا عن الهدف³.

ثانيا: مصطلح "الاجتماعي":

1- لغة: لفظة "الاجتماعي" مأخوذة لغة من مادة "ج م ع"، والجيم والميم والعين لها أصل واحد، يدلُّ على تَضَامٍ الشَّيْءِ⁴. وتطلق هذه اللفظة عند العرب على عدة إطلاقات ويراد بها معان مختلفة في الاستعمال؛ فهي منسوبة إلى الاجتماع، فيقال: جمع الشيء عن تفرقة يَجْمَعُهُ جَمْعًا وِجْمَعَهُ وأجمعه فاجتمع فهو ضِدُّ المِتَّفَرِّقِ. والمجموع: الذي جُمع من ههنا وههنا وإن لم يجعل كالشيء الواحد. واستجمع

¹ لسان العرب، ابن منظور، (555/13)، والمعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وأحمد الزيات وغيرهما، دار الدعوة، (1015/2).

² بحوث في أصول التفسير ومناهجه، فهد الرومي، مكتبة التوبة، الرياض، سنة: 1416هـ، (ص: 55).

³ اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، د: فهد الرومي، طبع بإذن رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد في المملكة العربية السعودية برقم 5/951 وتاريخ 1406/8/5، ط: 1، سنة: 1407هـ - 1986م، (22/1).

⁴ معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، (479/1).

السيّل: اجتمع من كلّ موضع، وجمعت الشيء إذا جئت به من ههنا وههنا، وتجمع القوم: اجتمعوا أيضا من ههنا وههنا¹. واجتمع الرجل: استوت لحيته وبلغ غاية شبابه، والمسجد الجامع: الذي يجمع أهله، وجماع كل شيء: مجتمع خلقه؛ وجماع جسد الإنسان رأسه وجماع الثمر تجمع براعيه في موضع واحد على حملة، وجماع الثريا مجتمعها، والجماع: أخلاط من الناس².

والجمع: الضم وهو ضم الشيء بتقريب بعضه من بعض، وهو خلاف التفرّق، وهو مصدر جمع من باب منع، والجمع اسم لجماعة الناس، ويجمع على مجموع، والموضع تجمع بفتح الميم الثانية وكسرها، وأجمع الأمر إذا عزم عليه، ويقال أيضا: أجمع أمرك ولا تدعه منتشرا، وجمع القوم جميعا شهدوا الجمعة وقضوا الصلاة فيها وجمع فلان أيضا مالا وعدده، وجامعه على أمر كذا اجتمع معه³.

وكما هو ملاحظ بأنّ المعنى الذي له علاقة بموضوع الرسالة ويناسبها هو: الاجتماع الذي يُطلق على جمع الشيء من هنا وهناك لتكون الجماعة من الناس.

2- اصطلاحاً: المقصود من مصطلح "المجتمع" والعلم الذي يدرسه هو: دراسة المجتمع في بنيته وظواهره دراسة علمية وصفية تحليلية، والغرض منها الوصول إلى القوانين التي تحكمها.

وميدانه: دراسة حياة الأفراد في حالة الاجتماع والعلاقات التي تنشأ بينهم والنظم والقواعد المنظمة لعلاقاتهم، وذلك بالوقوف على التراث الاجتماعي وعناصره والمعتقدات والفنون والحضارة ومعايير الأخلاق وأساليب العمل والتقسيم الطبقي ومظاهر التخلف والتغير والتقدم والتنظيم الاجتماعي⁴.

ولاشك أن هذا المعنى الاصطلاحي له علاقة مباشرة بالمراد في البحث، إذ يحتاج المفسر في هذا الاتجاه أن يعرف أحوال المجتمع الذي يخاطبه ليربط ذلك بمعاني آيات القرآن الكريم.

ثالثاً: مصطلح "التفسير":

1- لغة: لفظة "التفسير" مأخوذة في اللغة من مادة "ف س ر"، والتي يدور معناها حول: البيان والإيضاح، ومن ذلك قولهم: فسّرت الحديث: إذا بيّنته وأوضحته¹. واختلف في أصل اشتقاق مادته:

¹ لسان العرب، ابن منظور، (53/8).

² المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 1، سنة: 1421هـ، (347/1).

³ المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ت: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية، دمشق بيروت، ط: 1، سنة: 1412هـ، (ص: 201)، ومختار الصحاح، الرازي، (ص: 119)، والمغرب في ترتيب المعرب، برهان الدين المطرزي، مكتبة أسامة بن زيد، حلب، ط: 1، سنة: 1979م، (389/1).

⁴ الاتجاه الاجتماعي في التفسير في العصر الحديث، عمر عبد العزيز بوريني، مجلة مركز الخدمة للاستشارات البحثية واللغات، المجلد 16، العدد 49، يناير 2014، الرابط: <https://ebook.univeyes.com/229718>، (ص: 9).

- فذهب بعضهم إلى أنها من "الفسر"، وهو البيان وكشف المراد من اللفظ المشكل، وإنما بَنَوْهُ على "التفعيل" فقالوا التفسير للتكثير، فكأنَّ المفسر يتتبع القرآن سورة بعد سورة وآية بعد آية².
- وذهب آخرون: إلى أنه مأخوذ من "التفسرة" وهي: البَؤْل الذي يُسْتَدَل به على المرض، حيث يَنْظُرُ فيه الأطِبَاءُ فيستدلون بلونه على عِلَّة العليل³، وهذا عمل شبيه بما يقوم به المفسر الذي يحاول الكشف عن معنى الآية بالبحث في سبب نزولها وغريبها وغير ذلك مما يتعلق بها.
- وقال بعضهم: هو مقلوب من "سفر"، وهو كَشَف الغطاء، يقال: سَفَرَت المرأة إذا كَشَفَتْ عن وجهها النَّقَاب⁴.

2- اصطلاحاً: عرّف العلماء "التفسير" اصطلاحاً بتعريفات كثيرة ومتنوعة، منها:

- **تعريف أبي حيان:** قال: "علم يبحث عن كيفية النطق بألفاظ القرآن، ومدلولاتها، وأحكامها الإفرادية والتركيبية، ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب، وتتمت لذلك". ثم شرح هذا التعريف، بما ملخصه: "كيفية النطق بألفاظ القرآن"، ويقصد به علم القراءات وما يتعلق به. "مدلولاتها"، ويقصد به علم اللغة وغريب الألفاظ. "أحكامها الإفرادية والتركيبية"، والمقصود به علم التصريف والإعراب وعلم البلاغة من بيان وبديع ومعاني. "ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب"، ويقصد به دلالاتي الحقيقة والمجاز، فإن التركيب قد يقتضي بظاهره شيئاً، ويصد عن الحمل على الظاهر صاد، فيحتاج لأجل ذلك أن يحمل على غير الظاهر، وهو المجاز. "وتتمت لذلك"، ويقصد به علم النسخ، وأسباب النزول، والمبهمات، ونحوها⁵.

¹ ينظر: جمهرة اللغة، لابن دريد، ت: رمزي منير، دار العلم للملايين، بيروت، ط: 1، سنة: 1987م، (718/2)، ومعجم مقاييس اللغة، لابن فارس، (504/4).

² ينظر: لسان العرب، لابن منظور، (55/5)، والبرهان في علوم القرآن، الزركشي، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط: 1، سنة: 1376هـ-1957م، (147/2).

³ ينظر: تاج العروس من جواهر القاموس، مرتضى الزبيدي، ت: مجموعة من المحققين، باب الرء مادة "ف س ر"، (ص: 3345)، وتهديب اللغة، للأزهري، مادة "فسر"، ت: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: 1، سنة: 2001م، (279/4).

⁴ تاج العروس، للزبيدي، (ص: 2952).

⁵ البحر المحيط في التفسير، أبو حيان الأندلسي، ت: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، سنة: 1420هـ، (121/1).

- تعريف الزركشي: حيث قال في تعريفه: "علم يُعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيه محمد ﷺ، وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه" ¹.

- تعريف الدكتور محمد حسين الذهبي: وعرفه بقوله: "علم التفسير: علم يبحث عن مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية، فهو شامل لكل ما يتوقف عليه فهم المعنى وبيان المراد" ².

الفرع الثاني: تعريف "الاتجاه الاجتماعي في التفسير":

هذا الاصطلاح اصطلاح معاصر ظهر عندما برزت طائفة من المفسرين تريد إصلاح ما أفسده الاستعمار في أمة الإسلام من خلال الرجوع إلى القرآن الكريم، وقد ظهر مواكبا لتصنيف الدراسات القرآنية وتفريعها لينفرد كل منها باصطلاح خاص؛ فظهر هذا المصطلح.

وتعددت المصطلحات والتسميات التي أطلقها العلماء والباحثون على هذا الاتجاه؛ ومن أبرزها:

- "الاتجاه الإصلاحية" وذلك باعتبار نسبته للمدرسة الإصلاحية.
- "الاتجاه الأدبي العقلي" وذلك أنه يهتم ببيان بلاغة القرآن والسير وفق هداياته.
- "الاتجاه العقلي الاجتماعي والتوفيقي" وذلك لاشتهار المدرسة العقلية به ومحاولة توفيقها بين الإسلام وحضارة الغرب.

- "الاتجاه الهدائي" وذلك أن هذا الاتجاه اعتنى بإظهار الهداية التي هي المقصد الأسمى للقرآن.
- "الاتجاه الأدبي الاجتماعي" وذلك أنه يعتني بإظهار بلاغة القرآن ويربط معانيه بالمجتمع ³.
- وسبب اختلافهم في التسمية هو المنظار الذي نظروا إليه من خلاله، فكل واحد نظر بنظرة معينة:
- فمن نظر إلى وسيلة هذا الاتجاه سماه: الاتجاه العقلي أو الاتجاه الأدبي أو الاتجاه التوفيقي، لأنهم وجدوا أن وسيلته هي العقل وما يصدر عنه من علوم أدبية.

- ومن نظر إلى غايته سماه: الاجتماعي أو الهدائي لأن مقصوده هو هداية المجتمع وإصلاحه.
- ومن نظر إلى أبرز سمة فيه سمّوه بها: فمن رأى أنها العقل سمّوه "المدرسة العقلية"، من رأى أنها اللون الأدبي سمّوه "الاتجاه الأدبي"، ومن رأى أنها السنن الاجتماعية سمّوه "الاتجاه الاجتماعي".

¹ البرهان في علوم القرآن، للزركشي، (13/1).

² التفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي، دار الحديث، القاهرة، سنة: 1426-2010م، (14/1).

³ اتجاهات التفسير في الجزائر في العصر الحديث: التواتي وكعباش أمّودجا، إبراهيم محفوظ حاج، رسالة دكتوراه بإشراف: شطناوي يحيى بن ضاحي، جامعة: اليرموك -الأردن-، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، سنة: 2018م، (ص: 198).

وبالنظر إلى كل هذه المصطلحات (العقلية، والأدبية، والتوفيقية، والهدائية... الخ) نجد أنها مصطلحات ضيقة، أما "الاتجاه الاجتماعي" فهو الذي يشملها جميعاً،¹ ولذا تم اختياره في عنوان الأطروحة. وبناء على كل ما سبق نجد أن الباحثين كما اختلفوا في تسميته فإنهم اختلفوا في تعريفه، وفيما يلي بعض التعريفات التي ذكرها العلماء لهذا الاتجاه - باختلاف اصطلاحاتهم له -، وذلك كما يلي:

أولاً: تعريف المفسرين غير الجزائريين للاتجاه الاجتماعي: واخترت من تلك التعريفات:

1- الشيخ رشيد رضا في "المنار" (ت: 1935هـ): حيث عرف التفسير وأشار إلى الاتجاه الاجتماعي الذي كان قصده الأول منه فقال: "وهو ذهاب المفسر إلى فهم المراد من القول، وحكمة التشريع في العقائد والأحكام على الوجه الذي يجذب الأرواح، ويسوقها إلى العمل والهداية المودعة في الكلام، ليتحقق فيه معنى قوله (هدى ورحمة) ونحوها من الأوصاف، فالمقصد الحقيقي وراء كل تلك الشروط والفنون هو الاهتداء بالقرآن"². وقد ركّز فيه على وصف غرض المفسر وهو الهداية وطريق تحقيقها.

2- الدكتور: محمد حسين الذهبي في كتابه "التفسير والمفسرون" (ت: 1977هـ): حيث سماه بـ "اللون الأدبي الاجتماعي" وقال في تعريفه: "وإنما ظهر عليه طابع آخر، وتلوّن بلون يكاد يكون جديداً وطارئاً على التفسير، ذلك هو معالجة النصوص القرآنية معالجة تقوم أولاً وقبل كل شيء على إظهار مواضع الدقة في التعبير القرآني، ثم بعد ذلك تُصاغ المعاني التي يهدف القرآن إليها في أسلوب شيق أخّاذ، ثم يطبق النص القرآني على ما في الكون من سنن الاجتماع، ونُظّم العمران"³، ثم ذكر أن مدرسة محمد عبده في التفسير كان لها دور كبير في خدمة هذا الاتجاه، فذكر بعض معالمها ومنهجها في التفسير عند حديثه عن محاسنها قائلاً: "إن هذه المدرسة نهجت بالتفسير منهجاً أدبياً اجتماعياً فكشفت عن بلاغة القرآن وإعجازه وأوضحت معانيه ومرامييه، وأظهرت ما فيه من سنن الكون الأعظم ونظم الاجتماع وعالجت مشاكل الأمة الإسلامية خاصة، ومشاكل الأمم عامة بما أرشد إليه القرآن من هداية وتعاليم جمعت بين خيري الدنيا والآخرة. ودفعت ما ورد من شبه على القرآن وفندت ما أثير حوله من شكوك وأوهام بحجج قوية قذفت بها على الباطل فدمغته فإذا هو زاهق، كل هذا بأسلوب شيق جذاب يستهوي القارئ، ويستولى على قلبه، ويُحبب إليه النظر في كتاب الله..."⁴.

¹ الاتجاه الاجتماعي في التفسير في العصر الحديث، عمر عبد العزيز بوريني، (ص 11-12).

² تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد بن علي رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة: 1990م، (1/22).

³ التفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي، (2/401).

⁴ التفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي، (2/406).

3- تعريف الدكتور: صلاح عبد الفتاح الخالدي (ت: 2022هـ):

حيث سماه بـ "الاتجاه الاجتماعي في التفسير"، وجعله من بين اتجاهات التفسير في العصر الحديث وعرفه باعتبار وظيفته فقال: "يركز صاحب التفسير ذي الاتجاه الاجتماعي على مجتمعات المسلمين، ويحرص على إصلاح تلك المجتمعات على أساس القرآن ويعالج أمراض ومشكلات المجتمع المختلفة ويقدم السنن الاجتماعية الكفيلة برقي المجتمعات وتقدمها"¹.

4- تعريف الدكتور: محسن عبد الحميد: حيث تحدث عن هذا الاتجاه فعرفه وبيّن مقصده بقوله: "بيان سنن الله في الخلق ونظام الاجتماع البشري وأسباب ترقى الأمم وتدلّيتها وقوتها وضعفها"².

5- تعريف الدكتور: عبد العزيز بوريني: سماه "الاتجاه الاجتماعي في التفسير" وعرفه بقوله: "الهدف الذي يتجه إليه المفسرون في تفاسيرهم، وهو إصلاح المجتمع في بُنيته ونُظمه وعلاقاته، للوقوف على مظاهر الحضارة ومعايير الأخلاق من خلال نصوص القرآن الكريم وهدايته وإعجازه"³. وهذا التعريف كما هو واضح جاء باعتبار الهدف المتوخى من هذا الاتجاه.

ومن خلال التعاريف السابقة، نجد أن الاتجاه الاجتماعي في تفسير القرآن الكريم إنما كان غرضه ومقصده الحرص على مداواة أمراض المجتمعات الإسلامية المعاصرة، موجهاً لها نحو التمسك بالشرعية وإقامة حكم الله فيها، مبيناً محاسن الدين ومعائب الجاهلية وأخلاقها ونظمها، ويمتاز هذا الاتجاه من التفسير بمحاولة التوفيق بين القضايا الإسلامية وقضايا العلوم الإنسانية والاجتماعية المعاصرة، كما يمتاز بالأسلوب الأدبي المبسط الذي يفهمه كل قارئ لأن هذا التفسير موجه أساساً لعموم المسلمين على اختلاف مستوياتهم. فمن جهة يجب تطبيق الأفكار القرآنية على المتغيرات الاجتماعية ومستجدات العصر الحديث ومتطلباتها، ومن جهة أخرى يجب طرح حلول واضحة بهدف إيصال المجتمع الإسلامي إلى أعلى القمم والسعادة والفلاح.

ثانياً: تعريفات العلماء الجزائريين للاتجاه الاجتماعي: وهي لم تختلف عن التعاريف السابقة وذلك واضح من خلال تطبيقاتهم له في تفاسيرهم، مع أنني لم أقف على تعريف صريح عندهم من خلال

¹ تعريف الدارسين بمنهاج المفسرين، صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم، دمشق، سنة: 1429هـ/2008م، (ص568).

² مقال بعنوان: الاتجاه الاجتماعي في التفسير ودوره في تأصيل العلوم الاجتماعية، الدكتور: مولاي عمر بن حماد، مقال منشور في ملتقى أهل التفسير. بتاريخ: 2008/02/23، الرابط: <https://tafsir.net/article/5237/al-atjah-al-ajtma-y>

.y-fy-at-tfsyr-wdwrh-fy-t-asyl-al-lwm-al-ajtma-yh

³ الاتجاه الاجتماعي في التفسير في العصر الحديث، عمر عبد العزيز بوريني، (ص:12).

مؤلفاتهم المعروفة من الناحية النظرية لأنهم اشتغلوا بالجانب التطبيقي الدعوي مباشرة، ولكني وجدت إشارات تدل على وضوح معناه عندهم، وذلك من خلال بيان أهدافهم لتفسير كتاب الله تعالى وغرضهم منه، وهو يتقاطع مع التعاريف التي سبق ذكرها للاتجاه الاجتماعي، ومن ذلك:

1- ما قاله الشيخ البشير الإبراهيمي: في كلامه عن خصائص تفسير ابن باديس حيث قال: "وله في القرآن رأي بني عليه كل أعماله في العلم والإصلاح والتربية والتعليم: وهو أنه لا فلاح للمسلمين إلا بالرجوع إلى هديه والاستقامة على طريقته؛ وهو رأي الهداة المصلحين من قبله"¹.

2- كلام الشيخ أبي بكر الجزائري عن تفسيره: حيث قال في مقدمته: "فهذا تفسير موجز لكتاب الله تعالى القرآن الكريم، وضعته مراعيًا فيه حاجة المسلمين اليوم إلى فهم كلام الله تعالى الذي هو مصدر شريعتهم، وسبيل هدايتهم وهو عصمتهم من الأهواء وشفائهم من الأدواء، قال تعالى ﴿وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ الإسراء: ٨٢، وقال تعالى ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ آل عمران: ١٠٣، وقال تعالى ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ المائدة: ١٥-١٦. ومراعيًا فيه أيضاً رغبة المسلمين اليوم في دراسة كتاب الله وفهمه والعمل به"².

فيظهر من خلال هذه النصوص أن المفسرين الجزائريين اتجهوا مباشرة إلى تحقيق هدفهم من الاتجاه الاجتماعي في التفسير ولم يعتنوا بالتطوير في المقدمات.

ثالثاً: تعريف الباحثة: بعد التعريفات السابقة للاتجاه الاجتماعي في التفسير عند الجزائريين وغيرهم، سأحاول صياغة تعريف لهذا الاتجاه، فأقول: "هو أن يقوم المفسر في تفسيره للقرآن الكريم، ببيان سنن الله تعالى في إحياء الأمم والمجتمعات وإهلاكها، مع استنباط هدايات القرآن الكريم وتوظيفها في الواقع بأسلوب يسير يكشف فيه المفسر عن إعجاز القرآن ومقاصده العظيمة". وفيما يلي شرح لهذا التعريف الذي يتضمن أبرز المعالم التي يقوم عليها هذا الاتجاه، وطريقة توظيف المفسر لها وغرضه منه:

- فعبارة (هو أن يقوم المفسر في تفسيره للقرآن الكريم، ببيان سنن الله تعالى في إحياء الأمم والمجتمعات وإهلاكها) تتضمن معلماً: الخصائص والنظم التي تقوم عليها الأمم والمجتمعات وفق ما ذكره القرآن.

- وعبارة (استنباط هدايات القرآن الكريم وتوظيفها في الواقع) تشير إلى ثلاثة معالم هي:

¹ آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، ط: 1، سنة: 1997م، (2/252).

² أيسر التفاسير لكلام علي الكبير، أبو بكر الجزائري، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ط: 5، سنة: 1424هـ/2003م، (4/1).

*معلم "شمول القرآن" فهو كتاب يخاطب جميع الناس في كلّ زمان ومكان.

* معلم "تنزيل الآيات على الواقع" ويعد من أبرز المعالم، إذ ينطلق المفسر من القرآن لينزل آياته على علل أحوال المجتمعات المسلمة وغيرها، فيشخص عللها ثم يصف العلاج المناسب لها من هدي القرآن.

*معلم "الوعظ والإرشاد" وذلك من خلال التوجيهات الربانية التي يستنبطها المفسر من آيات القرآن.

- وعبرة (بأسلوب يسير) تبين طريقة المفسر التي يجب أن تمتاز بأسلوب سهل وخالٍ من التعقيدات اللفظية، خصوصا وأن كثيرا منها كانت دروسا شفاهية تلقى على المستمعين في المساجد والإذاعات.

- وعبرة (يكشف فيه المفسر عن إعجاز القرآن ومقاصده العظيمة) ويشير لمعلم "إعجاز القرآن" فالمفسر المصلح يقوم ببيان مقاصد سور القرآن وآياته وإعجازه في شتى نواحيه، العلمية والتشريعية... الخ، تترك أثرا في نفس القارئ أن شريعة الله هي السبيل الأمثل لإصلاح المجتمعات -والله اعلم-.

الفرع الثالث: خصائص الاتجاه الاجتماعي في التفسير وبيان أهدافه وأهم موضوعاته:

وبيان هذه النقاط الثلاث باختصار كما يلي:

- أولا: خصائص الاتجاه الاجتماعي في التفسير: اختص هذا الاتجاه عن غيره من اتجاهات التفسير بـ:
- 1- الاهتمام بالوحدة والتناسق الموضوعي في سور القرآن الكريم والنظرة الكلية لآياته، وذلك للردّ على مزاعم المستشرقين الذين يرون أن القرآن خليط غير مؤتلف باعتبار نزوله في أوقات مختلفة.
 - 2 - إبراز مقاصد القرآن من خلال التفسير، لإيضاح المعاني وإبراز الهدايات، وترك ما لا فائدة منه.
 - 3- الاهتمام بتقريب العبارة بالبيان الواضح والبسيط في التفسير ليلائم مستوى الجمهور والكثرة من المسلمين، دون التوسع في المسائل اللغوية وتعداد الروايات... الخ.
 - 4- حسن تقسيم المادة العلمية، فنجد التفسير لا يسرد سردا ، بل يكون بسرد المناسبات ثم الموضوعات ثم المباحث اللغوية وهكذا يتدرج المفسر في البيان ليكون التفسير واضحا مرتبا.
 - 5- محاولة حلّ مشكلات العصر وتنزيل الآيات على الواقع.
 - 6- تفعيل اتجاهات ومناهج جديدة من التفسير، مثل: التفسير الموضوعي الذي يتبع موضوعا في القرآن الكريم ويجمع الآيات له، ومثل التفسير العلمي الذي يعتني بحقائق العلوم الكونية.
 - 7- الاهتمام بالعقل وتقديمه أحيانا على النقل، وتأويل الآيات والروايات المخالفة للحقائق الشرعية والعلمية والعقلية الثابتة؛ مثل ما تفعله مدرسة المنار في مصر، وإنكار كثير من المعجزات إذا بدا أنها تعارض العقل، وهو تابع لموقفهم من أحاديث الآحاد حيث يرون عدم إعمالها في باب العقائد.
- وهذه الخاصية تختصّ بالمدرسة العقلية الاجتماعية، وهذا من سلبياتها -كما سيأتي-.

- 8- عدم الاهتمام بالاتجاهات الفلسفية والمذهبية والأدبية والفقهية، والسعي إلى استخراج العقائد.
- 9- تمتّع أصحابه بالروح الاجتماعية، فينظرون إلى الآيات والأحكام نظرة اجتماعية لا فردية.
- 10- الابتعاد عن التقليد، والسعي إلى تطبيق السنن الاجتماعية في القرآن على حاجات العصر بأسلوب يفهمه الجميع¹.

ثانيا: أهداف الاتجاه الاجتماعي في التفسير: تعددت أهداف هذا الاتجاه، وأهمها هي:

- 1- خدمة علم تفسير القرآن الكريم، وتقريبه من طالبيه الذين لا يستطيعون فهمه بحكم مؤهلاتهم في التعامل مع مصنفات القدامى، فالغرض من علم التفسير ليس تثقيف المسلم بعلوم الحديث واللغة والبلاغة والفقه المقارن وقصص السابقين، بل الغرض تفهيم معاني القرآن الكريم.
- 2 - تحويل الآيات إلى واقع عملي بالنسبة لعامة الناس لتحسّن حياتهم وظروف معيشتهم.
- 3 - الاستفادة من التفسير في إحداث تغيير اجتماعي ينطلق من هدي القرآن وينعكس أثره على حياة الفرد والجماعة والأمة، من خلال الاهتمام بالإصلاح الاجتماعي وربطه بهدي كتاب الله تعالى، اعتبارا لكون القرآن كتاب عقيدة وشرعية، فقد تضمن هديه نظاما للحياة الإنسانية من بدايتها إلى نهايتها، وكانت مهمة مفسريه في كلّ عصر بيان هذا الهدي القرآني بأسلوب الذي يفهمه الناس².

ثالثا: أهم موضوعات الاتجاه الاجتماعي في التفسير: وهي كالاتي:

- 1- الآيات التي تتناول المسائل الاجتماعية، والعلاقات الاجتماعية بين المسلمين.
- 2- الاهتمام بمشاكل المسلمين في العصر الحاضر، وتطبيق آيات القرآن على الحياة المعاصرة، واستخراج علاج المشاكل الاجتماعية من القرآن.
- 3- القضايا المتعلقة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
- 4- الآيات التي تتناول التعاليم التربوية والأخلاقية والإرشادية و التربية والتعليم.
- 5- المسائل المتعلقة بالتعاون والتكافل الاجتماعي.
- 6- الاهتمام بمشكلات السياسة والحكم وإدارة المجتمع والجهاد.
- 7- العلاقات الاجتماعية مع الشعوب الأخرى.

¹ مناهج التفسير واتجاهاته -دراسة مقارنة في مناهج تفسير القرآن الكريم-، د: محمد علي الرضائي الأصفهاني، تعريب: قاسم البيضاوي، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، سلسلة الدراسات القرآنية، مكتبة مؤمن قريش، بيروت، (ص: 381-382).

² اتجاهات التفسير في العصر الحديث، خالد مهدي، جامعة يوسف بن خدة الجزائر، مطبوعة بيداغوجية، كلية العلوم الإسلامية، قسم العقائد والأديان، سنة: 2020-2021م، (ص: 69).

- 8- المسائل الصحيّة والبيئيّة والاقتصادية.
 - 9- العلوم الطبيعية والإنسانية.
 - 10- إيصال تعاليم القرآن إلى أكبر قدر من الناس.
 - 11- الاهتمام برد الشبهات والإشكالات التي تُثار حول القرآن والإسلام، وتقديم أجوبة لها.
 - 12- القضايا المتعلقة بالمرأة والشبهات التي أثّرت حولها.
 - 13- إظهار السنن الكونية والشرعية التي بينها القرآن الكريم في آياته وتطبيقها على الحالة المعاصرة¹.
- المطلب الثاني: نشأة الاتجاه الاجتماعي وأسباب ظهوره في العالم الإسلامي عموماً والجزائر المحروسة خصوصاً.**

وستعرف في هذا المطلب على نشأة هذا الاتجاه التفسيري المهم، والأسباب التي أسهمت في نشره؛ وذلك في العالم الإسلامي عموماً، ثم في الجزائر خصوصاً لأن هذه الأطروحة مختصة بها، وقد أدرجت كلّ واحدة من المسألتين تحت فرع؛ تفصيلهما كما يلي:

الفرع الأول: نشأة الاتجاه الاجتماعي في التفسير وأسباب ظهوره في العالم الإسلامي عموماً:

لاشك أننا لا نعني بنشأة الاتجاه الاجتماعي في التفسير ظهوره إلى الوجود؛ لأن ذلك إنما بدأ مع ظهور تفسير القرآن الكريم في القرون الأولى، حيث كان المفسر ينزل الآية على الوقائع والأحداث التي كانت في زمانه ليتخذ القرآن منهج حياة، فليس هذا هو المعنى المقصود هنا من "النشأة"، وإنما نقصد ببحثنا عن نشأة الاتجاه الاجتماعي في التفسير؛ ظهوره بشكل واضح حيث صار غالباً على غيره من أنواع الاتجاهات التفسيرية الأخرى وشيوع هذا المصطلح حتى صار متعارفاً عليه في أوساط الدراسات الأكاديمية والبحوث العلمية، وهذا إنما وجد في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين لما ضعفت الأمة الإسلامية وتداعت عليها الأمم وأصابها الهوان والتخلف في جميع المجالات؛ فقام في الأمة رجال أرادوا إحياء ضميرها وإيقاظها من غفلتها لعلها تسترجع أمجادها وهيبتها، واتخذوا من القرآن الكريم وسيلة لتحقيق هذا الغرض لما له من قبول عند الناس باختلاف ثقافتهم ومستوياتهم، فكان هؤلاء العلماء يشحّصون الداء ويبحثون له عن دواء في آيات القرآن الكريم، فظهر هذا الاتجاه التفسيري بوضوح عند المفسرين المتأخرين.

¹ مناهج التفسير واتجاهاته - دراسة مقارنة في مناهج تفسير القرآن الكريم -، د: محمد علي الرضائي الأصفهاني، (ص: 383-384)، والاتجاه الاجتماعي في التفسير في العصر الحديث، عمر عبد العزيز بوريني، (ص: 23).

وعودا على بدء يمكن القول إن الأمم تداعت على الأمة الإسلامية كما تتداعى الأكلة على قصعتها؛ فأكلوا منها وشربوا ثم راحوا يفتسمون البلاد ويستخرجون ثرواتها ضمن ما يعرف "بالاستعمار الحديث"؛ حتى أمست البلاد الإسلامية كافة تحت سيطرة البلاد الأوربية التي استغلت خيراتها وثرواتها وأقصت أصحاب الثقافة الدينية وأصحاب القلوب مطمئنة عن ميادين الإصلاح الاجتماعي، وحصرت وظائفهم في المساجد التي قلَّ روادها عمومًا، وسلّمت المضطربين الفزعين الوظائف الحكومية وأدوات التوجيه الاجتماعي؛ فكانوا لا يُسيّرونها إلا بوحى وتوجيه منه، فكان للاستعمار السيطرة على أجهزة التعليم في كثير من البلاد الإسلامية، فضلاً عن جهوده الدائبة لنشر التغريب واللا دينية بكلّ الوسائل الممكنة، وأوهموها الناس أنّ حالة العالم الإسلامي تمامًا كحالة أوربا في العصور الوسطى، وأنه لن ينهض إلا بما نهضت به أوربا من فصل السلطة الدينية عن السلطة المدنية ومن ... ومن ... وبذلك يتحقق له ما تحقق للأوربيين .

ونستطيع أن نلخص واقع العالم الإسلامي في القرون الأخيرة التي زامنت وتسببت في ظهور الاتجاه الاجتماعي في التفسير وهما: القرن الثاني عشر و الثالث عشر والرابع عشر بما يأتي:

- 1 - كانت العادات و التقاليد القومية و المحلية لها قدسية في نفوس الجماهير .
 - 2 - كانت البدع و الخرافات وبعض الطقوس الدخيلة تلبس ثوب الدين و تُخفي وراءه حقيقتها، وتحجب بمساوئها عظمة الإسلام وعدالته ورفعته.
 - 3 - كان للعامة و الغوغاء سلطان كبير، فلا يجرؤ العلماء على مخالفتهم.
 - 4 - أكثر علماء المسلمين يقفون من الحضارة الغربية موقفًا سلبيًا فلا يأخذون من علومها شيئًا.
 - 5 - تقاسمت دول أوروبا العالم الإسلامي، وأعدت مخططات ومحاولات لإبعاد المسلمين عن دينهم¹.
- حيال هذه الأوضاع اختلفت مواقف المنتسبين للأمة؛ ودهش علماء المسلمين دهشة وأيّ دهشة، وأئى يسمع لهم صوت وسط هذا الضجيج! وأئى يسمع لهم صوت وأفواههم مكّمة ! ونادوا بقدر ما يستطيعون، وذهبوا يردّون على تلك الأفكار والمذاهب بأساليب وطرق شتى، وحاولت فئة منهم التقريب والتوفيق بين العلم والدين، وبيّنت للناس أن الدين الإسلامي الحق لا يحارب العلم الصحيح، ولا ينافي العقل الصحيح، وبيّنت للناس أن الإسلام دين العقل والحرية والفكر، وذهبت تبين لهم ذلك المنهج، وتقيم الدين الإسلامي على العقل -الذي لا يقر أرباب الثقافة الغربية غيره حكما- وبيّنت أن ليس في

¹ لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير، محمد الصباغ، المكتب الإسلامي، بيروت، ط: 3، سنة: 1990م، (14/2).

الإسلام ما لا يقره العقل، وحاولت أن تفسر القرآن الكريم على هذا المنهج وهذا الأساس؛ فكانت بحق المدرسة العقلية الاجتماعية، وهي التي سميت حركتهم هذه بالنهضة الإصلاحية، وكانت لها جوانب إصلاحية محمودة وأخرى غير ذلك، كما كان لهذه المدرسة رجال، وكان لها مفسرون لهم نشاط واسع في نشر هذه الثقافة ومكافحة الاستعمار، ومقاومة الهجوم على الدين عامة والدين الإسلامي خاصة، وإلقاء تبعة التخلف الحضاري عليه¹.

وأوائل الشخصيات التي باشرت هذا الاتجاه: جمال الدين الأفغاني ت: 1315هـ في مصر، وتلميذه: محمد عبده ت: 1323هـ وتلاميذهم من بعدهم، ثم استمر انتشار هذا الاتجاه في أقطار العالم الإسلامي فبرز فيه جمال الدين القاسمي ت: 1332هـ في "محاسن التأويل" في سوريا، وابن باديس ت: 1940هـ في "مجالس التذكير" بالجزائر، وابن عاشور ت: 1973هـ في تونس، حتى صار أكثر الاتجاهات التفسيرية شيوعاً في العالم الإسلامي، ومنطلق أولئك جميعاً أنّ القرآن يواكب الحياة والعصرنة، وفيه حلول للمشاكل التي تواجه الإنسان في الحاضر والمستقبل؛ وقد تبلور هذا الاتجاه بشكل سريع حتى ظهرت التفاسير الكثيرة التي تتناول تفسير القرآن من خلال مقاربات اجتماعية معاصرة تنطلق من الواقع المعيش إلى القرآن، بهدف الاستمداد منه في حلّ معضلات الواقع الاجتماعي السياسي والعسكري والاقتصادي والتربوي... الخ، وترشيد سير المجتمع الإنساني ووجهته.

حينئذ وفي ظل تلك المستجدات والمعطيات ظهر اتجاه تفسيري واضح وبارز اصطلاح عليه بـ "الاتجاه الاجتماعي في التفسير" وذلك مواكبة لتصنيف الدراسات القرآنية وإطلاق اصطلاحات خاصة على كل مجال منها، وقد عني هذا الاتجاه بالتركيز على إصلاح المجتمع على أساس القرآن، ومعالجة أمراضه ومشكلاته المختلفة، وتقديم السنن الاجتماعية الكفيلة برفقي المجتمعات وتقدمها والنهضة بالمجتمع، انطلاقاً من كون القرآن الكريم منهج حياة متكامل؛ إذ عمد من سلك هذا الاتجاه إلى إسقاط النصوص على الواقع المعيش، وعرضوا أزمت العصر على كتاب الله ليهتدوا بنوره إلى استنباط الحلول المناسبة، فكانوا كثيراً ما يستطردون في مواضيع متنوعة تتعلق بأحداث مجتمعاتهم وعصرهم التي يريدون الحديث عنها، ومنها معالجة الانحرافات الاجتماعية، ومحاربة كثير من الآفات التي غرسها المستعمر في نفوس الشباب... الخ².

¹ اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، د: فهد الرومي، (716/2).

² مناهج التفسير واتجاهاته - دراسة مقارنة في مناهج تفسير القرآن الكريم -، محمد علي الرضائي، (ص: 282-381).

وقد سلك هؤلاء المصلحون سبلا شتى في طريق الإصلاح؛ فمنهم من ركز على الخطاب العقدي مثل: محمد بن عبد الوهاب ت: 1791م، ومنهم من ركز على الخطاب الجهادي مثل: الأمير عبد القادر ت: 1884م، ومنهم من ركز على الخطاب السياسي مثل: جمال الدين الأفغاني، ومنهم من ركز على الخطاب التربوي التعليمي مثل: الشيخ محمد عبده و الشيخ عبد الحميد ابن باديس، و منهم من ركز على الخطاب العلمي مثل: طنطاوي جوهرى ت: 1939م، ومنهم من ركز على الخطاب الحركي الدعوي: مثل سيّد قطب ت: 1966م¹.

ومما سبق يمكننا تحديد الأسباب التي أدت إلى ظهور هذا الاتجاه التفسيري وهي باختصار:

- 1- الهجمة الشرسة من أعداء الإسلام على الأمة الإسلامية، والتي كانت تستهدف النيل من عقيدتها ومبادئها وقيمها وأخلاها وحضارتها.
- 2- التّردّي الاجتماعي والتربوي والعلمي الذي كان يسود العالم الإسلامي من آثار الاستعمار.
- 3- ظهور دعاوي تحرير المرأة ومحاولة تشويه صورة تعاليم الإسلام ونظرته للمرأة بالخصوص .
- 4- ظهور بوادر النهضة الغربية وتخلّف العالم العربي والإسلامي على جميع المستويات، ممّا استدعى نهضة حقيقة لإيقاظ الضمائر من خلال أثر التفسير في النفوس.
- 5- ضعف الحركة العلمية وكذلك الوازع الديني.
- 6- الانبهار بالحضارة الغربية على المستويين الثقافي والاجتماعي وكذلك العلمي.
- 7- الرغبة في النقلة النوعية السريعة لواقع المجتمعات وذلك من خلال درس التفسير².

الفرع الثاني: نشأة الاتجاه الاجتماعي في التفسير في الجزائر المحروسة خصوصا:

يمكن القول بأن الأسباب التي ذكرت سابقا وكانت سببا لظهور الاتجاه الاجتماعي في التفسير، تتقاطع كثيرا مع أسباب ظهوره في الجزائر إضافة إلى الحالة الخاصة التي كانت تعيشها الجزائر وما كانت تعانيه من ويلات الاستعمار الفرنسي الذي ما إن وطئت أقدامه أرض الجزائر إلا وهو يستعمل الأسلوب القمعي على جميع المستويات لمدة 130 سنة؛ سواء عسكريا: بالقمع والقتل والتشريد، أو فكريا وأخلاقيا: حيث كان يشجع على الانحراف الخلقي والديني والعقدي مسخرا كل إمكانياته المادية والمعنوية وأساليبه لتحقيق أهدافه، فعمل على القضاء على معظم مراكز الثقافة العربية واللغة العربية التي

¹ اتجاهات التفسير في العصر الحديث، د: خالد مهدي، (ص:5).

² الاتجاه الاجتماعي في التفسير في العصر الحديث، عمر عبد العزيز بوريني، (ص:12).

تتمثل في المدارس والجوامع والزوايا التي كانت قائمة في البلد قبل الاحتلال، فحوّل بعضها إلى معاهد للثقافة الفرنسية وسلم بعضها إلى الهيئات التبشيرية المسيحية لنشاطها في هدم عقيدة الجزائريين فكانت تُمارس فيها الطقوس المسيحية، وهُدِّمَ البعض الآخر بدعوى إعادة تخطيط المدن الجزائرية، كما نُهَبَ الاحتلال التراث الثقافي العربي الإسلامي الذي عثر عليه في المكتبات الجزائرية مثل المخطوطات والوثائق والكتب، فكان الاحتلال ينهش لحم الأمة بالسلب والنهب بكل المعاني التي يحملها اللفظان . أما من الناحية الاقتصادية: فقد عاش المجتمع الجزائري أسوأ مظاهر الفقر والحرمان، إبان الاحتلال الفرنسي لا سيما في سنوات الثلاثينيات حيث أصبح المستوطنون يسيطرون على معظم الأراضي وجميع وسائل الإنتاج¹.

ونتيجةً لذلك ساءت أوضاع الجزائريين على جميع المستويات المعيشية والدينية والثقافية؛ حيث عانى الجزائريون الفقر وانتشرت بينهم البدع و الشكوك والخرافات والأمية والجهل... الخ. ومع انقضاء العقد الأول من القرن العشرين بدا لسلطات الاحتلال أن الشعب الجزائري قد استسلم ورضي بالواقع المفروض عليه، ولكن الواقع غير ذلك حيث ظهرت في الأفق عوامل أسهمت في تفتّح عقول الجزائريين وإدراكهم لما يدور حولهم من خطر. ويمكن تقسيم تلك العوامل والظروف التي أسهمت في ظهور الاتجاه الاجتماعي في التفسير إلى قسمين: عوامل خارجية وعوامل داخلية، وبيانها:

أولاً: العوامل الخارجية: فهي حركة الفكر المتطورة التي برزت في شتى أنحاء العالم أثناء الحرب العالمية الأولى، إذ كان لها الدور الكبير في ظهور الخطاب الإصلاحي، والتي نتجت عنها اليقظة العامة التي دبّت في أرجاء العالم الإسلامي والعربي، ومن بينها الجزائر التي تطلّعت أهلها إلى الإصلاح الشامل الذي ينهض بهم دينياً واجتماعياً وثقافياً وسياسياً من الوضعية السيئة التي كانوا عليها قبل بداية الحرب، ومن ثم فقد انجذب بعض علماء الجزائر إلى هذا الاتجاه الجديد، وحاولوا تطبيقه من أجل إصلاح المجتمع الذي عرف انحطاطاً خلقياً وجفافاً ثقافياً، وأبرز المدارس الإصلاحية التي تأثّر بها العلماء الجزائريون: مدرسة "محمد عبده" زعيم الحركة الإصلاحية في الشرق الأدنى والذي كان له تأثير إيجابي واضح على أفكار المثقفين الجزائريين أكثر من غيره من المصلحين المعاصرين، على أن الفضل بعده قد أحرز رشيد رضا، خاصة سنة: 1903م والتي شهدت زيارة الشيخ محمد عبده التاريخية إلى الجزائر، وكان لها الأثر

¹ الخطاب الإصلاحي عند بعض رجالات العلماء المسلمين الجزائريين - خلال الفترة 1930-1945م ، سليم مزهود، مجلة التميز

الفكري للعلوم الاجتماعية والإنسانية، العدد السادس جويلية 2021، (ص:12-14)، الرابط:

<https://search.mandumah.com/Record/1253401>

البالغ في نفوس الجزائريين الذين كانوا في حاجة ماسّة إلى فكرة رشيدة ترشدهم إلى طريق الحق؛ طريق الإصلاح، حتى إن الشيخ رشيد رضا قال -وهو يؤرخ لزيارة الإمام محمد عبده-: "وقد وجد له في تونس والجزائر حزبا دينيا ينتمي إليه من حيث لم يكن يعلم". كما أن أفكار الشيخ محمد عبده كانت تُصدّر للجزائريين عن طريق مجلة "المنار" وكانت تدعوا إلى نشر العقيدة ومحاربة البدع وتعليم العلم، ودعى المسلمين للرجوع إلى بساطة الإسلام الأولى، والأخذ من منبعي الدين الذين مازالا على حيويتهما وهما: القرآن والسنة، وعمل على التوفيق بين الدين والعلم الحديث، فبيّن أن الحقائق التي جاء بها العلم الحديث لا تتناقض مع القرآن¹.

وقد أثمرت تلك الكلمات في أبناء الجزائر الذين تأثروا بدعوة محمد عبده فجعلوا القرآن الكريم مصدرهم الأول في الإصلاح وكان لذلك الأثر الإيجابي عليهم، ولندع البشير الإبراهيمي يصف لنا ذلك ويلخصه فيقول: "إن العالم في عذاب وعندكم كنز الرحمة؛ وإن العالم في احتراب وعندكم منبع السلم، وإن العالم في غمة من الشك وعندكم مشرق اليقين. فهل يجمل بكم أن تُعطّلوه فلا تنفعوا به ولا تنفعوا؟... إن دينكم دين إصلاح وسبب إصلاح ومظهر إصلاح وكما أوجب عليكم الإصلاح بين المؤمنين مدح الإصلاح بين الناس. أحيوا قرآنكم تحيوا به، حققوه يتحقق وجودكم به، أفيضوا من أسرارهِ على سرائركم ومن آدابه على نفوسكم ومن حكمه على عقولكم تكونوا به أطباء ويكون بكم دواء. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ النحل: ٩٠. هذه الآية هي دستور الإسلام العام وهذه الآية هي التي نواجه بها كل من رمانا بالتعصب أو بالظلم أو بالأنانية أو بالقسوة، وصدى هذه الآية هو الذي سمعه الناس مُردّداً في الجامع الأخضر خمساً وعشرين سنة آخرها أمس"².

وكان للمشرق فضل على الصحوة في الجزائر من خلال عودة علماء الجزائر من أرض الحجاز، فكان لهم الدور الكبير في ظهور الفكر الإصلاحية، والذين من بينهم: مفتي مدينة قسنطينة الشيخ المولود بن الموهوب تلميذ عبد القادر المجاوي والشيخ مبارك الميلي، وأبو يعلى الزواوي، والشيخ عبد المجيد بن بريد حم بستانجي... الخ .

¹ الخطاب الإصلاحية عند بعض رجالات جمعية العلماء المسلمين خلال الفترة 1930-1945، سليم مزهود، (ص14-15).

² آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، (365/1).

كما كان لجامع الزيتونة وجامع الأزهر فضل كبير على الحركة الفكرية في الجزائر، حيث كان شعاعه ينير الجزائر من خلال المتخرجين منه الذين كانوا مصابيح تُنير في مواطنهم وتنتشر الفكر الإصلاحي وتبث فيه روح التحرر¹.

ثانيا: العوامل الداخلية: وأهمها: حركة أبناء هذا البلد المبارك في تحرير العقول وربطها بالقرآن الكريم؛ ومن تلك المحاولات: ما قام به الأمير عبد القادر في ميدان النهضة إذ هو أول من أثار الضمير الجزائري وبذر بذورا بقيت تنمو في القلوب وتمتد جذورها في أرض الجزائر. وكذلك محاولات الشيخ عبد القادر المجاوي ت: 1914م الذي حارب البدع والخرافات وعلم العلم وتخرج على يديه عدد من الطلبة منهم: حمدان الونيسي ت: 1920م. كذلك جهود الشيخ: مصطفى بن الخوجة ت: 1915م الذي كانت له اهتمامات إصلاحية معروفة منها: اهتمامه بنهضة المرأة التي اعتبرها مدرسة تستطيع تربية جيل صالح. وكذلك الشيخ: محمد بن يوسف أطفيش ت: 1914م، الذي كان ينشط في منطقة "بني مزاب" وكان مهتما بالتعليم والإصلاح في منطقته، فكان يفسر القرآن الكريم ويربط الناس بتوجيهاته وأحكامه ليصلوا إلى بر الأمان².

وهكذا توالى المصلحون من أبناء هذا البلد الطاهر يسعون إلى إصلاح أحوال الأمة وإرجاعها إلى هدي المنبع الصافي حتى ظهرت "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين" سنة: 1931م، والتي شرع أقطابها الذين انتشروا في ربوع الجزائر في الدعوة الإصلاحية في جميع النواحي فبرز منهم عدة أقطاب في مختلف الأقطار، فمنهم: الشيخ عبد الحميد بن باديس الذي برز في الشرق - خاصة قسنطينة-، والشيخ البشير الإبراهيمي في الغرب - تلمسان-، والطيب العقبي في الوسط - نادي الترقى بالعاصمة-، والشيخ بيوض بالجنوب - غرداية- ... الخ، وهكذا توزعت الجهود واشتغل الجميع بالدعوة والإصلاح عن طريق دروس الوعظ والإرشاد وكان تفسير القرآن الكريم رسالتهم إلى المجتمع، فاشتغلوا بتفسيره وأخذوا يعرضون نُظُم مجتمعاتهم على مفاهيم القرآن الكريم وتعاليمه لعلاج أمراضها من خلال فهم آياته وإسقاطها على الواقع المعيش، فالقرآن بالنسبة لهم كان دستور حياة ونظام مجتمع، ولذلك كان عليهم أن يُبَسِّطُوا في اللغة التي يشرحونه بها، وأن يتحدثوا عن الموضوعات التي تَمَسُّ الجمهور بجميع أطيافه من العمال والفلاحين والمتقنين والكبار والصغار، ولذا غلب على ذلك الجيل التفسير الشفوي لأنه أسرع للفهم

¹ الخطاب الإصلاحي عند بعض رجالات العلماء المسلمين الجزائريين، سليم مزهود، (ص 10-24).

² الاتجاه الاجتماعي في التفسير عند الشيخ عبد الحميد بن باديس من خلال تفسيره "مجالس التذكير"، سعيدي عائشة، رسالة ماجستير بإشراف: أ.د: رمضان يخلف، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، سنة: 2012-2013م، (ص: 72).

والاستيعاب، فكان الشيخ ابن باديس يلقي دروس التفسير بالجامع الأخضر بقسنطينة، والشيخ العربي التبسي يلقي دروس التفسير بالجامع الكبير بتبسة، والشيخ بيوض يلقي دروسه في التفسير بمدينة القارة ... الخ¹.

وهكذا أحيا هؤلاء العلماء دروس التفسير واستنطقوا آيات القرآن الكريم فظهر الاتجاه الاجتماعي في التفسير بوضوح من خلال تلك الدروس والكتابات التي كانت تنشر في المجلات. ثم توالى حركة التفسير بعد ذلك وفق الاتجاه الاجتماعي فظهر عدة مفسرين جزائريين اعتنوا بهذا الاتجاه التفسيري حتى يومنا هذا؛ سيأتي الحديث عنهم في الفصل الثاني المخصص لهم بالتفصيل.

¹ ينظر: الاتجاه الاجتماعي في التفسير عند الشيخ عبد الحميد بن باديس من خلال تفسيره "مجالس التذكير"، سعيد عائشة، (ص: 72-75)، ومقال: الحركة الإصلاحية الجزائرية الحديثة وجهودها في تفسير معاني القرآن الكريم في تفسير إبراهيم بن عمر بيوض نموذجاً، د يحيى بن بهون حاج محمد، ومجلة: "دراسات" جامعة عبد الحميد مهري - قسنطينة 2-: العدد التاسع، ديسمبر 2018، قسم اللغة والأدب العربي، جامعة غرداية، الرابط: <https://asjp.cerist.dz/en/article/76869>، (ص: 58-59).

المبحث الثاني: معالم الاتجاه الاجتماعي في التفسير وأهم رواده.

سبق الحديث عن معنى الاتجاه الاجتماعي وتاريخ نشأته في المبحث الأول، وتكملة للمسائل المهمة المتعلقة بالاتجاه الاجتماعي في التفسير فإنني سأحدث في هذا المبحث عن أهم المعالم التي اعتمد عليها هذا الاتجاه التفسيري في بيان معاني كلام الله وتقريبها للناس، فكانت أحد عشر، ثم أردفها ببيان رواد هذا الاتجاه والذين كانت لهم المساهمة الكبرى في ظهوره ونشره وترسيخ أسسه في أوساط الأمة، وقد كان ذلك في مطلبين هما:

المطلب الأول: معالم الاتجاه الاجتماعي في التفسير.

المطلب الثاني: أهم رواد التفسير الاجتماعي في العصر الحديث. وتفصيلهما كما يلي:

المطلب الأول: معالم الاتجاه الاجتماعي في التفسير:

يقوم التفسير الاجتماعي للقرآن الكريم على معالم يشترك في بعضها مع غيره من الاتجاهات التفسيرية ويختص ببعضها نظرا لطبيعته وما فيه من الخصوصيات، وقد ذكر هذه المعالم عدة علماء وباحثين من خلال استقراء تفاسير المدرسة العقلية الاجتماعية في التفسير وعلى رأسها تفسير المنار؛ ومن أحسن من فصل هذه المعالم الدكتور: فهد الرومي في كتابه "اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر" و"منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير"، وقد أطلق عليها اسم "الأسس" ولذلك سأعتمد عليه في ذكرها مع بعض الإضافات التي وجدتُها عند غيره، ثم أختتمها بتقييم لأسس المدرسة العقلية الاجتماعية، كونها المدرسة الرائدة لهذا الاتجاه. وقد جعلت كل أساس منها تحت فرع كما يلي:

الفرع الأول: أساس الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم:

والوحدة الموضوعية عرّفها د: محمد حجازي بقوله: "البحث عن القضايا الخاصة التي عرض لها القرآن في سوره المختلفة، ليظهر ما فيها من معان خاصة تتعلّق بالموضوع العام الذي نبحنه لتحقيق الهدف وهو: الوحدة الموضوعية"¹. وهو علم عظيم كما وصفه ابن العربي فقال: "ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة المباني علم عظيم"².

¹ ينظر: اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، د: فهد بن عبد الرحمن الرومي، (724-717/2).

² الإتيقان في علوم القرآن، للسيوطي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة: 1394هـ/1974م. (369/3).

ومّا دل على اهتمام أصحاب هذا الاتجاه بالوحدة الموضوعية وجعله من أسس التفسير عندهم ما قاله رائد هذا الاتجاه محمد رشيد رضا: "مَن نظر في ترتيب السور كلها في المصحف يرى أنه قد رُوعي في ترتيبها الطول والتوسط والقصر في الجملة؛ ومن حكمته أن في ذلك عوناً على تلاوته وحفظه، فالناس يبدؤون بقراءته من أوله فيكون الانتقال من السبع الطوال إلى المئين فالمثاني فالمفصل أنفى للملل وأدعى إلى النشاط، ويبدؤون بحفظه من آخره، لأن ذلك أسهل على الأطفال؛ ولكن في كل قسم من الطوال والمئين والمفصل تقديمًا لسور قصيرة على سور أطول منها، ومن حكمة ذلك أنه قد رُوعي التناسب في معاني السور مع التناسب في السور؛ أي: مقدار الطول والقصر"¹.

ومن الأمثلة التي تدل على تطبيق هذا الأساس والاعتماد عليه في التفسير؛ ما جاء عن الشيخ محمد عبده في تفسيره لقوله تعالى ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ البقرة: ١٠٦، حيث تحدث عن الآيات التي وردت فيها لفظة النسخ في القرآن الكريم ليخرج بالمعنى الصحيح فقال: "وإذا وازنا بين سياق آية (ما ننسخ) وآية ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ﴾ النحل: ١٠١، نجد أن الأولى ختمت بقوله تعالى ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ والثانية بقوله ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ النحل: ١٠١، ونحن نعلم شدة العناية في أسلوب القرآن بمراعاة هذه المناسبات، فذكر العلم والتنزيل ودعوى الافتراء في الآية يقتضي أن يراد بالآيات فيها آيات الأحكام. وأما ذكر القدرة والتقدير بها في الآية الأولى فلا يناسب موضوع الأحكام ونسخها، وإنما يناسب هذا ذكر العلم والحكمة، فلو قال: (ألم تعلم أن الله عليم حكيم)، لكان لنا أن نقول: إنه أراد نسخ آيات الأحكام لما اقتضته الحكمة من انتهاء الزمن أو الحال التي كانت فيها تلك الأحكام موافقة للمصلحة"².

من خلال ما سبق تظهر أهمية الوحدة الموضوعية وأنها من أهم أسس هذا الاتجاه تنظيراً وتطبيقاً.

الفرع الثاني: أساس الوحدة الموضوعية في السورة القرآنية:

وهذا الأساس جزء من الذي قبله غير أنه يختص بسورة واحدة، وقد وقع فيه خلاف بين العلماء وممن قال به: الشيخ ولي الدين الملوي الذي قال: "وقد وهم من قال لا يُطلب للآي الكريمة مناسبة؛ لأنها على حسب الوقائع المتفرقة، وفصل الخطاب أنها على حسب الوقائع تنزيلاً وعلى حسب الحكمة ترتيباً

¹ تفسير المنار، محمد رشيد رضا، (240/7).

² المصدر نفسه، (343/1).

وتأصيلاً، فالمصحف على وَفْق ما في اللوح المحفوظ، مرتبةً سورةً كُلُّها وآياته بالتوقيف كما أنزل جملةً إلى بيت العِزَّة، ومن المعجز البين أسلوبه ونظمه الباهر، والذي ينبغي في كل آية أن يبحث أول كل شيء عن كونها مكملّة لما قبلها أو مستقلة، ثم المستقلة ما وجه مناسبتها لما قبلها، ففي ذلك علم جم، وهكذا في السور يُطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سيقّت له¹.

وقد وجد المستشرقون في الخلاف بين المسلمين في القول بالوحدة الموضوعية في السورة منفذاً ظنّوه مدخلاً لشبهاتهم فزعموا أن القرآن خليط غير مؤتلف، ليس في وحدة الموضوع ولا يتبع منهج التأليف العلمي، فلا مناسبة بين محتوياته كأنك تقول: (عسل، خمر، لبن) وهي ألفاظ لا ترابط بينها. ولذا قام أصحاب هذا الاتجاه بواجب الردّ عليهم واعتنوا ببيان الوحدة الموضوعية داخل سور القرآن الكريم².

ومن أمثلة تطبيقه عند رواد هذا الاتجاه؛ ما ورد عن الإمام محمد عبده من ردّه لبعض التفاسير التي تخالف الوَحْدَةَ الموضوعية في القرآن الكريم، كما في قوله تعالى ﴿كَلَّمَآ دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ آل عمران: ٣٧، بأنه كان يجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف، فقال: "والله لم يقل ذلك ولا قاله رسوله ﷺ ولا هو مما يُعرف بالرأي ولم يُثبت تاريخ يُعتدُّ به، والروايات عن مفسري السلف متعارضة وفي أسانيدها ما فيها... أما ما سيقّت القصة لأجله وهو الذي يجب أن نبحث فيه ونستخرج العبر من قوادمه وخوافيه، فهو تقرير نبوة النبي ﷺ ودحض شبه أهل الكتاب الذين احتكروا فضل الله، وجعلوه خاصاً بشعب إسرائيل، وشبه المشركين الذين كانوا ينكرون نبوته لأنه بشر، وبيان ذلك أن المقصد الأول من مقاصد الوحي هو تقرير عقيدة الألوهية، وأهم مسائلها: مسألة الوجدانية، وتقرير عقيدة البعث والجزاء، وعقيدة الوحي والأنبياء"³.

الفرع الثالث: أساس تحكيم العقل في التفسير:

لا ينكر صاحب لبّ ما للعقل من قيمة ومكانة كبيرة في الحياة عامة وفي الإسلام خاصة؛ غير أنه نبتت في الإسلام نابتة أعطت العقل أكثر من حقه، وزعمت أنه خلّق ليعرف، وهو قادر على أن يعرف كلّ شيء: وجعلوه الحَكَم الذي يَحْكُم في كلّ شيء، والنور الذي يجلو كل ظلمة، حَكَموه في إيمانهم وفي جميع شئونهم الخاصة والعامة، حتى قال الزمخشري رامزاً للعقل بالسلطان: "امش في دينك تحت راية

¹ الإتيقان في علوم القرآن، السيوطي، (370/3).

² منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير، فهد الرومي، مؤسسة الرسالة، الرياض، سنة: 1983م، (ص: 222-223).

³ تفسير المنار، محمد رشيد رضا، (241/3).

السلطان، ولا تقنع بالرواية عن فلان وفلان، فما الأسد المحتجب في عرينه أعز من الرجل المحتج على قرينه، وما العنز الجرباء تحت الشمال البليل أذلّ من المقلد عند صاحب الدليل"¹.

وفي المدرسة التفسيرية الحديثة ظهرت مجموعة أعطت للعقل أكثر من حجمه فسموا "المدرسة العقلية الحديثة"، وقد ركز هؤلاء على العقل وأكثروا من الاعتماد عليه لنبد الخلاف ومحاربة الخرافة، يقول محمد عبده في بيان أهمية إعمال العقل في العملية التفسيرية: "الأصل الأول للإسلام: النظر العقلي لتحصيل العلم، فأول أساس وُضع عليه الإسلام هو النظر العقلي، والنظر عنده هو وسيلة الإيمان الصحيح، فقد أقامك منه على سبيل الحجة وقاضاك إلى العقل، ومن قاضاك إلى حاكم فقد أذعن إلى سلطته، فكيف يمكنه بعد ذلك أن يجوز أو يثور عليه؟!"

الأصل الثاني للإسلام تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض... - إلى أن قال- وبهذا الأصل الذي قام على الكتاب وصحيح السنة وعمل النبي ﷺ مُهدت بين يدي العقل كلّ سبيل، وأزيلت من سبيله جمع العقبات، واتسع له المجال إلى غير حد"².

ولا شك أن وصف الإسلام بأنه "يذعن لسلطة العقل" تعبير مخالف للصواب ومخالف للحق؛ فالإسلام عقيدة أوسع من أن تدعن لوسيلة، والعقل وسيلة أضيق من أن تحيط بالعقيدة، تلکم صفات الله تعالى، ما حقيقتها؟! وهل يدرك العقل ذلك منها؟! إن زعم ذلك زاعم فقد كذب وافترى على العقل، وإن فوّض أمرها فقد اعتقد ما لا يُدرك العقل فأئى للعقيدة الصحيحة الصادقة أن تدعن لسلطة هي أضعف من إدراكها!³. فهذه هي درجة الحكم العقلي لدى رجال المدرسة العقلية الاجتماعية، طبقوه ودعوا لذلك في تفسير القرآن الكريم.

ومن أمثلة تطبيق هذا الأساس: ما جاء عن الشيخ: رشيد رضا في تفسيره حيث قال: "وذهب الجمهور أيضاً إلى أن معنى {كُونُوا قِرَدَةً} أن صورهم مُسخت فكانوا قردة حقيقيين، والآية ليست نصّاً فيه، ولم يبقَ إلا النقل ولو صح لما كان في الآية عبرة ولا موعظة للعصاة؛ لأنهم يعلمون بالمشاهدة أن الله لا يمسح كل عاص فيخرجه عن نوع الإنسان؛ إذ ليس ذلك من سننه في خلقه؛ وإنما العبرة الكبرى في العلم بأن من سنن الله تعالى في الذين خلوا من قبل أن من يفسق عن أمر ربه، ويتنكب الصراط الذي

¹ أطواق الذهب في المواعظ والخطب- كتاب المقالات-، الزمخشري، مطبعة نخبة الأخبار، سنة: 1304م، (ص: 16).

² الإسلام والنصرانية: محمد عبده، (ص: 72-73). نقلا عن: منهج المدرسة العقلية الحديثة، فهد الرومي، (ص: 286).

³ اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، فهد الرومي، (729/2-730).

شرعه له؛ ينزل عن مرتبة الإنسان، ويلتحق بعجماوات الحيوان، وسنة الله تعالى واحدة، فهو يعامل القرون الحاضرة بمثل ما عامل به القرون الخالية"¹.

تنبيه: بالنسبة لهذا الأساس يمكن القول أنه لم يكن عاما عند من ينتسبون للاتجاه الاجتماعي في التفسير، وبهذه الصفة التي كان يعتمدها أصحاب مدرسة المنار؛ بل كان منهم من يقدم النص الثابت على العقل في كل الأحوال وإن لم يقبله العقل، مثل المنتسبين لهذا الاتجاه من المفسرين الجزائريين: ابن باديس وأبو بكر الجزائري والتواتي، وغيرهم.

الفرع الرابع: أساس إنكار التقليد وذمه والتحذير منه:

وهو متوَلَّد من سابقه، ويراد به ذمّ التقليد في آيات الأحكام، وهذا الأساس هو الذي يحثّ المفسر ويدفعه إلى الاستنباط والربط بين معاني الكتاب والواقع المعيش، يقول الإمام محمد عبده مرسخا لهذا الأساس: "ثم لم ألبث بعد قطعة من الزمن أن سئمت الاستمرار على ما يألّفون، واندفعت إلى طلب شيء مما لا يعرفون؛ فعثرت على ما لم يكونوا يعثرون عليه، وناديت بأحسن ما وجدت ودعوت إليه، وارتفع صوتي بالدعوة إلى أمرين عظيمين؛ الأول: تحرير الفكر من قيد التقليد، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف والرجوع في كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى، واعتباره من ضمن موازين العقل البشري التي وضعها الله؛ لترد من شططه، وتقلل من خلطه وخبطه"².

ومثال تطبيق محمد عبده لهذا الأساس ما ذكره في تفسير قوله تعالى ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ أَشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ آل عمران: ٦٤، حيث قال: "فما جرى عليه المقلّدون من المسلمين من الأخذ بآراء بعض الفقهاء في العبادات والحلال والحرام هو عين ما أنكره كتاب الله تعالى على أهل الكتاب، وجعله منافيا للإسلام، بل جعل مخالفتهم فيه هي عين الإسلام، فليعتبر المعتبرون فإن هذه الآية أساس الدين المتين وأصله الأصيل؛ ولذلك كان النبي ﷺ يدعو بها أهل الكتاب إلى الإسلام كما ثبت في كتبه إلى هرقل والمقوقس وغيرهما"³.

الفرع الخامس: أساس التقليل من شأن التفسير بالمأثور:

أما تفسير القرآن بالقرآن فقد كان مقبولا عندهم، وأما تفسيره بالسنة فقد درج علماء المدرسة العقلية الاجتماعية على التقليل من شأنه في التفسير وذلك لما دخله من الضعيف والموضوع، وقد كان موقفهم

¹ تفسير المنار، محمد رشيد رضا، (285/1).

² تاريخ الأستاذ الإمام: محمد رشيد رضا (11/1). نقلا عن: اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، فهد الرومي، (738/2).

³ تفسير المنار، محمد رشيد رضا، (270/3).

يعتريه التردد في قبول التفسير النبوي أو عدم قبوله بسبب كثرة الأدلة التي تدل على وجوب الأخذ به والتي لم يجدوا مفرًا منها، ولكنهم لم يتحمسوا بالشكل الذي أظهروه في قبول المنهج العقلي¹، يقول الأستاذ رشيد رضا: "فالحق أن كلَّ ما لا يُعلم إلا بالنقل عن المعصوم من أخبار الغيب الماضي أو المستقبل وأمثاله لا يقبل في إثباته إلا الحديث الصحيح المرفوع إلى النبي ﷺ ... وغرضنا من هذا كله أن أكثر ما رُوي في التفسير المأثور أو كثيره حجاب على القرآن، وشاغل لتاليه عن مقاصده العالية المزكية للأنفس المنورة للعقول، فالمفضلون للتفسير المأثور لهم شاغل عن مقاصد القرآن بكثرة الروايات التي لا قيمة لها سندًا ولا موضوعًا"².

وقد طبق الأستاذ رشيد رضا هذا التنظير في بعض المواضع، وذلك مثل تفسيره لقوله تعالى ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ البقرة: ٥٩؛ حيث قال: "ولا ثقة لنا بشيء مما رُوي في هذا التبديل من ألفاظ عبرانية ولا عربية، فكله من الإسرائيليات الوضعية، كما قاله الأستاذ الإمام هنالك، وإن خرج بعضه في الصحيح والسنن موقوفًا ومرفوعًا؛ كحديث أبي هريرة المرفوع في الصحيحين³ وغيرهما: قيل لبني إسرائيل: ﴿وَادْخُلُوا آلَ بَابٍ سَجْدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ البقرة: ٥٨، فدخلوا يزحفون على أستاههم وقالوا: حطة حبة في شعرة"⁴.

ولكن الشيخ رشيد رضا تراجع عن ذلك وخالف أستاذه بعد وفاته وقال: "هذا وإنني لما استقلت بالعمل بعد وفاته خالفت منهجه - رحمه الله تعالى - بالتوسع فيما يتعلق بالآية من السنة الصحيحة، سواء كان تفسيرها لها أو في حكمها"⁵. وهذا كله من الناحية التنظيرية.

أما في الجانب التطبيقي فإن منهجهم لم يكن مستقرًا واضحًا، بل كان مضطربًا، فأحيانا يوردون ما يتعلق بالآية من السنة، وأحيانا يوردون التفسير المأثور دون إشارة إلى الحديث الوارد فيه، وأحيانا يرفضون التفسير بالمأثور وإن صح⁶. ومن ذلك ما نقله رشيد رضا في تفسير قوله تعالى ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ الأنفال: ٦٠، فقال: "وقد روى مسلم في صحيحه عن عقبة بن عامر أنه سمع النبي

¹ منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير، فهد الرومي، (ص: 297).

² تفسير المنار، محمد رشيد رضا، (10/1).

³ رواه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، سورة البقرة، برقم: 4209، ومسلم في صحيحه، كتاب: التفسير، برقم: 5449.

⁴ تفسير المنار، محمد رشيد رضا، (315/9).

⁵ المصدر نفسه، (16/1).

⁶ اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، فهد الرومي، (746/2).

ﷺ وقد تلا هذه الآية على المنبر يقول: «ألا أن القوة الرمي» قالها ثلاثاً¹، وهذا كما قال بعض المفسرين من قبيل حديث: «الحج عرفه»²؛ بمعنى: أن كلاً منهما أعظم الأركان في بابه...³.

تنبيه: هذا ما ورد عموماً بالنسبة لموقف المدرسة العقلية الاجتماعية من تفسير القرآن بالسنة النبوية، أما بالنسبة للمفسرين الجزائريين الذين ينتمون لهذا الاتجاه فإن موقفهم كان الاعتماد على السنة النبوية بشرط صحتها ولا يخالفونها بعقل أو غيره، وسيأتي بيانه في تطبيقاتهم لهذا الأساس.

الفرع السادس: أساس التحذير من التفسير بالإسرائيليات:

مما صار متعارفاً عليه بين الباحثين أن الإسرائيليات على ثلاثة أقسام:

– أحدها: ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق، فهو مقبول.

– الثاني: ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه، فهو مردود.

– الثالث: ما هو مسكوت عنه لا، فلا نؤمن به ولا نكذبه، وتجاوز حكايته⁴.

وأما عن أصحاب الاتجاه العقلي الاجتماعي فقد حذروا وشنوا حملة شعواء على الإسرائيليات لأنها تفتح باب الخرافة وتشغل الناس بما لا ينفع عما ينفع، وعابوا على المفسرين السابقين تداولهم لها، وقد أدى بهم تطرفهم هذا إلى تكذيب بعض الإسرائيليات التي وافقت ما جاء في شريعتنا، وأدى بهم أيضاً إلى تكذيب بعض الأحاديث الصحيحة الثابتة خشية أن يكون الصحابي الذي روى الحديث سمعه من كعب الأحبار، بل أدى بهم أيضاً إلى أن تناولوا بعض الصحابة -رضوان الله عليهم- بالتجريح، وشككوا في إيمان بعض التابعين الذين شهد لهم السلف الصالح بالعدالة وروى لهم البخاري ومسلم، ونسبوا العلماء الذين وثقوهم إلى الغفلة، يقول محمد عبده: "كما ولعوا بحشوها بالقصص والإسرائيليات التي تلقفوها من أفواه اليهود وألصقوها بالقرآن؛ لتكون بياناً له وتفسيراً، وجعلوا ذلك ملحاً بالوحي والحق الذي لا مرية فيه، إنه لا يجوز إلحاق شيء بالوحي غير ما تدل عليه ألفاظه وأسانيه، إلا ما ثبت بالوحي عن المعصوم الذي جاء به ثبوتاً لا يخالطه الريب"⁵.

¹ رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضل الرمي والحث عليه وذم من علمه ثم نسيه، برقم: 5055.

² رواه الترمذي في سننه، كتاب الحج، باب ما جاء فيمن أدرك الإمام بجمع فقد أدرك الحج، برقم: 898.

³ تفسير المنار، محمد رشيد رضا، (53/10).

⁴ مجموع الفتاوى، ابن تيمية، ت: عبد الرحمن بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، السعودية، سنة:

1416هـ-1995م، (366/13).

⁵ تفسير المنار، محمد رشيد رضا، (146/1).

ومع هذا الموقف الصّلب والرفض الحاسم الجازم، فإن أغلب رجال المدرسة العقلية الاجتماعية أباح لنفسه ما حرّم على غيره؛ فقد أوردوا من الإسرائيليات وحتى نصوص التوراة والإنجيل الشيء الكثير؛ يقول الذهبي: "لا يفوتنا أن نُنبّه على أن صاحب المنار كان مع شدة لومه على المفسّرين الذين يزجون بالإسرائيليات في تفاسيرهم ويتخذون منها شروحاً لكتاب الله، يخوض هو أيضاً فيما هو من هذا القبيل ويتخذ منه شروحاً لكتاب الله، وذلك أنه كثيراً ما ينقل عن الكتاب المقدّس أخباراً وآثاراً يُفسّر بها بعض مبهمات القرآن، أو يرد بها على أقوال بعض المفسّرين، وكان الأجدر بهذا المفسّر الذي يشدّد النكير على عشاق الإسرائيليات، أن يكفّ هو أيضاً عن النقل عن كتب أهل الكتاب، خصوصاً وهو يعترف أنه قد تطرّق إليها التحريف والتبديل"¹.

ومثال أخذهم بهذا الأساس ما جاء في تفسير المراغي لقوله تعالى ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ المائدة: ١١٥، حيث قال: "وللعلماء في الطعام الذي نزل في المائدة آراء: فقيل: هو خبز وسمك، وقيل خبز ولحم، وقيل: كان يُنزل عليهم طعاماً أينما ذهبوا كما كان يُنزل المنّ على بني إسرائيل كما رواه ابن جرير عن ابن عباس. وجاء في إنجيل يوحنا: أنه كان يُطعم الألف في عيد الفصح من خمسة أرغفة وسمكتين، أكل منها أول ذلك الجمع كآخره"².

الفرع السابع: أساس القرآن هو المصدر الأول في التشريع:

يقول الأستاذ محمد عبده في بيان هذا الأساس: "إن القاعدة القطعية المعروفة عمن أنزل عليه القرآن ﷺ وعن خلفائه الراشدين -رضي الله عنهم- أنّ القرآن هو الأصل الأول لهذا الدين، وأن حكم الله يُلتَمَس فيه أولاً، فإن وُجد فيه يؤخذ وعليه يعول ولا يحتاج معه إلى مأخذ آخر، وإن لم يوجد التمس من سنة رسول الله ﷺ، على هذا أقرّ النبي ﷺ معاذاً حين أرسله إلى اليمن³، وبهذا كان يتواصى الخلفاء والأئمة من الصحابة والتابعين"⁴.

وبعد تتبع فهد الرومي لتفاسير المنتمين لهذه المدرسة وتطبيقهم لهذا الأساس، قال: "تلك النصوص السالفة قابلة لهذا وذاك، قابلة لمن يجعل القرآن هو المصدر الأول ولا يقبل معه ما يبيّن مجمله ولا

¹ التفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي، (432/2).

² تفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي وأولاده بمصر، ط: 1، سنة: 1946م، (59/7).

³ رواه أبو داود في سننه، أول كتاب الأفضية، باب اجتهاد الرأي في القضاء، برقم: 3592. وقال الألباني: "ضعيف"، ينظر: ضعيف أبي داود، (ص: 354).

⁴ تفسير المنار، محمد رشيد رضا، (98/5).

يختص عمومهم، وقابلة لمن جعل القرآن هو المصدر الأول من غير ردّ لما صحّ من السنة، والذي يظهر أن رجال المدرسة العقلية الاجتماعية كثيراً ما يميلون إلى المراد الأول؛ فينكرون من صحيح السنة ما لا يوافق تفسيرهم لآية في القرآن الكريم، وكأن التفسير الذي مالوا إليه قد قامت أركانه، وصحت قوائمه، وتبوأ منزلة هي أقوى درجة من صحيح السنة، فردوا هذا الأخير لأجل فهمهم الخاطئ¹.

ومن الأمثلة التطبيقية لهذا الأساس ما ذكره الشيخ المراغي في تفسيره لقوله تعالى ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ الأنعام: ١٤٥، حيث اكتفى بالقرآن دون السنة فقال: "وما صح من الأحاديث في النهي عن طعام غير هذه الأنواع الأربعة فهو إما مؤقت وإما للكره فقط، ومن الأول: تحريم الحُمُر الأهلية، فقد روى ابن أبي شيبة والبخاري عن ابن عمر قال: «نهى النبي ﷺ عن لحوم الحُمُر الأهلية يوم خير»²، ومن الثاني ما رواه البخاري ومسلم³ عن أبي ثعلبة الخشني أن رسول الله ﷺ «نهى عن كل ذي ناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطير»⁴.

وأما عن المفسرين الجزائريين فإنهم يجعلون القرآن الكريم أصلاً للتشريع ولكنهم لا يهتمون السنة النبوية في التفسير، يقول ابن باديس في بيان هذا الأساس: "فعلى الأمم التي تريد أن تنال حظها من هذا الوعد، أن تصلح أنفسها الصلاح الذي بينه القرآن، فأما إذا لم يكن لها حظ من ذلك الصلاح فلا حظ لها من هذا الوعد وإن دانت بالإسلام"⁵.

الفرع الثامن: أساس الشمول في القرآن الكريم:

وهذا من أهم الأسس التي دندن حولها رواد هذا الاتجاه، لأن القرآن لا يختص بقوم أو زمان بل هو لجميع العالمين إلا ما دل الدليل على خلافه، يقول محمد عبده تحت عنوان "تنبيه صاعد في تطبيق القرآن على ما هو واقع: إن القرآن هادٍ ومرشد إلى يوم القيامة، وإن معانيه عامة وشاملة، فلا يعد ويؤعد ويعظ ويرشد أشخاصاً مخصوصين؛ وإنما نيظ وعده ووعيده وتبشيره وإنذاره بالعقائد والأخلاق

¹ اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، فهد الرومي، (766/2).

² رواه البخاري في صحيحه، كتاب: المغازي، باب: غزوة خير، برقم: 3980.

³ رواه البخاري في صحيحه، كتاب: الذبائح والصيد، باب: لحوم الحمر الإنسية، برقم: 5214. ومسلم في صحيحه، كتاب: الصيد والذبائح، باب: تحريم أكل كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير، برقم: 5103.

⁴ تفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي، (58/8).

⁵ في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، عبد الحميد بن باديس، حققه وعلق عليه وخرج آياته وأحاديثه: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط: 1، سنة: 1416هـ-1995م، (ص: 350).

والعادات والأعمال التي توجد في الأمم والشعوب"¹، ويقول تلميذه رشيد رضا: "فإن كان مات مَنْ كانوا سبب النزول، فالقرآن حي لا يموت ينطق حُكْمُهُ ويحكم سلطانه على الناس في كلّ زمان"². وهذا الأساس يندرج تحته قاعدة: "العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب" والتي تعني: أنه إذا وقعت حادثة في زمن النبي ﷺ، فأُنزل الله عزّ وجلّ على نبيه آية مبيّنة لتلك الواقعة بلفظ من ألفاظ العموم، فمعنى الآية حينئذ يشمل صاحب تلك الحادثة وغيره مَنْ شابهه فيها، لأنّ القرآن نزل تشريعا عاما لجميع الأمة ولا يختص بالسبب³.

ومثال ذلك ما ذكره الإمام محمد عبده في تفسير لفظي "الأتقى والأشقى" من قوله تعالى ﴿لَا يَصْلَهُهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى﴾ الليل: ١٥ - ١٧، حيث قال: "وبتفسير "الأتقى" و "الأشقى" على النحو الذي سمعته تبطل تلك الإشكالات التي أوردها المفسرون في الحصر، وما أشكل عليهم إلا تقييدهم بالعادة في استعمال ألفاظ: "كذب" و "تولى"، وتحكيمهم عاداتهم واصطلاحاتهم التي وضعوها من عند أنفسهم لأنفسهم في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، ثم إنهم يوردون ههنا أسبابا للنزول، وأن الآيات نزلت في سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه لأنه اشترى من أرقاء المسلمين ضعفاء وأعتقهم من ماله لا يبتغي في ذلك إلا وجه الله، ورؤوا غير ذلك، وقالوا: إن الأشقى هو أمية بن خلف، وقيل غير ذلك، ومتى وجد شيء من ذلك في الصحيح لم يمنعنا من التصديق به مانع؛ ولكن معنى الآيات لا يزال عامّا - كما رأيت - والله أعلم"⁴.

وقد اعتمد هذا الأساس المفسرون الجزائريون مثل رائد هذا الاتجاه الاجتماعي: ابن باديس الذي قال: "فكلّ ما يحتاج إليه العباد لتحصيل السعادت من عقائد الحق، وأخلاق الصدق، وأحكام العدل، ووجوه الإحسان... كلّ هذا فُصِّل في القرآن تفصيلا: كلّ فصل على غاية البيان والأحكام. وهذا دعاء وترغيب للخلق أن يطلبوا ذلك كله من القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم في العلم والعمل، ويأخذوا منه ويهتدوا به؛ فهو الغاية التي ما وراءها غاية في الهدى والبيان"⁵.

¹ تفسير المنار، محمد رشيد رضا، (150/1).

² المصدر نفسه، (129/1).

³ مقال قاعدة (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب) وأثرها في تعميم مقاصد الآيات دراسة نظرية تطبيقية، د: هشام شوقي، مجلة الشهاب، المجلد: 9، عدد: 1، تاريخ: 2023/03/16، رابط: <https://www.asjp.cerist.dz/en/article/217728>

⁴ تفسير جزء عم: محمد عبده، (ص: 106)، بواسطة: منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير، فهد الرومي، (ص: 243).

⁵ في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ابن باديس، (ص: 49).

الفرع التاسع: أساس التحذير من الإطئاب:

ولا يقصد به الإسرائيليات، فهذه سبق بيانها وكون عدم الخوض فيها من أسس هذا الاتجاه، لكن المقصود هو النهي عن الإطئاب في مبهمات القرآن الكريم، ومع هذا فالحديث عن هذا الأساس مرتبط بالحديث عن تحذيرهم من الإسرائيليات، فكلاهما فيه ترك الحديث عن شيء من غير دليل صحيح وسند مقبول، وهذا الأساس واضح لدى رجال هذا الاتجاه؛ فقد رفعوا أصواتهم وكرّروا نداءاتهم ودّعوا إلى تنقية التفاسير مما علق بها من أحاديث وضعها القصاص والوضّاعون في بيان المبهمة في القرآن الكريم؛ ليدّعّموا به معتقداً زائفاً أو دعوة باطلة، أو لغرض دنيوي، أو لطلب مكانة ومنزلة بين العامة؛ فلجئوا إلى ذلك الأسلوب المهجين¹.

وهذا الأساس إنما يقيد بما إذا كان الإطئاب وتفسير المبهمة من غير دليل، أما إذا كان تفسيرها بالسند المتواتر عن الصحابة فهو يدخل في التفسير بالمأثور ولا بد من قبوله، ومن أشهر الأمثلة التي تذكر عن الصحابة في عدم تفسير المبهمات، ما روي عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما سئل عن "الأب" من قوله تعالى ﴿وَفَكَهَةً وَأَبًا﴾ عبس: ٣١، فرجع إلى نفسه ثم قال: "إن هذا هو التكلف يا عمر"².

وقد أعرض محمد عبده عن الخوض فيه عند تفسير "النفس" في قوله تعالى ﴿بَيَّأُهَا النَّاسُ أَتَقُولُوا رَبَّنَا أَلَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ النساء: ١، حيث قال: "نحن لا نحتج على ما وراء مدركات الحس، والعقل إلا بالوحي الذي جاء به نبينا صلّى الله عليه وآله، وإننا نقف عند هذا الوحي لا نزيد، ولا نقص كما قلنا مرات كثيرة، وقد أجمع الله تعالى ههنا أمر النفس التي خلق الناس منها، وجاء بها نكرة فندعها على إبهامها"³.

ومن أمثلة المبهمات ما يسمى بـ"فواتح السور" فإن الإطئاب فيها يشغل عن مقصود القرآن وهو التدبر؛ يقول الشيخ محمود شلتوت في حديثه عن البحث في فهم فواتح السور: "ولعل من الخير للناس أن يوقروا على أنفسهم عناء البحث في معاني هذه الحروف وأسرار ترتيبها واختيارها على هذا النحو، وأن يكفّوا عن الخوض فيما لا سبيل إلى علمه ولم يكلفهم الله به، ولم يربط به شيئاً من أحكامه أو تكاليفه"⁴. وهذا الأساس مما اعتنى به المفسرون الجزائريون الذين كانوا لا يخوضون في مبهمات القرآن بل كانوا يشتغلون بهداياته، مثل ابن باديس وغيره.

¹ اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، فهد الرومي، (772/2).

² تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ت: سامي سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط: 2، سنة: 1420هـ-1999م، (12/1).

³ تفسير المنار، محمد رشيد رضا، (266/4).

⁴ تفسير القرآن الكريم: محمود شلتوت، (ص: 61)، نقلا عن: اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، فهد الرومي، (773/2).

الفرع العاشر: أساس الإصلاح الاجتماعي:

وبلغت منزلة هذا الأساس ودرجته عند أصحاب هذا الاتجاه مكانة كبيرة حتى أضيف اسمه إليه؛ فعرفت بالمدرسة العقلية الاجتماعية، وذلك أن رجال هذا الاتجاه وهم يواجهون أو يعاصرون يقظة العالم الإسلامي الذي انبهرت طائفة منه بمعالم الحضارة الغربية، اتجهوا كغيرهم من المصلحين إلى تلمس السبيل الأمثل لإصلاح المجتمع الإسلامي وَفَّقَ أحكام الشريعة الإسلامية، بحيث تسبق هذه الأمة أمة الغرب أو تلحق بها مع التزامها بمبادئ دينها، وهي مهمة غير ميسرة تحفّ بها العقبات وتحيط بها المتاهات وتزيغ بها الأهواء وتلبس بها السبل، فإن أحاط صاحبها نفسه بنور القرآن الكريم ولم يَحْذَ عن نوره بِمَنَّةٍ أو يَسْرَةَ لم يزل على جادة الحق حتى ينجو وينجي، وإلا هلك وأهلك.

وهذا ما حدث في الأمة الإسلامية التي كانت عزيزة متبوعة لما عملت بنور القرآن وتوجيهه، وصارت ذليلة لما تركته وأهملته، حتى أفاق العالم الإسلامي من نومته واستيقظ من غفلته؛ فإذا به مكبلاً مقيداً يبغي الفِكَاك، حينئذ شَمَرَت طائفة من العلماء عن سواعدها داعية إلى سبيل السلامة وما فيه النجاة، والتفتوا إلى القرآن الكريم يرسلون أنواره في زوايا الظلمات؛ حتى يكشفوا ما فيه هلاكهم فيحذروه، وما في نجاحهم فيسلكوه. فقاموا حسب طاقتهم وجُهدهم بهذه المهمة؛ فخاضوا في شتى القضايا وبسطوا كثيراً من الإصلاحات، واتجهوا إلى تفسير القرآن الكريم يطبقونه على مجتمعاتهم، فإن جاء ذكر عمل محمود أشادوا به ودعوا إلى امتثاله، وإن جاء ذكر عمل مذموم شئوه وحذروا الناس منه؛ فكان هذا هو المدخل للإصلاح الاجتماعي .

وقد تعددت القضايا التي اجتهد أهل هذا الاتجاه في إصلاحها ورَبَطَها بتوجيهات القرآن الكريم، بدءاً من الحكومة الإسلامية والقواعد التي تقوم عليها، ومروراً بالوَحدة الإسلامية والحرية الفردية والحرية السياسية وحرية العقيدة، ثم إصلاح العقائد من الخرافات والأوهام التي ألصقت بها إصافاً، ثم إصلاح التعليم، ثم إصلاح الاقتصاد عامة ونشر الاقتصاد الإسلامي خاصة، ثم قضية المرأة ما لها وما عليها، ما تطلبه وما يطلب منها، ثم قضايا التربية الإسلامية والالتزام بمبادئه التهذيبية كالأمانة والصدق والصبر؛ مما يهذب النفس الإسلامية ويصبغها بمثلّه ومبادئه، ثم قضايا الخمر والزنا والسرقة؛ وبيان آثارها وأضرارها في المجتمع¹. وهذا الأساس نراه ظاهراً عند رواد هذا الاتجاه من المفسرين الجزائريين؛ فكان ابن باديس كثيراً ما يعنون بعنوان يخدم هذا الأساس وهو: "إهداء واقتداء" و "تطبيق" و "تنزيل" و "أدب واقتداء" و

¹ ينظر: منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير، فهد الرومي، (ص: 383-413)، واتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، فهد الرومي، (775/2).

"توجيه وإرشاد"، و"موعظة"... الخ. كذلك الشيخ أبو بكر الجزائري الذي كان يختم المقطع القرآني بعد تفسيره بعنوان يخدم هذا الأساس وهو عنوان "هداية الآيات".

الفرع الحادي عشر: أساس التفسير العلمي للقرآن الكريم¹:

بعد الازدهار والتطور العلمي الذي عرفه العالم في العصر الحديث، أراد أصحاب التفسير الاجتماعي خوض غمار الكلام حول هذا الموضوع لتحرّر عقول المسلمين من الجمود وتسعى في مواكبة هذا التطور، لأن القرآن الكريم تضمّن إشارات في هذا الموضوع فكأنه يحثّ عليه، حينئذ بدءوا يتكلمون عن الظواهر العلمية ويربطونها بالقرآن الكريم محاولين الجمع بين ما ذكره القرآن وما اكتشفه العلم الحديث وهذا لم يكن مطروحا من قبل. يقول حسين الذهبي: "حتى جاء عصر النهضة العلمية الحديثة فاتجهت أنظار العلماء الذين لهم عناية بدراسة التفسير إلى أن يتحرّروا من قيد هذا الركود ويتخلصوا من نطاق هذا الجمود"².

وقد اختلفت وجهات نظر المنتمين لهذا الاتجاه حول التفسير العلمي للقرآن الكريم، فمن مُقرِّ له، إلى مُنكرٍ، إلى مُتوسّط بينهما يقبل ما كان ظاهرا في القرآن وينكر ما كان مُتكلّفا من المفسرين، ولكن الملاحظة العامة أن كثيرا منهم يحذر من سلوك هذا المنهج والتطرف فيه كونه يشغل عن الهداية، ولكن أثناء تفسيرهم للقرآن الكريم نجدهم يُعرجون على هذا الأساس ويربطون القرآن بالعلم الحديث، محاولين بذلك إثبات عظمة القرآن وحثّ الأمة على اتباع منهجه.

ومن المعارضين لهذا المسلك محمد مصطفى المراغي الذي جهر بخطأ أصحابه المولعين به فقال: "وُجد الخلاف بين المسلمين في العقائد والأحكام الفقهية، ووُجد عندهم مرض آخر هو الغرور بالفلسفة وتأويل القرآن ليُرجع إليهم، وتأويله لبعض النظريات العلمية التي لم يقرّ قرارها، وذلك خطر عظيم على الكتاب، فإن للفلاسفة أوهاما لا تزيد على هذيان المصاب بالحمى، والنظريات التي لم تستقر لا يصح أن يُردّ إليها كتاب الله"³.

والمراغي نفسه خالف ما نظّر له في بعض المواضع من تفسيره مثل قوله تعالى ﴿وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ لقمان: ١٠، حيث فصل في التفسير العلمي للآية فقال: "أي: خلق الجبال في الأرض، لئلا تميد الأرض وتضطرب، وليبين هذا يمكن أن نقول باختصار: إن الأرض بعد انفصالها عن الشمس،

¹ وهذا الأساس زائد عن الأسس التي ذكرها د: فهد الرومي عن أسس المدرسة الاجتماعية.

² التفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي، (363/2).

³ الدروس الدينية، محمد مصطفى المراغي. نقلا عن: التفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي، (442/2).

وعكوفها على الدوران حولها على بُعْدٍ منها، وصلت بعض موادها إلى حالة السيولة بعد أن كانت مواد ملتتهبة كالشمس، وتكوّنت عليها قشرة صلبة بعد تتابع انخفاض الحرارة أحاطت بما في جوفها من المواد المنصهرة، ثم تتابعت البرودة على القشرة فتجعدت، وحدث من التجعد نتوءات وأغوار، فالجبال الأولى نتوء القشرة الصلبة التي غلّفت الأرض، وهناك جبال جدّت عن اشتداد الضغط في الرواسب التي في قاع البحر، وجبال نارية جدّت من خروج الحمم النارية من وسط الأرض وتداخلها في الطبقات، حتى صارت كأوتاد مغروزة فيها، والجبال كلّها تتحمل الضغوط الرُسوبية على جدرانها وتوزّعها وتغيّر اتجاهها وتكسر حدّتها، وتساعد بذلك على بقاء الطبقة المفكّكة الصالحة للإنبات، والتي يتغذى بواسطتها الحيوان والإنسان، وتحفظها من أن تمور. فالجبال أولاً حبست النار في جوف الأرض، وصيرت الأرض بعد ذلك صالحة للحياة، والجبال توزع ضغوط الطبقات، ثم بعد ذلك تكسر حدة العواصف والرياح، فهي حافظة للأرض من الميدان الذي يجيء بأسباب من داخل الأرض، والذي يجيء بسبب العواصف والرياح...¹.

ولا شك أن المذهب الوسط هو أن التفسير العلمي مقبول بشروط أهمها:

- 1- ألا تغطي تلك المباحث على المقصود من القرآن وهو الهداية.
- 2- أن تذكر تلك العلوم لأجل تعميق الشعور الديني لدى المسلم والدفاع عن العقيدة ضد أعدائها.
- 3- أن تذكر تلك المباحث على وجه يدفع المسلمين إلى النهضة، ويلفتهم إلى جلال القرآن ويحركهم إلى الانتفاع بقوى هذا الكون الذي سخره الله لنا انتفاعاً يعيد للأمة مجدها².

وهذا هو الذي ذهب إليه رواد هذا الاتجاه في الجزائر؛ فكانوا يأخذون بالتفسير العلمي بمقدار ينفع في الهداية ويوصل إليها، مثل ابن باديس الذي يقول: "ما ذكر من حقائق كونية كانت لذلك العهد عند جميع البشر مجهولة؛ كالزوجية في كلّ شيء، وسبح الكواكب في الفضاء، وسير الشمس إلى مستقر مجهول معين عند الله لها. وغير ذلك من أسرار العمران والاجتماع، وما تصلح عليه حياة الإنسان، ممّا تتوالى على تصديقه تحارب العلماء إلى اليوم وإلى ما بعد اليوم. فكتاب اشتمل على كل هذه الأسرار لا يمكن أن يأتي به مخلوق"³.

¹ الدروس الدينية، محمد مصطفى المراغي. نقلاً عن: التفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي، (444/2).

² مناهل العرفان في علوم القرآن، الزرقاني، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، ط: 3، (102/2).

³ في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، عبد الحميد بن باديس، (ص: 160).

الفرع الثاني عشر: تقويم للمدرسة العقلية في التفسير الاجتماعية كونها رائدة لهذا الاتجاه:

هذه هي المدرسة الاجتماعية الحديثة التي أحدثت في العصر الحديث من الأثر ما لم تُحدثه أيُّ مدرسة أخرى؛ ذلكم أنها توغّلت أبحاثها ومازجت جسد الأمة الإسلامية؛ فلا تكاد تجد عضواً فيه إلا وقد عرضت له، وفيه منها أثر عليه، ونتيجة لذلك كان لها إيجابيات وسلبيات بيّناها كما يلي:

أولاً: الإيجابيات: تعددت إيجابيات هذه المدرسة إلى:

- 1- تعرضها لجميع القضايا التي تهمّ الأمة؛ سواء القضايا العقدية أو المتعلقة بالإمارة والسياسة أو الاقتصادية أو العلمية... الخ وحذرت من التقليد، وجاءت بما هو جديد.
- 2- تناولت قضية المرأة، وهي الوتر الحساس في هذا العصر من جوانب شتى؛ في مكانتها ومنزلتها في المجتمع، وعملها، وسائر ما يتعلق بها.
- 3- الأسلوب الميسر الذي سلكوه في بث أفكارهم؛ بالحديث المباشر في المساجد والمجتمعات والمنتديات والمحاضرات، وفي الصحافة، وفي المؤلفات، وتوجيه كل فئات المجتمع حسب فلكها ومدارها إلى الوجهة الإسلامية الصحيحة.
- 4- الأسلوب الذي نهجوه في صياغة الحديث، فليس بالحديث المتكلف الذي يرقى عن مدارك العامة، ولا الأسلوب الذي يمجّه ويأنفه الخاصة.
- 5- الإصلاح الاجتماعي في شتى نواحيه، بوصف الداء من المجتمع والدواء من القرآن الكريم، وعالجت مشاكل الأمة الإسلامية خاصة، ومشاكل الأمم عامة، بما أرشد إليه القرآن من هداية وتعاليم جمعت بين خيري الدنيا والآخرة.
- 6- تفسير القرآن بالقرآن، والإعراض عن الخوض في المبهمات، والتحذير من الإسرائيليات، والقول بالشمول في القرآن الكريم، وأنه المصدر الأول للتشريع، كلها أسس سليمة في التفسير.
- 7- بسط السيرة النبوية والأخلاق المحمدية بأسلوب ميسر.
- 8- البعد عن التأثير بالمذاهب، فلم يكن منها ما كان من كثير من المفسرين من التأثير بالمذهب إلى الدرجة التي تجعل القرآن تابعاً لمذهبه، فيؤوّل القرآن بما يتفق معه، وإن كان تأويلاً متكلفاً وبعيداً.
- 9- لم تغتر هذه المدرسة بما اغتر به كثير من المفسرين من الأحاديث الضعيفة أو الموضوعية التي كان لها أثر سيء في تفسير القرآن الكريم.
- 10- نجد هذه المدرسة أبعدت التفسير عن التأثير باصطلاحات العلوم والفنون، التي رُجّح بها في التفسير دون حاجة إليها، ولم تتناول من ذلك إلا بمقدار الحاجة، وعلى حسب الضرورة فقط.

11- نهجت بالتفسير منهجا أدبيا اجتماعيا، فكشفت عن بلاغة القرآن وإعجازه، وأوضحت معانيه ومرامييه، وأظهرت ما فيه من سنن الكون ونظم الاجتماع، ووفقت بين القرآن وما أثبتته العلم من نظريات صحيحة، وجلّت للناس أن القرآن كتاب الله الخالد الذي يستطيع أن يُسائر التطور الزمني إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ودفعت ما ورد من شُبّهٍ عنه، وفندت ما أُثير حوله من شكوك وأوهام، بحجج قوية قذفت بها على الباطل فدمغته فإذا هو زاهق... كل هذا بأسلوب شيق جذاب يستهوى القارئ، ويستولى على قلبه، ويُحبّب إليه النظر في كتاب الله، ويُرغّبه في الوقوف على معانيه وأسراره¹.

ثانيا: السلبيات: وأما عن أهم ما انتقد على هذه المدرسة العقلية الاجتماعية من سلبيات فهي:

- 1- ما يحيط بعض رجال هذه المدرسة من غموض وشبهات، وقد اشترط سلفنا الصالح في المفسر أن يكون معروفاً بالصلاح والاستقامة وألا يكون موضع تهمة.
 - 2- أن بعض رجال هذه المدرسة يفتقدون شروطاً هامة في المفسر؛ فبعضهم يجهل السنة، ولا يعرف من الأحاديث إلا القليل؛ وبعضهم لا يعرف من اللغة ما يمكنه من تقرير المعنى الصحيح للآية.
 - 3- بعض رجال المدرسة لم يلتزم الأصول التي يدعو إليها في التفسير؛ فيطلب فيما أُبهم في القرآن، ويروي الإسرائيليات، ويورد من التفسير العلمي ما لم تثبته الحقائق العلمية.
 - 4- من أخطاء رجال المدرسة -أو غالبهم- عدم اعتدادهم بالتفسير بالمأثور.
 - 5- "الحكم العقلي" الذي التزموه أوقعهم في انحرافات كثيرة في الوحي ومعجزات الأنبياء عليهم السلام وغيرها، لأنها أعطت للعقل حرية واسعة، فتأوّلت بعض الحقائق الشرعية التي جاء بها القرآن الكريم، وعدلت بها عن الحقيقة إلى المجاز أو التمثيل، دون مبرّر إلا مجرد الاستبعاد والاستغراب؛ استبعاداً بالنسبة لقدرة البشر القاصرة، واستغراب لا يكون إلا ممن جهل قدرة الله وصلاحياتها لكل ممكن.
 - 6- أنهم فسروا كثيراً من الآيات تفسيراً تقربوا به إلى رُوح العصر على حساب الفهم الصحيح لمدلول الآية؛ كالقول بأصل الإنسان والملائكة والجن.
 - 7- أوّلوا بعض قصص القرآن تأويلات باطلة، تشبّث بها بعضهم، وصارت سلماً سهلاً له لإنكار الصدق في قصص القرآن الكريم، وقالوا في المرأة أقوالاً كانت مرقاة لدعاة تحريرها المزعوم².
- وكلّ ما سبق يعتبر تقييماً لهذه المدرسة ممثلة لهذا الاتجاه التفسيري، وهو اجتهد بشري فجزاهم الله خيراً على ما أحسنوا فيه، وتجاوز عنهم فيما أخطئوا فيه.

¹ اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، فهد الرومي، (858/2)، والتفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي، (401/2).

² التفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي، (402/2)، واتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، فهد الرومي، (859/2).

المطلب الثاني: أهم رواد التفسير الاجتماعي في العصر الحديث:

سلك المسلك الاجتماعي في التفسير مجموعة لا بأس بها من العلماء المعاصرين؛ فمنهم من له تفسير كامل للقرآن الكريم وفق هذا المنهج، ومنهم من فسّر مجموعة من الآيات طبق فيها هذا المنهج؛ وقد اخترت أبرز رواد الاتجاه الاجتماعي في التفسير لأدرس جهودهم في هذا الباب وحاولت التنويع بين الرُّقع الجغرافية، إلا أنّ حصة الأسد من ذلك كانت للمدرسة المصرية لأنها هي الرائدة في هذا الاتجاه ولها قصب السبق في نشره في أقطار العالم الإسلامي.

وأما عن رواد هذا الاتجاه من المفسرين الجزائريين فإنني لم أذكرهم، لأنني سأحدث عنهم بالتفصيل في فصل خاص بهم وهو الفصل الثاني لأن حقهم بسط القول عنهم كون هذه الأطروحة تتعلق بالاتجاه الاجتماعي في الجزائر.

وقد جعلت كلّ واحد من هؤلاء الرواد تحت فرع، وختمت هذا المطلب بفرع ذكرت فيه بعض التنبيهات المتعلقة بالإنتاج التفسيري لهذه المدرسة، وتفصيل ذلك كما يلي:

الفرع الأول: جمال الدين الأفغاني (1839م-1897م):

ولد الأفغاني بقرية "أسد آباد" بأفغانستان سنة: 1839م، وكان يعرف اللغات الأفغانية والفارسية والعربية والتركية والفرنساوية ويُلّم بالإنكليزية والروسية، وسافر إلى الهند وتلقّى العلوم العقلية والنقلية ورحل إلى الحجاز، ثم عاد فأقام بكابل وانتظم في سلك رجال الحكومة، ثم رحل إلى القسطنطينية فُنصّب عضواً في مجلس المعارف، ثم قصد مصر فنفع فيها روح نهضة إصلاحية في الدين والسياسة، ونفّته الحكومة المصرية فقصد باريس وأنشأ فيها مع رفيقه محمد عبده المصري جريدة "العروة الوثقى"، ورحل رحلات طويلة، ثم دعي إلى القسطنطينية وتوفي بها في 9 مارس سنة: 1364 هـ¹.

ويعتبر الأفغاني رائد النهضة الإصلاحية الحديثة ومحبي الاتجاه الاجتماعي الإصلاحي، ولا أدلّ على ذلك من وصف د: محمد بن لطف الصباغ له بقوله: "وما زال العالم الإسلامي يتطلّع إلى اتجاه سليم يروم الإصلاح، حتى كان جمال الدين الأفغاني الذي قام بحركة فكرية هامة، تصدّع بصوت عامرٍ بالإيمان، معتزّ بالقرآن، يدعوا إلى معالجة الفساد الاجتماعي والتأخّر الفكري والحضاري، وذلك بالرجوع إلى الإسلام الحقّ وتحكيم نصوصه الثابتة من الكتاب والسنة"².

¹ معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، مكتبة المثنى، بيروت، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (155/3).

² لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير، محمد بن لطف الصباغ، (ص:310).

وقد كان الأفغاني ينطلق في منهجه الإصلاحية من القرآن الكريم باعتباره كتاباً حياً تصلح به المجتمعات في كلِّ زمان ومكان، والميزة التي تميّز بها الأفغاني وأعانته في دعوته: هي وقوفه على أسباب تخلف المسلمين، وفي نفس الوقت كان مطلعاً على المجتمع الأوروبي المتقدّم بالنسبة للمجتمع الإسلامي، ممّا كوّن عنده تصوّراً شاملاً حول الإصلاح وطرقه وأن أسباب تقدم المجتمعات الأوروبية إنما هي أسباب دعى إليها الإسلام من زمن طويل، فكان يعمل على إيقاظ الوعي الإسلامي عن طريق الدعوة إلى التمسك بالقرآن وإلغاء العصبية المذهبية وإلغاء التقليد، والاجتهاد في فهم القرآن والملاءمة بين مبادئه وظروف الحياة التي يعيش فيها المسلمون، وطرح الخرافات والبدع التي غيّرت من جوهر الإسلام وجعلته وسيلة سلبية في الحياة بدلاً من كونه حقيقة واضحة، وقوة إيجابية في الهيمنة على الحياة وتوجيهها، يقول الأفغاني: "فإن قال قائل: إن كانت الديانة الإسلامية على ما بيّنت فما بال المسلمين على ما نرى من الحالة السيئة والشأن المخزي؟، فالجواب: أنّ المسلمين كانوا كما كانوا وبلغوا بدينهم ما بلغوا والعالم يشهد بفضلهم، وأكتفي الآن من القول بهذا النصر الشريف: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ الرعد: ١١¹.

ومن الآثار التي تركها الأفغاني في هذا الاتجاه؛ بعض كتاباته في مجلة "العروة الوثقى" والتي بلغت سبع عشرة مقالاً كلٌّ مقال منها في تفسير آية من القرآن الكريم تتعلق بالإصلاح مثل قوله تعالى ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ آل عمران: ١٠٣، وقوله ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَتَزَوَّجُوا فَتَفْشَلُوا﴾ الأنفال: ٤٦، ويصف الأفغاني الهداية في القرآن الكريم بقوله: "إن القرآن حي لا يموت، ومن أصابه نصيب من حمده فهو محمود ومن أصيب من مقتته فهو ممقوت، كتاب الله لم يُنسخ، فارجعوا إليه وحكموه في أموالكم وطبائعكم، وما الله بغفل عما تعملون... القرآن وحده هو سبب الهداية، والعمدة في الدعاية، وما تراكم عليه وتجمّع حوله من آراء الرجال واستنباطاتهم ونظرياتهم، فينبغي أن لا يعول عليه كوشي وإنما يستأنس به كراي"².

الفرع الثاني: محمد عبده (1849م-1905م):

محمد عبده بن حسن خير الله، مفتي الديار المصرية، ومن كبار رجال الإصلاح والتجديد في المتأخرين، ولد في شنرا ونشأ في محلة نصر (بالبحيرة) وأحبَّ في صباه الفروسية والرماية والسباحة، وتعلّم

¹ التفسير ورجاله، محمد الفاضل بن عاشور، مجمع البحوث الإسلامية، الأزهر، سنة: 1390هـ-1970م، (ص: 159).

² لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير، محمد بن لطفي الصباغ، (ص: 311-313).

بالجامع الأحدي بطنطا ثم بالأزهر، وعمل في التعليم، وكتب في الصحف ولا سيما جريدة (الوقائع المصرية) وقد تولى تحريرها، وأجاد اللغة الفرنسية بعد الأربعين، ولما احتل الإنكليز مصر ناوهم وشارك في مناصرة الثورة العربية، فسُجن ثلاثة أشهر للتحقيق، ونُفي إلى بلاد الشام، وسافر إلى باريس فأصدر مع صديقه وأستاذه جمال الدين الأفغاني جريدة (العروة الوثقى)، وعاد إلى بيروت فاشتغل بالتدريس والتأليف وُسِّح له بدخول مصر، فعاد سنة: 1888م وتولى منصب القضاء، ثم عُيِّن مفتيا للديار المصرية سنة: 1317هـ، واستمر إلى أن توفي بالإسكندرية، ودفن في القاهرة¹.

وقد اهتم الشيخ محمد عبده في إصلاحه بجانبين مهمين وهما: الجانب الفكري والجانب السياسي؛ أما الفكري: فكان يركّز فيه على التحرّر من التقليد وفهم الدين كما فهمه السلف الأوائل، وإصلاح اللغة العربية، وأما الجانب السياسي: فركز فيه أيضا على أمرين هما: معرفة حق الأمة على حاكمها ونصحه، وكذلك دعوة الأمة لمقاومة الاستعمار والنفوذ الأجنبي.

وقد كان الشيخ محمد عبده يستلهم طرق الإصلاح وأساليبها من القرآن الكريم حتى برز عنده ما يسمّى بالاتجاه الإصلاحى الاجتماعى فى التفسير، فرأى أن الأولين اهتموا بهدي الكتاب فأصلحوا ما بهم، والآخرين عجزوا عن إصلاح فسادهم وعلاج داءهم، مع أن الدواء واحد، فكان المتأخرون كالذي يتجرّع القصص من آلامه والدواء في بيته وهو لا يتناوله²، يقول محمد عبده في وصف القرآن: "ألم يأن لنا أن نرجع إلى المعروف ممّا كان عليه سلفنا فنحيا بما كان قد أحياهم ونترك ما ابتدعه أخلافهم ممّا أماتهم وأماتنا معهم... فالقرآن سرّ نجاح المسلمين، ولا حيلة في تلافي أمرهم إلا بإرجاعهم إليه، ومالم تُفرّج صيحه أعماق قلوبهم وتزلزل هزته رواسي طباعهم... والقرآن قريب لطالبه متى كان عارفا باللغة العربية ومذاهب العرب في الكلام وتاريخهم وعوائدهم أيام الوحي"³.

وانطلاقا من ذلك فإن الأستاذ كان يقسّم التفسير إلى قسمين:

أحدهما: جافّ مُبعد عن الله وكتابه، وهو ما يُقصد به حلّ الألفاظ، وإعراب الجمل، وبيان ما ترمي إليه تلك العبارات والإشارات من النكت الفنية... وهذا لا ينبغي أن يُسمى تفسيرا، وإنما هو ضرب من التمرين في الفنون، كالنحو، والمعاني، وغيرهما.

¹ الأعلام، خير الدين الزركلي الدمشقي، دار العلم للملايين، ط: 15، سنة: 2002م، (6/252).

² التفسير ورجاله، محمد الفاضل بن عاشور، (ص: 164).

³ لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير، محمد بن لطفي الصباغ، (ص: 316).

وثانيهما: ذهاب المفسر إلى فهم المراد من القول، وحكمة التشريع في العقائد والأحكام، على الوجه الذي يجذب الأرواح، ويسوقها إلى العمل والهداية المودعة في الكلام، ليتحقق فيه معنى قوله تعالى ﴿وَهْدَىٰ وَرَحْمَةً﴾ الأنعام: ١٥٧، وهذا هو الغرض الأول الذي أرمي إليه في قراءة التفسير¹.

وكان الشيخ محمد عبده لا يكاد يمرّ بآية من القرآن، يمكنه أن يأخذ منها علاجاً للأمراض الاجتماعية، إلا أفاض في ذلك بما يُصوّر للقارئ خطر العلة الاجتماعية التي يتكلم عنها، ويُرشده إلى وسيلة علاجها والتخلص منها، كلّ هذا يأخذه الأستاذ الإمام من القرآن الكريم، ثم يُلقى به على أسماع المسلمين وغير المسلمين، رجاء أن يعودوا إلى الصواب، ويثوبوا إلى الرشاد².

وقد ترك محمد عبده إنتاجاً تفسيرياً لا بأس به في هذا المجال، وهو كالاتي:

1- جزء من تفسير القرآن الحكيم، المعروف بـ"تفسير المنار".

2- تفسير جزء عم، وعدد صفحاته: 185، وطُبع عدة طبعات؛ أولها في القاهرة سنة: 1322هـ.

3 تفسير سورة العصر، وعدد صفحاته: 92 من القطع الصغير، وهذا التفسير وليد اقتراح بعض العلماء في الجزائر على الأستاذ أيام كان عندهم، فاقترحوا أن يقرأ لهم درساً عاماً، يستفيدون منه ويتحقق به تلقيهم عنه؛ ففسر لهم سورة العصر، ثم نشرته مجلة المنار، ثم طبع مستقلاً.

4- فاتحة الكتاب، وعدد صفحاته: 47 من القطع الكبير، وطبع بالقاهرة سنة: 1319هـ، ثم طبع الطبعة الثانية سنة: 1382هـ بالقاهرة، وهي مفردة من تفسير المنار³.

الفرع الثالث: السيد محمد رشيد رضا (1865م-1935م):

محمد رشيد بن علي رضا: عالم بالحديث والتفسير والأدب والتاريخ، ومن كبار الدعاة إلى التجديد والإصلاح في العالم الإسلامي، وصاحب مجلة "المنار"، ولد ونشأ بالقلمون، من أعمال طرابلس الشام، وتعلم فيها وفي طرابلس وبيروت وجلس يفيدهم بعلمه، ويرشدهم بنصحه ووعظه، وفي هذه الأثناء وقع في يده نسخة من جريدة "العروة الوثقى" التي كان يقوم بإخراجها والكتابة فيها: الأفغاني ومحمد عبده، فقرأ الأستاذ رشيد ما في الجريدة فأعجب بالرجلين إعجاباً شديداً ورغب في الاتصال بهما، فتمكن من الاتصال بمحمد عبده فقط سنة: 1315هـ، وكان أول اقتراح عرضه عليه أن يكتب تفسيراً للقرآن على نهج ما كان يكتب في جريدة "العروة الوثقى"؛ وبعد أخذٍ وردٍّ بين الشيخين اقتنع محمد عبده بأن يقرأ

¹ التفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي، (407/2).

² المصدر نفسه، (413/2).

³ اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، فهد الرومي، (801-800/2).

دروسا في التفسير بالجامع الأزهر، ولم يلبث إلا قليلاً حتى قام بإلقاء دروسه في التفسير على طلابه، وكان الشيخ رشيد أحرصهم على تلقيها وضبطها؛ فكان يكتب بعض ما يسمع ثم يزيد عليه، ثم قام بنشر ما كتب في مجلته "المنار"، ولكنه لم يفعل إلا بعد مراجعة أستاذه لما كتب وتناوله له بالتنقيح والتهذيب، حتى وصفه محمد عبده بأنه "ترجمان أفكاره".

ومّا يُذكر في ترجمته أنه زار دمشق في أعقاب إعلان الدستور العثماني سنة: 1908م وبينما هو يخطب على منبر الجامع الأموي اعترضه أحد أعداء الإصلاح، فكانت فتنة في دمشق، اضطرّ على إثرها إلى العودة إلى مصر وأنشأ مدرسة الدعوة والإرشاد، وفي أيام حكم الملك فيصل ابن الحسين قصد سورية مرة ثانية، وانتخب رئيساً للمؤتمر السوري، وغادرها إثر دخول الفرنسيين إليها سنة: 1925م، فأقام في مصر ثم رحل إلى الهند والحجاز و أوروبا، وعاد ليستقر في القاهرة، وبعد وفاة محمد عبده خاض رشيد رضا غمار السياسة؛ فنقد الدولة العثمانية وأنشأ مع المعارضين لها المقيمين في القاهرة "جمعية الشورى العثمانية" وترأسها، وكانت تُرسل منشوراتها السرية إلى كامل أرجاء البلاد مما أقلق هذه السلطات توفي إثر حادث سيارة كان راجعاً بها من السويس إلى القاهرة¹.

وأما عن جهده في التفسير وهدفه منه، فهو عيّن ما كان يهدف إليه أستاذه من أنّ فهم القرآن فهما صحيحاً هو خير ما يرشد الناس إلى ما فيه سعادتهم في حياتهم الدنيا والآخرة؛ يقول: "وإننا نعتقد أن المسلمين ما ضعفوا وزال ما كان لهم من الملك الواسع إلا بإعراضهم عن هداية القرآن، وأنه لا يعود إليهم بشيء ممّا فقدوا من العزّ والسيادة والكرامة إلا بالرجوع إلى هدايته، والاعتصام بحبله كما يرون ذلك مبيناً في تفسير الآيات الكريمة الدالة عليه، ولا يتم ذلك إلا بالاتفاق على إحياء لغته فالدعاء له دعاء لها"². بل كان رشيد رضا يوجه اللوم إلى من حشروا في التفسير: من قواعد العلوم ومسائل الفنون وموضوعات الحديث وخرافات الإسرائيليات ما يصرف الناس عن هداية القرآن، ويدعوا إلى إرجاع التفسير إلى هدفه الأسمى الذي وصفه بقوله: "إن حاجة الناس صارت شديدة إلى تفسير تتوجّه العناية الأولى فيه إلى هداية القرآن على الوجه الذي يتفق مع الآيات الكريمة، المنزلة في وصفه وما أنزل لأجله،

¹ ينظر: معجم المفسرين - من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر -، عادل نويهض، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، لبنان، ط: 3، سنة: 1409هـ - 1988م، (529/2-530)، والتفسير ورجاله، محمد الفاضل بن عاشور، (ص 172-173)، والتفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي، (423/2-423)، واتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، فهد الرومي، (804/2).

² تفسير المنار، محمد رشيد رضا، (26/1).

من الإنذار والتبشير والهداية والإصلاح". ويصرح بقصده من التفسير بقوله: "إن قصدنا من التفسير بيان معنى القرآن، وطرق الاهتداء به في هذا الزمان"¹.

ولتحقيق هذا الهدف سلك رشيد رضا منهجا فريدا تأثرا بأستاذه وتميّز بميزة أخرى وهي: التفسير بالمأثور؛ فكان لا يتقيد في التفسير بأقوال المفسرين ولا يخوض في إسرائيليّات ولا تعيين لمبهمات، ولا تعلّق بأحاديث موضوعية، ولا حشد لمباحث الفنون، ولا رجوع بالنص إلى اصطلاحات العلوم، بل شرح للآيات بأسلوب رائع وكشف عن المعاني بعبارة سهلة مقبولة، وتوضيح لمشكلات القرآن، ودفاع عنه يرد ما أثير حوله من شبهات، وبيان لهديته، ودلالة إلى عظيم إرشاده، وتوقيف على حكم تشريعه، ومعالجة لأضرار المجتمع بناجع دوائه، وبيان لسنن الله في خليقته².

وقد ترك الشيخ عدة آثار في التفسير، منها:

1- تفسير المنار: وذلك أنه بعد وفاة محمد عبده تابع كتابة التفسير إلى أن وصل إلى وسط سورة يوسف فأدركته الوفاة، وبذلك توقف العمل في إنجاز تفسيره.

2- تفسير الفاتحة وست سور وهي "العصر، الكوثر، الكافرون، الإخلاص، المعوذتين" وعدد صفحاته: 237، أما تفسير الفاتحة فمن تفسير المنار، وأما تفسير سورة العصر فهو للأستاذ محمد عبده، وطُبع ضمن هذا التفسير خمس آثار للأستاذ الإمام في التوسل والتوحيد ومشكلات التفسير، محاضرة في العلم والتعليم، وصدرت الطبعة الثانية من دار المنار سنة: 1367م³.

الفرع الرابع: محمد مصطفى المراغي (1881م-1945م)⁴:

وهو باحث مصري، عارف بالتفسير، من دعاة التجديد والإصلاح، ممّن تولّوا مشيخة الجامع الأزهر، عرف بمحمد مصطفى، ولد بالمرغة (من جرجا، في الصعيد) وتعلّم بالقاهرة، وتلمذ للشيخ محمد عبده وتربّى في مدرسته، وتخرّج منها وهو يحمل بين جنبه قلبا مليئا بالرغبة في الإصلاح والثورة على كلّ ما يقف في سبيل الإسلام والمسلمين، ولّى أعمالا منها القضاء في السودان سنة: 1908م-1919م،

¹ التفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي، (424/2).

² المصدر نفسه، (425/2).

³ اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، فهد الرومي، (800/2).

⁴ وهذا المفسر الذي نتحدث عنه ليس هو الشيخ أحمد مصطفى المراغي صاحب التفسير الكامل للقرآن الكريم المسمى: "تفسير

المراغي" والذي بلغ 30 مجلدا، وإنما هو الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الأزهر الأسبق، وقاضى قضاة السودان الأسبق. ينظر: مناهج المفسرين، صلاح الدين الخالدي، (ص: 339).

وتعلم الإنجليزية في خلالها، وعُيِّن شيخاً للأزهر سنة: 1928م فمكث عاما وتوقّف، ثم أعيد سنة: 1935م فاستمر إلى أن توفي بالإسكندرية ودفن في القاهرة¹.

ولم يلازم المراغي محمد عبده كثيرا ولكنه كان عميق الفهم لما تهدف إليه هذه المدرسة من ضروب الإصلاح وصنوف التجديد، وإذا كان كتاب الله هو الدستور الذي شرعه الله تعالى للأمة الإسلامية، وجعل فيه خيرها وسعادتها في الدنيا والآخرة، فلم لا يكون هو الباب الذي يصل منه الشيخ إلى ما يرجوه من خير، وما يهدف إليه من إصلاح، ولذا بدأ بتفسير القرآن الكريم فعقد دروساً في تفسير القرآن الكريم، استمع إليها الكثير من الناس على اختلاف طبقاتهم، من الملك إلى رجل الشارع، وأذيعت هذه الدروس أيضاً في كثير من ممالك الأرض، ودول الإسلام، وأخيراً طُبعت هذه الدروس، ووزعت على الناس ليعم نفعها، ويزداد أثرها².

وأما غرضه من كتابة تفسيره ومنهجه فيه؛ فقد ألف المراغي تفسيره لما اقتضته حاجة عصره من تبسيط العبارة، فهو يقول عن كتب التفسير السابقة إنها أُلِّفت في عصور خلت وبأساليب تناسب أهلها، فلا بد من وضع تفسير معاصر للكتاب العزيز يشاكل حاجة الناس في عصرنا، وكان منهج الشيخ في تفسيره أنه يورد الآية أو الآيات ثم يقوم بشرح المفردات اللغوية، ثم يُتبع ذلك بذكر المعنى الإجمالي للآيات ليتجلى للقارئ منها صورة مجملة، ثم يُعقب ذلك بذكر ما ورد من أسباب النزول لهذه الآيات إن صحَّ شيء منها، كما ضرب الشيخ صفحا عن مصطلحات العلوم، من نحو وصرف وغيرها مما أدخله المفسرون في تفاسيرهم، فكانت عوائق حالت بين الناس وبين قراءة كتب التفسير.

كما تميّز بخلوّه من الإسرائيليات، والتركيز في القصص على استنباط الدروس والعبر وعدم الاستطراد في القصص والأخبار، واهتمّ بالتعليق على الظواهر الكونية بأسلوب بعيد عن تعقيد النظريات العلمية، في ثوب يصل إلى القلب ويدعو إلى الإيمان، وهذا مقصود ذكر الآيات الكونية³.

ومن آثاره في تفسير القرآن:

1- الدروس الدينية سنة: 1357م، وعدد صفحاته 31، ويحتوي على درسين ألقاهما أمام الملك فاروق الأول: أولهما: في المسجد الزيني وهو تفسير لقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ...﴾، البقرة: 183-186. وثانيهما: في مسجد البوصيري

¹ الأعلام، للزركلي، (103/7).

² التفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي، (44/5).

³ التيسير في أصول واتجاهات التفسير، عماد علي عبد السميع، دار الإيمان، الإسكندرية، سنة: 2006م، (ص: 116).

بالإسكندرية، وذلك في تفسير قوله تعالى ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ...﴾ الأنفال: ٢٤، وقد طبع هذا التفسير بمطبعة الأزهر.

2- الدروس الدينية سنة: 1361م، وعدد صفحاته 28، ويحتوي على ثلاثة دروس:

- الدرس الأول: تفسير قوله تعالى ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ مَثَالِهَا﴾ الأنعام: ١٦٠.

- الدرس الثاني: في تفسير قوله تعالى ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ الأعراف: ١٩٩، إلى قوله تعالى ﴿لَقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ الآيات: الأعراف: ٢٠٣.

- الدرس الثالث: تفسير قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَلُّوا...﴾ إلى قوله تعالى ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ فصلت: ٣٠ - ٣٦ وطبع بمطبعة الأزهر.

3- تفسير سورة الحجرات، وذلك في ثلاثة دروس ألقاها الشيخ محمد المراغي في شهر رمضان سنة: 1358م أمام الملك فاروق الأول، وطبع بمطبعة الأزهر، ويقع في 30 صفحة.

4- الدروس الدينية لسنة: 1356، ويحتوي على أربعة دروس منها:

- تفسير قوله تعالى ﴿لَيْسَ إِلَهٌ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ﴾ البقرة: ١٧٧.

- تفسير قوله تعالى ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَنُلْ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ الأنعام: ١٥١¹.

الفرع الخامس: الشيخ محمود شلتوت (1893-1963م):

وهو محمود شلتوت عالم بالدين وشيخ الجامع الأزهر، خطيب موهوب، من دعاة الإصلاح الديني والاجتماعي، ولد في "منية بني منصور" بالبحيرة بمصر، وتعلّم بمعهد الإسكندرية الديني، وكان ترتيبه الأول في جميع سنوات الدراسة، وتخرج بالأزهر سنة: 1918م، وتنقل في التدريس إلى أن نُقل مدرّساً بالقسم العالي بالأزهر سنة: 1927م، وسعى إلى إصلاح الأزهر فعارضه بعض كبار الشيوخ وفصله الشيخ الظواهري من وظيفته سنة: 1931م، فعمل في المحاماة حتى سنة: 1935م، ثم أعيد بعدها إلى الأزهر مدرّساً بكلية الشريعة، ثم عضواً في لجنة الفتوى، ثم وكيلاً لكلية الشريعة، ثم عضواً في جماعة كبار العلماء سنة: 1941م، فعضواً في مجّع اللغة العربية سنة: 1946م، ثم شيخاً للأزهر سنة: 1958م، وظلّ في منصبه إلى وفاته سنة: 1963م².

¹ اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، فهد الرومي، (801/2).

² معجم المفسرين، عادل نويهض، (663/2).

من مؤلفاته: "تفسيره" الذي فسّر فيه الأجزاء العشرة الأولى من القرآن، ويقع في مجلد، وطبع عدة مرات، في 659 صفحة، اتّجه في تفسيره نحو المقاصد العامة للصور والآيات وما تشير إليه من قضايا بشرية تتعلق بالشؤون الاجتماعية والأحكام الفقهية والعقائد الدينية، بأسلوب يبحث فيه عن أسرار الجمال في التعبير القرآني، مناقشاً المذاهب القديمة والحديثة والتيارات المنحرفة وشبهات الماديين¹.

ويعتبر الشيخ شلتوت أول من اقترح على الإذاعة أحاديث الدين الصباحية، ورأى القائلون على الإذاعة وجاهة الاقتراح فعهدوا إليه بالأمر فترة طويلة من الزمن، وكان صوته يجلب كل صباح متّسماً بالحيوية القويّة والأسلوب الطيب والفكرة الجديرة بأن تسمع، واشترك مع غيره من علماء الدين التّابّخين في التقديم للقرآن الكريم حينما يُتلى في الإذاعة، وكان هذا تجديداً أيضاً في برامج الإذاعة، وكان هذا التقديم متتابعاً متتالياً يقدّم الربع من القرآن الكريم ثم يقرأ القارئ فيكون المستمع على علم بمضمون ما يسمع من التلاوة².

وقد سلك الشيخ طريقةً فريدةً في تفسيره فكان يجمع بين الطريقتين الموضوعيّة والتحليليّة، وإن كانت الأولى هي التي تغلب على تفسيره، فهو حين يعرض للسورة من القرآن يذكر سبب تسميتها، والظرف الذي نزلت فيه، مقارناً بينها وبين غيرها من السور الشبيهة بها من حيث الموضوع، أو من حيث البدء، ثم يذكر أهم موضوعات السورة عقدية أو قصصية أو تشريعية، وهو مع ذلك كلّه يُبدي رأيه في كلّ مسألة من مسائل الخلاف بعد أن ينقل أقوال سابقيه، ثم يفسر بعض الآيات تفسيراً تحليلياً ويمتاز هذا التفسير بوضوح الفكرة وسهولة الأسلوب وجمال التنظيم³.

وقد ظهر الاتجاه الاجتماعي في التفسير بشكل واضح جاعلاً القرآن أصلاً للبحث وأساساً للتشريع، فيجمع إلى الآية التي يقصد تفسيرها ما يناسبها من آيات وما يرتبط بها من موضوعات العلوم، ثم يعالج موضوع الآية معالجة عامة شاملة تُبرز موقف القرآن بل الدين عامة من هذا الموضوع، واعتبر ذلك مظهرًا من مظاهر نشاط المسلمين في خدمة القرآن الكريم، وتحدّث وقال في مقدمته: "لا نكاد نعرف علماً من العلوم التي اشتغل بها المسلمون في تاريخهم الطويل إلا كان الباعث عليه هو خدمة القرآن الكريم من ناحية ذلك العلم... لهذا كله اعتقد أني لا أتجاوز حدّ القصد والاعتدال إذا قلت: أنه لم يظفر

¹ الاتجاه الاجتماعي في التفسير في العصر الحديث، عمر عبد العزيز بوريني، (ص:22).

² مناهج المفسرين، منيع بن عبد الحليم، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، سنة: 2000م، (ص:347).

³ التفسير والمفسرون أساسياته واتجاهاته ومناهجه في العصر الحديث، فضل حسن عبّاس، دار النفائس للنشر والتوزيع، الأردن، ط:

1، سنة: 1437هـ-2016م، (2/278).

كتاب من الكتب سماويا كان أو أرضيا في آية أمة من الأمم قديمها وحديثها بمثل ما ظفر به القرآن على أيدي المسلمين ومن شارك في علوم المسلمين¹.

وقد كان الشيخ شلتوت يستغل الآيات القرآنية ويربطها بواقع الناس مثل حديثه عن حكمة التشريع ودفاعه عن الإسلام، واستنباطه بعض القواعد السياسية والاجتماعية لتدعيم المجتمع الإسلامي، فقال: "لو كان للإسلام دولة وقوة، لكان تشريعه هو المتبع، ولكان للأمم والشعوب من الوسائل الاقتصادية العملية، ما يغنيهم عن الربا وغير الربا، مما حرمه الإسلام، وإن للكسب لموارد طبيعية، هي الأساس والفطرة، كالزراعة والصناعة والتجارة والشركات المساهمة التعاونية، ولا يستطيع أحد أن يقول: إن الشعوب لا تستطيع أن تقيم مدنيّتها على أساس التعاون والتراحم، ومساعدة الفقير والمحتاج، بإقراضه قرضًا حسنًا، على نظام يكفل لأصحاب الحقوق حقوقهم، ولا يؤدي إلى إثقال كاهل المدنيين، واستلاب أموالهم بالباطل"².

الفرع السادس: سيد قطب (1906م-1967م):

سيد قطب بن إبراهيم: من مواليد قرية (موشا) في أسيوط بمصر، وتلمذ على عباس محمود العقاد، تخرج بكلية دار العلوم بالقاهرة سنة: 1934م، وعمل في جريدة الأهرام، وكتب في مجلتي "الرسالة" و "الثقافة" وعُيّن مدرسًا للعربية فموظفًا في ديوان وزارة المعارف، وأُوِفِدَ في بعثة لدراسة برامج التعليم في أمريكا سنة: 1948م، فشاهد عالمًا جديدًا وحضارة غريبة لم تعجبه، فعاد بمظهر المفكر الناقد الذي يدعو إلى التعليم المستمد من القرآن والسنة وتفهّم مقاصد الإسلام في الحياة الاجتماعية، فانتقد البرامج المصرية وكان يراها من وضع الإنجليز، وطالب ببرامج تتمشى والفكرة الإسلامية، وانضم إلى الإخوان المسلمين، فترأس قسم نشر الدعوة وتولّى تحرير جريدتهم سنة: 1953م وسُجِنَ معهم، فعكف على تأليف الكتب ونشرها إلى أن صدر الأمر بإعدامه فأُعدم سنة: 1967م³.

وأما عن كتاباته فهي كثيرة مطبوعة متداولة يغلب عليها الصبغة الأدبية النقدية الاجتماعية، وهذا ما ظهر أثره في تفسيره الذي كان هدفه منه: ربط الآيات بالواقع بأسلوب أدبي، وقد كانت أول كتاباته للتفسير في مجلة "المسلمون" التي كان يشرف عليها: سعيد رمضان، والذي طلب من سيد قطب أن يشارك بمقال شهري فيها تحت عنوان دائم؛ فجعل سيد قطب عنوان "في ظلال القرآن" عنوانًا لمقالاته،

¹ مناهج المفسرين، منيع بن عبد الحليم، (ص: 351).

² التفسير والمفسرون أساسياته واتجاهاته ومناهجه في العصر الحديث، فضل حسن عبّاس، (287/2).

³ الأعلام، للزركلي، (147/3-148)، والاتجاه الاجتماعي في التفسير في العصر الحديث، عمر عبد العزيز بوريني، (ص: 22).

ثم بدا له أن يكتب تفسيراً للقرآن الكريم في كتاب وليس مجلة، فظهر الجزء الأول منه سنة: 1952م، ثم أكمله في السجن بعد دخوله إليه.

وكان سيد قطب يعتبر القرآن هو الدواء الفكري والاجتماعي، وهو المنهاج الوحيد الذي يعيد للأفراد الطمأنينة وللجماعات التماسك، ولذا نهج في تفسيره منهاجاً يجعل قارئ كتابه يعيش مثله في ظلال الهدى القرآني ويأخذ بيده لتصفية النفس وتطهير القلب، ومعالجة وسائل الضعف وعوامل الفتنة، فكان تفسيره يهتم بالمقاصد والأهداف القرآنية، والتربية الفردية والاجتماعية دينياً وأخلاقياً وفكرياً، بأسلوب رقيق مؤثر يخاطب فيه العواطف والمشاعر، ليحثها على العودة إلى الله¹.

ويمكن القول إن تفسير سيد قطب تفسير ذو منهج "حركي دعوي تربوي"؛ فهو منهج حركي: لأنه يدعو المسلمين إلى حسن فهم القرآن وتدبره، ثم حسن الحركة به في عالم الواقع، وليس الاكتفاء بدراسة دراسة تفسيرية نظرية. ومنهج دعوي: لأنه يريد منا أن نجعل القرآن منطلقنا في الدعوة إلى الله، ومعرفة حقائقه وتوجيهاته الدعوية، ومواجهة الأعداء به، ورد مؤامراتهم ضد الأمة. ومنهج تربوي: لأنه يريد من المسلمين أن يتربوا على القرآن، ويتخلقوا بأخلاقه و يلتزموا بتوجيهاته، وأن يصوغوا أنفسهم صياغة قرآنية، ليكونوا قرآنيين ربانيين، وأن يكون القرآن هو المهيم على كل مجالات الحياة فيه، يقول سيد قطب: "ونحن نؤكد على هذه السمة في هذا القرآن... سمة الواقعية الحركية، لأنها في نظرنا مفتاح التعامل مع هذا الكتاب وفهمه وفقهه وإدراك مرامييه وأهدافه"².

وأهم المميزات التي تميز بها تفسير "في ظلال القرآن" في خدمة الاتجاه الاجتماعي هي:

- 1- العلمية والجدية في البحث وإدراك منهج الإسلام في المعرفة.
- 2- التسليم بمدلول النص القرآني، والثقة بمقرراته والاستشهاد له، وإخضاع الظواهر المخالفة له، واعتبار النص هو الأساس وكل ما سواه تبع له.
- 3- إبراز الوحدة الموضوعية وتطبيقها على سوره وآياته، وبيان التناسق الموضوعي بينها.
- 4- تحقيق الأغراض الأساسية للقرآن الكريم، المتمثلة في هداية الناس إلى الله، وتربية المسلمين تربية متكاملة، وإيجاد المجتمع الإسلامي الرباني ومواجهة أعداء الله.
- 5- معاشته حياة الرسول ﷺ بالقرآن وحياة أصحابه به وإدراكه لجو نزول القرآن في حياتهم.

¹ الاتجاه الاجتماعي في التفسير في العصر الحديث، عمر عبد العزيز بوريني، (ص: 22).

² تعريف الدارسين بمنهج المفسرين، صلاح عبد الفتاح الخالدي، (ص: 608).

وانطلاقاً من تلك الخصائص وصفه الدكتور أحمد حسن فرحات بقوله: "الغاية التي يهدف إليها الظلال هي: أن يعيد القرآن حياً في نفوس الناس، يصوغهم صياغة جديدة، وينقلهم من مجتمع الجاهلية إلى مجتمع الإسلام"¹.

الفرع السابع: محمد الطاهر بن محمد بن عاشور التونسي (1879م-1973م):

وهو رئيس المفتين المالكيين بتونس وشيخ جامع الزيتونة وفروعه، ولد بالمرسى من ضواحي تونس سنة ست وتسعين ومائتين وألف، درس بتونس وتخرّج بشهادة التطويع سنة: 1899م، تولى التدريس بجامع الزيتونة وخاصة في التفسير كما درس بالمدرسة الصادقية وتولى القضاء والإفتاء، عُيّن شيخ الإسلام المالكي سنة: 1932م، وسمي شيخ الجامع الأعظم وفروعه عام: 1942م، ثم عميدا للجامعة الزيتونية عام: 1956م، كما شارك في تأسيس الجمعية الزيتونية والجمعية الخلدونية، وانتخب عضواً بجمع اللغة العربية بمصر سنة: 1950م، وبالجمع العلمي العربي بدمشق سنة: 1955م، كان له الدور البارز في الإصلاح العلمي والاجتماعي، حتى تحصل على وسام الاستحقاق الثقافي التونسي، توفي بتونس يوم الأحد 13 رجب سنة: 1393هـ².

وأما تفسيره فاسمه الأصلي "تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد وتفسير الكتاب المجيد"، واختصره باسم "التحرير والتنوير"، يقع في ثلاثين مجلداً في نحو 7 آلاف صفحة، وقد استغرق في تأليفه 39 سنة حتى انتهى منه قبل موته بـ 13 سنة.

ومنهجه فيه أنه قدم له بتمهيد واف ذكر فيه مراده من هذا التفسير وقال: "فجعلت حقاً عليّ أن أبدي في تفسير القرآن نُكْتاً لم أر من سبقني إليها، وأن أقف موقف الحكم بين طوائف المفسرين تارة لها وآونة عليها، فإن الاقتصار على الحديث المعاد، تعطيل لفيض القرآن الذي ماله من نفاذ، ولقد رأيت الناس حول كلام الأقدمين أحد رجلين: رجل معتكف فيما شاده الأقدمون، وآخر أخذ بمِغْوَلَةٍ في هدم ما مضت عليه القرون؛ وفي تلك الحاليتين ضرٌّ كثير، وهنالك حالة أخرى يَنْجِرُ بها الجناح الكسير، وهي أن نعمد إلى ما أشاده الأقدمون فنَهْذِبُه ونزيده وحاشا أن نَنْقُضَه أو نُبَيِّدَه، علماً بأن غمض فضلهم كفران للنعمة، وجحد مزايها سلفها ليس من حميد خصال الأمة"³. ثم أتبع كلامه عن تفسيره بعشر

¹ تعريف الدارسين بمنهاج المفسرين، صلاح عبد الفتاح الخالدي، (ص: 610-616).

² معجم المفسرين، عادل نويهض، (542/2)، والتفسير والمفسرون في غرب أفريقيا، محمد بن رزق بن طرهوني، دار ابن الجوزي

للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط: 1، سنة: 1426هـ، (347/1).

³ التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، سنة: 1997م، (7/1).

مقدمات رابعتها: فيما يحق أن يكون غرض المفسر، تحدث فيها عن مقاصد القرآن الثمانية؛ وذكر منها " إصلاح الاعتقاد وتعليم العقد الصحيح " و " سياسة الأمة " وهو باب عظيم في القرآن القصد منه صلاح الأمة وحفظ نظامها كالإرشاد إلى تكوين الجامعة¹.

وصرح ابن عاشور بغرضه من تفسيره فقال: " وقد اهتمت في تفسيري هذا ببيان وجوه الإعجاز ونكت البلاغة العربية وأساليب الاستعمال، واهتمت أيضا ببيان تناسب اتصال الآي بعضها ببعض ... ولم أغادر سورة إلا بيّنت ما أحيط به من أغراضها لئلا يكون الناظر في تفسير القرآن مقصورا على بيان مفرداته ومعاني جملته كأنها فقر متفرقة تصرفه عن روعة انسجامه وتحجب عنه روائع جماله ... وعسى أن يجد فيه المطالع تحقيق مراده، ويتناول منه فوائد ونكتا على قدر استعدادده، فإني بذلت الجهد في الكشف عن نكت من معاني القرآن وإعجازه خلت عنها التفاسير، ومن أساليب الاستعمال الفصيح ما تصبو إليه هم النحارير، بحيث ساوى هذا التفسير على اختصاره مطولات القماطير، ففيه أحسن ما في التفاسير، وفيه أحسن مما في التفاسير². وهذا كله مما يدل على اهتمامه بالجانب الاجتماعي في التفسير.

و تفسير ابن عاشور يقوم على عشرة أسس هي:

- 1 - يسير ابن عاشور مع السورة القرآنية مقسّمًا إياها إلى مقاطع، وتتفاوت هذه المقاطع كمًّا من سورة إلى أخرى، والغالب أن تكون هذه المقاطع متّحدة الفكرة الخاصة وذات إطار موضوعي واحد. وهذا منهج متوافق مع الشيخ التواتي في " الدر الثمين " كما سيأتي بيانه.
- 2 - يبتدئ باللفظة أو الجملة القرآنية، فيعرض لمعانيها واشتقاقها وما يتعلق بها من أمور لغوية.
- 3 - يذكر ابن عاشور نظائر الآية القرآنية أو الآيات، وهو ما يسمّى بتفسير القرآن بالقرآن.
- 4 - يستشهد على ما يقول بالأحاديث الشريفة، والآثار المروية عن السلف.
- 5 - يعرض لبيان المناسبة بين المقطع المختار أو الآية لما قبلها.
- 6 - يقوم بدفع الإشكالات التي يمكن أن تبدو من ظاهر النظم، وقد يبتدئها.
- 7 - إذا تحدثت الآيات القرآنية ذات المقطع الواحد عن موضوع معين، أو كان ثمة موضوع كثر فيه الكلام من المتقدمين، فإن ابن عاشور يتابعهم فيعرض لتفاصيل تتعلق بذلك.

¹ التحرير والتنوير، ابن عاشور، (40/1).

² المصدر نفسه، (8/1).

8 - عند مروره بآيات الأحكام، وآيات العقيدة، أو الآيات التي اتخذت لها مواضع خاصة في علوم القرآن وغيرها من المباحث، يعرض ابن عاشور لذكر خلاف العلماء في تلك الآيات.

9 - عرض إلى إشارات علمية عند تفسيره لبعض الآيات القرآنية الكريمة.

10 - استخدم الحاشية لأغراض متعددة في تفسيره¹.

الفرع الثامن: المكّي الناصري (1906م-1996م):

محمد المكّي الناصري هو عالم مغربي، ولد بمدينة الرباط سنة 1324هـ، انتقل في مطلع الثلاثينات إلى مصر ليواصل دراسته بكلية الآداب بجامعة القاهرة شعبة الثقافة الإسلامية، ثم انتقل إلى باريس فدرس علوم التربية، ثم إلى جامعة جنيف فدرس القانون الدولي العام، مما كوّن عنده ثقافة جمعت بين الثقافة الإسلامية والغربية فكان على اطلاع بما يدور في العالم من ثقافات وأحداث.

وكان عضوا مؤسسا وعاملا في لجنة تحرير المغرب العربي التي أنشأها محمد عبدالكريم الخطابي بالقاهرة، وشغل عدة مناصب إلى جانب الخطابة في أكبر مساجد المغرب، والنشاط العلمي في مختلف الهيئات العلمية المغربية، إلى أن انتخب أمينا عاما لرابطة علماء المغرب، ثم رئيس رابطة العلماء، كما كان عضو مجلس الوصاية وعضو الأكاديمية الملكية بالمغرب².

أما اشتغاله بالتفسير فقد اشتغل بالقرآن الكريم قراءة وتجويدا دراسة وتدرّسا وأخذ علم التفسير على شيوخ كبار من المغرب والمشرق وألقى دروسا ومحاضرات في تفسير بعض السور والآيات بمساجد الرباط ومساجد تطوان في العشرينات والثلاثينات من هذا القرن ثم كرّس قسما كبيرا من وقته في الأربعينات لتفسير القرآن بالمسجد الأعظم بطنجة والمسجد المحمدي والمسجد العتيق بالدار البيضاء.

وفي الستينات تلقى دعوة من إذاعة المغرب بإلقاء دروس يومية في التفسير وقد أذيعت حلقاته أيضا بإذاعة القرآن الكريم بالمملكة العربية السعودية بصفة يومية خلال عام: 1418هـ، وبهذا ظهر كتابه في التفسير المسمى "التيسير في أحاديث التفسير"، وقد طبع في خمسة مجلدات³.

وقد احتوى على مقدمة شرح فيها الطريقة التي سار عليها في تفسيره وكان يرى أن المهمة الكبرى التي يجب أن يؤدّيها برنامج "أحاديث التفسير" لجمهور المسلمين - بصفتها أحاديث يومية عامة - هي

¹ التفسير والمفسرون أساسياته واتجاهاته ومناهجه في العصر الحديث، فضل حسن عبّاس، (322/3-323).

² التفسير والمفسرون في غرب أفريقيا، محمد بن رزق بن طرهوني، (360/1)، وتمة الأعلام، محمد خير رمضان، دار ابن حزم، بيروت ط: 2، سنة: 1422هـ، (225/2).

³ التفسير والمفسرون في غرب أفريقيا، محمد بن رزق بن طرهوني، (360/1).

وضع أيديهم كلّ مطلع فجر على الكنوز التي أودعها الله في القرآن، وتذكيرهم بالرسالة الأصلية للقرآن، التي هي رسالة الحياة في كلّ يوم، رسالة التوجيه الإلهي والتربية الربانية، التي يجب أن يتجلّى أثرها الطيب والدائم في حياتهم اليومية، ذلك أن آيات القرآن الكريم ليست قصّة من قصص الماضي السحيق يُكتفي بحكايتها والتبرّك بها في فترات الراحة والاسترخاء، ولا خبراً من أخبار الغابرين يقتصر على التلّهي بها في مجالس التسلية والسمر؛ وإنما هي رسالة الحياة المتجدّدة في كلّ عصر وجيل، وقصة اليوم والغد والحاضر والمستقبل، وهي مرآة المسلم الصافية التي يجب أن ينظر وجهه فيها كل مطلع شمس، ويعيّر سلوكه بمعيارها، ويكيف حياته بها في كل حين ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ الإسراء: ١٩. وعلم التفسير عند الشيخ الناصري يعتمد على خمس دعامات هي:

- 1 - اعتبار القرآن كتاب هداية الناس إلى الله وإلى السلوك الأقوم في الدنيا والنجاة في الآخرة.
- 2 - الاعتقاد بأن القرآن كتاب أحكام وسلوك عملي وكتاب عقيدة وتصور لقضايا الوجود.
- 3 - علم التفسير يتأسس على حسن التدبّر، وهي غاية لا تحقّق إلا بعد أن ينزّه المتدبر نفسه عن جميع الحُجُب التي تُوصد باب الفهم.
- 4 - تفسير الآيات والصور في إطار الظروف التي نزلت فيها، وتحليل الآيات في إطار الجو الذي نزلت فيه هو ما يدعو إليه كتاب الله نفسه.
- 5 - تفسير القرآن تبعاً لما دل عليه اللسان العربي الذي نزل به².

الفرع التاسع: تذييل للإنتاج التفسيري في الاتجاه الاجتماعي:

وهما تنبيهان بمثابة إضافة لما ذكر سابقاً، وهما:

أولاً: ملاحظة على النتاج التفسيري السابق ذكره: بعد عرض جهود الأعلام الذين تم ذكرهم في التفسير الاجتماعي والإنتاج التفسيري الذي تركوه للأمة، يمكن ملاحظة ما يلي:

- 1- أن بعضهم - كالأستاذ محمد عبده ومحمد مصطفى المراغي - لم يقصدوا التأليف قصداً، ويكفي أن الأستاذ محمد رشيد رضا قد كابد حتى وافق شيخه محمد عبده على تفسير القرآن، ونشر تلميذه محمد رشيد رضا له. أما الشيخ محمد مصطفى المراغي، فقد كان تفسيره دروساً دينية يلقيها في شهر رمضان أمام الملك فاروق الأول في المسجد.

¹ التيسير في أحاديث التفسير، محمد المكي الناصري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط: 1، سنة: 1985م، (7/1).

² النزعة الإصلاحية في التفسير بالغرب الإسلامي، عبد الرزاق هرماس، مجلة "الواضحة" العلمية المحكمة، دار الحديث الحسنية،

2- أنه غالبهم لم يكمل تفسير القرآن الكريم كاملاً ومرتباً، لأنهم لم يقصدوا ذلك ابتداءً، بل كانوا يختارون آيات معينة، أو سوراً محدودة أو جزءاً خاصاً للتفسير.

ثانياً: إضافة إلى الإنتاج التفسيري الذي سبق ذكره أثناء الحديث عن جهود الأعلام، يمكن إضافة بعض العناوين التي يستفاد منها في هذا المجال وهي:

1 - تفسير "جزء تبارك" للأستاذ عبد القادر المغربي، وطبع في المطبعة الأميرية سنة: 1366م، وقام بالتعليق عليها بتكليف من وزارة التربية والتعليم بالقاهرة الأستاذ: علي محمد حسب الله، وراجع التفسير الشيخ: عطية صقر من علماء المراقبة العامة للثقافة بالأزهر، ويقع في حوالي 136 صفحة.

2 - "المصحف المفسر" للأستاذ محمد فريد وجدي، وهو تفسير مختصر كامل للقرآن الكريم في مجلد واحد كبير الحجم تبلغ صفحاته 827 صفحة، وجاء التفسير مكتوباً على هامش القرآن الكريم.

3 - "تفسير المراغي" تأليف: الشيخ أحمد مصطفى المراغي، وهو تفسير كامل للقرآن الكريم، ويقع في عشرة مجلدات، وطبع أيضاً عدة طبعات.

4 - "تفسير جزء عم"، محمد المبارك عبد الله، مطبعة: محمد علي صبيح، صفحاته: 222¹.

6- تفسير "هيان الزاد إلى دار المعاد" في أربعة عشر مجلداً، وتفسير "تيسير التفسير للقرآن الكريم" في ستة أجزاء، للشيخ: محمد بن يوسف أطفيش.

7- تفسير "التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج" و"التفسير الوسيط"، لوهبة الزحيلي.

8- "مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير"، الشيخ: عبد الحميد بن باديس وهو دروس في التفسير، جمعت في مجلد واحد، عدد صفحاته 724 صفحة.

9- "في رحاب القرآن"، الشيخ إبراهيم بيوض، وهو دروس في التفسير كان يلقيها بمنطقة القارة.

10- تفسير "أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير"، أبو بكر جابر الجزائري، في خمسة مجلدات.

11- تفسير "نفحات الرحمن في رياض القرآن"، محمد سعيد كعباش، وهو تفسير في 14 مجلداً.

12- تفسير "الدر الثمين في تفسير الكتاب المبين"، التواتي بن التواتي، وهو تفسير من 20 مجلداً.

12- "من توجيهات القرآن الكريم من خلال تفسير سورتي الفاتحة والبقرة"، د: محمد بن عبد الكريم الجزائري.

¹ اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، فهد الرومي، (2/799-803).

المبحث الثالث: ترجمة الشيخ التواتي بن التواتي.

وسأتحدث في هذا المبحث عن الشخصية التي قامت عليها الدراسة كلّها وهي شخصية مفسّرنا الشيخ "التواتي بن التواتي"، هذه الشخصية المعاصرة الفدّة التي فاقت غيرها بكتب ودراسات كثيرة ممّا يدلّ على علوّ كعبها بين علماء الجزائر المعاصرين، فاستحقت تخصيصها بمبحث كامل، وسيكون الحديث عنها من جانبين: أولهما: الظروف والأوضاع العامة التي عاشت فيها هذه الشخصية، وثانيهما: الحديث عن هذه الشخصية من الجانبين الشخصي والعلمي، وذلك في مطلبين هما:

المطلب الأول: الأوضاع والظروف العامة التي نشأ فيها الشيخ التواتي.

المطلب الثاني: الحياة الشخصية والعلمية للشيخ التواتي.

وتفصيلهما كما يلي:

المطلب الأول: الأوضاع والظروف العامة التي نشأ فيها الشيخ التواتي:

ولد الشيخ التواتي في ظروف استثنائية كانت تمرّ بها الجزائر وهي المعاناة من ويلات الاستعمار الفرنسي الذي مر على احتلاله للجزائر 113 سنة، ولا شك أن هذا الأمر كانت له آثاره الاجتماعية والثقافية والسياسية على المجتمع الجزائري، ومن ثم على كلّ أبناء هذا الوطن ومنهم: الشيخ التواتي بن التواتي، وفيما يلي بيان للأوضاع العامة التي كان يعيشها المجتمع الجزائري على جميع المستويات قبل وبعد ولادة مفسّرنا، لما لها من تأثير مباشر على نشأة الشيخ، وهي كما يلي:

الفرع الأول: الأوضاع السياسية:

حاولت حصر الحديث في هذه المسألة على الفترة ما بين انتهاء الحرب العالمية الأولى إلى استقلال الجزائر، لأنّها أحداث متسلسلة كلّ واحد منها مهّد للآخر، حيث عاشت الجزائر ظروفًا صعبة، وقد قسمتها إلى ثلاث فترات هي:

الفترة الأولى: الحالة السياسية من انتهاء الحرب العالمية الأولى: 1918م إلى انتهاء الحرب العالمية الثانية 1945م:

وأحداثها باختصار: بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى سنة: 1918م، وإقامة فرنسا احتفالًا بمرور قرن من احتلالها للجزائر، الفرنسيين سنة: 1932م، وكانت قد تغيّرت الأوضاع السياسية العامة في الجزائر أثناء الفترتين وبدأ يظهر حراك سياسي تمثّل في ظهور عدّة حركات سياسية وإصلاحية أهمّها:

1- نشأة حزب نجم شمال إفريقيا: على يد الأمير خالد سنة: 1926م، والذي كان حفيد الأمير عبد القادر، وكان ضابطاً في الجيش الفرنسي، وكان مطلبه الأساسي الاستقلال عن فرنسا، وظهر ذلك من خلال جريدة "الإقدام" التي تعتبر الناطق الرسمي للحزب.

2- نشأة جمعية العلماء المسلمين في 5 ماي 1931م¹: على يد الشيخين: عبد الحميد ابن باديس والبشير الإبراهيمي، وذلك تأثراً بدعوة الشيخ محمد عبده ورجوع بعض المصلحين الجزائريين من الخارج، وكانت تمثل تياراً وطنياً إصلاحياً قوياً التفّ حوله كثير من الجزائريين من المدن والقرى والأرياف، وكانت مبادئها ملخصة في: الإسلام والعروبة والوطنية.

3- نشأة الحزب الشيوعي الجزائري: سنة: 1935م، ولكنه بقي على تبعية مع الحزب الأم في فرنسا من حيث تلقي الأوامر و التيارات السياسية، وقد ضمّ هذا الحزب الشيوعي الجزائري العديد من الشخصيات المهمة نذكر منها: عمار أوزقان والعربي بوهالي وعلي بوقرط وغيرهم . وكان للحزب الشيوعي علاقة مختلفة مع التيارات السياسية الوطنية.

4- نشأة حزب الشعب: وقد أنشأ بعد حلّ حزب نجم شمال إفريقيا سنة: 1937م بقيادة مصالي الحاج، وكان يسعى لتغيير الوضع القائم لتحقيق تحرير الوطن من الاحتلال، وذلك بالتربية السياسية والكفاح على كافة فئات الشعب للوصول إلى الغاية المرجوة².

5- نشأة الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري: والذي أسّسه فرحات عباس سنة: 1946م، وكانت للحزب صحيفة أسمها التفاهم تصدر بالغة الفرنسية وتنطق باسم الحزب، كان الحزب يعرض مساوئ الحكم الفرنسي في الجزائر، ويطالب بالمساواة في الحقوق والمعاملة بين الفرنسيين والجزائريين، ولم يكن يؤيّد الكفاح المسلّح أو الانفصال عن فرنسا، كما بيّن الدكتور بن جلّول وهو من مؤسسي الحزب، بل كان يطالب بالاندماج في فرنسا وتمثيل الجزائريين المسلمين في البرلمان الفرنسي والمساواة في الحقوق والواجبات بين الأوربيين والمسلمين، وقد توقّف نشاط الحزب عند اندلاع الثورة الجزائرية³.

¹ ووجه ذكر جمعية العلماء في الأوضاع السياسية في الجزائر، ما ذكره الشيخ التبسي في كلمة له ناقش فيها من يقول إن الجمعية لا تتدخل بالسياسة، ففي نظره أن جمعية العلماء هي جمعية لكل الجزائريين بحكم مبادئها، خاصة أن السياسة قد تدخلت في الدين - يقصد الحكومة الفرنسية- حيث قال: "لا تستطيع ألا تدخل في السياسة لأن هذه تدخلت في شؤون الدين الإسلامي، فيجب الدخول فيها". تاريخ الجزائر الثقافي، أبو القاسم سعد الله، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، سنة: 2007م، (23/10).

² أوضاع الجزائر السياسية من نهاية القرن التاسع عشر إلى بداية القرن العشرين، ورده سيساوي-بوذن مروة، مذكرة ماستر بإشراف: د: ياسر فركوس، جامعة قلمة، قسم التاريخ، سنة: 2023م، (ص: 35-41).

³ تاريخ الجزائر المعاصر، محمد العربي الزبيري، من منشورات اتحاد الكتاب العرب، سنة: 1420 هـ-1999م، (1/103).

ومّا سبق يتضح بأن التيارات والاتجاهات التي كانت سائدة في هذه الفترة تنقسم إلى أربعة هي:

- الاتجاه الثوري الاستقلالي (دعاة الاستقلال): ترعّمه الأمير خالد وبعده مصالي الحاج.

- الاتجاه الإصلاحى الإسلامى: بزعامة: ابن باديس، ومثله جمعية علماء المسلمين.

- الاتجاه الليبرالى الاندماجى: ترعّمه: فرحات عباس.

- الاتجاه الشيوعى: بزعامة: عمار أوزقان وغيره.

وقد كان لهذه التيارات الأثر الواسع على المجتمع الجزائري على جميع الأصعدة: ثقافيا واجتماعيا وسياسيا، حيث بدا جليّا في وعي القادة السياسيين وتغيير الاستراتيجية من المفاوضات السياسية إلى العمل الثوري، حيث أن انطلاقة الفاتح من نوفمبر كان سببها نضال الحركة الوطنية ولا سيما حزب الشعب الذي انبثقت هذه الأخيرة منه¹.

الفترة الثانية: الحالة السياسية: بعد الحرب العالمية الثانية 1945 إلى اندلاع الثورة التحريرية 1954م: وقد حدثت عدة تطورات وتغيرات أهمها:

1- مجازر 08 ماي 1945م: وذلك أن الجزائر كغيرها أُقحمت جبرا في الحرب العالمية الثانية إلى جانب فرنسا التي وعدت الجزائريين بالاستقلال عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية، وفعلا انهزمت ألمانيا واحتفل العالم بأسره بهذا الحدث، وأراد الشعب الجزائري أن يُذكر فرنسا بوعودها للجزائريين فخرجوا في مختلف المدن والقرى الجزائرية في مظاهرات سلمية مردّدين أناشيد الحرية والاستقلال ومطالبين بحقوقهم وإطلاق سراح مصالي الحاج، لكن الجيش الفرنسيّ قابلهم بمجازر إبادة راح ضحيتها أكثر من 45 ألف وآلاف المعتقلين، وكان العالم بأسره شاهدا على فظاعة هذه المجازر.

2- في 14-15 فيفري 1947م: تم تغيير اسم حزب الشعب ليصبح بعد ذلك "حركة انتصار الحريات الديمقراطية" ليكون واجهة يعمل خلفها حزب الشعب بطريقة شرعية وقانونية.

3- تزوير الانتخابات: حيث جاء دستور الإصلاحات في 20 سبتمبر 1947م كنتيجة سياسية لمجازر 8 ماي وكان يعارض مصالح الجزائريين تماما، فحاول قادة الأحزاب تشكيل اتحاد وطني يضم جميع الأحزاب للدخول في انتخابات جانفي 1948م وكان وراءه مصالي الحاج الذي كان يودّ أن يتفق الجميع على مجلس نيابي جزائري بسيادة تامة، وتمّت الانتخابات بالتزوير من الحاكم الفرنسي الذي عيّن

¹ مقال: الحركة الوطنية: تعريفها، أسباب ظهورها، تطورها وأثرها على مسار الثورة، صخري محمد، نشر بموقع: politics-dz ، بتاريخ: 03-07-2015، الرابط: <https://www.politics-dz.com/ar>.

مرشحين من طرف فرنسا، وقام باعتقال معظم الشخصيات الجزائرية وأصدر عليهم أحكاما لمدة 80 شهرا مع دفع غرامات مالية.

4- ظهور مستجدات على الساحة السياسية: مثل تحالف أعضاء حركة الانتصار للحريات مع الأحزاب الأخرى وبعدها اعتقال مصالي الحاج 1952م ونفيه إلى الخارج، وهذه الأحداث وغيرها أدت إلى حدوث انشقاق و ظهور ثلاث تيارات:

أ -المصاليون: ويرون في مصالي الحاج الأب الروحي ذو الصلاحيات المطلقة في إعطاء القرارات.

ب -أعضاء اللجنة المركزية: برئاسة يوسف بن خدة، فهؤلاء الأعضاء يرون أنه من الواجب الاستشارة الجماعية في اتخاذ القرارات.

ج -ظهور فئة محايدة (أعضاء المنظمة الخاصة): والذين لم ينضموا لا إلى المصاليين ولا إلى المركزيين.

5- اللجنة الثورية للوحدة والعمل: شكّلها محمد بوضياف ومصطفى بن بولعيد وغيرهم، وذلك للإعداد للثورة المسلحة، وفي جويلية 1954م عقدت جماعة 22 مؤتمرا يحثّ على الابتعاد عن كلّ الخلافات والعمل من أجل الكفاح المسلح للقيام بالثورة، وتم تشكيل لجنة الستة المكونة من (محمد بوضياف، مصطفى بن بولعيد، ديدوش مراد، العربي بن مهيدي، رابح بباط، كريم بلقاسم)، وفي 10 أكتوبر 1954م، اجتمع الأعضاء الستة لتحديد موعد انطلاق الثورة وتغيير اسم اللجنة ليصبح حزب: جبهة التحرير الوطني، ليختار الفاتح من نوفمبر 1954م لانطلاق الثورة واختير هذا اليوم موازاة مع احتفالات القوات الفرنسية بعيد المسيح¹.

الفترة الثالثة: اندلاع الثورة التحريرية واستقلال الجزائر 1945-1962م:

اندلعت ثورة التحرير في 1 نوفمبر 1954م ضد الاستعمار الفرنسي الذي احتلّ البلاد منذ سنة: 1830م أي: 132 سنة، ودامت ثورة التحرير الجزائرية طيلة سبع سنوات ونصف من الكفاح المسلح والعمل السياسي، وانتهت بإعلان استقلال الجزائر يوم 5 جويلية 1962م بعد أن قتل فيها أكثر من مليون ونصف مليون جزائري، وذلك ما أعطى الجزائر لقب بلد المليون ونصف المليون شهيد في الوطن العربي، حيث دارت الحرب بين الجيش الفرنسي والثوار الجزائريين، الذين استخدموا حرب العصابات

¹ مقال بعنوان: تحولات الحركة الوطنية الجزائرية بعد الحرب العالمية الثانية 1945-1954، د: قدادة شايب، مجلة العلوم الإنسانية،

العدد: 30 ديسمبر 2008، مج: أ، (ص: 145-156)، الرابط: <https://www.asjp.cerist.dz/en/article/3857>، ومقال: الحركة

الوطنية: تعريفها، أسباب ظهورها، تطورها وأثرها على مسار الثورة، صخري محمد، الرابط: <https://www.politics-dz.com/ar>.

بصفتها الوسيلة الأكثر ملاءمة لمحاربة قوة جرّارة مجهزة أكبر تجهيز خصوصاً وأن الثوار لم يكونوا يملكون تسليحاً معادلاً لتسليح الفرنسيين، كما استخدم الثوار الجزائريون الحرب البسيكولوجية بصفة متكاملة مع العمليات العسكرية، وقد كان الجيش الفرنسي يتكون من قوات الكوماندوز والمظليين والمرتزة متعددة الجنسيات، وقوات حفظ الأمن، وقوات الاحتياط، والقوات الإضافية من السكان الأصليين في الجزائر والذين أطلق عليهم اسم "الحركة".

وهكذا حظت قوات جيش التحرير الوطني التابعة للفرع العسكري من جبهة التحرير الوطني على تأييد الشعب الجزائري الكامل، بل والجالية الجزائرية في المهجر، وخاصة في فرنسا حتى انتهت الحرب بإعلان استقلال الجزائر في: 5 جويلية 1962م، وهو نفس التاريخ الذي أعلن فيه احتلال الجزائر في سنة 1830م، وقد تلا إعلان الاستقلال الجنرال شارل ديغول عبر التلفزيون مخاطباً الشعب الفرنسي، هذا بعد إعلان نتيجة استفتاء تقرير المصير في الفاتح من جويلية المنصوص عليه في اتفاقيات إيفيان في 18 مارس 1962م، وأعلن على إثره ميلاد الجمهورية الجزائرية في 25 من سبتمبر 1962م ومغادرة مليون من الفرنسيين المعمرين بالجزائر¹.

في هذه الظروف التي عاشتها الجزائر وُلد مفسرنا ونشأ وترعرع، وهي ظروف صعبة لم تعرف فيها الجزائر الاستقرار إلا بعد الاستقلال، فضلاً عن معرفة وجود مراكز علمية للتعليم، وقد بقيت آثار الاستعمار على الجزائر ممّا يؤثر تأثيراً مباشراً على حياة الشيخ ونشأته وتكوينه العلمي.

الفرع الثاني: الأوضاع الثقافية والدينية:

وسيكون الحديث عن تلك الأوضاع من خلال ما يلي:

أولاً: وصف الأحوال الدينية والثقافية العامة: بهدف القضاء على هوية الشعب وطمس معالم شخصيته الحضارية والدينية، طبقت فرنسا عدة إجراءات لتحقيق ذلك، فبالحديث عن الوضع التعليمي في الجزائر نجده متدنّياً بسبب الحرمان واللامساواة التي طبقت من طرف الإدارة الفرنسية لمنع الجزائريين من التعليم، لأن التعليم يخلق الوعي واليقظة ومقاومة الاحتلال والمطالبة بالحقوق السياسية.

ولما كانت اللغة العربية هي وعاء الثقافة العربية فقد ركّز الاحتلال على القضاء عليها في كل المجالات، ورسم اللغة الفرنسية وجعلها لغة العملة الرسمية، ونتيجة لهذا انتشرت الأمية حتى أصبحت بعد قرن وثلث من الاحتلال تشكّل 94.9% بين الرجال، و98.4% بين النساء.

¹ تاريخ الجزائر المعاصر، محمد العربي الزبيدي، (ص: 37-156).

وفي المقابل فإن النظام الثوري الجزائري اعتمد على المؤسسات التعليمية الموجودة مثل الكتاتيب القرآنية والمساجد التي كانت تحافظ على الشخصية الإسلامية، ووضع برنامج عام يشمل تعلّم القرآن الكريم وقواعد النحو والصرف والمواد الشرعية التي ترسخ مبادئ التربية الإسلامية، وكانت الدروس التي تُقدّم تركز على الدروس الدينية وتاريخ الجزائر، وكان تعليم القراءة والكتابة يتم إجباريًا في أواسط جيش التحرير الوطني، وعزز ذلك الطلبة المتحصّلون على قدر من العلم والمعرفة في البوادي والأرياف حيث قاموا بهذه المهمة أحسن قيام.

وفي المقابل قامت السلطات الفرنسية بإغلاق المدارس والمساجد التي تعلّم اللغة العربية وهدّمت الزوايا، وصادرت معاهد التربية والتعليم وضيّقت على العلماء والأئمة ودمّرت المساجد وحولتها إلى كنائس وإصطبلات، وكانت تشجّع وتموّل الحملات التنصيرية في القرى والمداشر، كما انتشرت مدارس التعليم الابتدائي في المدن والقرى وهي أساسا مدارس لتعليم التلاميذ الأوربيين وتطبيق برنامجها الفرنسي، وكان التلاميذ المسلمون يمثلون نسبة ضئيلة من مجموع المتدربين¹.

ثانيا: دور جمعية العلماء المسلمين: لا يمكن الحديث عن الحالة الثقافية والدينية للمجتمع الجزائري إبان الاستعمار الفرنسي دون الحديث عن جهود جمعية العلماء ودورها في التصديّ للحملة الفرنسية الشرسة في هذا الباب، فقد كان لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين الأثر البارز في نشر الدين الاسلامي ومبادئه السمحة، وكما اعتنت الجمعية بتعليم اللغة العربية التي كان لها الأثر الواضح في توعية النشأ وانتشال بعض أحضان الجهل، وكما قال البشير الإبراهيمي: "إن الشعب الجزائري مؤلف من عشرة ملايين وزيادة، كلّهم عرب أصلاء وكلّهم مسلمون متصلبون، والاستعمار الفرنسي عامل على مسخهم وإخراجهم من عروبته وإسلامهم، ولولا خصال فطرية في التصلّب والاعتزاز بجنسيتهم ودينهم وشرقيّتهم، ولولا جمعية العلماء وجهادها عشرة سنين في التمهيد وعشرين سنة في العمل؛ لبلغ الاستعمار منهم ما أراد، ولو ضاعوا لكان ضياعهم مصيبة على المجموعة العربية لأنه نقص في رأس مالها من الرجال المتشدّدين في عروبته"²، وعليه فإن الجمعية هيأت الشعب الجزائري روحيا ومعنويا للقيام بالثورة بتحريره من قيود الجهل وتنوير العقول بالعلم والمعرفة. ففي اجتماع الجمعية الذي انعقد في سبتمبر 1951م برئاسة الشيخ: البشير الإبراهيمي قُدمت التقارير المالية والأدبية ثم عرض نشاط الجمعية منذ سنة

¹ الحياة الاجتماعية والثقافية في الجزائر إبان الثورة التحريرية 1945-1962، بابا عروج نور الإيمان، مذكرة ماستر، جامعة محمد بوضياف المسيلة، قسم التاريخ: سنة: 2018، (ص: 19-20).

² آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، (279/4).

1943م، وخلاصة ما جاء في ذلك أنه أصبح للجمعية 123 مدرسة ذات هندسة منسجمة مع تاريخ العمران الإسلامي الأندلسي، وذلك أمر مقصود من الجمعية لتحافظ على الطراز التاريخي والذوق الفني، ولتفهم الأجيال تراث الأجداد، أما عدد المعلمين فقد بلغ 175 معلما.

كما أنشأت الجمعية معهد عبد الحميد بن باديس في قسنطينة، وكان إنشاؤه وفاء لرئيسها الشيخ: عبد الحميد ابن باديس، وقد أصبح المعهد يضم حوالي 700 تلميذ و12 معلما، والدراسة فيه تعتبر جسرا للتعليم الثانوي، فهو يوصل لشهادة الأهلية ثم ينتقل تلاميذه إلى الزيتونة للحصول على شهادة التحصيل أو الثانوية العامة، وكانت الجمعية تخطط لإنشاء كلية في قسنطينة للطلبة المتخرجين من جامع الزيتونة والمعاهد الإسلامية الأخرى¹.

وعادت جريدة "البصائر" للظهور، وهي كما قال عنها إبراهيمي: "سيف من سيوف الإسلام، وقبس من روحانية الشرق حملت على الاستعمار، وشاركت في قضية فلسطين وانتقدت العرب المتخاذلين، ومنعت من دخول المغرب الأقصى لأنها تبنت قضيته الوطنية ونددت بتصرف الاستعمار فيه، وأضاف إبراهيمي أن البصائر "استردت للجزائر ما كانت مغبونة فيه من حسن السمعة"².

كما تحدث إبراهيمي عن نشاط الجمعية في فرنسا ولماذا اختارت أن ترسل مندوبا عنها إلى الجالية الجزائرية هناك، وهي الجالية التي بلغت أكثر من مائة ألف نسمة، ولها أطفال بلغوا العشرين ألفا وكلهم يُقَضُّون مضاجع الجمعية الحريصة على توصيل رسالة الإسلام واللغة العربية إلى هذه الجالية وتعتبر نفسها مسؤولة على رعاية الجالية دينيا وأخلاقيا في بلاد الغربة، لذلك أرسلت وفدا من الشيوخ منهم الفضيل الورثياني، وسعيد صالحى وعبد الرحمن اليعلاوي، ثم الربيع بوشامة وسعيد البيباني، وهؤلاء بذوا جهودا جليلة لتعليم الدين والأخلاق واللغة العربية وإلقاء دروس الوعظ والإرشاد بما يربط الجالية بوطنها ودينها خوفا عليها من الضياع في الحياة الفرنسية. وبينما فشلت الجمعية في الحصول على مركز في باريس حتى بعد سفر إبراهيمي إليها فإنها نجحت في الحصول على مكتب في القاهرة، وهم أنفسهم قاموا بتدبير بعثات طلابية للجزائريين من قبل حكومة مصر وباكستان³.

¹ مقال: الحركة الوطنية: تعريفها، أسباب ظهورها، تطورها وأثرها على مسار الثورة، صخري محمد، الرابط:

[./https://www.politics-dz.com/ar](https://www.politics-dz.com/ar)

² آثار الإمام محمد البشير إبراهيمي، (438/2).

³ تاريخ الجزائر الثقافي، أبو القاسم سعد الله، (23-21/10).

ولد ونشأ الشيخ التواتي في هذه الظروف والأوضاع العصيبة التي كانت تمسّ أيضا مدينة الأغواط مسقط رأس التواتي باعتبارها أحد مدن الجزائر يجري عليها ما يجري في البلاد، ممّا يعطينا صورة عن صعوبة التعليم في ذلك الزمان لما رأيناه من تضيق المستعمر في هذا الباب إلا الجهود التي قامت بها جمعية العلماء، ومع ذلك وفق الله هذا الرجل الشيخ التواتي لطلب العلم وتحصيله حسب المتاح، ولذلك انضم إلى الجمعية وكان من طلابها الذين صار لهم شأن كما سيأتي ذكره في نشأته العلمية.

الفرع الثالث: الحالة الاقتصادية:

لاشك أن يكون للاستعمار الفرنسي للجزائر أثر على جميع النواحي المعيشية والتي منها: الجانب الاجتماعي والاقتصادي الذين يعتبران عصباً أساسياً في حياة الفرد الجزائري، وقد سلكت فرنسا عدة سياسات اتجه الشعب الجزائري لجعله عاجزاً تماماً عن القيام بشؤون حياته فيستسلم للفرنسيين ليُبقى على حياته، ومن الأساليب التي استخدمها الاستعمار الفرنسي في ذلك:

أولاً: السياسة الاستيطانية الفرنسية في الجزائر: حيث انتهجت فرنسا سياسة شيطانية للاستحواذ على ممتلكات الجزائريين وتشجيع غير السكان الأصليين للانتقال إلى الجزائر، من أجل تكوين قوة بشرية تغلب على السكان الأصليين، بالاستحواذ على أراضي الجزائريين ونقل ملكيتها للمستوطنين الأوروبيين وتأمين استقرارهم بالجزائر، حتى صار ثلاثة أرباع السكان يملكون أقل من خمسة هكتارات من الأرض للواحد، وأصدرت قوانين متعلقة بالاستيلاء الغابات مثل: منع الرعي وقلع الأعشاب منها... الخ.

ثانياً: فرض الضرائب المحقة على الجزائريين: وذلك ضمن السياسة المالية لفرنسا تجاه الجزائريين والتي تسببت وبشكل مباشر في إفقارهم، فقد أبقت الإدارة الاستعمارية على الضرائب التي كانت موجودة في العهد العثماني وكانت ذات طابع ديني، فصار هناك نوعان من الضرائب: الضرائب العربية؛ وهي أربعة أنواع: العشور، الحكور، الزكاة، واللزمة، والضرائب الأوروبية التي فرضتها الإدارة الاستعمارية.

ثالثاً: الاضطرار للشغل بأجور زهيدة: حيث دفع تضاًؤل مصادر دخل الجزائريين للشغل من أجل تحسين أوضاعهم وتأمين متطلبات معيشتهم، ويعود بصورة رئيسية إلى الملاك الصغار الذين انتزعت ملكياتهم، أو الخماسين الخواص الذين يزاولون الأعمال اليدوية لدى المستوطنين الأوروبيين¹.

¹ مقال: جوانب من مظاهر الفقر وتداعياته الاجتماعية والاقتصادية لدى الجزائريين خلال فترة الاستعمار الفرنسي، د: عمر مقدم،

مجلة دراسات تاريخية، مج: 9، العدد: الأول، سبتمبر 2021، (ص: 182-188). الرابط:

<https://www.asjp.cerist.dz/en/article/163893>

رابعاً: احتكار الصناعة: عملت فرنسا على محاربة التصنيع، وكانت تصدر المعادن المستخرجة على شكل مواد خام، وكانت كل مساهمات الشركات التي تقوم باستخراج المعادن من الفرنسيين. خامساً: احتكار التجارة: فقد وصلت إلى حد كبير من التدهور، لأن الفرنسيين لا يبدون أي رغبة في إقامة علاقات تجارية مع داخل البلاد، يضاف إلى ذلك أن التجارة أصبحت بيد الأوروبيين وأن التاجر العربي الصغير مضطر إلى أخذ بضاعته منهم.

كما كانت الكوارث الطبيعية عاملاً فاعلاً في فقر الجزائريين وانخفاض مستوى معيشتهم، بسبب الجائحة، والأمطار والثلوج كثيرة التي تفيض منها الوديان، وتسبب في موت كثير من المواشي¹.

الفرع الرابع: الحالة الاجتماعية:

والحديث عن الحالة الاجتماعية للجزائريين في ذلك الوقت يكون في عدة نقاط هي:

أولاً: التركيبة المجتمعية للسكان: إذا نظرنا إلى التركيبة السكانية التي تشكل الجزائريين نجدها من أصلين؛ أولهما: الأصل الأمازيغي "البربر"، وثانيهما: الأصل العربي الوارد مع الفتوحات الإسلامية.

وأما زمن الاستعمار الفرنسي فقد انقسم المجتمع الجزائري إلى قسمين:

- الأول: يتكون من الجالية الأوربية، حيث وصل عددها إلى حوالي 800 ألف نسمة، بعد أن أتيحت لها فرصة الاستيلاء على أهم النشاطات الاقتصادية في البلاد، وبذلك احتلوا مراكز اجتماعية هامة لثرائها، والطابع الذي ميّز هذه الفئة هو التعصب والعنصرية ضد الجزائريين، وقد انضم لهذه الجالية الإقطاعيون والرأسماليون لمعارضة كل إصلاح يهدف إلى ارتقاء المجتمع الجزائري.

- الثاني: يتكون من الشعب الجزائري الذي وصل عدده إلى أكثر من 10 ملايين نسمة يحتلون المركز الأدنى من السلم الاجتماعي، وتتميز هذه الفئة بالحرمان والتمهيش في كل الميادين.

وقد اعتمد الاستعمار على سياسة "فرّق تسد" على أساس الطائفية والجهوية والقبلية، فعانى الجزائريون الكثير من هذه السياسة التي كانت تؤدي إلى الصدامات وتكريس الطبقية والعمالة².

ثانياً: ظاهرة الهجرة: لعبت الظروف الاجتماعية والاقتصادية السيئة دوراً بارزاً في حركة الهجرة سواء داخل الوطن أو خارجه، بالإضافة إلى السياسة الاستعمارية الجائرة، والتغلغل الاستيطاني، وعمليات المصادرة والاستغلال والاستنزاف البشري والاقتصادي، وقد كانت أغلب الهجرات من النخب الدينية

¹ الحياة الاجتماعية والثقافية في الجزائر إبان الثورة التحريرية 1945-1962، بابا عروج نور الإيمان، جامعة محمد بوضياف المسيلة، قسم التاريخ: سنة: 2018، (ص:15).

² الحياة الاجتماعية والثقافية في الجزائر إبان الثورة التحريرية 1945-1962، بابا عروج نور الإيمان، (ص:30-41).

والعلمية الرائدة، التي كانت فاعلة ومؤثرة في الهيكل الثقافي والنسيج الاجتماعي بسبب التضيق عليها، فظهرت الهجرة إلى المشرق أو المغرب خاصة إلى تونس والمغرب الأقصى.

كما أن ظاهرة الهجرة اشتدت من الريف إلى المدينة ابتداء من سنة: 1948م، خاصة بعد تعرضهم لضغط المستوطنين، فاضطروا لبيع أراضيهم بأبخس الأثمان، فمثلا: نجد قسما كبيرا من سكان منطقة متيجة الخصبة هجروا أرضهم واتجهوا غربا إلى وهران.

ثالثا: الجانب الصحي: كان العلاج تقليديا بدائيا مع وجود مجموعة من العراقيين خصت كيفية تنظيم نقل الجرحى وجمع الأدوية، خصوصا التضميد وأدوات الجراحة الخفيفة، وازداد الوضع سوءا بعد إلقاء الاستعمار الفرنسي القبض على بعض المواطنين المكلفين بجلب الأدوية، وهكذا أصبحت الظروف أصعب، بحيث أجريت العمليات بطرق بدائية جدّا؛ فاستعمل المنشار الحديدي لقطع العظام والخيوط العادي لخياطة اللحم، واستعمل بدل الكحول العطر، وتجري هذه العمليات والمريض غير مخدّر، وبسبب ندرة الدواء وفرض الرقابة على الصيدالة لجئوا إلى الأدوية الشعبية المعروفة آنذاك: العسل والزيت، واستمر الوضع إلى غاية التحاق الطلبة الجامعيين والثانويين بصفوف ثورة نوفمبر بعد إضراب 19ماي 1956م، وكان بينهم أطباء وجراحون عزّزوا صفوف الثورة وأصبحوا نواة القطاع الصحي¹.

رابعا: حال المرأة الجزائرية: ممّا ركّز عليه الاستعمار الفرنسي في احتلاله للجزائر: المرأة المسلمة؛ حيث أراد تشويه صورتها ووصفها بالانغلاق وأنها مخلوق مغلوب على أمره مُضطهد مُنوع عن جميع حقوقه، وفي المقابل بذلت فرنسا جهودا كبيرة من أجل إنقاذها من بيئتها المنغلقة على نفسها وتمكينها أن تعيش حريتها الخالصة دون قيود أو شروط تكبلها وتحّد من قدراتها بزعمه؛ يقول الدكتور أبو القاسم سعد الله: "ومن الموضوعات التي شغلت هؤلاء الكتاب: المرأة والعادات؛ فقد تحدّثوا عن وضع المرأة الاجتماعي، وخلقها ولباسها وأعمالها وأوقات فراغها، واهتموا بما أسموه بالحياة الريفية من فروسية ومرابطة وصفوف (عداوات)، وألّف "يوجين دوماس" كتابا كاملا عن (المرأة العربية) وآخر عن (الخيول العربية)"². غير أن المرأة الجزائرية الحرّة لم تستملها تلك العروض والمغريات، فكان لها دور كبير في دعم الثورة التحريرية، فوقفت إلى جانب أخيها الرجل وجمعت بينهما فكرة مشتركة نبيلة في أرض مغتصبة يجب أن تحرّر من الظلم والاستعمار المشترك، وبالرغم من الظروف الشاقة والمزربة التي عاشتها المرأة الجزائرية، والعادات التي فُرضت عليها، فإنها كافحت وتحملت المشقة، فامتهنت أعمال التطبيب

¹ الحياة الاجتماعية والثقافية في الجزائر إبان الثورة التحريرية 1945-1962، بابا عروج نور الإيمان، (ص: 30-41).

² تاريخ الجزائر الثقافي، أبو القاسم سعد الله، (383/6).

والتمريض ونقل الأخبار، إضافة إلى المساعدة التي تضمن لفرق جيش التحرير المتنقلة الراحة، وتوفّر للمجاهدين ما يحتاجونه من غذاء ونظافة، فبمجرد أن تصل فرقة من المجاهدين أحد البيوت، نجد الجزائرية في البوادي تسارع بتحضير الأكل، وتقوم بدور الحراسة فتنبّه الجنود لأول إشارة خطر، ومن أعمالها أيضا إخفاء سلاح الفدائيين بعد إنجاز عملياتهم، ومرافقتهم إلى مكان آمن متحديّة حراسة العدو، كما نجدها تحمل العتاد والوثائق المتضمنة أسرار الثورة وتسلمها إلى المسؤولين المعيّنين¹.

في ظل هذه الظروف الاقتصادية والاجتماعية التي سبق ذكرها، ولد الشيخ التواتي ونشأ؛ بل وكان جزءا منها حيث شارك في الثورة التحريرية كما سيأتي ذكره في ترجمته، ولا شك أن مثل هذه الظروف تؤثر تأثيرا مباشرا على تكون شخصية المواطن الجزائري الأصل، الذي يتربّى على بغض فرنسا للنخاع.

المطلب الثاني: الحياة الشخصية والعلمية للشيخ التواتي:

بعد الحديث عن الظروف العامة التي صاحبت ميلاد ونشأة الشيخ التواتي، سأحدث عن الحياة الشخصية والعلمية للشيخ وذلك لتعرف مكانته وعوامل نبوغه، وسيكون الحديث عن ذلك من ناحيتين جعلت كلّ واحدة منهما تحت فرع وهما:

الفرع الأول: الحياة الشخصية للشيخ التواتي بن التواتي:

والحديث عنها من خلال عدة جوانب هي:

أولا: اسمه ومولده ونسبه: هو التواتي بن الحاج إبراهيم بن مبارك بن التواتي الأغواطي.

ولد في: 1943/09/01م بالأغواط، وهو من أعلام الأغواط الأصليين²، قال في نسبه الأستاذ: رضوان معاش: "نسب الشيخ بن التواتي ينتهي إلى الرسول ﷺ"¹.

¹ مقال بعنوان: المرأة الجزائرية وأدوارها الإنسانية خلال الثورة التحريرية الجزائرية 1954-1962، أ: محمدي أحمد، مجلة قبس للدراسات الإنسانية والاجتماعية، مج: 3، العدد: 2، ديسمبر: 2019، (ص: 680-686). الرابط: <https://www.asjp.cerist.dz/en/article/105177>

² الأغواط: هي إحدى المدن الجزائرية، تبعد عن الجزائر العاصمة بحوالي 400 كلم، تشتهر بالنخيل وبساتينها الضاربة في جذور التاريخ، يعود أصل تسميتها إلى سلسلة الجبال المحيطة بالمدينة L'AGUADES التي تشبه شكل المنشار، وهناك قول يدعي أنها جمع كلمة الغوطة والتي تعني: السهل المنخفض الواسع ومجتمع النبات والماء، والأصح أن اسم الأغواط جاء من قبيلة لقواط الأمازيغية، كما ذكر هذا العلامة ابن خلدون. (وأما لقواط) وهم فخذ من مغراوة أيضا فهم في نواحي الصحراء ما بين الزاب وجبل راشد، ولهم هنالك قصر مشهور بهم. ينظر: تاريخ ابن خلدون (65/7)، ومقال بعنوان: تاريخ ولاية الأغواط الجزائر، مجلة مدينة الأغواط، نشر

في: أغسطس 2020، الرابط: <https://magazinlaghouatcity.blogspot.com/2020/08/history-of-province-of-laghouat-algeria.html>

والتواتي: نسبة إلى جدهم الأول، حيث أن العرب لما دخلوا مدينة الأغواط لجأ أهلها إلى جبال كسال، فكُونُوا هناك مدينة أطلقوا عليها "أغواط كسال"، ولما حسن إسلامهم عادوا، لكن الجد الأول للشيخ التواتي ذهب إلى "توات"، و لما رجع إلى الأغواط قال سكانها: "رجع التواتي" نسبة منهم له إلى "توات" التي لجأ إليها، ومكث فيها والتحم مع العرب حتى أصبحت له مكانة مرموقة عند القبائل العربية في عهد الأتراك؛ إذن أصلهم أمازيغ عربهم الإسلام، كما صرح التواتي بذلك قائلا: "أصلي أمازيغي، كما قال محمد الغزالي عربني الإسلام"².

وعنوانه الشخصي هو: التواتي بن التواتي، حي الواحات الشمالية، رقم: ص.ب 7140 الأغواط.

وعنوانه البريدي هو: hadj_Touati2012@yahoo.com

ثانيا: مذهبه الفقهي: لا ريب أن الشيخ التواتي بن التواتي كان على مذهب الإمام مالك -رحمه الله- لأنه المذهب السائد في بلده والذي تفقه عليه مفسرنا، وبقي حياته كلها يشرح كتب المالكية ويؤلف في نفس المذهب، ولا أدل على ذلك من موسوعته الفقهية بعنوان "المبسّط في الفقه المالكي بالأدلة" والتي بسط فيها مذهب مالك في خمسة مجلدات، وكذلك كتابه "محاضرات في الفقه المالكي"، وغير ذلك من الدروس والمحاضرات التي كان يلقيها في هذا الباب.

وقد صرح الشيخ التواتي بمذهبه الفقهي في غير موضع من تفسيره، منها قوله أثناء تعداده لمصادر تفسيره التي ذكر منها تفاسير المالكية ثم قال: "اعتمدت على كتب التفاسير أذكر منها: ... جامع الأحكام للقرطبي والبحر المحيط لأبي حيان الأندلسي وكذا ابن عرفة، كانت هذه الكتب الثلاثة بجانب طيلة انقطاعي لهذه المهمة الصعبة لأن أصحابها من أعلام مذهبنا..."³، وقال أيضا بعد حكايته الخلاف في مسألة جريان الربا في الماء، فقال: "والنتيجة التي نطمئن ونميل إليها ونقول بها على فتوى فقهاءنا المالكية: أن جريان الربا فيه صحيح، لعدم التفاضل"⁴.

¹ موقع: "منتديات الشروق"، منتدى القرآن الكريم، بتاريخ: 2016/06/27، من تقرير بعنوان: العلامة ابن التواتي الجزائري الذي

فسّر القرآن في 20 مجلدا، تغطية: زهرة مجراب وقدور جربوعة، الرابط: <https://montada.echoroukonline.com/showthread.php?t=345781>

² مقابلة الطالبة: هاجر بوغرة مع الشيخ التواتي بن التواتي في بيته، يوم: 13 نوفمبر 2018م، على الساعة: 14:11، الرابط: https://justpaste.it/Imam_touati

³ الدر الثمين في تفسير الكتاب المبين، التواتي بن التواتي، دار الحكمة، الجزائر، ط: 1، سنة: 2016م، (29/1).

⁴ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (285/4).

ومع ذلك فقد كان يخالف المذهب أحيانا إذا ظهر له رجحان غيره، ففي مسألة: الحج بالمال الحرام، ذهب إلى أنه لا يصح، مخالفا بذلك مذهب المالكية فقال: "فمن كان كسبه من مال حرام أي: من الربا، أو رشوة، وأنه غصب مال غيره فلا حج له"¹. وهو في هذا يخالف مذهب المالكية والجمهور كأبي حنيفة والشافعي، الذين ذهبوا إلى أنه مجزئ مع الإثم، وقال أحمد: لا يجزؤه².

كما ينبغي التنبيه على أن الشيخ لم يكن متعصبا للمذهب المالكي إذا خالف الدليل، بل صرح بدم التعصب للأئمة دون دليل فقال: "تنبيه هام: إن هذا الأمر مشاهد في عصرنا في جماعة من مقلدي المذاهب، فكثير من الآيات من كتاب الله تعالى في بعض المسائل تخالف ما نص عليه بعض الفقهاء إلا أنهم لم يقبلوا تلك الآيات، ولم يلتفتوا إليها وأصروا على مخالفة ما هو نص ظاهر في الكتاب والسنة قائلين: كيف يعمل بظواهر هذه الآيات مع أن الرواية عن سلفنا وردت على خلافها، ولو تأملت حق التأمل وجدت هذا الداء ساريا في عروق الأكثرين من أهل الدنيا، ويجب أن نبرئ أئمتنا الأعلام - كالإمام مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد وغيرهم من أئمة الأعلام جميعا³ - من مخالفة الكتاب والسنة فعنهم أخذنا وبعلمهم استترنا، وإنما الخطأ في الأتباع حين أصروا على المخالفة، ولدي كثير من الأقوال دُست على أعلامنا ولم يقولوها البتة"⁴.

كما أن الشيخ التواتي كان مطلعاً اطلاعاً واسعاً على مذهب الإباضية لأنه اشتغل به طويلاً أثناء جهوده وسعيه في التقريب بين المنتمين للمذهبين وَوَادَّ نار الفتنة في الأحداث التي حدثت في ولاية غرداية بين المالكية والإباضية، حتى أنه ألف كتاباً في الفقه المقارن بين فقه المالكية والإباضية، بين فيه أوجه الاتفاق والاختلاف بين المذهبين مما يدل على سعة اطلاعه فيه.

ثالثاً: ثناء معاصريه عليه: نظم مجمع الشروق مهرجاناً تكريمياً احتفاءً بالشيخ: التواتي بن التواتي، ألفت فيه كلمات أجمع فيها الحضور على رسوخ الشيخ في العلم والنصح والإصلاح خصوصاً خلال الفتنة التي ضربت أبناء غرداية -المالكية والإباضية-، ومما قيل في الثناء عليه:

¹ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (509/3).

² موسوعة مسائل الجمهور في الفقه الإسلامي، محمد نعيم محمد هاني ساعي، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، مصر، ط: 2، سنة: 1428هـ-2007م، (339/1).

³ وقد ألف في ذلك ابن تيمية كتاباً قيماً سماه "رفع الملام عن الأئمة الأعلام"؛ ذكر فيه براءة الأئمة ممن يتبعهم بغير دليل، وعذرهم في ترك بعض الأدلة التي قد تبدوا واضحة... الخ. ينظر: رفع الملام عن الأئمة الأعلام، ابن تيمية، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض، المملكة العربية السعودية، سنة: 1403هـ-1983م، (33/9).

⁴ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (196/10).

1- الشيخ: محمد مكركب - ممثل جمعية العلماء المسلمين-: حيث قال: " الشيخ عالم من علماء الجزائر وقطب من الأقطاب الأمة الإسلامية جمعاء".

2- الأستاذ: رضوان معاش: -الأمين العام لوزارة الشؤون الدينية والأوقاف-، أثنى على الشيخ بقوله: إن نسب الشيخ التواتي ينتهي إلى الرسول ﷺ، فهو جهيد وعالم عرفته وحظيت به مؤسسات التعليم الجزائرية ومساجدها، فكان نعم الداعية والمصلح والفقير والمؤلف الذي أثرى المكتبات الجزائرية بعشرات المجلدات التي ساهمت في الحفاظ على المرجعية الوطنية".

3- ابنه الدكتور: عبد القادر -أستاذ اللسانيات بجامعة الأغواط-: قال بأن هناك ثلاث خصال جعلت من والده عالما في علوم القرآن وهي: الإرادة في العمل والمثابرة بالكد والجهد فيه، ثم الطموح بالسعي إلى المبتغى رغم الصعاب، وصولا إلى الوفاء الذي يرمز للصدق والإخلاص في العمل.

4- الأستاذ: عدة فلاح: -برلماني سابق- حيث قال: " الشيخ التواتي ولحظه على وحدة الجزائر ووحدة الصف بين أبناء غرداية ولتفويت الفرصة على أعدائها، قام بتأليف كتاب تناول فيه الإباضية والمالكية حيث توصل الشيخ -حسبه- إلى فوارق بسيطة جدا"¹.

رابعا: وظائفه وأعماله: شغل الشيخ التواتي عدة وظائف ومناصب في مسيرته أهمها:

1- عمل في حقل التربية والتعليم في مختلف الأطوار التعليمية أكثر من 46 سنة؛ حيث التحق بقطاع التعليم الابتدائي وبعده تدرّج في التعليم المتوسط ثم الثانوي، ثم التقاعد سنة: 1998م، ودرّس بجامعة عمار ثليجي بالأغواط أكثر من عشرين سنة.

2- بعد التقاعد وبالضبط سنة: 2000م، حصل على الماجستير ببحث في النحو وأصوله بعنوان: "الأخفش الأوسط وآراؤه النحوية"، وبعده سجل لرسالة الدكتوراه في القراءات التي نالها سنة 2004م بعنوان: "القراءات وأثرها في النحو العربي والفقهاء الإسلامي" بدرجة مشرف جدا.

3- قضى حوالي عشرين سنة بالتدريس في جامعة عمار ثليجي بالأغواط أستاذا مشاركا، فأشرف وناقش العديد من البحوث العلمية: رسائل الماجستير والدكتوراه في اللغة والفقهاء.

4- كُلف من طرف مديرية الشؤون الدينية بالإمامة وتقديم الدروس والمحاضرات بمساجد الولاية.

5- عضو اللجنة القطرية لمشروع "الذخيرة العربية" الذي تبنته جامعة الدول العربية.

6- عضو هيئة التحرير لمجلة مجمع اللغة العربية الجزائري.

¹ العلامة ابن التواتي الجزائري الذي فسّر القرآن في 20 مجلدا، تغطية: زهيرة مجراب وقدور جربوعة.

7- عضو جمعية اللسانيين الخليليين.

8- مفتي الأغواط، ومفتي المذهبين: الإباضي والمالكي باعتباره مطفئ نار الفتنة بين المذهبين¹.

الفرع الثاني: الحياة العلمية للشيخ التواتي بن التواتي:

والحديث عنها من خلال عدة جوانب هي:

أولاً: نشأته وطلبه للعلم: تربى التواتي في عائلة كريمة تحب العلم و تبجل أهله، كما أنها عائلة ذات مستوى معيشي ميسور الحال، فقد كان جدّه الحاج سليمان مّوّالا، ووالده الحاج مبارك من حملة كتاب الله تعالى، كما كانت أسرته ذات علاقة طيبة بالزاوية الرحمانية؛ هذه الزاوية التي كانت لها مكانة عند مشايخ الزوايا في ذلك الوقت وعندها سلطة أدبية عليهم واحترام وتقدير، فكان أبناء التواتي كلّهم يلتحقون بالزاوية الرحمانية لحفظ القرآن الكريم، ولذا فإنه ومنذ حادثة سنّ مفسّرنا نشأ محبا للعلم مسحرا بحياته له، حيث حثّه والده على حفظ القرآن الكريم فحتمه وهو لم يتجاوز التاسعة من عمره، ثم التحق بالمدرسة الفرنسية "المدرسة الأهلية" وهو ابن تسع سنوات تقريبا، وبهذه المدرسة أخذ مبادئ اللغة الفرنسية واستطاع التدرج حتى تحصّل على شهادة دبلوم وطنية مع مرتبة الشرف (BEPC)².

وأما عن أهم محطاته في تحصيل العلوم الشرعية وطلب العلم فهي كما يلي:

1- فبالنسبة للقرآن الكريم: أخذ القرآن الكريم بالزاوية الرحمانية في فترة وجيزة جدّا عن الشيخ كويسي المبروك، حيث تعلّم بمدارس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ثم التحق بجيش التحرير الوطني الجزائري، وبعد الاستقلال أعاد حفظ القرآن عن الشيخ غالم محمود³.

2- وبالنسبة للفقه والأصول: فقد أخذها عن الشيخ أبي بكر الحاج عيسى؛ حيث اتصل به وأخذ

عنه كتاب "الموافقات" للشاطبي، و"بدائع الفوائد" لابن القيم، وكتاب "المحصول في علم

الأصول" للرازي، وذلك بعد التخرج من الجامعة؛ حيث لا زمه لسنوات وكانت الحلقة منتظمة، فكان الشيخ أبو بكر يطالبه بالحفظ واستظهار ما تقرر وما دار بينهما من شرح، ثم التلخيص لها وشرحها بين يديه، ليصحح ما يراه مجانباً للصواب.

3- وبالنسبة للغة العربية: فقد أخذها عن علّم من أعلام العالم العربي، ورئيس الجمع اللغوي "عبد الرحمن الحاج صالح" الذي كانت تربطه به علاقة تتلمذ ورابطة صداقة، جمعت به إلى آخر حياته¹.

¹ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (6/1)، ومقابلة الطالبة: هاجر بوغرة مع الشيخ التواتي بيته يوم: 13 نوفمبر 2018م.

² مقابلة الطالبة: هاجر بوغرة مع الشيخ التواتي يوم: 13 نوفمبر 2018م.

³ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (5/1).

ثانيا: شيوخه: تتلمذ الشيخ التواتي على عدة مشايخ، منهم:

1- الشيخ كويسى مبروك -رحمه الله-: وهو من مواليد سنة: 1908م، أحد كبار رجالات العلم والدين والفقه، وكان موسوعة في التاريخ الإسلامي عموما وخصوصا ميدان أصول العائلات والعروش المحلية والشيوخ والعلماء داخل الوطن وخارجه يجيد اللغة الفرنسية، استمرت رحلته مع تدريس القرآن الكريم ستين سنة في كتابه المشهور في حي: الشطيطة الغربي بالأغواط، تخرّج على يديه مئات الطلبة داخل الأغواط وخارجها، ومنهم مفسرنا: التواتي بن التواتي. كان يشتغل في مهنة النجارة التي برع فيها، وكان يرجع إليه في أواخر أيامه في الكثير من المسائل الفقهية وفك النزاعات حتى وافته المنية يوم 04 أفريل سنة: 2008م، وعمره مائة سنة². أخذ عنه الشيخ التواتي القرآن الكريم بالزاوية الرحمانية.

2- الشيخ أبو بكر الحاج عيسى الأغواطي التلمساني: ولد عام 1912م بالأغواط، أصله من تلمسان، وحين سافر جده للحج مر بمدينة الأغواط فعرض عليه سكاها البقاء فيها، فقبل عرضهم واستقرّ هناك، تخرج من جامعة الزيتونة ودرّس فيها سنة كاملة، ثم أخذ عن عبد الحميد بن باديس وشاركه في التدريس، ومن جملة تلاميذه: التواتي وأحمد حماني، توفي يوم: 28/07/1987م³. أخذ عنه الشيخ التواتي: علّمي الفقه والأصول، ولجأ إليه مفسرنا حين تخرج من الجامعة فقال له: "يا سيدي أعطني علما" فقال له الحاج أبو بكر: "كنت تدرس في الجامعة"، فرد عليه التواتي: "الجامعة لا تعطيك علما، إنما تضعك على حافة العلم"⁴.

3- البروفيسور عبد الرحمن الحاج صالح: ولد سنة: 1927م، بمدينة: وهران، وهو ينتمي إلى عائلة عريقة، درس بمدارس جمعية العلماء الجزائريين، انضم في شبابه إلى حزب الشعب الجزائري سنة 1947م، ثم انتقل إلى مصر بسبب تضيق السلطات الفرنسية عليه وانتسب هناك إلى كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر، عُيّن عضوا في مجمع اللغة العربية بدمشق سنة: 1978م، وفي سنة: 1988م عُيّن عضوا مراسلا

¹ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (6/1)، ومقابلة الطالبة: هاجر بوغرة مع الشيخ التواتي بيته يوم: 13 نوفمبر 2018م.

² مقال موسوعة الأغواط في الفكر الإسلامي، عطاء الله حمدي، بتاريخ: 7 نوفمبر 2013، الرابط:

<http://sidielhadjajissa.over-blog.com/article-121003757.html>

³ مقال: نابغة الأغواط: العلامة الشيخ: أبو بكر الحاج عيسى، مجلة الإصلاح، سمراد سمير، مج: 4، عدد: 23، سنة: 2010م.

⁴ مقابلة الطالبة: هاجر بوغرة مع الشيخ التواتي بن التواتي في بيته، يوم: 13 نوفمبر 2018م.

بمجمع اللغة العربية بالقاهرة، وعين عام 2000م رئيساً للمجمع الجزائري للغة العربية، وافته المنية سنة: 2017م. أخذ عنه التواقي علوم اللغة العربية ولازمه ملازمة تلمذة وصدقة¹.

4- أحمد أبو زيد قصيبة الأغواطي: ولد بالأغواط في: 1919م، نشأ في كتابتها، وتعلم على بعض علماء جمعية العلماء كـ مبارك الملي والسعيد الزاهري، ثم انتقل إلى الزيتونة سنة: 1933م، ضمن بعثة الجمعية الخيرية الإسلامية التي كان يشرف عليها مبارك الملي، فتعلم على يد الطاهر بن عاشور، وبعد تخرجه رجع إلى الوطن واشتغل بالتعليم، وكتب رسالة وصف فيها رحلته إلى تونس عنونها بـ "كيف هاجرت إلى تونس"، واختير كاتباً عاماً للجمعية بعد تأسيس مركزها بالقبة بالعاصمة سنة: 1946م. بعد الاستقلال تولى إدارة الشؤون الدينية بولاية الأغواط، كما تولى إدارة المعهد الإسلامي بالأغواط بين سنوات 1964م و1979م، وأحيل على التقاعد عام 1980م، ولم يخل بدروسه وإن كانت قليلة حتى توفي يوم 04 جويلية 1994م، وعمره: 80 سنة².

وله الفضل بعد الله في اشتغال التواقي بعلم التفسير، حيث ذكر في مقدمته سبب وُلُوجِه لتفسير القرآن فقال: "ولا يفوتني أن أذكر بخير الشيخ العلامة أحمد قصيبة -رحمه الله- إذ أن هذا الرجل الفاضل والعالم الجليل له كل الفضل في توجيهي إلى تفسير القرآن الكريم، وذلك حين انتدبت للتدريس في مسجد النور بمدينة الأغواط المحروسة، فقد قصرت دروسي على الفقه المالكي وكان الشيخ لتواضعه دائم الحضور، وذات يوم أشار عليّ فقال لي: لو أنك تفاعل بين الدروس، فجعلت يوماً للتفسير ويوماً للفقه بذلك تجمع بين الأصل والفرع، فكان لهذا التوجيه الرشيد أثر في نفسي، وأخذت بالوصية فكانت نتيجتها هذا العمل الذي احتسبته عند الله لي تدريساً وتأليفاً وله -رحمه الله- توجيهها"³.

ثالثاً: مؤلفاته: يقول التواقي: "لم أكتب في الفنون ولكن كتبت فيما يقربني إلى كتاب الله وأعتبر مقولة الشاطبي: -من تصدى لكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ استنباطاً أن يكون عربي اللسان أو كالحليل وسيبويه، ولا يشترط فيه حفظهما وإنما عارفاً... -⁴، شعاراً ومنهجاً"⁵.

¹ مقال: العلامة عبد الرحمن الحاج صالح وجهوده في خدمة علوم اللسان، محمد سيف الإسلام بوفلاقة، سنة: 10/04/2017، الرابط: <https://binbadis.net/archives/2286>.

² ينظر: أحمد قصيبة الشيخ الكاتب المناضل المصلح، مقال: بقلم: محمد الطيب، 04/07/2021، الرابط: <https://binbadis.net/archives/11552>.

³ الدر الثمين، التواقي بن التواقي، (35/1).

⁴ كتاب الاعتصام للشاطبي، سليم بن عيد الهلالي، دار ابن عفان، السعودية، ط: 1، سنة: 1412هـ-1992م، (53/2).

⁵ مقابلة الطالبة: هاجر بوغرة مع الشيخ التواقي بن التواقي في بيته، يوم: 13 نوفمبر 2018م.

وقد تعددت مؤلفات الشيخ التواتي وتنوعت بين عدة فنون أهمها:

1- في التفسير وعلوم القرآن: وله عدة مؤلفات في هذا العلم هي:

- تفسير "الدر الثمين في تفسير الكتاب المبين" في 20 مجلدا، وهو عبارة عن دروس في التفسير ألقاها الشيخ في المساجد، وهو مطبوع بدار الحكمة، الجزائر، سنة: 2016م، وسيأتي الحديث عنه.
- كتاب "التفسير اللغوي للقرآن الكريم" وموضوعه: مفردات القرآن دلالاتها واستعمالاتها في لغات العرب، أما المنهجية التي اتبعها فقد اعتمد فيه على التحليل اللغوي وما تركه كتاب الله من أثر في لغة العرب، فلم يستشهد إلا بالشعر القديم كما بيّنه وحدّده الدارسون للغة، وقد ألزم نفسه العناية بهذا الضابط ولم يخرج عنه إلا في القليل النادر جدا، كما أنه يختار اللفظ من الآية ويقدم المعنى ثم ينتقل إلى عنوان آخر هام وهو: وفي اللغة واستعمالات العرب، ويقدم كلّ الوجوه الواردة في كلام العرب سواء أكانت شعرا أم نثرا مما جعله يقدم ثروة لغوية ومعجمية تفيد الباحث في مجال تخصصه بالإضافة إلى المناقشات العلمية لأوجه القراءات وغيرها من العناوين الواردة في التفسير¹.

- كتاب "إرشاد العلي المنان في معرفة الناسخ والمنسوخ في القرآن"، في ثلاثة مجلدات.

- كتاب "القراءات وأثرها في الدرس النحوي والفقهاء الإسلامى"، وهى رسالته في الدكتوراه.

- كتاب "قراءة نافع برواية ورش في المغرب الأوسط (الجزائر)"، وهو مطبوع².

2- في الفقه: وله عدة مؤلفات في هذا العلم هي:

- موسوعة فقهية بعنوان "المبسّط في الفقه المالكي بالأدلة" وهو في خمسة مجلدات، طبع في دار الفكر (لبنان)، سلك فيه صاحبه منهجا مبسّطا سهلاً، واجتهد أن يأتي بالأدلة على الفروع الفقهية المالكية، وعن أصول منهج مالك في الاجتهاد والاستنباط، ومشروع هذا الكتاب عبارة عن دروس فقهية في الفقه المالكي قدّمها المؤلف عبر مجموعة من المساجد على مدار خمسة وعشرين سنة، وما يميّز الكتاب إضافة إلى الأدلة هو عناية صاحبه بالأمور المستجدة في عصرنا، مثل كتابته عن الزكاة وما يتّصل بها من الأموال الورقية التي حلّت محلّ التعامل بالدينار الذهبي والدرهم الفضي، والاجتهاد في تحديد النّصاب والوزن الخاص بالدينار والدرهم... ، وقد قسّم المؤلف كتابه إلى خمسة أجزاء وتوخى فيها السهولة في العرض والتبسيط، وقد ابتدأ بالأصول ثم الفروع وأتبعها بلمحة موجزة عن حياة مالك وفقهه، وحديث

¹ نقلا عن ابنه الدكتور: عبد القادر، من صفحته في الفيسبوك "عبد القادر بن التواتي"، الرابط:

<https://www.facebook.com/abdelkader.touati.397>

² اتجاهات التفسير في الجزائر في العصر الحديث-التواتي وكعباش أمّودجا-، د: إبراهيم محفوظ حاج، (ص:67).

موجز عن (الموطأ) وما قاله أهل العلم عنه تقريرًا وتعرضَ لأقسام الحكم الشرعي والعقلي والتجريبي؛ أما الجزء الأول: فخصّصه للطهارة والصلاة والزكاة، وأما الجزء الثاني: فخصّصه للصوم والحج، أما الجزء الثالث: فخصّصه للأضحية والعقيقة والولائم والأيمان والنذور، أما الجزء الرابع: فخصّصه للأحوال الشخصية، وأما الجزء الخامس: فخصّصه للمعاملات.

- كتاب "الفقه المقارن"، وهو كتاب خصّصه للمقارنة بين فقه المالكية والإباضية، ودعا فيه الشيخ إلى التآلف والتآخي ونبذ الخلاف المقيت والتعصب الأعمى، طبع في مجلدين بدار ابن حزم، لبنان.
- كتاب "مالك إمام دار الهجرة ومنهجه الفقهي"، وقد طبع بمطبعة بن سالم سنة: 2017م.
- كتاب "الإمام المازري المالكي ومنهجه الفقهي".
- كتاب "محاضرات في الفقه المالكي"¹.

3- في الدراسات اللغوية: وله عدة مؤلفات في هذا العلم هي:

- كتاب "الأخفش الأوسط وآراؤه النحوية"، وهو رسالته في الماجستير وهو مطبوع.
- كتاب "المصطلحات بين الفقهاء والنحاة".
- كتاب "الموجز في قواعد العربية" وهو عبارة عن محاضرات في النحو العربي ألقاها في الجامعة.
- كتاب "معاني القراءات عند الأخفش الأوسط وتوجيهها النحوي" يتكون من 12 جزءاً.
- كتاب "الخصائص اللغوية والنحوية للهجة بني تميم"، وهي عبارة عن رسالة صغيرة.
- كتاب "محاضرات في أصول النحو"، مطبوع.
- كتاب "مفاهيم في علوم اللسان" أو ما يسمى باللسانيات الحديثة.
- كتاب "المدارس النحوية"، وللشيخ في هذا رأي خالف فيه تقسيم المدارس النحوية إلى بصرية وكوفية وما إلى ذلك، ودعمه بالأدلة.

- له مجموعة من الأشعار باللغة الفرنسية والعربية، وهي لا تزال تحت الطبع.
- له عدة مقالات نشرت في مجلة: اللسانيات الصادرة عن مركز ترقية اللغة العربية، ومجلة: المخبر التابعة لمعهد أصول الدين بالجزائر، ومجلة: مجمع اللغة العربية بالجزائر، ومجلة: قسم اللغة والأدب العربي جامعة الأغواط، ومجلة الواحات الصادرة عن جامعة غرداية.

4- الحديث النبوي: وله عدة مؤلفات في هذا العلم هي:

¹ الترجمة الموجودة في مقدمة "الدر الثمين في تفسير الكتاب المبين"، التواتي بن التواتي، (6/1).

- كتاب "منهج السالك في شرح موطأ الإمام مالك"، وهو في عشرين مجلداً، وهو دراسة تقابلية بين مسند ربيع بن حبيب والموطأ.
- كتاب "الدروس الوعظية من خلال الأحاديث النبوية"، في جزئين.
- 5- في أصول الفقه:** وله عدة مؤلفات في هذا العلم هي:
- كتاب "التحفة البهية في أصول الفقه"، وهو منظومة في ألفي بيت.
- كتاب "شرح التحفة البهية في أصول الفقه"، وهو في ثلاثة مجلدات طبع بدار: ابن حزم بيروت¹.

¹ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (8-7/1).

المبحث الرابع: تفسير "الدر الثمين في تفسير الكتاب المبين"

ومنهج التواتي في تحريره.

وسأحدث في هذا المبحث عن الكتاب محل الدراسة وهو "الدر الثمين في تفسير الكتاب المبين"، وكيف كان الشيخ التواتي يحزّر مسائله ويفسر آيات القرآن الكريم فيه؛ هذا الكتاب الذي يعتبر أكبر تفسير في تاريخ التفاسير الجزائرية المطبوعة حيث بلغ عشرين مجلدا وتناول مسائل كثيرة جدا في التفسير وفي شتى العلوم، فكان فعلا موسوعة تفسيرية معاصرة تستفيد منها جميع أطراف المجتمع بمختلف طبقاتها، فاستحق هذا التفسير أن يسلم عليه الضوء وتبرز جوانب التميز فيه.

وسأحدث عن تفسير "الدر الثمين" من عدة جهات يمكن جعلها تحت مطلبين هما:

المطلب الأول: التعريف بتفسير "الدر الثمين في تفسير الكتاب المبين"، ومصادر المؤلف فيه.

المطلب الثاني: منهج الشيخ التواتي في تفسيره "الدر الثمين".

وتفصيلهما كما يلي:

المطلب الأول: التعريف بتفسير "الدر الثمين في تفسير الكتاب المبين"، ومصادر

المؤلف فيه:

ويحتوي هذا المطلب على عدّة معلومات ومسائل متنوعة تشكّل لنا صورة متكاملة تعرّفنا بتفسير "الدر الثمين"، ثم بيان المصادر التي اعتمد عليها التواتي في تفسيره، وخصصتها بالذكر لكثرتها وتنوعها ممّا يعطينا انطباعا أوليا عن أهمية هذا التفسير والمنابع التي استقى منها مسائله لأنه في كثير من المواضع لا يعزو المعلومات إلى مصادرها، وتفصيل ذلك كما يلي:

الفرع الأول: التعريف بتفسير "الدر الثمين":

وقد عرفت به من جوانب متعددة تشكل صورة عامة عنه وهي:

أولا: اسمه وسبب تأليفه: أما اسمه: فقد صرح به التواتي في مقدمة التفسير فقال: "وقد وسميته بـ"الدر الثمين في تفسير الكتاب المبين"، وذلك لأني جلت في كتب التفسير القديمة والحديثة فأخذت ما فيها من درر ومعاني ومفاهيم عميقة أثبتها في هذا التفسير"¹.

¹ المصدر السابق، (32/1).

وأما سبب تأليفه: فذكره التواتي بقوله: "ولا يفوتني أن أذكر بخير الشيخ العلامة أحمد قصيبة - رحمه الله تعالى - إذ إن هذا الرجل الفاضل والعالم الجليل له كلّ الفضل في توجيهي إلى تفسير القرآن الكريم، وذلك حين انتدبت للتدريس في مسجد النور بمدينة الأغواط المحروسة فقد قصرت دروسي على الفقه المالكي، وكان الشيخ لتواضعه دائم الحضور، وذات يوم أشار إليّ بعد أن استضافني في بيته و أكرمني أكرمهم الله تعالى من فيضه ورحمه برحمته، قال لي: لو أنك تفاعل بين الدروس فجعلت يوماً للتفسير ويوماً للفقه بذلك تجمع بين الأصل والفرع، فكان لهذا التوجيه الرشيد أثر في نفسي، وأخذت بوصيته، فكان نتيجتها هذا العمل الذي أحسبته عند الله تعالى لي تدريساً وتأليفاً وله - رحمه الله - توجيهها"¹. وقد عمل مفسرنا بوصية شيخه أحمد قصيبة، فجعل دروس التفسير موازية لدروس الفقه، وأصبح يدعو الناس لحضور درس التفسير عندما ينتهي من درس الفقه للجمع بين الدرسين.

ثانياً: هل تفسير "الدر الثمين" كان تفسيراً كتابياً أم شفاهياً؟

هذا التفسير جمع فيه التواتي بين الكتابة والشفاهة؛ ومما يدلّ لذلك قوله في المقدمة: "هذا العمل الذي أحسبته عند الله تعالى لي تدريساً وتأليفاً"²، وجاءت إشارات بذلك في ثنايا تفسيره، منها: تصريحه في خاتمة التفسير بأنه ختم كتابه بعد صلاة الصبح، مع أنه صرّح في المقابل بأنه كان يلقي الدرس شفاهة في الليل في مساجد الأغواط³، فختامه كتابةً كان بعد الصبح وشفاهة كان في الليل، ويظهر أن الدروس كانت تسبق الكتابة بدليل قوله في ختام المجلد الثاني: "وبعد فقد أمسكت عنان القلم حين بلغت ختام هذا الكتاب الذي أودعت فيه ما ألقىته دروساً في المساجد"⁴.

ثالثاً: وقت ومكان إلقاء دروس التفسير:

أما وقت إلقاء دروس التفسير، فقد كان الشيخ التواتي مثل غيره من علماء الجزائر ومشايخها يلقي درس التفسير بالليل لأنه الوقت الذي يجتمع فيه الناس، ويُفهم ذلك من خلال كلمات الشيخ المتكررة في دروسه الليلية، ومنها قوله: "وهو موضوع درسنا في الليلة القادمة - إن شاء الله تعالى -"⁵.

¹ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (35/1).

² المصدر نفسه، (35/1).

³ المصدر نفسه، (545/20).

⁴ المصدر نفسه، (532/2).

⁵ المصدر نفسه، (166/6).

وأما مكان إلقاءه فقد ذكر الشيخ أنه كان يلقي دروس التفسير في مساجد الأغواط وسمى بعضها مثل: مسجد النور، حيث قال: "ورد سؤال أثناء درس التفسير في مسجد النور مفاده..."¹.

رابعا: مدة ختام هذا التفسير: لم أقف على نص من الشيخ التواتي صرح فيه بالسنة التي بدأ فيها بإلقاء دروس التفسير، لأنه بدأ دروس الفقه أولا ثم أدخل عليها التفسير بعد ذلك؛ وأما ختامه فقد صرح به في خاتمة التفسير فقال: "تمت كتابة هذا التفسير يوم 21 شعبان 1435هـ بعد صلاة الصبح، وكان هذا التفسير عبارة عن دروس يومية ألقيت في مساجد الأغواط"²، وإذ إنه مرّ بنا أن سبب شروع الشيخ في التفسير هو اقتراح ذلك من شيخه أحمد قصيبة، ثم علمنا بأن الشيخ قصيبة توفي في 04 جويلية 1994م - كما سبق -، فإننا ندرك أنّ مدة التفسير دامت أكثر من 20 سنة.

خامسا: الهدف من تأليفه للتفسير: صرح التواتي بغرضه من تفسيره في مقدمة الكتاب، فبعد أن ذكر وصفا عاما لتفسيره ومنهجه فيه، ذكر هدفه من تأليفه قائلا: "وإنما هديني من كلّ هذا - جمع التفسير - هو جمع ما ورد متفرقا، والتعرض بالتفصيل لما ذكره عَرَضًا، سائلا الله تعالى التوفيق والسداد، وداعيا الله تعالى أن يغفر لمن كان سببا في وجودي أمي وأبي، ولمن قاما وسهرا على تربيّتي وحبّبا إليّ هذا الاتجاه العلميّ، وأخذنا بيديّ بكلّ رفق، سالكا إلى حب الله ورسوله ﷺ في الأولين والآخرين، لأتشرف بخدمة القرآن والنهل من علومه الزاخرة، فجازاهم الله عني خير الجزاء"³.

وأضافت الطالبة: هاجر بوغرة في مقابلتها للشيخ غرضا آخر نقلا عنه فقالت: "وأخبرنا الإمام بن التواتي عن الهدف الأسمى من تفسيره لكتاب الله تعالى قائلا: "الهدف الأسمى الذي دفعني إلى تفسير كتاب الله تعالى يتضح في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصّٰدِقِينَ﴾ التوبة: ١١٩، فلماذا لم يستعمل الله تعالى "أ" أو "أي" للنداء القريب، واستعمل "يا" للنداء البعيد رغم أن الله تعالى قريب إلينا؟ فالجواب: أن الناس مبتعدون عن القرآن والله تعالى ينادينا للتقرب إليه وحمل كتابه والتدبر والتأمل فيه، فأردت أن أحمل القرآن إلى الناس وأحمل الناس إلى القرآن، لأن الناس ابتعدوا عن كتاب الله"⁴.

¹ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (4/180). وانظر: (35/1).

² المصدر نفسه، (20/545).

³ المصدر نفسه، (32/1).

⁴ مقابلة الطالبة: هاجر بوغرة مع الشيخ التواتي بن تواتي في بيته، يوم: 13 نوفمبر 2018م.

سادسا: طبعات التفسير: طبع تفسير "الدر الثمين في تفسير الكتاب المبين" لحد الآن طبعة وحيدة وذلك في عشرين مجلدا، وهي طباعة جيدة من ناحية التجليد ونوعية الورق، وقد قامت بطبعه دار الحكمة للنشر والطباعة والترجمة والتوزيع، شارع ديدوش مراد الجزائر، وذلك عام: 1437هـ/2016م، وهي الطبعة الأولى، ولا توجد له طبعة أخرى حاليا -فيما أعلم-.

وينبغي هنا تسجيل ملاحظة مهمة وهي أن الطبعة الحالية لا تخلوا -في الغالب- صفحة منها من خطأ مطبعي واحد على الأقل كإسقاط كلمة أو تبديل حرف مكان آخر...، وقد هممت بوضع فهرس لها، لكن الأمر تعذر لكثرتها الكثيرة، ولذلك يجب إعادة طبع هذا الكتاب النفيس وتخليصه من الأخطاء التي تجعل القارئ يملّ من القراءة فيه بسببها.

سابعا: محتويات تفسير "الدر الثمين": جاء هذا التفسير مشتملا على جميع سور القرآن الكريم مع مقدمة في بدايته، وقد بلغ عشرين مجلدا، وفيما يلي محتويات كل واحد منها باختصار وهي:

- 1- المجلد الأول: واشتمل على ترجمة مختصرة للمصنّف من وضع الدار، ثم مقدمة للكتاب، فيها:
 - مقدّمات في علم التفسير: وفيها تعريف التفسير لغة واصطلاحا، والفرق بينه وبين التأويل، ثم الحاجة إلى علم التفسير وشرفه، ثم غدّة المتصدّي للتفسير، ومدارس التفسير، ومنهجية الكتاب.
 - بعدها عنون الشيخ بـ "الفصل الأول" وعنوانه: مفهوم القراءات وقواعد أصولها، أما بقية الفصول فخصصها الشيخ لتفسير سور القرآن الكريم من الفاتحة للناس.
 - ثم شرع المصنف في تفسير سورة الفاتحة، ثم سورة البقرة من بدايتها إلى قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُومُ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾ البقرة: ٥٤.
 - وختم المجلد الأول بفهرس خاص لما حوته المقدمة من مواضيع، وفهرس للآيات التي تمّ تفسيرها مع ذكره لموضوعاتها، وجاء المجلد في 595 صفحة.

- 2- المجلد الثاني: ويبدأ من تفسير سورة البقرة من قوله تعالى ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْوِسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً...﴾ البقرة: ٥٥، إلى تفسير قوله تعالى ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَرَكُمْ مَّا كَسَبْتُمْ...﴾ البقرة: ١٤١.

وجاء هذا المجلد في 535 صفحة، وختم بفهرس للآيات التي تمّ تفسيرها مع ذكره لموضوعاتها.

3- المجلد الثالث: ويبدأ من تفسير قوله تعالى ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّهُمْ عَن قِبَلِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِمْ...﴾ الآية ﴿البقرة: ١٤٢﴾، إلى تفسير قوله تعالى ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ﴾ البقرة: ٢١٠. وقد جاء في 573 صفحة، وختم بفهرس موضوعي للآيات.

4- المجلد الرابع: ويبدأ من تفسير قوله تعالى ﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا ءَاتَيْنَاهُمْ مِّنْ ءَايَةٍ بَيِّنَةٍ...﴾ البقرة: ٢١١، إلى نهاية السورة. وجاء في 593 صفحة، وختم بفهرس مع موضوع الآيات.

5- المجلد الخامس: ويبدأ من بداية سورة آل عمران، إلى قوله تعالى ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا تَفَقَّوْاْ﴾ الآية ﴿آل عمران: ١١٢﴾. وقد جاء المجلد في 482 صفحة، وختم بفهرس موضوع الآيات.

6- المجلد السادس: ويبدأ من تفسير قوله تعالى ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ آل عمران: ١١٣، إلى نهاية سورة آل عمران، ثم من بداية تفسير سورة النساء إلى تفسير قوله تعالى ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ النساء: ٢١.

وجاء المجلد في 484 صفحة، وختم بفهرس للآيات التي تم تفسيرها مع ذكره لموضوعاتها.

7- المجلد السابع: ويبدأ من تفسير قوله تعالى ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ النساء: ٢٢، إلى نهاية سورة النساء، ثم بداية سورة المائدة إلى قوله تعالى ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلْلٌ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلْلٌ لَهُمْ...﴾ المائدة: ٥.

وجاء المجلد في 500 صفحة، وختم بفهرس للآيات التي تم تفسيرها مع ذكره لموضوعاتها.

8- المجلد الثامن: ويبدأ من قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ...﴾ المائدة: ٦، إلى نهايتها، ثم تلتها سورة الأنعام من بدايتها إلى قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فَرْدَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ الأنعام: ٩٤. وجاء المجلد في 498 صفحة، وختم بفهرس مع موضوع الآيات.

9- المجلد التاسع: ويبدأ من قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ﴾ الأنعام: ٩٥ إلى آخرها، ثم أعقبه بتفسير سورة الأعراف كاملة. وجاء في 488 صفحة، وختم بفهرس موضوعي للآيات.

10- المجلد العاشر: ويبدأ من تفسير أول سورة الأنفال، ثم سورة التوبة، إلى آخر سورة يونس. وجاء حجمه في 494 صفحة، وختم بفهرس للآيات التي تم تفسيرها مع ذكره لموضوعاتها.

11- المجلد الحادي عشر: ويبدأ من تفسير أول سورة هود، ثم سورة يوسف، ثم سورة الرعد، ثم سورة إبراهيم، إلى آخر سورة الحجر. وجاء في 509 صفحة، وختم بفهرس مع موضوع الآيات.

- 12- المجلد الثاني عشر:** ويبدأ من تفسير أول سورة النحل، ثم سورة الإسراء، ثم سورة الكهف، إلى آخر سورة مريم. وجاء حجمه في 498 صفحة، وختم بفهرس مع موضوع الآيات.
- 13- المجلد الثالث عشر:** ويبدأ من تفسير أول سورة طه ثم سورة الأنبياء، ثم سورة الحج، ثم سورة المؤمنون، إلى آخر سورة النور. وجاء حجمه في 494 صفحة، وختم بفهرس مع موضوع الآيات.
- 14- المجلد الرابع عشر:** وجاء فيه تفسير سورة الفرقان كاملة، ثم سورة الشعراء، ثم سورة النمل، ثم سورة القصص، إلى آخر سورة العنكبوت.
- وجاء حجمه في 495 صفحة، وختم بفهرس للآيات التي تم تفسيرها مع ذكره لموضوعاتها .
- 15- المجلد الخامس عشر:** ذكر فيه تفسير سورة الروم، ثم سورة لقمان، ثم سورة السجدة، ثم سورة الأحزاب، ثم سورة سبأ، ثم آخر سورة فاطر.
- وجاء حجمه في 455 صفحة، وختم بفهرس للآيات التي تم تفسيرها مع ذكره لموضوعاتها .
- 16- المجلد السادس عشر:** ويبدأ من تفسير سورة يس، ثم يليه تفسير سورة الصافات وسورة ص، إلى آخر سورة الزمر. وجاء حجمه في 438 صفحة، وختم بفهرس مع موضوع الآيات.
- 17- المجلد السابع عشر:** ابتدأه بتفسير سورة غافر، ثم أعقبه بتفسير سورة فصلت، ثم سورة الشورى، ثم سورة الزخرف، ثم سورة الدخان، ثم سورة الجاثية، إلى آخر سورة الأحقاف.
- وجاء حجمه في 503 صفحة، وختم بفهرس للآيات التي تم تفسيرها مع ذكره لموضوعاتها.
- 18- المجلد الثامن عشر:** جاء فيه تفسير سورة محمد، ثم سورة الفتح، ثم سورة الحجرات، ثم سورة ق، ثم سورة الذاريات، ثم سورة الطور، ثم سورة النجم، ثم سورة القمر، ثم سورة الرحمن، ثم سورة الواقعة، إلى آخر الحديد. وجاء حجمه في 581 صفحة، وختم بفهرس مع موضوع الآيات.
- 19- المجلد التاسع عشر:** ابتدأه بتفسير سورة المجادلة، ثم أعقبه بتفسير سورة الحشر وسورة الممتحنة، ثم سورة الصف، ثم سورة الجمعة، ثم سورة المنافقون، ثم سورة التغابن، ثم سورة الطلاق، ثم سورة التحريم، ثم سورة الملك، ثم سورة القلم، ثم سورة الحاقة، ثم سورة المعارج، ثم سورة نوح، ثم سورة الجن، ثم سورة المزمل، ثم سورة المدثر، ثم سورة القيامة، ثم سورة الإنسان، إلى آخر سورة المرسلات.
- وجاء حجمه في 552 صفحة، وختم بفهرس للآيات التي تم تفسيرها مع ذكره لموضوعاتها .
- 20- المجلد العشرين:** يبدأ من أول سورة النبأ إلى نهاية سورة الناس.
- وقد جاء حجمه في 553 صفحة، وختم بفهرس للآيات التي تم تفسيرها مع ذكره لموضوعاتها.

ملاحظة: نلاحظ أن كل مجلد تضمن في نهايته فهرسا للآيات المفسرة مع ذكر موضوعاتها، كما يلاحظ أن هذه المجلدات جاءت متقاربة في حجمها، حيث احتوت على ما يقارب 600 صفحة، وقد صرح المصنّف بقصده لهذا التقسيم فقال: "نظرا لمنهجية الكتاب التي تدعو إلى جعل صفحات هذا التفسير متوازنة فإن المصنف اضطرّ إلى تقسيم تفسير هذه السورة -المائدة- بين الكتاب السابع والثامن، فأرجو من القارئ الكريم قبول العذر"¹.

الفرع الثاني: مصادر التواتي في تفسيره "الدر الثمين"²:

اعتمد الشيخ التواتي في تفسيره على مجموعة كبيرة جدا من الكتب المتنوعة في مختلف الفنون والعلوم؛ بعضها صرح باسمها وبعضها لم يصرح به، وقد ذكر الشيخ عدد المصادر التي اعتمد عليها في مقدمة تفسيره فقال: "وقد بلغ عددها أكثر من 250 كتابا تناولت القرآن وعلومه: منها مائة وعشرين تفسيراً، ونظرت فيها آية آية"³.

ومن خلال استقراي لتفسير "الدر الثمين" قصد معرفة أنواع وعدد المصادر التي رجع إليها في تفسيره، أمكنني تقسيمها إلى عدّة مجموعات هي كالاتي:

أولاً: مصادره من كتب التفسير: واعتمد التواتي على عدد من كتب التفسير ولكن بنسب متفاوتة ومن مذاهب فقهية وعقدية متنوعة؛ وقد كانت تلك المصادر التفسيرية على قسمين: قسم نص عليه في مقدمة تفسيره وصرح به، وقسم لم ينص عليه في مقدمته لكنه اعتمد عليه في تفسيره، وبيّناهما:

القسم الأول: قسم نص عليه في مقدمة تفسيره وصرح به:

وهي كتب متنوعة سردها الشيخ في مقدمة تفسيره متتالية، وتنوعت تلك المصادر بين القديم والحديث، وبين المالكية وغيرهم من الإباضية، وبين أهل السنة وغيرهم من الشيعة، وكان الحظ الأوفر منها لثلاثة كتب وهي: "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي، و"البحر المحيط" لأبي حيان الأندلسي، و"تفسير ابن عرفة"، باعتبار هؤلاء من المالكية -كما صرح بذلك- في قوله: "واعتمدت على كتب التفاسير أذكر منها: الطبري في تفسيره وقد اتخذته عدّة، وكذا ابن كثير، أما جامع الأحكام للقرطبي، والبحر المحيط لأبي حيان الأندلسي، وكذا تفسير ابن عرفة، فهذه الكتب الثلاثة كانت بجانب طيلة

¹ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (496/7).

² وسبب التوسع فيها هو الاعتذار للشيخ في عدم عزوه لبعض النصوص مع أنها منقولة بحرفها، ولذا نص في المقدمة على كثير من المصادر كأنه يقول: هي ملخصة منها فلا داعي لتكرار كل واحد منها في كل مرة.

³ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (30/1).

انقطاعي لهذه المهمة الصعبة، وذاك لأنَّ أصحابها من أعلام مذهبنا، ولما لهم من علاقة بالدروس الفقهية الموازية لدرس التفسير... ولم أغفل الطُّبرُسي في تفسيره "مجمع البيان" وهو تفسير شيعي، وكذلك الشيخ: اطفيش في تفسيره "هميان الزاد إلى يوم المعاد" و "تيسير التفسير" وهو إباضي، وتفسير "ابن باديس" أو ما تبقى من تفسيره، و "رحاب القرآن" للشيخ بيوض، و "لباب التفسير" لابن عادل¹. وفيما يلي جدول موضِّح لتلك المصادر مرتبة حسب إيراد الشيخ لها في نصه، مع الإحالة إلى بعض المواضع التي نقل منها الشيخ في تفسيره:

عنوان الكتاب	مؤلفه	أمثلة عن الاقتباس منها في "الدر الثمين"
جامع البيان	الطبري	305/3
تفسير ابن كثير	ابن كثير	253 و 134/7، 6/6
الجامع لأحكام القرآن	القرطبي	404/4
البحر المحيط	أبو حيان الأندلسي	266/1
تفسير ابن عرفة	ابن عرفة الورغمي	59/3
مجمع البيان	الطُّبرُسي	لم أجد له مثالا
هميان الزاد إلى يوم المعاد	اطفيش	472/13
تيسير التفسير	اطفيش	141/8
مجالس التذكير	ابن باديس	46/14 و 212/ 12 و 213،
في رحاب القرآن	بيوض	472 و 440/13
لباب التفسير	ابن عادل	52 و 51/2

القسم الثاني: قسم لم ينص عليه في مقدمته لكنه اعتمد عليه في تفسيره:

وقد جمعت هذا النوع من المصادر من خلال استقراي لتفسير "الدر الثمين" من أوله إلى آخره فيما صرح به الشيخ منها، وأسأنتُها في جدول مع الإحالة إلى بعض المواضع التي نقل منها الشيخ في تفسيره، وأرتبها حسب ورودها في التفسير بترتيب المجلدات، وهي كما يلي:

¹ المصدر السابق، (1/29 و 30).

عنوان الكتاب	مؤلفه	أمثلة عن الاقتباس منها في "الدر الثمين"
مدارك التنزيل وحقائق التأويل	النسفي	152/19، 436/17، 262/ 1
التحرير والتنوير	ابن عاشور	182/1 و 254، 109/3، 12/11، 152/12، 181/14 و 286
روح المعاني	للألويسي	183/ 1، 99/3، 127/6
مفاتيح الغيب	فخر الدين الرازي	221/1 و 255، 108/3، 251/5 238/14، 162/7،
تيسير الكريم الرحمن	السعدي	58/ 3 و 477، 9، 258/ 14، 170
تفسير المنار	رشيد رضا	102/3، 550/4، 124/7، 206/10
صفوة التفاسير	محمد الصابوني	3، 485/ 10، 141
تفسير المراغي	أحمد المراغي	4، 551
زاد المسير في علم التفسير	ابن الجوزي	5، 247/ 13، 161
بصائر ذوي التمييز	الفيروز آبادي	5/19
المحرر الوجيز	ابن عطية	5، 155/ 7، 20
النكت والعيون	الماوردي	5، 196
التفسير الواضح	محمود حجازي	5، 199/ 15، 142/ 17، 139
التفسير الحديث	دروزة محمد	5، 301/ 19، 358
التسهيل لعلوم التنزيل	ابن جزي	7، 30/ 16، 184
المفردات	الأصفهاني	7، 44
البحر المديد	ابن عجيبة	10، 223/ 15، 167
تفسير كتاب الله العزيز	هود بن محكم	10، 223
إرشاد العقل السليم	أبو السعود	10، 267
في ظلال القرآن	سيد قطب	11، 232/ 12، 12، 60 و 88 و 126 و 395، 14 و 65 و 288
أنوار التنزيل وأسرار التأويل	البيضاوي	12، 120/ 13، 454

449/18، 313/13، 225/12	الخازن	لباب التأويل في معاني التنزيل
9/18 و 415/16، 245/12	الثعلبي	الكشف والبيان عن تفسير القرآن
153/13	الواحدي	التفسير الوسيط
381/14، 263/13	ابن القيم	تفسير القرآن الكريم
189/14	القشيري	تفسير القشيري
313/14	السعدي	تيسير اللطيف المنان
393/15	الزمخشري	الكشاف
40/17، 41/16	الشوكاني	فتح القدير
167/17، 184/16	البغوي	معالم التنزيل
184/16	السمرقندي	بحر العلوم
291/16	القاسمي	محاسن التأويل
425/16	الشنقيطي	أضواء البيان
568/18	الزحيلي	التفسير المنير
232/2	المهدوي	التحصيل
213/4	سيد طنطاوي	التفسير الوسيط
21/5	القشيري	لطائف الإشارات
48/5	مكي القيسي	الهداية إلى بلوغ النهاية

ثانياً: مصادره من كتب علوم القرآن: تنوعت كتب علوم القرآن التي اعتمد عليها الشيخ التواتي في "الدر الثمين"، وبعد تتبعي لها وجدت لها كثيرة فقسمتها على أنواع علوم القرآن فكانت كما يلي:

عنوان الكتاب	مؤلفه	أمثلة عن الاقتباس منها في "الدر الثمين"
كتب علوم القرآن الجامعة		
البرهان في علوم القرآن	الزركشي	الدر الثمين: 1/263، 5/34
الإتقان في علوم القرآن	السيوطي	الدر الثمين: 5/54، 13/9
كتب القراءات		
حجة القراءات	ابن زنجلة	الدر الثمين: 1/262 و 15/263، 15/348

الإبانة عن معاني القراءات	مكي القيسي	الدر الثمين: 341/3
المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها	ابن جني	الدر الثمين: 404/4
الإقناع في القراءات السبع	ابن الباذش	الدر الثمين: 121/14
جمال القراء وكمال الإقراء	السخاوي	الدر الثمين: 474/18، 191/16
علم أسباب النزول		
العجاب في بيان الأسباب	ابن حجر	466/6
لباب النقول في أسباب النزول	السيوطي	410/16
علم الناسخ والمنسوخ		
الناسخ والمنسوخ	الكرمي	184/16، 385/15
نواسخ القرآن	ابن الجوزي	65/19، 185/16
الناسخ والمنسوخ	هبة الله المقرئ	474، 416/18، 186/16
الناسخ والمنسوخ	النحاس	69/19
النسخ في القرآن	مصطفى زيد	208/19
علم غريب القرآن		
مفردات غريب القرآن	الأصفهاني	108/ 16
علم المناسبات		
نظم الدرر في تناسب الآيات والسور	البقاعي	256/18، 366/4
أسرار ترتيب القرآن	السيوطي	9/12
الموسوعة القرآنية خصائص السور	عبد العزيز التويجزي	453/17

ثالثاً: مصادره من كتب إعراب القرآن واللغة العربية وعلومها:

من أهم الكتب التي اعتمد عليها التواتي في تفسيره، ما تعلق بإعراب القرآن التي نص عليها في مقدمة تفسيره، ثم كتب علوم اللغة التي جمعت -بعد تتبعي لها في تفسير "الدر الثمين"- عدداً لا بأس به منها، وفيما يلي بيان لها مع الإحالة إلى بعض مواضع رجوعه إليها وذلك كما يلي:

عنوان الكتاب	مؤلفه	أمثلة عن الاقتباس منها في "الدر الثمين"
الدر المصون	السمين الحلبي	163/5
إعراب القرآن	الزجاج	263/25، 12/7
إعراب القرآن	ابن سيده	لم أجد له مثالا، وقد ذكره في المقدمة
لمسات بيانية	المخزومي	221/1
إشارات الإعجاز	بديع الزمان النورسي	231/1
لسان العرب	ابن منظور	190/15، 41/5، 404/4
معاني القرآن	الأخفش الأوسط	262/1
الفروق اللغوية	العسكري	41 و 40/5
التعريفات	الجرجاني	41/ 5
زهر الآداب وثمر الألباب	أبو إسحاق الحصري	41/5
شرح الأشموني على الألفية	الأشموني	263/5
التبيان في إعراب القرآن	أبو البقا العكبري	258/5
خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية	عبد العظيم المطعني	251/12
المصباح المنير	الفيومي	189/15
مختار الصحاح	الرازي	189/15
خزانة الأدب	عبد القادر البغدادي	8/17، 406 و 171/16
إعجاز القرآن	الباقلاني	27/17
الخصائص	ابن جني	430/17

رابعا: مصادره من الكتب الحديثية والسنة النبوية:

من أهم الكتب التي اعتمد عليها التواتي في تفسيره فيما يتعلق بالروايات التي أوردها؛ كتب الحديث والسنة النبوية عموما، وبعد تتبعي لتفسير "الدر الثمين" كاملا جمعت عددا لا بأس به منها، وفيما يلي بيان لها مع الإحالة إلى بعض مواضع رجوعه إليها وذلك كما يلي:

عنوان الكتاب	مؤلفه	أمثلة عن الاقتباس منها في "الدر الثمين"
السلسلة الصحيحة	الألباني	355/4
تحفة الأحوذى	المباركفوري	120/7
فتح الباري شرح البخاري	ابن حجر	487/13، 248/12
إتحاف القاري بدرر البخاري	أم الليث	248/12
المطالب العالية	ابن حجر	381/12
شرح صحيح مسلم	النووي	148/16، 315/15، 486/13
معالم السنن	الخطابي	146/16، 153/13
صحيح ابن حبان	ابن حبان	222/14
مجمع الزوائد ومنبع الفوائد	الهيثمي	378/14
شرح السنة	البغوي	162/15
الجامع بين الصحيحين	الأزدي	169/15
أوجز المسالك	محمد زكريا الكاندهلوي	198/15
مشكل الآثار	الطحاوي	251/ 15
الجامع في الحديث	ابن وهب	115/16
مرقاة المصايح	الملا القاري	147/16
شرح صحيح البخاري	شمس الدين السفيري	123/17
الأربعون النووية	شرف الدين النووي	389/19

خامسا: مصادره من كتب الفقه وأصول الفقه:

من أهم الكتب التي اعتمد عليها التواتي في تفسيره فيما يتعلق آيات الأحكام؛ كتب الفقه والأصول، وبعد تتبعي لتفسير "الدر الثمين" كاملا جمعت عددا لا بأس به منها لأن التواتي ركّز في تفسيره على الجانب الفقهي في آيات الأحكام، وفيما يلي بيانها مع بعض مواضع رجوعه إليها:

عنوان الكتاب	مؤلفه	أمثلة عن الاقتباس منها في "الدر الثمين"
فتاوى ابن تيمية	ابن تيمية	33/17، 495/2، 204/1
أحكام القرآن	الخصاص	399/13، 339/3
المستصفى	الغزالي	368/3

369/3	العز بن عبد السلام	قواعد الأحكام
483/3	الشوكاني	السييل الجرار
151/4	الشاطبي	الموافقات
355/4	أحمد بن غنيم النفراوي	الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني
214/10، 253/7، 188/5	ابن العربي	أحكام القرآن
33/7، 290/5	القرطبي	الجامع لأحكام القرآن
22/12	ابن رشد	بداية المجتهد
195/15	ابن جزي	القوانين الفقهية
197/15	عبد الرحمن الجزيري	الفقه على المذاهب الأربعة
197/15	الدسوقي	حاشية الدسوقي

سادسا: مصادره من كتب العقيدة والرقائق:

من الكتب التي اعتمد عليها التواتي في تفسيره: كتب العقيدة والرقائق لوجود مايتعلق بها من الآيات في القرآن الكريم، وبعد تتبعي لتفسير "الدر الثمين" كاملا جمعت عددا لا بأس به منها، وفيما يلي بيان لها مع الإحالة إلى بعض مواضع رجوعه إليها وذلك كما يلي:

عنوان الكتاب	مؤلفه	أمثلة عن الاقتباس منها في "الدر الثمين"
المقصد الأسنى	أبو حامد الغزالي	182/1
العقائد الإسلامية	ابن باديس	13/3
إغاثة اللهفان	ابن القيم	220/19، 108/9
النبوات	ابن تيمية	135/14
الروح	ابن القيم	49/15
مختصر الصواعق المرسلة	ابن الموصلي	101/15
فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم	محمد الصلابي	153/15
النبوة و الأنبياء في القرآن	علي بن نائف الشحود	224/15

والسنة		
بدائع الفوائد	ابن القيم	153/16
الأسماء والصفات	البيهقي	409/16
طريق المهجرتين	ابن القيم	425/16
شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة	اللالكائي	13/17
أصول السنة	ابن أبي زمنين	33/17
التوحيد	ابن خزيمة	33/ 17
الزهد والرقائق	الخطيب البغدادي	334/17

سابعاً: مصادره من كتب السيرة النبوية والتاريخ والتراجم:

من الكتب التي اعتمد عليها التواتي في تفسيره: كتب السيرة والتاريخ والتراجم، وبعد تتبعي لتفسير "الدر الثمين" جمعت عدداً لا بأس به منها، وفيما يلي بيانها مع الإحالة إلى بعض مواضعها وهي:

عنوان الكتاب	مؤلفه	أمثلة عن الاقتباس منها في "الدر الثمين"
النهاية في الفتن والملاحم	ابن كثير	136/7
المختصر في أخبار البشر	أبو الفداء	102/15
الأعلام	الزركلي	103/15
الاستيعاب	ابن عبد البر	257/15
سير أعلام النبلاء	الذهبي	425/15
المنهج المسلوك	جلال الدين الشيرازي	222/16
سراج الملوك	ابن الموصلي	223/16
الشفاء	القاضي عياض	260/16
السيرة النبوية	ابن هشام	178/19، 69/ 18
الروض الأنف	السهيلي	471/19

ثامناً: مصادره من المجلات العلمية والمواقع الإلكترونية والموسوعات:

من المراجع التي اعتمد عليها التواتي في تفسيره: بعض البحوث العلمية التي حصل عليها من المجلات والمواقع الإلكترونية، وبعد تتبعي لتفسير "الدر الثمين" كاملاً جمعت عدداً لا بأس به منها، وفيما يلي بيان لها مع الإحالة إلى بعض مواضع رجوعه إليها وذلك كما يلي:

عنوان الكتاب	مؤلفه	أمثلة عن الاقتباس منها في "الدر الثمين"
مجلة منبر الإسلام	مبشر الطرازي الحسيني	167/ 12
كتب ورسائل العثيمين	ابن عثيمين	269/14
أرشيف ملتقى أهل الحديث	موقع أهل الحديث	252/16
مقالات حول الحساب الفلكي	مجموعة مؤلفين	504/18

تاسعاً: مصادره من مصنفاته الخاصة به:

من المراجع التي اعتمد عليها التواتي في تفسيره: كتاباته من كتب علمية متنوعة المواضيع، حيث استغل المادة العلمية الموجودة فيها واستثمرها في تفسيره، وبعد تتبعي لتفسير "الدر الثمين" كاملاً جمعت عدداً لا بأس به منها، وفيما يلي بيانها مع الإحالة إلى بعض مواضع رجوعه إليها:

عنوان الكتاب	مؤلفه	أمثلة عن الاقتباس منها في "الدر الثمين"
المورد المعين لمعرفة علم الناسخ والمنسوخ	التواتي الأغواطي	318/2
المبسط في الفقه المالكي بالأدلة	التواتي الأغواطي	171 و 170/4، 13/3
شرح التحفة البهية في قواعد أصول الفقه	التواتي الأغواطي	317/18
الفيض القدسي في تفسير آية الكرسي	التواتي الأغواطي	22/5، 359/4
القراءات القرآنية وأثرها في النحو العربي والفقه الإسلامي	التواتي الأغواطي	151/10، 155/7، 95/6، 15/5
محاضرات في أصول النحو	التواتي الأغواطي	20/5

125/5	التواتي الأغواطي	إرشاد العلي المنان في معرفة الناسخ و المنسوخ في القرآن
50/7	التواتي الأغواطي	الكبائر في الكتاب والسنة
454/7	التواتي الأغواطي	الفرائض
414/15	التواتي الأغواطي	القضاء والجنايات والحدود
107/17	التواتي الأغواطي	الاستغاثة الروحانية
235/17	التواتي الأغواطي	الأخفش الأوسط وآراؤه النحوية

المطلب الثاني: منهج الشيخ التواتي في تفسيره "الدر الثمين":

ويحتوي هذا المطلب على بيان المنهج الذي سلكه التواتي في تفسيره "الدر الثمين"، وذلك بالحديث عن الخطوط العريضة والأطر العامة التي التزم بها فيه، ثم طرق التفسير عنده، ثم بيان منهجه في التعامل مع السور القرآنية وتوظيف علوم القرآن فيها، ثم عرض المنهج التفصيلي في تفسير آيات القرآن الكريم وتطبيق المنهج التحليلي فيها، وجعلت كل مسألة منها تحت فرع، كما يلي:

الفرع الأول: المعالم المنهجية العامة التي نص التواتي على التزامها في مقدمة تفسيره:

كفانا التواتي مؤنة تعب البحث عن منهجه في "الدر الثمين"، فصّرّح في مقدمة الكتاب بالمنهج العام والخطوط العريضة التي سار عليها في تفسيره والتزم بها، ويمكن اختصارها فيما يلي:

أولاً: الجمع بين التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي: حيث جمع التواتي في تفسيره بين الأثر والنظر أو المأثور والرأي، وفي ذلك يقول: "أما منهجية الكتاب فقد سلكت فيه الجمع بين الأثر والنظر"¹. ويقصد بذلك منهجي التفسير المعروفين وهما:

- التفسير بالمأثور وهو: تفسير القرآن الكريم بما جاء في القرآن الكريم أو السنة، أو أقوال الصحابة والتابعين، مما ليس منقولاً عن أهل الكتابين اليهود والنصارى.
- التفسير بالرأي وهو: تفسير القرآن الكريم بالاجتهاد بعد معرفة المفسّر لكلام العرب، وألفاظ العربية ووجوه دلالتها، ومعرفة أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، وغير ذلك².

¹ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (29/1).

² الواضح في علوم القرآن، مصطفى ديب البغا، محي الدين ديب مستو، دار الكلم الطيب، دار العلوم الانسانية، دمشق

ثانياً: تفسير جميع سور وآيات القرآن الكريم: حيث تتبع القرآن سورة وآية آية؛ ومشى في تفسيره على ترتيب المصحف¹، وكما جاءت في نظم ابن جابر الذي سرده كاملاً، فقال: "وسوف أتبع سور القرآن سورة سورة كما وردت في نظم متن ابن جابر - رحمه الله تعالى -"² :

بحمد إله العرش أستفتح القولاً.....وفي آية الكرسي أستمنح الطّولا
وفي آل عمران أتى ذكر أحمد.....نساؤهم بالعقد قد أنعموا القولاً"³.

ثالثاً: الاختصار وعدم الاستطراد إلا لفائدة: فقد عزم الشيخ على سلوك طريق الاختصار ما استطاع؛ فلا تطويل إلا لزيادة فائدة ضرورية ومهمة، وفي ذلك يقول: "وإني سالك في هذا السبيل طريق الاختصار ما استطعت، وربما أطيل حيث رأيت الفائدة"⁴. بل إن التواتي ذمّ ما يذكره المفسرون من استطرادات في تفاسيرهم من غير فائدة؛ مثل الإطالة في ذكر الأحاديث المتعلقة بالقصص، أو الاستطراد في ذكر الفضائل... الخ، وقد نص على ذلك لما فسّر سورة الإسراء فقال: "ونشير أنّه قد أطال كثير من المفسرين كابن كثير والسيوطي⁵ وغيرها في هذا الموضع، بذكر الأحاديث الواردة في الإسراء على اختلاف ألفاظها وليس في ذلك كثير فائدة، فهي معروفة في موضعها من كتب الحديث... والمقصود من كتب التفسير ما يتعلق من تفسير ألفاظ الكتاب العزيز، وذكر أسباب النزول، وبيان ما يؤخذ منه من المسائل الشرعية، وما عدا ذلك فهو فضلة لا تدعو إليه حاجة"⁶.

وقد يستطرد الشيخ أحيانا في بعض المواضع لفائدة يراها، فيضع عنوان واضحاً بخصوص ذلك فيقول "استطراد"، ومثاله: ما جاء في تفسير قوله تعالى ﴿كَانَ يَظُنُّ أَنَّ لَن يَصْرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾

ط: 2، سنة: 1418هـ - 1998م، (ص: 236).

¹ وكان التواتي يشير إلى بعض المفسرين الذي لم يتبعوا هذا الترتيب، مثل الشيخ: حبنكة الميداني في كتابه "معارج التفكير ودقائق التدبر"، وهو تفسير للقرآن الكريم بحسب ترتيب النزول وفق منهج كتاب قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل.

² وهذا النظم لابن جابر الأندلسي وُلد عام 1298 في مدينة ألمرية وتُوفي عام: 1378هـ، واسم النظم "المنظومة في مدح رسول الله ﷺ"، مُؤرّجاً فيها بسور القرآن مرتّبة. ينظر: التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، للسخاوي، الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط:

1، سنة: 1414هـ - 1993م، (423/2).

³ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (32/1 و 33).

⁴ المصدر نفسه، (31/1).

⁵ ساق ابن كثير كثيراً من الروايات المتعلقة بحادثة الإسراء، وعنون لذلك بقوله: "ذكر الأحاديث الواردة في الإسراء". تفسير ابن

كثير، (6/5)، وينظر أيضاً تلك الروايات الكثيرة في الدر المنثور في التفسير بالمأثور، للسيوطي، (182/5).

⁶ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (169/12).

الحج: ١٥، فبعد أن بين معنى الآية وسبيل نصر الله لعباده، قال: "استطرد: وأذكر في هذه المناسبة قول القائل الذي انقطعت به السبل في عرض البحر وظن أن لا منجي له مما هو فيه فقال:

إذا شاب الغراب أتيت أهلي * وصار القرى كاللبن الحليب

وصار البر مرتع كل حوت * وصار البحر مرتع كل ذيب

وإذا بهاتف من قبل الله يجيبه ويؤنسه، ويفتح له باب الأمل، وأن الله تعالى ما أغلق بابا إلا وقد فتح أبوابا أخرى فيها الأمل، وفيها الرجاء وتفرج كربه المكروب، فكان الهاتف "وعسى كل ضيق وراءه فرج"، يجب على من كان مؤمنا بالله حق الإيمان ألا ينقطع رجاءه من الله¹.

رابعا: الاهتمام الخاص بعلم القراءات: حيث صرح التواتي في مقدمته بتركيزه على القراءات القرآنية، وجعل ذلك من أولويات اهتماماته فقال: "وأما الفصول الأخرى فقد خصصتها للتفسير معتمدا على القراءات وتوجيهها حسب ترتيب السور"². ومما يدل على اهتمامه البالغ بالقراءات القرآنية أمران:

1- من الناحية النظرية لها: حيث خصص لها فصلا كاملا في المجلد الأول من التفسير تحت عنوان: "مفهوم القراءات وقواعد أصولها"، وذلك ابتداء من الصفحة: 41 إلى الصفحة 143.

2- من الناحية التطبيقية: لم يُغفل في تفسيره ذكر القراءات وتوجيهها فكان يضع عنوانا لذلك فيقول "أوجه القراءات" ثم يذكر توجيهها، وعلل ذلك بقوله: "إذ كلما تغير الأداء القرآني تغير التفسير في غالب الأحيان، وذلك لسعة ما أودعه الله تعالى في هذا الكتاب الصالح لكل زمان ومكان"³.

خامسا: توظيف الاتجاه العلمي في التفسير: وقد صرح الشيخ بذلك في مقدمته فقال: "ولم أغفل الحديث عن الآيات الكونية التي هي دليل الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، ولقد أشار أحدهم إلى هذه الظواهر العلمية فقال: "إن الظواهر العلمية في القرآن إذ قيسست بما اكتشفه العلم الحديث، فإن هذا العلم مازال يحبو بالنسبة لها"⁴. ومثاله: ما ذكره في معجزة الإخبار بتعدد المشارق والمغارب، عندما فسّر قوله تعالى ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ المعارج: ٤٠، فقال: "إن التقدم العلمي جعلنا نفهم بعمق معنى هذه الآيات، فكل ما كان على الأرض له مشرق ومغرب، هذه هي النظرة العامة، وعرفنا أن

¹ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (215/13). وهناك مثال آخر في تفسيره لقوله تعالى ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ الإسراء:

³، حيث استطرد في ذكر الذرية وغير ذلك، ينظر: الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (172/12 و173).

² المصدر نفسه، (32/1).

³ المصدر نفسه، (421/17).

⁴ المصدر نفسه، (32/1).

الشمس حين تشرق عندي، تغرب عند قوم آخرين، وحين تغرب عندي تشرق عند قوم آخرين، إذن فمع كلّ مشرق مغرب ومع كلّ مغرب مشرق، فيكون هناك مشرقان ومغربان، ثم عرفنا أن الشمس لها مشرق كلّ يوم ومغرب كلّ يوم يختلف عن الآخر، وفي كلّ ثانية هناك شروق وغروب، إذن فالقسم هنا ﴿يَرْبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ المعارج: ٤٠، لأن المشارق والمغارب مختلفة على مدار السنة¹. مع ملاحظة أن الشيخ لم يكثر من التفسير العلمي في كتابه، بل سلك معه منهجا خاصا ذكرته بالتفصيل عند الحديث عن معلم الإعجاز العلمي في الفصل الثالث من هذه الرسالة.

سادسا: اجتهاده في تنزيل الآيات على الواقع وربطها بأحوال المجتمع: فإن كان للآية أو الآيات صلة بالواقع، فإنه يقوم بتنزيلها على واقع المسلمين كاشفا عن الداء الذي تسرّب في الأوساط الإسلامية وواصفا الدواء والعلاج المناسب من هدايات القرآن، كما صرح به في مقدمة تفسيره قائلا: "وأطبّق الآية المفسرة على واقع الناس، داعيا إياهم إلى فهم القرآن وتدبره كما أمرهم الله تعالى بقوله ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ محمد: ٢٤².

وقد تعرضت لهذه القضية بالتفصيل فخصصت لها الفصل الرابع كاملا، كما سيأتي.

الفرع الثاني: بيان الأصول التفسيرية التي اعتمد عليها في تفسيره:

نص التواتي على أصوله وأدلتها التفسيرية، ويبيّن أنها: القرآن والسنة وأقوال الصحابة والتابعين، وساق في ذلك كلام ابن تيمية في مقدمته³ فقال: "إن أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن، فما أُجمل في مكان فإنه قد بُسّط في موضع آخر. فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة؛ فإنها شارحة للقرآن وموضحة له، وحينئذ إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدري بذلك لما شاهدوه من القرآن، والأحوال التي اختصوا بها؛ ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح، لا سيما علماؤهم وكبرائهم؛ كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين؛ وابن مسعود وغيرهم -رضي الله عنهم أجمعين- إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة، ولا وجدته عن الصحابة، فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين"⁴.

هذه هي طرق التي اعتمد عليها في تفسيره، وبيانها كما يلي:

¹ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (377/19).

² المصدر نفسه، (32/1).

³ مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية، (ص: 39).

⁴ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (31/1).

أولاً: تفسير القرآن بالقرآن: حيث جعل التواتي المصدر الأول له في تفسيره بيان القرآن بالقرآن ، سواء في الجمع بين آياته أو تفسير لفظة مبهمة أو غريبة ... الخ، ومن أمثلة ذلك:

1- تفسيره للألفاظ المبهمة: ومثال ذلك لفظة "الكلمات" التي وردت في قوله تعالى ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ البقرة: ٣٧، حيث ذكر الخلاف في تفسيرها¹، ثم قال: "والكلمات التي كانت سببا في الفوز بالتوبة قد اختلف فيها إلى أقوال؛ قيل: هي قوله تعالى ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ الأعراف: ٢٣"².

2- الجمع بين الآيات المتعارضة ظاهريا: ومثال ذلك مسألة: الجمع بين قوله ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ البقرة: ٥١، وقوله تعالى ﴿وَوَعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْرَةٍ﴾ البقرة: ٥١، والتعارض يكمن في: هل المواعدة في البداية كانت ثلاثين أو أربعين؟، فيجيبنا التواتي عن ذلك بقوله: "والآية تشير إلى أن موسى أمر أخاه هارون أن يخلفه في قومه، ونصحه بأن يحترز من عمل المفسدين وسعيهم بالإفساد في الأرض، فلما وصل موسى إلى ربه زاده الله عشرا، فكانت فتنهم في العشر الذي زاده الله، فلما مضى ثلاثون ليلة كان السامري قد أبصر جبريل، فأخذ من أثر الفرس قبضة من تراب"³.

3- الجمع بين الآيات التي وردت في نفس المعنى: وذلك ليكون الموضوع متكامل الأطراف، ومثال ذلك ما جاء في تفسيره لقوله تعالى ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ الفاتحة: ٧ بأن المغضوب عليهم هم: اليهود، والضالون هم: النصارى، فقال: "يبين أن "المغضوب عليهم" هم اليهود قوله تعالى فيهم ﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ البقرة: ٩٠، وقوله تعالى فيهم أيضا ﴿قُلْ هَلْ أَنْتُمْ بِشِرِّ مِّنْ ذَلِكَ مَثْوًى عِنْدَ اللَّهِ﴾ المائدة: ٦٠، وقوله سبحانه ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّنْ رَبِّهِمْ﴾ الأعراف: ١٥٢. وقد بين أن الضالين هم النصارى قوله تعالى ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ﴾ المائدة: ٧٧"⁴.

¹ ذكر الماوردي ثلاثة أقوال: منها القول الذي سأنقله عن التواتي، وقول: اللهم لا إله إلا أنت....، وقول آدم: "رب رأيت إن تبث وأصلحت؟". ينظر: النكت والعيون، الماوردي، ت: ابن عبد المقصود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (109/1).

² الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (475/1).

³ المصدر نفسه، (384/9).

⁴ المصدر نفسه، (203/1).

ثانياً: تفسير القرآن بالسنة: والسنة هي المصدر الثاني الذي ذكره التواتي في مصادر تفسيره، وقد استخدم السنة في التفسير بطرق مختلفة أهمها:

1- التفسير المباشر من النبي ﷺ للآية: ومثال ذلك ما ذكره في تفسيره لقوله قال ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ الأنعام: ٨٢، حيث ذكر التفسير النبوي لها فقال: " وجاء في الصحيحين عن ابن مسعود لما نزل قوله تعالى ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: أيّنا لم يظلم نفسه؟ فقال رسول الله ﷺ «ليس هو كما تظنون إنما هو كما قال لقمان لابنه ﴿يَبْنَىٰ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ لقمان: ١٣¹ »².

2- الاستدلال بحديث في معنى الآية: ومثاله ما ذكره في تفسيره لقوله تعالى ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ يس: ٣٨، حيث ذكر معنى الآية، ثم بين حقيقة مستقر الشمس بحديث ورد في ذلك فقال: " وجاء بيان ذلك على رسول الله، وأشار إلى حقيقة أمر الشمس وهي آية من آيات الله تعالى، ففي صحيح مسلم عن أبي ذر رضى الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ قال «مستقرها تحت العرش»³ " ⁴.

3- الاستدلال بحديث هو سبب نزول الآية، وذلك مثلما ذكره التواتي في تفسير قوله تعالى ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ البقرة: ١٨٧، حيث ذكر التواتي أن هناك عدة أحاديث رويت في سبب نزول الآية فقال: " وقد روي في بيان سبب نزول هذه الآية أحاديث عن جماعة من الصحابة - وذكر مجموعة من الأحاديث -⁵ " .

ثالثاً: تفسير القرآن بأقوال الصحابة والتابعين: اعتمد التواتي في تفسيره على أقوال الصحابة والتابعين، وكان اعتماده عليها متنوعاً، بيانه:

¹ رواه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء باب قول الله تعالى { ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر الله }، برقم: 3245، ومسلم

في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: صدق الإيمان وإخلاصه، رقم: 342 .

² الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (472/8).

³ رواه مسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان، برقم: 254.

⁴ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (55/16).

⁵ المصدر نفسه، (406/3).

أما بالنسبة للصحابة¹: اعتمد على أقوالهم في مسائل مختلفه، منها:

1- بيان معنى الآية: ومثاله ما نقله عن ابن مسعود: في تفسيره لقوله تعالى ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ...﴾ الأعراف: ٨ - ٩، حيث قال: "عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: "يحاسب الله الناس يوم القيامة، فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة، ومن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة دخل النار - ثم قرأ الآية -"².

2- بيان سبب نزول الآية: ومثاله ما نقله عن عائشة رضي الله عنها في سبب نزول قوله تعالى ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَهُمُ الْمَوْتُ مُهَيَّجَاتٍ فَأَمَتَّجُوهُنَّ...﴾ الممتحنة: ١٠، حيث قال: "عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت: كانت المؤمنات إذا هاجرن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يُمَتِّحَنَ بقول الله عز وجل - ثم ذكر الآية -"³.

3- بيان الألفاظ الغريبة في الآية: ومثاله ما نقله عن ابن عباس في تفسير لفظة "القصر" من قوله تعالى ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ﴾ المرسلات: ٣٢، حيث قال: "وسئل ابن عباس عن قوله تعالى ﴿تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ﴾ ففسرها تفسيراً لغوياً فقال: هي الخشب العظيم المقطعة، وكنا نعمل إلى الخشب فنقطعها ثلاثة أذرع، وفوق ذلك ودونه ونُدْخِرُها للشتاء، وكنا نسميها: القصر"⁴.

وأما بالنسبة للتابعين⁵: فقد اعتمد على أقوالهم في مسائل مختلفة أيضاً، ومنها:

1- بيان معنى الآية: ومثاله ما نقله عن قتادة: في تفسير قوله تعالى ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا﴾ آل عمران: ٩٧، حيث قال: "عن قتادة: وهذا كان في الجاهلية، كان الرجل لو جرَّ كلَّ جريرة على نفسه،

¹ وأما حكم قول الصحابي في التفسير، فقد ذكر بعض العلماء أن له حكم المرفوع، ولكن هذا القول لا يقبل على هذا الإطلاق، والصواب أن تفسير الصحابي له أقسام، وكل قسم له حكم خاص، ينظر: "فصول في أصول التفسير"، مساعد الطيار، دار ابن الجوزي، ط: 2، سنة: 1423هـ، (ص: 50).

² الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (285/9).

³ المصدر نفسه، (19/108).

⁴ المصدر نفسه، (19/540).

⁵ لما كان التابعون قد تلقوا التفسير عن الصحابة مباشرة، وكانوا في عصر الاحتجاج اللغوي، فلم تفسد ألسنتهم بالعجمة، وكان لهم من الفهم وسلامة المقصد ما لهم، كل هذا جعل من جاء بعدهم يرجع إلى أقوالهم في التفسير، ويعتمدها. فصول في أصول التفسير، مساعد الطيار، (ص: 51).

ثم لجأ إلى حرم الله، لم يُتناول ولم يُطلب لما كان للبيت من حرمة في الجاهلية، لكن لما بعث فيهم من يحقق معنى البيت كفروا به، وعاندوا وكابروا"¹.

2- بيان الألفاظ الغريبة في الآية: ومثاله ما نقله عن قتادة ومجاهد في تفسير لفظة "المرسلات" من قوله تعالى ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ المرسلات: ١، حيث قال: "القول الأول: أنها الرياح يتبع بعضها بعضها... وبه قال مجاهد و قتادة"².

الفرع الثالث: منهج التواتي في التعامل مع سور القرآن وتوظيف علوم القرآن فيها:

اعتنى بعلوم القرآن المتعلقة بالسور اعتناء كبيراً، وبعد تتبعي لمنهجه في التعامل مع سور القرآن الكريم، وجدته يعتمد عليها بالطريقة الآتية:

أولاً: اعتبار تفسير السور فصولاً في التفسير: صرح الشيخ التواتي في مقدمته أنه يعتبر تفسير جميع سور القرآن الكريم فصولاً، وذلك بعد الفصل الأول الذي خصصه لعلم القراءات فقال: "وأما الفصول الأخرى فقد خصصتها للتفسير معتمداً على القراءات وتوجيهها حسب ترتيب السور بدءاً بسورة الفاتحة حتى سورة الناس"³، حيث يبدأ تفسير السور بعنوان "تفسير سورة كذا..." في صفحة مستقلة، ثم يشرع في مدخل تعريفى للسورة يذكر فيه عدة معلومات تتعلق بها.

ثانياً: منهج تقسيمه للسورة: حيث كان يقسم السورة إلى مجموعة من النصوص القرآنية كل نص يشمل مجموعة من الآيات، فيقول "النص القرآني"، ويختلف عدد النصوص من سورة إلى أخرى، وكان يضع عنواناً للنص القرآني، فيبدأ بذكر العنوان ثم النص القرآني، ثم يقول: "بين يدي النص القرآني" فيذكر ما فيه من موضوعات، وقد يذكر مناسبة هذا النص للنصوص قبله أو مناسبتة لبداية السورة. ومثال ذلك: أنه في تفسير سورة الكهف:

- ذكر العلوم المتعلقة بالسورة مثل: اسمها، المكي والمدني، سبب نزولها، مناسبتها، فضلها، مقاصدها.
- ثم شرع في تفسيرها فقسمها إلى أربعة نصوص قرآنية، فقال في النص الأول: "بيان نزول القرآن على سنن السداد وقصة أصحاب الكهف".

¹ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (413/5).

² الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (537/19).

³ المصدر نفسه، (32/1).

- ثم قال: "النص القرآني قوله تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا... وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ الكهف: ١-٢٦.

- ثم قال: "بين يدي النص القرآني: تبدأ السورة..."¹.

ثم فسر آيات النص وفق المنهج الذي سأذكره مفصلاً فيما يأتي.

- وهناك سورٌ جعلها التواتي نصّاً قرآنياً واحداً وذلك لقلّة عدد آياتها، وهي: الدخان، الجاثية، الحجرات، وكلّ السور التي بعدها إلا سورة الحديد فقسمها إلى نصّين، ولهذا فإننا إذا نظرنا إلى فهرس الموضوعات في أجزاء "الدر الثمين" فإننا نجد في كلّ سورة فهرساً للعناوين التي ذكرها لنصوصها القرآنية، فهو يشكل بذلك فهرساً لموضوعات سور القرآن.

ثالثاً: اسم السورة ووجه تسميتها: اعتنى التواتي بعلم أسماء السور اعتناء بارزاً، فكان يذكر الأسماء ووجه التسمية، مستعيناً بأحاديث مرفوعة أو آثار موقوفة، فإن كان هناك خلاف في تسميتها ذكره، ومثال ذلك ما ذكره في سورة آل عمران، حيث ذكر أسماءها المتنوعة والاسم التوقيفيّ ودليله ووجه تسميتها به، فقال: "سورة آل عمران، وتسمى: الزهراء، والأمان، والكنز، والمعينة، والمجادلة، وسورة الاستغفار والطيبة، وسميت في كلام النبي ﷺ وكلام الصحابة، ففي صحيح مسلم عن أبي أمامة: قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: اقرؤوا الزهراوين: البقرة وآل عمران... ووجه تسميتها بآل عمران أنها ذكرت فيها فضائل آل عمران وهو عمران بن ماثان أبو مريم، وآله: وهم زوجته حنة وأختها زوجة زكريا النبي، وزكريا ﷺ كافل مريم إذ كان أبوها عمران توفي وتركها حملاً فكفلها زوج خالتها"².

رابعاً: المكّي والمدني من السور: حيث كان يعتني بهذا النوع من علوم القرآن، فيذكر مكان نزول السور، وهل هي مكية أو مدنية، فإن كان في ذلك خلاف حكاها، ومثال ذلك قوله في تفسيره لسورة "ص": "وهي مكية بالإجماع إلا ما جاء في الإتيان³ بأنها مدنية"⁴.

خامساً: عدد الآي وتوابعه من عدد الكلمات والحروف: وهذا من علوم السور المهمة، ولذلك اعتنى به التواتي فكان يذكر عدد آياتها وكلماتها وحروفها وقاعدة فواصلها⁵، وإن كان هناك خلاف فيه ذكره،

¹ المصدر نفسه، (326-325/12).

² الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (5/5).

³ الإتيان في علوم القرآن، للسيوطي، (49/1).

⁴ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (191/16).

⁵ وقاعدة الفواصل هي الحروف التي تنتهي بها السورة، شرح المخللاتي، رضوان بن محمد، (ص: 161).

ومثال ذلك ما جاء في تفسيره لسورة مريم حيث قال: "عدد آياتها تسعون وتسع مدني أخير ومكي، وثمان للباقيين، واختلفوا في ثلاثة مواضع... وعدد كلماتها: تسعمائة واثنان وستون كلمة، وعدد حروفها: ثلاثة آلاف وثمانمائة وحرفان... وقاعدة فواصلها (نادم) نحو: يمترون، وحفيا، كهيعص، وعظيم"¹.

سادسا: ترتيب السورة في النزول: فقد اعتنى الشيخ التواتي بذكر ترتيب السورة في النزول فيذكر ما نزل قبلها وبعدها، وقد يذكر أيضا تاريخ نزولها إن وجده لما فيه من فائدة، مثل قوله في سورة الأحزاب: "وهي التسعون في عداد السور النازلة من القرآن، نزلت بعد سورة الأنفال وقبل سورة المائدة، وكان نزولها على قول ابن إسحاق أواخر سنة خمس من الهجرة"².

سابعا: الاعتناء بعلم المناسبات بين السور: فغالبا ما يذكر التواتي مناسبة السورة لما قبلها تحت عنوان "مناسبتها بما قبلها" أو ما يقارب هذا العنوان، وذلك ليظهر الوحدة الموضوعية بين سور القرآن الكريم، ومثال ذلك أنه لما فسر سورة "النصر" ذكر مناسبتها قائلا: "مناسبتها لما قبلها: لما قال في آخر ما قبلها ﴿وَلِي دِينٍ﴾ فكان فيه إشعار بأنه خلص له دينه، وسلم من شوائب الكفار والمخالفين، فعُقب ببيان وقت ذلك، وهو مجيء الفتح والنصر، فإن الناس حين دخلوا في دين الله أفواجا، فقد تم الأمر وذهب الكفر، وخلص دين الإسلام ممن كان يناوئه، ولذلك كانت السورة إشارة إلى وفاته"³.

ثامنا: الاعتناء بمقاصد السور: حيث يذكر مقاصد السورة وأغراضها تحت عنوان "مقاصد السورة" أو "أغراض السورة" أو "موضوعات السورة"، مُبينًا المحور العام للسورة وموضوعاتها الفرعية، ومثال ذلك ما ذكره في سورة "التكوير" مبينا أغراض السورة ومقاصدها فقال: "وتشتمل السورة على محورين اثنين، تعالج في كل محور منهما تقرير حقيقة ضخمة من حقائق العقيدة.

المحور الأول: حقيقة القيامة، وما يصاحبها من انقلاب كوني هائل كامل، يشمل الشمس والنجوم، والجبال والبحار، والأرض والسماء، والأنعام والوحوش، كما يشمل بني الإنسان.

المحور الثاني: حقيقة الوحي، وما يتعلق به من صفة الملك الذي يحمله، وصفة النبي ﷺ الذي يتلقاه، ثم شان المخاطبين بهذا الوحي معه، ومع المشيئة الكبرى التي فطرهم، وأنزلت لهم الوحي.

- **أغراض السورة:** الغرض من السورة: إثبات الحساب على الأعمال، وما يتبع هذا من ثواب وعقاب وبهذا يكون سياقها في التهيب والترغيب، ويكون ذكرها بعد السورة السابقة لموافقتها لها في السياق.

¹ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (428-427/12).

² الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (179/15).

³ المصدر نفسه، (478/20).

- موضوعات السورة:

- وصف أهوال القيامة.

- القسم بالنجوم وبالليل وبالصبح على أن القرآن منزل من عند الله بواسطة ملائكته.

- إثبات نبوة محمد ﷺ.

- بيان أن القرآن عظة وذكر لمن أراد الهداية.

- مشيئة العبد تابعة لمشيئة الله، وليس لها استقلال بالعمل¹.

تاسعا: ذكر فضائل السورة: كما كان التواتي يعني بذكر فضائل السور إن وردت، وقد يكون ما يورده صحيحا أو غير صحيح، ومثال ذلك ما أورده في فضل سورة البينة، حيث قال: "جاء في فضلها حديث لا يصح، رويناه عن محمد بن محمد الحضرمي، قال: قال لي أبو عبد الرحمن بن نمير: اذهب إلى أبي الهيثم الخشاب فاكتب عنه فإنه قد كتب، فذهب إليه فقال: حدثنا مالك بن أنس عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب عن أبي الدرداء، قال قال رسول الله ﷺ «لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ الْبَيِّنَةُ: ١، لَعَطَلُوا الْأَهْلَ وَالْمَالَ فَتَعَلَّمُوهَا»²... وفي الحديث الصحيح ماروي عن أنس: أن النبي ﷺ قال لأبي بن كعب ؓ: «إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾» قال: وسماني لك؟ قال نعم، فبكي³»⁴.

الفرع الرابع: منهج التواتي في تفسير الآيات والخطوات المتبعة فيه:

بعد استقراء تفسير "الدر الثمين" لمعرفة طريقة تفسير التواتي للآيات، نجد أنه اتبع في تفسيره منهجية التفسير التحليلي، الذي يعتمد فيه المفسر إلى التحليل في الآية، فبيّن سبب نزولها، وغريبها، وإعراب مشكلها، وبيان مجملها... إلخ⁵. وهو المنهج الذي كان يعتمد عليه التواتي، فإنه كان في الغالب يأتي على جميع عناصره، وقد نص على تعمّد تنويع الفوائد ليجد فيه القراء ضالّتهم على اختلاف مستوياتهم، وفي ذلك يقول التواتي: "تعودنا على المنهج المتبع في هذا التفسير وهو إثبات النص القرآني والتعليق عليه

¹ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (72/20).

² الكشف والبيان عن تفسير القرآن، الثعلبي، ت: الإمام أبي محمد بن عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط: 1، سنة: 1422هـ - 2002 م، (259/10).

³ رواه مسلم في صحيحه، باب استحباب قراءة القرآن على أهل الفضل والحقاق فيه وإن كان القارئ أفضل من المقروء عليه، صلاة المسافرين، برقم: 1901.

⁴ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (364/20).

⁵ فصول في أصول التفسير، الطيار، (ص: 33).

إجمالاً بدون تفصيل، وتحليل ألفاظه للوصول إلى المعنى ثم نتطرق إلى التفسير آية آية، معتمدين على القراءات والتحليل النحوي لنخلص إلى المعنى الإجمالي للآية¹. ومجمل منهجه الذي كان يتبعه في تفسير الآيات، كما يلي:

أولاً: يذكر مجموعة من الآيات ويصطلح عليها "النص القرآني" ثم يضع تحته عنواناً "بين يدي النص القرآني"؛ يذكر ما جاء فيه من موضوعات، وقد يذكر هنا مناسبة النص للنص أو للنصوص السابقة، وقد يذكر مناسبة موضوعات النص لبعضها البعض، فالشيخ حريص على بيان التماسك والارتباط بين آيات السورة المفسرة وبين سور القرآن، وقد تم تفصيل هذه المناسبات عند الكلام على معالم الاتجاه الاجتماعي عند الشيخ التواتي في مَبْحَثَيَّ: "الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم" و "الوحدة الموضوعية في السورة القرآنية"، ثم يشرع في تفسير آيات النص القرآني، مقسماً لها إلى مجموعة من الدروس، حيث يشمل كل درس تفسير آية من النص أو آيتين أو أكثر.

ومثاله: تفسير سورة القصص، حيث قسمها إلى خمسة نصوص، فقال في النص الأول: "بيان ظلم فرعون بني إسرائيل، وولادة موسى ومحبة آسية له، وردّ موسى على أمه، وحديث القبطي والإسرائيلي".

ثم قال: **النص القرآني:** ﴿طَسَمَ ١ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ٢﴾ ... وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿القصص: ١-١٩. ثم قسم المفسر هذا النص إلى ثلاثة دروس، فقال في أولها:

- من الآية الأولى إلى الآية السادسة عشر من النص القرآني المحدد: قوله تعالى ﴿طَسَمَ ١﴾ ... وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَمْلَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ القصص: ١-٦. ثم فسره وقال في نهايته: "نكتفي بهذا القدر، وإلى اللقاء في الدرس القادم-إن شاء الله تعالى-". ثم الدرس الثاني فقال:

- من الآية السابعة إلى الآية الثالثة عشر من النص القرآني المحدد: قوله تعالى ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ٧﴾ ... وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ القصص: ٧-١٣. ثم فسره وقال في نهايته: "نكتفي بهذا القدر، وإلى اللقاء في الدرس القادم-إن شاء الله تعالى-". ثم الدرس الثالث فقال:

- من الآية الرابعة عشر إلى الآية التاسعة عشر من النص القرآني المحدد: قوله تعالى ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ١٤﴾ ... وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿القصص: ١٤-١٩. ثم فسره وقال في نهايته: "نكتفي بهذا

¹ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (352/2).

القدر، وإلى اللقاء - إن شاء الله تعالى - والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه¹.

ثانياً: أوجه القراءات: وقد اعتنى التواتي بالقراءات اعتناء كبيراً، فكان يذكر ما ورد في الآية من قراءات ثم يوجهها على حسب المعنى الذي دلت عليه بناء على اختلاف أدائها، ومثال ذلك ما جاء في تفسيره لقوله تعالى ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ٣٩ يس: ٣٧ - ٣٩، حيث بين القراءات الواردة فيها وتوجيهها، فقال: "أوجه القراءات: ... الموضع الثاني: (والقمر) وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو والحسن والأعرج "والقمر" بالرفع عطفاً على قوله تعالى "وآية لهم الليل" عطف جملة على جملة، ويصح وجه آخر وهو أن يكون قوله "وآية" ابتداء وخبره محذوف، كأنه قال: في الوجود وفي المشاهدة، ثم فسر ذلك بجملتين من ابتداء وخبر وابتداء وخبر، الأولى منهما "الليل" نسلخ منه النهار"، والثانية "والقمر" قدرناه منازل". وقرأ الباقون "والقمر قدرناه" بنصب "القمر" على إضمار فعل يفسره قوله "قدرناه"، وهي قراءة أبي جعفر وابن محيصن والحسن بخلاف عنه. قال الزجاج: من قرأ بالنصب، فالمعنى: وقدرنا القمر قدرناه منازل، ومن قرأ بالرفع، فالمعنى: وآية لهم القمر قدرناه، ويجوز أن يكون على الابتداء، و"قدرناه" الخبر².³

ثالثاً: توظيف علوم اللغة العربية: وقد قام بتوظيف علوم اللغة من جوانب متعددة، ما يؤهله لأن يكون تفسيرا لغوياً:

1- التحليل اللغوي: فكان يذكر فيه تفسير غريب القرآن نقلاً عن أئمة اللغة وشعرائها، حيث إنه صرح باعتماده على شعراء العرب فقال: "وقد بان لنا ذلك من الألفاظ التي تعرضنا لها بالشرح والتحليل، معتمدين على ما قاله الشعراء المعتد بشعرهم في الاستشهاد"⁴.

- ومثال ذلك أنه لما فسر لفظة "الأهلة" من قوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ﴾ البقرة: ١٨٩، قال: "واختلف اللغويون: إلى متى يسمى هلالاً؟ فقال الجمهور: يقال له: هلال لليلتين، وقيل: لثلاث، ثم يكون قمراً. وقال أبو الهيثم: يسمى القمر ليلتين من أول الشهر هلالاً، وكذلك ليلتين من آخر الشهر،

¹ ينظر هذا المثال بطوله: المصدر نفسه، (308-287/14).

² الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (55/16).

³ وينظر أيضاً في توجيهها: الحجة في القراءات السبع، ابن خالويه، دار الشروق، بيروت ط: 4، سنة: 1401هـ، (ص: 298).

⁴ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (214/2).

ثم يسمى ما بين ذلك قمراً، وقال الأصمعي: يقال هلال إلى أن يحجر، وتحجيره أن يستدير له كالخيط الرقيق... قال الزجاج: فعال يجمع في أقل العدد على أفعله...¹.

- ومثال استدلاله بالشعر لإيضاح معنى المفردة القرآنية، ما جاء في تفسيره للفظه "أحوى" من قوله تعالى ﴿فَجَعَلَهُ عُنَاءَ أَحْوَى﴾ الأعلى: ٥، حيث قال: "(أحوى) الحوة: سواد يضرب إلى الخضرة، ومنه قول ذي الرمة: لمياء في شفيتها حوّة لعس وفي اللثات وفي أنيابها شنب"².

2- التحليل النحوي: حيث كان التواتي يذكر إعراب آيات القرآن تجلية للمعنى وبيّن أوجه ذلك، ومثال ذلك حديثه عن لفظة "العمرة" من قوله تعالى ﴿وَأَتَمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمَرَةَ لِلَّهِ﴾ البقرة: ١٩٦، فبعد ذكره للقراءات وغيرها تحدث عن التحليل النحوي لها فقال: "التحليل النحوي (والعمرة)، الجمهور على نصب (العمرة) على العطف على ما قبلها. (لله) متعلق بـ"أتموا" وهو مفعول من أجله، ويجوز أن يكون في موضع الحال، ويكون العال محذوفاً تقديره: كائنين لله"³.

3- البلاغة والبيان: حيث كان الشيخ التواتي يعتني بإظهار الجوانب البلاغية والبيانية في الآيات، ومن ذلك أنه لما فسر قوله تعالى ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ...﴾ البقرة: ٢٣١-٢٣٢، وضع عنواناً فيما يتعلق بالمسائل البلاغية والبيانية للآيتين فقال: "لطائف بلاغية: تضمنت الآيتان الكريمتان ستة أنواع من ضروب الفصاحة، والبلاغة، من علم البيان والبديع. الأول: الطباق وهو الطلاق والإمساك. الثاني: المقابلة: في قوله {فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ} وقوله تعالى {وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا}... الثالث: التكرار في قوله {فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ} كرر اللفظ لتغيير المعنيين، وهو غاية الفصاحة إذ اختلاف معنى الاثنين دليل على اختلاف البلوغين. الرابع: الالتفات في قوله تعالى {وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ} ثم التفت إلى الأولياء فقال {فَلَا تَعْصُلُوهُنَّ}... الخامس: التقديم والتأخير، التقدير: أن ينكحن أزواجهن بالمعروف إذا تراضوا. السادس: مخاطبة الواحد بلفظ الجمع، لأنه ذكر في أسباب النزول أنها نزلت في معقل بن يسار، أو في أخت جابر، وقيل ابنته"⁴. وقد فصل الشيخ ذلك كله وشرحه.

¹ المصدر نفسه، (436/3).

² الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (191/20).

³ المصدر نفسه، (489/3).

⁴ أسباب نزول القرآن، الواحدي، ت: عصام الحميدان، دار الإصلاح، السعودية، ط: 2، سنة: 1992م، (ص: 80).

⁵ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (155/4).

رابعاً: بيان أسباب النزول: حرص مفسرنا على ذكر سبب النزول للآية أو الآيات إذا كان لها سبب نزول، وجعل ذلك من أهم ما ينبغي أن يذكره المفسر في تفسيره فقال: "والمقصود في كتب التفسير ما يتعلق بتفسير ألفاظ الكتاب العزيز وذكر أسباب النزول وبيان ما يؤخذ منه من المسائل الشرعية وماعدا ذلك فهو فضلة لا تدعو إليه حاجة"¹، فإن كان في الآية خلاف ذكره الشيخ، ومن ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ...﴾ النساء: ٣٤، حيث وضع عنواناً واضحاً وهو "سبب النزول" ثم قال "ذكر في أسباب نزول هذه الآية أقوال نذكر منها ما تيسر لنا استحضاره في هذا الدرس: قيل: إن سبب نزول الآية أن النساء تكلمن في تفضيل الله الرجال عليهن في الميراث، فذكر تعالى في هذه الآية أنه إنما فضل الرجال على النساء في الميراث لأن الرجال قوامون على النساء... قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في بنت محمد بن سلمة و زوجها سعد بن الربيع أحد نقباء الأنصار، فإنه لطمها لطمه فنشزت عن فراشه وذهبت إلى رسول الله ﷺ وذكرت هذه الشكاية، وأنه لطمها وأثر اللطمه باق في وجهها، فقال ﷺ: «اقتصي منه، ثم قال لها اصبري حتى أنظر»، فنزلت هذه الآية ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾²3.

خامساً: التفريعات الفقهية: وقد أولى الشيخ آيات الأحكام اعتناء خاصاً، فكان يهتم بالمسائل الفقهية ويذكر فروعها، ويضع لذلك عناوين متفرقة واضحة فيقول "مسألة فقهية" أو "تفريع فقهي" أو "ما يستفاد من أحكام شرعية" أو "المسائل الفقهية". وقد نص الشيخ في مقدمة تفسيره أنه يهتم بالمسائل الفقهية، وكان ينصح المستمعين لدروسه بالاهتمام بالفقه قائلاً: "وقد بينت لكم ذلك في درس الفقه، أدعوكم إلى ربط درس الفقه بدرس التفسير، كما وجَّهنا الشيخ: أحمد قصيبة"⁴.

ومثال تفريعة للمسائل الفقهية المستنبطة من الآيات دون توسع؛ ذكره لحكم الوصية عند تفسيره لقوله تعالى ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَلَدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ^ص حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ البقرة: ١٨٠، حيث قال: "الحكم الشرعي للوصية: واختلف العلماء في وجوب

¹ المصدر السابق، (12/169).

² جامع البيان، الطبري، مؤسسة الرسالة، ط: 1، سنة: 1420هـ-2000م، (6/688)، وإسناده ضعيف؛ لأنه مرسل. ينظر:

الاستيعاب في بيان الأسباب، سليم بن عيد الهلالي ومحمد بن موسى آل نصر، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، السعودية، ط: 1، سنة: 1425هـ، (1/387).

³ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (7/57).

⁴ المصدر نفسه، (4/217).

الوصية على من خلف مالا، بعد إجماعهم على أنها واجبة على من قبله ودائع وعليه ديون. وأكثر العلماء على أن الوصية غير واجبة على من ليس عليه قبله شيء من ذلك، وهو قول مالك والشافعي والثوري، موسرا كان الموصى أو فقيرا. وقال طائفة: الوصية واجبة على ظاهر القرآن، قال الزهدي وأبو مجلز: قليلا كان المال أو كثيرا. وقال أبو ثور: ليست الوصية واجبة إلا على رجل عليه دين أو عنده مال لقوم، فوجب عليه ان يكتب وصيته ويخبر بما عليه، فأما من لادين عليه ولا وديعة عنده فليست بواجبة عليه إلا إن يشاء"¹.

ومن أمثلة توسّعه واستفاضته في الأحكام الفقهية، ما ذكره في تفسيره لبداية سورة النور ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةً جَلْدَةً﴾ النور: ٢، حيث تحدّث عن موضوع الزنا من الناحية الفقهية وتوسع فيه من جوانب متعددة بلغت 34 صفحة، فذكر: تعريف الزنا لغة وشرعا، ثم أصل تحرّمه والتدرج في ذلك، ثم أضراره، ثم عقوبته وشروط حدّه وغيرها من المسائل، وختم ببيان سبب توسّعه الكبير في الحديث عن الزنا فقال: "لقد أفضنا الحديث عن جريمة الزنا، وجمعنا في درسنا هذا بين الأصل والفرع وبين القرآن والفقه، وذلك لما نشاهد في شوارعنا وأسواقنا من فاحشة وجريمة الزنا، التي أصبح الناس لا يلقون لها بالا، وكأنّ تشريعا جاءهم من السماء لإباحتها، ونسوا أن سبب الضياع وخراب البيوت هو الزنا"³.

سادسا: المسائل العقديّة: منهج الشيخ التواتي في هذا النوع من الآيات هو عدم التوسع فيها والاكتفاء بالمعنى العام الذي تُفهم به الآية فقط، فلا يذكر الخلاف الواقع بين الفرق الإسلامية بل يكتفي بذكر ما يعتقده على سبيل الإجمال فقط، وقصده بذلك ألا يزيد الأمة تفريقا بالخوض في هذه المسائل كما نص على ذلك في قوله: "وبما أننا ألزمتنا أنفسنا منذ بداية حلقاتنا في التفسير بأننا لا نعرض لما قالته هذه الفرق، فأمرها إلى الله نسأل الله لأصحابها العفو والغفران، وقد ألزمتنا أنفسنا بأن يكون التفسير في حلقتنا هذه على مذهب أصحابنا من أهل السنة والجماعة لا غير"⁴. ولكن الشيخ كان يخرج عن ذلك أحيانا إذا دعت الضرورة لذلك، كأن يسأله سائل في الدرس فيضطرّ لإجابته، ومثال ذلك أن سائلا سأله وهو في درس التفسير عن صفة "اليد" في قوله تعالى ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ

¹ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (299/3).

² الفقه على المذاهب الأربعة، عبد الرحمن الجزيري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 2، سنة: 2003م، (287/3-290).

³ المصدر نفسه، (385/13).

⁴ المصدر نفسه، (106/13).

وَلَعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴿٦٤﴾ المائدة: ٦٤، فتوسع الشيخ في الإجابة وأورد الخلاف الوارد فيها بين الفرق الإسلامية من الجسمة والمثبته والمؤولة، ثم ذكر ما يراه راجحاً بقوله: "إذا عرفت هذا فنقول: اليد في حق الله يمتنع أن تكون بمعنى الجارحة، وأما سائر المعاني فكلها حاصلة¹، وإننا نؤمن بالله تعالى كما وصف نفسه في القرآن الكريم"²، وقد اعتذر الشيخ من هذا التطويل وبين سببه فقال: "ليس من عادي في هذا التفسير التطرق إلى المسائل الخلافية في العقيدة بين المعتزلة وجمهور علماء الإسلام، ولولا أن أحدهم بادرنى بسؤال عن هذا الموضوع لما تطرقت لهذه المسألة، وتجدي أميل في هذا التفسير إلى التفسير بالمأثور، معتمداً على ما ذكره المفسرون الكبار -رحمهم الله تعالى- من أمثال الطبري والرازي والقرطبي وابن الجوزي وغيرهم من الأعلام المشهورين، فعذراً للقارئ الكريم إذا خرجت عن هذه القاعدة المعتمدة لديّ لولا سؤال سائل وإلحاحه عليّ، وخوفاً من أن يفسد علينا الحلقة بتفلسفه انصعت له وأجبتة عما يريد"³.

سابعاً: التفريعات المتعلقة بالنظرة العلمية للقرآن: من منهج التواقي في تفسير الآيات أنه كان يستغلّ كلّ مدخل في الآية يتحدّث عن الإعجاز العلمي وذلك لأنه يظهر عظمة القرآن، فكان يضع عنواناً بقوله "النظرة العلمية" أو غيره من العناوين، ومن ذلك قوله في تفسيره لآية ﴿وَنَقَّيْسَ وَمَا سَوَّلَهَا ۖ فَالْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ الشمس: ٧ - ٨، حيث قال: "النظرة العلمية: تصرّح بحقيقة كبرى في ذات الإنسان، وهي النفس البشرية التي تناول علم النفس دراستها وكشف ما في النفوس البشرية من عوالم مكنونة حافلة بالأسرار وبالعجائب والغرائب من السلوك والمشاعر ومن تقلبات بين طمأنينة وقلق وبين انشغال واستقرار وبين هدوء وانفعال، وكيف أن النفس لها حالات من الرشد والهداية مع النفس اللوامة وحالات من الفجور والطغيان مع النفس الأمانة"⁴.

¹ وممن تحدّث عن هذه المسألة ويبيّنها؛ الإمام ابن عبد البر -وهو من كبار أئمة المالكية- حيث قال ملخصاً مذهب أهل السنة في الصفات الذاتية: "أهل السنة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة كلها في القرآن والسنة والإيمان بما وحملها على الحقيقة لا على المجاز إلا أنهم لا يكتفون شيئاً من ذلك ولا يحدون فيه صفة محصورة وأما أهل البدع والجهمية والمعتزلة كلها والخوارج فكلهم ينكروها ولا يحمل شيئاً منها على الحقيقة ويزعمون أن من أقر بما مشبه وهم عند من أثبتها نافون للمعبود والحق فيما قاله القائلون بما نطق به كتاب الله وسنة رسوله وهم أئمة الجماعة والحمد لله". ينظر: التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، أبو عمر بن عبد البر، ت: مصطفى بن أحمد العلوي، ومحمد عبد الكبير البكري، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، سنة: 1387هـ، (145/7).

² الدر الثمين، التواقي بن التواقي، (174/8-177).

³ المصدر نفسه، (174/8).

⁴ المصدر نفسه، (266/20)، وينظر: 232/1، 54/2، 299/3-300، و206/4 و216/4.

ثامنا: تعامله مع قصص القرآن الكريم: وهذا يجرنا إلى الحديث عن موقف الشيخ من الإسرائيليات في القصص حيث كان يحذر منها ويتجنب ذكرها في تفسيره، وقد يذكرها منبهاً على بطلانها فيما ظهر له مخالفته للشرعة، هذا وقد لخص لنا التواتي موقفه من الإسرائيليات لما فسّر الآيات المتعلقة بقصة داود وسليمان في سورة "ص" وأورد روايات كثيرة في تفسيرها نقلها عن ابن كثير¹ ثم قال في نهاية تفسيرها: "تنبيه هام جداً: وقد أتينا على قصة داود وسليمان عليهما السلام كما نصّ عليها القرآن، وأثبتنا ما يجب إثباته وشجبنا² ما فيه تجاوز وغلو وكذب، وحذر كثير من المفسرين -رحمهم الله تعالى- من الإسرائيليات، ولكن البعض منهم ردّدوا أخبار كعب الأحبار وغيره، وإني لأدعوكم -أيها السادة- من الحذر من الإسرائيليات التي كثيراً ما تصادفكم عند قراءة كتب التفسير"³. ومن شدة احتراز التواتي من الإسرائيليات، كان لا يذكر روايات كعب الأحبار خوفاً من أن تكون غير صحيحة، حيث قال: "تنبيه هام جداً: أستمح القارئ الكريم أني لم أثبت في هذا التفسير من مرويات كعب الأحبار خوفاً من الوقوع في الإسرائيليات"⁴.

تاسعاً: بيان المعنى الإجمالي للآيات: وهذه الخطوة هي زبدة المراحل السابقة، حيث اعتنى التواتي بذكر المعنى الإجمالي للنص القرآني أو للآيات المراد تفسيرها من النص القرآني، وكان يعتبر المعنى الإجمالي للآيات هو الخلاصة التي تختتم بها الخطوات السابقة، وكان يضع عنواناً لذلك بقوله "المعنى الإجمال للآية"، ومثال ذلك تفسيره لسورة الفلق حيث قال: "المعنى الإجمالي للآيات: ذكر الله سبحانه وتعالى في هذه السورة إرشاد رسول الله ﷺ إلى الاستعاذة من شر كل مخلوقاته على العموم، ثم ذكر بعض الشرور على الخصوص مع اندراجها تحت العموم لزيادة شره ومزيد ضرره، وهو الغاسق والنفاثات والحاسد، فكان هؤلاء لما فيهم من مزيد الشر حقيقون بإفراد كل واحد منهم بالذكر"⁵.

عاشراً: اهتمامه بالناسخ والمنسوخ في الآيات: والنسخ هو: رفع حكم شرعي بدليل شرعي⁶، وقد اهتم التواتي بعلم النسخ حتى أنه ألف فيه مؤلفات منها "المورد المعين لمعرفة علم النسخ والمنسوخ"، وقد

¹ تفسير ابن كثير، (69/7).

² يقال: شجب، أي: أهلك وأبطل، مقاييس اللغة، ابن فارس، (193/3).

³ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (264/16).

⁴ المصدر نفسه، (520/20).

⁵ المصدر نفسه، (301/20).

⁶ مناهل العرفان في علوم القرآن، الزرقاني، (211/2).

بين أهمية معرفته بقوله: " ونشير هاهنا إلى أنّ معرفة الناسخ والمنسوخ أكيدة لا يستغني عن معرفته العلماء، ولا ينكره إلا الجهلة الأغبياء لما يترتب عليه من التوازل في الأحكام، ومعرفة الحلال والحرام"¹، كما بيّن التواتي المسائل التي يدخلها النسخ بقوله: " أما شريعة الإسلام فهي ناسخة لما قبلها من الشرائع، والمقصود: ما يدخله النسخ من الشرائع، أما ما يجب لله من التوحيد والتنزيه والشرك وأصول العبادات مما هو أصل دعوة جميع الرسل، فلا يدخله النسخ"² وكان الشيخ يذكر الآيات المنسوخة لئلا يعمل بها، وربما أورد الخلاف الذي ذكره المفسرون فيها، ومن اهتمامه بالنسخ ما جاء في تفسيره لقوله تعالى ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ المائدة: ٩٩، حيث قال: " وقد ذكر بعض المفسرين الخلاف في هذه الآية فقالوا: أهى محكمة أم منسوخة بآية السيف؟ إلا أن التحقيق أن هذه الآية هي إخبار للمؤمنين الذين آمنوا بالله ربا وبمحمد ﷺ رسولا مبعوثا بالحق من قبل الله تعالى، مبلغا مرادات الله من خلقه فلا يتصور أن يقال: هي آية مودعة منسوخة بآيات القتال، بل هذه حال من آمن وشهد شهادة الحق، فإنه إذ قد عصم من الرسول ﷺ ماله ودمه، فليس على الرسول ﷺ في جهته أكثر من التبليغ، والله تعالى بعد ذلك يعلم ما ينطوي عليه صدره، من خير وشر، يعلم النفوس الطيبة من النفوس الخبيثة وهو المجازي بحسب ذلك ثوابا أو عقابا، أما النسخ فهو رفع حكم سابق بحكم لا حق، وهذه الآية ليست كذلك"³.

حادي عشر: ختامه للآيات بموعظة وعبرة: قد يضيف الشيخ إلى تفسير الآيات بعد بيانه لمعانيها وعظا يخاطب به الحاضر لدرسه والقارئ لتفسيره، وعظا يهدف إلى العمل بالقرآن والإنابة إلى الله، مثل ختمه لأحد الدروس بقوله: " موعظة الجلسة: ما بعد الحق إلا الضلال، فقد بين لنا الله تعالى ما وعد به القوم الذين نكبوا عن الصراط المستقيم، واتبعوا الهوى فأرداهم فكان أمرهم فرطا، مع أن الحكمة الناطقة ترشد أنه إذا شككت في أمرين ولم تدر خيرهما فانظر أبعدهما من هواك فأته"⁴.

ثاني عشر: إضافات على المنهج التفصيلي في تفسير الآيات عند الشيخ التواتي: أختتم الحديث عن منهج التواتي في تفسير الآيات ببعض الأمور المتفرقة التي لا حظتها أثناء قراءتي في تفسيره وهي:

¹ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (318/2).

² الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (321/2).

³ المصدر نفسه، (254/8).

⁴ المصدر نفسه، (439/17).

1- أن للشيخ كلمة كان يكررها عند الانتهاء من درسه التفسيري وهي: "نكتفي بهذا القدر، وإلى اللقاء في الدرس القادم - إن شاء الله تعالى - والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه إلى يوم الدين"، وهي كثيرة جدا في تفسيره.

2- أحيانا كان التواقي يجيب على أسئلة الحاضرين إذا سألوه، وذلك بصدر رحب، وقد حكى الشيخ طرفا من ذلك مثل قوله: "ورد سؤال أثناء درس التفسير في مسجد النور مفاده: نرجو توضيح لنا عدة المتوفى عنها زوجها وهي حامل؛ لأننا لم نفهم في الدرس السابق؟".

تنبيه هام: لك الحق أيها السائل في التوضيح، وهذا ما نرجوه منكم وهو طلب التوضيح إن كان هناك غموض في فهم المسألة المطروحة... الجواب: - ثم أجاب الشيخ -¹.

3- وقد يذكر بعض الوقائع التي حدثت له في واقعه فمن ذلك: حصول الأذى له في سبيل الدعوة، فقد قال في ختام أحد المجالس: "دعوة خاصة: رب اختتم عواقب أيامي بالحسنى ويسر لي أمري، فإني عبدك الضعيف تعرف حالي فأنت غني عن سؤالي، فقد أهانني كثير من الناس في سبيل الدعوة إلى ما أمرت أن يدعى إليه، فأسألك أن تهديهم إلى سبيل الرشاد، أسألك يا ربي اللطف يوم لقاءك"².

الفرع الخامس: تقييم لكتاب "الدر الثمين":

من خلال كل ما سبق يدل على أهمية تفسير "الدر الثمين" وعلوّ كعبه بين كتب التفسير المعاصرة، وكيف لا يكون كذلك وهو أضخم تفسير مطبوع في خزانة التفسير الجزائرية وله من الإيجابيات الشيء الكثير، مثل جمعه بين عدّة اتجاهات في تفسيره حتى صار تفسيره موسوعة علمية تحوي عددا من العلوم، وكذلك تحقيقه للأحاديث وتمييزه لصحيحها من غيره... الخ. من الإيجابيات.

ومع ذلك فإنه يمكن تسجيل بعض الملاحظات على تفسير "الدر الثمين"، وهي ملاحظات لا تنقص من قيمة الكتاب بل تزيده قيمة لأن الكتاب الذي تعدّ معايئه على الأصابع كتاب مفيد، ومما سجلته منها ما يلي:

1- عدم عزو النصوص التي ينقلها عن المفسرين مع أنها منقولة بحروفها، وربما عذر الشيخ في ذلك ذكر مصادره في مقدمة التفسير، فكأنه استغنى بذلك عن العزو في كل مرة خاصة المصادر التي أكثر النقل منها وكانت عمدة في تفسيره، ومثال نقله وعدم عزوه: ما نقله عن ابن تيمية في مقدمة التفسير³، وهي

¹ الدر الثمين، التواقي بن التواقي، (4/180)، ويظر أيضا: الدر الثمين، (35/1).

² المصدر نفسه، (12/494).

³ مقدمة في أصول التفسير، ابن تيمية، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، سنة: 1490هـ / 1980م (ص: 39).

قوله: "إن أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن، فما أُجمل في مكان فإنه قد فُسِّر في موضع آخر، وما اختُصر في مكان فقد بُسِّطَ في موضع آخر..."¹.

2- الأخطاء المطبعية الكثيرة، والتي لا تخلو منها صفحة أو صفحتان -في الغالب-، وقد جاءت تلك الأخطاء متنوعة، كإسقاط كلمة أو حرف، أو إدراج كلمة... الخ، ومن أمثلتها:

- قوله: "وقد بينت لك ذلك في درس الفقه"، وصوابها "لكم" لأنه في سياق خطاب الجماعة.

- قوله: "إن القضاء في ذلك اليوم بالعدل فالأعمال الناس"، وصوابها "فأعمال الناس".

- قوله: "وقد أشارت إليها الآية"، وصوابها "وقد أشارت".

- قوله: "وكان الله تعالى على عالم باستقامة خليله"، وصوابها "على علم".

- قوله: "وبما أننا أزمنا أنفسنا ... لما قلته"، والصواب "وبما أننا أزلنا أنفسنا ... لما قالته"².

3- توسعه في بعض المسائل اللغوية والفقهية توسعا مبالغا فيه، تأثرا بالقرطبي وابن العربي وابن عاشور وأبي حيان، وقصده الجمع بين الدرس الفقهي والتفسيري. ومن ذلك توسّعه في الأحكام الفقهية للزنا (من الصفحة 351 إلى الصفحة 385).

4- النقول الطويلة جدا: حيث بلغت أحيانا صفحتين متتاليتين.

¹ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (31/1). ينظر مثلا: الدر الثمين (429/20) حيث نقل كلاما للسيوطي من كتابه "أسرار ترتيب القرآن" ولم يعزه إليه.

² ينظر: الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (217/4) و(218/9) و(247/9) و(141/13).

خلاصة الفصل الأول:

بعد الرحلة العلمية مع مسائل هذا الفصل، تبين لنا أن ظهور الاتجاه الاجتماعي في التفسير في العالم الإسلامي، إنما كان تبعاً لضعف الأمة الإسلامية وتخلّفها في شتى المجالات، والتي نتجت عن رواسب الحقبة الاستعمارية التي مرّ بها في كثير من أقطاره، فنهض لنصرة الإسلام وإحيائه رجال قادوا الحركة الإصلاحية بداية من المشرق العربي على يد الأفغاني ومحمد عبده رائد المدرسة العقلية الاجتماعية، ثم امتدّت هذه الحركة الإصلاحية للمغرب العربي عموماً والجزائر خصوصاً على يد جمعية العلماء المسلمين، ليحمل مشعل هؤلاء رجال في العصر الحديث منهم الشيخ التواتي بن التواتي الأغواطي الذي نشأ زمن الاستعمار الفرنسي الذي حرص على طمس هوية الشعب الجزائري، وقد تجلّى جهده الإصلاحي في تفسيره "الدر الثمين" الذي تمّ التعريف به، وبصاحبه، وبيان منهجه فيه في هذا الفصل. إضافة إلى ما سبق ذلك من بيان أسباب ظهور الاتجاه الاجتماعي في التفسير في العالم الإسلامي عموماً والجزائر خصوصاً، لنصل إلى ختام هذا الفصل وننتقل إلى عنصر آخر مهم في البحث وهو: رواد الاتجاه الاجتماعي من الجزائريين، ومعالمة الظاهرة في تفاسيرهم.

الفصل الثاني:

معالم الاتجاه الاجتماعي عند المفسرين الجزائريين

ويحتوي هذا الفصل على أربعة مباحث هي:

المبحث الأول:

معالم الاتجاه الاجتماعي عند الإمام: عبد الحميد ابن باديس

من خلال تفسيره "في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير".

المبحث الثاني:

معالم الاتجاه الاجتماعي عند الشيخ: بيوض

في تفسيره "في رحاب القرآن".

المبحث الثالث:

معالم الاتجاه الاجتماعي عند الشيخ: أبي بكر الجزائري

في تفسيره "أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير".

المبحث الرابع:

معالم الاتجاه الاجتماعي عند الأستاذ: محمد كعباش

في تفسيره "نفحات الرحمن في رياض القرآن".

تمهيد:

عرفت حركة التفسير في الجزائر نشاطا مبكرا في التأليف، وذلك من بداية القرن الثالث على يد: هود بن محكم الهواري، ثم توالى جهود الجزائريين في الاشتغال بالقرآن الكريم تأليفا أو تلخيصا، ومع مرور الزمن ظهرت مدرستان بارزتان في التفسير عند الجزائريين وهما: مدرسة المالكية والإباضية، وبرزت عدّة شخصيات ومؤلفات من المدرستين قديما وحديثا، والناظر في المنتوج التفسيري لهؤلاء وخاصة المعاصرين منهم يجد الاتجاه الاجتماعي في الصدارة تماشيا مع ما اقتضته الحاجة للتأليف، بسبب الظروف التي مرّ بها المجتمع الجزائري عبر العصور خاصة إبان الاستعمار الفرنسي الذي أفسد المجتمع الجزائري بكل الطرق، فكان علماؤنا يستغلون تفسيرهم للقرآن الكريم تأليفا أو تدريسا ويحاولون إصلاح ما أفسده الاستعمار فكريا وأخلاقيا.

وبناء على ما سبق هنا وما تقدم في الفصل الأول؛ سأسلط الضوء في هذا الفصل على أربعة أعلام جزائريين معاصرين كعينة تفسيرية مثّلت الاتجاه الاجتماعي في التفسير، وأبين معالم تطبيقهم له، وقد وقع اختياري على أربعة مفسرين: مالكيين وإباضيين، وهم: ابن باديس وأبو بكر الجزائري، والشيخ بيوض، ومحمد كعباش، وسبب الاختيار هو التنوع بين المدرستين المالكية والإباضية، وسيكون ذلك من خلال الترجمة لكل واحد منهم وبيان منهجه في تفسيره، ثم ذكر بعض المعالم التي تصوّر لنا الاتجاه الاجتماعي عنده، ولذلك قسمت هذا الفصل إلى أربعة مباحث مراعى فيها الترتيب الزمني لوفاة المفسرين، بدءا بابن باديس وانتهاء بكعباش الذي مازال حيا.

وتفصيل هذه المباحث كما يلي:

المبحث الأول: معالم الاتجاه الاجتماعي عند الإمام عبد الحميد ابن باديس من خلال تفسيره "في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير".

وسأحدث في هذا المبحث عن ملامح ومعالم من الاتجاه الاجتماعي في التفسير من خلال مدونة تفسيرية مهمة وهي "في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير"، لإمام المفسرين الجزائريين في العصر الحديث الشيخ: عبد الحميد ابن باديس -رحمه الله تعالى-، الذي يعتبر رائد المدرسة الاجتماعية الإصلاحية الجزائرية في العصر الحديث، حيث جعل من القرآن الكريم المصدر الأول الذي يستمد منه طرق الإصلاح وعلاج المجتمع، فجاء تفسيره مشحوناً بالاتجاه الاجتماعي التفسيري، فجمعت بُدْءاً من تلك المعالم لإبراز هذا الاتجاه، و سيكون الحديث عن ذلك من خلال مطلبين هما:

المطلب الأول: ترجمة عبد الحميد ابن باديس وتعريف بتفسيره "في مجالس التذكير".

المطلب الثاني: نماذج من معالم الاتجاه الاجتماعي في تفسير "في مجالس التذكير".

وتفصيلهما كالآتي:

المطلب الأول: ترجمة عبد الحميد ابن باديس، وتعريف بتفسيره "في مجالس التذكير".

يعتبر الإمام عبد الحميد بن باديس أشهر معلم ومرّي للشعب الجزائري إبان فترة الاستعمار الفرنسي في الجزائر، ويعتبر تفسيره "مجالس التذكير" من التفاسير المعاصرة القيّمة التي كانت كالمصباح الذي يضيء للناس طريقهم في ذلك الوقت، وهذا نظراً لمؤلفه الذي كان عالماً محققاً ومفسراً بارعاً، بالإضافة إلى الظروف التي ألقى فيها هذا التفسير حيث كان يلقيه زمن الاحتلال، فحاول أن يجعل من القرآن كتاباً حيّاً يخاطب ضمائر الناس وقلوبهم ليخرجهم من الظلمات إلى النور.

ومما تقدم يتبين لنا أهمية معرفة شخصية ابن باديس، ومعرفة منهجه في تفسيره، وهذا ما سنتطرق إليه في هذا المطلب من خلال ما يلي:

الفرع الأول: ترجمة للإمام عبد الحميد ابن باديس.

وستكون ترجمة مختصرة فيها بعض الجوانب من الحياة الشخصية والعلمية¹، وذلك في النقاط الآتية:

¹ ينظر: مقال د: هشام شوقي، بعنوان "تنزيل الآيات على الواقع عند الإمام ابن باديس من خلال تفسيره "مجالس التذكير"،

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية المجلد: 30، العدد 4، الصفحة 45-72، بتاريخ: 31-12-2016، الرابط:

<https://asjp.cerist.dz/en/article/9470>

أولاً: مولده ونسبه: ولد الشيخ عبد الحميد بن باديس بمدينة قسنطينة سنة: 1307 هـ، الموافق لليلة الجمعة 4 ديسمبر عام: 1889م، والداه: هو السيد محمد المصطفى بن مكي بن باديس، وأمّه: هي السيدة: زهيرة بنت علي ابن جلول.

وأُسرة ابن باديس مشهورة في شمال إفريقيا، نبغ فيها عظماء الرجال، وكانت تجمع بين العلم والجاه، حيث تنحدر هذه الأسرة من العائلة الصنهاجية التي كان منها الأمير "زيري بن مناد ابن منقوش" أمير صنهاجة التليّة، ثم ابنه "يوسف بن زيري" الملقب بـ (بولغين)، الذي استخلفه المعزّ لدين الله الفاطمي على كامل المغرب بعد ارتحاله إلى مصر، ومن رجال هذه الأسرة المشهورين: المعزّ لدين الله بن باديس، الذي قاوم البدعة ودحرها ونصر السنة وأظهرها، فأزال مذهب الشيعة الباطنية وأعلن مذهب أهل السنة والجماعة مذهباً للدولة، وانفصل عن الدولة الفاطمية بمصر¹.

ثانياً: نشأته: نشأ الإمام بن باديس في أحضان تلك الأسرة العريقة في العلم والجاه، وكان والده حريصاً على تربيته تربية إسلامية، فلم يُدخله المدارس الفرنسية كبقية أبناء العائلات المشهورة؛ بل أرسل به إلى الشيخ المقرئ محمد بن المدّاسي، فحفظ عليه القرآن وتجوّده وعمره لم يتجاوز الثالثة عشر سنة، ثم وجّهه إلى الشيخ حمدان الونيسي فتلقى منه العلوم ومكارم الأخلاق، يقول ابن باديس في بيان فضل أسرته ومشايخه عليه: "إن الفضل يرجع أولاً إلى والدَيّ الذي ربّاني تربية صالحة ووجّهني وجهة صالحة، ورضي لي العلم طريقة أتبعها ومشرباً أرّده وقاتني وأعاشني وبراني كالسهم وراشني ... ثم لمشايخي الذي علّموني العلم وخطّوا لي مناهج العمل في الحياة ولم يبخسوا استعدادي حقه"².

ثالثاً: رحلاته في طلب العلم: بعد أن استوعب الشيخ ابن باديس غالب العلوم التي وجدها تلقى في بلده، عزم على مواصلة الطلب والتحصيل، وبتشجيع من والده ارتحل إلى تونس متتبّعاً ينابيع العلم والمعرفة؛ فقصّد جامع الزيتونة وتلقى العلم على المبرّزين من علمائها، أمثال الشيخ: محمد النخلي، والشيخ: محمد الطاهر بن عاشور وغيرهما طيلة أربع سنوات إلى أن أجازوه للتدريس، فمكث بعد تخرّجه سنة أخرى للتدريس فيها، ثم عاد سنة: 1912م إلى الجزائر لنشر علمه وتنوير شعبه؛ فجلس يدرّس في الجامع الكبير بقسنطينة ثم تحوّل بعد ذلك إلى الجامع الأخضر. وفي موسم الحج لعام: 1913م قصد

¹ آثار ابن باديس، عبد الحميد بن باديس، ت: عمار طالي، مكتبة الشركة الجزائرية، ط: 1، سنة: 1968م، (72/1-73)، والإمام المجدد ابن باديس والتصوف، أحمد محمود الجزار، دار المعارف، الإسكندرية، ط: 1، سنة: 1999م، (ص: 16).

² آثار ابن باديس، عبد الحميد محمد بن باديس، (138/2)، وابن باديس فارس الإصلاح والتنوير، محمد بهي الدين سالم، دار الشروق، القاهرة، ط: 1، سنة: 1420هـ-1999م، (ص: 35).

مكة لأداء فريضة الحج، فالتقى هناك بعدة علماء كشيخه حمدان الونيسي والبشير الإبراهيمي وغيرهم، كما ألقى عدّة دروس في المسجد النبوي، وأثناء عودته إلى الجزائر طاف بعدّة بلدان عربية، فزار سوريا ومصر التي التقى فيها بالشيخ محمد بخيت المطيعي، والشيخ أبي الفضل الجيزاوي وغيرهم¹.

رابعا: عقيدته: عقيدة ابن باديس عقيدة أهل السنة والجماعة، حيث كان كثيرا ما يدعوا إلى مذهب السلف في دروسه وكثيرا ما يردّ على المخالفين، ولا أدلّ على ذلك من كتاب "العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية" وهو عبارة عن إملاءات أخذها عنه تلاميذه في الجامع الأخضر بقسنطينة، حيث قرر فيها مذهب السلف في الاعتقاد، وكان مما قال فيه مقرّرا لعقيدة أهل السنة قوله: "ثبت له - لله تعالى - ما أثبتته لنفسه على لسان رسوله من ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله وننتهي عند ذلك ولا نزيد عليه وننزهه في ذلك عن مماثلة أو مشابهة شيء من مخلوقاته"².

خامسا: شيوخه: شيوخ الإمام ابن باديس كثر نذكر منهم:

1- الشيخ محمد بن المدّاسي: ولم أعر على معلومات بخصوص سنة ولادته ووفاته، وهو أشهر مقرّري مدينة قسنطينة في زمانه، وتلقّى عليه القرآن.

2- الشيخ حمدان الونيسي: وُلد في مدينة قسنطينة في: 1856م، وتوفّاه الله في المدينة المنورة في سنة 1920م، ويعتبر أول مشايخه حيث علّمه اللغة العربية وغيرها من العلوم، يقول عنه ابن باديس: "وإني لأذكر... وصية أوصاني بها، وعهداً عهد به إليّ... فقد أوصاني وشدّد عليّ أن لا أقرب الوظيفة ولا أرضاها ما حييت، ولا أتخذ علمي مطيّة لها، كما كان يفعل أمثالي في ذلك الوقت"³.

3- الشيخ محمد الطاهر بن عاشور: (1879م-1973م)، لازمه قرابة الثلاث سنوات، يقول ابن باديس في ذكر فضله عليه: "وإن أنسى فلا أنسى دروساً قرأتها من ديوان الحماسة على الأستاذ ابن

¹ الإمام عبد الحميد ابن باديس ومنهجه في الدعوة من خلال آثاره في التفسير والحديث، عامر علي العراي، رسالة ماجستير بإشراف: سليمان صادق البيرة، جامعة أم القرى -السعودية-، سنة: 1408هـ-1409هـ، (ص:31-35)، وعبد الحميد بن باديس وجهوده التربوية، مصطفى محمد حميداتو، وقد صدر هذا الكتاب في العدد: 57، ضمن سلسلة "كتاب الأمة" التي يصدرها مركز البحوث والدراسات، برعاية وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، سنة: 1418هـ، (ص:47-49).

² العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية رواية محمد الصالح رمضان، عبد الحميد بن باديس، ت: محمد الصالح رمضان، دار الفتح، الشارقة، ط:1، سنة: 1995م، (ص:59).

³ آثار ابن باديس، عبد الحميد بن باديس، (78/1).

عاشور، وكانت من أول ما قرأت عليه فقد حبّبتني في الأدب والتفقه في كلام العرب وبثت فيّ روحاً جديداً في فهم المنظوم والمنثور وأخيت مني الشعور بعزّ العروبة والاعتزاز بها كما أعتزّ بالإسلام"¹.

4- الشيخ محمد النخلي القيرواني: ولد الشيخ النخلي بمدينة القيروان في جوان 1869م، وتوفي في فيفري 1924م، وهو أستاذ التفسير في جامع الزيتونة، تأثر ابن باديس به في كلمة نصحه بها تتعلق بالتفسير، فقال عنه ابن باديس: "وذلك أنني كنت متبرماً بأساليب المفسرين وإدخالهم لتأويلاتهم الجدلية واصطلاحاتهم المذهبية في كلام الله... فذاكرت يوماً الشيخ النخلي فيما أجده في نفسي من التبرّم والقلق فقال لي: اجعل ذهنك مصفاة لهذه الأساليب المعقدة وهذه الأقوال المختلفة وهذه الآراء المضطربة يسقط الساقط ويبقى الصحيح وتستريح، فو الله لقد فتح بهذه الكلمة القليلة عن ذهني آفاقاً واسعة لا عهد له بها"².

5- الشيخ البشير صفر: ولد بتونس يوم 27 فيفري 1856م، وتوفي في أفريل 1917م، وكان من أبرز علماء تونس، يقول عنه ابن باديس: "وأنا شخصياً أصرّح بأن كراريس البشير صفر الصغيرة الحجم الغزيرة العلم، هي التي كان لها الفضل في اطلاعي على تاريخ أمّتي وقومي، والتي زرعت في صدري هذه الروح التي انتهت بي اليوم لأن أكون جندياً من جنود الجزائر"³.

سادساً: ثناء العلماء عليه: نال ابن باديس إعجاب علماء الأمة العربية فأثنوا عليه ثناء عطرا، ومنهم:

1- الشيخ محمد البشير الإبراهيمي⁴: رفيق دربه في الإصلاح وأقرب الناس إليه وأعرفهم بمناقبه، يقول عنه: "إنه باني النهضة العلمية والفكرية بالجزائر، وواضع أسسها على صخرة الحق، وقائد زحفها المغيرة إلى الغايات العليا، وإمام الحركة السلفية، ومنشئ مجلة (الشهاب) مرآة الإصلاح وسيف المصلحين، ومربيّ جيلين كاملين على الهداية القرآنية والهدي الحمّدي وعلى التفكير الصحيح، ومحبيّ دروس العلم بدروسه الحيّة، ومفسّر كلام الله على الطريقة السلفية في مجالس انتظمت ربع قرن، وغارس بذور الوطنية الصحيحة، وملقّن مبادئها على البيان، وفارس المنابر"⁵.

¹ آثار ابن باديس، عبد الحميد محمد بن باديس، (75/3).

² المصدر نفسه، (140/2).

³ المصدر نفسه، (327/4).

⁴ ولد سنة: 1889م بمدينة سطيف، وانتخب رئيساً لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين بعد وفاة ابن باديس، له عدة مؤلفات منها: ملحمة في تاريخ الإسلام والمجتمع الجزائري والاستعمار، قال: أمّا 36 ألف بيت، وكان ينشر مقالاته في جريدة البصائر توفي سنة:

1965م. الأعلام، خير الدين الزركلي، (54/6).

⁵ آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، (552/3).

2- الشيخ محمد الطاهر بن عاشور: عميد مجلس الشورى المالكي بتونس، وصاحب تفسير (التحرير والتنوير)، وأستاذ ابن باديس، ورغم ما حدث بينهما من تباين في بعض المسائل العلمية والفتاوى الفقهية، إلا أن ذلك لم يمنعه من أن ينزله منزلته، ويعترف له بمكانته، فيقول: "العالم الفاضل، نبعة العلم والمجادة، ومرتع التحرير والإجادة، ابننا الذي أفتخرُ ببنوته إلينا ... الشيخ سيدي عبد الحميد ابن باديس... أكثر الله من أمثاله في المسلمين" ¹.

3- المؤرخ خير الدين الزركلي: الذي عاصر ابن باديس، ويعتبر شاهداً على جهاده، ينقل لنا شهادته قائلاً عنه: "كان شديد الحملات على الاستعمار، وحاولت الحكومة الفرنسية في الجزائر إغراءه بتوليته رئاسة الأمور الدينية فامتنع، واضطهد وأوذى، وقاطعه إخوة له كانوا من الموظفين، وقاومه أبوه، وهو مستمر في جهاده" ².

4- الشاعر الجزائري محمد العيد آل خليفة: في حفل تكريم الإمام بن باديس بختمه لتفسير القرآن الكريم، ألقى قصيدة طويلة، أثنى فيها على ابن باديس، وعدّد فيها جهوده العلمية وجهاده، نذكر منها هذه الأبيات:

بمثلِكَ تعزُّ البلادُ وتفخرُ	*	وتزهَرُ بالعلمِ المنيرِ وتزخرُ
طبعتَ على العلمِ النفوسَ نواشئاً	*	بمخبرِ صدقٍ لا يُدانيهِ مخبرُ
نهجتَ لها في العلمِ نهجَ بلاغةٍ	*	ونهجَ مفاداةٍ كأنكَ حَيْدُرُ
ودرّسكَ في التفسيرِ أشهى من الجنى	*	وأبهى من الروضِ النظيرِ وأبهر
ختمتَ كتابَ الله ختمَةَ دارس	*	بصيرٍ له حلُّ العويصِ مُيسّر
فكُم لك في القرآنِ فهمٌ موفّق	*	وكُم لك في القرآنِ قولٌ محرر ³

سابعاً: آثاره العلمية: آثار ابن باديس كثيرة؛ منها ما ألفه استقلالاً ومنها ما جُمع له بعد أن كان مفرّقاً، ونذكر من ذلك ما يلي:

1- تفسير ابن باديس: الذي نشره الأستاذان: محمد الصالح وتوفيق محمد، نقلاً عن (مجالس التذكير) الذي طبع ونشر سنة: 1948م .

2- مجالس التذكير من حديث البشير النذير: طبعته وزارة الشؤون الدينية بالجزائر، سنة: 1983م .

¹ عبد الحميد بن باديس وجهوده التربوية، مصطفى محمد حميداتو، (ص: 62).

² الأعلام، خير الدين الزركلي، (3/289).

³ عبد الحميد بن باديس وجهوده التربوية، مصطفى محمد حميداتو، (ص: 62-63).

3- العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية: وهي عبارة عن دروس كان يملئها على تلاميذه، في أصول العقائد الإسلامية وأدلتها من القرآن والسنة النبوية، جمعها وعلق عليها تلميذه الأستاذ محمد الصالح رمضان .

4- رجال السلف ونسأؤه: وهي مجموعة من المقالات ترجم فيها ابن باديس لبعض الصحابة رضوان الله عليهم، وبين بعض صفاتهم وأعمالهم، ونشر تلك التراجم في مجلة (الشهاب) .

5- حقق كتاب: "العواصم من القواصم"، للإمام ابن العربي، وقدم له وطبعه سنة: 1928م، في جزأين بمطابع الشهاب .

و قامت وزارة الشؤون الدينية في الجزائر بجمع كثير مما حوته صحافة ومجلات الجمعية من نشاطات الإمام ابن باديس في المجالات المختلفة وطبعته تحت عنوان: (آثار الإمام عبد الحميد بن باديس)¹.

ثامنا: وفاته: انتقل الشيخ ابن باديس إلى الرفيق الأعلى في مساء الثلاثاء 8 ربيع الأول 1359هـ-16 أبريل 1940م، فتحرّكت قسنطينة بأكملها لتشيع جنازته، ودفن في روضة أسرته بحي الشهداء قرب مقبرة قسنطينة. واختلف في سبب وفاته فقيل: إنه مات مسموما، وقيل: مات إثر سرطان الأمعاء الذي أصيب به - فرحمه الله رحمة واسعة وجعل ما قدّم للأمة في ميزان حسناته².

الفرع الثاني: تعريف بتفسير "في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير" وبيان منهج مؤلفه فيه:

والحديث عنه يكون في عدة نقاط هي:

أولا: اسمه: الاسم الكامل لهذا التفسير الجليل هو: "في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير" .

ثانيا: تعريف بهذا التفسير: هذا التفسير هو عبارة عن دروس كان يلقيها الشيخ ابن باديس في مسجد الجامع الأخضر بقسنطينة، ولم يكتبه الشيخ بخط يده، بل كان يلقيه ارتجالا لأنه رأى ذلك أكثر تأثيرا في النفوس، لذلك ضاع أكثره لأن تلاميذه لم يدونوه ولم يبق منه إلا تفسير لبعض الآيات من سور متفرقات، وقد طبع هذا التفسير باسم "تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير"

¹ آثار ابن باديس، عبد الحميد بن باديس، (98/1)، والخطاب الدعوي عن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين (دراسة مقارنة بين

عبد الحميد بن باديس ومحمد البشير الإبراهيمي)، شهرة شفري، وهي رسالة ماجستير صدرت عن جامعة الحاج لخضر بباتنة، كلية: العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية، سنة: 1430هـ-2009م، (ص: 110-111).

² آثار ابن باديس، ابن باديس، (95/1)، والإمام عبد الحميد ابن باديس ومنهجه في الدعوة، عامر لعراي، (ص: 40).

جمع وترتيب وإعداد وتعليق: محمد الصالح رمضان¹ وتوفيق محمد شاهين، والكتاب عبارة عن مجالس قرآنية كان ابن باديس يفتح بها مجلة الشهاب التي كان يتولى إصدارها، وقد جمعها المذكوران في هذا الكتاب بعد أن قام بجمع بعضها أحمد بوشمال. كما يحتوي الكتاب على تفسير المعوذتين الذي كتبه الشيخ بنفسه كتصدير لمجلة الشهاب، وفي ذلك يقول الشيخ البشير الإبراهيمي: "لم يكتب الأخ الصديق أماليه في التفسير ولم يكتب تلامذته الكثيرون شيئاً منها، وضاع على الأمة كنز علم لا يُقَوَّمُ بمال، ولا يعوّض بحال، ومات فمات علم التفسير وماتت طريقة ابن باديس في التفسير، ولكن الله تعالى أبي إلا أن يذيع فضله وعلمه، فألهمه كتابة مجالس معدودة من تلك الدروس وكان ينشرها فواتح لأعداد مجلة الشهاب ويسمّيها مجالس التذكير"².

ثالثاً: العوامل التي شجعت ابن باديس على تفسير القرآن: لقد اصطفى الله تعالى ابن باديس ليكون مفسّر الجزائر الأوّل في زمانه فقيّض لذلك أسباباً أهمّها:

1- تكوينه الإسلامي منذ الصغر: حيث حفظ القرآن الكريم في سن مبكرة، فأحب القرآن وترعرع بين سورة وآياته وتشبعت روحه به، وساعده في ذلك شيخاه: محمد المداسي وحمدان الونيسي اللذان لم يكتفيا بتحفيظه للقرآن فقط، بل علّماه آدابه وهدّيه فنقشت هذه الظروف كلّها نقشها في نفسيّة ابن باديس فتعلق بالقرآن الكريم منذ صغره³.

2- رحلته إلى تونس: فبعد أن أتم دراسته في جامع الزيتونة تفرغ لطلب العلم عند الشيخين: محمد النخلي والطاهر بن عاشور، فوجد عندهما جواباً لما كان يحول في خاطره دائماً من أسئلة وإشكالات حول اختلاف المفسرين من المسائل العلمية التي لم يجد من يجلس إليه ليناقشه فيها، فلمّا لقي الشيخ النخلي فتح له باب التفسير بكلمة نصحه بها فحكّاها لنا بقوله: "إذا لم يكن لي في حياتي العلمية من

¹ هو محمد الصالح رمضان؛ وُلد سنة (1332هـ-1914م) في (القنطرة) بولاية باتنة، خريج جامع الزيتونة، وأحرز الشهادة الابتدائية باللغة الفرنسية في المدرسة الرسمية، وفي عام: (1353هـ-1934م) التحق بمدينة (قسنطينة) ولازم مجالس الشيخ العلامة ابن باديس، أشرف على مدرسة "دار الحديث" بتلمسان، وقد توزعت مؤلفاته بين الإبداع الأدبي، والتحقيق، والتراجم، والدراسات الإسلامية والتاريخية، وقد توفي سنة: 2008م. مقال "ذكرى وذاكرة العلامة محمد الصالح رمضان"، د. محمد سيف الإسلام بوفلاقة، نشر بموقع: عبد الحميد بن باديس رائد النهضة العلمية والفكرية بالجزائر، نشر بتاريخ: 22/07/2022، الرابط: <https://binbadis.net/archives/13693>.

² آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، محمد البشير الإبراهيمي (253/2).

³ الإمام عبد الحميد ابن باديس ومنهجه في الدعوة، عامر علي لعراي، (ص: 84).

لافت للقرآن إلا تلك الكلمة التي سمعتها من الشيخ النخلي، وقد فعلت فعلها في نفسي وأوصلتني في فهمي إلى الدرجة التي تحمدونها اليوم -والحمد لله-¹.

كما كان لتواجده في تونس أثرا في تأثره بدعوة الشيخ: محمد عبده بالرجوع إلى الكتاب والسنة، وذلك عن طريق مجلة "المنار" التي وجدت صدًا كبيرا في أوساط جامع الزيتونة².

رابعا: أهداف ابن باديس من تفسيره: سعى ابن باديس من وراء تفسيره إلى تحقيق أهداف معينة أمثلتها عليه ظروف المجتمع الذي يخاطبه والأزمة التي يمرّ بها بلده، وقد تمثلت الأهداف فيما يلي³:

1- العمل على إشعار المجتمع بأن القرآن هو المخرج الذي يوصل الأمة إلى برّ الأمان، وأن الرجوع إليه وترك هجره هو الدواء لعلاج الأمراض الواقعة في الأمة، يقول ابن باديس: "فإذا أردت أن ترقى في درجات الكمال، وتظفر بأنواع الإنعام وتزكي نفسك الزكاء التّام، فعليك بمهدي هذا الفرقان، فهو بساط القدس، ومعراج الكمال، ومائدة الإكرام"⁴.

2- معرفة الطريق الصحيح لفهم القرآن، والذي لا يكون إلا بفهمه كما فهمه السلف وتطبيقهم له، يقول: "فهو أئمة السلف الصالح أصدق الفهم لحقائق الإسلام ونصوص الكتاب والسنة"⁵.

3- تفسير القرآن تفسيراً جديداً على طريقة السلف، وذلك بمعالجة واقع الناس وتربية الشعب الجزائري على العمل به، وهذا لتظهر نماذج من الرجال كما ظهرت في الصدر الأول وفي ذلك يقول: "وإن القرآن الذي كوّن رجال السلف لا يكثر عليه أن يكون رجالاً في الخلف لو أحسن فهمه وتدبره وحملت الأنفس على منهاجه"⁶.

خامسا: المنهج العام للتفسير: يعتبر تفسير ابن باديس تفسيراً أدبياً اجتماعياً يتناسب مع ظروف إلقاءه. والكتاب له مقدمة في التذكير وحاجة الخلق إليه وفي أفضل الأذكار وأنواع الذكر وتلاوة القرآن، ثم خطبة افتتاحية ذكر فيها المؤلف طريقته في التفسير فقال: "هي تفسير الألفاظ بأرجح معانيها اللغوية، وحمل التراكيب على أبلغ أساليبها البيانية، وربط الآيات بوجوه المناسبات، معتمدين في ذلك على

¹ آثار ابن باديس، عبد الحميد ابن باديس، (142/2).

² الإمام عبد الحميد ابن باديس ومنهجه في الدعوة، عامر علي لعراي، (ص: 85).

³ ينظر: المصدر نفسه، (ص: 99-105).

⁴ في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، عبد الحميد محمد بن باديس، ت: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط: 1، سنة: 1416هـ-1995م، (ص: 154).

⁵ آثار ابن باديس، عبد الحميد ابن باديس، (132/3).

⁶ المصدر نفسه، (142/2).

صحيح المنقول وسديد المعقول ممّا جلّاه أئمة السلف المتقدمون أو غاص عليه علماء الخلف المتأخرون -رحمة الله عليهم أجمعين-، وعمدنا فيما نرجح إليه من كتب الأئمة:

1 - تفسير ابن جرير الطبري الذي يمتاز بالتعليق السلفية وبأسلوب الترسل البليغ في بيان معنى الآيات القرآنية وبترجماته لأول الأقوال عنده بالصواب.

2 - وتفسير الكشاف الذي يمتاز بذوقه البياني في الأسلوب القرآني وتطبيقه فنون البلاغة على آيات الكتاب، والتنظير لها بكلام العرب واستعمالها في أفانين الكلام.

3 - وتفسير أبي حيان الأندلسي الذي يمتاز بتحقيقاته النحوية واللغوية وتوجيه القراءات.

4 - وتفسير الرازي الذي يمتاز ببحوثه في العلوم الكونية ممّا يتعلق بالجماد والنبات والحيوان والإنسان، وفي العلوم الكلامية ومقالات الفرق والمناظرة والحجاج في ذلك"¹.

ومجالس ابن باديس تشمل أقساماً ستة: سورة الإسراء وسورة الفرقان وسورة النمل وسورة يس والمعوذتين، ثم آيات متفرقة من سور (يوسف والنحل والمائدة والنور ومريم وطه والأنبياء والحج والمؤمنون والذاريات) والقسم السابع يعتبر تفسيراً موضوعياً عن العرب في القرآن، وهو يذكر آية أو عدة آيات ثم يتكلم عن مناسبتها ثم يتكلم عن معاني المفردات ثم يشرحها مستخرجاً منها الآداب والإعجاز والنكات اللغوية وغير ذلك ... وقد تكلم البشير الإبراهيمي عن خصائص تفسير ابن باديس في كلمة سماها "خصائص التفسير الباديسي".

ويلاحظ أن المؤلف لا يتعرض لأسماء السور ولا عد الآية ولا للمكي والمدني ونحو ذلك لأنه ليس تفسيراً شاملاً كما ذكرنا. أما المناسبات فهو يهتم بها².

سادساً: مدة إلقائه وحفل اختتامه: كان الجامع الأخضر بمدينة قسنطينة بمثابة جامعة معاصرة، مدرّسها الإمام عبد الحميد بن باديس، حيث كان يلقي أكثر من عشرة دروس في اليوم؛ من بعد صلاة الصبح إلى ما بعد صلاة العشاء كلّ يوم ماعدا الخميس والجمعة، واختار ابن باديس أن يكون درس التفسير بعد صلاة العشاء، ليحضره أكبر عدد ممكن من المستمعين لأن غالبهم يكون متفرّغاً في هذا الوقت، فكان يحضر درسه هذا جمٌّ غفير يعجّ بهم المسجد وكان يستغرق حوالي ساعة في الدرس الواحد، واستمر على ذلك مدة خمس وعشرين سنة إلى أن اختتم فيها القرآن كلّّه، هذا الحدث الذي هزّ الجزائر كلّها فتوافد على مدينة قسنطينة العلماء وطلاب العلم وعوام الناس من كلّ أنحاء الوطن وأقيم لذلك

¹ في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، عبد الحميد ابن باديس، (ص: 41).

² التفسير والمفسرون في غرب أفريقيا، محمد بن رزق طرهوني، (723/2-726).

احتفال كبير دام مدة ثلاثة أيام¹. ولندع الشيخ البشير الإبراهيمي يصف لنا ذلك الحدث فيقول: "أتم الله نعمته على القطر الجزائري بختم الأستاذ عبد الحميد بن باديس لتفسير الكتاب الكريم درسًا على الطريقة السلفية، وكان إكماله إيّاه على هذه الطريقة في خمس وعشرين سنة متواليات مفخرة مدخرة لهذا القطر، وبشرى عامة لدعاة الإصلاح الديني في العالم الإسلامي كلّ، تمسح عن نفوسهم الأسى والحزن لما عاق إمام المصلحين محمد عبده عن إتمامه درسًا، ولما عاق حواريه الإمام رشيد رضا عن إتمامه كتابة، إن إكمال تفسير القرآن على تلك الطريقة في مدة تساوي- بعد حذف الفترات- المدة التي كمل الله نزوله فيها، يعد في نظر المتوسمين إيدانًا من الله برجوع دولة القرآن إلى الوجود، وتمكين سلطانه في الأرض، وطلوع شمس من جديد، وظهور المعجزة المحمدية كرتة أخرى في هذا الكون، ثم كان الاحتفال بختمه بمدينة قسنطينة في الثالث عشر من ربيع الثاني عام: 1357هـ دليلًا على انسياق الأمة الجزائرية المسلمة إلى القرآن واستجابتها لداعي القرآن، واجتماع قلوبها على القرآن وشعورها بلزوم الرجوع إلى هداية القرآن"².

المطلب الثاني: نماذج من معالم الاتجاه الاجتماعي في تفسير "في مجالس التذكير".

يعتبر الإمام ابن باديس من رواد الاتجاه الاجتماعي في العصر الحديث، لأنه فسر القرآن في زمن وجد فيه الاستعمار وحاول سلخ الأمة عن هويتها فتصدى لهم بعلمه، ولم يجد مرتعا مثل القرآن ليربط الأمة به خاصة ولذا كان يلقي تفسيره مشافهة على المستمعين، فراح يصف من خلال درسه التفسيري الداء والدواء، ولهذا جاء تفسيره غنيا جدا بالمواضيع والمواضع التي تعتبر معالمًا للاتجاه الاجتماعي في التفسير. وفيما يلي بيان لبعض تلك المعالم، أدرجت كلّ واحد منها تحت فرع وهي:

الفرع الأول: تنزيل الآيات على الواقع³:

تعددت المواضع التي نزل فيها ابن باديس آيات القرآن على الواقع الذي كان يعيشه، ومن ذلك: أولاً: قضية خطباء الجمعة في زمانه، وما آل إليه حالهم من تنطّع في إلقاء الخطب، وعدم معالجة مواضيعها لواقع المسلمين وآفات المجتمع: حيث ذمّ الإمام ابن باديس حال خطباء الجمعة في زمانه بسبب تنطّعهم في الخطب، لأنهم يلقونها بأساليب صعبة الفهم لا شتمالها على ألفاظ غامضة، بالإضافة

¹ الإمام عبد الحميد بن باديس ومنهجه في الدعوة، عامر علي لعراي، (ص: 89).

² آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، محمد البشير الإبراهيمي، (318/1).

³ ومن فصل الحديث عن هذه المسألة د: هشام شوقي، في مقال بعنوان "تنزيل الآيات على الواقع عند الإمام ابن باديس من خلال

تفسيره "مجالس التذكير"، الصفحة 45-72، الرابط: <https://asjp.cerist.dz/en/article/9470>.

إلى أن مواضيعها بعيدة عن واقع الناس لا تتحدّث عن أمراضهم ومشكلاتهم لتجد لها الحلول، زد على هذا كلّها أنّها خطب تشتمل على أحاديث منكّرة أو موضوعة؛ فحدّر ابن باديس الخطباء من هذه الحال المزرية وحثّهم على استغلال خطبة الجمعة في المقصد الشرعي الذي وضعت له وهو: وعظ الناس وحثّهم على العمل الصالح وإيجاد الحلول لمشكلاتهم بأسلوب يفهمه الجميع، وذلك لما فسر قوله تعالى ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ النحل: ١٢٥، فقال: "تحذير: أكثر الخطباء في الجمععات اليوم في قطرنا يخطبون الناس بخطب معقّدة، مُسجّعة طويلة، من مخلفات الماضي، لا يراعى فيها شيء من أحوال الحاضر وأمراض السامعين، تلقى بترّم وتلحين، أو غمغمة وتمطيط، ثم كثيراً ما تختم بالأحاديث المنكرات، أو الموضوعات. هذه حالة بدعية في شعيرة من أعظم الشعائر الإسلامية، سدّ بها أهلها باباً عظيماً من الخير فتحه الإسلام، وعطلّوا بها الوعظ والإرشاد وهو ركن عظيم من أركان الإسلام. فحذار أيها المؤمن من أن تكون مثلهم إذا وقفت خطيباً في الناس. وحذار من أن تترك طريقة القرآن والمواعظ النبوية إلى ما أحدثه المحدثون. ورحم الله أبا الحسن - كرم الله وجهه - فقد قال: "الفقيه كلّ الفقيه، من لم يقنّط الناس من رحمة الله، ولم يؤمّنهم من مكره، ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى ما سواه"¹.

ثانياً: قضية الإسراف والتبذير في الولائم والمآتم، التي شاعت في المجتمع الجزائري: وهي من القضايا التي استغل ابن باديس تفسيره للقرآن للنهي عنها وتحذير المجتمع منها، قضية الإسراف والتبذير أثناء الولائم والمآتم وغيرها من المناسبات التي تجمع الناس، وألحق بذلك ما شاع في بعض المجتمعات الجبلية من تقديسهم لشيخوخهم من أصحاب الطرق بإقامة الولائم لهم ولو بالاستدانة، واستغلال الشيوخ لهذه المكانة في أكل أموال الناس بالباطل وأخذ ما عندهم وما ليس عندهم، فحدّر من هذا كلّها ونهى الناس عنه، واستغلّ تفسيره لآية من القرآن تتعلّق بهذا الموضوع بالخصوص، وهي قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ الفرقان: ٦٧، فقال: "تطبيق: حالة وطننا في الأعم الأغلب في الولائم والمآتم لا تخلو من السرف فيها، الذي يؤدّي إلى التفتير من بعدها فيكون الإثم قد أصاب صاحبها بنوعيه، وأحاط به من ناحيته، والشرّ يجر إلى الشر، والإثم يهدي إلى مثله، وعلى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين علّق كثير ممّن سمعناهم يشكون هذه الحالة آملهم في معالجتها، خصوصاً في المآتم. حقّق الله الأمال.

¹ في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، عبد الحميد محمد بن باديس، (ص: 324).

وتم نوع آخر موجود في غالب القطر، وبكثرة في بعض الجبال. وهو أنّ بعض المأمورين من شيوخ الطوائف يأتون بثلة من أتباعهم، فينزلون على المنتمين إليهم من ضعفاء الناس فيذبح لهم العناق إن كانت، ويستدين لشرائها إن لم تكن، ويفرغ المزاد ويكنس لهم ما في البيت، ويصبح معدماً فقيراً مديناً، ويصبح من يومه صبيته يتضاغون¹، ويمسي أهل ذلك البيت المسكين يطحنهم البؤس، ويميتهم الشقاء ميتات متعدّدة في اليوم. وشرّ ما في هذا الشر أنه يرتكب باسم الدين، ويحسبه الجهّال أنه قربة لرب العالمين: فأما إذا جاء وقت شد الرّحال إلى الأحياء والأموات، وتقديم النذور والزيارات، فحدّث هنالك عن أنواع السّرف والكلفات، والتضييع للحقوق والواجبات².

الفرع الثاني: الحديث عن أسباب ضعف الأمة وسبيل استرجاع قوّتها:

وقد ذكر الشيخ ابن باديس عدة مسائل تتعلق بهذا الموضوع فبيّن بعض أسباب ضعف الأمة الإسلامية، وأن طريق استرجاعها لقوّتها إنما هو في القرآن الكريم، ومّا ذكره من أسباب في ذلك:

أولاً: التنازع بين أبناء الأمة: حيث تحدّث عن انقسام المسلمين إلى طائفتين متنازعتين كلّ منهما تدّعي أنّ الهداية في اتّباعها والالتزام بمنهجها، وهذه من أكبر القضايا التي بذل فيها الدعاة المصلحون جهودهم، حيث اجتهدوا في بيان صفات الطائفة التي ينبغي للمسلم أن يكون منها، كما اجتهدوا في الرّدّ على الطوائف المنحرفة وبيان صفاتهم ليحذر المسلمون منهم، والإمام ابن باديس واحد من هؤلاء الدعاة المصلحين الذين سعوا إلى إرشاد الأمة إلى برّ الأمان وطريق الصواب الذي يتحد به الصف ويتجنّب النزاع الذي يضعف الأمة، فكان لزاماً وحتماً أن يتطرّق لهذه المسألة الكبيرة، فتطرّق لها بأسلوبه الخاص البديع، حيث قسّم الطوائف في العالم الإسلامي إلى طائفتين كبيرتين، وبيّن بعض صفات كلّ واحدة منهما واستدلّ على ذلك بآيات من القرآن الكريم، ثم ترك الحكم للمسلم البصير ليحكم أيّ الطائفتين أهدى من أختها، وقدم لذلك بقوله "تطبيق وتحاكم"، وذلك لما فسّر قوله تعالى ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ الفرقان: ١-٢، حيث قال-رحمه الله-: "العالم الإسلامي كلّ اليوم طائفتان من المؤمنين، يتنازعان خطة الهداية والنذارة والتذكير؛ ولكلّ منهما - في سلوكها للقيام بتلك الخطة - سبيل، وكلّ منهما تدّعي أنّها على الصواب وأنّها الأحقّ والأولى

¹ يقال: ضغاء لصوت كلّ ذليل مقهور، والضغاء: صوت الذليل إذا شق عليه، ويقال رأيت صبيانا يتضاغون إذا تباكوا. ينظر: لسان العرب، لابن منظور، (485/14).

² في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، عبد الحميد محمد بن باديس، (ص: 218).

بنفع العباد. فرأينا أن نطبق فصل الفرقان عليهما، وننظر: كيف يفرق ما بينهما ومن هي المصيبة أو المخطئة، وفي ضمن ذلك تحاكمهما إليه وفصل النزاع بينهما بحكمه؛ وإثما اخترناهما للتطبيق والتمثيل لخطر الخطة التي تنازعا عليها، وعظيم النفع والضرر الذي يحصل من خطأ المخطئ، وصواب المصيب بها؛ ولأن الهداية والندارة والتذكير أمور لها أنزل القرآن، فتنازعهما عليها تنازع عليه. فأحق فصل أن نمثل به لنعلم فصله هو بين المتنازعين فيه، وما نحن نعرض بعض حال كل طائفة في قيامها بالخطة، ثم نسوق آيات القرآن، وننظر من أسعد الطائفتين بها:

الطائفة الأولى: يُذَكَّرُونَ من يدعونهم بغير القرآن بأحزاب وأوراد من وضعهم، لا مما ثبت عن النبي ﷺ إلا قليلاً، ولهم عليهم في أموالهم حق في أوقات من السنة معلومة.

والطائفة الثانية: يُذَكَّرُونَ الناس بالقرآن فيأمروهم بقراءته وتدبره، ويبينون لهم معانيه، ويحثونهم على التمسك به والرجوع إليه. ويدعونهم إلى الأذكار النبوية الثابتة في الكتب الصحاح، لرجوعها إلى القرآن لحكم قوله تعالى ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ الحشر: ٧ ، ولا يطلبون عليهم في ذلك أجراً. والله تعالى يقول في الحال الأول: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِمِدْ﴾ ق: ٤٥. وغيرها من الآيات المتقدمة في هذا المجلس. ويقول تعالى في الحال الثاني لنبيه ﷺ ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ الفرقان: ٥٧، وقوله ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ الشورى: ٢٣. ويقول في آية صريحة صراحة تامة في بيان من يجب أن يتبع من الدعوة: ﴿اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ يس: ٢١. ومن هم المهتدون؛ هم المتبعون للنبي ﷺ لقوله تعالى ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ الأعراف: ١٥٨. واتباعه بالنسبة لموضوعنا هو اتباعه في طريق دعوته الخلق إلى الله. وقد ثبت بالقرآن أنه كان يدعو بالقرآن، ويذكر به، وأنه لا يسأل على ذلك أجراً. بان - والحمد لله - بما ذكرنا حكم القرآن بين الطائفتين، واتضح طريق الحق في الدعوة والإرشاد لمن يريد سلوكه منهما. والله نسأل لنا ولهم قبول الحق والتعاون عليه والقوة والإخلاص في الصدع به والثبات عليه ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ إبراهيم: ٢٧^١.

^١ المصدر السابق، (ص: 155-157).

ثانيا: هجر الأمة الإسلامية للقرآن الكريم بأنواع من الهجر: فالإمام بن باديس لاحظ بأن الأمة الإسلامية قد هجرت القرآن الكريم تلاوة وتدبرا وعملا، واتخذت هذا الكتاب العظيم وراءها ظهريا مما كان سببا في تخلفها، فتحسّر من ذلك أشدّ التحسّر وحاول إصلاح هذه الظاهرة السيئة وهذا الداء العضال الذي أصاب الأمة، فلما جاء إلى تفسير قوله تعالى ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ الفرقان: ٣٠. بين الأمور الكلية التي جاء بها القرآن وكيفية إعراض المسلمين عنه ولجوئهم إلى غيره، فقال: "ونحن -معشر المسلمين- قد كان منا للقرآن العظيم هجر كثير في الزمان الطويل، وإن كنا به مؤمنين:

- 1- بسط القرآن عقائد الإيمان كلّها بأدلتها العقلية القريبة القاطعة فهجرتها، وقلنا: تلك أدلة سمعية لا تُحصّل اليقين، وأخذنا في الطرائق الكلامية المعقّدة، وإشكالاتها المتعددة، واصطلاحاتها المحدثه، مما يصعب أمره على الطلبة فضلا عن العامة.
- 2- وبين القرآن أصول الأحكام، وأمّهات مسائل الحلال والحرام، ووجوه النظر والاعتبار، مع بيان حكم الأحكام وفوائدها في الصالح الخاص والعام، فهجرتها، واقتصرنّا على قراءة الفروع الفقهية مجرّدة بلا نظر، جافة بلا حكمة، محجة وراء أسوار من الألفاظ المختصرة، تفنى الأعمار قبل الوصول إليها.
- 3- وبين القرآن مكارم الأخلاق ومنافعها ومساوئ الأخلاق ومضارّها، وبين السبيل للتخلّي عن هذه والتحلّي بتلك، ممّا يحصل به الفلاح بتركية النفس والسلامة من الخيبة بتدسيّتها فهجرتها ذلك كلّ، ووضعنا أوضاعا من عند أنفسنا، واصطلاحات من اختراعاتنا، خرجنا في أكثرها عن الحنيفية السمحة إلى الغلو والتنطّع، وعن السنة البيضاء إلى الأحداث والبدع، وأدخلنا فيها من النسك الأعجمي، والتخيّل الفلسفي ما أبعدها غاية البعد عن روح الإسلام، وألقى بين أهلها بذور الشقاق والخصام، وآل الحال بهم إلى الخروج من أثقال أغلالها، والاقتصار على بقية رسومها للانتفاع منها، ومعارضة هداية القرآن بها.
- 4- وعرض القرآن علينا هذا الكون وعجائبه ونّبّهنا على ما فيه من عجائب الحكمة ومصادر النعمة، لننظر ونستفيد ونعمل، فهجرتها ذلك كله إلى خريدة العجائب¹، وبدائع الزهور، والحوث والصخرة، وقرن الثور!... وعلمنا القرآن أن النبي ﷺ هو المبيّن للناس ما نزل إليهم من ربهم، وأن عليهم أن يأخذوا ما آتاهم، وينتهوا عما نهاهم عنه، فكانت سنته العملية والقولية تالية للقرآن. فهجرتها كما هجرناه، وعاملناها بما عاملناه، حتى إنه ليقول في المتصدرين للتدريس -من كبار العلماء في أكبر المعاهد- من

¹ يشير إلى كتاب "خريدة العجائب وفريدة الغرائب"، لابن الوردي، البكري القرشي، المعري ثم الحلبي (ت: 852هـ)، وهو كتاب يتحدث عن أخبار وأسرار بعض المخلوقات من حيوانات وبلدان وعلامات الساعة... الخ.

يكون قد ختم كتب الحديث المشهورة كالموطأ والبخاري ومسلم ونحوها، مطالعة، فضلاً عن غيرهم من أهل العلم، وفضلاً عن غيرها من كتب السنة وكم وكم بين القرآن!!! وكم وكم قابلناه بالصد والهجران!!!¹.

كما بين -رحمه الله- حال طلبة العلم المشتغلين بتفسير القرآن، وأنهم هجروا تدبر القرآن وتفهمه بسبب انشغالهم، بعلوم الآلة التي أفنوا فيها أعمارهم دون مطالعة ولو تفسير صغير للقرآن الكريم، ثم أعطى مثالا عن حال جامع الزيتونة في زمانه فقال رحمه الله: "ودعانا القرآن إلى تدبره وتفهمه والتفكير في آياته ولا يتم ذلك إلا بتفسيره وتبيينه، فأعرضنا عن ذلك وهجرنا تفسيره وتبيينه. فترى الطالب يفني حصّة كبيرة من عمره في العلوم الآلية، دون أن يكون طالع ختمة واحدة في أصغر تفسير كتفسير الجلالين مثلاً، بل يصير مدرّساً متصدّراً ولم يفعل ذلك!.

وفي جامع الزيتونة -عمره الله تعالى- إذا حضر الطالب بعد تحصيل التطويع في درس تفسير، فإنه -ويا للمصيبة- يقع في خصومات لفظية، بين الشيخ عبد الحكيم وأصحابه، في القواعد التي كان يحسب أنه فرغ منها من قبل، فيقضي في خصومة من الخصومات أياماً أو شهوراً؛ فتنتهي السنة وهو لا يزال حيث ابتدأ أو ما تجاوزه إلا قليلاً دون أن يحصل على شيء من حقيقة التفسير. وإنما قضى سنته في المباحكات بدعوى أنها تطبيقات للقواعد على الآيات. كأن التفسير إنما يقرأ لأجل تطبيق القواعد الآلية، لا لأجل فهم الشرائع والأحكام الإلهية.

فهذا هجر آخر للقرآن، مع أن أصحابه يحسبون أنفسهم أنهم في خدمة القرآن! "2.

الفرع الثالث: مواجهة الأخطار الأخلاقية والفكرية التي تهدد الأمة:

من المسائل التي تحدث عنها ابن باديس، بعض الأخطار والأفعال الأخلاقية أو الفكرية التي تهدد الأمة وتذهب هيئتها أو تقديسها لغير الله تعالى، ومن ذلك:

أولاً: تحذيره من ظاهرة الانحناء لذوي السلطان التي شاعت في زمانه وتدل على تعظيم غير الله تعالى فإن ممّا شاع في الأمة ظاهرة الانحناء للسلطين وتعظيمهم فوق ما يستحقون، وكانت الصحف التي تنشر في زمانه كثيراً ما تنقل صوراً من هذا النوع، الأمر الذي لم يفوته ابن باديس بل حذر منه ونهى عنه، فعنون بقوله: "تحذير"؛ وذلك لما فسر قوله تعالى ﴿لَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي

¹ في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، عبد الحميد محمد بن باديس، (ص: 173 - 174).

² المصدر نفسه، (ص: 173).

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿النمل: ٢٥﴾، فقال: "تحذير: كثيراً ما رأينا في الرسوم التي تنشرها الصحف أناساً من المسلمين راكعين، أو مقارئين للسجود لذي سلطان. فعلى المسلم أن يحذر من ذلك فلا يفعله، ولا ينحني لأحد من الخلق، وأن ينكره إذا رآه" ¹.

ثانياً: اللجوء لأضرحة الموتى ودعائهم وعبادتهم: فالملتجئ الجزائري في عهد الإمام بن باديس شاعت فيه الخرافات والبدع بكل أنواعها؛ من عبادة القبور ودعاء الصالحين واللجوء إليهم عند الكربات وغير ذلك، وهذا كله بسبب الاستعمار الفرنسي، فما كان من ابن باديس المصلح إلا أن حاول إصلاح عقيدة إخوانه الجزائريين وغيرهم وذلك بإيجاد العلاج المناسب من خلال القرآن الكريم، لأن للقرآن عظمة في القلوب، فلما أن جاء إلى تفسير قوله تعالى ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ رَزَعْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٦]، وجد فيها العلاج والدواء فقال: "إذا علمت هذه الأحكام، فانظر إلى حالتنا معشر المسلمين الجزائريين وغير الجزائريين، تجد السواد الأعظم من عامتنا غارقاً في هذا الضلال، فتراهم يدعون من يعتقدون فيهم الصلاح من الأحياء والأموات، يسألونهم حوائجهم من دفع الضر، وجلب النفع، وتيسير الرزق، وإعطاء النسل، وإنزال الغيث، وغير ذلك مما يسألون.، ويذهبون إلى الأضرحة التي شُيّدت عليها القباب، أو ظلمت بها المساجد فيدعون من فيها، ويدفنون قبورهم، وينذرون لهم، ويستشيرون حميتهم، بأنهم خدامهم وأتباعهم، فكيف يتركونهم؟؟ وقد يهدّدونهم بقطع الزيارة، وحبس [الندور]. وتراهم هنالك في ذلّ وخشوع وتوجّه، قد لا يكون في صلاة من يصلي منهم!! فأعمالهم هذه من دعائهم وتوجههم كلّها عبادة لأولئك المدعويين، وإن لم يعتقدوها عبادة؛ إذ العبرة باعتبار الشرع، لا باعتبارهم. فيا حسرتنا على أنفسنا كيف لبسنا الدين لباساً مقلوباً، حتى أصبحنا في هذه الحالة السيئة من الضلال" ².

وقد أؤذي ابن باديس في ذلك أشد الإيذاء، فقبول بالرفض والطعن من قبل متعصبة عبّاد القبور ولكنه صبر واحتسب فنصره الله تعالى وكانت العاقبة للمتقين.

ثالثاً: تجنب الألفاظ المخالفة للعقيدة الصحيحة التي شاعت على ألسنة الناس: كان ابن باديس يسعى من خلال تفسيره لإصلاح مجتمعه وتطهيره من كلّ ما يخالف الشريعة الإسلامية، لذلك فقد تحدّث عن كلّ ما يخالفها ويقدح فيها، ومن ذلك أنه لما سمع بعض الألفاظ التي تعودت عليها ألسنة

¹ في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، عبد الحميد محمد بن باديس، (ص: 276).

² المصدر نفسه، (ص: 119).

الناس وصاروا يتكلمون بها مع أنها مخالفة للشرعة كلفظ "يا ربي والشيخ" وغيره، نهى مجتمعه عن التكلم بمثل هذه الكلمات وبين أنها شرك بالله تعالى، وذلك لما فسر قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ الفرقان: ٦٨، فقال: "تحذير وإرشاد: ما أكثر ما تسمع في دعاء الناس "يا ربي والشيخ"، "يا ربي وناس ربي"، "يا ربي والناس الملاح". وهذا من دعاء غير الله، فإياك أيها المسلم وإياه، وادع الله ربك وخالقك وحده وحده، وأنف الشرك راغم"¹.

فهذه الأمثلة كلها تعتبر عيّنات عن بعض المعالم التي تدل على بروز الاتجاه الاجتماعي في التفسير عند الإمام ابن باديس في تفسيره "في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير" الذي يصنّف من أبرز التفاسير التي تمثل الاتجاه الاجتماعي في التفسير في العصر الحديث.

¹ في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، عبد الحميد محمد بن باديس، (ص: 222).

المبحث الثاني: معالم الاتجاه الاجتماعي عند الشيخ بيوض من خلال تفسيره "في رحاب القرآن".

وسأحدث في هذا المبحث عن ملامح ومعالم من الاتجاه الاجتماعي في التفسير عند إمام من أئمة الإباضية الجزائريين في العصر الحديث وهو الشيخ: "بيوض" الذي يعتبر من رواد المدرسة الإصلاحية عند الإباضية، خاصة من خلال دروس التفسير التي كان يلقيها على المستمعين، فكان يستغل التفسير الشفاهي ويث معام الإصلاح من خلاله، وبيان ذلك من خلال مطلبين هما:

المطلب الأول: ترجمة الشيخ بيوض وتعريف بتفسيره "في رحاب القرآن".

المطلب الثاني: نماذج من معالم الاتجاه الاجتماعي في تفسير "في رحاب القرآن".

وتفصيلهما كما يلي:

المطلب الأول: ترجمة الشيخ بيوض وتعريف بتفسيره "في رحاب القرآن".

يعتبر الشيخ بيوض من أعيان المجتمع الميزابي وعلمائه الذين برزوا في عصره وكتب لهم القبول بين جميع أطراف المجتمع؛ وذلك نظرا للمكانة العلمية التي كان يتمتع بها الشيخ وبرزه بين أقرانه، ولذلك حظي بالمكانة العالية فكان يقيم دروسا متنوعة أهمها درس التفسير الذي كان يلقيه على المستمعين شفاهيا، فكتب الله له القبول بين أبناء بلده، وفيما يلي تعريف بالشيخ بيوض وتفسيره:

الفرع الأول: ترجمة للشيخ: إبراهيم بيوض.

وستكون ترجمة مختصرة فيها بعض الجوانب من الحياة الشخصية والعلمية، وذلك في النقاط الآتية:

أولا: مولده وأسرته: هو الشيخ إبراهيم بن عمر بيوض، ولد في 11 ذو الحجة 1316هـ/21 أبريل سنة: 1899م، في أحضان والدته من عائلة الحكم بالقرارة - مدينة تقع بولاية غرداية-، ووالده يعدّ من أعيان البلد. **فوالده** هو السيد عمر بنباية بن إبراهيم بيوض؛ من عشيرة أولاد علاهم، أما أمه فهي السيدة بنت كاسي بن بهون بن الناصر بن بهون، ولقب أسرتها أولاد بوهون¹.

ثانيا: نشأته: دخل المدرسة القرآنية، فاستظهر القرآن الكريم قبل سنّ البلوغ وعمره: 12 سنة، وانضمّ بذلك إلى حلقة حقّاق القرآن: إروان. ثم أخذ مبادئ العلوم الشرعية واللغوية على يد مشايخ القرارة

¹ ينظر: موسوعة العلماء والأدباء، إعداد مجموعة من الأساتذة، إشراف: رايح خدوسي، منشورات الحضارة، الجزائر، بئر توتة، سنة: 2014م، (1-512)، و التفسير الشفاهي وأثره في الإصلاح الحديث، نادية وزناجي، رسالة دكتوراه مقدمة بجامعة الحاج لخضر باتنة، تخصص: كتاب وسنة، سنة: 2008، (ص:101).

المشهورين آنذاك مثل: الحاج عمر بن يحيى أمليكي (ت: 1921م)، وأبو العلا عبد الله (ت: 1960م)، والحاج إبراهيم البريكي (ت: 1911م) الذي نال حظوة عنده فلازمه وكان يخدمه ويحضر جلسات أعيان البلد عنده، فكان ذلك بمثابة المدرسة الاجتماعية والسياسية التي تكوّن فيها، وقد حباه الله منذ الصغر مواهب جمّة منها الذكاء الوقاد، والحفاظة القوية، والفصاحة والبيان، وهو ما أهّله رغم صغر سنّه ليلخف شيخه الحاج عمر بن يحيى في التدريس، ويتبنّى الحركة العلمية والنهضة الإصلاحية في القرارة وعمره: 16 سنة.

وبعد الحرب العالمية الأولى أخذ غصبا إلى الخدمة العسكرية الإجبارية، فانتشل من برائن فرنسا بمساع مضنية شاقّة، وفور رجوعه مباشرة بدأ مصارحته للاستعمار بكتابة رسائل احتجاج عن إرغام الناس على التجنيد الإجباري، فساهم في مقاومة هذا التجنيد، حتّى أصدرت فرنسا قانونا جديدا يلغي حكم التجنيد العسكري على أهل وادي ميزاب.

وفي سنة: 1921م بعد وباء كبير ذهب بمعظم أعيان البلد، منهم: والده، وشيخه الحاج عمر، خَلَفَ شيخه في رئاسة وتبّى الحركة العلمية والنهضة الإصلاحية في وادي ميزاب. وبعد سنة واحدة دخل عضوا في حلقة العزّابة وهي: الهيئة الدينية العليا في القرارة، وهو أصغر عضو يدخل هذه الهيئة، وما فتئ أن عيّن شيخا للتدريس والوعظ بالمسجد، ثمّ انتخب حوالي 1940م رئيسا لمجلس العزّابة¹.

ثالثا: نشاطاته وأعماله: في يوم 18 شوال 1343هـ/ 21 ماي 1925م أسّس معهدا سَمّاه "معهد الشباب" للتعليم الثانوي، مرّكزا على الثقافة الإسلامية والعربية والعلوم المعاصرة، وهو المعروف بـ "معهد الحياة" إلى يومنا هذا، وشعاره: "الدين والخلق قبل الثقافة، ومصلحة الجماعة قبل مصلحة الفرد"، وأصبح قبلة للطلاب من داخل الجزائر وخارجها، تخرج منه المئات من طلاب العلم المتخصّصين في العلوم الشرعية واللغوية. كما افتتح أيضا في سنة: 1931م درس الحديث الشريف من «فتح الباري، شرح صحيح البخاري» لابن حجر العسقلاني، واختتمه بحفل علمي بهيج سنة: 1945م، وكانت تحضره كلّ فئات المجتمع بالمسجد؛ وقبل ذلك شَرَحَ "مسند الربيع بن حبيب" لنور الدين السالمي. ومن جملة الكتب التي شرحها: كتاب "طلعة الشمس في أصول الفقه" للسالمي، وكتاب "النيل للثميني، و "مغني اللبيب" في اللغة لابن هشام، و "دلائل الإعجاز في البلاغة" لعبد القاهر الجرجاني، وكتاب "الأُمالي" لأبي علي القالي في الأدب، وكتاب "السلم في المنطق" للأخضري.

¹ ينظر: موقع: أشعة من الفكر الإباضي، مقال بعنوان: الشيخ إبراهيم بن عمر بيوض، بقلم د. محمد صالح ناصر، الرابط:

وفي غرة محرم سنة 1353هـ/ ماي 1935م -بعد أن أتمّ تفسير جزء عمّ- افتتح درس تفسير القرآن الكريم من فاتحته، واختتمه يوم 25 ربيع الثاني 1400هـ/ 12 فيفري 1980م؛ وأقيم له مهرجان عظيم، شهدته مختلف السلطات الإدارية والسياسية من شتى المستويات، كما حضر حشد كبير من الأئمة والعلماء من كافة أنحاء القطر.

وفي سنة: 1931م شارك في تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وساهم في صياغة قانونها الأساسي، وانتخب عضوا في إدارتها الأولى، فأُسندت إليه نيابة أمين مالها.

وفي سنة: 1937م أسّس جمعية الحياة بالقرارة، رائدة النهضة العلمية الإصلاحية بالجنوب الجزائري وكانت له مشاركة فعّالة بمقالات نارية في الصحافة الوطنية، وخلاصة أفكاره: دعوة إلى الوحدة الوطنية، وتمسك بالمقومات الشخصية، واستنفار عامّ من أجل مستقبل أفضل في إطار الدين الإسلامي، ودفاع عن اللغة العربية لغة القرآن الكريم. كما كانت له اهتمامات ومتابعات حثيثة لأحداث العالم الإسلامي. وفي سنة: 1940م خلال الحرب العالمية الثانية حُكم عليه بالإقامة الجبرية داخل القرارة، لا يغادرها لمدة أربع سنوات، كوّن خلالها أجيالا من رجالات الأمة الحاليين.

وفي سنة: 1948م كان من بين الأربعة الذين أمضوا على برقيات ورسائل التأييد، باسم اللجنة الجزائرية الفلسطينية لقضية فلسطين في الجامعة العربية، وكان عضوا في لجنة إغاثة فلسطين. دخل معترك الحياة السياسية الحاسمة بعد خروجه من الإقامة الجبرية، وبعد نهاية الحرب العالمية الثانية طالب بإلحاق الصحراء بالجزائر، مناهضا لمشروع الدستور المزعوم الذي وضعته السلطات الفرنسية للجزائر سنة: 1947م.

وتحت تأثير الإلحاح الشعبي بميزاب قبل أن يكون ممثله في المجلس الجزائري، فانتخب بالأغلبية الساحقة يوم 20 أفريل 1948م، وأعيد انتخابه في سنة: 1951م. وكان الصوت المدوّي الذي طالما دافع عن المؤسسات العربية الإسلامية في الجزائر، لاسيما في الجنوب. ومن الفاتح نوفمبر 1954م إلى 19 مارس 1962م كان محور النشاط الثوري بميزاب عامة والقرارة خاصة، يديره مباشرة بنفسه، وبواسطة أبنائه الشباب من تلاميذه. وكان خلال الثورة الجزائرية المباركة على اتصال وثيق بالمراسلات السرية بينه وبين جبهة التحرير الوطني، والحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية في المهجر. وكان يؤمن بأنّ الكفاح لا يقتصر على رفع السلاح وحده، وإنما يتكامل ببناء النفوس وإعدادها لتحمل المسؤولية والرسالة في المستقبل. ولعلّ أكبر موقف عرف به: معارضته لمؤامرة فصل الصحراء عن الشمال.

وفي 19 مارس 1962م بعد إيقاف القتال نتيجة مفاوضات إيفيان، عُيِّن عضوا في اللجنة التنفيذية المؤقتة، تقديرا لكفاءته ووظيفته، وأسندت إليه مهمة الشؤون الثقافية إلى يوم تسليم السلطة لأوّل حكومة جزائرية في سبتمبر 1962م.

وفي سنة: 1963م أحيى نشاط مجلس عمّي سعيد (الهيئة العليا لمجالس عزّابة وادي ميزاب ووارجلان) فانتخب رئيسا له إلى يوم وفاته.

وفي السبعينيات اعتمدته وزارة الشؤون الدينية في إصدار الفتوى بالجمع بين الرؤية والحساب الفلكي في إثبات المواسم الدينية، وفتواه في اعتبار ميقات الحجاج بالطائرة المطار الذي ينزلون فيه بالحجاز، فميقات الحجاج القادمين من المغرب بالطائرة هو جدّة¹.

رابعا: وفاته: توفي في الأربعاء 8 ربيع الأوّل 1401هـ/ 14 جانفي 1981م، ختمت أنفاسه الطيبة، وحياته الحافلة بالجهاد، وتوفي عن عمر يناهز 83 سنة، وشيع جثمانه في موكب حاشد خاشع، حضره نخبة من مسؤولي الدولة، كما أُتِن بحفل عظيم يوم الجمعة 21 جمادى الأولى 1401هـ/ 27 مارس 1981م².

خامسا: آثاره العلمية ومؤلفاته: وهي كثيرة، أهمها:

1- تفسير مسجّل في حوالي 1500 ساعة، محرّرة في 12497 صفحة، وقد طبعت الأجزاء الخمسة الأولى منها بعنوان: "في رحاب القرآن"، تحرير الأستاذ عيسى الشيخ بلحاج، كما صدر مختصر لهذه الدروس، إنجاز الشيخ ناصر المرموي.

2- مئات الأشرطة لدروس قيمة، في المناسبات الدينية والاجتماعية والسياسية، وقد طبعت منها بعض الدروس، بعد تحريرها وتحقيقها، ومنها:

- المجتمع المسجدي، تحرير الدكتور: محمّد ناصر بوحجام.
- حديث الشيخ الإمام، في جزأين، تحرير الشيخ محمّد سعيد كعباش.
- البدعة مفهومها وأنواعها وشروطها، تحرير: بولرواح إبراهيم، في إطار بحوث التخرّج بمعهد الحياة.

¹ ينظر: موقع: جمعية التراث: الرابط: <https://tourath.org/index.php/%D8%A5%D8%A8%D8%B1%D8%A7%D9%87%D9%8A%D9%85-%D8%A8%D9%86-%D8%B9%D9%85%D8%B1%D8%8C-%D8%A8%D9%8A%D9%88%D8%B6>

² موقع: أشعة من الفكر الإباضي، مقال بعنوان: الشيخ إبراهيم بن عمر بيوض، بقلم د. محمد صالح ناصر، الرابط:

<https://istiqlama.net/olama/ibrahai-biodh.htm>

- فضل الصحابة والرضا عنهم، تحرير: بهون حميد أوجانة، في إطار بحوث التخرُّج بمعهد الحياة.
- وقد ترك الشيخ بيوض فتاوى على أسئلة علمية وفقهية، جمعها الأستاذ: بكير الشيخ بالحاج (باشعادل)، وطبعها في جزأين. وحرَّر الأستاذ عمر إسماعيل فتوى ثبوت الهلال بين الرؤية البصرية وحساب المراصد الفلكية، فطبعَت بسلطنة عمان.
- 3- مقالات في مختلف الجرائد والمجلات، خاصة منها مجلة الشباب الصادرة عن معهد الحياة، وجرائد الشيخ أبي اليقظان إبراهيم، مثل: وادي ميزاب، والنور.
- 4 - مذكراته الخاصة: فقد كان الشيخ حريصا على تدوين مذكراته الخاصَّة، ولا تزال هذه المذكرات الهامَّة مخطوطة، ولعلَّ من بينها ما صدر بعنوان: "أعمالي في الثورة"، أعدَّه للطبع الدكتور: محمَّد ناصر، ونشرته جمعية التراث.
- 5- ومن ثمار جهاده الإصلاحي: أجيال من الرجال، فقد كان يقول دوما: "شُغِلت عن تأليف الكتب بتأليف الرجال"، وعلى رأس هؤلاء خَلَفُه في ريادة النهضة الإصلاحية: الشيخ شريقي سعيد (الشيخ عدون)، وأضرابه من مئات الأساتذة، والمشايخ، والدكاترة، وكبار الموظفين في مختلف المستويات، داخل الجزائر وخارجها.
- وآخر ما يقال في ترجمة الشيخ بيوض: أن منابع إصلاحه كانت: القرآن الكريم، والسنة الشريفة، وسيرة الخلفاء الراشدين، والسلف الصالح من بعدهم. وأما منابر رسالته فهي: المسجد أولا، ثمَّ التعليم بالمعهد ثانيا، ثمَّ المجتمع الخارجي العام ثالثا¹.
- الفرع الثاني: تعريف بتفسير "في رحاب القرآن" وبيان منهج مؤلفه فيه:**
- والحديث عنه يكون في عدة نقاط هي:
- أولا: تسمية تفسيره:** اسم هذا الكتاب "في رحاب القرآن"، غير أن هذا العنوان من اقتراح تلميذه: عيسى بن محمد الشيخ بالحاج، حين عزم على استنساخ التفسير الشفاهي المسجل وتدوينه في مؤلف يحمل هذا العنوان، وقد وافق الشيخ المفسر عليه، لأن عملية الكتابة بدأت في أواخر حياته².

¹ موقع: جمعية التراث: الرابط: <https://tourath.org/index.php/%D8%A5%D8%A8%D8%B1%D8%A7%D9%87%D9%8A%D9%85-%D8%A8%D9%86-%D8%B9%D9%85%D8%B1%D8%8C-%D8%A8%D9%8A%D9%88%D8%B6>

وموسوعة العلماء والأدباء، رابح خدوسي وغيره، (512/1).

² التفسير الشفاهي وأثره في الإصلاح الحديث، نادية وزناجي، (ص: 104-105).

ثانيا: اشتغاله في تفسيره: كانت بداية اشتغال الشيخ بيوض بالتفسير سنة: 1921م، وهو ما يزال شابا في العشرين من عمره حين جلس إلى الناس يفسر القرآن معتمدا في ذلك على تفسير البيضاوي. وفي الفاتح من المحرم سنة: 1353هـ الموافق للسادس من ماي سنة 1935م عزم على بداية التفسير من أول البقرة إلى آخر الناس في مسجد القرارة، وكان الوقت المخصص لهذه الدروس ما بين العصرين، يلقيها باللغة العربية الفصحى مع شروح تداخلها اللهجة الميزابية المحلية أو اللهجة العربية الدارجة، ودأب الشيخ بيوض على التفسير مجتهدا مواظبا لا يثنيه عنه إلا عائق من سفر أو مرض أو انشغال بمهمة من مهمات البلاد والعباد، وحفت به عناية الله تكلؤه قرابة عشرين سنة محلّقا في رحاب القرآن، غائضا في بحار علومه الدينية، واعظا مرشدا، موجّها مرثيا، جامعا موحدا إلى أن ختمه بسورة الناس بعد صلاة العشاء من يوم الثلاثاء 26 ربيع الأول 1400هـ الموافق لـ 12 فيفري 1980م، ليكون التفسير أخذ منه زهاء خمسة وأربعين عاما، وقد اشتغل به تدريسا وشرحا شفاهيا، ولكن وللأسف - كما هي عادة الجزائريين مع علمائهم - ضاعت تلك الدروس بسبب عدم توفر آلات التسجيل من أول سورة البقرة إلى قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيَّ آدَمَ﴾ الإسراء: ٧٠¹.

ثالثا: غرضه من التفسير: كان غرض الشيخ من تفسير كتاب الله مشافهة إيصال الهدي القرآني إلى كل بيت في القرارة، بإصلاح أحوال المجتمع الفاسدة، فلم يكن غرضه إضافة تفسير جديد إلى المكتبة الإسلامية بل إصلاح المجتمع من خلال نصوص القرآن المفسرة، لتبليغ الهدي إلى كل شرائح المجتمع، ومما يؤكد أن الشيخ لم يفسر القرآن مباهاة أو تقليدا، قوله: "جعلت تفسير كتاب الله عمدي في الدعوة إلى الله، وكنا حربا على الاستعمار الذي يجنّد شبابنا ويمنعنا من التعليم الحرّ جبرا، ويعمل كلّ وسيلة للتعطيل، وكنا نداوره تارة ونداريه تارة وندافع تارة أخرى، ورأيت أنّ أنفع شيء لذلك هو كتاب الله، فشرعت في التفسير"².

رابعا: منهجه في التفسير: قصد الشيخ بيوض التفسير الإصلاحي، ولتحقيق ذلك كان منهجه كالاتي:

- 1- يتولى أحد الطلبة تجويد الآيات التي يريد الشيخ تفسيرها، أو يتولى سردها بنفسه.
- 2- يذكر سبب نزول الآية في عصر النبوة، ومطابقتها لمختلف العصور.
- 3- يربط الآية بما قبلها، وكذا السورة التي قبلها، مبرزاً اللطائف وأسرار هذا الربط، وأوجه المناسبة.

¹ التفسير الشفاهي وأثره في الإصلاح الحديث، نادية وزناجي، (ص: 104)، ومعجم المفسرين «من صدر الإسلام وحتى العصر الحاضر»، عادل نويهض، (17/1-18).

² التفسير الشفاهي وأثره في الإصلاح الحديث، نادية وزناجي، (ص: 107).

- 4- يشرح المفردات اللغوية الغريبة في الآيات.
 - 5- يستحضر ما ورد في تفسير الآية عن رسول الله ﷺ، وينتقي ما صح منه وما ثبت.
 - 6- يسلك في تفسيره لقصص القرآن الحذر من الوقوع في شَرَكِ الإسرائيليات، والأحاديث الضعيفة.
 - 7- لا يتعصب من أجل التعصب الممقوت لمذهب معين.
 - 8- لا يعتني كثيرا بالخوض في المباحث الكلامية أو اللغوية، أو العلمية، ولا الخلافات المذهبية في المسائل العقائدية أو الفقهية.
 - 9- يعرض آراء بعض المفسرين الواردة في الموضوع، موافقا أو مفندا أو محددا.
 - 10- يعرض على الآية قضايا المجتمع المعاصرة، السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، ليربطها به.
 - 11- يلقي الدرس بالعربية الفصحى ممزوجة باللهجة الميزابية المحلية، وبالعبارة الدارجة إيصالا للفهم إلى جميع الطبقات المختلفة المتفاوتة التي تحضر الدرس.
- خامسا: كيفية انتقال تفسير الشيخ بيوض من مرحلة المشافهة إلى مرحلة الكتابة:** كان تلميذه الأستاذ: عيسى بن محمد الشيخ بالحاج، يعتني بتلك الدروس اعتناء بالغاً لتصل للقارئ، ولذا فإن نقلها من المسموع إلى المكتوب مرّ بمرحلتين:
- المرحلة الأولى: يفرّغ الدروس من الأشرطة كما هي ويأتي بها إلى الشيخ بيوض بنقل المضمون بحذافيره بدقة وأمانة، دون تدقيق النظر في أسلوب التعريب أكان صحيحاً أم خاطئاً من الناحية الفنية.
- المرحلة الثانية: وهي مرحلة التنقيح، واعتمد المحرر في هذه المرحلة التحريرية النهائية على ما يلي:
- 1- قراءة الدرس أو صفحات منه لتصوير الموضوع تصويراً شاملاً، ومحاولة فهم معاني كلام الله حتى يتسنى له ترتيب مضمون الآيات في الدفتر الجديد بطريقة متسلسلة متتابعة منتظمة.
 - 2- حذف ما يداخل كلام الشيخ من تكرار لفظي كان يلجأ إليه توضيحاً للناس، وترسيخاً للقضايا والمسائل العلمية في أذهان الطلبة بصفة خاصة.
 - 3- إعادة النظر في تعريب بعض العبارات المنطوقة أصلاً باللهجة الميزابية أو العربية الدارجة ومحاولة تعريبها تعريباً فنياً يضيف عليها المعنى المراد.
 - 4- تخريج الآيات التي تكون داخل النص المفسر، غير الآيات التي هي موضوع الدرس لأن الشيخ كان لا يعتمد طريقة تفسير القرآن بالقرآن.
 - 5- تخريج الأحاديث النبوية ما أمكن بإحالة القارئ إلى مصادرها من الكتب الصحاح.
 - 6- التعريف ببعض الشخصيات والأماكن وغير ذلك مما يمكن أن يكون غامضاً وغير معروف.

7- كتابة كل ذلك بخط نسخي واضح يُسهّل على الطابعين قراءة ما كتب مع مراعاة الترقيم، والعلاقات، وكل ما تتطلبه الطباعة الحديثة¹.

المطلب الثاني: نماذج من معالم الاتجاه الاجتماعي في تفسير "في رحاب القرآن".

تميز تفسير "في رحاب القرآن" ببروز الاتجاه الاجتماعي بوضوح؛ وذلك لأن الشيخ بيوض كان يلقيه على المستمعين شفاهيا، وهذا ما فتح له الباب في ربط الآيات القرآنية بالواقع فكان يستغل تفسيره للآيات لينبّه على ما أصاب الأمة من ضعف ومخالفات شرعية ويحاول إيجاد الحلول لتسترجع الأمة مكانها، خاصة وأن المجتمع الميزابي كان في أوائل القرن العشرين يعيش تحت وطأة الحكم الاستعماري العسكري ووطأة الفقهاء الجامدين؛ أولئك يرهقونه بحكم مستبد وهؤلاء يعرقلون مسيرته بفكر متزمت، ممّا أدّى إلى ظهور سلبيات عديدة في جميع مجالات الحياة، وكان الشيخ بيوض العالم اليقظ المتفتح على العالم الإسلامي من حوله يتابع بحرص دعوات الإصلاح التي أخذت ترتفع من هنا وهناك في أطراف العالم العربي، ولا سيما حركة العلماء المصلحين في الشرق من أمثال الشيخ: محمد عبده، وجمال الدين الأفغاني، ورشيد رضا، والكواكبي، وشكيب أرسلان، وغيرهم ممن أعجب الشيخ بيوض بمنهجهم وتشرب أفكارهم من خلال آثارهم وكتبهم، لا سيما وقد اجتمع ببعضهم مثل: شكيب أرسلان الذي التقى به في الحج سنة: 1929م، فكان دائم الإشادة بفكره ومواقفه².

وقد تجلّى هذا التأثير في الدروس التفسيرية للشيخ بيوض حتى أنه صرح بمقصده فيها فقال: "إنّ مقصدي من هذه الدروس -دروس التفسير- وغيرها هو مقصد الشيخ محمد عبده، أن أخلق عقولا تتدوّق بلاغة القرآن، ونفوساً فيها طهر القرآن، وتلاميذ مصلحين يكونون جند القرآن"³. وفيما يلي بيان لبعض تلك المعالم، أدرجت كلّ واحد منها تحت فرع وهي:

الفرع الأول: تنزيل الآيات على الواقع:

تعددت المواضع والقضايا التي نزل فيها الشيخ بيوض آيات القرآن الكريم على الواقع الذي كان يعيشه، ومن أمثلة ذلك:

¹ التفسير الشفاهي وأثره في الإصلاح الحديث، نادية وزناجي، (ص: 109-110).

² موقع: أشعة من الفكر الإباضي، مقال بعنوان: الشيخ إبراهيم بن عمر بيوض، بقلم د. محمد صالح ناصر، الرابط: <https://istiqama.net/olama/ibrahai-biodh.htm>

³ محمد علي دبوز: أعلام الإصلاح في الجزائر، (2/ص154). نقلا عن موقع: قرارة بوزقة، الرابط: https://rachidkala.blogspot.com/p/blog-page_3.html

أولاً: تحذيره من ظاهرة القذف المتفشية في المجتمع: وقد تحدث الشيخ بيوض عن هذه الظاهرة الدينية لما فسر قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ النور: ٤، حيث بين صور القذف في المجتمع وخطره قائلاً: "مثلاً: يكون هناك مجتمع طاهر، فيأتي الشيطان فيلقي كلمة، فيقول: فلانة فعلت كذا وكذا، يقولها لواحد أو لاثنين أو لثلاثة، وهؤلاء ينقلونها إلى مجتمعات أخرى، ومن عادة الناس - كما هو مجرب - أنهم لا ينقلون الأخبار كما هي، وإنما لا بد أن يزيدوها إضافات أخرى، خاصة بالنسبة للأخبار المتعلقة بالأعراض، وقد تنطلق الكذبة قدر الشعرة في الصباح، ولا تكاد تغرب الشمس حتى تصير حبالاً من حبال السفن ... يقول هذا: سمعت أن فلانة متهمة، والآخر يقول: إنها وقعت مع فلان، ويقول الآخر: حقاً لقد رأيت فلانا يتردد على شارعها، وفلانا يحوم حول تلك المنطقة، وهكذا تتسع الشائعة بحسب خيال كل شخص، وكذلك تتضرر البنت وعائلتها بتلك الشائعة الباطلة"¹.

ثانياً: مدحه لبعض الأخلاق الحسنة في المجتمع الإباضي: فالمجتمع الإباضي كان معروفاً بتماسكه وشدة تنظيمه، وهي خصلة أراد الشيخ بيوض تشجيع أبناء منطقته عليها وحثهم على الثبات عليها، فمدحهم بها وقارهم بغيرهم ممن افتقدوها، فاستغل ذلك أثناء درسه في التفسير فقال: "ولنضرب مثلاً من أنفسنا، فلولا اهتمام الآباء بأبنائهم، ولولا العشائر، ونظامها واجتماعها بالآباء، واهتمامها بالأبناء، واهتمامها بالفقراء، والأيامى واليتامى والمرضى، فإنه يستحيل أن نصل ولو إلى عشر الحالة التي نحن فيها، على أننا لم نبلغ درجة الكمال في شيء، وإنما حالتنا - والله الحمد - حسنة بالنسبة لبعض الجهات المختلفة والفضل يعود إلى هذا التعارف، وهذا التعاطف الموجود بين أفراد القبيلة من ذوي القرابة والأرحام"².

الفرع الثاني: مواجهة الأخطار الأخلاقية والفكرية التي تهدد الأمة:

تعددت المسائل التي تحدث عنها المفسر فيما يتعلّق بالأخطار التي تواجه الأمة في جميع النواحي الفكرية والأخلاقية، ذلك لتحذر الأمة منها فتصون نفسها، ومن ذلك:

أولاً: الفكر الفاسد الذي دبّ في المجتمع الجزائري: من أهم ما حرص الشيخ إبراهيم بيوض على علاجه في تفسيره: الفكر الفاسد الذي دبّ في المجتمع الجزائري، خاصة فكري: الإلحاد والشيوعية الذين

¹ في رحاب القرآن، إبراهيم بن عمر بيوض، جمعية التراث، القرارة، غرداية، ط: 2، (108/6).

² المصدر نفسه، (103/6).

شاعا في زمنه، حيث إنه لما فسر قول لقمان لابنه ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنَىٰ لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ لقمان: ١٣، استغل معنى الآية وحذّر الناس من الأفكار التي تلوث العقل مهما كان نوعها فقال: "وقد جرّنا إلى هذا الحديث ما كنّا نظنه من أنّنا لسنا بحاجة إلى أن نتكلم في موضوع الإيمان، وثبته في القلوب، وأن نقول لأولادنا: لا تشركوا بالله كما قال لقمان لابنه... لأن الكلام على هذا مرّ قديما فنتجاوزّه إلى موضوع آخر، ولكن الأمور تطورت والأحوال تغيّرت وكان لزاما علينا أن نعود فنبدأ بما بدأ به الرسل إلى الدعوة إلى الإيمان وتقديره في القلوب من جديد، وتحسين القلوب من أن يتطرق إليها شك يتحول بعد ذلك إلى إلحاد صريح، خاصة وهو يتساقط كالطر في كلّ مكان، وقد عمّ كثيرا من شباب المسلمين، فنحن بحاجة إلى هذه الوصية إلى أن يقول كلّ واحد منا لابنه ﴿يَبْنَىٰ لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾. - ثم يواصل كلامه - قائلا: "أما بالنسبة للعامة والكبار الذين تربّوا في حجور أمهاتٍ مسلمات وأحضان آباء مسلمين، فنحن مطمئنون من أن يتسرّب إليهم مثل هذا الشرك بالله تعالى، وإنما الخوف من تسرّب هذا الشرك الأعظم إنما هو على الشباب والأجيال الصغيرة الصاعدة التي تتلقى العلم في مختلف المدارس في مشارق الأرض ومغاربها، على يد مختلف العلماء وكذلك الشرك بإنكار الآخرة وإنكار البعث والجنة والنار، وهذا أيضا ممّا لا نخاف على عجائزنا وعلى شيوخنا لأنهم صبغوا بصبغة الله... لكنه يجب أن نتحدث في الموضوع من أجل الشباب الذين هم في طور التعليم، ولما يدخل الإيمان في قلوبهم فيرسخ فيه، هذا من جهة؛ ومن جهة أخرى عن طريق الصدفة بين يدي معلمين لا يؤمن كثير منهم بالله، وقد تميز هذا العصر (الستينات والسبعينات) بانتشار الإلحاد بين معلمي المدارس في مشارق الأرض ومغاربها، وأكثر هؤلاء يعتزّون بعقولهم ومعارفهم، ويحملون فكرة سيئة ضد الدين؛ يكفرون بالله وبالبعث، بل ويسخرون بكلّ ذلك وينفثون في قلوب الأولاد الصغار الذين لا تزال قلوبهم صفحة بيضاء هذه السموم والضلالات، ومن سوء حظ أحدهم أن يجد نفسه أمام معلم ملحد، ينفث في روعه كلّ يوم كلمة الإلحاد عن طرق السخرية من الدين والمتدينين... أما في البلدان الإسلامية مثل بلادنا، وإن كانت الدولة إسلامية فإن المعلمين الذين يحملون فكرة الإلحاد ينفثونها في وسط الطلبة بمختلف الوسائل... ولقد كان المعلمون في عهد الدولة المستعمرة يدخلون في أفكار الشباب المسلم السخرية من النبي ﷺ وينعتونه بأوصاف قبيحة، وكثيرا ما نقل إلينا آباؤنا ما يسمعون من معلمهم، ولقد صار ذلك الطعن وتلك السخرية في هذا العصر أكثر، لأنهما صارا موجّهين إلى الله تعالى؛ إلى اعتقاد وجوده ووحدانيته، وهذه الفكرة أو هذه العقيدة وإن كانت ليست في برامج التعليم ولكنها أصبحت من تطوّعات المعلمين الملاحدة وتبرعاتهم في المناسبات التي

يحتلونها، أو من غير مناسبة، وهذا ما أصبح شائعاً في مختلف مراحل التعليم الثانوي والجامعي منه على الخصوص، وبخاصة أقسام الفلسفة، والفلسفة من أصعب الفنون، لأنها لا تبحث هذه المواضيع في الكون ومنشئه ومصيره، ومن كان غير محصّن بالدين كلّ التحصين، فلا بد أن تتسرّب إلى قلبه سوسة الإلحاد... ومن هنا وجب أن تكون هناك نهضة كبيرة لتثقيف الشباب المسلم، وتثبيت أصول الدين في نفوسهم، ومن هنا إذا بدأنا القول وأعدنا الكلام فلأتنا مضطرون للتحصين ولا تأخذ سور منيع بين أبنائنا وبين هذه الكفريات وهذا الإلحاد الذي يأتينا من كل جهة، ولقد صار إيمان عجائزنا اليوم أصح من إيمان كثير من الشباب الذين يعدّون أنفسهم مثقفين ولكن في قلوبهم شكوك وريب"¹.

ثم مثل لذلك ببعض المظاهر الشركية فقال: "نحن نرى اليوم أمثال هؤلاء يلتجئون إلى الحروز (أي: التمايم التي فيها أسماء الجن والشياطين التي يعلّقها صاحبها يقصد منها النفع ودفع الضر)، والبخور والجن لأن إيمانهم ضعيف... ولو كانت لهم عقول لفهموا أن هذا لا يضر ولا ينفع"².

ثانياً: الدعوة إلى إصلاح بعض الظواهر الأخلاقية الفاسدة في المجتمع: ومن أعظم ما تحدث عنه الشيخ بيوض بإسهاب ظاهرة: التبرج، هذه الظاهرة التي تظهر في مقابل أمر الله المرأة بالحجاب والستر لما في ذلك من تحصين لها وللرجل وللمجتمع، كيف لا والحق سبحانه وتعالى يقول ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيزٍ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ الأحزاب: ٥٩، فهذا النداء - كما ذهب إليه الشيخ بيوض - نداء صريح مضبوط، بحيث لا يمكن لمسلم ولا لغير مسلم أن يجد فيه مغمزا من حيث الشمول والعموم، فيحاول أن يخرج منه طائفة من المسلمات في أي زمان ومكان... فما من امرأة إلا وهي معنيّة بهذا الخطاب إلى أن تقوم الساعة، غير أن الأوضاع تغيّرت، فبدل أن يقوى ارتباط المؤمنات والمؤمنين هذا النص، قل، وقرب أن يأفل نوره وتتساءل: ما الشيء الذي يقوى على هدم هذه القاعدة الصلبة، والنص الصريح في الأمر بالحجاب، والصريح في عموم الخطاب لزوجات النبي ﷺ وبناته ونساء المؤمنين، والعمل الصريح المروي عن الصحابييات كلهن؟! فهل يمكن أن يكون فهما للقرآن ومعانية أحسن وأصوب وأدق وأولى من فهم الصحابة والصحابييات؟، خاصة في موضوع عملي يعمل به آناء الليل وأطراف النهار، في كل زمان ومكان"³.

¹ في رحاب القرآن، إبراهيم بيوض، (ص: 176).

² المصدر نفسه، (367/4).

³ المصدر نفسه، (607/12).

ويستمر الشيخ بيوض في التحذير والتوعية في موضوع التبرج ؛ فيذكر أن المصيبة الأدهى أن المرأة تريد أن تغيّر لباسها في يوم العرس عدة مرات: لباس للصباح، ولباس للظهيرة، ولباس للعشية، ولباس للسهرة، وهذا الذي سيؤدي إلى مالا تحمد عقباه، وكل هذا من فضول اللباس... ونحن لا ننكر على أحد أن يتخذ اللباس الجميل حسب رغبته، ولكن في حدود قدراته المشروعة، وكلّ شيء له حدّ، ومجاوزة الحد إسراف وتبذير، وقد نهانا الله تعالى عن التبذير وعواقبه في قوله تعالى ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ الإسراء: ٢٧.

الفرع الثالث: أسباب ضعف الأمة وسبيل قوتها:

وقد ذكر الشيخ بيوض عدّة مسائل تتعلق بهذا الموضوع واهتم به أيّما اهتمام فبيّن بعض أسباب ضعف الأمة، وأن طريق استرجاعها لقوتها إنما هو في القرآن الكريم، ومّا جاء عنه في ذلك:

أولاً: سبب تخلف المسلمين هو مخالفة أوامر الله تعالى: حيث بيّن الشيخ أن مخالفة الشريعة مهلكة للأمة واتباع الشريعة منجاة للأمة، فقال: "إن المسلمين بمخالفتهم أمر الله وارتكاب المعاصي لم يأخذوا من الإسلام إلا الجنسية، فهم مسلمون جغرافياً وليسوا مسلمين على الحقيقة، ولذا فهم لم يحققوا الجنديّة لله التي عنها يقول ﴿وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ الصافات: ١٧٣، والتي هي شرط النصر فكيف يرجون الغلبة وهم جند للشيطان؟؟" ¹.

ثانياً: تعدد سباب الاختلاف الداخلية والخارجية: حيث بين الشيخ أن القرآن الكريم حرص كلّ الحرص على إظهار وحدة الدين، وبيّن لنا في آيات كثيرة أن دين الله واحد لا يتعدّد، فما شرعه لآدم وبنيه الأولين هو ما شرعه للنبي ﷺ، وينهى في كثير من الآيات عن التفرق في الدين ².

ثم عدّد الشيخ صورا من أسباب الاختلاف داخليا بالنزاعات بين الطوائف، وخارجيا بتسلّل أهل العقائد الباطلة لإلقاء الشبه في الدين ، فقال: "في القرون الماضية دخلت عناصر في الإسلام من الذين يحملون عقائد ضالة قصدا لإفساد الإسلام، فاضطر بعض علماء المسلمين في تلك الأوقات للدخول معهم في جدال لدفع شبههم، فالمسلمون جرّوا إلى هذا جرّاً، ومن أسباب الخلاف: التنطّع في العلم وشهوة الردّ على المخالف بحق وبغير حقّ، بما يليق وبما لا يليق، كالذي حدث بين المعتزلة وخصومهم من أهل السنة" ³.

¹ في رحاب القرآن، إبراهيم بيوض، (596/14).

² المصدر نفسه، (153/5).

³ المصدر نفسه، (207/17).

ثالثاً: شيوخ الشرك في المجتمع: حيث تحدث الشيخ بيوض -منكراً- زيارة الناس لقبور الأولياء من التبرك والاستعانة بهم في جلب النفع ودفع الضرر، ومنه زيارتهم لزاوية "سيدي خالد" ليلة 27 رمضان لفعل الطقوس المعتادة، فقال: "يحق عليهم لعن النبي ﷺ، لأنهم صنعوا ما يضلون به الناس عن سبيل الله، فهم يحجّون إليها حجّاً، وقيمون فيها العادات والطقوس التي تقام في الحج، فتجد مكانا يطاق حوله كالكعبة، ومكانا فيه عين ماء يشرب منها كرمزم، ومكانا آخر للسعي... فهؤلاء جمعوا بين الكفر من جهتين: الكفر بالإشراك بالله، إذ يقولون: من كان له مريض فليأخذه إلى سيدي خالد فإنه يشفيه... ويتمثل الكفر من جهة أخرى في هذه الولايم التي تجمع كلّ المفاسد، إذ تأتي العواهر من دور البغاء ويجتمعن بالمئات ويختلط الرجال بالنساء، وتقام أسواق الخمر وأسواق الفسق، ويعتقدون أن هؤلاء مغفور لهم ببركة سيدي خالد"¹.

رابعاً: علاج المجتمع وحل مشاكله في القرآن: فبعد بيان الشيخ لأسباب تخلف الأمة وتدهور أحوالها، اقترح الحلول وبيّن أن صلاح الأمة إنّما يكون برجوعها لتعاليم القرآن الكريم وتوجيهاته، يقول في مقدمة درسه: "جرت عادتنا قبل اليوم بعشرات السنين أن نخصّص لرمضان دروساً مختارة بعد الدرس الأول الذي يكون في الصيام وما يتعلق به من أحكام، فنتطرق في كلّ ليلة إلى موضوع من المواضيع، ونوقف درس التفسير إلى ما بعد رمضان. ولكن الآية التي انتهينا إليها في سورة لقمان تشتمل على وصايا وأوامر ونواهي تتعلق بأصول الدين والأخلاق، وهي من المواضيع التي كانت تخصص لها ليالي من رمضان ولما وصلنا إلى هذه الآية من التفسير رأيت أن أواصل تفسيرها في رمضان لأمرين اثنين: أولهما: أن نريح خطوة في تفسير القرآن الذي لانزال بعيدين عن خاتمته، ثانيهما: أن أحسن ما يعتمد عليه في باب الوعظ والإرشاد إنّما هو كتاب الله تعالى، فهو الواعظ الناطق، كما سماه رسول الله في قوله: "تركت فيكم واعظين، ناطقاً وصامتاً، فالناطق القرآن، والصامت الموت"²، وهذه الآيات كلّها من وعظ لقمان لابنه، ومن أخبار الله تعالى، وحق أن يعتمد عليه في الوعظ في هذه المواضيع فلنبداً في تفسيرها على بركة الله أولاً بأول"³.

¹ في رحاب القرآن، إبراهيم بيوض، (125/13).

² ذكره ابن الجوزي بصيغة التمرّض في كتابه "بستان الواعظين ورياض السامعين"، برقم: 2، تحت عنوان: القرآن والموت واعظان، (ص: 160).

³ في رحاب القرآن، إبراهيم بيوض، (98-97/11).

الفرع الرابع: قضايا الأسرة:

من المعالم المهمة المتعلقة بالاتجاه الاجتماعي في التفسير؛ ما يتعلق بالحديث عن الأسرة وسبل ترقيتها والمحافظة على أفرادها، إذ يصلح المجتمع بها إن صلحت ويفسد إن فسدت، ومن المسائل التي جاءت عن الشيخ بيوض في هذا الموضوع ما يلي:

أولاً: الحث على تربية الأبناء تربية حسنة: من الأمور المهمة التي أطال الشيخ بيوض عنها الحديث واستفاض فيها أثناء درسه؛ ما يتعلق بتربية الأبناء، مستغلاً بذلك حضور فئات المجتمع المختلفة، ليستشعروا عظم المسؤولية الملقاة على عواتقهم، ولذلك قال: "فلحق الأولاد على الآباء جوانب متعددة، وكلها مما يجب أن يُستفاض فيها الحديث، وليس المهم هو الانتقال من موضوع إلى موضوع بقدر ما هو إعطاء كل موضوع حقه، ولا سيما المهم منها: كموضوع التربية، ولا يقولن أحد: لماذا قضينا هذه الدروس المتوالية في موضوع تربية البنين؟ ولكن هل هناك جانب أهم من هذا؟ وإن كان هناك جانب مهم اليوم، فإنما هو الاعتناء بتربية الأبناء بنين وبنات تربية دينية. وهنا أيضاً أرى تقديم هذا الحق على حق توجيه الغرائز، لأنه -والله أعلم- أول ما يجب أن تتوجه إليه العناية الأبوية، لتحصين الأولاد بالقرآن والصلاة والصيام ثم توجيه غرائزهم بعد ذلك" ¹.

ثانياً: التحذير من ظاهرة العزوف عن الزواج: لأنها أمر مخالف لطبيعة الإنسان وفطرته، وفي ذلك يقول: "ولكن هؤلاء العازفين إنما أمكن لهم العزوف عن الزواج، لأن باب الزنى مفتوح أمامهم على مصراعيه، ولا يستطيع أحد -وهو رجل- أن يصبر عن قضاء حاجته، إلا إذا كانت هنالك إرادة حديدية وإيمان قوي... وقد يظهر لأحدنا أن من تدبيره الحكيم أن لا يتزوج وهو فقير، ولكن هذا خطأ وقد أمر الله تعالى أن يعطى من أراد الزواج من مال الزكاة... ويقول الرسول ﷺ «النكاح من سنتي فمن رغب عن سنتي فليس مني» ²... وضلّت النساء الأيامي اللائي يتقدم لهن أكفاء فيرفضن، ويفضلن البقاء على العزوبة، وهن وإن ييقن عفيفات، ولكن إذا وجدن الزواج فليتزوجن، وإلا يكنّ راغبات عن سنة النبي ﷺ، والويل لمن قطع العلاقة بينه وبين سنة نبيه فأعرض عنها... وكلّ هذه الأدلة تحت الناس على احترام هذا الرباط المقدس في تكوين الأسر والعائلات" ³.

¹ المصدر السابق، (130/11-131).

² رواه البخاري في صحيحه، كتاب: النكاح، باب: الترغيب في النكاح، برقم: 4776.

³ في رحاب القرآن، إبراهيم بيوض، (90/6-91).

ثالثاً: ظاهرة سعي بعض الوالدين في التفريق بين زوجات أبنائهم: وهذه مسألة نبّه عليها مفسرنا لأنها دمّرت الأسر وشتّتتها في مجتمعه، فقال: "... ومّا نعاني من المشاكل الكثيرة أيضاً هو تدخل الآباء والأمهات من جهة الزوج أو من جهة الزوجة بين الزوجين. فبعد أن تتخطى مرحلة الاختيار، ويقع الوفاق بين الأبناء والآباء على الزوجين، ويتم الزواج سعيداً إذا بأحد الوالدين من الطرفين يسعى إلى التفريق بين الزوجين السعيدين لأتفه الأسباب، وإن هذا لعمرى هو البلاء المبين الذي أصبنا به...، أيعقل هذا؟ يمكن أن يصل أحد إلى هذه الحالة؟ إلى أن يطلق زوجته الأولى والثانية والثالثة إرضاء لأمه؟... ! إنا لا نظن أن الشريعة الإسلامية السمحة تقرّ ذا، فلطاعة الوالدين حدّ. ويتعجب من كثرة هذه المشاكل وتعقيدها ومن صعوبة الكلام فيها وعدم استطاعة المرء تلخيصه، أو اتخاذ حلّ عام مطلق فيه، فالقضايا مختلفة، ولكلّ حلّ خاص وفق الفهم الجيد، والإدراك المنصف" ¹.

رابعاً: الإسراف في النفقة في الكماليات: وهي ظاهرة شاعت عند طبقة من الناس التي تهتم برعاية الأسرة لا بتربيتها، فبالغت في النفقة بدعوى توفير الراحة للأسرة فوقعت في الإسراف خاصة في الأمور التي تعتبر كمالية لا ضرورية، يقول الشيخ أنّنا ما إذا ضيقنا الدائرة وعُدنا إلى حالتنا نحن فإننا نجد إسرافاً كبيراً، ولعلّه قلّ فينا من ينفق باعتدال ويقدر النفقات على قدر المداخيل، أو يراعي عواقب الدهر وتطورات الوقت، فلا شيء يدوم في الدنيا، لا النعيم ولا السرور، ولا الخصب ولا النفاذ. فقد يعقب النفاذ كساد، وارتفاع الأسعار انخفاض، قد يكثر العرض ويقل الطلب بعد أن كثر الطلب وقلّ العرض. هذا الذي يتحكّم في دواليب الاقتصاد ويعبرون عنه بقانون العرض والطلب... فيجب إذن وضع حدّ لهذا التسابق والتنافس اللذين يكونان بين النساء في الأعراس والحفلات، ونحن لا نقصد الذهب، لأنّ الذهب يحافظ على قيمته وقد يزيد، وإذا احتاجت المرأة باعته وأنفقت من قيمته على نفسها، وإذا ماتت نفذت منه وصيتها ولكننا نقصد اللباس الذي يلبى في أقرب وقت، وإذا لم يلب يصبح موضة قديمة، أي: نوعاً قديماً يستغني عنه ويجلب غيره - وختم الشيخ الحديث عن المسألة ببيان سبب استطراده فيها بقوله - وإذا أطلنا في هذه المسألة فذلك واجب علينا لأننا نرى الحالة الاقتصادية في تدهور" ².

هذه بعض المعالم التي وقفت عليها عند الشيخ بيوض في اعتنائه بالاتجاه الاجتماعي، وهي كفيلة بإعطاء صورة عامة عن اهتمامه بإبراز هذا الاتجاه لتحقيق غرضه الإصلاحية من التفسير.

¹ في رحاب القرآن، إبراهيم بيوض، (11/149-151).

² المصدر نفسه، (7/238-240).

المبحث الثالث: معالم الاتجاه الاجتماعي عند الشيخ أبي بكر جابر الجزائري من خلال تفسيره "أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير".

وسأحدث في هذا المبحث عن ملامح ومعالم من الاتجاه الاجتماعي في التفسير من خلال مدونة تفسيرية مهمة وهي "أيسر التفاسير"، لإمام من أئمة التفسير الجزائريين في العصر الحديث وهو الشيخ: أبو بكر جابر الجزائري، الذي نذر نفسه لخدمة القرآن الكريم وبيان معانيه واتخاذ الطريق الأول لإصلاح الأمة؛ فوفق لذلك أيما توفيق بسبب الأسلوب الماتع الذي دوّن به تفسيره. وذلك من خلال مطلبين هما:

المطلب الأول: ترجمة أبي بكر جابر الجزائري وتعريف بتفسيره "أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير".

المطلب الثاني: نماذج من معالم الاتجاه الاجتماعي في تفسير "أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير".
وتفصيلها كما يلي:

المطلب الأول: ترجمة أبي بكر جابر الجزائري وتعريف بتفسيره "أيسر التفاسير".

يعتبر الشيخ أبو بكر الجزائري من العلماء المعاصرين البارزين الذين جمعوا في علمهم بين المغاربة والمشاركة؛ وذلك نظرا للمراحل التي مرّ بها في تكوينه وحياته، ولذلك فقد ذاع صيته في المشرق والمغرب وكثرت مؤلفاته وكتب الله تعالى لها القبول في أنحاء العالم كله؛ ومن أعظمها "أيسر التفاسير" الذي ألفه فأبدع في تأليفه وتلقّته الأمة بالقبول لما تميّز به من ميزات جمعت بين الأصالة والمعاصرة¹، وفيما يلي حديث عن الشيخ وتفسيره في فرعين هما:

الفرع الأول: ترجمة الشيخ أبي بكر جابر الجزائري.

وستكون ترجمة مختصرة فيها بعض الجوانب من الحياة الشخصية والعلمية للشيخ، وبيانها:

أولاً: اسمه و نسبه: هو الشيخ أبو بكر جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر الجزائري، غلبت عليه الكنية فُعرف بأبي بكر الجزائري، واسم أبيه موسى بن عبد القادر بن جابر. وجابر جدّه الأكبر. وكنيته: أبو عبد الرحمن نسبة لولده. والشيخ من بني هلال أحد القبائل العربية التي خرجت من الجزيرة العربية واستقرت في إفريقيا واستوطنتها زمن الفتوحات، فهو عربي الأصل.

¹ مقال: الاتجاه الاجتماعي في تفسير أبي بكر جابر الجزائري "أيسر التفاسير" من خلال تنزيل الآيات على واقع المجتمع الإسلامي،

ط د: أمينة بوزيب و أد: عبد القادر شكيمة، مجلة : الشهاب، جامعة الوادي ، المجلد: 09، العدد: 03 (2023) ، الرابط:

<https://www.asjp.cerist.dz/en/article/233559>

ولد الشيخ بما يعرف بالذّشرة القديمة، وينتمي لعرش جابر المعروفين ببساطتهم وتعلقهم بالدين بقرية (ليوه) بكسر اللام مع المد، وفتح الواو ثم بعدها هاء، وهي قرية زراعية من قرى بسكرة، بينها وبين بسكرة أربعون كيلومترا، وكان مولده عام (1342هـ/1921م)، وقيل عام: 1340هـ، وتوفي والده في عامه الأول، فنشأ يتيما في حجر أمّه. وله ابن واحد وهو الدكتور: "عبد الرحمن" المدرّس بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، وله من البنات تسع، ومن الأحفاد والأسباط ما يفوق السّتين فردا¹.

ثانيا: نشأته ورحلاته في طلب للعلم: كانت أسرته من حقاظ القرية للقرآن الكريم يتوارثون ذلك، فنشأ في ذلك الجوّ المتديّن، فأشرفت أمّه على تعليمه وتحفيظه القرآن الكريم بعد وفاة أبيه، وغرست فيه الأخلاق الفاضلة، فأتمّ حفظ القرآن في سنّ السادسة عشر، أو الرابعة عشر، وكان له شرف إمامة الناس وعمره ست عشرة سنة، ثم أضاف إلى ذلك حفظ الآجرومية في النحو، ومنظومة ابن عاشر في الفقه المالكي، ومن ثمّ انتقل إلى بسكرة، فدرس على أحد شيوخها وهو الشيخ: نُعَيْم النُّعَيْمي²، وفي أثناء ذلك قدم قرية ليوة شيخ فاضل يسمى "عيسى معتوقي" فعاد إليها ليدرس عليه العربية والمنطق ومصطلح الحديث وأصول الفقه، وكان الشيخ قد دخل في هذه الفترة مرحلة الشباب، فرحل إلى العاصمة ليعمل مدرّسا في إحدى المدارس الأهلية، وهناك بدأت مرحلة جديدة في حياته، إذ جمع إلى عمله في التدريس مواصلة الدراسة على الشيخ الطيب العقبي³ الذي كانت له شهرة في ميادين العلم

¹ التفسير و المفسرون في غرب إفريقيا، د: محمد بن رزق بن طرهوني، (201/1-202).

² ولد نعيم النعيمي سنة: 1909م في سيدي خالد ببسكرة، حفظ القرآن صغيرا، وانتقل في رحلة وطنية من سنة: 1926 إلى 1936م جال فيها وسط البلاد وغربها، قصد الاحتكاك بالعلماء والوقوف على الكتب المنتشرة في المكتبات الخاصة والعامة، وفي سنة: 1947م استدعي للالتحاق ببيئة التدريس بمعهد ابن باديس بقسنطينة، وبعد قيام ثورة التحرير سنة: 1954م انضم إليها ونشط بين صفوفها، فكان صديقا للقائد: مصطفى بن بولعيد كما تعرّف على القائد: العربي بن مهيدي الذي تتلمذ على يديه وأعجب بدروسه، وأصيب في بعض المعارك مما استدعى نقله إلى تونس للمعالجة سنة: 1958م، واستغل فترة إقامته بها في الاستزادة من البحث والعلوم، ويذكر أنه أصيب بداء السكري لمدة ثلاث سنوات، وكُفّ بصره واعتراه شلل نصفي، إلى أن توفي سنة: 1973م. ينظر: مقال "جوانب من شخصية أديب الفقهاء الرّحالة الشيخ نعيم النعيمي"، موقع: عبد الحميد بن باديس رائد النهضة العلمية والفكرية بالجزائر، محمد بسكر، نشر في: 26/06/2014، الرابط: <https://binbadis.net/archives/864>. ومقال بعنوان: الشيخ نعيم النعيمي حياته وإسهاماته الفكرية والإصلاحية، بوطبة لخضر، مجلة المعرفة للبحوث والدراسات التاريخية، مج: 8، العدد الأول، أكتوبر 2022، الرابط: <https://asjp.cerist.dz/en/article/202966>.

³ هو: الطيّب بن محمّد بن إبراهيم بن الحاج صالح العُقَيْني نسبة إلى بلدة "سيدي عُقبة" التي تقع بولاية بسكرة، والتي ولد بها في: 1890/06/03م، نشأ في جو محافظ بعيد عن حضارة المستعمر وتقاليده، وبسبب ظلم المستعمر انتقلت أسرته مهاجرة لتستقرّ بالمدينة المنورة سنة 1314هـ، توفي والده وترى في حجر أمّه يتيما غريبا، فقرأ القرآن وتفرغ لطلب العلم على مشايخ المسجد النبوي

والإصلاح، فلزم دروسه في التفسير طوال سنوات، فكان لهذه الملازمة أثرها الكبير في شخصيته، إذ يعتبره من أفضل مشايخه والموجه الأكبر لسلوكه في النهج الإسلامي الصحيح¹.

ولقد شارك الشيخ في مختلف ألوان النشاط الإسلامي فعمل في (حزب البيان الجزائري)، ثم في (شباب الموحدين)، ومارس التعليم لكتاب الله مدة أربع سنوات، ثم في تعليم "الأحداث" من بنين وبنات لمدة أربع سنوات في العاصمة، وعمل في الصحافة فأنشأ مجلة (الداعي)، والتي لم يصدر منها سوى بضعة أعداد، وكانت كاسمها دعوة إلى توحيد الأحزاب والجمعيات الجزائرية، وبعد احتجاج (الداعي) أسندت إليه إدارة جريدة (اللواء) الناطقة بلسان شباب الموحدين، واستمر على إدارتها حتى ترك الجزائر مهاجرا إلى الحجاز في عام: 1372هـ، فقدم إلى مكة للحج والعمرة والزيارة، وكان قصده بعد أداء فريضة الحج الرجوع إلى بلده إلا أن الإخوة الجزائريين المهاجرين المقيمين بالمدينة حبّوا له البقاء للاستفادة، ولا سيما عمّه عيسى -رحمه الله- والذي كان محبّا للمدينة النبوية وتمتّى الموت بها، وقد استجاب الله دعاءه فتوفي بعد الحج مباشرة، فتأثر الشيخ بذلك في حبه للمدينة النبوية حتى صار من أعلامها، وهذه ثمرة الحب الصادق، فعزم على البقاء فيها وواصل بعد ذلك الأخذ على مشايخ المدينة؛ فلازم حلقة الشيخ عمر بري، والشيخ محمد الحافظ، وكذلك الشيخ محمد الخيال، ورئيس قضاتها وخطيب مسجدها الشيخ عبد العزيز بن صالح.

وفي عام: 1374هـ/1961م، نال الشهادة العالمية من كلية الشريعة بجامعة الرياض، وحصل على إجازة من رئاسة القضاة بمكة المكرمة للتدريس بالمسجد النبوي الشريف، فأصبحت له حلقة يدرس فيها تفسير القرآن الكريم والحديث الشريف وغير ذلك، وقد أمّ الناس به في صلاة العصر عام: 1413هـ،

فحصل منه قسطا وافرا، ثم عاد إلى الجزائر سنة: 1920م وقّرّ الشيخ الاستقرار في أرض الوطن، وسلوك مضمار الدعوة والتعليم، وقد تنوّع نشاطه التعليمي، وكان شاملا لجميع الطبقات. ولما تأسس نادي الترقّي في الجزائر العاصمة في جويلية سنة 1927م كان قد اشتهر، فاتصل به أهل النادي ليكون مشرفاً على النشاط فيه خطيباً ومدرّساً، فقبل عرضهم، والتحق بنادي الترقّي عام: 1929م، وعندما أنشأت جمعية العلماء المسلمين حضر المجلس التأسيسي في نادي الترقّي، وانتخب ضمن أعضاء مجلسها الإداري، وعيّن نائب الكاتب العام، وفي سنة 1953م مرض الشيخ وضعف، وكان قد أصيب بمرض السكري الذي ألزمه الفراش عام 1958م، وأجبره على ترك نشاطاته، حتى توفي -رحمه الله- في 21 ماي سنة 1961م. ينظر: موقع: سلف للبحوث والدراسات، إشراف: محمد بن إبراهيم السعيد، سلسلة "أعلام السلفية (18)" -ترجمة الطيب العقي-، الرابط: <https://salafcenter.org/3381>.

¹ التفسير و المفسرون في غرب إفريقيا، د: محمد بن رزق بن طهوني، (201/1-202).

عندما تأخر إمام المسجد الشيخ: عبد العزيز بن صالح، ولذا ذكره عبد الله بن أحمد العلاف في كتابه "أئمة الحرمين" تحت عنوان "مشايخ كان لهم شرف الإمامة في المسجد النبوي"¹.

ثالثا: شيوخه وتلاميذه: درس مفسرنا على المشايخ في بلاده الجزائر، وفي المدينة المنورة، ومن هؤلاء:

- أما في الجزائر فأبرزهم: الشيخ نعيم النعيمي، الشيخ عيسى معتوقي، الشيخ الطيب العقبي.
- وأما في المدينة المنورة فمنهم: الشيخ: عمر برّي، الشيخ: محمد الحافظ، الشيخ: محمد الخيال.
- وأما تلاميذه: فقد تخرج على يديه الكثير من طلاب الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية في مرحلتي الماجستير والدكتوراه في قسم التفسير، أما في كلية الشريعة بالجامعة، والمسجد النبوي الشريف فلا يُحصى عدد ذلك إلا الله، ومنهم: الأستاذ: عدنان بن عبد العزيز الخطيري، والشيخ: عبد الرحمن بن صدوق الجزائري، والشيخ: إدريس بن إبراهيم المغربي، والشيخ: حمزة بن حامد بن بشير القرعاني، والشيخ: عبد الله بن الشيخ محمد الأمين، والشيخ: حسام الدين عفانة، والشيخ: صالح المغامسي... وغيرهم كثير².

رابعا: وظائفه وأعماله: شغل الشيخ عدة مناصب خلال حياته، أهمها:

- 1- مدرسا بوزارة المعارف، وذلك في المدرسة المحمدية.
 - 2- مدرسا بدار الحديث المدنية.
 - 3- مدرسا بالجامعة الإسلامية التي كان له دور فعال في إنشائها، حيث دعى المسؤولين إلى بنائها، والتحق بها الشيخ، وبقي فيها حتى أحيل للتقاعد عام: 1406هـ.
 - 4- مدرسا وواعظا بالمسجد النبوي الشريف، ف قضى فيه أكثر من خمسين عاما.
 - 5- كان من الداعين إلى إنشاء رابطة العالم الإسلامي، وإذاعة القرآن الكريم.
- وقد عُرف الشيخ على نطاق واسع من أنحاء العالم في الحرم النبوي، ويعد كتابه "منهاج المسلم" من أكثر مصنفاته قبولا وانتشارا في البلدان العربية، كما اكتسب مكانة مهمة في الوسط الأكاديمي الشرعي من خلال عمله أستاذا بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة لأزيد من عشرين عاما³.

¹ كتاب "أئمة الحرمين -1436/1343هـ-"، عبد الله بن أحمد العلاف الغامدي، دار الطرفين للنشر والتوزيع، فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية، الطائف -المملكة العربية السعودية-، سنة: 1436هـ، (ص: 1088).

² التيسير اللغوي لمعاني القرآن بالتفسير والبيان لدى أبي بكر الجزائري من خلال كتابه-أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير-، حيزية

كروش، أفلام الهند، السنة الرابعة، العدد الرابع، (أكتوبر-ديسمبر 2019)، دراسات ومقالات.

³ المصدر نفسه، ص: ؟.

خامسا: وفاته وآثاره: توفي الشيخ في المدينة المنورة قبيل فجر الأربعاء 4 ذو الحجة 1439هـ / 15 أوت 2018م، عن عمر 97 عاما، بعد صراع مع المرض، وصُلِّي عليه صلاة الجنازة بعد صلاة الظهر في المسجد النبوي، ودفن في البقيع. فرحمه الله وجزاه خيرا على ما قدّم للإسلام والمسلمين.

وقد تنوعت آثاره ومؤلفاته وتمزت بسهولة الأسلوب وجزالة التركيب، فتأليفه إصلاحية دعوية لتقريب وتفهم الإسلام الصحيح الخالي من البدع. وقد قام بتأليف عدد كبير من المؤلفات، منها:

1- كتاب "منهاج المسلم"، وشمل عقائد وآداب وأخلاق وعبادات ومعاملات، وهو من أكثر مصنفاته قبولا وانتشارا في البلدان العربية.

2- كتاب "عقيدة المؤمن"، يشمل على أصول عقيدة المسلم جامع لفروعها.

3- كتاب "العلم والعلماء".

4- كتاب "نداءات الرحمن لأهل الإيمان".

5- كتاب "الإنصاف فيما قيل في المولد من الغلو والإجحاف".

6- كتاب "المرأة المسلمة".

7- كتاب "هذا الحبيب محمد ﷺ يا محب"، وهو كتاب في السيرة، جاء تكملة لكتابه الأول.

8- رسائل الجزائري: وتبلغ رسائل الشيخ أكثر من مائة رسالة إصلاحية هادفة جمعت معظمها في مجلدات خمس باسم "رسائل الجزائري"، وغيرها من المؤلفات.

9- كتاب "أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، وبهامشه: نهر الخير على أيسر التفاسير"¹.

الفرع الثاني: التعريف بكتاب "أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير" وبيان منهج مؤلفه فيه.

وسأعرف بهذا الكتاب من عدة جوانب تكون لنا تصوّرا شاملا عنه وهي:

أولا: اسمه وسبب تأليفه: اسم هذا التفسير هو "أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير" كما نصّ عليه صاحبه بقول: "وأخيرا أطالب كلّ مؤمن ومؤمنة يقرأ تفسيره هذا المسمى: بأيسر التفاسير لكلام الله العلي الكبير" أن يستغفر لي ويترحم عليّ هذا حقي عليه -اللهم وفقه لأدائه واغفر لي وله وارحمي وإياه وسائر المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات-"². وهو مطبوع في خمس مجلدات، ووضع له صاحبه

¹ ينظر مقال: الشيخ أبو بكر جابر الجزائري الواعظ، المصلح، الفقيه، المفسّر، د المسعود جمادي، مجلة الإحياء، المجلد 19، العدد 22، سبتمبر 2019م، (ص: 627-660)، الرابط: https://salafcenter.org/wp_content/uploads. وكتاب

"أئمة الحرمين -1436/1343هـ-"، عبد الله بن أحمد العلاف الغامدي، (ص: 1097-1098).

² أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، أبو بكر جابر الجزائري، (7/1).

حاشية سمّاها "نهر الخير" طبعت بهامشه، والتي جعلها كالتعليق على تفسيره، أضاف فيها بعض الزيادات؛ كالشواهد اللغوية، والآثار والأحاديث النبوية، وذكر الاختلاف الوارد في الآية ذات الوجوه، وغيرها من الفوائد التي رآها مناسبة، وذكرها في مقدمة تفسيره.

هذا وقد بين الشيخ -رحمه الله- السبب الداعي لكتابة هذا التفسير فقال: "هذا ونظراً لليقظة الإسلامية اليوم فقد تعيّن وضع تفسير سهل ميسّر يجمع بين المعنى المراد من كلام الله، وبين اللفظ القريب من فهم المسلم اليوم، تُبين فيه العقيدة السلفية المنجية، والأحكام الفقهية الضرورية، مع تربية ملكة التقوى في النفوس، بتحبيب الفضائل وتبغيز الرذائل، والحث على أداء الفرائض واتقاء المحارم، مع التجميل بالأخلاق القرآنية والتحلي بالآداب الربانية، وقد هممت بالقيام بهذا المتعين عدة مرات في ظرف سنوات..."¹.

ثانياً: مصادره: مصادر هذا التفسير أربعة ذكرها الشيخ في مقدمته وهي:

1- تفسير "جامع البيان في تفسير القرآن"، لابن جرير الطبري.

2- تفسير "الجلالين"، جلال الدين المحلى والسيوطي.

3- تفسير المراغي.

4- تفسير "تيسير الكريم الرحمن"، لعبد الرحمن بن ناصر السعدي².

ثالثاً: مميزات الكتاب ومنهجه فيه: بين الشيخ منهجه في مقدمة تفسيره بوضوح؛ وذكر أنّ مميزات هذا التفسير كثيرة هي:

1- الوسطية بين الاختصار المخل والتطويل الممل.

2- اتباع منهج السلف في العقائد والالتزام بعدم الخروج عن المذاهب الأربعة في الأحكام الفقهية.

3- إخلاؤه من الإسرائيليات صحيحها وسقيمها، إلا ما لا بد منه لفهم الآية الكريمة وكان مما تجوز روايته لحديث «وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج»³.

4- إغفال الخلافات التفسيرية والالتزام بما رجحه ابن جرير الطبري في تفسيره عند اختلاف المفسرين في معنى الآية، وقد لا يأخذ برأيه في بعض التوجيهات للآية.

¹ أسير التفاسير لكلام علي الكبير، أبو بكر جابر الجزائري، (7/1).

² المصدر نفسه، (7/1).

³ رواه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم: 3274.

5- إخلاء الكتاب من المسائل النحوية والبلاغية والشواهد العربية، وعدم التعرض للقراءات إلا للضرورة فيما يتوقف معنى الآية عليه.

6- بالنسبة للأحاديث فقد اقتصر على الصحيح والحسن، ولذا لم يعزها إلى مصادرها إلا نادرا.

7 - جاء تفسيره خاليا من ذكر الأقوال وإن كثرت والالتزام بالمعنى الراجح والذي عليه جمهور المفسرين من السلف، حتى إن القارئ لا يفهم أن هناك معنى غير الذي فهم من كلام ربه تعالى.

وهذه ميزة جليلة وذلك لحاجة جميع المسلمين إلى فكر إسلامي موحد صائب سليم، ولذا فقد جعل الكتاب دروسا منظمة متسقة فقد يجعل الآية الواحدة أو الآيتين أو أكثر درسا فيشرح كلماتها، ثم يبين معناها، ثم يذكر هدايتها المقصودة منها للاعتقاد والعمل¹.

المطلب الثاني: نماذج من معالم الاتجاه الاجتماعي في تفسير "أيسر التفاسير".

تميّز تفسير "أيسر التفاسير" في مادته العلمية بمزيج بين التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي، كما جمع في أسلوبه بين الأصالة والمعاصرة؛ ذلك أن الشيخ كان يفسر الآيات من جهة الأثر واللغة العربية ثم يختتمها بالهدايات التي هي روح الآيات وغاية التفسير، فكان يربطها بالمجتمع ويحاول علاج ما فسد في الأمة من خلالها، ولهذا برز عنده الاتجاه الاجتماعي بروزا واضحا خاصة فيما يذكره تحت عنوان "هداية الآيات"، ثم في حاشية "نهر الخير" التي أضافها لتفسيره وزاد فيها عدة فوائد واستدراكات، وفيما يلي بيان لبعض تلك المعالم، وجعلت كل واحد منها تحت فرع وهي:

الفرع الأول: تنزيل الآيات على الواقع:

تعددت المواضيع والمسائل التي نزل فيها الشيخ: أبو بكر جابر الجزائري، آيات القرآن الكريم على الواقع الذي كان يعيشه، ومن ذلك:

أولا: مسألة: كيفية إعداد القوة للجهاد وحكم أسرى فلسطين:

من المسائل التي اعتنى بها الشيخ ولم يهملها "القضية الفلسطينية"، حيث نزل بعض الآيات المتعلقة بالقضية وكان يسميها باسمها ويبحث على الاهتمام بها، ومن ذلك أنه لما فسر قوله تعالى ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ النساء: ٧٥، بين الشيخ وجوب تحرير الأسرى بفلسطين، وحث المؤمنين على القتال في سبيل الله حتى يُعبد الله وحده ويتخلص الأسرى

¹ هذا ملخص ما ذكره الشيخ في مقدمة تفسيره مبينا منهجه فيه، ينظر: أيسر التفاسير، أبو بكر جابر الجزائري، (7-6/1).

المسلمون من كيد العدو وتعذيبه، ثم إنَّ الشيخ بيّن حكم إبقاء الأسرى بفلسطين في يد الأعداء فقال: "الإجماع على وجوب تخليص الأسرى من المسلمين بالقتال أو بالمال، ولا يحل تركهم تحت الكافر يضطهدهم ويعذبهم من أجل دينهم. وفي الحديث الصحيح: «فُكُّوا العاني»¹ وهو الأسير، وسمي "العاني" لما يعانية من آلام وأتاع، والمسلمون اليوم أسرى تحت اليهود في فلسطين، والمسلمون تاركون لهم غير مهتمين بهم، وهو ذنب عظيم"².

كما حث الشيخ على إعداد العدة لقتال اليهود وغيرهم من الأعداء بحسب ما يناسب العصر من تطور في الآلات الحربية، وهذا لما فسر قوله تعالى ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ الأنفال: ٦٠، حيث قال: "من هداية الآيات: وجوب إعداد القوة، وهي في كلِّ زمان بحسبه؛ إن كانت في الماضي الرمح والسيف ورباط الخيل، فهي اليوم النفثة المقاتلة والصاروخ، والهدروجين والدبابة والغواصة، والبارجة"³. وقال في تفسيره لسورة العاديات: "الترغيب في الجهاد والإعداد له كالخيل أمس، ونفاث الطائرات اليوم"⁴.

ثانيا: مسألة: البنوك الربوية المعاصرة: وقد تحدث الشيخ عن قضية ربا البنوك المعاصرة في ثلاثة مواضع من تفسيره، ففي الموضع الأول منها: رد الشيخ أبو بكر الجزائري على من لم يعتبر البنوك المعاصرة بنوكا ربوية مثلها مثل ربا الجاهلية الحرم، وذلك لما فسر قوله تعالى ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرَ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ البقرة: ٥٨-٥٩، حيث ذكر الشيخ عدم امتثال بني إسرائيل لِمَا أمرهم الله به حين دُخِلَ بيت المقدس، حين أمرهم أن يدخلوا الباب سجدا ويقولوا حطة لذنوبنا، فخالفوا أمر الله بتغييرهم الفعل الذي أمروا به والقول الذي قيل لهم، فدخلوا الباب زاحفين على أستانهم قائلين: "حبة في شعيرة" فابتعدوا عن مراد الله. ثم نزل الشيخ الآية على قضية قديمة حديثة وهي "حرمة تأويل النصوص الشرعية للخروج بها عن مراد الشارع منها، ومثّل لها بمثال معاصر فيمن لم يعتبر معاملات

¹ رواه البخاري في صحيحه، كتاب: الأحكام، باب إجابة الحاكم الدعوة، رقم: 6752.

² أسير التفاسير لكلام علي الكبير، أبو بكر جابر الجزائري، (509/1).

³ المصدر نفسه، (325/2).

⁴ المصدر نفسه، (607/5).

البنوك المعاصرة معاملات ربوية فقال: "كتأويل الروافض، لفظ "بقرة" بعائشة رضي الله عنها في قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ البقرة: ٦٧، وتأويل بعض المعاصرين بأن ربا البنوك ليس هو ربا الجاهلية الحرام"¹.

وأما **الموضع الثاني** الذي تحدث فيه الشيخ عن البنوك المعاصرة فكانت عند تفسيره لقوله تعالى ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ البقرة: ٢٧٥، حيث بين الشيخ صفة المعاملة في ربا البنوك المعاصرة فقال: "وحقيقته أن يكون لك على المرء دين فإذا حلَّ أجله ولم يقدر على تسديده تقول له: أخر وزد. فتؤخره أجلاً وتزيد في رأس المال قدراً معيناً، هذا هو ربا الجاهلية، والعمل به اليوم في البنوك الربوية فيسلفون المرء مبلغاً إلى أجل ويزيدون قدراً آخر نحو العُشر أو أكثر أو أقل، والربا حرام بالكتاب والسنة والإجماع وسواء كان ربا فضل أو ربا نسيئة"².

وأما في **الموضع الثالث** فقد شدد الشيخ أبي بكر في ربا البنوك المعاصرة وجعله أشد من ربا الجاهلية، وذلك لما فسر قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ آل عمران: ١٣٠، حيث قال الشيخ: "ربا البنوك اليوم شر من ربا الجاهلية هو: أن يبيع الرجل أخاه شيئاً إلى أجل فإذا حلَّ الأجل ولم يجد سداداً قال له: أخر وزد، أما ربا البنوك فإنه يبيعه نقداً بنقد إلى أجل بزيادة فورية يسجلها عليه"³.

ومما سبق يظهر اعتناء الشيخ بقضية تنزيل الآيات على البنوك الربوية، واستغلاله لكل مناسبة تطرأ للتنبية على خطر التعامل معها بسبب التحايل، والرد على من يحرف الحقائق ويسميها بغير اسمها.

ثالثاً: سياسة الحكم في بلاد الكفر: وقد شبهها الشيخ أبو بكر بالحكم الفرعوني ونزل عليها الآيات

التي أخبرنا الله تعالى فيها بقصة فرعون وطريقة حكمه في الناس، ومن ذلك أنه لما فسر قوله تعالى ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِ نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ وَكَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ القصص: ٤، قال: "و قوله ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ أي: أهل تلك

¹ أسير التفاسير لكلام علي الكبير، أبو بكر جابر الجزائري، (60/1).

² المصدر نفسه، (268/1).

³ المصدر نفسه، (374/1).

البلاد المصرية {شيعاً} أي: طوائف فرّق بينها إبقاءً على ملكه، على قاعدة "فرق تسد" المذهب السياسي القائم الآن في بلاد الكفر والظلم"¹، فتشبيهاً لحالة حكم الكفار اليوم بحكم فرعون الغابر هو تنزيله للآيات على الواقع .

الفرع الثاني: مواجهة الأخطار الأخلاقية والفكرية التي تهدد الأمة:

من المسائل التي تحدث عنها مفسرنا وتدخل في الاتجاه الاجتماعي في التفسير؛ بعض الأخطار الأخلاقية والفكرية التي تهدد الأمة وتُهدِّبُ تَقْدِيسَهَا لغير الله تعالى، ومما ذكره الشيخ في ذلك:

أولاً: انسلاخ المسلمين من هويتهم وتأثرهم بالثقافات الغربية: وهذا نتيجة الغزو الفكري الذي يترأس جميع الأخطار التي تدهم الأمة، فقد جاءت الشريعة الإسلامية بتحريم تشبه المسلمين بالكفار عموماً وأهل الكتاب خصوصاً؛ سواء كان هذا التشبه في عباداتهم أو أعيادهم أو أزيائهم الخاصة بهم، قال ابن كثير: "وفيه تهديدٌ ووعيدٌ شديدٌ للأمة على اتباع طرائق اليهود والنصارى بعد ما علموا من القرآن والسنة - عياداً بالله من ذلك - فإن الخطاب للرسول والأمر لأئمة"². وقد ورد في هذا الموضوع حديث صريح وهو قول المصطفى ﷺ: «لَتَتَّبِعَنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذُوَ الْقُدَّةِ بِالْقُدَّةِ حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جَحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ: الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: فَمَنْ؟»³.

وعلة النهي: أن التشبه بهم يؤدي إلى اتباعهم حتى يصير مثلهم، قال ابن تيمية: "المشاركة في الهدي الظاهر تورث تناسبا وتشاكلا بين المتشابهين، يقود إلى موافقة ما في الأخلاق والأعمال، وهذا أمر محسوس؛ فإن اللباس ثياب أهل العلم يجد من نفسه نوع انضمام إليهم، واللباس لثياب الجند المقاتلة - مثلاً - يجد من نفسه نوع تخلّق بأخلاقهم، ويصير طبعه متقاضياً لذلك، إلا أن يمنعه مانع"⁴.

وقد تحدث الشيخ أبو بكر عن قضية تأثر المسلمين بالثقافات الغربية وتخليهم عن هويتهم، فبيّن حكمها وذلك لما فسر قوله تعالى ﴿وَمَنْ الْتَأَسَّ مِنْ يُجَادِلْ فِي اللَّهِ يَغْيِرْ عَلَيْهِمْ وَلَا هُدَى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾^٥ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان الشيطان

¹ أيسر التفاسير لكلام علي الكبير، أبو بكر جابر الجزائري، (52/4).

² تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (403/1).

³ رواه البخاري في صحيحه عن أبي سعيد، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم: 3456.

⁴ اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، ابن تيمية، ت، ناصر عبد الكريم العقل، دار عالم الكتب، بيروت، لبنان ط: 7، سنة: 1419هـ-1999م، (93/1).

يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢٠﴾ لقمان: ٢٠-٢١، حيث قال: "من هداية الآيات... حرمة التقليد في الباطل والشر والفساد، كتقليد بعض المسلمين اليوم للكفار في عاداتهم وأخلاقهم ومظاهر حياتهم"¹. كما تحدث عن مظهر من مظاهر الانسلاخ عن الهوية الإسلامية والذوبان في غيرها، وذلك بتحكيم قوانينهم الوضعية فقال: "ومّا يؤسف ويجزن أن المسلمين لما ابتلاهم الله باستعمار النصارى لهم كانوا كلّما استقلّ شعب أو إقليم طلب قانون الكافرين فحكم به المسلمين، وبنو إسرائيل لما استقلوا على يد موسى ذهب يأتيهم بقانون الرب ليحكمهم به"². فهذا التأثير كلّه ممّا يتسبب في تخلف المسلمين وشعورهم بالتبعية لغيرهم فلا يفكرون في التطور وتحسين ظروفهم.

ثانيا: الحذر من افتعال المتربصين بالأمة للأزمات: وذلك أن الأزمات المفتعلة تثير الشغب والفوضى في صفوف الأمة فتضعفها وتهدّد استقرارها، فكان لا بد من الحذر منها، وقد ذكر الشيخ أبو بكر هذه المسألة عند تفسيره لقوله تعالى ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْنَاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ البقرة: ١٤. ففي هذه الآية يخبر الله تعالى المؤمنين عن تحوّل قبلتهم من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة وهذا ما هوّل الكفار والمنافقين واليهود فقاموا بالإنكار والتهويل؛ فقال الشيخ: "من هداية الآيتين... الأراجيف وافتعال الأزمات وتحويل الأمور شأن الكفار إزاء المسلمين طوال الحياة، فعلى المؤمنين أن يثبتوا ولا يتزعزوا حتى يظهر الباطل وينكشف والزيف وتنتهي الفتنة"³. وهذا الذي ذكره الشيخ منهج رباني متين في التعامل مع الأزمات.

ثالثا: شدة بغض النصارى المعاصرين للمسلمين مقارنة بالنصارى الأوائل: حقد النصارى المعاصرين ومن قبلهم للمسلمين معروف عبر التاريخ؛ وعلامته الكبرى الحروب الصليبية التي قاموا بها ضد المسلمين، بخلاف النصارى زمن النبوة فقد كان إظهار بغضهم أخفّ من إظهار المعاصرين لبغضهم وحقدهم لأنهم كانوا منصفين، يقول ابن كثير: "الذين زعموا أنهم نصارى من أتباع المسيح وعلى منهاج إنجيله فيهم مودة للإسلام وأهله في الجملة، وما ذاك إلا لما في قلوبهم إذ كانوا على دين المسيح من الرقة والرأفة"⁴. ولذلك لما فسر الشيخ أبو بكر الجزائري قوله تعالى ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرَىٰ

¹ أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، أبو بكر جابر الجزائري، (211/4).

² المصدر نفسه، (55/1).

³ المصدر نفسه، (126/1).

⁴ تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (150/3).

ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَّيْنَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ المائدة: ٨٢، بين أن النصارى الأوائل كانوا من الذين يحملون في قلوبهم مودة اتجاه أهل الإسلام بسبب أن منهم قسيسيّين ورهباناً، فالقسيسون علماء بالكتاب رؤساء دينيون غالباً ما يؤثرون العدل والرحمة والخير على الظلم والقسوة والشر، والرهبان لانقطاعهم عن الدنيا وعدم رغبتهم فيها، ولكن حال هؤلاء جميعاً تغير في هذا الزمن ولذا حذر الشيخ منهم قائلاً: " ولذا لما عمّت المادية المجتمعات النصرانية وانتشر فيها الإلحاد والإباحية، قلت تلك المودة للمؤمنين إن لم تكن قد انقطعت"¹.

رابعا: الرد على من يطعن في الأحكام الشرعية: جاءت بعض الآيات القرآنية لتردّ الشبه التي تطرح حول الأحكام الشرعية من خلال بيان عللها وبعض حكمها التي شرّعت من أجلها؛ ومن ذلك آية القصاص التي جاءت فيها العبارة مجملة تشير إلى الحكم الكثيرة التي جاءت في قوله تعالى ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَأْتُلِي الْأَلْبَبُ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ البقرة: ١٧٩، فالآية بيّنت حكمة عظيمة وهي أنه إذا علم القاتل أنه إن قتل قُتل، أمسك وارتدع عن القتل، ففيه حياة للذي يهّم بقتله، وحياة للهام².

وانطلاقاً من ذلك فإن الردّ على الطاعنين في هذا الحكم أن يقال لهم: القصاص لم تختص به الشريعة الإسلامية فقط، بل كان معمولاً به حتى عند الأمم السابقة، إلا أن أنظمة الدول الغربية المعاصرة تنكره بشدة بدعوى منافاته للإنسانية زعموا. وهذا ما وضّحه الشيخ أبو بكر الجزائري أثناء تفسيره لقوله تعالى ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُون﴾ القصص: ٣٣، حيث ردّ على الطاعنين في هذا الحكم قائلاً: "يريد نفس القبطي الذي قتله خطأ أيام كان شاباً بمصر ﴿فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُون﴾ أي: يقتلوني به إن لم أُبَيّن لهم وأفهمهم حُجّتي... من هداية الآيات: بيان أن القصاص كان معروفاً معمولاً به عند أقدم الأمم، وجاءت الحضارة الغربية فأنكرته فتجرأ الناس على سفك الدماء وإزهاق الأرواح بصورة لم يسبق لها مثيل في تاريخ البشرية، ولذلك صح أن تسمى الخسارة البشرية بدل الحضارة الغربية"³.

الفرع الثالث: أسباب ضعف الأمة وسبيل قوتها:

وذكر الشيخ أبو بكر جابر الجزائري عدّة مسائل تتعلق بهذا الموضوع فيبين بعض أسباب ضعف الأمة الإسلامية، كما بيّن أن طريق استرجاعها لقوتها إنما هو بالقرآن الكريم، ومما جاء عنه في ذلك:

¹ أيسر التفاسير لكلام علي الكبير، أبو بكر جابر الجزائري، (5/2).

² الكشف والبيان عن تفسير القرآن، أبو إسحاق الثعلبي، (56/2).

³ أيسر التفاسير لكلام علي الكبير، أبو بكر جابر الجزائري، (73-72/4).

أولاً: الإعراض عن شرع الله والاحتكام للقوانين الوضعية: قضية تحكيم شريعة الله سبحانه في الأمة الإسلامية قضية فصل فيها القرآن بآيات صريحة فقال سبحانه ﴿إِنْ أَحْكَمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ يوسف: ٤٠، وقال تعالى ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ المائدة: ٤٤، فينبغي للمؤمنين أن يتحاكموا إلى شريعة الله في قوانينهم، لأن الحكم بغير ما أنزل الله من أعمال أهل الكفر، وأقل أحواله أن يكون كبيرة من الكبائر، وقد يكون كفراً ينقل عن الملة إذا اعتقد حله وجوازه¹.

ونظراً لأهمية هذه المسألة في إثبات هوية الأمة وتقدمها، فإن تركها وإهمالها يسهم في تخلف الأمة، ولذا فإن الشيخ أبا بكر الجزائري لما فسر قوله تعالى ﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ البقرة: ٢١١ - ٢١٢، بين أن استبدال شريعة الله بالقوانين الوضعية من كفران النعم وهو سبب تخلف الأمة فقال: "من هداية الآيتين: التحذير من كفر النعم لما يترتب على ذلك من أليم العذاب وشديد العقاب، ومن أجل النعم: نعمة الإسلام، فمن كفر به وأعرض عنه فقد تعرض لأشد العقوبات وأقساها، وما حلّ ببني إسرائيل من ألوان الهون والدون دهرًا طويلاً شاهد قوي، وما حلّ بالمسلمين يوم أعرضوا عن الإسلام واستبدلوا به الخرافات ثم القوانين الوضعية شاهد أكبر أيضاً"².

ثانياً: التفرق والاختلاف: من أهم الأمور التي تتسبب في تخلف أمة الإسلام عن غيرها من الأمم؛ اختلاف المنتسبين إليها فيما بينهم سواء في أمر دينهم أو أمر دنياهم، ولذلك فقد نهى القرآن الكريم أمة الإسلام عن التفرق وأمرها بالاجتماع كما في قوله تعالى ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا^٤ وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ آل عمران: ١٠٣، فقد أمر الله تعالى في الآية بالألفة ونهى عن الفرقة لأن الفرقة هلكة والجماعة نجاة³. وقد بين الشيخ أبو بكر الجزائري في عدة مواضع من تفسيره أن سبب هلاك الأمة وتخلّفها في العصر الحديث إنما هو: تفرق

¹ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، ت: عبد الرحمن بن معلا اللّوحي، مؤسسة الرسالة، ط:

1، سنة: 1420هـ/2000 م، (ص: 233).

² أيسر التفاسير لكلام علي الكبير، أبو بكر جابر الجزائري، (19/1).

³ الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله القرطبي، ت: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط: 2، سنة:

1384هـ-1964م. (159/4).

أبنائها، ومن تلك المواضع أنه عندما فسر الآية السابقة قال في تفسيرها: "في الآية حرمة التفرق في الدين، ومنه: التفرق في الحكم، فكلاهما محرّم لِمَا يُفْضِي بالمتفرقين إلى الهلاك والخسران. عرف هذا أعداء الإسلام فعملوا على تفرقة أمة الإسلام، وفرقوها مذاهب وطوائف ثم دويلات وحكومات، ثم أذلّوها وأهانوها"¹.

كما ذكر هذا السبب ومساهمة في تخلف المسلمين عندما فسر قوله تعالى ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾ البقرة: ٢١٣، حيث قال: "من هداية الآية... من علامات خذلان الأمة وتعرضها للخسار والدمار أن تختلف في كتابها ودينها، فيحرفون كلام الله ويبدّلون شرائعه طلبا للرئاسة وجريا وراء الأهواء والعصبيات، وهذا الذي تعاني منه أمة الإسلام اليوم وقبل اليوم، وكان سبب دمار بني إسرائيل"².

من خلال هذين النصين نستنبط أن الشيخ أبا بكر تنبّه إلى ما يكيد به أعداء الإسلام لهذه الأمة سعيا وراء تخلفها، فأكبر وسيلة تحقق لهم ذلك هي التفريق بين أبنائها لتذهب قوتها. **ثالثا: انتشار الجهل:** الجهل مصيبة المصائب وآفة الآفات في المجتمعات، فإذا حلّ الجهل بأمة من الأمم، لا يكون مصيرها إلا الهلاك والبوار، لأنها لا تستطيع على شيء، وعندها ستكون عرضة لبغي الأعداء. ولذلك ينبغي للأمة أن تهتم بالعلم وتحارب الجهل بأنواعه حتى تكون في مقدمة الأمم³.

وانطلاقا من ذلك فإن الشيخ أبا بكر الجزائري تنبّه في تفسيره على مسألة تسبّب الجهل في تخلف المسلمين؛ لأن هذا السبب يأتي على رأس أسباب الهلاك جميعها، وقد قسم الشيخ الجهل المتسبب في تخلف المسلمين إلى قسمين: جهل في أمور الدين وجهل في أمور الدنيا.

أما النوع الأول: وهو الجهل بالدين، فقد ذكره لما فسر قوله تعالى ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الروم: ٥٩، حيث قال: "في هذه الآية إنذار خطير للجهال وتنديد بالجهل، إذ أهله لا

¹ أيسر التفاسير لكلام علي الكبير، أبو بكر جابر الجزائري، (355/1).

² المصدر نفسه، (193/1).

³ مقال بعنوان "آفة الجهل"، د: حامد شاعر العاني، نشر في موقع الألوكة، بتاريخ: 8/11/2014، الرابط:

: <https://www.alukah.net/social/0/78185/%D8%A2%D9%81%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%AC%D9%87%D9%84/#ixzz7xRgyqAYn>

يفهمون عن الله ولا يهتدون إلى سبل الخير وطريق السعادة والكمال ولذا أوجب الرسول ﷺ طلب العلم على كل مسلم في قوله: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»¹، وما أصاب المسلمين ما أصابهم من خوف وهون ودون إلا نتيجة لجهلهم بربهم ومحابته ومكارهه وضروب عباداته وكيفيات أدائها لتزكو بها نفوسهم وتطهر أرواحهم وقلوبهم»².

أما النوع الثاني المتسبب في تخلف المسلمين: وهو الجهل بأمور الدنيا وأسباب القوة فإن الشيخ تحدّث عنه لما فسّر قوله تعالى ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ الأعراف: ٣٢، حيث قال: "من هداية الآيات... المستلذات من الطعام والشراب والمزيّنات من الثياب وغيرها، المؤمنون أولى بها من غيرهم لأنهم يحسنون العمل، ويبدلون الجهد لاستخراجها والانتفاع بها، بخلاف أهل الجهالات فإنهم غمي لا يبصرون ومقعدون لا يتحركون. وإن قيل: العكس هو الصحيح؛ فإن أُمم الكفر وأوربا وأمريكا هي التي تقدمت صناعيًا وتمتعت بما يتمتع به المؤمنون؟، فالجواب: أن المؤمنين صُرفوا عن العلم والعمل وأُفعدوا عن الإنتاج والاختراع بإفساد أعدائهم لهم عقولهم وعقائدهم، فعوّقوهم عن العمل مكرًا بهم وخداعًا لهم، والدليل: أن المؤمنين لما كانوا كاملين في إيمانهم كانوا أرقى الأمم وأكملها حضارة وطمهارة وقوة وإنتاجًا مع أن الآية تقول ﴿لِقَوْمٍ يَعْمُونَ﴾ فإذا حل الجهل محلّ العلم فلا إنتاج ولا اختراع ولا حضارة"³.

ويقول في موضع آخر أيضا لما فسّر قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ الأنفال: 65، قال: "قوله ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي: لا يفقهون أسرار القتال، وهي أن يُعبد الله تعالى ويُرفع الظلم من الأرض فالكافرون لا يفقهون هذا فلذا هم لا يصبرون على القتال لأنهم يقاتلون لأجل حياتهم فقط، زيادة على ذلك أنهم جُهل لا يعرفون أساليب الحرب ولا وسائلها الناجعة، بخلاف المؤمنين فإنهم علماء، علماء بكلّ شيء هذا هو المفروض، وإن ضَعُف الإيمان ضَعُف تبعًا له الفقه والعلم وحلّ الجهل والضعف كما هو مُشاهد اليوم في المسلمين"⁴.

¹ رواه ابن ماجه في سننه عن أنس بن مالك، في افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، برقم: 224.

² أيسر التفاسير لكلام علي الكبير، أبو بكر جابر الجزائري، (195/4).

³ المصدر نفسه، (168/2).

⁴ المصدر نفسه، (327/2).

رابعا: الهلاك والدمار في طاعة اليهود والنصارى وموالاتهم: وقد أثبتت الشريعة والتجربة أن من أهم أسباب تخلف الأمة؛ تبعيتها وطاعتها لأعدائها خاصة اليهود والنصارى، ولذا فإن مفسرنا تحدّث عن ذلك لما فسر قوله تعالى ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ﴾ آل عمران: ١٠٠، فهذه الآية نزلت في شاس بن قيس شديد الضغن على المسلمين، الذي مرّ بنفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج، في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه، فغاضه ما رأى من إلفتهم وصلاح ذات بينهم، فأمر فتى شابا من يهود وقال: اعمد إليهم، ثم ذكرهم يوم بُعث وما كان، فتكلم القوم عند ذلك فتنازعوا وتفاخروا حتى تواتب رجالان وكاد الناس يتقاتلون على ذلك، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج إليهم حتى جاءهم فقال: "يا معشر المسلمين الله الله أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟..." فأنزل الله هذه الآية¹. لما ذكر الشيخ أبو بكر هذه الآية بيّن أن مضمونها باق إلى قيام الساعة لأن الحكم يدور مع علته وجودا وعدما فقال: "العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فطاعة أعداء الإسلام من اليهود والنصارى كانت وما زالت سبب دمار أمة الإسلام"².

الفرع الرابع: قضايا الأسرة:

من المعالم المهمة المتعلقة بالاتجاه الاجتماعي في التفسير؛ ما يتعلق بالحديث عن الأسرة فبصلاحها يصلح المجتمع وبفسادها يفسد المجتمع، ومن المسائل التي جاءت عن الشيخ أبي بكر في الموضوع:

مسألة: تحديد النسل: هذه الظاهرة التي انتشرت في البلدان الغربية الكافرة، حيث تدعو المتزوجين إلى إنجاب عدد محدّد من الأولاد لا ينبغي تجاوزه، لرعمهم أن هذا يؤمّن حياة راقية في شتى المجالات: الاقتصادية والاجتماعية وغيرها، وللأسف الشديد فإن هذا المفهوم الباطل انتشر لدى الكثير من الأسر المسلمة. ولما تحدّث الشيخ أبو بكر عن هذه الظاهرة بيّن بطلانها وخطورتها على الأمة وذلك أثناء تفسيره لقوله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَاءُهُمْ لِيُرْذَوْهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ الأنعام: ١٣٧، فهذه الآية ذُكر فيها قتل المشركين لأولادهم بالوَاد والذبح قربانا إلى الأصنام وخوفاً من الجوع أو

¹ العجّاب في بيان الأسباب، ابن حجر العسقلاني، ت: عبدالحكيم محمد الأنيس، دار ابن الجوزي، الدمام، السعودية، ط: 1، سنة: 1997م، (722/2).

² أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، أبو بكر جابر الجزائري، (353/1).

من العار، وكانوا يقتلون البنات دون البنين¹. فلما فسّر الشيخ أبو بكر الجزائري الآية، قاس عليها ظاهرة تحديد النسل التي انتشرت بين مختلف المجتمعات المعاصرة فقال: "وتحديد النسل اليوم وإلزام الأمة به من بعض الحكّام، من عمل أهل الجاهلية الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم كقتل البنات خشية العار والأولاد خشية الفقر"².

كما استدلل الشيخ على هذه المسألة بما صدر عن فرعون حين أمر بقتل أولاد بني إسرائيل وذلك في تفسيره لقوله تعالى ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ القصص: ٤، حيث قال: "فاستعمل طريقة تقليدهم والحد من كثرتهم بذبح الأولاد الذكور منهم وإبقاء الإناث منهم وهي سياسة تشبه تحديد النسل اليوم التي يستعملها المالكون اليوم وهم لا يشعرون"³.

¹ التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي الغرناطي، ت: الدكتور عبد الله الخالدي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ط: 1، سنة: 1416هـ، (276/1)، والبحر المديد، ابن عجيبة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 2، سنة: 2002م، (209/2).

² أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، أبو بكر جابر الجزائري، (127/2-128).

³ المصدر نفسه، (52/4).

المبحث الرابع: معالم الاتجاه الاجتماعي عند الأستاذ كعباش من خلال تفسيره "نفحات الرحمن في رياض القرآن".

وسأحدث في هذا المبحث عن ملامح ومعالم من الاتجاه الاجتماعي في التفسير عند علم من أعلام الإباضية المعاصرين والذي لا يزال على قيد الحياة وهو الأستاذ: محمد كعباش، وذلك من خلال مدونته التفسيرية التي عنوانها بـ "نفحات الرحمن في رياض القرآن"، والأستاذ كعباش يعتبر من أبرز أعلام الإباضية في الوقت الحالي، وتفسيره من أكبر تفاسيرهم وأضخمها حجما، ولا شك أن الأستاذ كعباش عايش مشاكل الأمة وهومها ولا يزال يعايشها ولذا سال قلمه في تفسيره تشخيصا للداء ووصفا للدواء، فكان لتفسيره ميزة عن غيره تستدعي تتبّع معالم الاتجاه الاجتماعي فيه، وسيكون الحديث عن ذلك من خلال مطلبين هما:

المطلب الأول: ترجمة الأستاذ كعباش وتعريف بتفسيره "نفحات الرحمن في رياض القرآن".

المطلب الثاني: نماذج من معالم الاتجاه الاجتماعي في تفسير "نفحات الرحمن في رياض القرآن".
وتفصيلهما كما يلي:

المطلب الأول: ترجمة الأستاذ محمد سعيد كعباش وتعريف بتفسيره "نفحات الرحمن":

يعتبر الأستاذ كعباش الوحيد الذي لا يزال على قيد الحياة من بين المفسرين الجزائريين الذين تم اختيارهم في هذا الفصل، وهو يعتبر اليوم من أبرز أعلام الإباضية الذين جمعوا بين الدراسة الأكاديمية والأصلية، كما تميز الأستاذ بتنوع مؤلفاته والتي من أعظمها تفسيره "نفحات الرحمن" الذي يعتبر من أضخم تفاسير الإباضية، ولذلك استحققت هذه الشخصية أن يسلط عليها الضوء مع التفسير، وفيما يلي بيان لذلك من خلال فرعين هما:

الفرع الأول: ترجمة للأستاذ محمد سعيد كعباش.

وستكون ترجمة مختصرة فيها بعض الجوانب من الحياة الشخصية والعلمية، وذلك في النقاط الآتية:

أولاً: اسمه ونسبه: هو محمد بن إبراهيم سعيد المعروف بـ (كعباش)، ولد سنة 1929م، بقصر العطف ولاية غرداية، في حضن أبوين كريمين هما: سعيد إبراهيم بن باحمد، وبهون شيخة بنت الحاج محمد؛ وآل سعيد فرع أصيل من عشيرة أولاد باكة في بلدة العطف إحدى قرى وادي ميزاب السبع، وتسمى باللغة المحلية (تجنينت). توفي والده وتركه يتيما فقيرا لا يزيد عمره عن سنتين، وليس معه إلا أختان، توفيت إحداهما فأصبح قرّة عين أمّه.

ثانيا: نشأته وطلبه للعلم: ترعرع الشيخ كعباش فقيرا تحت نيران الحكم الاستعماري الغاشم، وقد اعتنت أمه بتربيته على حب الله ورسوله ﷺ وعلى حفظ كتاب الله في سن مبكرة، وقد وهبه الله ذاكرة قوية وذكاء لامعا، فدفعته إلى كتاب القرية ليتعلم مبادئ القراءة والكتابة، وكان أبرز معلميه آنذاك شيخه المرحوم: الحاج إبراهيم محمد بن بهون والذي ترك في نفسه أثرا قويا وحبا غامرا للعلم والمعرفة. ثم التحق بالمدرسة الفرنسية الوحيدة في قريته حيث درس فيها سبع سنوات، تلقى فيها المبادئ الأساسية التي كانت تُعَلَّم في تلك المدارس.

وكان شغوبا باللغة العربية وتعلم القرآن الكريم منذ نعومة أظفاره، فختم القرآن في العاشرة من عمره، وأخذ يكرره استعدادا لحفظه كاملا، لكن ظروفه الاجتماعية القاسية وطبيعة الحياة الشحيحة آنذاك زقت به صغيرا ضعيف البنية إلى سوق العمل في الشمال، فعمل أجيرا مدة خمس سنوات من سنة: 1940م إلى سنة: 1945م، إبان الحرب العالمية الثانية، في كل من المدن الآتية: الجلفة، والحراش بالجزائر العاصمة، ثم مسعد في السهوب.

ثم عاد إلى وادي ميزاب وأدرك جولة الشيخ الإمام بيوض إبراهيم الإصلاحية في قصور الوادي، بعد أن رفع الاستعمار الحجر الذي فرضه عليه طيلة الحرب العالمية الثانية، وكان ذا حظ إذ تكفل به بعض المحسنين من العطف للالتحاق بمعهد الشباب (معهد الحياة الحالي) بالقرارة الذي أسسه رائد النهضة الإصلاحية بوادي ميزاب الشيخ إبراهيم بيوض، ومكث فيه خمس سنوات من عام: 1945 إلى عام: 1950م، حيث استظهر القرآن الكريم، وأتم دراسته الثانوية خلال خمس سنوات، وتكون في دروس اللغة والبلاغة ليلتحق بالسنة الأولى، وكان تلميذا متفوقا مَهْمًا مُقْبِلًا على العلوم بأنواعها، عضوا بارزا في النشاط الثقافي الذي كان طلاب المعهد ينظمونه تحت رعاية الشيخ بيوض.

وانتقل بعدها إلى تونس الخضراء، حيث التحق بالجامع الزيتوني أين درس علوم العربية والشريعة، وبالمعهد الخلدوني أين درس العلوم التطبيقية، وذلك إلى غاية سنة: 1954¹.

وقد تتلمذ هنالك على يد علماء تونس الفطاحل من أمثال: الشيخ: الفاضل بن عاشور، والشيخ: محمد الزغواني في "التفسير"، والشيخ: البشير النيفر في "أحكام القرآن"، والشيخ: اللقاني في "مقاصد الشريعة"، والشيخ: أحمد بن ميلاد في "أصول الفقه"، وغيرهم. ثم انتسب لاحقا إلى جامعة الجزائر في أوائل السبعينيات أين حصل على شهادة الليسانس في اللغة والأدب العربي سنة: 1972م.

¹ موسوعة العلماء والأدباء، مجموعة من الأساتذة، إشراف: رابح خدوسي، (2-459).

ثالثاً: أعماله ووظائفه: عند عودته إلى الوطن مع بداية الثورة المباركة سنة: 1954م، انخرط في جمعية النهضة، حيث بدأ حياته المهنية بخطوة جبارة، بمباركة وتشجيع من رئيس الجمعية الشيخ المؤرخ الحاج سليمان بن يوسف رحمه الله، معلماً للبنات بمدرسة النهضة، حيث ساهم بفاعلية في تطوير أساليب التعليم والمناهج التربوية، بمسقط رأسه، وأدخل التعليم المهني للبنات، وأقام المعارض لإنتاجهن لإقناع الأهالي بضرورة تعليم الفتاة الذي كان يواجهه معارضة شديدة آنذاك في كل قرى الوادي.

كان إيمانه راسخاً بنجاح الثورة وانتزاع الاستقلال بحول الله، فشارك منذ سنة: 1956م بنضاله، وأسهم بفاعلية في الجهاد في سبيل الله، فجعل مدرسة النهضة مركزاً هاماً ونقطة عبور استراتيجية لتحرك فلول المجاهدين والإمداد في منطقة وادي ميزاب خصوصاً والجنوب الكبير عموماً، ولا ينسى عمله النضالي في المجلس البلدي السري للمنطقة الخامسة للولاية السادسة التاريخية، وكان من الطلائع الأولى لحزب جبهة التحرير الوطني مع شروق فجر الاستقلال، إيماناً منه بمعركة البناء والتشييد.

كما يُذكر في سيرة الشيخ كعباش أنه التحق بحلقة العزابة في سن مبكرة وهو ابن ثلاثين ربيعاً، وذلك بالمسجد الجامع للعطف سنة: 1958م، فعقد العزم على نهج منهج الإصلاح والتغيير بحكمته وتواضعه المشهودين، فتمّ تجديد المسجد العتيق بالعطف تجديداً كلياً ليقوم بمهامه الجسام على أحسن ما يرام. ومن أعماله أيضاً: أنه عمل أستاذاً في التعليم الرسمي منذ الاستقلال، فالتحق بدايةً بالتعليم المتوسط فالثانوي، ثم عُيّن مديراً لإحدى الإكماليات ببني يزجن (إكمالية الشيخ عبد العزيز الثميني)، ثم بالعطف، واستمرّ في وظيفته الرسمية إلى تقاعده سنة: 1990م¹.

وأما عن أعظم أعماله العلمية: فإنه بعد أن عُيّن الشيخ كعباش مرشداً وإماماً خطيباً للجمعة سنة: 1970م، بدأ ينتقي لجمهور الآباء والأمهات من عمّار المسجد العتيق بعض السور القصار لتفسيرها وبيان فضلها ومعانيها، والتي يؤدّي بها الجمهور صلواته، ثم تدرّج بعد ذلك إلى تفسير السور القرآنية التي تُتلى في المناسبات المختلفة كسورتي "ياسين" و"الأنعام" بوتيرة درسين في الأسبوع، درس للتفسير وآخر لشرح مسند الإمام الربيع بن حبيب، وبعد إتمام تفسير هذه السور شرع بعون الله وتأييده في تفسير القرآن الكريم من سورة الفاتحة نزولاً إلى سورة الناس وذلك في دروس منتظمة إلقاءً وتحريراً ابتداءً من سنة: 1985م، وسمّاه "نفحات الرحمن في رياض القرآن"، إلى أن أتمّ بعون الله وتوفيقه تفسير سورة

¹ موقع: المكتبة الجزائرية الشاملة، إشراف: عمار رقية الشرفي، مقال: بعنوان: ترجمة المفسر محمد سعيد كعباش الجزائري،

بتاريخ: السبت 9 سبتمبر 2017، الرابط: <https://shamela-dz.net/?p=638>.

الناس يوم الجمعة 01 جمادى الأولى 1436هـ الموافق لـ: 20 من فبراير 2015م، فأتمّ هذا التفسير في أربعة عشر مجلدا، مشفوعة بفهارس فنية متنوعة¹.

كما يذكر عن الشيخ أنه أنشأ سنة: 2004م مكتبته الخاصة "مكتبة التوفيق" المتنوعة المصادر، وكان من مهامها: احتضان لجنة الفتوى بالبلدة، وكان يرأسها الشيخ منذ انبعاثها سنة: 2002م، وهي تجتمع كلّ أربعاء للنظر في أسئلة الجمهور والرد على استفساراتهم الشرعية المختلفة.

كما تقلّد بعد الاستقلال مناصب إدارية محلية لمدة عشر سنوات، ويتشرف بعضوية منظمة المجاهدين دون من ولا غرور، فضلاً عن تقلّده لمسؤولية تمثيل بلده في كلّ من مجلسي: الشيخ عمي سعيد (الهيئة العليا لإباضية الجزائر)، والشيخ: باعبد الرحمن الكرتي (الهيئة العليا لعشائر أعيان وادي مزاب)، وتربطه إلى جانب ذلك علاقات ودّ مع علماء جزائريين عديدين وعلماء من مختلف أقطار العالم الإسلامي.

وفي ختام ترجمة الشيخ، نسوق كلاماً له ختم به ترجمته لنفسه في كتابه "جيل النهضة والإصلاح"، حيث قال: "... قد حملت لبلادي بين جوانحي منذ نعومة أظفاري حبّاً غامراً، وأملاً فيأضاً أن أمنحه من جهدي وعزقي ما يُثبت أركانه، ويُعلي بنيانه، ويرفع شأنه، ورجائي في الله أنّي وقّيت بما تعهّدت، وقمت بما استطعت، ويعلم الله أنّي ما طلبت زعامة، ولا انتظرت شكراً ومحمدة، بل كلّ ما أرجوه من أبنائي ورفاقي هو شرف الأحدث، وكرم الإنصاف، وحُسن الذكر، تحقيقاً لما تمثّلْتُ به من قول الشاعر: وما خاب بين الله والناس عامل له في التقى أو في المحامد سوق².

رابعا: آثاره ومؤلفاته: تنوع الإنتاج العلمي للشيخ كعباش بين عدة علوم، وأهم ما أنتجه ما يلي:

- 1- تفسير: «نفحات الرحمن في رياض القرآن»، في 14 مجلداً، وسيأتي الحديث عنه.
- 2- له مذكرات قيّمة تفوق 6000 صفحة دوّن فيها أحداثاً وشواهد على عصره ومحطات في حياته.
- 3- قرض الشعر منذ الصغر معبراً عن محتلجات صدره وأنات ضميره الوطني الجياش.
- 4- "شرح الصدور" تفسير لسورة النور.
- 5- صوت المنبر (خطب).
- 6- من أخلاق القرآن صفات عباد الرحمن.

¹ رسالة الدكتوراه: اتجاهات التفسير في الجزائر في العصر الحديث: التواتي وكعباش أنموذجاً، إبراهيم، محفوظ حاج، رسالة دكتوراه، جامعة اليرموك، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، الأردن، سنة: 2018، (ص: 80-81).

² ترجمة الشيخ كعباش من موقعه المسمى "موقع فضيلة الشيخ: محمد بن إبراهيم سعيد كعباش"، الرابط:

7- صرخات على مسرح المجتمع.

8- جيل النهضة والإصلاح.

9- الدر النظيم في فعاليات التكريم والتدشين.

وما يزال الأستاذ يواصل مشواره بخطى واثقة، ورؤى واضحة، على دروب الدعوة والوعظ والإرشاد، مقتفيا آثار نور القرآن، وومضات السنة النبوية الشريفة، ومتابعا مهتما لقضايا عصره، ومجتهدا نصوحا لإيجاد الحلول المناسبة لكل الصور الاجتماعية السلبية في زمانه¹.

الفرع الثاني: تعريف بتفسير "نفحات الرحمن في رياض القرآن" وبيان منهج مؤلفه فيه:

وسيكون الحديث عن هذا التفسير في عدة نقاط هي:

أولاً: اسم الكتاب: سَمَّى الشيخ كعباش تفسيره "نفحات الرحمن في رياض القرآن" وهو يدل على أنه استخدم فيه بعض النفحات والفتوحات التي فتحها الله عليه في فهم معاني الآيات².

ثانياً: وصف الكتاب: يقع تفسير "نفحات الرحمن في رياض القرآن" في 14 مجلداً، يقع كل جزء في حوالي: 485 إلى 500 صفحة، وقد صدر أول جزء منها حين وصل الشيخ عند تفسيره لسورة هود عام: 2003م وآخره عام: 2016م. وكان الشيخ يركّز على القضايا الاجتماعية والتربوية والإصلاحية. **ثالثاً: منهج الأستاذ كعباش في تفسيره:** يجمع الشيخ كعباش في تفسيره بين أسلوبين في التفسير؛ التحليلي والإجمالي، فلم يكن يتوسع توسّعاً مملاً ولا يختصر اختصاراً مخلاً، وقد ذكر في مقدمة تفسيره الخطوات التي كان يعتمدها وهي:

1- يفتح السورة بعنوان "بين يدي السورة" يتناول فيه: اسم السورة، مكّيّها ومدنيّها، موضوعها العام ومواضيعها الفرعية.

2- اختيار النص القرآني لكلّ حصة، والتي يكون وقتها ساعة من الزمن بين المغرب والعشاء.

3- التحقيق اللغوي لمبنى النص: يذكر غريب الألفاظ الواردة في المقطع، وقد يتطرق للإعراب والبلاغة.

4- القراءات: إن وجدت، ثم يوجهها بعنوان "حول مبنى النص وأوجه القراءة".

5- البيان والتفسير لمضمونه، بدءاً بالمناسبة، وقد يتعرض لسبب النزول باختصار.

¹ موقع: المكتبة الجزائرية الشاملة، إشراف: عمار رقية الشرفي، مقال: بعنوان: ترجمة المفسر محمد سعيد كعباش الجزائري، الرابط: <https://shamela-dz.net/?p=638>.

² ننبه إلى أن هناك تفسيراً آخر يشبه هذا العنوان وهو "نفحات الرحمن في تفسير القرآن" للشيخ محمد بن عبد الرحيم النهاوندي توفي في: 5 جمادى الأولى سنة: 1371هـ. وهذا التفسير ألف باللغتين العربية والفارسية، وهو تفسير شيعي.

6- يحصل مضمون النص من خلال جعله عنوانا للدرس، وفي آخر كل سورة يكون تناسق بين أفكار النص.

7- إن كانت هناك قصة عنون لها "بين يدي القصة"¹.

رابعاً: مصادره في تفسيره:

اعتمد الشيخ كعباش على عدّة مصادر ومراجع تفسيرية، أهمها:

1- "تيسير التفسير"، للقطب أطفيش.

2- "التحرير والتنوير"، لابن عاشور.

3- "التفسير المير"، وهبة الزحيلي.

4- تفسير "المنار" رشيد رضا.

5- الكشف، للزمخشري.

6- تفسير ابن كثير.

7- تفسير القرطبي.

8- التفسير الكبير، للرازي².

خامساً: خصائص تفسير "نفحات الرحمن": تميّز تفسير "نفحات الرحمن" بعدة ميزات هي:

1- الأسلوب الأدبي الجميل: حيث يجعل القارئ للتفسير يتشرب المعاني في قوالب أدبيّة متقنة، يرصفها رصفاً مُستخرجاً الدرر من بين آيات الذكر الحكيم.

2- الترتيب المنهجي والإخراج المتقن: يمتاز هذا التفسير بالتخريج المتقن للآيات والأحاديث وتوثيقه للنقول، كما أنه يخلو من الأخطاء المطبعية والسقطات، حيث كان الشيخ يراجع ما كتب قبل أن يفسره في المسجد، وكان يعينه الدكتور: حاج قاسم محمد في التوثيق.

3- عدم الخوض في المسائل الكلامية: حيث كان الشيخ يذكر تلك المسائل الكلامية بأقصر عبارة أو يكتفي بذكر رأيه والإحالة إلى مظان المسألة لمن أراد التوسع فيها، مشيراً إلى أن علم الكلام ليس مكانه في كتب التفسير.

¹ رسالة دكتوراه: اتجاهات التفسير في الجزائر في العصر الحديث: التواتي وكعباش أمّودجا، إبراهيم محفوظ حاج، (ص: 84).

² تفسير نفحات الرحمن في رياض القرآن، محمد سعيد كعباش، نشر جمعية النهضة، العطف غرداية، الجزائر، سنة: 2003م.

4- **خُلُوهُ من العبارات الغامضة والتراكيب المبهمة:** وهذا هو الذي يليق بمفسر القرآن، مع أن الشيخ أمازيغي الأصل لكن لسانه جاء عربيا خالصا.

5- **اعتماده على الأثر أكثر من النظر:** فكثيرا ما يستشهد الشيخ بالأحاديث من الصحاح والسنن والأسانيد والمصنفات، وكان يعتمد على الأثر كثيرا في فهم مراد الله¹.

المطلب الثاني: نماذج من معالم الاتجاه الاجتماعي في تفسير "نفحات الرحمن".

اهتم الشيخ كعباش كثيرا بالجانب الاجتماعي في تفسيره، وربط القرآن الكريم بما يعيشه أهل زمنه كما يدل على ذلك تسمية الكتاب "نفحات الرحمن"، وسبب ذلك أن المجتمع الذي ترعرع فيه كعباش مجتمع منظم والتكافل الاجتماعي متجذر فيه، فالزائر لبلدته لا يجد معوزا أو محتاجا بل يجد تكافلا بارزا فالكل يحمل الكلّ ويساعد الناس بعضهم، كما شهد لذلك مالك بن نبي عند زيارته لولاية غرداية حيث قال: "هذا المجتمع الذي من خصائصه أن يكون كل فرد فيه من أجل المجموع وكل المجموع من أجل الفرد، إنها القاعدة السحرية التي تنظم الحياة والعلاقات في المجتمع الميزابي"².

وفيما يلي بيان لبعض النماذج التي تبرز معالم الاتجاه الاجتماعي في تفسير "نفحات الرحمن"، وهي أربعة جعلت كل واحد منها تحت فرع تفصيلها كما يلي:

الفرع الأول: تنزيل الآيات على الواقع:

تعددت المواضيع والقضايا التي نزل فيها الشيخ: كعباش آيات القرآن الكريم على الواقع الذي كان يعيشه، ومن أمثلة ذلك:

أولا: قضايا المسلمين: العراق وفلسطين: حيث كان الشيخ كعباش يتحدث عن النكسات التي أصابت الأمة كلما وجد فرصة لذلك، فنجده يربط بين النصوص القرآنية وبين القضايا العينية داخل الأمة، فيحاول كشف مخططات الأعداء ضد الإسلام وأهله، ومن ذلك حديثه عن قضية العراق وفلسطين، فإنه لما تناول تفسير قوله تعالى ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾ يونس: ١٠٣، ربط معنى الآية بالواقع فقال: "وبعد: فقد صادف تفسير هذه الآية الكريمة ما يسود العالم في هذه الأيام من الترقب والحذر، بما يخططه أعداء الإسلام من ضربه في عقر داره وإهانة مقدساته، وهم يقرعون طبول الحرب ضد العراق، ويحشدون قواتهم في أغلب دول الجوار مهددين

¹ رسالة اتجاهات التفسير في الجزائر في العصر الحديث: التواتي وكعباش أنموذجا، إبراهيم محفوظ حاج، (ص: 86-87).

² المصدر نفسه، (ص: 221).

مستكبرين، يستهدفون مقومات الشعوب الإسلامية بالمسخ والتحريف بدعوى محاربة الإرهاب العالمي، ولا شك أن في الناس بقية إيمان وغيره على دين الله ومقدساته، وهو أغير على دينه من أن يهلك تلك الطائفة المؤمنة، ففي هذه الآية بشرى لنجاتها¹.

كما تحدث عن القضية الفلسطينية وربط بعض حيثياتها بمعاني القرآن لما فسّر قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ آل عمران: ١٤٩، فهذه الآية تحذّر المؤمنين من تنفيذ بعض الاقتراحات التي ظاهرها النصح وباطنها الغش والخديعة، وهو تحذير عام في المسلمين على مدى الحياة، سواء كان الاقتراح من المنافقين أو من اليهود والنصارى أو عبدة الأوثان كما روي في سبب نزول الآية². ولما فسّر الشيخ كعباش الآية ربطها بما يجري في القضية الفلسطينية فقال: "وفي هذا النداء يحذر الله المؤمنين من أن يخامرهم خاطر الدخول في مصالحة المشركين، لما في ذلك من خور العزيمة والضعف ثم الاستكانة للعدوّ، ومع الخضوع للعدوّ الانسلاخ عن العقيدة والردّة إلى الكفر، وفي ذلك الخسران المبين في الدنيا والآخرة، هذا هو حكم الله في مثل تلك المواقف، فإمّا إصرار ومثابرة وجهاد للعدوّ ومع ذلك نصر الله، وإمّا رضوخ واستسلام ومع ذلك الخزي والعار، والارتداد إلى حظيرة الكفار. والذين يتوهّمون أنهم يستطيعون المحافظة على توازنهم في المحافظة على عقيدتهم ودينهم واستسلامهم لقهر العدوّ وكيد، الذين يتوهّمون ذلك هم مخطئون في تصورهم، والله يستنكر ذلك الموقف في قوله ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾ التوبة: ٨، لأن كلّ حوار تحتلّ فيه معادلة القوّة بين الطرفين يكون مآله الفشل، لأن القويّ سوف يُملّي شروطه على الضعيف، وعندها يتخلّى الضعيف رويدا رويدا عن حقوقه وامتيازاته، فهل يعي إخواننا الفلسطينيون هذا الإرشاد الإلهي³."

ثانيا: مراعاة الواقع الاجتماعي في الفتاوى الفقهية: من شروط المفتي أن يكون محيطا بالواقع الذي يعيشه فيما يخص القضية التي يفتي فيها، ولقد كان الشيخ كعباش حريصا على هذا الأمر كلّ الحرص، فتجده يرجّح ما يوافق الواقع في فتاويه إذا كان فيه مصلحة ولم يكن فيه مخالفة شرعية، ومن ذلك فتواه في خروج المرأة المطلقة من بيت زوجها قبل انقضاء عدّتها، فبعد حكاية الشيخ للخلاف في المسألة قال

¹ تفسير: نفحات الرحمن في رياض القرآن، محمد سعيد كعباش، سنة: 1428هـ-2007م، (296/6).

² زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي، ت: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط: 1، سنة: 1422هـ. (1/1)

(474)، وأيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، أبو بكر جابر الجزائري، (390/1).

³ تفسير: نفحات الرحمن في رياض القرآن، محمد سعيد كعباش، سنة: 1425هـ-2004م، (432/2).

مرجحاً لما يوافق واقع المجتمع الجزائري: "الواقع عندنا اليوم كبقية العالم الإسلامي، إذ لا تبقى المطلقة في بيت الزوجية ولو ليوم واحد، ولو لم يتم التراضي بينهما، فيكون رأي الشافعية هو الأنسب لهذه الحالة"¹.

الفرع الثاني: مواجهة الأخطار الأخلاقية والفكرية التي تهدد الأمة:

من المسائل التي تحدث عنها الشيخ كعباش وتدخل في الاتجاه الاجتماعي في التفسير، بعض الأخطار والأفعال الأخلاقية أو الفكرية التي تهدد الأمة وتذهب هيبتها أو توصلها للطعن في دين الله تعالى، ومما ذكره الشيخ في ذلك:

أولاً: الاعتناء بالردّ على المخرفين للدين من القرآنيين والمستشرقين وغيرهم:

حيث اعتنى كعباش بمواجهة كل الأخطار التي تهدد الأمة من جميع الأطياف، وممن ردّ عليهم:

1- القرآنيون، وذلك عندما فسر قوله تعالى ﴿فَإِنْ تَنَزَّعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ النساء: ٥٩، فمدلول الآية وجوب ردّ كل شيء متنازع فيه إلى الله والرسول في حياته وإلى سنته بعد مماته، وفيه إشعار بوعيد من لم يردّ إلى الله والرسول². فلما فسرّها الشيخ كعباش استغل معناها في الردّ على القرآنيين فقال: "أي: يعرض الأمر المتنازع عليه - في أي مستوى كان - على كتاب الله وسنة رسوله وما فيهما من القواعد العامة، وذلك بالنظر والاجتهاد من الذين يعرفون كيف يقيسون الأقضية بأشباهها، وكيف يستنبطون الأحكام من أدلتها، لأن عرضها على رسول الله بذاته قد انتهى بوفاته عليه السلام، وقد بقيت سنته محفوظة.

وفي هذه الآية ردّ قطعيّ على أولئك الذين يشكّكون في السنة، بأنه وقع التحريف والوضع والتزييف ويقولون: لا نعمل إلا بما في كتاب الله، ويثبت ذلك ما رواه أبود دواد عن أبي رافع عن النبي ﷺ أنه قال: «لَا أَلْفَيْنَ أَحَدَكُم مَّتَكُنَّا عَلَى أَرْبَيْكَةِ يَأْتِيهِ الْأَمْرُ مِنْ أَمْرِي مِمَّا أَمَرْتُ بِهِ أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ فَيَقُولُ: لَا نَدْرِي، مَا وَجَدْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ اتَّبِعْنَاهُ»³ "4.

¹ تفسير: نفحات الرحمن في رياض القرآن، محمد سعيد كعباش، سنة: 1438هـ-2016م، (54/14).

² البحر المحيط في التفسير، أبو حيان الأندلسي، (291/3).

³ رواه أبو داود في سننه، كتاب: السنة، باب في لزوم السنة، برقم: 4607. وقال الألباني: "صحيح"، ينظر: صحيح وضعيف سنن أبي داود، (105/10).

⁴ تفسير: نفحات الرحمن في رياض القرآن، محمد سعيد كعباش، سنة: 1426هـ-2005م، (204/3).

2- المستشرقون، كما ردّ أيضا على المستشرقين وبعض مطاعنهم في القرآن الكريم ، وذلك عندما فسر قوله تعالى ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ الأنعام: ٩٢، قال: "وقد أغرق بعض المفسرين في التأويل المقصود بقوله تعالى ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ فقالوا بأن المقصود ب ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ الأرض جميعا، وذلك للردّ على المستشرقين وأشياهم، إذ تمسكوا بهذه الآية ليقولوا بأن محمدا بعث للعرب وحدهم في جزيرتهم متغافلين عن بقية الآيات التي تثبت شمولية الدعوة الإسلامية كقوله تعالى في سورة سبأ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ سبأ: ٢٨، وقوله في مفتتح سورة الفرقان ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ الفرقان: ١¹.

ثانيا: تحذير الأمة من الأخلاق الدنيئة: لأن الأخلاق الدنيئة تسهم في تفكيك الأمة وتصدّعها وتشقّق صفّها؛ ولذا فإن الشيخ كعباش لما فسر سورة الحجرات التي تسمى سورة (الأخلاق والآداب)²، استغل المعاني الواردة فيها وحذّر من الأخلاق الدنيئة فقال: "وهذه الأخلاق الدنيئة لا تجد مرتعا خصبا لها إلا عند الجماعات المتخلّفة حيث تسود الروح الانفرادية عند أغلب الناس، ولذا جعل لمزّ النفس الواحدة لمزّا لنفوس المؤمنين جميعا تأكيدا للمعنى الأخوة الإسلامية"³.

الفرع الثالث: أسباب ضعف الأمة وسبيل قوتها:

وقد ذكر الشيخ كعباش عدّة مسائل تتعلق بهذا الموضوع فبيّن بعض أسباب ضعف الأمة وطريق استرجاعها لقوّتها بالعمل بما في القرآن الكريم؛ ومما جاء عنه في بيان ذلك:

أولا: الحث على الاجتماع والنهي عن التفرق: فمن أعظم الأسباب التي تجمع كلمة الأمة وتقويها: الاجتماع، ومن أعظم ما يضعف الأمة ويشتتها: التفرق، ولذلك تطرّق الشيخ كعباش لهذا العامل المهم عند تفسيره لقوله تعالى ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ آل عمران: ١٠٣، فبيّن أثر الاجتماع على صلاح الأمة والتفرق على فسادها بقوله: "ثنى الله أمره للمؤمنين بما فيه صلاح آخرتهم، بأمرهم بما فيه

¹ المصدر السابق، (320/4).

² روائع البيان تفسير آيات الأحكام، محمد علي الصابوني، طبع على نفقة: حسن عباس الشربتلي، مكتبة الغزالي، دمشق، مؤسسة مناهل العرفان، بيروت، ط: 3، سنة: 1400هـ-1980م، (477/2).

³ تفسير: نفحات الرحمن في رياض القرآن، محمد سعيد كعباش، سنة: 1354هـ-1320م، (131/13).

صلاح دنياهم وذلك باجتماعهم على الدين وعدم التفرق فيه بانتحال المذاهب، والتشيع إلى الملل والنحل، لأن الدين الحقّ يجمع ولا يفرّق، وفي العبارة تمثيل كأنّ الدين في سلطانه على النفوس وتوجيه العزائم والإرادات إلى تحقيق أغراضه يشبه الحبل المتين الذي يعصم الآخذ به فيأمن السقوط، ولا يتمّ الاعتصام بالمأمور به شرعا إلا بأن تتحد الأمة كلّها على صراط الله المستقيم¹. كما دعا إلى تجاوز الخلاف الحاصل بين الطوائف، فقال: "حبذا لو هذه الضوابط كانت محلّ اتفاق بين الطوائف الإسلامية، إذن لكفيت الأمة شرا مستطيرا ذهب بآلاف الضحايا قديما وحديثا، ومرجع الخلاف في مبدأ الحكم السياسي في الإسلام ومرتكزه في شروط الإمامة، ولعل الأحداث العالمية اليوم والتغيرات الجذرية في أساليب الحكم وأنماطه كفيّلة بفض هذا المشكل الذي ما يزال مطروحا في كثير من البلدان الإسلامية"².

وكذلك فعل الشيخ كعباش عندما فسر قوله تعالى ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اٰخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ البقرة: ٢٥٣، فالاعتقال الوارد في الآية اعتقال عظيم ناشئ عن اختلافهم اختلافا عظيما حتى صاروا مللا مختلفة³، ولهذا فإن مفسرنا الشيخ كعباش لما فسر الآية استغلّ مدلولها في التحذير من الاختلاف وبيّن آثاره الوخيمة على الأمة فقال: "وكم من آيات في القرآن تندد بالتفرق والاختلاف في الدين، وتحذّر المسلمين من الوقوع فيما وقعت فيه الأمم السابقة، فإذا كان القتال ناشئا عن الاختلاف في الدين المتعدد، ربما يكون في ذلك نوع من العذر، لأنه لا مناص منه منذ القدم، فإن الاختلاف في الدين الواحد - كما حدث بين المسلمين - لا يجوز أن يؤدّي إلى مستوى التكفير الذي يؤدّي إلى الاقتتال، لأن الدين يجمع ولا يفرّق، فيجب على المسلمين أن يعذر بعضهم بعضا فيما ينشأ بينهم من الخلاف لا يمسّ جوهر الدين في أصوله ومبادئه الكبرى"⁴.

ثانيا: بيان قيمة الأخوة الإيمانية ودورها في تحقيق التماسك الاجتماعي: تحدث الشيخ كعباش عن الأخوة الإيمانية التي إذا استشعرها أفراد الأمة أحسّوا أنّهم كالجسد الواحد مصداقا لحديث النعمان بن بشير رضي الله عنه قال قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «المؤمنون كرجل واحد إن اشتكى رأسه تداعى له سائر الجسد بالحمى

¹ تفسير: نفحات الرحمن في رياض القرآن، محمد سعيد كعباش، سنة: 1425هـ-2004م، (365/2).

² المصدر نفسه، (125/13).

³ فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي الشوكاني، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، دمشق، بيروت، ط: 1، سنة: 1414هـ، (406/1).

⁴ تفسير: نفحات الرحمن في رياض القرآن، محمد سعيد كعباش، سنة: 1425هـ-2004م، (123/2).

والسهر»¹، وهذا أعلى شعور تسير به الأمة إلى الأمام. وقد تحدّث الأستاذ كعباش عن ذلك عند تفسير قوله تعالى ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ الحجرات: ١١، فقال: "والأخوة الإيمانية في المجتمع المسلم هي السياج الواقى وجهاز المناعة في جسم الأمة، لأن للجاهلية رواسبها في مجال العلاقات الاجتماعية يجب القضاء عليها، ولذا جاءت تلك الإشارات الربانيّة بأسلوب النّهي الصّارم مع التعليل الحكيم بعدم الاغترار بالمظاهر وسوء التقدير للمفاهيم"².

ثالثا: مبدأ المساواة بين أفراد المجتمع: وهذا المبدأ هو أساس قوة الأمة وسرّ بقائها كما جاء في قوله تعالى ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ الحجرات: ١٣، والمعنى: يا أيها الناس أنتم سواء من حيث أنتم مخلوقون وإنما جعلتم قبائل لأن تتعارفوا أو لأن تعرفوا الحقائق، وأما الشرف والكرم فهو بتقوى الله تعالى وسلامة القلوب³. ولما فسر الأستاذ كعباش الآية تحدث عن هذه المسألة فقال: "ولما كان الواقع المرير الذي عاشته الجاهلية أن كان ذلك التقسيم مثار الحمية والعصبية والتنافر، جاءت علّة جعل الله إيانا شعوبا وقبائل على خلاف ذلك الواقع حتى يكون سببا للتكامل والتعارف، وهو يحتضن الهرم الاجتماعي من قاعدته إلى قمته انطلاقا من الأسرة إلى مجمع الأمة بكاملها تدرّجا واستشرافا إلى الوحدة الإنسانية التي جاءت الدعوة الإسلامية تنادي بها، وترفع شعار المساواة بين الأجناس والألوان، إذ جعل الله ذلك الاختلاف مجلّي لعظمته وقدرته وآية لتدبيره وحكمته، فقال: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخَلْقَ السِّنِّتِ وَالْوَنكِى﴾ الروم: ٢٢، ولئن افتخرت الحضارة الحديثة بالثالث الجريء الذي رفعته الثورة الفرنسية حين نادى بالحرية والإخاء والمساواة، فإنّ للأمة الإسلامية أن تعتزّ وتفتخر بأن كانت السبّاقة إلى تركيز تلك المبادئ وتطبيقها في الحياة الواقعية، ورسولها الأعظم هو القدوة في كلّ إصلاح دعا إليه، وفي كلّ مبدأ نادى به، ألم يكن من حاشيته الخاصة بلال الحبشي، وصهيب الرومي، وسلمان الفارسي"⁴.

رابعا: الشورى ودورها في خدمة المجتمع: وقد جاء الأمر بالشورى في القرآن الكريم في آيات مثل قوله ﴿فَأَعِظْ عَنْهُمْ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ آل عمران: ١٥٩، وإنما كان الأمر في الآية من الله

¹ رواه مسلم في صحيحه، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، برقم: 6753.

² تفسير: نفحات الرحمن في رياض القرآن، محمد سعيد كعباش، سنة: 1435هـ-2013م، (129/13).

³ الجواهر الحسان في تفسير القرآن، عبد الرحمن النعالي، ت: الشيخ محمد علي معوض وعادل أحمد عبد الموجود، ت: دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: 1، سنة: 1418هـ. (192/4).

⁴ تفسير: نفحات الرحمن في رياض القرآن، محمد سعيد كعباش، سنة: 1435هـ-2013م، (143/13).

لنبيّه بالمشاورة لاستظهار رأيهم وتطبيبا لنفوسهم وتمهيدا لسنة المشاورة في الأمة إذ بها تصل إلى صواب الرأي وتبتعد عن الخطأ فتقوى شوكتها¹، ولما فسّر الأستاذ كعباش هذه الآية بين دور المشاورة في تحقيق قوة الأمة فقال: "المشورة والمشاورة هي الاستعانة برأي المستشارين لتقليب وجهات النظر واتحاد الناس على مسعى واحد، فإن الجماعة أبعد عن الخطأ في أغلب الأحوال، بينما الخطر كلّ الخطر على مصالح الأمة في الاستبداد بالرأي الواحد وإن كان صوابا، لأن المشورة توزيع لمسؤولية التنفيذ حيث تنزل الأقدام وتطيش الأحلام، والشورى ممّا جُبِلَ عليه الإنسان لطلبه النجاح في مسعاه، وهي معروفة في أطوار التاريخ... ولم يضع الرسول خطة معينة لتحقيق مبدأ الشورى، بل ترك ذلك إلى ظروف الأمة في الزمان والمكان تأخذ فيه بالطرق الناجعة"².

¹ أنوار التنزيل، البيضاوي، ت: محمد المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: 1، سنة: 1418هـ، (ص: 108).

² تفسير: نفحات الرحمن في رياض القرآن، محمد سعيد كعباش، سنة: 1425هـ-2004م، (2/452).

خلاصة الفصل الثاني:

في ختام هذا الفصل تتبين لنا الجهود التي قام بها المفسرون الجزائريون في سبيل الإصلاح الاجتماعي، خصوصا بعد المخلفات الكبيرة التي تسبب فيها الاستعمار الفرنسي في شتى المجالات، وقد برز من هؤلاء عدة أعلام منهم: الشيخ ابن باديس والشيخ بيوض والشيخ أبو بكر الجزائري والأستاذ كعباش، حيث استغل هؤلاء دروسهم في تفسير القرآن الكريم فكانوا يثثون الوعي الاجتماعي في الأمة من خلالها، خاصة وأن أغلب تلك التفاسير كانت دروسا تلقى في المساجد.

وقد برز الاتجاه الاجتماعي في تفاسير هؤلاء العلماء من خلال عدة معالم تتمحور حول: أسباب ضعف الأمة وسبيل استرجاع قوتها، فتحدثوا عن قضايا التنازع والفرقة بين المسلمين، كما تحدثوا عن مواجهة الأخطار الفكرية والأخلاقية التي تُهدق بأبناء الأمة والحلول التي جعلها القرآن الكريم لذلك، ولم يُغفل هؤلاء أن يربطوا القرآن الكريم بواقعهم الذي عاشوه، فظهر عندهم بوضوح معلم تنزيل الآيات على الواقع، من أجل العودة إلى القرآن وتعاليمه والتمسك بشرع الله الحنيف، فاتفقت كلمتهم على أنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح بها أولها وهو كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

وبعد هذا البيان الإجمالي الذي سبق، نشعر في تسليط الضوء بالتفصيل لاستخراج معالم الاتجاه الاجتماعي عند مفسر جزائري معاصر عاش هموم الأمة وقدم لها حلولاً من خلال تفسيره، وهو الشيخ "التواتي بن التواتي" في تفسيره "الدر الثمين".

الفصل الثالث:

معالم الاتجاه الاجتماعي في التفسير عند التواتي بن التواتي

من خلال تفسيره "الدرّ الثمين".

ويحتوي هذا الفصل على أربعة مباحث هي:

المبحث الأول:

المعالم المتعلقة بأسس بناء المجتمع وقيام الأسرة المسلمة.

المبحث الثاني:

المعالم المتعلقة بربط القرآن بأحوال المجتمعات.

المبحث الثالث:

المعالم المتعلقة بإعجاز القرآن الكريم.

المبحث الرابع:

المعالم المتعلقة بالوحدة الموضوعية في القرآن الكريم.

تمهيد:

تعددت معالم الاتجاه الاجتماعي في تفسير "الدر الثمين" وكانت لها عدة تطبيقات تشكّل مجموعها هذا الاتجاه التفسيري المهم، مع ملاحظة أن الشيخ التواتي لم يهتم بالجانب التنظيري لهذه المعالم بل اهتم بتطبيقها على آيات القرآن الكريم واستثمارها في إظهار معالم هذا الاتجاه، خاصة وأن تفسيره كان ابتداءً تفسيراً شفاهياً ثم انتقل إلى تفسير مكتوب، ولذلك فقد اجتهدت في جمع تلك التطبيقات وتقسيمها فبلغت تسعة، ويختلف تطبيق التواتي لها حسب الحاجة لخدمة الاتجاه الاجتماعي ومعالمه، ولذا فقد يلاحظ القارئ لهذا الفصل تبايناً نسبياً في مقدار تطبيقات تلك المعالم.

وقد قسمت تلك المعالم إلى أربعة مباحث، يحتوي كلّ مبحث منها على عدّة مطالب كلّ مطلب منها عبارة عن معلم من المعالم؛ ليكون عدد المعالم المشكّلة لهذا الفصل تسعة معالم. وتفصيل هذه المباحث كما يلي:

المبحث الأول: المعالم المتعلقة بأسس بناء المجتمع وقيام الأسرة المسلمة.

من المعالم المهمة التي يركز عليها الاتجاه الاجتماعي في التفسير؛ ما يتعلق بحديث القرآن الكريم عن الأسس التي يبنى عليها المجتمع عموماً والأسرة خصوصاً باعتبارها اللبنة الأساسية والأولى لبناء المجتمع، ولذا نجد أن الشيخ التواتي اهتم كثيراً في تفسيره "الدرّ الثمين" ببيان الأسس التي ينبغي أن تبنى عليها المجتمعات حتى تكون بيئتها صالحة لتكوين أفراد تقوم عليهم الأمم ويسودون غيرهم ويحققون الأمل المرجو منهم، وهذا كله لبيان أن القرآن اهتم بتأسيس المجتمعات الصالحة المبنية على العلاقات المتينة بين الأفراد المنتسبين للمجتمع الواحد.

وبعد تتبّعي لكلمات الشيخ حول الموضوع وجدته تحدّث عن عدّة جوانب في هذا الموضوع، يمكن جعلها تحت معلمين؛ أولهما: يتعلق بأسس بناء المجتمع المسلم باعتباره المأوى الجامع للأسر، والثاني: يتعلق بأسس قيام الأسرة المسلمة باعتبارها اللبنة المأوى الجامع للأفراد، وجعلتهما في مطلبين هما:

المطلب الأول: معلم "أسس قيام المجتمع المسلم وخصائصه".

المطلب الثاني: معلم "أسس قيام الأسرة المسلمة في الإسلام".

وتفصيلها كالآتي:

المطلب الأول: معلم "أسس قيام المجتمع المسلم وخصائصه":

جاء الإسلام لينظم دين الناس ودنياهم، ولذلك نجده اعتنى بجميع الجوانب المتعلقة بالحياة الإنسانية والتي من أهمها: الأسس التي يقوم عليها المجتمع المسلم، حيث جاءت عدّة تشريعات في القرآن الكريم تتعلق بهذا المجال، ولذلك كان الشيخ التواتي يستغل فرصة إشارة الآيات القرآنية لهذا الموضوع ولو بإشارات عامة ثم يفصّل فيها. وقد تتبعت هذا الصنيع عنده فجمعت له عدّة توجيهات تتعلق ببناء المجتمع المسلم وأسس قيامه، ويمكن جعلها تحت ثلاثة أسس كلّ منها في فرع هي:

الفرع الأول: إقامة المجتمع وفق المنهج الرباني الصحيح:

تحدث الشيخ التواتي عن أول أساس يقوم عليه المجتمع المسلم الذي يريد تطوير نفسه ليكون متبوعاً لا تابعاً؛ وهو إقامة المجتمع وفق المنهج الرباني الصحيح الذي رسمه لنا ربنا سبحانه وتعالى فيما أنزله من عنده على رسوله ﷺ في القرآن الكريم، لأن الله تعالى هو أعلم بما يصلح لعباده وما يصلحهم، وقد كان حديثه عن هذه القضية لما فسّر قوله تعالى ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ

السَّيْلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿النساء: ٣٦﴾، حيث ذكر ركيزتين هما: التوحيد لله بالتزام العقيدة الصحيحة، والثانية: العناية بالعلاقة الإنسانية من الأسرة الصغيرة وهي العائلة، إلى الأسرة الكبيرة وهي: الإنسانية، وبیانهما:

أولاً: الركيزة الأولى: التوحيد لله بالتزام العقيدة الصحيحة:

وذلك لأن سلوك الإنسان وأخلاقه وتصرفاته في الحياة مظهر من مظاهر عقيدته في حياته الواقعية وممارساته اليومية، فإن صلحت العقيدة صلح السلوك واستقام، وإذا فسدت فسد واعوجج، ومن ثم كانت عقيدة التوحيد ضرورة لا يستغني عنها الإنسان ليستكمل شخصيته ويحقق إنسانيته، ولذا كانت الدعوة إلى التوحيد أول شيء قام به الرسول ﷺ لتكون حجر الزاوية في بناء الأمة المسلمة¹، فكان ينادي في سوق ذي المجاز: «يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا»².

وأثناء كلام التواتي عن هذا الموضوع بين أهمية التوحيد والعقيدة في بناء المجتمع وقيامه عندما فسر قوله تعالى ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ النساء: ٣٦، بقوله: "من خلال هذا النص القرآني جولة أخرى تتحدث عن قيم إسلامية رفيعة، وعن تنظيم حياة المجتمع المسلم، وتخليصه من رواسب الجاهلية، وتثبيت ملامح الجوّ الإسلامي الجديد، فبدأت هذه الجولة بالدعوة إلى إرساء القاعدة الأولى التي يقوم عليها المجتمع المسلم، وهي قاعدة: التوحيد الخالص لله تعالى التي تنبثق منها حياته وينبثق منها منهج هذه الحياة من كلّ جانب... وربط بها كلّ حركة وكلّ نشاط، وكلّ خالجة وكلّ انفعال بمعنى تحقيق العبودية لله وحده التي هي غاية كلّ نشاط إنساني في ضمير المسلم وحياته"³.

ثانياً: الركيزة الثانية: العناية بالعلاقة الإنسانية من الأسرة الصغيرة إلى الأسرة الكبيرة:

وتحدّث الشيخ التواتي عن قصده بالأسرة الصغيرة: وهي العائلة التي يسكن معها الفرد داخل سقف واحد، أما الأسرة الكبيرة فهي: الإنسانية عموماً بمختلف خلفياتها وأجناسها، لأن المسلم قد يُساكن غيره في بلد واحد فينبغي له معرفة كيف يتعامل معه ولو لم يكن مسلماً لينتظم المجتمع، وجاء ذلك عنه لما فسر قوله تعالى ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ﴾

¹ مقال بعنوان: "أثر عقيدة الإيمان في توجيه السلوك والأخلاق"، د: أحمد مجاهد الشيباني، نشر بتاريخ: 16/7/2013، موقع الألوكة، الرابط: <https://www.alukah.net/sharia/0/5741/1>.

² رواه ابن حبان في صحيحه، كتاب التاريخ، باب كتب النبي ﷺ، رقم: 6562، قال الألباني: "صحيح"، التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان، الألباني، دار با وزير للنشر والتوزيع، جدة، المملكة العربية السعودية، ط: 1، سنة: 2003م، (9/ 282).

³ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (72/7 و73). وينظر أيضاً: الدر الثمين: (139/7)، (164/5).

وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴿النساء: ٣٦﴾، حيث قال: "ثم دعت إلى العناية بالعلاقات الإنسانية في هذا المجتمع الإسلامي المنشود فشملت برّ الوالدين، وعلاقات أخرى ينبع الشعور بها، من مشاعر المحبة والوداد التي تنشأ في جوّ الأسرة المتحابّة حتى تفيض على جوانب الإنسانية الأخرى ويتعلمها الإنسان -أول ما يتعلمها- في جوّ الأسرة الحاني ومحضنها الرفيق. ومن هنا يتوسع في علاقاته بأسرة الإنسانية كلّها بعد ما بذرت بذورها في حسّه أسرته الخاصة القريبة.

فحين دعت إلى رعاية الأسرة القريبة وهي العائلة، ثم الأسرة الكبيرة التي تشمل الإنسانية كلها، وإقامة قيم وموازن في هذا الحقل للباذلين وللباخلين"¹.

الفرع الثاني: "دار الإسلام" صفاتها ومميزاتها:

وتم اختيار هذا العنوان لأن الشيخ اختار تسمية المجتمع الإسلامي المثالي بهذا الاسم "دار الإسلام"، وذلك نقلاً عن سيد قطب الذي قسّم العالم إلى دارين هما: "دار الإسلام" و "دار الحرب" وذكر صفة كلٍّ منها. وقد تحدث الشيخ عن هذه الدار وذكر صفاتها وذلك عند تفسير قوله تعالى ﴿وَأَنزَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأً ابْتِئَاءَ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ...﴾ المائدة: ٢٧-٣٠، حيث نقل كلام سيد قطب مؤيداً له في ذكر الصفات التي وصف بها "دار الإسلام" فقال: "والمجتمع المسلم، هو المجتمع الذي يقوم في دار الإسلام بتعريفها ذاك. وهذا المجتمع القائم على منهج الله المحكوم بشريعته، هو الذي يستحق أن تصان فيه الدماء وتصح في الأموال ويصح فيه النظام العام؛ وأن توقع على المخلين بأمنه المعتدين على الأرواح والأموال فيه العقوبات التي تنص عليها الشريعة الإسلامية في هذا الدرس وفي سواه. ذلك أنه مجتمع رفيع فاضل ومجتمع متحرّر عادل؛ ومجتمع مكفولة فيه ضمانات العمل و ضمانات الكفاية لكلّ قادر ولكلّ عاجز؛ ومجتمع تتوافر فيه الحوافز على الخير وتقل فيه الحوافز على الشر من جميع الوجوه. فمن حقه إذن على كلّ من يعيش فيه أن يرعى هذه النعمة التي يسبغها عليه النظام؛ وأن يرعى حقوق الآخرين كلّها من أرواح وأموال وأعراض وأخلاق؛ وأن يحافظ على سلامة «دار الإسلام» التي يعيش فيها آمناً سالماً غانماً مكفول الحقوق جميعاً، معترفاً له بكل خصائصه الإنسانية وبكل حقوقه الاجتماعية

¹ المصدر السابق، (73/7).

- بل مكلفاً بحماية هذه الخصائص والحقوق- فمن خرج بعد ذلك كلّ على نظام هذه الدار -دار الإسلام- فهو معتد أثيم شرير يستحقّ أن يؤخذ على يده بأشدّ العقوبات"¹.

الفرع الثالث: تحقيق التكافل الاجتماعي:

ذكر الشيخ التواتي صورا شتى وردت في القرآن الكريم تعتبر كفيلة بتحقيق التكافل الاجتماعي والتعاون بين أفراد المجتمع، وقد وقفت على أربعة منها وهي:

أولاً: الزكاة: فلا يخفى على أحد ما للزكاة من دور وأهمية في توزيع الثروة بين أبناء المجتمع الواحد وتداولها بينهم، وذكر الدكتور: يوسف القرضاوي في كتابه "فقه الزكاة" تحت عنوان "عناية الإسلام بالمجتمع الإنساني" طرفاً من ذلك، ومما قاله: "ولقد كان من روائع الإسلام، بل من معجزاته الدالة على أنه دين الله حقاً، أنه سبق الزمن، وتخطى القرون، فعنى -منذ أربعة عشر قرناً مضت- بعلاج مشكلة الفقر والحاجة، ووضع الفقراء والمحتاجين دون أن يقوموا بثورة، أو يطالبوا -أو يطالب لهم أحد بحياة إنسانية كريمة، بل دون أن يفكروا هم مجرد تفكير في أنّ لهم حقوقاً على المجتمع يجب أن تؤدّى ... كان ذلك الحق هو الزكاة؛ الفريضة الإسلامية العظيمة التي اهتم بها القرآن والسنة"².

وقد تحدث الشيخ التواتي عن دور الزكاة في تحقيق التكافل الاجتماعي عند تفسيره لقوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ البقرة: ٢٧٧، فبعد بيانه لفضل الزكاة في تطهير القلب وغو المال، بيّن أثرها في تحقيق التكافل الاجتماعي فقال: "وهنا أشار أحد العلماء الأفاضل أن الزكاة هي قاعدة المجتمع المتكافل المتضامن؛ الذي لا يحتاج إلى ضمانات النظام الربويّ في أيّ جانب من جوانب حياته. إلا أن صورة الزكاة بهتت في حسنا، وحسن الأجيال التعيسة من الأمة الإسلامية التي لم تشهد نظام الإسلام مطبقاً في عالم الواقع؛ ولم تشهد هذا النظام يقوم على أساس التصور الإيماني والتربية الإيمانية والأخلاق الإيمانية، فيصوغ النفس البشرية صياغة خاصة، ثم يقوم لها النظام الذي تنفس فيه تصوراتها الصحيحة وأخلاقها النزيهة وفضائلها العالية، ويجعل الزكاة قاعدة هذا النظام... لا خلاص للأجيال التعيسة من

¹ في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، بيروت، ط: 17، سنة: 1412هـ. (348/2). ينظر: الدر الثمين: (71/8).

² فقه الزكاة، يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة، بيروت، (3/1).

هذا الشقاء إلا بالعودة إلى الصورة المشرقة التي كان عليها النظام الإسلامي القائم على العدل والمساواة، النابذ للربا بكلّ صوره ¹.

ثانيا: الترغيب في الإنفاق على الفقراء: جاءت الشريعة بالترغيب في النفقة على الفقراء لسد حاجاتهم، ولا شك أن لذلك الأثر البالغ على الأفراد والمجتمع كـلّه ليتحقّق فيه قول رسولنا الكريم ﷺ: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى" ². وفي تفسير قوله تعالى ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ البقرة: ٢٢٠، تكلم الشيخ عن الآثار الكثيرة للإنفاق على الفرد والمجتمع قائلا: "ومسألة الإنفاق بالذات في حاجة إلى حساب الدنيا والآخرة، فما ينقص من مال المرء بالإنفاق يرد عليها طهارة لقلبه وزكاة لمشاعره، ولذا فالأمر لرسول الله أن يأخذ من أموال الناس زكاة تطهر وتصقّي من أدران الذنوب. كما يرد عليها صلاحا للمجتمع الذي يعيش فيه وئاما وسلاما، ولكن هذا كلّه قد لا يكون ملحوظا لكلّ فرد، وحينئذ يكون الشعور بالآخرة وما فيها من جزاء، وما فيها من قيم وموازين، مرجّحا لكفّة الإنفاق، تطمئن إليه النفوس وتسكن له، ويعتدل الميزان في يدها فلا يرجح بقيمة زائفة ذات لآلىء وبريق" ³.

ثالثا: حفظ أموال اليتامى: اليتيم هو: من مات أبوه قبل البلوغ ⁴، وذلك لحاجته إلى من يقوم على شؤونه من نفقة وغيرها، فهو ضعيف فيحتاج إلى من يكفل له ماله ويحفظه له من الضياع والتلف. ولما فسّر الشيخ الآية السابقة، بيّن ضرورة رعاية أموال اليتامى وأثره في تحقيق التكافل الاجتماعي، فقال: "هنا نصل إلى ذروة صلاح المجتمع المبنيّ على التكافل الاجتماعي هو قاعدة المجتمع الإسلامي، والجماعة المسلمة مكلفة أن ترعى مصالح الضعفاء فيها، وداخل في مفهوم نص حديث رسول الله ﷺ عن سهل بن سعد قال رسول الله ﷺ: "أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا، وأشار بالسبابة والوسطى" ⁵. وقوله ﷺ "هكذا" أراد به دخول الجنة، لا أنّ كافل اليتيم تكون مرتبته مع مرتبة رسول الله ﷺ في الجنة

¹ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (517/4-518).

² رواه مسلم في صحيحه، البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، برقم: 6751.

³ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (59/4).

⁴ المقدمة في فقه العصر، د. فضل بن عبد الله مراد، الجيل الجديد ناشرون، صنعاء، ط: 2، سن: 2016م، (710/2).

⁵ رواه مسلم في صحيحه، كتاب: الزهد والرقائق، باب الإحسان إلى الأرملة والمسكين واليتيم، برقم: 7660.

واحدة. واليتامى هم أمانة في المجتمع الذي نشأوا فيه بفقدان آباءهم وهم صغار ضعاف لا حول لهم ولا قوة فهم أولى برعاية الجماعة وحمايتهم، ورعايتهم لنفوسهم وحمايتهم لأموالهم¹.

رابعاً: **إنظار المعسر**: المعسر هو: الفقير الذي ركب الدين وتعسر عليه قضاؤه²، ولذلك جاءت الشريعة بمراعاة حال المصاب بهذا البلاء ورغبت في إنظاره وزيادة الأجل له ليتمكن من تسديد ما عليه من الدين، وهذا ما يحافظ على نسيج المجتمع وتماسكه، ولذا جاء الأمر بإنظار المعسر في قوله تعالى ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ البقرة: ٢٨٠، ولما فسر الشيخ الآية بين معناها، ثم ذكر جملة من الأحاديث في فضل إنظار المعسر بلغت ستة أحاديث، ليبين فضل هذا العمل وأثره في المحافظة على النسيج الاجتماعي، مثل: حديث حذيفة عن النبي ﷺ «أن رجلاً مات فدخل الجنة فقيل له: ما كنت تعمل؟» -قال: فإمّا ذكر وإمّا ذكر-، فقال: إني كنت أبايع الناس فكنت أنظر المعسر وأتجوز في السكة -أو في النقد- فغفر له»³، ثم بين التواتي أثر هذا العمل العظيم في تحقيق التكافل الاجتماعي، فقال: "هذه الأحاديث من طرق صحيحة في مجموعها دلّت على أنّ إنظار المعسر أمر مرغّب فيه، وأنّه من دواعي القبول والرضى ورفع المقت والغضب، كما أنه دليل على أن المجتمع الإسلامي مبني على التكافل والتعاقد والتعاون على المحبة والتراحم، ولم يكن مبنياً على التباغض والحقد والكراهية"⁴.

المطلب الثاني: معلم "أسس قيام الأسرة المسلمة في الإسلام":

الأسرة هي البنية الأولى لبناء المجتمع فبصلاحها يصلح المجتمع وبفسادها يفسد؛ ولذا اعتنى بها القرآن الكريم أيما اعتناء وجاءت عدّة توجيهات ربّانية تبين كيفية قيامها على أسس صحيحة تنفع المجتمع وتُسهم في تطويره، وشمل ذلك ما يسبق بناء الأسرة وما يرافقها لتحافظ على بُنيانها. والناظر لتفسير "الدر الثمين" يلحظ اعتناء الشيخ التواتي بهذا الجانب وتحليله للتوجيهات الربّانية الواردة في هذا الموضوع، حيث كان يستغلّ الإشارات العامّة الواردة في الآية حول تقوية البناء الأسري ثم يستفيض فيها، وبعد تتبعه لآرائه في هذا الموضوع وجدته تكلم عليه من أربعة جوانب؛ أحدها:

¹ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (4/59-60).

² مشارق الأنوار الوهاجة ومطالع الأسرار البهاجة في شرح سنن الإمام ابن ماجه، محمد بن علي بن آدم بن موسى، دار المغني، الرياض، السعودية، ط: 1، سنة: 1427هـ-2006م، (4/340).

³ رواه مسلم في صحيحه، كتاب: المساقاة، باب فضل إنظار المعسر، برقم: 4078.

⁴ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (4/534).

ما قبل بناء الأسرة وهو: الزواج، وثانيها: ما بعد بنائها وهي العلاقات الأسرية وعوامل نجاحها، وثالثها: حول العلاقات الأسرية وعوامل هدمها، ورابعها: قُطْبُ رَحَى الأسرة وهي: المرأة، ولذلك فإنني جعلت كلّ واحد من تلك الجوانب تحت فرع خاص به، وتفصيلها كالاتي:

تحدث الشيخ التواتي عن الزواج باعتباره أساس إقامة الأسرة وسبب وجودها، فإن لم يوجد زواج لم توجد أسرة أصلا، وقد لاحظ الشيخ ما اعترى هذا الأمر من صعوبات وعراقيل وما ينبغي فعله اتجاهها من حلول، فكان حديثه عن الزواج من جهتين هما:

أولا: الحث على الزواج وتيسير طريقه: فقد اهتم الشيخ في تفسيره بمسألة: الحث والدعوة إلى الزواج وتيسيره، لأنه الحصن من الفواحش والآفات وذلك نظرا للفساد المنتشر في المجتمع؛ فقال في تفسيره لقوله تعالى ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ...﴾ النور: ٣٢ - ٣٣: "وإني أختتم تفسير هذه الآيات بهذا التوجيه والإرشاد والدعوة إلى تيسير الزواج لما فيه من حصانة للمجتمع من الفساد وإشاعة الفاحشة في الأوساط، وإن الدين ليس هو الحج والعمرة فحسب، بل إن الدين التعاون والتآزر والسهر على إقامته وتنظيف ساحته من العوائق والأسباب المضرة والمقوّضة لبنائه الشامخ، وإن كان جمهور الفقهاء على أن الأمر في قوله "أنكحوا الأيامي" للندب، ودليلهم أنه وجد أيامي على عهد رسول الله ﷺ لم يزوجوا، ولو كان الأمر للوجوب لزوّجهم. إنّ ما استدل به الجمهور لا دليل فيه، إذ إن ذاك المجتمع كان طاهرا نقيّا في طريق البناء على الطهارة، وكان له التأثير في الغير... ولهذا نرى أن الأمر للوجوب، وليس القصد من هذا أن يقوم الحاكم على إجبار الأيامى على الزواج؛ ولكن نقصد أنه يتعين إعانة الراغبين منهم في الزواج، وتمكينهم من الإحصان، بوصفه وسيلة من وسائل الوقاية العملية، وتطهير المجتمع الإسلامي من الفاحشة، وهو واجب ووسيلة الواجب واجبة"¹.

وإنما قرّر الشيخ ذلك بناء على أن الزواج أمر تدعو له الفطرة وهو سنة الأنبياء والرسل جميعا، فهم من جنس البشر يتزوجون ويلدون وليسوا ملائكة ولذا فإن الكفار استغربوا بعث آدمي من البشر².

ثم يستأنف التواتي حديثه بقوله: "لقد قدمت الآيات السابقة علاجا وقائيا، بوضع الحواجز وبيان ما فيه ضرر بالمجتمع بكل مقوماته، ولكن ذلك الميل حقيقة واقعة والإنسان بحكم خلقته ضعيفا قد يتحكم

¹ المصدر السابق، (426/13).

² الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور، أد: حكمت بن بشير بن ياسين، دار المآثر للنشر والتوزيع والطباعة، المدينة النبوية ط: 1، سنة: 1420هـ-1999م، (123/3).

في غرائزه، وقد وصفه خالقه بهذا الضعف فقال تعالى ﴿وَحَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا﴾ النساء: ٢٨، فلا بد من مواجهتها بحلول ناجعة واقعية إيجابية، وهذه الحلول الواقعة هي تيسير عملية الزواج والمعاونة عليه؛ مع تصعيب السبل الأخرى للمباشرة الجنسية أو إغلاقتها نهائياً، وإقامة ما أقرّه الشرع من عقاب رادع، وذلك لما في جريمة الزنا من إساءة للمجتمع¹.

ثانياً: الدعوة إلى إزالة عقبات الزواج: في مقابل الحثّ على الزواج الذي تمّ بيانه سابقاً، تكلم الشيخ عن آفة انتشرت بين أبناء المجتمع الإسلامي، وهي العراقيل المنوّعة التي تتحوّل دون الزواج، ولذلك دعى الشيخ إلى ضرورة إزالة كلّ ما يُعرقّل الزواج من عقبات وعراقيل لأن ثمره ذلك إشاعة الفضيلة وإماتة الرذيلة. ومن العراقيل التي ذكرها:

1- العقبة المالية: وهذه العقبة لها صور متعددة، منها:

أ- التكلف في المهور: وفي ذلك يقول الشيخ التواتي: "في مجتمعاتنا الكثير من العادات والتقاليد التي تعرقّل زواج الشباب أخطرها المغالاة في المهور وفي النفقات والنظر إلى المظاهر ... الخ، وكأنّ الله -تبارك وتعالى- في هذه القصة يقول لأولياء الأمور: يسّروا للشباب أمور الالتقاء الحلال ومهّدوا لهم سبيل الإعفاف، فذلك خير وأصلح، وأنفى للفساد، وانتشار الفضيلة التي هي غاية الدين"².

ب- الإسراف في ولائم الزواج: وذكر ذلك لما فسّر قوله تعالى ﴿وَلَيْسَتَعَفُفَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُعْزِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ النور: ٣٣، حيث قال: "فيجب أن تزول العقبات من طريق الزواج، لتجري الحياة على طبيعتها وبساطتها والابتعاد عن التكلف والإسراف في مصارف ثانوية، والتباهي بإقامة الحفلات وإن العقبة المالية هي العقبة الأولى في طريق بناء البيوت وتحصين النفوس، وإني أرى كثيراً من الناس يكرّر الحج في كلّ سنة مدّعياً العبادة، ولو أن هؤلاء أنفقوا جزءاً من نفقة حجّ التطوّع لتيسير عملية الزواج، للقضاء على آفة الزنا الذي يهدّد كلّ أسرة في المجتمع سواء كانت محافظة أو غير محافظة"³.

2- تخرّج الأولياء من عرض الزواج على الرجل الصالح: واستند في ذلك لقصة زواج موسى عليه السلام التي

ذكرت في قوله تعالى ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَي هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حَبِجٍّ فَإِنْ

¹ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (423/13).

² المصدر نفسه، (324-322/14).

³ المصدر نفسه، (425 و 424/13).

أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ ... ﴿ القصص: ٢٧ - ٢٨، حيث قال: " هذه القصة تشير إلى أمر هام جدًا لو فقه الناس توجيهها، وعلموا ما فيها من خير وفضل، لقد عرض والد الفتاتين في غير حرج ولا التواء، فهو يعرض نكاحا لا يخجل منه، إن هذا العَرَض هو عرض بناء أسرة وإقامة بيت، وليس فيه ما يخجل ولا ما يدعوا إلى التَحَرُّج والتردد والإيماء من بعيد والتصنّع والتكلف ممّا يشاهد في البيئة التي تنحرف عن سواء الفطرة، وتخضع لتقاليد مصطنعة باطلة سخيفة، تمنع الوالد أو وليّ الأمر من التقدّم لمن يرتضي خلقه ودينه وكفايته لابنته أو أخته أو قريبته وتحتّم أن يكون الزوج أو وليه أو وكيله هو الذي يتقدم، أو لا يليق أن يجيء العرض من الجانب الذي فيه المرأة...! ومن مفارقات وعجائب الأمر فإن مثل هذه البيئة المنحرفة أن الفتيان والفتيات يلتقون ويتحدثون ويحتلّطون ويتكشفون بعضهم لبعض في غير ما خطبة ولا نية نكاح، ومغازلة في الطرقات بلا خجل ولا وازع. فأما حين تعرض الخطبة أو يذكر النكاح، فيهبط الخجل المصطنع، وتقوم الحوائل المتكلفة، وتمنع المصارحة والبساطة والإبانة...! ولقد كان الآباء يعرضون بناتهم على الرجال على عهد رسول الله ﷺ، بل كانت النساء تعرض نفسها على النبي ﷺ¹ أو من يرغب في تزويجهن منهم².

الفرع الثاني: العلاقات الأسرية ومقومات نجاحها:

تحدث التواتي عن الأسرة باعتبارها أساس بناء المجتمع وقاعدته الصلبة؛ فبيّن المقومات التي تُسهم في إنجاح العلاقة الأسرية وتنميتها، وأذكر من ذلك ثلاث قواعد تتعلق بهذا الموضوع وهي:

أولاً: العلاقة الأسرية الناجحة هي قاعدة المجتمع المثين:

تحدّث الشيخ التواتي عن القاعدة الأساسية التي يُبنى عليها المجتمع المسلم الناجح الذي يُرجى منه المضيّ قُدماً وتحقيق الآمال؛ وهو المجتمع الذي يمتاز بنجاح العلاقات الأسرية فيه، فإنجاح الأسرة فائدته متعدّية لإنجاح المجتمع، وقد ذكر الشيخ ذلك عند تفسيره لقوله تعالى ﴿وَلَا تَكُونُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنَ وَلَآئِمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ البقرة: ٢٢١، حيث قال: " بين يدي النص: نحن في هذا الدرس نتطرق إلى جانبٍ من التنظيم للقاعدة الأساسية التي يقوم عليها المجتمع الإسلامي، وهذه القاعدة التي

¹ ومن ذلك قصة المرأة التي أتت النبي ﷺ فقالت: وهبت نفسي لله ولرسوله ﷺ فقال (ما لي في النساء من حاجة)، فقال رجل:

زوّجنيها، قال (أعطيتها ثوبا)، قال: لا أجد، قال (أعطها ولو خاتما من حديد)، فاعتلّ له، فقال (ما معك من القرآن)، قال كذا وكذا قال (فقد زوّجتها بما معك من القرآن). رواه البخاري، كتاب: فضائل القرآن، باب: خيركم من تعلم القرآن وعلمه، برقم: 4741.

² الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (322-324/14).

أحاطها الإسلام برعاية ملحوظة، واستغرق تنظيمها وحمايتها وتطهيرها من فوضى الجاهليّة جهداً كبيراً، نراه متناثراً في سور عديدة من القرآن محيطاً بكلّ المقومات اللازمة لإقامة هذه القاعدة الأساسية الكبرى. إن النظام الاجتماعي الإسلامي نظام قائم على أسرة، وبما أنه نظام رباني للإنسان، فهو ملحوظ فيه كلّ خصائص الفطرة الإنسانية وحاجاتها ومقوماتها. وينبثق نظام الأسرة في الإسلام من معين الفطرة وأصل الخلقة، وقاعدة التكوين الأولي للأحياء جميعاً وللمخلوقات كافة¹.

ثانياً: ثنائية الحقوق والواجبات مصدرها القرآن والسنة:

من أهم المقومات التي تنجح بها الأسرة المسلمة؛ مسألة: معرفة الحقوق والواجبات بين الزوجين، هذا الأمر الذي قد تختلف فيه وجهات النظر بينهما فيقع نزاع يصعب حلّه، ولذلك كان أهم مصدر يرجع إليه الزوجان في تحديد تلك الثنائية هو: الكتاب والسنة.

وللشيخ التواتي كلمة نفيسة جامعة في بيان ما على الزوجين وما لهما من حقوق وواجبات، والتي إذا تحققت فيهما تنجح العلاقة الزوجية وتحصل السكينة المرجوة من الزواج، وقد ذكر الشيخ ذلك في تفسيره لقوله تعالى ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْمَلُوا أَنْ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ البقرة: ٢٣١، حيث قال: "فائدة هامة: إن المقصود من حياة الزوجية بناءً قائم على كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ وما كان قائماً على هذين الأصلين، لا شك أنه لا تتم السكينة المنشودة بين الزوجين المنصوص عنه في كتاب الله تعالى المؤكد عنها في سنة رسول الله ﷺ إلا إذا كان كلّ واحد من الزوجين مراعيًا حق الآخر، وتلك الحقوق المشتركة كثيرة، ونحن نشير إلى بعض منها:

أن الزوج كالأمير الراعي لشؤون مملكته من الخارج، والزوجة كالأميرة الراعية لشؤون مملكتها في الداخل:

- فيجب على الزوج بسبب كونه أميراً وراعياً أن يقوم بحقها ومصالحها خارج البيت.

- ويجب على الزوجة في مقابل ذلك إظهار الانقياد والطاعة للزوج، لما بينهما من مصالح وحقوق وواجبات، وتوفير الراحة والسكون لزوجها، وليعلما أن هذا البنيان الذي أقاماه لا يدوم ثابتاً شامخاً إلا بالانسجام بينهما، وكلّ تضییع ناتج عن أحدهما يؤدي إلى تقويض البنيان وتصدّعه ويصبح عرضة

¹ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (4/65)، وينظر أيضاً: الدر الثمين، (4/69).

للاختيار والزوال، وهذا التفاهم يتطلب أن يراع فيه أعظم الأشياء وأبسطها، ولعلّ ما روي عن ابن عباس رضي الله عنه خير دليل أنه قال: "إني لأتزين لامرأتي كما تتزين لي"¹ لقوله تعالى ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ البقرة: ٢٢٨. لا بد للرجل أن يراعي القوامة التي مُنحها من الله تعالى، لا يحقر المرأة ولا يُذهّا، ولتكن عشرته لها عشرة المؤمن المراعي للأمانة التي أسندت إليه. وإذا كانت المرأة مستجيبة للنصح، مطيعة لأمر زوجها متودّدة إليه، لا يجب عليه أن تزدرج بالهجر، أو يسيء إليها النساء أمانة ووصية رسول الله صلّى الله عليه وآله بقوله في حجه: «استوصوا بالنساء خيرا فإنهن عندكم عوان»². فنحن مأمورون بالرفق بالنساء"³. وقال في موضع آخر: "إن الدين الذي ختم الله به جميع الأديان هو دين محبة ورحمة وتكامل بين الرجل والمرأة، كلٌّ منهما يعرف ما خول الله له من حقوق، وألزمه من واجبات"⁴.

ثالثا: الاعتدال في التعامل مع أفراد الأسرة:

قد تغلب عاطفة الرجل عليه مع أهل بيته فيقع فيما يغضب الله تعالى بتقديم حقّ أهله على حق ربّه، ولذلك جاء التوجيه الرباني في هذا الباب بالتوسط والاعتدال ووضع كلّ شيء في مكانه المناسب، ومن تلك التوجيهات ما جاء في سورة التغابن في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ التغابن: 14-18، وسبب نزول هذه الآية ما جاء في جواب ابن عباس رضي الله عنه لرجل سألها عنها فقال: هؤلاء رجال أسلموا من أهل مكة وأرادوا أن يأتوا النبي صلّى الله عليه وآله، فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعّوهم أن يأتوا رسول الله صلّى الله عليه وآله، فلما أتوا رسول الله صلّى الله عليه وآله رأوا الناس قد فقهوا في الدين همّوا أن يعاقبهم، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ الآية⁵. ولما فسّر الشيخ التواتي هذه الآية وذكر سبب نزولها، استنبط منها توجيهها ربّانيا عظيما يسهم في إصلاح الأسرة فقال: "روابط الأسرة: أما الآيات الأخيرة من السورة فتتجه لبناء المجتمع وتهذيب العاطفة

¹ رواه ابن أبي شيبة في مصنف، كتاب الطلاق، ما قالوا في قوله تعالى {وللرجال عليهن درجة} .رقم: 19608.

² رواه أحمد في مسنده، أول مسند البصريين، حديث عم أبي حرة الرقاشي، برقم: 20695، (299/34)، وقال الألباني: "حسن"،

ينظر: صحيح ابن ماجه، (311/1).

³ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (152/4).

⁴ المصدر نفسه، (474/6).

⁵ رواه الترمذي في أبواب تفسير القرآن عن رسول الله صلّى الله عليه وآله، باب: ومن سورة التغابن، رقم: 3317. وقال عنه مقبل بن هادي

الوادعي: "الحديث ضعيف". ينظر: الصحيح المسند من أسباب النزول، مُقبِلُ بنُ هَادِي الوَادِعِي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة

ط: 4، سنة: 1408هـ-1987م، (ص: 216).

وتوجيه العلاقات الأسرية الوجهة السليمة... والإسلام يهدّب الغرائز، ويُنمي الفطرة ويوجّهها الوجهة السليمة، فيأمر بالاعتدال في حبّ المال والولد، ويحذّر من الافتتان بهما، وإذا طلبت الزوجة أو الأولاد ما يغضب الله حذار من طاعتهما، لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق¹.

الفرع الثالث: عوامل هدم العلاقات الأسرية:

بعد حديث التواتي عن أسباب تقوية العلاقات الأسرية، تحدّث عمّا يقابلها وهو: عوامل هدمها، من باب معرفة الشرّ لتوقيه، وقد ذكر عاملين مهمّين لهما أثر كبير في هدم الأسرة هما:

أولاً: تحطّم الأسرة المسلمة بسبب المخالفات الشرعية:

الأسرة بناء محكم متين، وقد جاءت تكاليف الإسلام بما يحافظ عليها ويصونها من الوقوع والتصدّع، وقد نبّه مفسّرنا في ثنايا تفسيره على ضرورة المحافظة على الأسرة وصيانتها من كلّ ما يُضعفها من المخالفات الشرعية، مثل: الفواحش التي أمر الله بعدم القرب منها، ولذا فإنه لما فسّر قوله تعالى ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ الأنعام: ١٥١، حدّر من الفواحش وبين أثرها السيئ على الأسرة فقال: "والفواحش هاهنا جمع فاحشة، وهي ما عظمُ قُبْحُه من الأقوال الأفعال، وأكثر إطلاقاتها على فاحشة الزنا... والفواحش كلّها مما يحطّم قوام الأسرة وينخر في جسم الجماعة فوق ما يلطخ ضمائر الأفراد ويدنّس الأعراس"².

ثانياً: هدم الأسرة بسبب الابتعاد عن الكتاب والسنة: وهذا أكبر سبب لهدم الأسرة لأنها تصير أسرة ضعيفة البنيان، ففي تفسير قوله تعالى ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ النساء: ٣٥، يقول التواتي: "رسم لنا ربنا الكريم العليم الخبير الطريق الأسلم، وبين لنا المنهج الأقوم لبناء أسرة سليمة من الأذى طاهرة المعنى، يشار إليها بالرضى، لنكون أمةً من خير الأمم أخرجت للناس آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر. واعلموا أنه لا يتأتى ذلك إلا إذا أخذتم التوجيهات النبوية منهجا في حياتكم وإن تعارضت مع مصالحكم الدنيوية؛ لأنكم مأمورون شرعا أن تقتنوا برسول الله ﷺ في كلّ سلوككم وذلّكم بقوله تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ الأحزاب: ٢١. وإن سبب ضعفنا وتمزقنا، واختلافنا هو ابتعادنا عن منهج ربنا، وإن ضياعنا منشأه أولا

¹ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (193/19 و194)، وينظر أيضا: (231/19).

² المصدر نفسه، (172/9).

بناء الأسرة على غير المنهج الذي أمرنا باتباعه. واعلموا أن لا صلاح لآخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، وإن أولنا كان بكتاب الله متمسكا وسنة نبيه مطبقا، وهما ميراث محمد ﷺ¹.

الفرع الرابع: مكانة المرأة في الإسلام:

تحدث الشيخ التواتي عن موضوع المرأة وعلاقته بالأسرة باعتبار المرأة هي الركن الأساس داخل أسرتها تسهم في صلاحها بحسن أخلاقها أو في فسادها بسوء أخلاقها، وقد تنوعت كلمات مفسرنا حول هذا الموضوع، فوجدته تحدث عنه من ثلاث نواحي هي:

أولا: مقارنة بين حال المرأة في الجاهلية وحالها في الإسلام:

حيث كرم الإسلام المرأة و حفظ لها حقوقها، وقد تبّه الشيخ على ذلك في مواضع كثيرة في تفسيره، فمن ذلك تركيزه على الفرق بين حال المرأة في الجاهلية وفي الإسلام، فالشريعة الإسلامية حذرت من عادات الجاهلية من ظلم النساء وأكل مهورهن وعدم معاملتهن المعاملة الإنسانية الشريفة، وفي ذلك يقول الشيخ التواتي: "وذلك باستنقاذ المرأة مما كانت تزرع² تحته في الجاهلية من خسف وهوان ومن تعسف وظلم حتى تقوم الأسرة على أساس سليم ركين ومن ثم يقوم المجتمع-وقاعدته الأسرة- على أرض صلبة وفي جو نظيف عفيف"³.

وقد استفاد الشيخ في هذا الموضوع عند تفسيره لقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحْشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ النساء: ١٩، فنبّه على أنواع الظلم الذي كانت تعيشه المرأة في الجاهلية مستعينا بسبب نزول الآية الذي نقل فيه روايتين:

أولهما: أَنَّ كُبَيْشَةَ أَتَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فقالت: يا رسول الله إن أبا قيس توفي وولي ابنه نكاحي وقد أضر بي وطول علي، فلا هو ينفق علي ولا هو يدخل بي ولا هو يخلي سبيلي. فقال لها: "اقعدي في بيتك حتى يأتي فيك أمر الله"، قال: فانصرفت وسمع النساء بذلك فأتين رسول الله ﷺ وهو في مسجد

¹ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (71/7).

² يقال: رَجَحَ الشَّخْصُ: ضَعُفَ وَسَقَطَ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْإِعْيَاءِ وَالْهُزَالِ. معجم اللغة العربية المعاصرة، د أحمد مختار عبد الحميد عمر بمساعدة فريق عمل، عالم الكتب، ط: 1، سنة: 1429هـ- 2008م، (883/2).

³ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (448/6).

الفضيخ فقلن: يا رسول الله ما نحن إلا كهيئة كبيشة غير أنه لم ينكحنا الأبناء وإنما نكحنا بنو العم! فأنزل الله عز وجل هذه الآية¹.

وثانيهما: ما نقله عن الشافعي: أنها نزلت في الرجل يكره المرأة، فيمنعها كراهية لها حق الله في عشرتها بالمعروف، ويجبسها مانعاً لحقها ليرثها من غير طيب نفس منها، بإمساكه إياها على المنع، فحرّم الله تعالى ذلك على هذا المعنى².

وبعد ذكره لهاتين الروايتين قال معلقاً: "فجاء الإسلام بسماحته وعدله فشجب³ هذه المظالم ودعا إلى إنصاف المرأة وأثبت لها حقّها"⁴.

ثانياً: الردّ على ما يشهده الواقع من صراع المرأة مع الرجل:

وهي مسألة أثارها المرجفون في بلاد الإسلام وأسيادهم في بلاد الكفر، وغرضهم منها تنفير المرأة من اتباع تعاليم الإسلام الذي هضمها حقّها -زعموا-، ولذلك حاول التواتي التصدّي لدعواهم وبيان عوارها فقال: "توضيح: قد يقول أحدكم أيها الناس إن المرأة اليوم قد أخذت حقّها وزيادة وأنها في صراع مع الرجل، وهذا هو الخطأ في نظر الشريعة، وهذا هو ما يريده أعداء الدين ليظهر في وسط المسلمين، إن الدين الذي ختم الله به جميع الأديان هو دين محبة ورحمة وتكامل بين الرجل والمرأة كلٌّ منهما يعرف ما خول الله له من حقوق، وألزمه من واجبات. ألم يوص رسول الله ﷺ بالنساء في آخر لحظة من وجوده قال: «استوصيكم بالنساء خيراً»، ألم يجعل إكرام المرأة دليل أن الفاعل كريم؟، ألم يخاطب المرأة بأن من مات زوجها وهو عنها راض دخلت الجنة؟، ألم يوص رسول الله بالاعتناء بتربية البنت؟، وهناك نصوص لا يتسع المقام لذكرها"⁵.

ثالثاً: بيان معنى قوامة الرجل على المرأة:

¹ العجّاب في بيان الأسباب، ابن حجر العسقلاني، (2/850).

² تفسير الإمام الشافعي، ت: د: أحمد بن مصطفى الفرّان، دار التدمرية، المملكة العربية السعودية، ط: 1، سنة: 1427-2006م، (2/557).

³ شجب: بمعنى: أذهب وأبطل. مقاييس اللغة، ابن فارس، (3/249).

⁴ الدرّ الثمين، التواتي بن التواتي، (6/474).

⁵ المصدر السابق، (6/474).

ومعنى القوامة هو: ولاية يُفَوِّضُ بموجبها الزوج تدبير شؤون زوجته وتأديبها وإمساكها في بيتها ومنعها من البروز¹. ولما تحدّث الشيخ التواتي عن القوامة التي وردت في قوله تعالى ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ النساء: ٣٤، بيّن الماهية الصحيحة لها في الشرع بعكس ما يمارسه أو يفهمه كثير من الناس، فقال: "تنبيه هام: ولا تفهم القوامة - كما يفهمها البعض في زماننا هذا- أنه التسلّط والقهر، فإن الله تعالى جعل هذه القوامة رحمة ومودة وخدمة يقدمها الرجل للمرأة، وأخذ بيدها إلى مرضاة الله، وما يصلح حالها"².

¹ الموسوعة الفقهية الكويتية، مجموعة من المؤلفين، ط: 1، مطابع دار الصفوة، مصر، (76/34).

² الدرّ الثمين، التواتي بن التواتي، (62/7).

المبحث الثاني: المعالم المتعلقة بربط القرآن بأحوال المجتمعات.

من المعالم التي يركز عليها الاتجاه الاجتماعي في التفسير؛ ما يتعلق بحديث القرآن الكريم عن علاج ما تعانيه المجتمعات من انحرافات واضطرابات ونقائص تتعلق بشتى جوانب الحياة: الأخلاقية، والاجتماعية، والاقتصادية، السياسية... الخ، وكذا تصحيح العبادة مما أضيف إليها من شوائب، وضبط المعاملات بين الأفراد، ولذا شغل هذا المعلم حيّزا كبيرا من تفسير "الدرّ الثمين"، حيث سعى الشيخ التواتي لإبراز منهج القرآن في علاج القضايا المتعلقة بالمجتمع والتي قد تتجدّد في كلّ مرّة بسبب تغير أحوال الأفراد والمجتمعات. وقد تتبعت ما ذكره مفسّرنا في هذا الموضوع فوجدته اعتمد على عدّة جوانب شكّلت مجموعها ثلاثة معالم مهمّة، ولذا قسّمت هذا المبحث إلى ثلاثة مطالب، اشتمل كلّ واحد منها على معلم وهي:

المطلب الأول: معلم "شمول القرآن".

المطلب الثاني: معلم "تنزيل الآيات على الواقع".

المطلب الثالث: معلم "الوعظ والإرشاد".

و تفصيلها كما يلي:

المطلب الأول: معلم "شمول القرآن":

وهذا المعلم ذكره الأستاذ فهد الرومي ضمن أسس المدرسة العقلية الاجتماعية في التفسير فقال: "الشمول في القرآن الكريم وهو أمر مسلّم؛ إذ الشمول فيه فرع عن الشمول في الرسالة الإسلامية عامة، فهي ليست لأمة دون الأمم، ولا لطائفة دون طائفة، ولا لزمان دون زمن ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ الأعراف: ١٥٨؛ ولذا جاء القرآن الكريم أيضًا -وهو كتاب هذه الرسالة- شاملاً ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأَنذِرْكُمْ بِهِ ۖ وَمَنْ بَلَغَ﴾ الأنعام: ١٩، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ ص: ٨٧¹.

ومن خلال كلام الأستاذ الرومي، يمكن الخروج بمعنى لشمول القرآن بأنه: عموم آيات القرآن و مخاطبته لكل فرد وطائفة وأمة، في أي زمان ومكان، دون قصر معانيه على أسباب النزول، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، إلا ما دلّ الدليل على تخصيصه، فوجه كون هذا المعلم من معالم

¹ اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، د: فهد الرومي، (769/2).

الاتجاه الاجتماعي هو شمول خطابه لجميع فئات المجتمع بمختلف انتماءاتهم وخلفياتهم لأن القرآن يهدف إلى إصلاح المجتمع بجميع أطيافه وفي كلّ زمان ومكان.

ومن هذا المنطلق سار المفسرون الجزائريون أصحاب النزعة الإصلاحية في تفاسيرهم وفق ما يتماشى مع هذا المعلم ومنهم الشيخ التواتي، فالمتنبّع لتفسيره يجد الشيخ يفسّر آيات القرآن الكريم متوافقة مع معلم شمول القرآن، حيث طبّقه من خلال ثلاثة مظاهر تندرج تحت ثلاثة فروع هي:

الفرع الأول: عمومية القرآن:

وقد اخترت هذا المصطلح لأنّ الشيخ التواتي استعمله في تفسيره في عدّة مواضع، من ذلك ما جاء في تفسيره لقوله تعالى ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ المدثر: ١١، حيث ذكر التواتي اختلاف المفسرين في معنى "وحيداً"؛ فذكر قولين: أنه الوليد بن المغيرة المخزومي الذي نزلت الآية فيه¹، فكان يلقب الوحيد، لأنه لا مثيل له في المال والشرف، والثاني: أن معنى "وحيداً" هو: العبد يُخلق في بطن أمه وحيداً، أي: ضعيفاً لا شيء له. ثم رجّح هذا القول لتناسبه مع عمومية القرآن فقال: "والرأي الصائب والذي تطمئن إليه النفوس ويتفق مع عمومية القرآن، وهو أن مدلول الآية يعمّ كلّ البشر في كلّ زمان ومكان، لأنّ الإنسان يولد من بطن أمه طفلاً وحيداً ضعيفاً لم يعرف بعد حظه من الحياة ولو كان أبوه ملكاً وأطلق عليه اسم وليّ العهد أو يلاقي حتفه، فكلّ البشر يبدؤون من نقطة واحدة وهو ميلادهم كأطفال ضعفاء وحيدين كما ينتهون جميعاً بنهاية واحدة وهي الموت"².

ولهذا نجد الشيخ التواتي دائم التأكيد في تفسيره على عمومية القرآن الكريم، وأن آياته موجهة لجميع الأمم وصالحة لكلّ زمان ومكان. ومظاهر تطبيقه لهذا العموم كان كالاتي:

أولاً: القرآن صالح لكلّ زمان ومكان:

وهذا وجهٌ عظيمٌ من أوجه إعجاز القرآن الكريم أن ألفاظه نزلت في زمن معيّن لكنها صالحة لأن تنزل على كلّ الأزمنة والأمكنة التي جاءت بعد نزوله؛ وفي هذا المعنى يقول الشيخ: "القرآن لم ينزل لعصر دون عصر، بل نزل لأمة ممتدّة عبر الزمن موعلة في الاستقبال، ويُخاطَب به آخرُ فردٍ زمني في أمة الدعوة تماماً كما خوطب به أولُ فردٍ فيها"³.

¹ أسباب النزول، الواحدي، (ص: 447).

² الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (466/19).

³ المصدر نفسه، (60/15).

وانطلاقاً من ذلك نجد مفسرنا يؤكد على عمومية القرآن بتصريحه أن ما جاء فيه من معان وأحكام صالحة لكلّ زمان ومكان وإن كان في الأزمان المتأخرة، ومن أمثلة ذلك: ما جاء في تفسير قوله تعالى ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ العنكبوت: ٢٤، فالآية بيّنت ردّة فعل قوم إبراهيم عليه السلام وعنادهم ومكابرتهم، ودفعهم الحقّ بالباطل لأنهم قام عليهم البرهان وتوجّهت عليهم الحجة، فعدّلوا إلى استعمال جاههم وقوة ملكهم فأرادوا قتله أو حرقه¹، ولما بيّن الشيخ معنى الآية عمّمها على كل الظالمين وإن اختلفت أزمانهم فقال: "موعظة الجلسة: وتلكم هي طبيعة الظالمين في كلّ زمان وفي كلّ مكان؛ هو التعذيب والتحرّيق والهدم للبنيان، والاستظهار للقوة مع جهلهم أن القوة لله وحده، وأن ما يفعلونه بالمؤمنين ما هو إلا ابتلاء وامتحان لأهل الحق، وإن الله تعالى قادر على نصرهم لو شاء وإن في صبرهم تثبيتاً من الله تعالى وحده"².

ثانياً: **تعميم خطابات الآيات القرآنية:** فالقرآن الكريم خطابه عامّ لكلّ الأجيال والأمم على اختلاف أجناسهم ومساكنهم، وهذا ما كان مُسلّماً عند الشيخ التواتي، حيث قال: "وأن هذا القرآن لا يقصّر عمن سبقنا في الوجود توجيها وإرشادا، بل يخاطبنا الآن، ويخاطب من يأتي بعدنا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها؛ لأنه ما جاء ليقود جيلاً دون جيل، وإنما جاء ليقود هذه الأمة التي سماها خليل الرحمن (المسلمين)، وليكون مرشداً وهادياً ومقوماً في جميع الأجيال والدهور. أما الآن وقد ذكرنا أن النص القرآني يخاطب الناس جميعاً على اختلاف عصورهم، فما بال بعض منّا في زماننا يبتغون العزة عند الغرب اللعين"³، ومن الأمثلة التطبيقية المبينة لاهتمام الشيخ بقضية تعميم آيات القرآن أنه لما فسّر قوله تعالى ﴿وَأَنبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ الزمر: ٥٤، فالآية: نداء للمذنبين والمسرّفين بأن يرجعوا إلى طاعة الله بفعل المأمور وترك المنهي وإخلاص الأعمال الظاهرة والباطنة له سبحانه قبل حلول العذاب بهم⁴، وقد استغل الشيخ هذا العموم الوارد في الآية فعمم مضمونها على جميع الفئات فقال: "إنّ هذا الخطاب عام موجه للكلّ، إن الخطاب غير مخصوص بقوم

¹ تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (271/6).

² الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (447/14)، وينظر للمزيد من الأمثلة الدر الثمين: (247/10)، (49/2)، (383/4)، (315/9)، (247/10)، (115/14)، (191/14)، (58/17)، (141/18).

³ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (367/7). وينظر: الدر الثمين: (57/20).

⁴ أيسر التفاسير لكلام علي الكبير، أبو بكر الجزائري، (501/4).

دون قوم، بل تحذير لكل الناس، فاحذروا -رحمكم الله- من يوم هائل مهول مخافة، احذروا يوم الفرار، احذروا يوم التغابن، احذروا يوم المجادلة، أي: يوم تجادل كل نفس عن نفسها¹.

ثالثاً: تعميم أحكام الآيات القرآنية: والمقصود بها ما تضمنته آيات الأحكام وجاءت بألفاظ عامة، فإن الشيخ كان يعممها على كل من تنطبق عليه علّة الحكم، ومن ذلك: ما جاء في تفسير قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الأنفال: ٢٧، حيث تحدث مفسرنا عن سبب نزولها وأنها نزلت في أبي لبابة الأنصاري، وذلك أن رسول الله ﷺ حاصر يهود قريظة إحدى وعشرين ليلة، فسألوا رسول الله ﷺ الصلح على ما صالح عليه إخوانهم من بني النضير، على أن يسيروا إلى إخوانهم بأذرع وأرجحاء، من أرض الشام. فأبى أن يعطيهم ذلك إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ، فأبوا وقالوا: أرسل إلينا أبا لبابة، وكان مناصحاً لهم لأن ماله وعياله وولده كانت عندهم، فبعثه رسول الله ﷺ فأتاهم، فقالوا: يا أبا لبابة، ما ترى؟ أنزل على حكم سعد بن معاذ؟ فأشار أبو لبابة بيده إلى خلقه: إنه الذبح فلا تفعلوا. قال أبو لبابة: والله ما زالت قدماي عن مكانهما حتى علمت أن قد حُنت الله ورسوله، فنزلت الآية²، ثم عمم الشيخ لفظ الآية وحكمها لتكون عامّة في كل أنواع الخيانة، فقال: "والآية عامة تشتمل كل خيانة، ولذلك فسر ابن عباس خيانة الله بترك فرائضه وارتكاب معصيته، والأمانة بكل ما اتّمن الله عليه العباد"³.

ثم ذكر أمثلة لأنواع من الخيانة التي تدخل في لفظ الآية نقلاً عن الإمام المراغي⁴ الذي قال: "لا تخونوا أماناتكم" فيما بين بعضكم وبعض من المعاملات المالية وغيرها؛ حتى الشؤون الأدبية والاجتماعية، إفشاء السر خيانة محرمة ويكفي في العلم بكونه سرّاً قرينة قولية كقول محدثك: هل يسمعون أحد؟ أو فعلية كالالتفات لرؤية من عساه يجيء، و أكد أمانات السر وأحفظها بالحفظ ما يكون بين الزوجين. كذلك "لا تخونوا أماناتكم" فيما بينكم وبين أولى الأمر من شؤون سياسية أو حربية فتطّلعو عليها عدوكم وينتفع بها في الكيد لكم"⁵.

¹ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (402/16). وينظر أيضاً الدر الثمين: (58/13)، (214/13)، (537/1)، (169/5)، (466/7)، (120/8 و121).

² أسباب النزول، الواحدي، (ص: 238).

³ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (56/10).

⁴ تفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي، (193/9).

⁵ وينظر مزيداً من الأمثلة التطبيقية: الدر الثمين، (26/19 و27)، (102/3)، (115/4)، (182/7)، (428/7)، (155/8)، (174/14)، (394/16)، (401/16)، (134/19).

رابعاً: ماخوطف به النبي ﷺ وتدخل فيه أمتة:

وهذه المسألة تتحدث عن أنواع الخطاب القرآني ومدلولاتها؛ حيث جاءت تلك الخطابات على ثلاثة أنواع بيّنها الإمام ابن العربي، وذكر منها النوع الثالث المقصود هنا بالتعميم فقال:

"خطاب خص به النبي ﷺ قولاً ويشركه فيه جميع الأمة معنى وفعلاً، كقوله: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ الإسراء: ٧٨... فكل من دلكت عليه الشمس مخاطب بالصلاة¹.

وقد بيّن الشيخ التواتي هذه المسألة؛ فما كان عاماً للأمة نصّ على عمومها، وما كان خاصاً بالنبي ﷺ بيّن أنه من خصائصه²، وأما القسم الثالث فهو على نوعين:

- ما كان خطاباً موجهاً لرسول الله ﷺ وتشارك معه أمتة فيه.
- ما كان خطاباً موجهاً لرسول الله ﷺ ولكن يقصد به أمتة أو طرفاً منها³.

ومن الأمثلة التطبيقية لهذا القسم الأخير -الذي هو مقصد البحث- فيما تشارك فيه الأمة كلها مع النبي ﷺ: ما ذكره في تفسيره لقوله تعالى ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿الأنعام: ١٧-١٨، فقد بيّن الشيخ معنى الآيتين ثم قال: "وهذا الخطاب وإن كان للنبي ﷺ فهو عام لكل أحد، والمعنى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ أيها الإنسان فلا كاشف لذلك الضر إلا هو ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾ أيها الإنسان ﴿فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من دفع الضر وإيصال الخير. من حديث أنس بن مالك قال: أن رسول الله ﷺ قال: «اطلبوا الخير دهركم كله، وتعرضوا لنفحات رحمة الله، فإن الله نفحات من رحمته، يصيب بها من يشاء من عباده، واسألوه أن يستر عوراتكم، ويؤمن روعاتكم" رواه ابن عساکر⁴»⁵.

¹ أحكام القرآن، ابن العربي، ت: عبد القادر عطا، ط: 3، سنة: 2003م، دار الكتب العلمية، بيروت، (576/2-577).

² ومثاله ما جاء في تفسيره لقوله تعالى ﴿خَالِصَةً لِّكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الأحزاب: ٥٠، حيث ذكر أنّ من خصائصه ﷺ في النكاح: التخيير والعدد في النساء، (279/15).

³ وهناك بعض الآيات من هذا القسم ذكر الشيخ اختلاف المفسرين في توجيه الخطاب فيها ومن هو المقصود بالخطاب، ينظر مثلاً: الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (390/2)، (256/8 و258).

⁴ رواه ابن عساکر في تاريخ دمشق "حرف الميم"، ترجمة: محمد بن إدريس بن المنذر بن داود، برقم: 10905. (3/52).

وقال فيه الألباني: "حسن". ينظر: السلسلة الصحيحة، الألباني، (511/4).

⁵ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (355/8)، وينظر أيضاً: الدر الثمين: (506/2)، (229/7)، (383/8)، (189/12).

الفرع الثاني: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب:

من القواعد المهمة المتعلقة بمعلم "شمول القرآن الكريم" قاعدة "العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب"، والتي تعني: أنّه إذا وقعت حادثة في زمن النبي ﷺ فأنزل الله عزّ وجلّ على نبيّه آية مبيّنة لتلك الواقعة بلفظ من ألفاظ العموم، فمعنى الآية حينئذ يشمل صاحب تلك الحادثة وغيره ممّن شابهه فيها، لأنّ القرآن نزل تشريعا عاما لجميع الأمة ولا يختص بالسبب¹. وقد تحدث مفسرنا الشيخ التواتي عن هذه القاعدة واهتم بها كثيرا ومن عدّة جوانب بيّاها كما يلي:

أولا: تعريف القاعدة وبيان معناها:

حيث بيّن الشيخ معنى هذه القاعدة فقال: "عموم اللفظ وخصوص السبب: نشير أنه إذا نزلت الآية لسبب خاص، ولفظها عام كان شاملا لسببها، ولكل ما يتناوله لفظا، لأن القرآن نزل تشريعا عاما لجميع الأمة فكانت العبرة بعموم لفظه لا بخصوص سببه"².

ثانيا: كونها من المسائل المهمة في أصول الفقه:

بين الشيخ التواتي أهمية القاعدة وأنها من مسائل أصول الفقه، فقال: "وذكر الأصوليون أن النص القرآني لا يحصر في سبب النزول بل بعموم الخطاب، ولذلك فإن حكم هذه الآية يعم جميع الخلق...، وهذا من قواعد علم أصول الفقه، إذ النص يبقى على عموم ما لم يؤت بنص آخر لتخصيصه"³.

ولما فسّر قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ البقرة: ١٧٤، بين سبب نزول الآية وهو ما روي عن ابن عباس أنها نزلت في رؤساء اليهود وعلمائهم كانوا يصيبون من سفلتهم الهدايا والفضل وكانوا يرجون أن يكون النبي المبعوث منهم، فلما بعث محمد ﷺ من غيرهم خافوا ذهاب ما كُلتهم وزوال رياستهم فعمدوا إلى صفة محمد ﷺ فغيروها ثم أخرجوها إليهم وقالوا: هذا نعت النبي الذي يخرج في آخر الزمان لا يشبه نعت هذا النبي فأنزل الله الآية⁴. ثم بيّن معناها الإجمالي، ونص على المسائل الأصولية المتعلقة بها، فقال: "المسائل الأصولية: هذه

¹ مقال "قاعدة (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب) وأثرها في تعميم مقاصد الآيات القرآنية دراسة نظرية تطبيقية"، د: هشام

شوقي، الرابط: <https://www.asjp.cerist.dz/en/article/217728>.

² الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (114/3).

³ المصدر نفسه، (36/11).

⁴ لباب النزول، جلال الدين السيوطي، (ص: 22).

الآية الكريمة مشتملة على مسائل من صميم علم أصول الفقه... ومنها: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فالآية وإن نزلت في اليهود لكنها عامة في حق كلّ من كتم شيئا من باب الدين يجب إظهاره فتصلح لأن يتّمسك بها القاطعون بوعيد أصحاب الكبائر¹.

ثالثا: تطبيقاته للقاعدة:

طبق الشيخ التواتي قاعدة "العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب" في عدّة مواضع من تفسيره واستعملها لتعميم معاني القرآن الكريم، وقد جاءت تطبيقاته لها على أوجه هي:

1- التصريح بألفاظ القاعدة: ومن أمثلة ذلك: ما جاء في تفسير قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ﴾ البقرة: ١٥٩، حيث ذكر التواتي الاختلاف في سبب نزول الآية، فقيل: نزلت في أهل الكتاب لكتهم نبوة نبينا ﷺ وآية الرجم وغيرها من الأحكام التي كانت في التوراة، وقيل: بل هي في كلّ من كتم الحق وترك بيان ما أوجب الله بيانه². ثم رجّح عموم الآية مصرّحا باعتماده على القاعدة فقال: "والأقرب أنها نزلت في اليهود والحكم عام كما تدلّ عليه الأخبار، وكونها نزلت في اليهود لا يقتضي الخصوص فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فاسم الموصول (الذين) للاستغراق ويدخل فيه من ذكر دخولا أوليا"³.

2- عدم التصريح بالقاعدة مع العمل بها وذكر قرائن أخرى:

حيث كان الشيخ التواتي لا يصرح بالقاعدة ولكنه يعمل بها، ويذكر قرائن خارجية تدلّ على الحكم بعمومية الآية، ومثال ذلك: ما جاء في تفسيره لقوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ آل عمران: ٧٧، حيث ذكر التواتي اختلاف المفسرين في سبب نزول الآية فذكر منها: أنها نزلت في أحبار اليهود: أبي رافع، وكنانة بن أبي الحقيق، وكعب بن الأشرف، وحبي بن أخطب، وقيل: نزلت فيمن حرّف نعتة ﷺ من اليهود. وقيل: نزلت في خصومة الأشعث بن قيس

¹ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (244/3).

² معالم التنزيل في تفسير القرآن، البغوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: 1، سنة: 1420هـ، (194/1). وفتح البيان في مقاصد القرآن، صديق خان القنوجي، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، سنة: 1992 م. (323/1).

³ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (126/3). وينظر أيضا تطبيقاته للقاعدة: الدر الثمين: (191/3)، و(244/3)، (416/11)، و(197/17)، و(285/18)، (44/20).

مع يهودي، أو مع بعض قرابته. وقيل نزلت: في رجل حَلَفَ يميناً كاذبة على سلعة مساء لأعطي بها أول النهار كذا¹.

والشيخ التواتي لما ذكر بعضاً من هذه الأسباب المروية في نزول الآية حملها على العموم ولم يصرّح بالقاعدة بل أشار إليها، وأيدّ قوله بأحاديث نبوية في نفس الباب فقال: "والروايات الكثيرة دلّت على أنّها إنما نزلت في أقوام أقدموا على الأيمان الكاذبة، وإذا كان كذلك وجب اعتقاد كون هذا الوعيد عاماً في حقّ كلّ من يفعل هذا الفعل وأنه غير مخصوص باليهود، وردت أحاديث في هذا الموضوع نذكرها: روى عبد الله بن كعب عن أبي أمامة الخازني: إن رسول الله ﷺ قال: « من اقتطع حقّ امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرّم عليه الجنة » فقال رجل، وإن كان شيئاً يسيراً، قال: وإن كان قضيباً من أراك» أخرجه الإمام أحمد في مسنده² "3.

3- عدم التصريح بالقاعدة والعمل بها دون ذكر قرائن أخرى:

ومثاله ماجاء في تفسير قوله تعالى ﴿سَلِّقْ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبَشِّرِ الظَّالِمِينَ﴾ آل عمران: ١٥١، حيث ذكر ما روي في سبب نزولها وأنها في الرعب الذي ألقى في قلوبهم لما همّوا بالكفر على المسلمين بعد غزوة أحد، وأن الهزيمة لما وقعت على المسلمين يوم أحد ووقع القتل فيهم، تشاور المشركون فيما بينهم وأجمعوا على أن يعودوا للقتال، فيستأصلوا محمداً ﷺ وأصحابه فألقى الله تعالى الرعب في قلوبهم، فمروا على وجوههم لا يلوون على شيء حتى بلغوا مكة⁴. ثم عمّم الشيخ الآية ليدخل فيها الكافرون في كل زمان فقال: " فنزلت الآية في هذا الإلقاء، وهي بعد متناولة كلّ كافر"⁵.

الفرع الثالث: شرع من قبلنا شرع لنا: من القواعد المهمة المتعلقة بمعلم "شمول القرآن الكريم" والتي اعتنى التواتي بها فجعلها سبيلاً لتعميم الآيات؛ قاعدة "شرع من قبلنا شرع لنا"، أي: ما نقل إلينا بطريق

¹ البحر المحيط في التفسير، أبو حيان الأندلسي، (225/3).

² رواه أحمد في مسنده، تنمة مسند الأنصار، حديث أبي أمامة الباهلي الصدي بن عجلان بن عمرو ويقال: ابن وهب الباهلي، عن النبي ﷺ، برقم: 22239، (580/36).

³ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (328/5). وينظر: تعميم الشيخ للآية مستنداً لآية قرآنية: (217/15)، وتعميمه مستنداً لحديث نبوي: (135/3)، وتعميمه مستنداً لقرينة السياق: (499/4)، وتعميمه مستنداً لقول أحد المفسرين: (426/14).

⁴ تفسير القرآن، أبو المظفر السمعاني، ت: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن، الرياض، السعودية، ط: 1، سنة: 1418هـ-1997م، (365/1).

⁵ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (145/6).

صحيح من الشرائع السماوية السابقة، والطريق الصحيح لمعرفة ذلك هو نقل القرآن والسنة النبوية، ولا عبرة بما في الكتب التي في أيدي اليهود والنصارى اليوم؛ لأنه قد طرأ عليها التحريف والتبديل. وقد اختلف في هذه المسألة على أقوال: أولها: أن شرع من قبلنا شرع لنا إلا ما نسخ، وثانيها: أن شرع من قبلنا ليس بشرع لنا، وثالثها: أن شرع إبراهيم خاصة شرع لنا وما سواه ليس بشرع لنا¹.

والقول الأول هو الذي ذهب إليه الشيخ التواتي - كما سيأتي - مع التنبيه على أن محل هذه القاعدة في الأحكام والفروع التي لم يرد ما ينسخها، وأما الاعتقاد، فالذين فيها واحد لجميع العالم، وهو الإيمان بالله، وتوحيده وتصديق رسله، والإيمان بالدار الآخرة².

وقد اعتمد الشيخ التواتي على هذه المسألة في تفسيره تنظيراً وتطبيقاً، وبيان ذلك:

أولاً: من الناحية النظرية للقاعدة:

بيّن مفسرنا ضوابط العمل بها وإعمالها في تعميم الأحكام، فذكر ضابطين هما:

1- عدم التعارض مع شريعتنا: وذلك عند تفسيره لقوله تعالى ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ الشورى: ١٣، فقال: "فما سكت عنه الشارع في ديننا ولم يرد فيه نص من كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ فإن شرع من كان قبلنا هو شرع لنا ما لم يتعارض مع نص من نصوص شريعتنا المحمدية تصريحاً أو تلويحاً"³.

2- عدم نسخ شريعتنا له: وهذا عندما فسر قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فِرْيُونٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ آل عمران: ٢٣، حيث بيّن ما يستفاد من الآية من أحكام فقال: "وفيها دليل على أن شرائع من قبلنا شريعة لنا إلا ما علمنا نسخه، وإنه يجب علينا الحكم بشرائع الأنبياء قبلنا، وقد دعاهم رسول الله ﷺ إلى التوراة فأبوا"⁴.

ثانياً: من الناحية التطبيقية:

طبق الشيخ التواتي قاعدة "شرع من قبلنا شرع لنا" في مواضع من تفسيره واستعملها لتعميم معاني القرآن الكريم، ومن أمثلة ذلك: ما جاء في تفسير قوله تعالى ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ

¹ روضة الناظر وجنة المناظر، ابن قدامة، مؤسسة الريان للطباعة والنشر والتوزيع، ط: 2، سنة: 2002م، (ص: 161). وأصول

الفقه الذي لا يسع الفقيه جهله، عياض بن نامي السلمي، دار التدمرية، الرياض، ط: 1، سنة: 1426هـ، (ص: 135).

² التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزى، (234/1)، والتحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، (209-206/6).

³ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (241/17).

⁴ المصدر نفسه، (132/5)، وقد نصّ على هذا الشرط في موضع آخر، ينظر الدر الثمين (301/14).

هَلْ أَذْكَرُ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصْحُونَ ﴿٢٣٣﴾ فَذَرْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَىٰ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٤﴾ القصص: ١٢-١٣، حيث بين الشيخ معنى الآيات وذكر ما تدل عليه من أحكام شرعية فقال: "جواز أخذ الأجرة على الكفالة والرضاع، كما فعلت أم موسى، فإن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد من شرعنا ما ينسخه"¹. وهذه المسألة التي ذكرها الشيخ التواتي في غير الأم، أما الأم فقد اختلف الفقهاء في ذلك: فقليل للأم طلب أجرة المثل بالإرضاع سواء كانت في عصمة الأب أم لا، لقوله تعالى ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآوُهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ الطلاق: ٦، وإلى هذا ذهب الشافعية والحنابلة، وقال المالكية والحنفية: إن كانت الأم ممن يرضع مثلها وكانت في عصمة الأب فليس لها طلب الأجرة بالإرضاع؛ لأن الشرع أوجبه عليها فلا تستحق بواجب أجرة، لقوله تعالى ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ البقرة: ٢٣٣.²

المطلب الثاني: معلم "تنزيل الآيات على الواقع":

تنزيل الآيات على الواقع من أهم معالم التفسير الاجتماعي، ذلك أن المفسر المصلح الذي اتَّخذ من تفسيره باباً من أبواب إصلاح المجتمعات والدعوة إلى الله على بصيرة لا يكتفي ببيان معاني آيات القرآن وشرح غريبها وتفصيل أحكامها فحسب؛ بل تجده ينطلق من تلك المعاني الجليلة لآيات الكتاب ويقوم بإسقاطها على واقعه إما ببيان موافقتها أو مخالفتها -وهو الأكثر-، فتجده يكشف عن علل واقعه وسوء أحوال المسلمين مشحّصاً الداء، ثم يصف الدواء من القرآن وهداياته.

ومما ينبغي الإشارة إليه هنا: أن هذا المعلم له صلة كبيرة بالمعلم السابق -شمول القرآن- ذلك أن المفسر المصلح إذا كان يفسر القرآن لا تجده يقف عند شموله وبيان عموميته فقط بل تجده يطبق ذلك الشمول على نوازل واقعه وأحوال عصره، وهذا هو وجه كون هذا المعلم من المعالم المتعلقة بربط القرآن بأحوال المجتمعات، فالقرآن شمل خطابه جميع فئات المجتمع بمختلف انتماءاتهم وخلفياتهم لأن القرآن يهدف إلى إصلاح المجتمع بجميع أطرافه وفي كل زمان ومكان.

وسيكون الحديث عن هذا المعلم من جهتين؛ أولهما: الجانب النظري، وثانيهما: تطبيقات الشيخ التواتي لها، وقد جعلت كل واحدة منهما تحت فرع، تفصيلهما كما يلي:

¹ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (301/14)، وينظر أيضاً: الدر الثمين: (123/8).

² الموسوعة الفقهية الكويتية، مجموعة من المؤلفين، (241/22-242).

الفرع الأول: مقدمات نظرية لمعلم "تنزيل الآيات على الواقع":

وسوف يكون الحديث عن هذا المعلم من خلال العناصر الآتية:

أولاً: التعريف بمعلم "تنزيل الآيات على الواقع" وبيان أنواعه:

1- تعريفه: عرّفه الدكتور عبد العزيز الضامر بقوله: "هو مقابلة الأحداث المعاصرة للمفسّر بما يشابهها في كتاب الله تعالى، سواء كانت المقابلة تامة أو جزئية أو مخالفة لما عليه الآية"¹. فإذا قام المفسر بإسقاط معنى آيات القرآن على واقعه الذي يعيشه فهو تنزيل للآيات على الواقع.

2- أنواعه: هناك عدة اعتبارات تقسم وفقها تطبيقات معلم "تنزيل الآيات على الواقع"؛ أشهرها:

أ- تنزيل التصريح: وهو أن يصرح المفسر بأن معنى هذه الآية حاصل في زمنه وواقعه، فيعبّر عنها أثناء تفسيره للآية بقوله: "كما هو الحاصل في زماننا"، أو "وهذا ما يكون في مجتمعنا"، ونحو ذلك من العبارات التي تفيد تصريح المفسر بما يكون في واقعه مشابها لما كانت عليه الآية الكريمة.

ب- تنزيل التلميح: وهو أن يشير المفسر إلى أن معنى هذه الآية حاصل في زمنه وواقعه دون أن يصرح بذلك بل يورده على سبيل التعريض والتلميح، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى الحالة السياسية في تلك الفترة التي لا تسمح بالإفصاح عن ما يكون فيها من القهر والظلم، والفساد والإفساد، والمخالفات العقدية والاجتماعية ونحو ذلك مما يضطر المفسر إلى عدم التصريح خشية الإيذاء والتنكيل، ومنعا للفتنة وحقنا لدماء المسلمين، فيتخذ القرآن سبيلا وطريقا لتوجيه الناس من خلاله وربطهم به².

ثانيا: أدلة صحة تنزيل الآية على الوقائع المشابهة:

تنوعت الأدلة الشرعية التي تدلّ على صحة تعميم الألفاظ الواردة في الآية وتنزيلها على الوقائع المشابهة بين القرآن والسنة والمعقول، ومجملها ما يلي:

1- الأدلة من القرآن الكريم، منها:

أ - قوله على لسان نبيه ﷺ ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ الأنعام: ١٩؛ فعطف على ضمير المخاطبين من المشركين من بلغه القرآن في زمنهم وبعد عصرهم.

¹ تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين -دراسة وتطبيق-، عبد العزيز بن عبد الرحمن الضامر، ط: 1، سنة: 1428هـ-2007م،

جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، (ص: 33).

² المصدر نفسه، (ص: 71-72).

ب- وقوله سبحانه: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ الأنعام: ٥١، والذين يخافون الحشر هم المؤمنون ومن هم مظنة الإيمان ممن لم يطبع على قلوبهم؛ فلم تخص الآية المشركين بالإلزام. ج- وقوله تعالى بعد حكاية حادثة قوم لوط: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ هود: ٨٣؛ فدلّت الآية على إلحاق المتأخر بالمتقدم في استحقاق عقوبته متى كان على مثل حالته، وقد حمل ابن كثير الآية على التعميم، فالآية دلت على أن ما أصاب قوم لوط غير خاص بهم¹.

2- الأدلة من السنة النبوية، ومنها: حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّفْسُ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ، فَيَقُولُ: يَا هَذَا! اتَّقِ اللَّهَ، وَدَعْ مَا تَصْنَعُ؛ فَإِنَّهُ لَا يَجِلُّ لَكَ. ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الْعَدِ وَهُوَ عَلَىٰ حَالِهِ؛ فَلَا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيئَهُ وَقَعِيدَهُ، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ؛ ضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ» ثُمَّ قَالَ: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ ٧٨ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ إلى قوله: ﴿فَلَسِقُونَ﴾ المائدة: ٧٨ - ٨١. ثُمَّ قَالَ: «كَأَلَا؛ وَاللَّهِ؛ لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَتَأْخُذَنَّ عَلَىٰ يَدِ الظَّالِمِ، وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَىٰ الْحَقِّ أَطْرًا، وَلَتَقْصُرُنَّهُ عَلَىٰ الْحَقِّ قَصْرًا، أَوْ لَيَضْرِبَنَّ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِكُمْ بِبَعْضٍ، ثُمَّ لَيَلْعَنَنَّكُمْ كَمَا لَعَنَهُمْ»².

3- الأدلة من المعقول على تعميم ألفاظ الآية على ما يشبهها من وقائع: وهذا الدليل وجدته عند الشيخ مبارك المليي وهو سؤال منطقي يخاطب به العقول حيث طرحه فقال: "ثم إنك تجد الإسلام خاتمة الأديان، ونبيّه خاتم النبيّين، وكتابه خاتم الكتب، وهذه الأمة خاتمة الأمم، وهي من جنس تلك الأمم الماضية؛ تقسو قلوبها كما قست قلوبهم، وتفسد عقائدها كما فسدت عقائدهم، وتعصي كما عصوا، وتبتدع كما ابتدعوا؛ فهل من حكمة أحكم الحاكمين ورحمة رب العالمين أن يقصر ما عاب به من قبلنا عليهم، ويدعنا سدى من غير دليل يعرفنا فسادنا وقبيح أعمالنا إذا نزل بنا ما نزل بالأمم

¹ تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (4/342).

² رواه أبو داود في سننه كتاب الملاحم، باب: الأمر والنهي، رقم: 4338. وضعفه الشيخ الألباني في كتابه: صحيح وضعيف سنن أبي داود، (9/336).

³ رسالة الشرك ومظاهره، مبارك المليي، ت: أبي عبد الرحمن محمود، دار الراجية للنشر والتوزيع، ط: 1، سنة: 1422هـ - 2001م، (ص: 86).

قبلنا؟! لقد أحاط ربك بكلّ شيء علماً، ووضع لكلّ حال حكماً، والقرآن الذي فصح من قبلنا هو الذي يفضحنا، والقرآن الذي هدى من تقدمنا هو الذي يهدينا"¹.

ثالثاً: "فوائد تنزيل الآيات على الواقع":

تتجلّى أهمية "تنزيل الآيات على الواقع" بالنسبة للمفسر من خلال ما يلي:

- 1- توثيق أبرز الأحداث التاريخية في عصر المفسر.
- 2- معرفة موقف المفسر من الأحداث التي كانت تدور في زمانه.
- 3- تقريب معنى الآية من أذهان الناس حتى يفهموها فهما سليماً لأنها مرتبطة بواقعهم.
- 4- ربط المسلم بكتاب الله تعالى، والسير وفق التوجيهات الربانيّة في القضايا التي تدور في حياته للوصول إلى برّ الأمان في الدنيا و الآخرة.
- 5- التعرّف على طرف من سيرة المفسر، وذلك من خلال نثره لشيء من مذكراته الشخصية، وبعض المواقف التي حدثت له، محاولاً ربطها بمعاني كتاب الله تعالى².

رابعا: أهم الضوابط التي يجب مراعاتها في تنزيل الآيات على الواقع ليكون التنزيل صحيحاً:

هناك عدة ضوابط ينبغي للمفسر أن يراعيها إذا أراد ربط معنى الآية بواقعه ربطاً صحيحاً، وإلا فسر الآية بغير معناها، ومن هذه الضوابط:

- 1- سلامة المقصد في تنزيل الآية: وذلك بالتجرّد عن العصبية المذهبية عقديّة كانت أو فقهية أو سياسية، فإذا لم يتّصف المفسر بذلك وحاول ربط الآية بواقعه لنصرة مذهب المنتمي إليه، فإنه يقع في التخبّط ويتكلّف معاني بعيدة عن مقصود الآيات لينصر بها مذهب فيقع حينئذ في الخطأ.
- 2- مراعاة معنى سبب نزول الآية: لأن سبب النزول هو المعين على فهم معنى الآية ومن ثمّ يقدر المفسر على تصوّر معناها واستحضار الأحداث والمواقف المشابهة لها ممّا يدور في زمانه، فإن لم يراع المفسر سبب النزول فإنه يقع في الخطأ.
- 3- معرفة السياق الذي وردت فيه الآية: لأن مراعاة سياقها وسباقها ولحاقها، ممّا يعين المفسر على فهم المعنى الصحيح للآية ومن ثمّ القدرة على ربطها بالواقع، فمثلاً إذا كانت الآية في سياق الحديث عن مشاهد يوم القيامة وأهواله، فإنه لا يصح أن تنزل على أحوال الدنيا لما بينهما من الفوارق.

¹ رسالة الشرك ومظاهره، مبارك الملي، (ص: 86).

² تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين -دراسة وتطبيق-، عبد العزيز الضامر، (ص: 71-82).

4- أن يكون المفسر متبصّراً بأحوال الواقع المعاصر له: وذلك ليتمكن من ربط الآية بواقعه وتصوير القضية تصويراً صحيحاً ثم معالجتها في ضوء التوجيهات الربانية، أما إذا لم يكن متصوّراً لما يدور حوله من قضايا وأحداث أو يكون تصوّره لها قاصراً، فإنّ تنزيله للآية يكون قاصراً كفهمة.

5- أن يكون التنزيل مندرجاً تحت أصل الآية: فلا ينجح المفسر إلى تفسيرها تفسيراً معاصراً مستقلاً بذاته دون الرجوع إلى ما بيّنه النبي ﷺ والصحابة والتابعون، ويدّعي أن ما حدث في الواقع المعاصر هو الذي ينبغي أن تنزل عليه الآية دون غيره، وقد يذمّ تفاسير السلف وينعتها بالقصر، كما يحتاج المفسر لتحقيق هذا الضابط إلى معرفة اللسان العربي الذي نزل به القرآن معرفة واسعة صحيحة¹.

الفرع الثاني: منهج الشيخ التواتي في تطبيق معلم "تنزيل الآيات على الواقع":

وسأتحدث في هذا الموضع عن منهج الشيخ التواتي في التعامل مع هذا المعلم من الناحية النظرية فقط، -أما من الناحية التطبيقية فسوف أخصّص له فصلاً كاملاً وهو الفصل الأخير من الرسالة².

أولاً: بيانه لأهمية معلم "تنزيل الآيات على الواقع" وفائدته:

1- أهميته: تحدث مفسرنا عن أهمية هذا المعلم فقال: "وأن هذا القرآن لا يقص عن سبقنا في الوجود توجيهها وإرشادها، بل يخاطبنا الآن، ويخاطب من يأتي بعدنا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها؛ لأنه ما جاء ليقود جيلاً دون جيل، وإنما جاء ليقود هذه الأمة التي سماها الخليل (المسلمين)، وليكون مرشداً وهادياً ومقوماً، في جميع الأجيال والدهور"³.

2- فائدته: حيث بيّن الشيخ فائدة هذا المعلم وأثر معرفته فقال: "إنه منهج الله الذي يعلم طبيعة البشر؛ قال تعالى ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ الملك: ١٤، ويعاملهم بهذا المنهج المتوازن المتكامل، الذي يلبي حاجات الواقع كما يلبي مشاعر البشر؛ وفي الوقت ذاته يتقي فساد الضمائر وفساد المجتمع"⁴. وقال في موضع آخر مبيناً ثمرته وأثره عند تفسير قوله ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُون﴾ البقرة: ٤٠، فقال: "لتفسير هذه الآية يجعلنا

¹ تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين -دراسة وتطبيق-، عبد العزيز الضامر، (ص: 89-98).

² وسبب تخصيص هذا المعلم بفصل كامل أمور كثيرة: أولها: لأنه أهم معلم في الاتجاه الاجتماعي إذ الغرض من هذا الاتجاه هو إصلاح المجتمعات وربط آي القرآن الكريم بواقع الناس لاستخراج العلاج منه. وثانيها: كثرة تطبيقات الشيخ التواتي لهذا المعلم وتنوع مواضيعها، فاحتاجت إلى تخصيصها بفصل دون غيرها.

³ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (367/7).

⁴ المصدر نفسه، (81/10).

نقسم الآية إلى أجزاء ليسهل علينا شرحها وبيان ما فيها من توجيهات إلهية تنفعنا في حياتنا إذا أردناها بتوفيق من الله تعالى أن تكون قرآنية¹.

ثانيا: طريقة الشيخ التواتي في تنزيل الآيات على الواقع:

بعد تتبعي لطريقة الشيخ التواتي في تطبيق هذا المعلم، وجدته طبقه على طريقتين، بياهما:

1- التصريح بعنوان مباشر: فكان يضع عناوين مباشرة تدل على هذا المعلم، ثم يسقط الآيات على الواقع، ومن أمثلة ذلك قوله: "تطبيق الآية على الواقع"، وقوله: "ربط الآية بالواقع"، وقوله: "دلالة الآية على واقع الناس اليوم"، وقوله: "خطاب الآية وواقع الناس"، وقوله: "الآية وواقع الناس"، وقوله: "الآية ووقفه مع واقع الناس"².

2- التلميح بألفاظ وعبارات متنوعة: فكان الشيخ يوظف ألفاظا وعبارات في ثنايا تفسيره تدل على هذا المعلم، مثل قوله أثناء تفسير الآيات: "وهذا مشاهد في الواقع"، وقوله: "العصر الحاضر"، وقوله: "في عصرنا"، وقوله: "هو حالنا اليوم"، وقوله: "في زماننا الآن"، وقوله: "الناس اليوم"، وقوله: "ما يحدث الآن"، وقوله: "واقع حال الناس"، وقوله: "الأمة الإسلامية اليوم"، وقوله: "ملاحظ اليوم"³.

المطلب الثالث: معلم "الوعظ والإرشاد":

الوعظ والإرشاد من المعالم التي تدل على اهتمام المفسر بالاتجاه الاجتماعي في التفسير؛ ذلك أن المفسر يصبو إلى إصلاح المجتمع بمختلف أطيافه وتوجيه النصائح له في مختلف الانحرافات التي تظهر فيه، وهذا يحتاج إلى أسلوب يصل به إلى قلوب المستمعين، ولا شك أن أفضل أسلوب يحقق هذا الغرض هو: الوعظ والإرشاد، وهذا هو وجه اعتبار الوعظ والإرشاد من معالم الاتجاه الاجتماعي في التفسير، وذلك لما لهذا الأسلوب من تأثير على القلوب لتنفاد لواعظها وتستجيب لما يدعوه إليه.

¹ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (488/1).

² ينظر هذه الألفاظ: في المصدر نفسه: (371/2)، (149/6 و 205 و 219)، (199/7 و 388 و 437)، (135/9)، (74 و 73/10)، (203/12)، (243 و 242 و 212/12)، (173/13 و 305 و 331 و 426 و 462)، (398/14)، (96/15 و 15 و 217 و 218 و 287 و 375)، (474/17)، (129/18)، (159/19 و 277)، (268/20).

³ ينظر هذه الألفاظ في المصدر نفسه: (72/2 و 76 و 142 و 166)، (9/4)، (134/5 و 293 و 304 و 320)، (391/6)، (227/7)، (107/10 و 155 و 259 و 264 و 414)، (454/13)، (191/14 و 407)، (169/15).

وانطلاقاً من ذلك اهتم التواتي بهذا المعلم اهتماماً كبيراً فأكثر من المواعظ والإرشادات في تفسيره، الذي تضمن مادة علمية كبيرة تخدم هذا المعلم، وفيما يلي وصف لمنهج التواتي في هذا المعلم وبيان أبرز المجالات الوعظية التي اهتم بها، ولذلك قسمت هذا المطلب إلى فرعين هما:

الفرع الأول: منهج الشيخ التواتي في الوعظ والإرشاد:

وسأذكر فيه منهج الشيخ التواتي وطريقته في المواعظ التي كان يعظ بها الحاضرين، وهي كالآتي:

أولاً: اهتمامه بالوعظ وحثه على العمل بمضمون المواعظ والإرشادات:

إن القارئ لتفسير "الدر الثمين" يلاحظ أن التواتي جعل الوعظ من ركائز منهجه في التفسير، فكان بعد بيانه لمعاني الآيات وما فيها من العلم والعمل بمنهج قويم، يذكر في آخرها -غالباً- وعظاً وإرشاداً بعنوانين مختلفة تجذب القارئ وتنبهه لما في الآيات من عبر وعظات فتكون له تذكرة حتى تتم ثمرة التفسير في تدبر القرآن وفهم معانيه والعمل به، ومن أقواله في ذلك: "ولعلكم لاحظتم كيف أن الله تعالى يقدم الإرشاد تلو الإرشاد، والنصيحة عقب النصيحة، وفتح باب الأمل لعباده ليتوبوا، حتى لا يقنطوا من رحمة الله... أيّ وعظ بعد وعظ القرآن ينفع، وقد خاطبكم بما يدغدغ العقول والوجدان؟، أيها الناس: إن خطاب الله تعالى هلاً تدبرتم وعلمتم ما فيه من وعد ووعد بأساليب تخاطب الوجدان على ما فيها من ترغيب وترهيب كفيلة بتحريك الجبال، وصدق ربنا حين قال: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ الحشر: ٢١^١. وحث في موضع آخر على العمل بهذه المواعظ قائلاً: "أيها الناس: إن في مواعظ الله تعالى في هذا القرآن الذي نتدارسه كلّ ليلة حجة علينا، أفلا نسارع إليه نعمل بها في أنفسنا، ونربي عليها أبناءنا لينشأوا قرآنيين لنبرأ ذمناً أمام الله حين يسألنا عن الأمانة، وإن القرآن أكبر أمانة حملها من قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله"^٢.

ثانياً: تأثره بمواعظ ابن باديس في تفسيره ونقله لبعضها:

فالناظر في تفسير "الدر الثمين" يدرك اهتمامه بهذا المعلم، مقتدياً بعلماء الإصلاح الذين برز اهتمامهم بالوعظ والتذكير، كالشيخ ابن باديس الذي نقل عنه جزء من مواعظه وإرشاداته، ومثال ذلك ما جاء في تفسيره لقوله تعالى ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ

^١ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (164/7).

^٢ المصدر نفسه، (369/1).

يُوسَا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلُّ يَعْمَلْ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرِيكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ الإسراء: ٨٣ - ٨٤، حيث نقل موعظة ابن باديس عندما فسرها فقال: "تبصرة وتحذير: بصرنا القرآن في هذين الوصفين الذميين: الإعراض عن النعمة، واليأس من الرحمة، ونحن نراها فاشيين في أكثر الناس على تفاوت بينهم، على حسب ما عندهم من إيمان وعمل صالح. بصرنا القرآن بهما ليحذرنا منهما ومن سوء عواقبهما، فإن الإعراض عن النعمة كفر بها ومقتض لسلبها، وأن اليأس من رحمة الله جهل بها، وكفر بما هو متقلب فيه من نعمه وموجب لانطماس القلب، وشلل البدن، وانقطاع الأعمال. فليحذر المؤمن من هذين الوصفين الذميين، وليعمل على اجتنابهما واجتنابهما من أصلهما"¹.

ثالثا: طريقة الشيخ التواتي في عرض المواعظ:

بعد تتبع المواعظ التي بثها الشيخ التواتي في تفسيره، وجدتها على طريقتين، هما:

1- ختامه لتفسير الآي بمواعظ وإرشادات: فغالبا ما يذكر المواعظ بعد تفسيره للآيات، فتكون كخاتمة يختم بها تفسيره، وكثيرا ما تكون تلك المواعظ بعناوين مختصرة تحمل ترغيبا على فعل محبوب أو ترهيبا من فعل مذموم، كقوله: "موعظة الجلسة"، وقوله: "توجيه وإرشاد"، وقوله: "تبصرة وعبرة"، وقوله: "تبصرة وتذكرة"، وقوله: "تبصرة وبيان"، وقوله: "تبصرة"، وقوله: "موعظة"، وقوله: "تنبيه العافلين"، وقوله: "موعظة وذكرى"، وقوله: "وقفة تأمل"، وقوله: "تنبيه هام جدا"، وقوله: "تنبيه وذكرى"، وقوله: "موعظة وتأمل"، وقوله: "توجيه"، وقوله: "موعظة ختم السورة"، وقوله: "نصيحة وإرشاد"، وقوله: "موعظة الدرس"، وقوله: "توجيه وبيان" وغيرها، وهي كثيرة جدا في تفسير الشيخ التواتي - حفظه الله -، وستأتي إحالاتها وذكر أمثلة عن بعضها.

2- أحيانا يقوم الشيخ التواتي بذكر هذه المواعظ تابعة للمعنى الإجمالي للآيات: ومثال ذلك ما جاء

في تفسيره لقوله تعالى ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا أَكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا أَكْتَسَبْنَ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ النساء: 32، فبعد ذكر الشيخ للمعنى الإجمالي للآية أعقبه بموعظة في الرضا بالأرزاق، فقال: "وهنا أذكركم -رحمكم الله- أن الله تعالى قسّم الأرزاق بين العباد على ما علم وشاء فينبغي أن ترضوا بما قسم، وتسألوه من فضله غير متأسفين

¹ في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، عبد الحميد بن باديس (ص: 148-149)، وهذا النص مأخوذ من: الدر الثمين:

(282/12 و283)، وينظر أيضا الدر الثمين: (46/14)، حيث قال: "قال شيخنا العلامة ابن باديس -رحمه الله تعالى-...".

لغيركم في عطية. وإن الله تعالى كان ولا زال عالماً بأحوال عباده لا تخفى عنه خافية، يعلم خائنة الأعين وتخفي الصدور، وما آلو إليه وما يؤولون إليه، ويعلم ما يصلح لهم وما لا يصلح لهم¹.

الفرع الثاني: نماذج من المواعظ التي ذكرها الشيخ التواتي في تفسيره:

وسأتحدث في هذا الفرع عن مواضيع المواعظ التي كان الشيخ التواتي يختم بها تفسيره لبعض الآيات، والتي وجدتها تدور حول مواضيع كثيرة، أبرزها أربعة مواضيع هي:

أولاً: مواعظ عقديّة: وهذا النوع من المواعظ يدور حول بعض المسائل العقدية التي كان الشيخ يدعو إليها، وفي المقابل يحذر من عقائد أخرى باطلة وينقّر منها، ومّا جاء عنه في ذلك:

1- دعوته لتصحيح العقيدة: وهذه هي دعوة جميع الأنبياء والمرسلين الذين كانوا يقولون لأقوامهم ﴿عَبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ الأعراف: ٥٩، وهو المنهج الذي سلكه دعاة الإصلاح، وقد ألف بعض العلماء في ذلك كتباً مثل كتاب "تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد ويليهِ شرح الصدور في تحريم رفع القبور" للإمام محمد بن علي الشوكاني، والذي قال في مقدمته: "وجب عليّ تأليفه، وتعيّن عليّ ترصيفه؛ لما رأيته وعلمته يقيناً من اتخاذ العباد الأنداد في الأمصار والقرى وجميع البلاد، من اليمن والشام ومصر ونجد وتهامة وجميع ديار الإسلام"².

وقد دعى مفسرنا الشيخ التواتي إلى تصحيح العقيدة لما فسّر قوله تعالى ﴿الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ البقرة: ٢٥٨، حيث قال: "موعظة الجلسة: ... فلستم أيها الناس نائلين ما تحبون ومن رضا ورضوان من الله تعالى إلا إذا صحّحت عقيدتكم وجعلتموها خالصة لله تعالى لا تشوبها شائبة، وتأسّيتم بنبّيكم محمد ﷺ حين عرضت عليه الدنيا بخدافيرها مُلكاً وجأها وسلطاناً فأبى كلّ ذلك؛ لأن مقولة "لا إله إلا الله" ملأت قلبه ووجدانه وعلم أن لا رب سواه ولا إله غيره، فكونوا وفق ما جاءكم به النبي الكريم تفوزون بجنات النعيم"³.

¹ الدرّ الثمين، التواتي بن التواتي، (52/7)، وينظر مزيداً من المواعظ التابعة للمعنى الإجمالي: الدرّ الثمين (320/5 و321، و341 و342)، (295/7)، (106/11)، (60/15)، (208/17)، (145/18 و558).

² تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد ويليهِ شرح الصدور في تحريم رفع القبور، الصنعاني، محمد بن علي الشوكاني، ت: عبد المحسن العباد، مطبعة سفير، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط: 1، سنة: 1424هـ، (ص: 48).

³ الدرّ الثمين، التواتي بن التواتي، (389/4). وينظر أيضاً: الدرّ الثمين: (180/16).

2- النهي عن اتباع طريق أهل الزيغ والضلال: حيث نهي الشيخ مستمعيه في الدرس التفسيري أن يخوضوا في المسائل التي لا ينبغي الخوض في تفاصيلها فإن ذلك طريق إلى الزيغ والضلال في هذا الباب، وقد جاءت هذه الموعظة في تفسيره لقوله تعالى ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ آل عمران: ٩ ، حيث قال: "توجيه وإرشاد: بعد أن عرفتم هذه الحقائق وأدركتم بالأدلة الثابتة أن الوجود لا بدّ له من واحد، وعلمتم أنكم مطالبون بالإيمان بالله الذي أوجدكم لغاية، وسخركم بدون ما تملكون وسائل التسخير، فإليكم إليكم أن تأخذوا في البحث في تصوّر الإله المعبود كيف هو؟ فذلكم شأن من في قلوبهم زيغ وضلال، وإليكم إليكم من هذه المناظرات التي من دوافعها الظهور، فإنه قاصم الظهور، قد خاض فيها قوم فضّلوا، فكانت عاقبتهم الخسران، فاحذروا وأشفقوا على أنفسكم من هذه المهاترات التي لا طائل من ورائها إلى الضلال"¹.

3- التحذير من الشرك: يقول التواتي محذرا من الشرك بالله: "تبصرة: أيها الناس أحذركم ممّا أخطر منه نفسي؛ ألا إن الشرك لظلم عظيم في حقّ من خلق ورزق وسخر ويسرّ، فكيف يليق بالمؤمن أن يجعل لله الواحد الأحد شريكا فيستعين بمخلوق، واعلموا -رحمكم الله تعالى- أن بين العباد الإحسان والاحترام والتقدير، أما القدرة والاستعانة فهي من خصائص الله"².

كما بيّن في موضع آخر وقوع الكثير من الناس في الشرك في زمننا وذلك عند تفسيره لقوله تعالى ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ الأعراف: ٣٠، فقال واعظا للمستمعين: "موعظة الجلسة: أيها الناس إن الكثير من أهل الضلال يحسبون أنهم مهتدون، وهم ما بين كافر جحود للحق كبيرا وعنادا كأعداء الرسل في عصورهم، وبين عابد لهواه مكابر يعبد الله على حرف، ويوحّده كما يريد، وهذا الصنف من الناس كثير جدا في زماننا إذ إنهم يشركون بالله تعالى فيتمسحون بالقبور راجين منها نفعا فيكون أمرهم بفعلهم هذا قد آذوا صاحب القبر، وقد يكون صاحب القبر من أهل الصلاح فهو بريء من قيلهم ومن فعلهم، ووجب على أهل العلم النهي عن هذا، لأن صلاحه المشهود به أمانة في أعناقنا فهذا يدفعنا للنهي عن المنكر عند قبور سلفنا الصالح، ولا ندع الجهال يسيئون إليهم بعد مماتهم -سائلين الله لهم الرحمة والغفران-"³. وما

¹ الدرّ الثمين، التواتي بن التواتي، (70/5).

² المصدر نفسه، (383/7).

³ المصدر نفسه، (258/9). وينظر أيضا: الدرّ الثمين (575/1)، (326/9)، (221/12 و243).

ذكره مفسّرنا موافق لما ذكره الشوكاني ملخصاً لما فعله هؤلاء بقوله: "وهذا إذا لم يكن شركاً فلا ندري ما هو الشرك، وإذا لم يكن كفراً فليس في الدنيا كفر"¹.

4- التصور الصحيح للإيمان وأنه "قول وعمل": اتفقت كلمة علماء الأمة وسلفها على أن الإيمان قول وعمل، فعن مجاهد قال: "الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص"²، ولذا فإن الشيخ التواتي أراد التنبيه على هذه المسألة والتذكير بها وترسيخها في قلوب الناس بأسلوب الموعظة لما رأى الحاجة لذلك فقال في تفسيره لقوله تعالى ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ النحل: ٩٧: "توجيه وإرشاد: إن الآية الكريمة التي نحن بصدد تفسيرها لم تحصر العمل الصالح في الذكر دون الأنتى، بل إن الخطاب يشملهما، وإن مفهوم الآية يدلّ على أن الإيمان ليس مجرد تلفظ بالشهادتين فحسب، ولا مجرد لباس محاكاة لجماعة ما ولا تطويل لحية، فالإيمان ليس مظهرًا، وإنما هو ما اختمر في القلب وصدقه العمل الصالح النابع من هذا الإيمان، وقد جاء الحديث الشريف ناطقًا بهذا: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» أخرجه مسلم³ 4.

ثانياً: مواعظ تتعلق بالعبادات:

وهذا النوع من المواعظ يدور حول بعض العبادات التي كان الشيخ يحث الناس على فعلها بأسلوب وعظي، ومما جاء عنه في ذلك، ما يلي:

1- مواعظ في عبادة الصلاة:

أ- الترغيب في المحافظة على الصلوات: في تفسيره لقوله تعالى ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ البقرة: ٢٣٨، قال الشيخ: "توجيه وإرشاد: أيها الناس: إن هذه الآية تنص على المحافظة على الصلوات والصلاة الوسطى، فاعلموا أن الصلاة عماد الدين من أقامها فقد أقام الدين كله ومن تركها فقد ترك الدين كله، والآية لا تعني من ترك الصلاة فهذا أمر آخر، وإنما تخاطب

¹ صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان، السهسواني الهندي، المطبعة السلفية، ط: 3، (ص: 157-158).

² شعب الإيمان، البيهقي، ت: محمد السعيد بسيوني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 1، سنة: 1410هـ، (1/156).

³ رواه مسلم، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تحريم ظلم المسلم، وخذله، واحتقاره ودمه، وعرضه، وماله، رقم: 2564.

⁴ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (12/113).

المصلي الذي يتهاون بالصلاة ولم يحافظ على أوقاتها، وعلى فرائضها وسننها وفضائلها، ولم يعيش حسب مقتضى الصلاة، فهذا هو المخاطب بقوله (حافظوا)¹.

ب- أثر الصلاة على حياة المصلي: حيث وعظ المصلين بأنه ينبغي عليهم أن يكونوا ممن يظهر عليهم أثر الصلاة في حياتهم، قائلا: "موعظة: ... كم من مصل؛ عملا أنه يصلي ولكن حقيقة أنه لم يصل، إن المصلي لا يكذب، إن المصلي لا يغش، إن المصلي لا يغتب، إن المصلي لا ينتهك الحرمات، إن المصلي يعيش وفق مقتضى صلاته، فهي ناهية له عن منكر، حاجزة عن الفحشاء، وهذا نبينا محمد الناصح الأمين بيّن لما شرعت الصلاة فقال: «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء لم يزد من الله إلا بعدا»². وربنا حين أمرنا بالصلاة بيّن لما كان الأمر بها فقال جل ثناؤه ﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ العنكبوت: ٤٥³.

2- مواعظ في عبادة الصيام: حيث بين الشيخ في موعظته الحكمة من مشروعية الصوم، وأنه ليس الإمساك عن الطعام والشراب فقط؛ بل هو صوم الجوارح كلّها، فقال في تفسيره لقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ البقرة: ١٨٣، قال: "توجيه وإرشاد: أيها الناس إن الله تعالى جعل صيام رمضان فرضا واجب الصيام، وركنا من أركان الإسلام، وليس الصيام ترك الطعام والشراب فحسب، بل الصيام له معاني كثيرة؛ فهو صحة، وهو شعور، وهو رحمة، وهو مغفرة، وهو عتق من النار، وهو عبادة سرية بين العبد ومولاه، وإن الله تكلف بأجره وذلكم بنص الحديث «كل عمل لابن آدم إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به»⁴ ٥. وكان الشيخ التواتي يشير بموعظته إلى درجات الصوم التي ذكرها أبو حامد الغزالي في قوله: "درجات الصوم: صوم العموم، وصوم الخصوص، وصوم خصوص الخصوص"⁶.

¹ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (228/4)، وانظر: الدر الثمين، (11/4 و 132 و 234).

² رواه الطبراني في المعجم الكبير، باب العين، طاوس، عن ابن عباس، رقم: 11025. وقال الألباني: "وهو حديث باطل متناً، ضعيف سنداً". ينظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، دار المعارف، السعودية، ط: 1، سنة: 1992م، (659/13).

³ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (374/4).

⁴ رواه البخاري في صحيحه، كتاب: اللباس، باب: ما يذكر في المسك، برقم: 5583.

⁵ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (323/3).

⁶ إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، دار المعرفة، بيروت، (234/1).

3- مواعظ في عبادة الحج: حيث وجه الشيخ كلمة في موضوع الحج عنوانها بـ "توجيه وإرشاد"، ذكر فيها بوجوب تعظيم الحج، والتفقه فيه، وبيان بعض أحكامه ليؤديه المسلم على بصيرة، فقال عند تفسيره لقوله تعالى ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ﴾ البقرة: ١٩٧، قال الشيخ -حفظه الله-: "توجيه وإرشاد: أيها الناس إن فرض الحج ركن من أركان الإسلام، فمن أنكره فقد أنكر ركنا معلوما من الدين وجب استتابته وإلا قتل ردة -والعياذ بالله-، والحج له مناسك مأخوذة من رسول الله ﷺ يجب مراعاتها، وأداء فريضة الحج على ضوئها، لأن العبادة لا تؤدي بالرأي ولا حسب الهوى، فذلكم هو الضلال -والعياذ بالله-.

ومن موجبات الحج: الاعتقاد أنه عبادة وركن من أركان الإسلام، وأنه على الاستطاعة، والمقصود بها: الاستطاعة الجسمية، والاستطاعة المادية أي: الزاد والراحلة، وهنا أقول: إن الزاد المقصود منه المال المكتسب من الحلال الطيب؛ لأن الحج عبادة لله والله طيب لا يقبل إلا طيباً -كما نص الحديث على ذلك-، فمن كان كسبه من مال حرام أي: من الربا، أو رشوة، وأنه غصب مال غيره فلا حج له¹، وإن ذهب إلى البقاع المقدسة ألف مرة، فإنه لم يؤدّ حج الإسلام بعد. ويجب فهم مناسك الحج وأداؤها عن دراية، فمن عزم أداء الركن العظيم أن يكون على بينة من أركان الحج وفرائضه، وأن يعرف معنى الإحرام، ومعنى الطواف، ومعنى الوقوف بعرفة، وغيرها من المناسك؛ لأن الحج عبادة والعبادة لا تتم إلا بالمعرفة"².

ثالثاً: مواعظ في الأخلاق:

وهذا النوع من المواعظ يدور حول بعض فضائل الأخلاق التي كان الشيخ يدعو إلى التحلي بها، وفي المقابل يحذّر من بعض الأخلاق السيئة وينقّر منها، ومّا جاء عنه في ذلك:

1- دعوة للتحلي بأخلاق القرآن: حيث وعظ الناس ورغبهم في جعل منهج القرآن منهجاً لحياتهم عندما فسّر قوله تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتِيهِمُ الْآخِرُ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾^٨ يُخَادِعُونَ

¹ مسألة: "الحج بالمال الحرام"، من المسائل المختلف فيها بين الفقهاء؛ فأكثرهم على أن من حجّ بمال حرام أو بدابة مغصوبة فإن حجه صحيح لكنه يأثم، وبه قال أبو حنيفة ومالك والشافعي. وقال أحمد: لا يجزؤه. ينظر: موسوعة مسائل الجمهور في الفقه الإسلامي، محمد نعيم ساعي، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، مصر، ط: 2، سنة: 1428هـ-2007م، (1/339). وقد خالف الشيخ التواتي مذهب المالكية في هذه المسألة فذكر عدم صحته -كما سبق-.

² الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (3/509).

اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿البقرة: ٨-١١﴾، فقال في نهاية تفسيره لها واعظا للناس: "موعظة الجلسة: أيها الناس إن هذه الآيات التي تسمعون تلاوة وتفسيرا تدعوكم للتي هي أقوم، إنها توجهكم إلى ما فيه صالحكم في الدنيا والآخرة:

- أما الدنيا: فتدعوكم لتكونوا مؤمنين متخلقين بأخلاق القرآن مثلما كان نبيكم محمد ﷺ حين سئلت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن أخلاق رسول الله ﷺ فقالت: كانت أخلاقه القرآن¹، أي: كان قرآنا، أي: قرآنا يمشي على الأرض، فكونوا قرآنيين أسوة بنبيكم².

2- التحذير من السفه³: وذلك عندما فسر لقوله تعالى ﴿إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٣١) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ إِنَّا لَهُمْ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿البقرة: ١٢-١٣﴾، حيث تكلم عن معنى الآية، وتحدث عن السفه الذي يفسد وهو يظن الصلاح كالمنافق الذي يعصي الله ويرى ذلك طاعة، ثم أتى بموعظة حذر فيها من السفه فقال: "توجيه وإرشاد: أيها الناس إن الآية الكريمة التي نحن بصدد تدبرها تحذرننا من أسوء الأخلاق ألا وهو: السفه - عافانا الله وإياكم من الصفة الدنيئة - إنه الطيش وأنه الغرور، إنه الإعجاب، إنه الاندفاع وعدم التزو، إنه سبب البوار، إنه المفسد للعلاقات، وقد حدثتنا الآية الكريمة عن أن كفر من كفر كان سببه السفه، فاحذروا ما حذركم الله تعالى منه. وهذا الدين الذي هدانا إليه رب العالمين نهانا عن أمور منها: السفاهة والفحش، وعن المن بالصدقة..."⁴.

3- التحذير من الحسد⁵: من الأخلاق السيئة التي نهى عنها التواتي: الحسد، ونهى عنه بأسلوب الموعظة ليكون أقرب للإجابة له، وذلك لما فسر قوله تعالى ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾

¹ رواه أحمد في مسنده، مسند النساء، مسند الصديقة عائشة بنت الصديق ﷺ، رقم: 24601، (148/41).

² الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (324/1).

³ السفه: خفة تعرض للإنسان من الفرح والغضب فتحمله على العمل بخلاف طور العقل وموجب الشرع. ينظر: التعريفات، علي بن محمد الجرجاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 1، سنة: 1403هـ-1983م. (ص: 407).

⁴ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (328/1).

⁵ الحسد: هو البغض والكراهة لما يراه من حسن حال المحسود، وهو نوعان: أحدهما كراهة للنعمة عليه مطلقا، فهذا هو الحسد المذموم، النوع الثاني: أن يكره فضل ذلك الشخص عليه فيحب أن يكون مثله أو أفضل منه، فهذا هو الغبطة وقد سماه النبي ﷺ حسدا. ينظر: مجموع الفتاوى، ابن تيمية، (111/10).

البقرة: ١٠٩، حيث قال: "موعظة وعبرة: اعلّموا رحمكم الله أن سبب بوار بني إسرائيل هو الحسد الذي ملأ قلوبهم، فأعماهم عن رؤية الحق فكانوا من المغضوب عليهم. أما أن لكم أن تنظفوا قلوبكم من هذا الداء الفتاك الذي يصيب القلب فيجعله قاعاً ياباً¹، واعلموا -رحمكم الله- أن سبب العداوة والتحاسد والتباغض بين الناس هو الرغبة في حطام أشرب قلوبهم هذا المرض، فلذلك يعادي الأخ أخاه. وقد كان نبيكم محمد ﷺ يدعوكم إلى هذا التآخي والمودة، وينهاكم عن سبب الأخلاق، يدل على ذلك ما رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا ولا تجسسوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، ولا تباغضوا، وكونوا عباد الله إخواناً»²... والواجب على العاقل مجانبة الحسد على الأحوال كلّها فإن أهون خصال الحسد هو ترك الرضا بالقضاء وإرادة ضد ما حكم الله جل وعلا لعباده ثم انطواء الضمير على إرادة زوال النعم عن المسلم. والحاسد لا تهدأ روحه ولا يستريح بدنه إلا عند رؤية زوال النعمة عن أخيه وهيئات أن يساعد القضاء للحساد في الأحشاء، فالحسد مرض يصيب القلب فالحاسد يحترق في داخله»³.

رابعا: مواعظ تضمنتها مقاصد سور القرآن:

يقوم التواتي عند ختم تفسيره لبعض السور بتقديم مواعظ إجمالية، يحث فيها على العمل بما جاء في السورة من توجيهات ربانية بغرض توجيه السامعين للعمل بتوجيهات السورة، ومن أمثلة ذلك:

1- موعظة عن الأخلاق من خلال سورة الحجرات: لخص الشيخ التواتي مقصد سورة الحجرات بقوله "سورة الحجرات منهج حياة" وتحت هذا العنوان قام بذكر موعظة مجملة يدعو فيها إلى ما ينبغي التحلي به من آداب تضمنتها السورة فقال: "هذه سورة الآداب العامة ومكارم الأخلاق والتهديب والتأديب، سورة هذّبت وجدان المسلمين، وحركت فيهم دوافع الخير والمعروف، وحاربت نوازع السخرية والاستهزاء بالآخرين، وحثّت على إزالة أسباب الخصام والبغضاء، وحرصت على تأليف القلوب وإشاعة المحبة والمودة بين الناس، ولذلك نمت عن ظن السوء بالمسلم المخلص، وعن تتبع العورات المستورة، وعن الغيبة واللمز والتنازير بالألقاب، وبَيّنت أن الناس جميعاً عند الله سواء، كلهم لآدم وآدم من تراب فهم يتفاضلون عنده سبحانه بالتقوى، ويدركون ثوابه بالعمل الصالح.

¹ اليباب هو الحَرَابُ، والمقصود: أن الحسد يجعل القلب خراباً. القاموس المحيط، الفيروز آبادي، ت: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسوسي، بيروت، لبنان، ط: 8، سنة: 1426هـ-2005م، (ص: 186).

² رواه مسلم في صحيحه، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: النهي عن التحاسد والتباغض والتدابير، رقم: 6690.

³ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (2/333)، وينظر: الدر الثمين (5/275).

يمكن أن تكون دائرة معارف شاملة لتربية الفرد وتهذيب الجماعة، فهي تقدم منهجا للحياة السليمة، ونظاما تربويا ناجحا لمواطن صالح مؤمن بربه، يحترم دينه ويؤدي شعائره¹. وقد اتفق كلّ من فسر سورة الحجرات على أن مقصودها الحث على الأخلاق الحسنة، يقول البقاعي: "مقصودها الإرشاد إلى مكارم الأخلاق بتوقير النبي ﷺ بالأدب معه في نفسه وفي أمته"².

2- موعظة في الحث على العمل الصالح من خلال سورة النازعات: حيث ختم الشيخ تفسير سورة النازعات بموعظة بليغة بيّن فيها جزاء المؤمنين وعقاب الكافرين وحثّ على لزوم العمل الصالح للنجاة، ذلك أن مقصد السورة هو: قَرَعَ القلوب المكذبة بالبعث والجزاء، من خلال عرض مشاهد الموت والبعث والحشر والقيامة³. ولذا قال مفسرنا: "خُتِمَ السورة: وقفنا على سورة النازعات وتلوناها وتدبرنا، وأفدنا منها ما أعدّه الله تعالى من خاف مقام ربه، وكان ملجما لنفسه، فقد أعد له مولاه الجنة جزاء صبره، وأما من اتبع هواه وعصى مولاه فإن الجحيم هي مأواه. عليكم أيها السادة المدركون لمعنى الجنة والنار، الخائفون من عذاب الواحد القهار، الموقنون أن الساعة قائمة لا محالة، وعلى بينة ما يترتب عليها من الثواب للأبرار، وما أعدّه من العقاب للكفار، أن تشفقوا من عذاب الله.

عليكم أيها السادة أن تبتدروا وتزرعوا، فإن الحرث هاهنا وإن الحصاد هناك، فإن من بذر الأعمال الصالحة والأخلاق المرضية وسائر السنن والآداب المقبولة الماثورة من النبي المختار ﷺ فإن جنيته يكون وافرا، وإن فوزه مضمونا بوعده من لا يخلف الميعاد... فلا تلتفتوا إلى مزخرفات الدنيا الغدارة المكارة فإنها تمكر بكم وتغويكم وتضلّكم عن طريق الحق وترديكم. فعليكم أن لا تتعبوا لغوائلها ولا تنخدعوا حتى لا تكونوا من زمرة الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، ألا ذلك هو الخسران المبين. جعلنا الله من زمرة الآمنين الفائزين المستبشرين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون"⁴.

3- موعظة في بيان نعيم الأبرار وجحيم الفجار من خلال سورة الانفطار: ففي نهاية تفسير هذه السورة ختم التواتي تفسيرها بموعظة بيّن فيها مقام الأبرار والترغيب فيه، ومصير الكفار والترهيب منه فقال: "ختم السورة: وقفنا ربّنا نحمده ونشكره على ما أولانا: فقد أتمنا تفسير سورة الانفطار بفضل

¹ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (116/18).

² نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين البقاعي، ت: عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، سنة: 1415هـ-1995م، (349/18).

³ المختصر في تفسير القرآن، جماعة من العلماء بإشراف: مركز تفسير للدراسات القرآنية، ط: 3، سنة: 1436هـ، (583/1).

⁴ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (46 و 45/20).

منه، وبعد تلاوتها وتدبرها آية آية، أفدنا ما أعدده من خير عميم ومقام كريم لعباده الأبرار، وما توعده به المجرمين الفجار من عذاب، وذلك عدل منه الواحد القهار. عليكم أيها السادة المترقبون لفضل الحق ولطفه، أن تفوضوا أموركم كلها إلى الله فهو اللطيف بعباده. وعليكم أن تعتبروا مما قيل لكم عن منزلة الأبرار وما أعدده الله لهم يوم الفرار من جنات تجري من تحتها الأنهار، وما توعده به الفجار من منزل وبيل فكان بئس القرار، فاعتبروا إن كنتم من ذوي العبرة والاستبصار"¹.

4- موعظة في الثبات على الطاعة واجتناب المعصية من خلال سورة النصر: قال الشيخ في نهاية تفسيرها: " ختم السورة: ها نحن قد أتمنا تفسير سورة النصر بتوفيق من الله، وبما فتح الله علينا من فضله، وأفدنا من أن الله تعالى قد وعد نبيه ﷺ بالفتح المبين وبالنصر على أعداء الإسلام فقد تحقق ذلك لما امتازوا من إيمان ويقين، ثم أمر بالاستغفار لأنه تفويض ولجوء إلى حصن متين، وكان النبي مع أن الله غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، إلا أنه كان دائم الاستغفار مواظبا عليه. عليكم أيها السادة الموحدون إن كنتم راغبون في النجاة في الآخرة أن ترجعوا إلى الله تائبين وتستغفروه في عموم أوقاتكم وحالاتكم وتفوضوا أموركم كلها إليه وتتخذوه وكيفا وتجعلوه حسيا وكفيا. فعليكم أن تواظبوا على الطاعات والعبادات وتجتنبوا ارتكاب ما حرم الله وتبتعدوا عن المنكرات يحفظكم الله من جميع المصائب والملمات ما دمتم في الطاعة، ويوصلكم إلى عموم مطالبكم بفضله ولطفه، اللهم خذ بنواصينا إلى ما يرضيك عنا ولا تجعلنا من القانطين"².

ومضمون الموعظة التي ذكرها التواتي يشبه بيان مقصد السورة الذي ذكره الفيروز آبادي بقوله: "معظم مقصود السورة: بيان نعيه، وذكر تمام نُصرة أهل الإسلام، ورغبة الخلق في الإقبال على دين الهدى، وبيان وظيفة التسبيح والاستغفار، والأمر بالتوبة في آخر الحال"³.

¹ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (97/20).

² المصدر نفسه، (482/20).

³ بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، الفيروز آبادي، ت: محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، (1/550).

المبحث الثالث: المعالم المتعلقة بإعجاز القرآن الكريم.

من المعالم التي يمكن إدراجها تحت الاتجاه الاجتماعي في التفسير ما يتعلق بإعجاز القرآن الكريم؛ ووجه ذلك أن بيان أوجه الإعجاز القرآني يزيد من تعلق الناس به ويتيقنون أنه تنزيل من ربهم الكريم، فيؤدي ذلك إلى رغبتهم في العمل بتشريعاته وأحكامه والالتزام بها، ممّا ينتج عنه صلاح المجتمع وتحسين العلاقات بين أفرادها فتظهر عليه علامات السيادة والريادة.

ولذا نجد أن الشيخ التواتي اهتم بهذه المسألة وجعلها من خواص القرآن¹. وقد تكلم الشيخ التواتي عن أوجه الإعجاز في مواضع من تفسيره منها قوله: "فهو معجز ببيانه ومعجز بتشريعاته ومعجز بظواهره العلمية"²، وسأقتصر منها على نوعين هما: الإعجاز العلمي والإعجاز التشريعي فقط، أما البياني فهو اتجاه آخر من اتجاهات التفسير لا يسع المقام لتفصيله، وذلك أنه بالإعجاز العلمي يزداد يقين أفراد المجتمع بأن القرآن كلام الله، وبالإعجاز التشريعي يتحفزون للعمل بأحكامه فيصلح المجتمع بذلك. وقد جعلتهما تحت مطلبين هما:

المطلب الأول: معلم "الإعجاز العلمي للقرآن الكريم".

المطلب الثاني: معلم "الإعجاز التشريعي والحكمة من تشريعات القرآن الكريم".
وتفصيلها كما يلي:

المطلب الأول: معلم "الإعجاز العلمي للقرآن الكريم":

يعتبر الإعجاز العلمي من أبرز أنواع الإعجاز القرآني الذي اهتم به المفسرون المعاصرون، وذلك لما له من تأثير مباشر في هداية الناس وإقناعهم بأن القرآن الكريم كلام الله؛ إذ كيف يخبر سبحانه بحقائق علمية دقيقة قبل أربعة عشر قرناً كان الإنسان لا يعلم فيها ما وراء الكتمان الرملية المحيطة به، فضلاً عن معرفته بأسرار الكون وعجائب خلق الله تعالى له. ولذلك نجد الشيخ التواتي اهتم بهذا النوع من الإعجاز اهتماماً بالغاً لتحقيق الغرض المذكور.

¹ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (301/6). ومصطلح "خواص القرآن" يقصد به التواتي خصائص القرآن، أما في الاصطلاح فهو نوع من أنواع علوم القرآن يقصد به: "الآيات أو السور القرآنية التي تختص بشفاء المريض أو قضاء الحوائج، أو غير ذلك". ينظر:

نفحات من علوم القرآن، محمد أحمد معبد، دار السلام، القاهرة، ط: 2، سنة: 1426هـ-2005م، (ص: 119).

² الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (290/12).

وبعد تتبعي لكلام الشيخ حول هذا الموضوع في تفسيره "الدر الثمين" وجدته تكلم عنه من جوانب عدة، مجملها أربعة جعلت كلّ واحد منها تحت فرع، تفصيلها كما يلي:

الفرع الأول: الإقرار بوجود الإعجاز العلمي، والاستفادة من المصنفات التي اعتنت به:

حرص التواتي على إبراز "الإعجاز العلمي" للقرآن الكريم، وكان ذلك من خلال نقاط، هي:

أولاً: إثبات وجود الإعجاز العلمي في القرآن الكريم:

أثبت الشيخ التواتي وجود الإعجاز العلمي في القرآن الكريم لما فسر قوله تعالى ﴿وَأَيُّ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾^(٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ^(٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ^(٣٩) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ يس: ٣٧-٤٠، فقال: " مجمل القول: إن هذه الآيات الكريمة تبين معاني وحقائق علمية لم تكن معروفة لدى الإنسان قديماً، ولم يعلمها العلماء الباحثون إلا في القرون المتأخرة بعد بعثة محمد ﷺ مما يدل على الإعجاز العلمي الذي يتضمنه القرآن الكريم"^١.

وبالنظر إلى الجملة الأخيرة المذكورة نجد التواتي يقرّ بوجود الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، وهذا أمر متفق عليه بين جميع العلماء، فكلهم لا يخالف في أن القرآن اشتمل على حقائق علمية لم ينكر العلم الحديث واحدة منها^٢.

ملاحظة مهمة: ممّا يحسن التنبيه عليه هنا: التفريق بين مصطلحي "الإعجاز العلمي" و "التفسير العلمي"، وقد فرّق بينهما الدكتور: الرومي، حيث ذكر أن الإعجاز العلمي ثابت في القرآن الكريم بلا خلاف بين العلماء، وأما التفسير العلمي فهو الذي وقع فيه الخلاف ولذا عرفه بقوله: "اجتهاد المفسر في كشف الصلة بين آيات القرآن الكريم الكونية ومكتشفات العلم التجريبي على وجه يظهر به إعجاز القرآن، يدلّ على مصدره وصلاحيته لكلّ زمان ومكان"^٣. ثم قام بشرح التعريف؛ خاصة عبارة (اجتهاد المفسر) التي يدخل فيها التفسير العلمي المقبول والمفروض، فالمتجه قد يخطئ ويصيب، ومنه اختلف العلماء في القول بالتفسير العلمي على ثلاث فرق؛ مؤيدين ومعارضين ومتوسطين بين ذلك، وقد اختار

^١ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (62/16).

^٢ اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، فهد الرومي، (601/2).

^٣ المصدر نفسه (549/2).

الرومي القول الوسط وهو: القول بالتفسير العلمي بضوابط أهمها: ضرورة الاختصار على ذكر الحقائق العلمية الثابتة التي لا تقبل التغيير عند تناول النص القرآني، وذكر شروطاً أخرى¹.

وبعد تتبعي لتفسير "الدر الثمين" قصد معرفة موقف التواتي من هذه المسألة، وقفت على ما يلي:

- يرفض الشيخ التفسير العلمي الذي تجعل فيه النظرية العلمية القابلة للتغيير حجة على صحة القرآن، وأن هذا تأويل باطل لكلام الله، ووصفه بأنه الضلال بعينه².

- التفريق بين الحقائق العلمية الثابتة التي لا تقبل التغيير، وبين النظريات العلمية غير المستقرة، وقد جاء ذلك في كثير من المواضع، منها قوله: "ونحن أصحاب هذه العقيدة لا نحاول أن نحمل النص القرآني المستيقن على نظرية غير مستيقنة، تقبل اليوم وترفض غداً، فلذلك لا نحاول في هذا التفسير أن نوفق بين النصوص القرآنية والنظريات التي تسمى علمية، وهي شيء آخر غير الحقائق العلمية الثابتة القابلة للتجربة كتمدد المعادن بالحرارة وتحول الماء بخاراً وتجمده بالبرودة... إلى آخر هذا النوع من الحقائق العلمية، وهي شيء آخر غير النظريات العلمية"³.

- ذكر الشيخ جملة من الضوابط التي ينبغي للمفسر التقيد بها في ذكره للمسائل العلمية - كما سيأتي بيانها في "الفرع الثالث" - ضوابط قبول التفسير العلمي للقرآن الكريم -.

ثانياً: الاستفادة من المصنفات التي أُلِّفت في بيان الإعجاز العلمي للقرآن الكريم والنقل عنها:

اهتم الشيخ التواتي بالنقل عمّن صنف في الإعجاز العلمي، فنقل عنهم بعض المسائل من الحقائق والنظريات والاكتشافات العلمية مع أن هذه المصنفات فيها المقبول والمردود، وهذه المصنفات فهي:

عنوان المصنف	المؤلف	مواضع النقل منه في "الدر الثمين"
القرآن وإعجازه العلمي	محمد إسماعيل إبراهيم	85/4، 134/7 و135، 74/12 و75، 62/16 و96 و334 و335، 441/18 و442 و452 و453 و503 و567 و568، 28/20 و155 و179 و322
الإعجاز العلمي بين الحقيقة والوهم	أحمد محمد فتحي	337/16، 252/18 و253
أسرار الكون بين العلم والقرآن	المهندس عبد الدائم	162/17

¹ اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، الرومي، (600-604).

² الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (162/17).

³ المصدر نفسه، (125/13).

481 و 480/18	عبد الرزاق نوفل الله	العلم الحديث
335/20	محمد حسن محمد سبتان	تقويم أساليب تعليم القرآن الكريم وعلمومه في وسائل الإعلام
444/18	كرسي موريسون	الإنسان لا يقف وحده
337 و 336 و 335 و 56/16	الشيخ الزنداني	كتب ومقالات الشيخ الزنداني - رحمه الله -
247/20	أحمد حسين	كتب ومقالات أحمد حسين
504/18	مجموعة مؤلفين	مقالات حول الحساب الفلكي
315 و 314/18	المراغي	تفسير المراغي
126/13	سيد قطب	في ظلال القرآن
ملاحظة: أحيانا يحيل التواتي نقولاته إلى كلام المتخصصين في مختلف العلوم كقوله "كما يقول الفلكيون"، وقوله: "ذكر أهل الاختصاص"، وقوله: "ذهب بعض الباحثين في آيات القرآن الفلكية والعوالم العلوية إلى..."، ولا يذكر المرجع المنقول منه ¹ .		

الفرع الثاني: بيان أوجه أهمية الإعجاز العلمي للقرآن الكريم وفوائده:

ذكر التواتي عدة نقاط تصوّر لنا أهمية الإعجاز العلمي وفائدته وثمراته في هداية البشر، وهي:

أولاً: تأييد الإسلام وتأكيد صحته: حيث نقل عن محمود درباله قوله: "إن العلوم الطبيعية تؤيد الإسلام، وتؤكد صحته على غير علم من ذويها، مثال ذلك: تلقيح الأشجار الذي لم يكتشف إلا منذ عهد قريب، وقد نص عليه القرآن الذي أنزل على النبي الأمي منذ أربعة عشر قرناً في قوله تعالى ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَّاحٍ﴾ الحجر: ٢٢، وكذلك قوله تعالى ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ ق: ٧، وقوله ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ الذاريات: ٤٩، وقوله ﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ يس: ٣٦، فهذا كلام رب العالمين في القرآن قبل أن تبين لنا العلوم الطبيعية أن في كل نبات ذكرنا وأنشئ².

¹ ينظر مثلاً: الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (275/13)، و(85/16)، و(270/17).

² وقد نقل الشيخ هذا المثال نقلاً عن كتاب: رسول الإسلام محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، محمود درباله، الآفاق، دار للبحث العلمي والنشر والترجمة، (ص: 147).

ثانيا: الإعجاز العلمي يؤكد أن القرآن صالح لكل زمان ومكان: يقول الشيخ التواتي مقررًا لهذه الحقيقة: "إن وجود هذه الحقائق العلمية والمكتشفة حديثًا في كتاب أنزل قبل أربعة عشر قرنًا هو دليل مادي على أن هذا القرآن كلام الله تعالى، وأنه كتاب صالح لكل زمان ومكان"¹.

ثالثا: الفهم العميق للقرآن الكريم: إن في اكتشاف أسرار الكون وعجائبه في العصور المتأخرة وربطها بالحقائق التي ذكرها القرآن الكريم دور كبير في الفهم العميق للقرآن، ولذلك لما فسر التواتي قوله تعالى ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَدِرُونَ﴾ الماعرج: ٤٠، قال مؤيدًا لهذه الفكرة: "إن التقدم العلمي جعلنا نفهم بعمق معنى هذه الآيات، فكل ما كان على الأرض له مشرق ومغرب، هذه هي النظرة العامة، وعرفنا أن الشمس حين تشرق عندي، تغرب عند قوم آخرين، وحين تغرب عندي تشرق عند قوم آخرين، إذن فمع كل مشرق مغرب ومع كل مغرب مشرق، فيكون هناك مشرقان ومغربان، ثم عرفنا أن الشمس لها مشرق كل يوم ومغرب كل يوم يختلف عن الآخر، وفي كل ثانية هناك شروق وغروب، إذن فالقسم هنا ﴿رَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ الماعرج: ٤٠، لأن المشارق والمغرب مختلفة على مدار السنة"². ولو رجعنا إلى تفسير السلف للآية لوجدنا أن ابن عباس رضي الله عنه فسرها بأن الشمس تطلع من ثلاث مئة وستين مطلعًا، تطلع كل يوم من مطلع لا تعود فيه إلى قابل³. وهذا فهم موافق للمراد من الآية يتقاطع مع ما ذكره المعاصرون الذين زادوا تفصيلات بما اكتشفه العلم الحديث. وقول ابن عباس يدل على وجود التفسير العلمي عند المتقدمين لكنه محدود.

رابعًا: توضيح معاني وحقائق جديدة: وذلك مرتبط بشرط أن تكون هذه المعاني تحتملها الآية ولا تنافي معناها الأصلي، وقد ذكر التواتي هذه النقطة عند تفسير قوله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ الفرقان: ٥٣، فقال: "الإعجاز العلمي في القرآن: وهذه الآية من الحقائق العلمية التي عرفها العلم مؤخرًا بعد بحث ودراسة وتنقيب؛ من ذلك وجود حاجز بين البحر والنهر فلا يبغي أحدهما على صاحبه ولا يختلط به.

¹ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (162/17).

² المصدر نفسه، (377/19).

³ جامع البيان، الطبري، (623/23).

فقد لاحظ علماء البحار عند التقاء فرعي نهر النيل عند دمياط وعند الرشيد بالبحر الأبيض، حيث تندفع مياه النهر العذبة بقوة شديدة إلى البحر المالحة، ومع هذا كل منهما تحتفظ بمذاقها وأحيائها، وذكروا أن مكتشف ذلك قد أسلم لما رأى برهان ربّه، وعلم أن هذا القرآن وحي يوحى -.

تنبيه هام: ليس الغرض من هذا التحقيق العلمي للآيات هو إثبات حقيقة القرآن -معاذ الله- لأبين لكم أيها السادة أن المنهج العلمي في تفسير تلك الآيات القرآنية، هو إيضاح معان جديدة للقرآن الكريم، وإثبات صدقه لمن هو في شك منه، وبيان إعجازه العلمي وزيادة حجته وقوة إقناعه¹.

ولو رجعنا إلى تفسير بعض المتقدمين للآية لوجدنا أن معناها: الأنهار العذبة والبحار المالحة والبرزخ هو الحاجز من الأرض لئلا يبغي هذا على هذا، وهذا على هذا، فيفسد كلّ واحد منهما الآخر ويزيله عن صفته التي هي مقصودة منه². ولكن بعد الاكتشافات العلمية الحديثة ظهرت حقائق علمية فسر بها العلماء الآية تفسيراً علمياً دقيقاً فأعطينا حقائق جديدة كتحديد المكان بدقة.

خامساً: إظهار عجز البشر أمام إعجاز القرآن: فعند تفسيره لقوله تعالى ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُوا بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ الإسراء: ٨٨، ذكر عجز البشر أمام الحقائق القرآنية فقال: "وتعجبني كلمة قالها أحد العلماء في العصر الحديث حين درس القرآن وتدبر ما فيه من ناحية الإعجاز العلمي، وقارن بين الظواهر العلمية الموجودة في القرآن مع ما اكتشفه العلماء في هذا العصر، فقال: -إن الظواهر العلمية الموجودة في القرآن إذا قيسَت بما اكتشفه العلماء في عصرنا، فإن العلم الحديث بما حققه من اكتشاف فإنه ما زال يحبو بالنسبة لهذه الظواهر العلمية في القرآن، وإنه ليستحيل أن يكون هذا من اختراع عقل بدائي كعقل محمد ﷺ، وإنما هذا وحي يوحى - . وصدق الرجل فإن هذا وحي من الله لا يستطيع أن يحاكيه وأن يأتي بمثله، وإن رسول الله ﷺ ما تحداهم إلا وهو على يقين بأنه من عند ربه، وأنه ﷺ كغيره لا يقدر على الإتيان بمثله. فهذا القرآن ليس ألفاظاً وعبارات يحاول الإنس والجن أن يحاكيوها، إنما هو كسائر ما يبدعه الله يعجز في المخلوقين أن يصنعوه، هو كالروح من أمر الله لا يدرك الخلق سره الشامل الكامل، وإن أدركوا بعض أوصافه وخصائصه وآثاره"³.

¹ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (69/14).

² تفسير القرآن، ابن كثير، (455/7).

³ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (290/12).

الفرع الثالث: بيان ضوابط قبول التفسير العلمي للقرآن الكريم:

قيّد الشيخ التواتي قوله بمشروعية التفسير العلمي ببعض الضوابط والشروط حتى يقبل، وهذا هو القول الوسط الذي ينبغي القول به في اختلاف العلماء، لأن هناك طرفي نقيض في المسألة، منهم من يقبله دون شروط وضوابط، ومنهم من يرفضه مطلقاً¹. والضوابط التي ذكرها التواتي هي:

أولاً: الاعتدال في تأييد التفسير العلمي وعدم التكلف فيه: والمقصود بالاعتدال فيه: عدم التكلف في الربط بين النصوص القرآنية والاكتشافات والمسائل العلمية بما لا يحتمله النص القرآني، بل ينبغي التوسط في ذلك بلا إفراط في حشو التفسير بها ولا تفريط في ذكر الحقائق العلمية القريبة من مدلول النص القرآني. يقول الشيخ التواتي وهو يذمّ المبالغة في التفسير العلمي حيث سماه تأويلاً باطلاً فقال: "أما التأويل الباطل فقد وقع فعلاً في بعض التفاسير من الجهلة والملاحدة كالتفسير العلمي للقرآن الكريم، وهذه الفئة كأنيّ بها تريد أن تجعل النظرية العلمية القابلة للتغيير حجة على صحة القرآن - وهذا هو الضلال بعينه -"². وهذا لا يعني أن الشيخ يرفض التفسير العلمي للقرآن، بل إنه يُقرّه لكن بضوابطه كما سيأتي بيانه.

ثانياً: عدم تحكيم القرآن للنظريات العلمية التي لم تبلغ درجة اليقين: وقد استفاد الشيخ في هذا الضابط كثيراً، وتحدث عنه من عدة جوانب أهمها:

1- أن القرآن يتضمن حقائق ثابتة لا تتغير ولا تتبدل بتغير الزمن، لذا لا تُحكّمه لما يتوصّل إليه العلم الحديث من نظريات يعتبرها التبديل والتغيير، بل النظريات هي التي ينبغي أن تحاكم إلى القرآن لأنه كلام رب العالمين، وفي ذلك يقول: " تنبيه هام جداً: ... ويجب أن ننبه أن القرآن لا يجب أن يصدّق إلا بما جاء العلم الحديث، وإنما القرآن يصدق لأنه تنزيل من رب العالمين، وإن اختلف العلم الحديث مع القرآن، فإن القرآن يشمل ظواهر علمية غير قابلة للتغيير ولا التبديل، بينما العلم الحديث نظريات والنظريات قابلة للتغيير حسب الزمان وقوة العلم لدى المُنظّر"³.

2- تفريقه بين النظريات التي هي عرضة للتغيير والتبديل وبين الحقائق الثابتة: فهذه يمكن حمل الآيات القرآنية عليها، أما الأولى فلا يمكن أن تحمل عليها، يقول التواتي: " ونحن أصحاب هذه العقيدة

¹ ومن أنكر التفسير العلمي للقرآن: الإمام الشاطبي من المتقدمين، والشيخ محمود شلتوت من المتأخرين. ينظر: التفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي، (5/12)، وينظر: اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، الرومي، (2/550-604).

² الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (2/128).

³ المصدر نفسه، (12/72).

لا نحاول أن نحمل النص القرآني المستيقن على نظرية غير مستيقنة، تقبل اليوم وترفض غدا، فلذلك لا نحاول في هذا التفسير أن نوفق بين النصوص القرآنية والنظريات التي تسمى علمية، وهي شيء آخر غير الحقائق العلمية الثابتة القابلة للتجربة كتمدد المعادن بالحرارة وتحول الماء بخارا وتجمده بالبرودة... إلى آخر هذا النوع من الحقائق العلمية، وهي شيء آخر غير النظريات العلمية. ولقد أحسن التعبير أحد العلماء في العصر الحديث حين أشار إلى المسائل والقضايا ذات النزعة العلمية، فسمّاها بالظاهرة العلمية؛ لأن الظاهرة العلمية ظاهرة كلية غير قابلة للتغيير، بينما النظرية العلمية هي قابلة للتغيير وذلك حسب التقدم العلمي الذي يحرزه في بحوثهم¹.

3- ردّه على من جعل الكشف العلمية أساسا لتفسير القرآن الكريم: بل جعل ذلك تحاملا على القرآن الكريم، ونقل كلاما للدكتور دراز² يؤكد ذلك فقال: "وبعد أن انتقد الدكتور دراز الإسراف في التوفيق بين النص القرآني وبين النتيجة العلمية، تحدث عن فائدة التفكير في الآفاق وفي الأنفس إلى أن قال: نحن لا نفسر نهائيا الآيات المذكورة بالمكتشفات المشار إليها، ولكننا نشاهد التطابق المدهش بين النص القرآني وبين المكتشفات العلمية الناتجة عن بحوث المتخصصين المتلاحقة خلال القرون الكثيرة وهذا لا يمكن أن يكون صدفة، بل لابد من أن تكون معجزة"³.

ثالثا: التسليم للحقائق العلمية التي يعرضها القرآن: حيث يجعل القرآن الكريم وما فيه من حقائق هو الأصل والحاكم والنظريات العلمية هي التي تُعرض عليه لا العكس، ففي تفسير قوله تعالى ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ النمل: ٤٠، طرح الشيخ تساؤلا يتعلق بالآية فقال: "كيف يمكن أن يؤتى بذلك الكرسي قبل ارتداد الطرف؛ فنحن إما أمام سحر، أو أن الأمر من الأساطير؟ ثم أجاب عنه بوجود التسليم للقرآن فقال: "الجواب: أيها المعقب يجب ألا يغيب على ذهنك أننا أمام أمر إلهي،

¹ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (125-124/13).

² محمد بن عبد الله دراز: أديب مصري، انتسب إلى معهد الاسكندرية الديني، وحصل على الشهادة الثانوية الأزهرية، وعلى شهادة العالمية، واختير للتدريس بالقسم العالي بالأزهر، ثم أرسل في بعثة علمية إلى فرنسا، وحصل على الدكتوراة من السوربون، وعاد فاشتغل بالتدريس في جامعة القاهرة وغيرها، ونال عضوية جماعة كبار العلماء، اشترك في المؤتمر العلمي الإسلامي بباكستان، وتوفي بها في: 16 جمادى الآخرة 1377هـ. من مؤلفاته: تاريخ آداب اللغة العربية، منهل العرفان في تقويم البلدان، كتاب في مبادئ علم الاخلاق، كتاب الدين، وتفسير آيات الاحكام بالاشتراك مع درويش. ينظر: معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، (213-212/10).

³ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (457/11).

أمام وحي، أمام نبوة، أمام معجزات لتأييد نبيّ مرسل، أمام أمر الله تعالى، أمام صاحب كن فيكون، ويجب ألا نقيس الأمور بمقياس عقولنا، وحياتنا ومعرفتنا اليوم. وإذا كان علم البشر إلى الآن لم يصل إلى تحقيق ذلك علميا مع تقدم سبل الانتقال، فالتطورات على سرعتها التي أدهشت العقول لا تستطيع أن تسافر من جنوب اليمين إلى أطراف الشام في مثل تلك اللحظات الوجيزة، لكن هذا الأمر لا ينظر إليه بالقياس إلى قدرة البشر وعلمهم الحالي، نحن أمام ظاهرة قرآنية تتحدث عن معجزة إلهية لنبيّ زمانه أرسله الله بالهدى ودين الحق وهو سليمان.

ثم هناك أمر آخر فإذا كان البحث العلمي الحديث لم يصل إلى ذلك، فإن العجز في القدرات العلمية البشرية يشير إلى ظاهرة علمية، وإن العلم الحديث لا زال يحبو بالنسبة لهذه الظواهر العلمية في القرآن الكريم. فقد تحقق لدى الإنسان الحديث أن القمر الصناعي أبولو (APOLLO)¹ وكذلك القمر الصناعي الروسي قد أتيا بعينات من القمر، وقد أتت بعض الأقمار الصناعية بعينات من المريخ الذي هو أبعد من القمر، وإذا كان ذلك ممكن فالقمر والمريخ أبعد من اليمن بالنسبة إلى الشام بمئات الآلاف بل بملايين الكيلومترات².

رابعا: مراعاة السياق القرآني: سياق الكلام هو تتابعه وأسلوبه الذي يجري عليه³، ومن شروط صحة التفسير العلمي عند التواتي؛ أن يتوافق القول به مع سياق الآية ولا يخالفه، وقد قرر مفسرنا هذا الضابط لما فسر قوله تعالى ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَنتَاهٍ دَاخِرِينَ﴾^{٨٧} وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿النمل: ٨٧-٨٨﴾ ذكر الشيخ الاختلاف الوارد في حركة الجبال، هل هو يوم القيامة أم في الدنيا؟، فنقل فتوى لأحد شيوخ الأزهر أنها يوم القيامة كما يرجحه الشيخ، فقال: "ويعجبني ما ورد في فتوى لأحد شيوخ الأزهر الشريف في الردّ على من قال: إن الآية دليل على دوران الأرض... وقد نسي أن الآيات التي اكتنفت هذه الآية تتحدث عن النفخ في الصور وعن محاسبة الناس

¹ وهي مركبة فضائية تتكون من ثلاثة أجزاء صُممت بهدف إكمال برنامج أبولو الأمريكي للهبوط برواد الفضاء على سطح القمر مع نهاية ستينيات القرن العشرين، ثم العودة بهم بأمان إلى الأرض . ينظر: موقع: ويكيبيديا الموسوعة الحرة، الرابط:

[https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A3%D8%A8%D9%88%D9%84%D9%88_\(%D9%85%D8%B1%D9%83%D8%A8%D8%A9_%D9%81%D8%B6%D8%A7%D8%A6%D9%8A%D8%A9](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A3%D8%A8%D9%88%D9%84%D9%88_(%D9%85%D8%B1%D9%83%D8%A8%D8%A9_%D9%81%D8%B6%D8%A7%D8%A6%D9%8A%D8%A9)

² ينظر: الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (14/215-216).

³ المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وأحمد الزيات وغيرها، (1/465).

على حسناتهم وسيئاتهم، فالجؤ كله في يوم القيامة سابقاً¹ وسباقاً². كما أورد كلاماً للشيخ لابن عثيمين في أن الآية تتحدث عن يوم القيامة³. وبعد ذلك وعقب قائلاً: "نحن لا نقلل من قيمة البحث العلمي الحديث، بل ندعوا إليه ونحث أبناءنا الطلبة إلى أخذ نصيب منه لنساير الركب، لكن هذا لا يعني تحكيم ما يكتشفه العلم من نظريات علمية، ونستدل بها على التفسير، وذلك لأن النص القرآني يؤخذ حسب سياقه الذي ورد فيه... فالحديث عن سير الجبال أمر يكون عند غروب الساعة؛ لأن الآية التي قبلها نصت على النفخ في الصور، ولا يكون ذلك إلا عند غروب الساعة التي لا يعلمها إلا الله"⁴.

خامساً: إعمال العقل دون الخروج عن الاعتقاد الصحيح: وتحدث عنه الشيخ من عدة نواحي:

1- أن العقل له حدّ في دائرة البحث العلمي لا ينبغي له أن يتجاوزها، وذكر الشيخ هذا الضابط عند تفسير قوله تعالى ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخْتَلَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ البقرة: ١٦٤، حيث قال: "كيفية نزول الماء من السماء: الثابت عند أهل الاعتقاد الصحيح والتسليم المريح أن الله تعالى ينزل الماء من السماء بعدما تتكون سحباً بقدرته، وامثالاً لأمره فيسقى به أناس من خلقه، ويحيي به الأرض بعد موتها، فلا يسأل عن الكيفية، ولكن للعقل في مجال البحث العلمي الهادف إلى حقيقة إظهار قدرات الله تعالى في الخلق والإيجاد أن يبحث عن الكيفية بدون الخروج عن الاعتقاد الصحيح، والتسليم الكلي أن تصرفاته وتدييره هو شأن خاص بالله تعالى"⁵.

2- تحدث عن ضرورة التفكير وإعمال العقل وولوج أبواب المعرفة، وأنه بذلك علت مكانة العلماء المشتغلين بالكشف عن الظواهر العلمية وكانوا أقرب الناس لخشية الله، فقال في تفسير قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ

¹ قال الكفوي: "والسباق، بالموحدة: ما قبل الشيء"، ينظر: كتاب الكليات، أبو البقاء الكفوي، ت: عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، سنة: 1419هـ - 1998م. (ص: 508).

² الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (270/14).

³ يقول ابن عثيمين: "بعض الناس قال إنّ هذه الآية تعني دوران الأرض، فإنك ترى الجبال فتظنها ثابتة ولكنها تسير، وهذا غلط وقول على الله تعالى بلا علم، لأن سياق الآية يأبى ذلك"، تفسير الكهف، محمد بن صالح العثيمين، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، السعودية، ط: 1، سنة: 1423هـ، (63/6).

⁴ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (270/14).

⁵ المصدر نفسه، (163/3-164).

مُخْتَلَفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلَفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ فاطر: ٢٧-٢٨، بأن العلماء هنا هم علماء النبات والحيوان وطبقات الأرض وعلماء الفيزياء والكيمياء وعلماء الطب والهندسة والفلك، كما هو سياق الآيات، ثم قال: "لقد تتبعنا كلام هؤلاء وسمعنا حديثهم عن الله تبارك وتعالى، فإذا هم يذكرون عظيما أهلا للتحميد والتمجيد والإفراد بالعبودية. وفي كل شيء له آية * تدل على أنه واحد¹.

وعلى هذا المحور تدور معاني القرآن، فالإيمان وليد عقل ذكي باحث، والدين ليس إلا عقلا مؤمنا وقبلنا استقرت إلى الله وجهته... وإن إعجاز القرآن العلمي يحث المسلمين على التفكير، ويفتح لهم أبواب المعرفة ويدعوهم إلى ولوجها والتقدم فيها، وقبول كل جديد راسخ من العلوم"².

سادسا: عدم جعل القرآن الكريم كتابا للمباحث العلمية: بل هو كتاب هداية يتحدث عن الحقائق العلمية فيجعلها سبيلا من سبل تحقيق الهداية وليس كتاب علوم، وفي ذلك يقول مفسرنا: "ولهذا ينبغي أن نتعلم أن القرآن الكريم ليس كتاب نظريات علمية ولم يحن ليكون علما تجريبيا، وإنما هو منهج للحياة كلها، منهج لتقويم العقل وتنويره ليعمل وينطلق في حدوده، ولتقويم المجتمع ليسمح للعقل بالعمل والانطلاق دون أن يدخل في جزئيات وتفصيليات علمية بحتة، فهذا متروك للعقل بعد تقويمه وإطلاق سراحه. وقد يشير القرآن الكريم أحيانا إلى حقائق كونية كهذه الآية التي تشير إلى حقيقة علمية... ونحن نستيقن هذه الحقيقة لمجرد ورودها في القرآن"³.

الفرع الرابع: نماذج من الإعجاز العلمي:

وقد ذكر الشيخ أمثلة تطبيقية عن الإعجاز العلمي؛ وجدتها بالتببع على ثلاثة أقسام، هي:

الأول: أن ينقلها عن غيره ممن تكلم في الإعجاز العلمي ويحيلها إليه، وهو الأكثر.

الثاني: أن ينقلها عن غيره ممن تكلم في الإعجاز العلمي ولا يحيلها.

الثالث: أن يذكرها الشيخ من ثقافته ولا ينقلها نقلا حرفيا عن غيره.

وفيما يلي مثال عن كل نوع من هذه الأنواع:

¹ هذا البيت لأبي العتاهية. كتاب الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، ت: سمير جابر، دار الفكر، بيروت، ط: 2، (39/4).

² الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (423-421/15).

³ المصدر نفسه، (124/13 و125).

أولاً: نقل الإعجاز العلمي عن غيره مع الإحالة له، ثم التعليق عليه، ومثاله: ما ذكره في قضية كون النبات الأخضر مصدر الفحم الخشبي، وذلك عند تفسيره لقوله تعالى ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ يس: ٨٠، تحت عنوان: الإعجاز العلمي في القرآن، حيث ذكر الشيخ كلاماً لمحمد إسماعيل إبراهيم ذكره في كتابه "القرآن وإعجازه العلمي" يثبت فيه ما توصل إليه العلم الحديث من حقائق علمية طابقت ما جاء في النص القرآني، وذكر كلاماً علمياً يثبت فيه أن الفحم الحجري والبتروك والغازات يعود أصلها إلى النباتات والأشجار¹.

ثم ذكر الشيخ تفصيلاً لذلك وتعليقاً عليه بقوله: "ويذكر أهل الاختصاص بعض الحقائق العلمية أشارت إليها الآية الكريمة، أي: أخبر عنها القرآن قبل أن يصل العلم إلى معرفتها: إن طاقة الشمس تنتقل إلى جسم النبات بعملية التمثيل الضوئي، إذ تمتص خلاياه المحتوية على المادة الخضراء في النبات (الكلورفيل) ثاني أكسيد الكربون من الجو، ويتفاعل هذا الغاز مع الماء الذي يمتصه النبات تنتج المواد "الكربوهيدراتية" بتأثير الطاقة المستمدة من ضوء الشمس، ومن ثم يتكون الخشب الذي يتكون أساساً من مركبات كيميائية محتوية على الكربون و "الهيدروجين" و "الأكسجين"، ومن هذا الخشب يتكون الفحم النباتي المستعمل في الوقود، إذ يحرق هذا الفحم تنطلق الطاقة المدخرة فيه وينتفع بها في الطهي والتدفئة والإنارة وتسخين الماء وفي كثير من الأغراض، وما الفحم الحجري الخشبي إلا نباتات وأشجار نشأت ونمت على النحو السابق، وكبرت بفعل عملية ملايين السنين إلى الفحم المذكور تحت تأثير فعل العوامل الجيولوجية كالحرارة والضغط وغيرها. ويجب أن يلاحظ أن لفظ "الأخضرار" في الآية ووصف الشجر بهذا اللون لم يكن عفويًا، وإنما إشارة إلى مادة "الكلوروفيل" الأخضر اللازمة لتمثيل غز ثاني أكسيد الكربون"².

ثانياً: نقل الإعجاز العلمي عن غيره ممن تكلم فيه دون إحالته، ومثاله: مسألة الإعجاز العلمي في مراحل تكوين الجنين: فعند تفسير التواتي لقوله تعالى ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ ١٣ ثم جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ١٤ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعُلُقَةَ مِضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْلًا فَكَسَوْنَا الْعِظْلَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا ءَاخِرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ١٥ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ١٦ ثم إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ ١٧ المؤمنون: ١٢-١٦، نقل كلاماً لسيد قطب في تفسيره،

¹ القرآن وإعجازه العلمي، محمد إسماعيل إبراهيم، دار الفكر العربي، دار الثقافة العربية للطباعة، (ص: 155).

² الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (97-96/16).

ولكن الشيخ التواتي لم يعزه وإنما اكتفى بنقل النص فقال: "وقفة تأمل وتدبر: إنه ليقف الإنسان مدهوشاً أمام ما كشف عنه القرآن من حقيقة في تكوين الجنين لم تعرف على وجه الدقة إلا أخيراً بعد تقدم علم الأجنة التشريحي¹. وذلك أن خلايا العظام غير خلايا اللحم، وقد ثبت أن خلايا العظام هي التي تتكون أولاً في الجنين، ولا تشاهد خلية واحدة من خلايا اللحم إلا بعد ظهور العظام وتمام الهيكل العظمي للجنين، وهي الحقيقة التي يسجلها النص القرآني: ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا﴾ المؤمنون: ١٤، فسبحان العليم الخبير"².

ثالثاً: ذكر إعجاز علمي من ثقافة الشيخ دون نقله حرفياً عن غيره، ومثاله: ما ذكره في معجزة الإخبار بتعدد المشارق والمغارب، عندما فسر قوله تعالى ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ المعارج: ٤٠، حيث قال: "إن التقدم العلمي جعلنا نفهم بعمق معنى هذه الآيات، فكلّ ما كان على الأرض له مشرق ومغرب، هذه هي النظرة العامة، وعرفنا أن الشمس حين تشرق عندي، تغرب عند قوم آخرين، وحين تغرب عندي تشرق عند قوم آخرين، إذن فمع كلّ مشرق مغرب ومع كلّ مغرب مشرق، فيكون هناك مشرقان ومغربان، ثم عرفنا أن الشمس لها مشرق كلّ يوم ومغرب كلّ يوم يختلف عن الآخر، وفي كلّ ثانية هناك شروق وغروب، إذن فالقسم هنا ﴿بِرَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾، لأن المشارق والمغارب مختلفة على مدار السنة"³. وهذا المعنى الذي ذكره التواتي، أفّره المختصون في علم الفلك وذكره من تحدث عن الإعجاز العلمي بشيء من التفصيل جمعاً بين الآيات على النحو الآتي:

- 1- قالوا أما في قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ البقرة: ١١٥، فإنه في الوقت الذي تشرق فيه الشمس على مكان تغرب عن مكان آخر وبنفس اللحظة. فالجهتان ليستا متقابلتين إحداهما بالشرق والأخرى بالغرب فيكون عندنا في نفس الوقت مشرق ومغرب كما في الآية تماماً.
- 2- وأما في قوله تعالى ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ الرحمن: ١٧، فإن الكرة الأرضية مقسّمة إلى نصفين، نصف الكرة الشمالي ونصف الكرة الجنوبي، أي: نصف كرة مضيء ونصف كرة مُعتمّ،

¹ علم الأجنة، وهو علم تكون الجنين في رحم الأم، موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، محمد راتب النابلسي، دار المكتبي، سورية، دمشق، الحلبي، جادة ابن سينا، ط: 2، سنة: 1426هـ-2005م. (87/1).

² الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (283/13). وهذا النص موجود بحروفه في كتاب: في ظلال القرآن لسيد قطب، (227/5).

³ المصدر نفسه، (377/19).

فالنصف المضىء له مشرق ومغرب في آن واحد وكذلك نصف الكرة المِعْتَم له مشرق ومغرب في نفس الوقت فهما مشرقان ومغربان في آن واحد.

3- وأما في قوله تعالى ﴿يَرْبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ المعارج: ٤٠، فإذا نظرنا إلى الكرة الأرضية نجد في كل جزء من الثانية مشرقا تشرق فيه الشمس على مكان ومغربا تغرب فيه الشمس عن مكان آخر، فهناك ملايين المشارق والمغارب.

وهذه المشارق والمغارب تَحْدُثُ من دوران الأرض حول نفسها، أما من دوران الأرض حول الشمس فتحدث الفصول الأربعة، وهذا يؤكد كروية الأرض، إذ لو كانت الأرض منبسطة لما كان لها إلا مشرقا واحدا ومغربا واحدا، وحينئذ لا يكون لها مشارق متعددة ولا مغارب.

فالتقدم العلمي الذي غيّر كثيرا من المفاهيم عن الكون لم يغير شيئا من كتاب الله تعالى، بل إن العلم لَيُؤَكِّدُ هذه الحقائق التي جاء بها هذا الكتاب الكريم¹.

المطلب الثاني: معلم "الإعجاز التشريعي والحكمة من تشريعات القرآن الكريم":

يعتبر الإعجاز التشريعي من أنواع الإعجاز القرآني التي اهتم بها الشيخ التواتي في تفسيره "الدرّ الثمين" اهتماما بارزا، وذلك لما له من تأثير مباشر في هداية الناس وإقناعهم بالعمل بالتشريعات القرآنية بمختلف أنواعها ومجالاتها في: العبادات والمعاملات والحدود وغيرها.

وبعد تتبعي لكلام الشيخ المتفرق حول موضوع الإعجاز التشريعي للقرآن الكريم من حيث منهجه في بيانه، وأنواع التشريعات التي يبيّن حكمها والإعجاز فيها، وجدت كلامه حول هذا الموضوع متعدّد الجوانب والمجالات فقسّمته إلى خمسة مسائل جعلتها تحت فروع فكانت خمسة تفصيلها كما يلي:

الفرع الأول: منهجه في بيان الإعجاز التشريعي للقرآن الكريم:

وسأبيّن هنا المنهج العام الذي عرض به الشيخ التواتي قضية الإعجاز التشريعي، وذلك كما يلي:
أولا: التصريح بكون الإعجاز التشريعي من أوجه إعجاز القرآن الكريم: وقد نصّ مفسرنا على ذلك في تفسيره فقال في معرض تعديده لأنواع الإعجاز في القرآن: "والقرآن الكريم معجز في نظمه وورصفه وفصاحه معانيه، معجز في بيانه، معجز بما يشتمل عليه من ظواهر علمية، معجز في تشريعاته وإلى غير ذلك"³.

¹ المعجزة القرآنية حقائق علمية قاطعة، أحمد عمر أبو شوفة، دار الكتب الوطنية، ليبيا، سنة: 2003م، (ص: 74-75).

² يوجد أمثلة أخرى في تفسير: الدرّ الثمين، التواتي بن التواتي، (162/17) (69/14) (72-71/12).

³ الدرّ الثمين، التواتي بن التواتي، (391/1). وينظر أيضا: الدرّ الثمين، (408/1) (290/12).

ثانيا: الرد على القوانين الوضعية التي تخالف التشريعات الربانية: حيث كان الشيخ يقارن أحيانا بين التشريع الرباني الذي يحمل في طياته أسراراً عميقة من الإعجاز كونها ربانية المصدر، وبين التشريعات القانونية التي تشرعها العقول البشرية وما فيها من عوارٍ وعجزٍ وبيّن الفرق بينهما، ومن ذلك أنه لما تحدث عن الإعجاز التشريعي في حدّ القصاص في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقَصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْ بِالْحَرْ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ البقرة: ١٧٨، قال: "الإعجاز التشريعي للإسلام: يلاحظ من خلال النظر في هذه الآية أن الإسلام في القصاص نظر إلى أمر لم ينظر إليه القانونيون وهو: أنه جعل القصاص حقا لأولياء المقتول شفاء لغيظ نفوسهم ومنعا لإهدار دم بريء، ولذلك كان لهم حق العفو أو القصاص، ولم يمنع وليّ الأمر من أن يقتل تعزيرا إذا رأى في ذلك مصلحة، ولم ينظر الإسلام إلى البواعث؛ لأن القاتل ظالم مهما تكن البواعث، وقد أدّى النظر في البواعث إلى الرأفة بالجاني، وإهمال المجني عليه ممّا أدّى إلى عادة الأخذ بالثأر، وتسلسل جرائم القتل؛ لأنه لم يشف أولياء المقتول، وإن التشريعات الإسلامية تدرس الآن في الجامعات الغربية نظرا لمعالجتها لأصل الجريمة والقضاء على تعددها وتسلسلها.

وهذا هو حكم الله الذي فيه طمأنينة المجتمع وإخافة الفاعل، والردع عن التماادي في العمل الضار، قد أنزله سبحانه على بني إسرائيل في توراتهم، فخالفوا وعاندوا وبدلوا فكانت النتيجة جرائم متتالية واضطرابات تزعزع النفوس، وسار على منوالهم النصارى فحلّ بهم ما حلّ بسابقيهم، حسبما نلمسه اليوم في قوانينهم الوضعية من امتداد لذلك العمل؛ حيث بُحِى الثمرات السيئة فيما يطفح على الصحافة من أخبار، وما يبرز من تقارير الجريمة من أرقام¹.

ثالثا: وصفه لمنهج القرآن في بيان الإعجاز وحكم التشريع: حيث إنه لما فسّر قوله تعالى ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ النساء: ٢٦-٢٨، وصف هذا التلطّف الرباني العظيم الذي جاء به أسلوب الآية فقال: "إن الله يتلطّف مع عباده فيبيّن لهم حكمة تشريعاته لهم، ويطلعهم على ما في المنهج الذي يريده لحياتهم من خير ويُسّر. إنه يكرمهم ويرفعهم إلى الأفق الذي يحدثهم فيه، ليبين لهم

¹ المصدر السابق، (283/3).

حكمة ما يشرعه لهم وليقول لهم: إنه يريد الله ليكشف لكم عن حكمته ويريد لكم أن تتروا هذه الحكمة، وأن تتدبروها، وأن تقبلوا عليها مفتوحى الأعين والعقول والقلوب، فهي ليست معميات ولا ألغازا وهي ليست تحكما لا علة له ولا غاية، وأنتم أهل الإدراك حكمته وأهل لبيان هذه الحكمة لكم. وهو تكريم للإنسان يدرك مداه من يحسون حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية، فيدركون مدى هذا التلطف الكريم¹.

رابعا: بيان طريقته في التنصيص على الإعجاز والحكم التشريعية: بعد تبني لطريقة الشيخ التواتي في عرض وبيان الإعجاز التشريعي في أحكام القرآن الكريم، وجدته يطبقها على طريقتين: الأولى: بيانه لها تحت عنوان واضح كقوله: "الإعجاز التشريعي للإسلام"، أو "الحكمة من القصص... الخ، الثانية: أن يدرج العلة تحت تفسيره بلا عنوان واضح، بل يكون أثناء التفسير، وهو أكثر من الأول وسيأتي في الأمثلة التطبيقية.

خامسا: المصطلحات التي عبر عنها بالإعجاز التشريعي: عبّر الشيخ التواتي عن حكم تشريعات القرآن بمصطلحات مختلفة؛ منها: قوله: "الإعجاز التشريعي"، وقوله: "الحكمة من..."، وقوله: "له مقاصد شرعية"، وقوله: "سبب..."، وقوله: "علل..."، وقوله: "فوائد..."، وقوله: "مضار...".

الفرع الثاني: حكم وعلل من تشريع بعض العبادات الخاصة:

تحدث الشيخ التواتي عن الحكمة العامة من تشريع العبادات فقال: "والحكمة الأصلية في العبادات كلّها هي إعداد هذا الكائن البشري لدوره على الأرض، وتهيئته للكمال المقدر له في حياة الآخرة"². وهذه الحكمة العامة ذكرها قبله الشيخ: العز بن عبد السلام في كتابه العظيم "قواعد الأحكام في مصالح الأنام" فقال: "التكاليف كلها راجعة إلى مصالح العباد في دنياهم وأخراهم والله غني عن عبادة الكلّ، ولا تنفعه طاعة الطائعين، ولا تضره معصية العاصين"³. وبعد هذا الإجمال فصلّ الشيخ التواتي في بيان بعض الحكم الجزئية التي تنوّعت على أنواع من العبادات بيانها كالاتي:

أولا: علل وحكم متعلقة بتشريع بعض مسائل الصلاة: ومّا ذكر التواتي علته من مسائل الصلاة ما يلي:

1- علة تحويل القبلة: أثار تحويل القبلة لغطا كبيرا عند المخالفين للمسلمين من مشركين ويهود ومنافقين، واختلف المفسرون في تاريخ تحويل القبلة بعد هجرته ﷺ إلى المدينة؛ فقال أنس بن مالك

¹ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (34/7).

² المصدر نفسه، (314/3).

³ قواعد الأحكام في مصالح الأنام، العز بن عبد السلام، ت: محمود بن التلاميذ الشنقيطي، دار المعارف، بيروت، (73/2).

عليه السلام: بعد تسعة أشهر وقال معاذ عليه السلام: بعد ثلاثة عشر شهرا، وقال قتادة: بعد ستة عشر شهرا، وقال ابن عباس عليه السلام: بعد سبعة عشر شهرا¹. ولما فسر التواتي آيات تحويل القبلة وهي قوله تعالى ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ البقرة: ١٤٩، تحدث عن العلة من تحويل القبلة فذكر ثلاث علل في ذلك معنونا لها بقوله: "علل تحويل القبلة: للتحويل ثلاث علل: أولا: تعظيم الرسول ﷺ بابتغاء مرضاته، وجري العادة الإلهية على أن يؤتي أهل كل ملة وجهة. ثانيا: ودفع حُجج المخالفين. ثالثا: فإن التولية إلى الكعبة تدفع احتجاج اليهود بأن المنعوت في التوراة قبلته الكعبة لا الصخرة، وهذا النبي يصلي إلى الصخرة فلا يكون النبي الموعود، وبأنه ﷺ يدعي أنه صاحب شريعة ويتبع قبلتنا وبينهما تدافع؛ لأن عاداته سبحانه وتعالى جارية بتخصيص كل صاحب شريعة بقبلة، وتدفع احتجاج المشركين بأنه ﷺ يدعي ملة إبراهيم ويخالف قبلته"².

2- الحكمة من التخفيف في قيام الليل: مرّ التشريع في قيام الليل بمرحلتين هما الوجوب وذلك بقول الله تعالى ﴿يَتَأْتِيهَا الْمَزْمَلُ ۖ قُرْ أَلَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۚ ۝۲ يَصْفَهُ ۚ أَوْ أَنْقَضَ مِنْهُ قَلِيلًا ۚ ۝۳ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ المزمل: ١-٤، فأمر الله نبيه والمؤمنين بقيام الليل إلا قليلا، فشق ذلك على المؤمنين، ثم خفف الله عنهم ورحمهم، فأنزل بعد هذا قوله ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ ۚ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ۚ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ المزمل: ٢٠ إلى قوله: ﴿فَأَقْرَأُوا مَا تَسَرَّعْتُمْ﴾ فوسع الله على عباده ولم يضيق³. فلما فسر الشيخ التواتي قوله تعالى ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِ اللَّيْلِ وَضَعْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَآئِفَهُ ۚ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَنْ لَّنْ نَّحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ -الآية-﴾ المزمل: ٢٠، بين أقوال العلماء في الآية، ثم ذكر حكم التخفيف المنصوص عليه مبينا علته وحكمته فقال: "ففي هذه الآية أربع حكم: الحكمة الأولى: يشق عليهم القيام أو يزيد في مرضهم.

الحكمة الثانية: أو يسبب لهم مرضا آخر إذا بقوا على حالتهم الأولى بدليل الحديث المتقدم ذكره، إذ جاء فيه أن أقدامهم انتفخت⁴، وهذه حكمة أخرى غير حكمة عسرة الإحصاء تقدير الأوقات مقتضية للتخفيف. الحكمة الثالثة: أو يسافرون للتجارة والزيارة والعمل وطلب العلم وصلة الرحم وأداء الفرض

¹ الباب في علوم الكتاب، ابن عادل الدمشقي، ت: عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط: 1، سنة: 1419هـ-1998م. (5/3).

² الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (66/3).

³ تفسير ابن كثير، (255/8).

⁴ تفسير ابن أبي حاتم، ابن أبي حاتم الرازي، ت: أسعد محمد الطيب، المكتبة العصرية، صيدا، (3379/10).

والسنة من حج وعمره طلبا للأجر. الحكمة الرابعة: تظهر في قوله تعالى ﴿وَأَخْرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ﴾، مجاهدين أو مرابطين، وهؤلاء لا يتمكنون من قيام الليل؛ لأنهم في مشقة فلا يتحملون مشقة أخرى فوقها، وقد سوى جلّ جلاله بين المكتسب والمجاهد، لأن كسب الحلال جهاد أيضا. روي عن ابن مسعود قال: أيما رجل جلب شيئا إلى مدينة من مدائن المسلمين صابرا محتسبا فباعه بعد يوم، كان عند الله بمنزلة الشهداء، ثم قرأ قوله تعالى ﴿وَأَخْرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾¹.

3- علة مشروعية صلاة الخوف: من مظاهر يسر الشريعة ورفعها للخرج عن الناس بما يتناسب مع حالهم؛ تشريع صلاة الخوف التي هي صلاة مكتوبة يحضر وقتها والمسلمون في مقاتلة العدو أو في حراسته²، والتي جاء تشريعها في القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ...﴾ النساء: ١٠٢، ولما فسر الشيخ التواتي هذه الآية ذكر معناها الإجمالي ثم قال مبينا حكمته وإعجازها التشريعي: "والسر في الأمر بالصلاة على تلك الصفة تحصيلا للجماعة لها، وقيامًا للألفة وجمعا بين القيام بالصلاة والجهاد حسب الإمكان، وبالقيام بالواجبات مع التحرز من شرور الأعداء؛ فسبحان من جعل في كتابه الهدى والنور والرشاد وإصلاح الأمور كلّها"³.

ثانيا: علل وحكم متعلقة بتشريع مسائل متفرقة من العبادات:

سأذكر في هذا الموضع علل بعض المسائل المتعلقة بالعبادات والتي توزعت على عدّة أبواب وهي:

1- الحكمة من الصيام: تحدث الشيخ التواتي عن الحكمة من الصيام وفوائده والإعجاز التشريعي فيه لما فسر قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ البقرة: ١٨٣، فقال: "فوائد الصوم: وللصيام فوائد كثيرة ذكرها العلماء قديما وحديثا، منها: فوائد صحية وأخرى روحية:

¹ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (448/19).

² كفاية الطالب الرباني لرسالة أبي زيد القيرواني، أبو الحسن المالكي، ت: يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر، بيروت، سنة: 1412هـ، (483/1).

³ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (287/7).

-أما الصحية: فقد أثبت الطب الحديث أن للصيام فوائد طبية عدّة؛ فهو يفيد في علاج كثير من الأمراض، كضغط الدم المرتفع وتصلّب الشرايين والبول السكري ويصلح الجهاز الهضمي وهبوط القلب والتهاب المفاصل، ويعطي الجسم والأنسجة فرصة للراحة والتخلّص من كثير من الفضلات الضارة بالجسم، كما أنه وقاية من كثير من الأمراض المختلفة.

-أما الروحية: فقد أوجب الله تعالى الصيام على عباده المؤمنين لتتربّى فيهم روح التقوى، ويقوى وجدانهم وتهذب نفوسهم، وذلك لأن الصيام وسيلة إلى التّقى، إذ هو يكفّ النفس عن كثير ممّا تتطلّع إليه من المعاصي، فإن الصوم يكسر الشهوة التي هي مبدؤها كما قال ﷺ «فعلية بالصوم فإن الصوم له وجاء»¹. ونضيف أن الصوم وهو إذلال النفس لله سبحانه وتعالى بإمساكها عن كلّ ما تشوف له من خاص أمرها نهارا للمقتصر ودواما للمعتكف، وهو صلة بين العبد وربّه وبين نفسه، ووصل لشتاته في ذاته².

2- الحكمة من مشروعية السعي: الأصل في عبادة الحج أنها مبنية على التسليم والامتثال لأوامر الله تعالى، ومع ذلك فإن العلماء استخرجوا بعض الحكم التشريعية الذي تدخل في الإعجاز التشريعي عموماً، ولهذا فإن الشيخ التواتي لما فسّر قوله تعالى ﴿إِنَّ الصَّافَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ البقرة: ١٥٨، ذكر بعض الأحكام المتعلقة بالسعي ثم ذكر حكمة مشروعيتها، فقال تحت عنوان صريح: "الحكمة من مشروعية السعي: والحكمة في شرع هذا السعي ومن تخصيص الصفا والمروة بالذكر، إشارة إلى أنّ بركة الإقبال عليهما على ما شرع الله سبحانه وتعالى مفيدة لحياة القلوب بما أنزل الله على هذا الرسول ﷺ من الكتاب والحكمة الباقيين إلى آخر الدهر شفاء للقلوب وزكاة للنفوس زيادة للنعمة بصفة الشكر وتعلima بصفة العلم كما كان الإقبال على السعي بينهما تسليماً لأمر الله... فانظر إلى حال هاجر وإسماعيل كيف أغاثهما وأجاب دعاءهما، ثم جعل أفعالهما طاعة لجميع المكلفين إلى يوم القيامة، وآثارهما قدوة للخلائق أجمعين ليعلم أن الله لا يضيع أجر المحسنين. وكلّ ذلك تحقيق لما أخبر به قبل ذلك من أنه يتلي عباده بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، إلا أن من صبر على ذلك نال السعادة في الدارين وفاز بالمقصد الأقصى في المنزلين"³.

¹ رواه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب: الصوم لمن خاف على نفسه العزوبة، رقم: 1905.

² الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (3/322).

³ المصدر نفسه، (3/123).

3- الحكمة من ترتيل القرآن الكريم: الترتيل هو التنضيد والتنسيق وحسن النظام¹، وهذا ما يزيد القراءة جمالا، ولما فسّر الشيخ التواتي قوله تعالى ﴿وَرَزَّلَ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ المزمّل: ٤، بيّن معنى الآية ثم عرّج على بيان الحكمة من الأمر بالترتيل، وأعجبه في ذلك كلام للإمام مصطفى المراغي فنقله عنه بحرفه قائلا: "الحكمة في الترتيل: التمكن من التأمل في حقائق الآيات ودقائقها، فعند الوصول إلى ذكر الله يستشعر عظمته وجلاله، وعند الوصول إلى الوعد والوعيد يحصل الرجاء والخوف ويستثير القلب بنور الله، ويعكس هذا فإن الإسراع في القراءة يدلّ على عدم الوقوف على المعاني، والنفس تبتهج بذكر الأمور الروحية، ومن سرّ بشيء أحبّ ذكره، كما أن من أحبّ شيئا لا يحب أن يمر عليه مسرعا"².

الفرع الثالث: حكم وعِلل من أحكام الأسرة وحفظ الأعراض:

تعد التشريعات الإسلامية في باب الأسرة أصحّ مُنظّم للعلاقات الأسرية وأنسبها لأنها تشريع من الحكيم الخبير؛ ولذلك فإننا نجد بعض الدول المدنية تستمد تشريعاتها من القوانين الوضعية إلا في باب أحكام الأسرة فإنها تستمدّها من الشريعة الإسلامية كما هو الحال في القانون الجزائري؛ وسبب ذلك واضح وهو ما احتوته هذه التشريعات الإسلامية من حكم وإعجاز تشريعي.

وانطلاقا من ذلك نجد الشيخ التواتي اهتم في تفسيره ببيان هذه الحكم التشريعية في باب أحكام الأسرة، وفيما يلي بيان لأهم المسائل التي تحدث عنها مفسرنا فيما له تعلّق بهذا الباب وهي:

أولا: علل وحكم متعلقة بمسائل في النكاح:

ومن المسائل التي ذكرها التواتي في هذا الموضوع:

1- مقاصد النكاح: لما فسر الشيخ التواتي قوله تعالى ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ تُؤْمِنَ وَلَا أُمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ﴾ البقرة: ٢٢١، قدّم بين يدي تفسيره لهذه الآيات بيانا لمقاصد النكاح، فذكر أربعة مقاصد تدلّ على عظيم هذا التشريع وجليل قدره، فقال: "والنكاح عند العلماء الأفذاذ له مقاصد شرعية مراعاة عند المأمورية به، وهي أربعة معلومة من خلال النصوص القرآنية كما ذكرت آنفا، ثم قام بتفصيلها وهي:

¹ أحكام القرآن، القرطبي، (37/19).

² الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (433/19)، نقلا عن تفسير المراغي، (112/29).

المقصد الأول: ابتغاء مرضاة الله، من خلال تحقيق إرادة الله بالاستخلاف في الأرض بطريق شرعي وهو النكاح.

المقصد الثاني: ابتغاء مرضاة رسول الله ﷺ استجابة لأمره في قوله: «تناكحوا تكاثروا فإني أباهي بكم الأمم يوم القيامة»¹، وقوله ﷺ: «من أحب فطرتي فليستن بسنتي، ومن سنتي النكاح»².

المقصد الثالث: الخلود في أرض الله، إذ الإنسان يميل إلى الخلود مع علمه بفنائه، ولا طريق لتحقيق هذا الخلود إلا بالنكاح والإنجاب.

المقصد الرابع: التقرب إلى الله تعالى، وهذا المعنى جاء في القرآن والسنة، منها قوله ﷺ: «من مات له ثلاثة من الولد فاحتسبهم دخل الجنة» قال قلنا: يا رسول الله: واثنان؟ قال: (واثنان)، قال محمود: فقلت لجابر: أراكم لو قتلتم واحدا لقال: واحدا، قال: وأنا والله أظن ذلك»³. ومن القرآن قوله تعالى ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (١٥٦) ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ (البقرة: ١٥٦-١٥٧)⁴.

2- الحكمة من تحريم نكاح زوجات الآباء: وقد ورد تحريم الزواج من زوجة الأب في قوله تعالى ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ النساء: ٢٢، وسبب نزول هذه الآية ما روي عن عكرمة عن ابن عباس ؓ قال: كان أهل الجاهلية يحرمون ما يحرم إلا امرأة الأب والجمع بين الأختين: قال: فأنزل الله ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ إلى قوله ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾ النساء: ٢٣⁵، ولما بين الشيخ التواتي المعنى العام للآية والأقوال في معنى ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ وأنها ستة

¹ رواه ابن ماجه في سننه عن ابن عباس، أبواب النكاح، باب ما جاء في فضل النكاح، برقم: 1847. قال الألباني: "ضعيف"، ينظر: ضعيف الجامع الصغير وزيادته، (ص: 365).

² رواه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب النكاح، جماع أبواب الترغيب في النكاح وغير ذلك، باب الرغبة في النكاح، رقم: 13580. وقال فيه الألباني: "ضعيف"، ينظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة، (12/6).

³ رواه ابن حبان في صحيحه، كتاب الجنائز وما يتعلق بها مقدما أو مؤخرا، باب ما جاء في الصبر وثواب الأمراض والأعراض، ذكر إيجاب الجنة للمسلم إذا مات له ابنان فاحتسبهما، رقم: 2946، قال الأرناؤوط: "إسناده قوي". ينظر: صحيح ابن حبان، ت: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: 2، سنة: 1414هـ/1993م، (209/7).

⁴ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (65/4)، بتصرف.

⁵ الصحيح المسند من أسباب النزول، مُقْبِل الوادعي، (ص: 66).

أقوال، تحدث بعدها عن الحكمة من هذا الحكم وهو تحريم نكاح زوجات الآباء فذكر ثلاث حكم فقال: "الحكمة من تحريم نكاح زوجات الآباء: إن الحكمة من تحريم نكاح زوجات الآباء ثلاثة اعتبارات: الاعتبار الأول: أن امرأة الأب في مكان الأم. الاعتبار.

الثاني: ألا يخلف الابن أباه فيصبح في خياله ندا له، وكثيرا ما يكره الزوج زوج امرأته الأول فطرة وطبعاً، فيكره أباه ويمقتة.

الاعتبار الثالث: ألا تكون هناك شبهة الإرث لزوجة الأب، الأمر الذي كان سائداً في الجاهلية، فجاء الإسلام لينقذه لإشاعة المحبة في الأسرة بدل الكراهية"¹.

3- الحكمة من تزوج النبي ﷺ بأكثر من أربع نسوة: من المسائل التي تحدث عنها الشيخ التواتي وبين العلة والحكمة من تشريعها مسألة: زواجه ﷺ بأكثر من أربع نساء؛ والذي هو من الأحكام الخاصة به ﷺ دون غيره، وقد أثارت هذه المسألة شبهة كثيرة، ولذلك اعتنى العلماء ببيان الحكم من هذا التشريع وذكروا عللاً تشريعية وأخرى سياسية وثالثة إنسانية ورابعة تعليمية... الخ وهكذا².

وممن اعتنى ببيان ذلك: الشيخ التواتي حيث إنه لما فسر الشيخ قوله تعالى ﴿أَمْرٌ يُحْسِدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ النساء: ٥٤، ذكر أن من معانيها أن هؤلاء الفرقة من أهل الكتاب يحسدون النبي ﷺ على فضل الله عليه بالنبوة وكثرة تزوجه النساء، ويقولون: لو كان نبياً لشغلته النبوة عن كثرة النساء. ثم ردّ الشيخ على كلامهم وبين الحكمة من زواجه بأكثر من أربع نسوة، وجاء بمعاني بديعة قلّ من نبّه لها، فقال: "فائدة: إن الفائدة من كثرة تزوجه أنه كانت له قوة أربعين نبياً، وكلّ من كان أقوى فهو أكثر نكاحاً، ويقال: إنه أراد بالنكاح كثرة العشيرة، لأن لكل امرأة قبيلتين، قبيلة من قبيل الأب وقبيلة من قبيل الأم، فكلما تزوج امرأة صرف وجوه القبيلتين إلى نفسه، فيكونون عوناً له على أعدائه.

ويقال: إن كلّ من كان أتقى كانت شهوته أشد، لأن الذي لا يكون تقياً إنما ينفرج بالنظر واللمس، ألا ترى إلى ما روي في الخبر «العينان تزنيان واليدان تزنيان»³. فإذا كان في النظر وفي المسّ نوع من قضاء الشهوة، فلا ينظر التقى ولا يمسّ، فتكون الشهوة مجتمعة في نفسه، فيكون أكثر جماعاً"¹.

¹ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (14-13/7).

² مقال بعنوان: الحكمة من تعدد زوجات الرسول ﷺ، د: مصطفى مسلم، موقع شبكة الألوكة، بتاريخ: 23/10/2018، الرابط: <https://www.alukah.net/social/0/130196>.

³ رواه أحمد في مسند عبد الله ابن مسعود، برقم: 3989، (16/9).

4- علة تحريم وطئ الحائض: حرص التواتي في تفسيره على الاستفادة من الإعجاز العلمي في بيان العلل والحكم التشريعية للأحكام الشرعية في مختلف المجالات، ومنها مسألة: إتيان المرأة حال حيضها وذلك لما فسّر قوله تعالى ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ...﴾ البقرة: ٢٢٢، حيث بيّن سبب نزولها وهو ما ذكره الواحدي عن جابر عن رسول الله ﷺ في قوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى﴾ قال: إن اليهود قالت: من أتى امرأته من دبرها كان ولده أحول، فكان نساء الأنصار لا يدعن أزواجهن يأتوهن من أدبارهن، فجاءوا إلى رسول الله ﷺ فسألوه عن إتيان الرجل امرأته وهي حائض، وعما قالت اليهود، فأنزل الله عز وجل ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾ يعني: الاغتسال ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ يعني: القبل ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾².

ثم أردف الشيخ المعنى الإجمالي للآية، ثم ذكر حكم هذا التشريع بقوله: "وهذا التحريم المذكور في الآية كان من قبل الله تعالى لحكمة ارتضاها لم يظهر للناس علتها، وإنما ذكرت الآية الكريمة على أنه أذى وجب اجتنابه والابتعاد عنه، وعدّ معصية وتحدّ لما نهى الله عنه. قلت: لم تظهر علة النهي والتحريم قبل؛ ثم بين العلم الحديث بوسائله على أن إتيان المرأة حالة الحيض فيه ضرر للمرأة والرجل على حدّ سواء، وضرر معنوي ومادي؛ فالمرأة في حالة الحيض تنفتح أوعيتها الدموية في الرحم فتصبح مهياة لقبول العدوى، كما أن الرجل يتعرّض لالتهاب يصيب الجهاز البولي والتناسلي من دم الحيض الذي هو خليط من خلايا بطانة الرحم والدم وإفرازات الغدد وبه كثير من الجراثيم"³. ثم بيّن الشيخ ما ذكره أهل الاختصاص في هذه المسألة تحت عنوان: "الإعجاز العلمي في الآية الكريمة".

ثانيا: علل وحكم متعلقة بمسائل في الطلاق والخلع:

ومن المسائل التي ذكرها التواتي في هذا الموضوع:

1- الحكمة من الطلاق: شرع الزواج لحكم كثيرة سبق بيانها وأبرزها تكوين أسرة على طاعة الله تعالى، ولكن هذا المقصد قد لا يتحقق؛ فجاءت الشريعة بتشريع آخر هو الطلاق الذي شرع لحكم تصبّ في

¹ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (128/7).

² أسباب نزول القرآن، الواحدي، (ص: 75).

³ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (84/4-85).

مصلحة الزوجين، وقد تحدث التواتي عن حكمه لما فسّر قوله تعالى ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلَقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ...﴾ الطلاق: ١، حيث بيّن الحكمة من تشريع الطلاق تحت عنوان صريح فقال: "الحكمة من الطلاق: إذا استحال الوفاق بين الزوجين ولم يبق في الإمكان إصلاح وصمّ الزوج عليه لأن وجود شخصين متنافري الطباع متباغضين، لا ينظر أحدهما إلى الآخر إلاّ ويحس في نفسه بالنفور وفي قلبه بالعداوة، يسعى كلّ منهما في أذى صاحبه، شر وفساد يجب محوه وقطعه"¹. ثم نقل كلاما نفيسا عن ابن القيم لخص فيه مفسدات الطلاق على الزوجين، ومع ذلك شرّع لما فيه من مصلحة لهما، وذكر مشروعيته وفق ضوابط، مثل: عدم الطلاق في طهر جامعها فيه، والطلاق مرة واحدة لا ثلاثا في المجلس، وتشريع العدة لمدة ثلاثة قروء لعلها تكون كافية في التراجع².

2- الحكمة من الخلع: سبق بيان الحكمة من الطلاق الذي يكون الفراق فيه من طرف الزوج، ولكن قد يُعكس الأمر وتطلب المرأة الفراق وهو ما يسمّى بالخلع: الذي هو فراق الزوج زوجته بعوض يأخذه منها أو من غيرها، بألفاظ مخصوصة³. ولم يفت مفسرنا التواتي الحديث عن هذا الأمر حيث إنه لما فسر آية الخلع وهي قوله تعالى ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ البقرة: ٢٢٩، تحدّث عن أسباب الخلع وشروطه، ثم الحكمة منه قائلا بعنوان واضح: "حكمة الخلع: إن الله شرع الخلع لرفع الضرر عن الزوجة حين تحسّ أن العشرة مع هذا الزوج لا تليق لأسباب، كأن ترى الغرض المقصود من الزواج منعدم وغير موجود، أو ترى أنها لا تستطيع العيش معه لا لأخلاقه وسجاياه وإنما لحاجة أخرى نفسية، مثل المرأة التي جاءت وطلبت فرقة زوجها: "روى عكرمة عن ابن عباس قال: أول من خالع في الإسلام أخت عبد الله بن أبيّ أتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله: لا يجتمع رأسي ورأسه أبدا، إني رفعت جانب الخباء فرأيتُه أقبل في عدة إذ هو أشدّهم سوادا وأقصرهم قاما وأقبحهم وجها، فقال: أَتُرَدِّينَ عليه حديقته؟ قالت: «نعم وإن شاء زدت، ففرّق بينهما»⁴، وهذا الحديث أصل الخلع وعليه جمهور الفقهاء... وهنا يجب أن ننبه أن الخلع المشروع هو ذلك الذي تتحقق فيه الحكمة التي دعت إلى تشريعه؛ لأن طلب الخلع لغير سبب قد حرّمته الشريعة،

¹ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (220-219/19).

² إغاثة اللهفان، ابن القيم، ت: محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت، ط: 2، سنة: 1975م، (335/1).

³ موسوعة الفقه الإسلامي، محمد بن إبراهيم التويجري، بيت الأفكار الدولية، ط: 1، سنة: 1430هـ-2009م، (226/4).

⁴ رواه البخاري في صحيحه، كتاب: الطلاق، باب: الخلع وكيفية الطلاق فيه، برقم: 4971.

وذلك بنص الحديث: عن أبي قلابة عمن حدثه عن ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أما امرأة سألت زوجها طلاقاً من غير بأس فحرام عليها رائحة الجنة» رواه الترمذي¹.

ثالثاً: علل وحكم متعلقة بمسائل في حفظ الأعراض:

1- فوائد غض البصر: تعتبر مسألة غض البصر من المسائل التشريعية المهمة التي جاء النص عليها في القرآن الكريم نظراً لما لها من أهمية كونها مما تحفظ به الأعراض، ولذلك فإن الشيخ التواتي لما فسر قوله تعالى ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ النور: ٣٠، بين المعاني الإجمالية التي تضمنتها الآيات وما فيها من فقه ودعوة لغض البصر، ثم ختم كلامه بنقل نفيس عن ابن القيم في فوائد غض البصر، وهو قوله: "وفي غض البصر عدة منافع: أحدها: أنه امتثال لأمر الله الذي هو غاية سعادة العبد في معاشه ومعاده، فليس للعبد في دنياه وآخرته أنفع من امتثال أوامره، وما شقي من شقي في الدنيا والآخرة إلا بتضييع أوامره. الثانية: أنه يمنع من وصول أثر السهم المسموم -الذي لعل فيه هلاكه- إلى قلبه. الثالثة: أنه يورث القلب أنساً بالله وجمعة عليه، فإن إطلاق البصر يفرق القلب ويشتته، ويُبعدة عن الله، وليس على القلب شيء أضّر من إطلاق البصر، فإنه يورث الوحشة بين العبد وربه. الرابعة: أنه يقوّي القلب ويُفرّحه، كما أن إطلاق البصر يُضعفه ويُحزنه. الخامسة: أنه يُكسب القلب نورا، كما أن إطلاقه يُلبسه ظلمة، ولهذا ذكر الله سبحانه آية النور عقيب الأمر بغض البصر"³.

2- الحكمة من حفظ الفروج: اعتنت الشريعة بحفظ الأعراض وصيانتها من التدنيس؛ ومن ذلك أمرها بحفظ الفرج والاستعفاف فيه، فقد اهتم القرآن الكريم بهذه المسألة فأمر الله تعالى بحفظ الفروج ونهى عما يدنسها وهو: الزنا، وذلك في قوله ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ النور: ٣، ولما فسر الشيخ التواتي هذه الآية؛ تكلم عن سبب نزول الآية وهو: ما جاء عن أبي مرثد استأذن النبي ﷺ أن يتزوج بغيا كانت له بها علاقة في الجاهلية -

¹ رواه الترمذي في سننه، كتاب: الطلاق واللعان، باب: ما جاء في المختلعات، رقم: 1225. قال الألباني: "صحيح". ينظر: سنن الترمذي (493/3).

² الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (137/4).

³ الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، ابن القيم، دار المعرفة، المغرب، ط: 1، سنة: 1418هـ-1997م، (ص: 178). وانظر: الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (417/13-418).

واسمها عناق - فأعرض النبي ﷺ عنه حتى نزل قوله: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ فتلا النبي ﷺ الآية وقال له: لا تنكحها¹، ثم ذكر حكماً متنوعة من هذا التشريع العظيم اجتماعياً ونفسياً وصحياً فقال: "ثم إن في حفظ الفرج صيانة للأنساب واطمئناناً على سلامتها مما يشوبها، كما أن فيه أمناً من حصول الضغائن والأحقاد التي قد تجرّ إلى القتل وارتكاب أفظع الجرائم بين الأفراد، وأمناً على الصحة والبعد من الأمراض التي قد تؤدّي بحياة المرء وتوقعه في أشدّ المصائب وأعظم ألوان البلاء"².

3- أضرار الزنا الدنيوية والأخروية وأدلتها: الزنا من الأفعال المحرّمة في جميع الشرائع السماوية بدليل حديث عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ أتى يهوديّ ويهوديّة قد زنيا فانطلق رسول الله ﷺ حتى جاء يهود فقال: «ما تجدون في التوراة على من زنى؟»، قالوا نسود وجوههما ونحملهما ونخالف بين وجوههما ويطاف بهما، قال: «فأتوا بالتوراة إن كنتم صادقين»، فجاءوا بها فقرءوها، حتى إذا مروا بآية الرجم وضع الفتى الذي يقرأ يده على آية الرجم وقرأ ما بين يديها وما وراءها، فقال له عبد الله بن سلام وهو مع رسول الله ﷺ: مُرّه فليرفع يده، فرفعها فإذا تحتها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما³. والزنا إنما حرّم نظراً لأضراره الكثيرة اجتماعياً وصحياً ونفسياً ودينياً، ولذلك جاءت هذه الجريمة مقترنة بحدها في قوله تعالى ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ النور: ٢، ولما فسّر بين الشيخ التواتي هذه الآية تحدّث عن أضرار الزنا الدنيوية والأخروية، وهي تدخل في حكمة تحريمها، فذكر اثني عشر علة وحكمة هي:

1- الزنا يورث الفقر: عن نافع عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ: «الزنا يورث الفقر»⁴.

¹ رواه الترمذي في سننه، كتاب: تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ، باب: ومن سورة النور، رقم: 3177. قال الألباني "صحيح".

ينظر: غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام، المكتب الإسلامي، بيروت، ط: 3، سنة: 1405هـ، (ص: 145).

² الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (350/13).

³ رواه مسلم في صحيحه، كتاب: الحدود، باب: رجم اليهود أهل الذمة في الزنا، رقم: 4533.

⁴ رواه البيهقي في شعب الإيمان، الباب السابع و الثلاثون من شعب الإيمان وهو باب في تحريم الفروج وما يجب من التعفف عنها، رقم: 5035، (351/4). وقال فيه: الألباني "باطل"، ينظر: السلسلة الضعيفة، (1/ 268).

- 2- عدم قبول وإجابة دعاء الزاني: عن عثمان بن أبي العاص الثقفي عن النبي ﷺ قال «تفتح أبواب السماء نصف الليل فينادي مناد: هل من داع فيستجاب له؟ هل من سائل فيعطى؟ هل من مكروب فيفرج عنه؟ فلا يبقى مسلم يدعو بدعوة إلا استجاب الله له إلا زانية تسعى بفرجها أو عشار»¹.
- 3- الزنا يجزّ إلى غيره من موبقات الكبائر، بل ربما جرّ إلى الكفر، وذكر فيها قصة الراهب برصيص في تفسير الطبري².
- 4- نزع الإيمان من مرتكبه، لحديث أبي هريرة ؓ قال قال رسول الله ﷺ: «من زنا أو شرب الخمر نزع الله منه إيمانه كما يخلع القميص من رأسه»³.
- 5- الزاني لا يدخل الجنة: لحديث نافع أن رسول الله ﷺ قال: «لا يدخل الجنة مسكين مستكبر ولا شيخ زان»⁴.
- 6- لعن الزاني من السماوات السبع والأرضين السبع: فقد روى البزار: أن السماوات السبع والأرضين السبع، ليلعن الشيخ الزاني، وأن فروج الزناة ليؤذي أهل النار نتن ريحها" رواه البزار عن بريدة⁵.
- 7- تشبيه المقيم على الزنا بعباد الوثن: روى الخرائطي وغيره أن النبي ﷺ قال: «المقيم على الزنا كعابد وثن»⁶.
- 8- الزانية ليست من الله في شيء: عن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال حين أنزلت آية الملاعنة: «أيما امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم فليست من الله في شيء، ولن يدخلها الله جنته»⁷.

¹ رواه الطبراني في المعجم الكبير، باب العين، محمد بن سيرين، عن عثمان بن أبي العاص، رقم: 8391. المعجم الكبير، الطبراني، حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط: 2، (59/9). وصححه الألباني، ينظر: السلسلة الصحيحة، الألباني، مكتبة المعارف، الرياض. (62/3).

² ذكره الطبري في تفسير قوله تعالى ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ﴾ الحشر: ١٦، تفسير الطبري، (295/23).

³ رواه أبو داود في سننه عن أبي هريرة ؓ، كتاب: السنة، باب: الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه، برقم: 4692، ولفظه: «إذا زنى الرجل خرج منه الإيمان كان عليه كالظلة فإذا انقطع رجع إليه الإيمان». ينظر: سنن أبي داود، (357/4).

⁴ رواه أبو نعيم في معرفة الصحابة، باب: النون، نافع مولى النبي ﷺ، برقم: 6404. (2674/5).

⁵ رواه البزار في مسنده، مسند بريدة بن الحبيب ؓ، برقم: 4431. (310/10).

⁶ رواه الخرائطي في "مساوئ الأخلاق"، باب: ما جاء في الزنا من التغليظ وأليم العقابة، رقم: 456. ت: مصطفى بن أبو النصر الشلبي، مكتبة السوادى للتوزيع، جدة ط: 1، سنة: 1993م، (ص: 221).

⁷ رواه النسائي في السنن الكبرى، كتاب: الطلاق، التغليظ في الانتفاء من الولد، رقم: 5645. (286/5).

9- تقييظ الله لمريدي الزنا ثعبانا يوم القيامة: لقوله ﷺ: «من قعد على فراش مغيبة قيّظ الله له ثعبانا» رواه الطبراني وأحمد¹.

10- أخذ حسنات الزاني في بعض الحالات يوم القيامة: لحديث «ما من رجل من القاعدين يخلف رجلا من المجاهدين في أهله فيخونه فيهم إلا وقف له يوم القيامة، فيأخذ من حسناته ما شاء حتى يرى، ثم التفت إلينا رسول الله ﷺ فقال: فما ظنكم؟» راه مسلم².

11- في الزنا ست خصال: ثلاث في الدنيا: يذهب البهاء، ويورث الفقر، وينقص العمر. وثلاث في الآخرة: سخط الله، وسوء الحساب، وعذاب النار.

12- ثقله في كفة سيئاته³.

الفرع الرابع: حكم وعلل من تشريع بعض المعاملات المالية والحدود والجهاد:

كلّ التشريعات الإسلامية شرعت لحكم وعلل يعلمها مُنزلها إذ هو الحكيم الخبير وقد يستنبطها ويكتشفها البشر؛ ومن ذلك التشريعات التي جاءت في أبواب المعاملات المالية والجهاد والحدود، ولذا فإن الناس لما علموا بها وطبقوها نظمت حياتهم وسادها العدل والأمان، ولما تركت هذه التشريعات سادت الفوضى وانتشر الفقر وكثرت الجرائم. وانطلاقا من ذلك نجد الشيخ التواتي اهتم في تفسيره ببيان هذه الحكم التشريعية في هذه الأبواب ليظهر الفرق بينها وبين غيرها، وفيما يلي بيان لأهم المسائل التي تحدث عنها في هذا الموضوع وهي:

أولا: علل وحكم متعلقة بمسائل في المعاملات المالية:

ومن المسائل التي ذكرها التواتي في هذا الموضوع:

1 - حكمة تحريم الربا: الربا: هو عقد على عوض مخصوص غير معلوم التماثل في معيار الشرع حالة العقد، أو مع تأخير في البدلين أو أحدهما⁴. وقد حرّمت الشريعة الربا لأسباب كثيرة نص عليها العلماء قديما وحديثا لما تحدثوا عن هذا الموضوع، ومن أولئك الشيخ التواتي لما فسر قوله تعالى ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ البقرة: ٢٧٥، حيث بيّن المعنى الإجمالي للآية

¹ رواه أحمد في مسنده، حديث أبي قتادة الأنصاري، برقم: 23228، (254/37).

² رواه مسلم في صحيحه، كتاب: الإمارة، باب: حرمة نساء المجاهدين وإثم من خانهم فيهن، برقم: 5017.

³ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (360/13-367)، بتصرف.

⁴ الموسوعة الفقهية الكويتية، مجموعة من المؤلفين، (50/22).

وأقسام الربا، ثم عنون بعنوان صريح لبيان علّة تحريم الربا فقال: "سبب تحريم الربا: السبب في تحريم الربا هو أن من يبيع الدرهم بالدرهمين نقداً أو نسيئة يحصل له زيادة درهم من غير عوض، وأخذ مال المسلم من غير عوض محرم لقوله ﷺ «حرمة مال المسلم كحرمة دمه»¹. وإبقاء رأس المال بيده مدّة مديدة وتمكينه من أن يتجر فيه وينفع به أمر موهوم، فقد يحصل وقد لا يحصل، وأخذ الدرهم الزائد متيقن وتفويت المتيقن لأجل الموهوم لا يخلوا من ضرر.

- وقيل: سبب تحريمه أنه يمنع الناس من الاشتغال بالمكاسب؛ لأن صاحب الدرهم إذا تمكن بواسطة عقد الربا من تحصيل الدرهم الزائد نقداً أو نسيئة أعرض عن وجوه المكاسب فيختل نظام العالم.

- وقيل: لما يفضي إلى انقطاع المعروف بين الناس من القرض، ولأنه تمكين للغني من أن يأخذ مالا زائدا من الفقير.

- وقيل: إن حرمة الربا قد ثبتت بالنص ولا يجب أن تكون حكمة كلّ تكليف معلوم لنا، وجاء في الحديث: قال رسول الله ﷺ: «لعن الله آكل الربا وموكله وشاهده وكاتبه»².

2- الحكمة في تحريم التطفيف: التطفيف هو نقص يخون به صاحبه في كيل أو وزن⁴. وقد حرمت

الشريعة التطفيف بصفة صريحة وعرفت به وتوعّدت عليه وعيدا شديداً وذلك كلّ في آيات متتاليات وردت في نفس السياق، وهي قوله تعالى ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝۱ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝۲ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝۳ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ۝۴ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝۵ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝﴾ المطففين: ١-٦، ولما فسّر التواتي هذه الآيات بيّن معناها ثم عرّج على ذكر حكمة تحريم التطفيف فقال: "الحكمة في تحريم التطفيف: إن أمر المكيال والميزان عظيم، وذلك لأن عامة الخلق يحتاجون إلى المعاملات وهي مبنية على أمر المكيال والميزان فلهذا السبب عظم الله أمره، فقد بين الأمر بإيفاء الميزان حقّه في آيات كثيرة نذكر منها قوله تعالى ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝۷ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝۸ وَأَقِيمُوا ۝۹ الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۝﴾ الرحمن: ٧-٩، وقال تعالى ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ ۝۱۰ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۝﴾ الحديد: ٢٥⁵.

¹ رواه الدارقطني في سننه، كتاب: البيوع، برقم: 2927. وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته، (601/1).

² رواه أبو داود، كتاب: البيوع، باب: في آكل الربا وموكله، برقم: 3335. وصححه الألباني، صحيح الجامع، (906/2).

³ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (511/4).

⁴ لسان العرب، ابن منظور، (222/9).

⁵ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (108/20).

ثانيا: علل وحكم متعلقة بمسائل في الحدود والجنايات:

ومن المسائل التي ذكرها التواتي في هذا الموضوع:

1- الحكمة من القصاص: شرع القصاص في الإسلام من أجل حقن الدماء، والكف عن العدوان على الأرواح، ليعيش الناس آمنين وتجنّب منابغ الجريمة في المجتمع، وقد أشار القرآن إلى ذلك في قوله تعالى ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ البقرة: ١٧٩، ولما فسّر الشيخ هذه الآية ذكر معنيين في معنى الحياة: أولهما: إذا ذكره المعتدي كف عن القتل، والثاني: ترك الاعتداء على من ليس بقاتل، ثم نص على الحكمة من القصاص بعنوان صريح فقال: "الحكمة من القصاص: شرع الله تعالى القصاص؛ رحمة بالناس وحفظاً لدمائهم، وزجراً عن العدوان وإذابة للجاني ما أذاقه لغيره، وفيه إذهاب لحرارة الغيظ في قلوب أولياء المجني عليه، وفيه حياة للناس، وبقاء للنوع الإنساني"¹.

كما تحدث مفسرنا عن الإعجاز التشريعي في حدّ القصاص وعقد مقارنة بين هذا الحكم الربّانيّ الحكيم وبين القوانين الوضعية التي تغلب عليها العواطف ونقص التقدير وخفاء بعض الأمور التي لا يعلمها إلا الله تعالى، وذلك لما فسّر قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرُّ بِالْحَرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ﴾ البقرة: ١٧٨، حيث قال: "الإعجاز التشريعي للإسلام: يلاحظ من خلال النظر في هذه الآية أن الإسلام في القصاص نظر إلى أمر لم ينظر إليه القانونيون² وهو: أنه جعل القصاص حقاً لأولياء المقتول شفاء لغيظ نفوسهم ومنعاً لإهدار دم بريء، ولذلك كان لهم حق العفو أو القصاص، ولم يمنع وليّ الأمر من أن يقتل تعزيراً إذا رأى في ذلك مصلحة، ولم ينظر الإسلام إلى البواعث؛ لأن القاتل ظالم مهما تكن البواعث، وقد أدّى النظر في البواعث إلى الرأفة بالجاني، وإهمال المجني عليه ممّا أدّى إلى عادة الأخذ بالثأر وتسلسل جرائم القتل؛ لأنه لم يشف أولياء المقتول، وإن التشريع الإسلامي يُدرّس الآن في الجامعات الغربية نظراً لمعالجتها لأصل الجريمة والقضاء على تعددها وتسلسلها. وهذا هو حكم الله الذي فيه طمأنينة المجتمع وإخافة الفاعل، والردع عن التمادي في العمل الضار، قد أنزله سبحانه على بني إسرائيل في توراتهم، فخالفوا وعاندوا وبدّلوا فكانت النتيجة جرائم متتالية واضطرابات تزعزع النفوس،

¹ المصدر السابق، (289/3).

² ومنها قانون العقوبات الجزائري الذي جعل عقوبة القتل العمد: "السجن المؤبد" حسب المادة 263 من قانون العقوبات في فقرتها الثالثة.

وسار على منوالهم النصارى فحلّ بهم ما حلّ بسابقيهم، حسبما نلمسه اليوم في قوانينهم الوضعية من امتداد لذلك العمل؛ حيث تجنى الثمرات السيئة فيما يطفح على الصحافة من أخبار، وما يبرز من تقارير الجريمة من أرقام¹.

2- الحكمة من عدم قتل النبي ﷺ للمنافقين: من مسائل الحدود التي تحدث عنها الشيخ التواتي في تفسيره؛ الحكمة من عدم قتل النبي ﷺ للمنافقين مع علمه بأسمائهم، وقد تحدث عن ذلك لما فسر قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيُشَسِّ الْمَصِيرُ﴾ التوبة: ٧٣، فقال: "الحكمة من عدم قتل المنافق: وهناك حكمة في عدم قتل المنافقين لا يدركه إلا من ألهمه الله تعالى حسن التدبر لفقه سيرة رسول الله ﷺ نذكر منها ما ذكره العلماء:

(أ) - إن رسول الله ﷺ كان يخاف أن يتولّد من قتلهم من الفساد أكثر ممّا في استبقائهم، وقد تبين ذلك حين قال رسول الله ﷺ: «لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه»²...

(ب) - لو قتلهم بما يعلم من كفرهم لا شك أن يظن الظان أنه إنما قتلهم لأغراض وأحقاد قصد الاستعانة بهم على الملك كما قال ﷺ: "أكره أن تقول العرب لما ظفر بأصحابه أقبل يقتلهم"³.

(ج) - أن يخاف من يريد الدخول في الإسلام أن يقتل مع إظهاره الإسلام كما قتل غيره⁴.

ثالثاً: علل وحكم متعلقة بمسائل في شعيرة الجهاد:

ومن المسائل التي ذكرها التواتي في هذا الموضوع:

1- علة عدم فرضية الجهاد في بداية الدعوة: مرّ تشريع الجهاد بأربع مراحل تتناسب مع المعطيات والظروف التي كان يعيشها المسلمون، وهي: المرحلة الأولى: مرحلة التحمّل والصبر، المرحلة الثانية: مرحلة الإذن بالقتال، المرحلة الثالثة: مرحلة القتال المقيّد، المرحلة الرابعة: مرحلة الأمر بالقتال العام⁵.

وهذا يدلّ على رحمة الشريعة وحكمتها العظيمة في تشريعاتها كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم، ولهذا فإن الشيخ التواتي لما فسر قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا

¹ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (283/3).

² رواه البخاري في صحيحه، كتاب: المناقب، باب: ما ينهى من دعوى الجاهلية، برقم: 3330.

³ ذكره البغوي في تفسيره للآية نفسها، (366/2)، ولم أجده الحديث في كتب الحديث المشهورة رغم بحثي عنه.

⁴ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (257/10).

⁵ السيرة النبوية والدعوة في العهد المدني، أحمد غلوش، مؤسسة الرسالة، ط: 1، سنة: 2004م، (ص: 236-237).

الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَّعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾

النساء: ٧٧، نبه على علة التدرج في تشريع القتال فقال: "كان المؤمنون في ابتداء الإسلام - وهو بمكة - مأمورين بالصلاة والزكاة وإن لم تكن ذات النصب، لكن كانوا مأمورين بمواساة الفقراء منهم، وكانوا مأمورين بالصفح والعفو عن المشركين والصبر إلى حين، وكانوا يتحرّقون ويودّون لو أمروا بالقتال لِيَشْتَقُوا من أعدائهم، وإن لم يكن الحال إذ ذاك مناسباً لأسباب كثيرة:

- منها: قلة عددهم بالنسبة إلى كثرة عدوهم.

- ومنها: كونهم كانوا في بلدهم وهو بلد حرام وأشرف بقاع الأرض، فلم يكن الأمر بالقتال فيه ابتداء لائثاً. فلهذا لم يؤمر بالجهاد إلا بالمدينة، لما صارت لهم دار مَنَعَةٍ وأنصار، ومع هذا لما أمروا بما كانوا يودّونه جزع بعضهم منه وخافوا من مواجهة الناس خوفاً شديداً¹.

2- الحكمة من تحريم القتال في الأشهر الحرم: تعظم الشريعة بعض الأماكن والأزمان على غيرها وذلك لحكم يعلمها الله سبحانه ثم يستنبطها بعض الناس بعد طول النظر؛ ومن ذلك تعظيم الله تعالى للأشهر الحرم وتخصيصها ببعض الأحكام الخاصة والتي منها: تحريم القتال كما نصّ عليه القرآن الكريم صراحة في قوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ البقرة: ٢١٧، وقد ذكر السيوطي في سبب نزول الآية أن رسول الله ﷺ بعث رهطاً وبعث عليهم عبد الله بن جحش فلقوا ابن الحضرمي فقتلوه ولم يدروا أن ذلك اليوم من رجب أو من جمادى فقال المشركون للمسلمين قتلتم في الشهر الحرام فأنزل الله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ الآية².

وقد ذكر مفسرنا الشيخ التواتي علة تحريم القتال في الأشهر الحرم لما فسّر الآية، حيث تحدث عن سبب نزولها ومناسبتها والمعنى الإجمالي لها، ثم أوضح الحكمة تحت عنوان صريح، فقال: "الحكمة من تحريم القتال في الأشهر الحرم: إن الحكمة من ذلك أن الله تعالى جعلها هدنة إجبارية يخلد الناس فيها إلى الراحة والهدوء، والقيام على أمور معاشهم من زراعة وتجارة، وهذه الحرمة قائمة مفروضة منذ عهد إبراهيم عليه السلام، ومنذ أن فرض الله على الناس حج بيته، والوقوف بعرفات في اليوم التاسع من ذي الحجة، فحرم الله تعالى القتال في هذا الشهر أي: ذي الحجة والشهر الذي قبله وهو ذو القعدة، والشهر الذي

¹ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (202/7).

² لباب النقول في أسباب النزول، جلال الدين السيوطي، (ص: 31).

بعده وهو المحرم، ليأمن الحجاج على أنفسهم وأموالهم في هذا الموسم، ومنذ أن يخرجوا من ديارهم آمين البيت الحرام إلى حين أوبتهم إليها بعد أداء مناسك حجهم وعمرتهم، ثلاثة أشهر متتاليات، حرم الله فيها القتال ليعم الأمن والسلام جميع الناس من خرج منهم حاجا ومن لم يخرج، أمّا الشهر الرابع وهو رجب هو وسط بين بقية أشهر العام¹.

الفرع الخامس: حكم وعلل من تشريعات متنوعة:

سبق بيان علل التشريعات الإسلامية المنطوية تحت باب واضح من أبواب الشريعة، وبقيت بعض العلل التي ذكرها التواتي والتي لم أتمكن من إدخالها تحت باب من الأبواب السابقة، فجعلتها تحت هذا الفرع الذي جعلته على قسمين أحدهما: تشريعات عملية والأخرى عقدية، وفيما يلي بيان لأهم المسائل التي تحدث عنها التواتي في هذا الموضوع مقسمة إلى قسمين هما:

أولاً: علل وحكم متعلقة بمسائل في تشريعات عملية:

ومن المسائل التي ذكرها التواتي في هذا الموضوع:

1- الحكمة بالأمر من تقليل الأيمان: كثرة الحلف بالله ضربٌ من الجرأة عليه سبحانه، ولذا نهي عن الإكثار من الحلف حتى وإن كنا بآراء مصلحين²، وقد جاءت الإشارة إلى ذلك في قوله تعالى ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ البقرة: ٢٢٤، ولما فسّر الشيخ التواتي هذه الآية بيّن أن فيها ثلاثة أقوال؛ وهي أن المعنى: أن تقولوا حلفنا بالله ولم تحلفوا، أو حجة في المنع من البر والتقوى، أو: الإكثار منها فتكون مبتذلة. ثم بيّن علة النهي عن الإكثار من اليمين بعنوان صريح فقال: "والحكمة في الأمر بتقليل الأيمان، أن من حلف في كلّ قليل وكثير بالله، انطلق لسانه بذلك ولا يبقى لليمين في قلبه وقّع، فلا يؤمن إقدامه على اليمين الكاذبة، فيختلّ ما هو الغرض الأصلي في اليمين، وأيضاً كلّما كان الإنسان أكثر تعظيماً لله تعالى كان أكمل في العبودية، ومن كمال العبودية أن يكون ذكر الله تعالى أجلاً وأعلى عنده من أن يستشهد به في غرض من الأغراض الدنيوية³.

2- الحكمة من تحريم الخمر: الخمر محرم في جميع الكتب السماوية فالكتب الإلهية جميعها قضت على الانسان أن يبتعد عن المسكرات سواء كانت من العنب أم من سائر المواد كالشعير والتمر وغيرها، ومن

¹ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (38/4)، وينظر أيضاً: الحكمة من واقعة حنين: الدر الثمين (182/10 و183).

² زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي، (194/1).

³ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (98/4).

شواهد العهد الجديد في ذلك: قول بولس في رسالته إلى أهل إفسس (5: 8): "ولا تسكروا بالخمّر الذي فيه الخلاعة"¹. ولذلك اعتنى المفسّرون ببيان مضار الخمّر على بدن الإنسان ودينه وماله عندما فسّروا قوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ البقرة: ٢١٩، ومن أولئك الشيخ التواتي الذي بيّن أضرار الخمّر الدينية والصحية والنفسية والأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية؛ وذلك عند تفسيره للآية السابقة قائلا: "مضار الخمّر: إن في الخمّر أضرارا نفسية وبدنية وخلقية، وما يترتب عليها من آثار سيئة في الفرد والجماعة: وإن العلماء سواء علماء الدين، أو الطب، أو الأخلاق، أو الاجتماع، أو الاقتصاد، متفقون على منع تعاطي المسكرات منعاً باتاً؛ لأنها مضرة ضرراً قادحاً. فعلماء الدين يقولون: أنها محرمة، وما حرمت إلا لأنها أم الخبائث. وعلماء الطب يقولون: إنها من أعظم الأخطار التي تهدّد نوع البشر، لا بما تورثه مباشرة من الأضرار السامة فحسب، بل بعواقبها الوخيمة أيضاً، إذ إنها تمهّد السبيل لخطر لا يقلّ ضرراً عنها، ألا وهو: السلّ. والخمّر توهم البدن وتجعله أقلّ مقاومة وجلداً في كثير من الأمراض مطلقاً، وهي تؤثر في جمع أجهزة البدن وخاصة في الكبد، وهي شديدة الفتك بالمجموعة العصبية. لذلك لا يستغرب أن تكون من أهم الأسباب الموجبة لكثير من الأمراض العصبية، ومن أعظم دواعي الجنون والشقاوة والإجرام، لا لمن يستعملها وحده، بل وفي أعقابها من بعده. فالخمّر علّة الشقاء والعوز والبؤس، وهي جرثومة الإفلاس والمسكنة والذل، وما نزلت بقوم إلا أودت بهم: مادة ومعنى، بدناً وزُوحاً، جسماً وعقلاً. وعلماء الأخلاق يقولون: لكي يكون الإنسان محافظاً على الرزانة والعفة والشرف والنخوة والمروءة، يلزم عدم تناوله شيئاً يضيع به هذه الصفات الحميدة. وعلماء الاجتماع يقولون: لكي يكون المجتمع الإنساني على غاية من النظام والترتيب يلزم عدم تعكيره بأعمال تخل بهذا النظام، وعندما تصبح الفوضى سائدة -والفوضى تخلق التفرقة- والتفرقة تفيد الأعداء. وعلماء الاقتصاد يقولون: إن كلّ درهم نصرفه لمنفعتنا فهو قوّة لنا وللوطن، وكلّ درهم نصرفه لمضرتنا، فهو خسارة علينا وعلى وطننا، فكيف بهذه الملايين من الليرات التي تذهب سدى على شرب المسكرات على اختلاف أنواعها"².

3- أضرار نشر الأسرار الخاصة بالمسلمين: حفظ الأسرار، من الأمور التي أمرت بها الشريعة الغراء، وذلك أن في إفشائها ضرر على من أفشيت عنه إذ الأصل في السرّ أن يحفظ لخصوصية من يتعلّق به،

¹ فقه السنة، سيد سابق، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط: 3، سنة: 1397هـ-1977م، (372/2).

² الدرّ الثمين، التواتي بن التواتي، (54/4-55).

خاصة إذا كان يتعلّق بالأمر العامّة والأمة فإن كتمانها يزداد تأكيداً، وقد جاءت الإشارة إلى ذلك في قوله تعالى ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ النساء: ٨٣، ولما فسر التواتي هذه الآية ذكر الخلاف في سبب نزولها؛ أنزلت في اعتزال النبي ﷺ نساءه، أو إشاعة المنافقين لأخبار المؤمنين في الغزوات والسرايا¹. ثم نقل عن الرازي بيان حكمة النهي عن هذا الإرجاف وإذاعة أسرار المسلمين، وهي أربعة أضرار بياها: الضرر الأول: أن مثل هذه الإرجافات لا تنفك عن الكذب الكثير.

الضرر الثاني: أنه إن كان ذلك الخبر في جانب الأمن زادوا فيه زيادات كثيرة، فإذا لم توجد تلك الزيادات أورث ذلك شبهة للضعفاء في صدق الرسول ﷺ، لأن المنافقين كانوا يروون تلك الإرجافات عن الرسول ﷺ، وإن كان ذلك في جانب الخوف تشوش الأمر بسببه على ضعفاء المسلمين، ووقعوا عنده في الحيرة والاضطراب، فكانت تلك الإرجافات سبباً للفتنة من هذا الوجه. الضرر الثالث: وهو أن الإرجاف سبب لتوفير الدواعي على البحث الشديد والاستقصاء التام، وذلك سبب لظهور الأسرار، وذلك ممّا لا يوافق مصلحة المدينة.

الضرر الرابع: أن العداوة الشديدة كانت قائمة بين المسلمين وبين الكفار، وكان كلّ واحد من الفريقين في إعداد آلات الحرب وفي انتهاز الفرصة فيه، فكلّ ما كان أمناً لهذا الفريق كان خوفاً للفريق الثاني، فإن وقع خبر الأمن للمسلمين وحصول العسكر وآلات الحرب لهم أرجف المنافقون بذلك فوصل الخبر في أسرع مدة إلى الكفار، فأخذوا في التحصن من المسلمين، وفي الاحتراز عن استيلائهم عليهم، وإن وقع خبر الخوف للمسلمين بالغوا في ذلك، وزادوا فيه وألقوا الرعب في قلوب الضعفة والمساكين. فظهر من هذا أن ذلك الإرجاف كان منشأ لفتن وآفات من كلّ الوجوه، ولما كان الأمر كذلك ذم الله تلك الإذاعة وذلك التشهير، ومنعهم منه².

ثانياً: علل وحكم متعلقة بمسائل عقديّة:

1- الحكمة من الابتلاء كما أخبر الله تعالى به: يعيش العبد في هذه الدنيا وتعرّض له أشياء من باب البلاء والامتحان ليعرف الله مقدار صبر عباده، مصداق ذلك قوله ﷺ: «عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان

¹ المصدر السابق، (223/7).

² مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: 3، سنة: 1420هـ، (153/10)، وقال التواتي في الهامش بعد النقل: "بزيادة وتصرف". ينظر: الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (225/7-226).

خيرا له»¹، وقد أخبر الله عباده المؤمنين بما سيقع لهم من أنواع الابتلاء، في قوله ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ البقرة: ١٥٥، ولما فسّر الشيخ هذه الآية، بيّن المعنى الإجمالي لها، ثم ذكر الحكمة من ابتلاء الله لعباده، فقال: "والحِكْم في تقديم بيان هذا الابتلاء والإخبار به في ستة أوجه:

أولا: ليوطنوا أنفسهم على الصبر عليها إذا وردت، فيكون ذلك أبعد لهم عن الجزع، وأسهل عليهم بعد الورود.

ثانيا: أنهم إذا علموا أنه ستصل إليهم تلك المحن، اشتد عليهم خوفهم، فيصير ذلك الخوف تعجيلا للابتلاء، فيستحقون به مزيد الثواب.

ثالثا: أن الكفار إذا شاهدوا محمدا ﷺ وأصحابه مقيمين على دينهم مستقرين عليه مع ما كانوا عليه من نهاية الضّرّ والمحنة والجوع، يعلمون أن القوم إنما اختاروا هذا الدين لقطعهم بصحته، فيدعّوهم ذلك إلى مزيد التأمل في دلائله، ومن المعلوم الظاهر أن التّبّع إذا عرفوا أن المتبوع في أعظم المحن بسبب المذهب الذي ينصره، ثم رأوه مع ذلك مُصِرّاً على ذلك المذهب كان ذلك أدعى لهم إلى اتباعه ممّا إذا رأوه مرقّه الحال لا كلفة عليه في ذلك المذهب.

رابعا: أنه تعالى أخبر بوقوع ذلك الابتلاء قبل وقوعه، فوجد مخبر ذلك الخبر على ما أخبر عنه، فكان ذلك إخبارا عن الغيب فكان معجزا.

خامسا: أن من المنافقين من أظهر متابعة الرسول طمعا منه في المال وسعة الرزق، فإذا اختبره تعالى بنزول هذه المحن فعند ذلك يتميز المنافق عن الموفق لأن المنافق إذا سمع ذلك نفر منه وترك دينه، فكان في هذا الاختبار هذه الفائدة.

سادسا: أن إخلاص الإنسان حالة البلاء ورجوعه إلى باب الله تعالى أكثر من إخلاصه حال إقبال الدنيا عليه، فكانت الحكمة في هذا الابتلاء ذلك"².

2- الحكمة في وزن أعمال العباد: من الأمور المقرّرة في عقيدة الإيمان باليوم الآخر مسألة الإيمان بالميزان، قال أبو إسحاق الزجاج: "أجمع أهل السنة على الإيمان بالميزان، وأن أعمال العباد توزن يوم القيامة، وأن الميزان له لسان وكفتان ويميل بالأعمال، وأنكرت المعتزلة الميزان وقالوا هو عبارة عن العدل

¹ رواه مسلم في صحيحه، كتاب: الزهد والرفائق، باب المؤمن أمره كله خير، برقم: 7692.

² الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (98/3).

فخالفوا الكتاب والسنة، لأن الله أخبر أنه يضع الموازين لوزن الأعمال ليرى العباد أعمالهم مُثَلَّة ليكونوا على أنفسهم شاهدين¹، ولذا فإن بعض المفسرين عند بيانهم لمعاني آيات الميزان، يشيرون حكمته من ذلك، ومنهم التواتي فإنه لما فسر قوله تعالى ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٨) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ الأعراف: ٨-٩، بين معنى الآيتين ثم بين الحكمة من وزن الأعمال: "فإن قيل: مال الحكمة في وزن أعمال العباد والله هو العالم بمقدار كل شيء قبل خلقه إياه وبعده؟ الجواب عن هذا التساؤل من أربعة جهات: الأولى: امتحان الله تعالى عباده بالإيمان به في الدنيا.

الثانية: جعل ذلك علامة لأهل السعادة والشقاوة في العقبى.

الثالثة: تعريف الله عز وجل للعباد ما عند الله من جزاء على خير وشر.

الرابعة: إقامة الحجة عليهم في العقبى².

3- علة امتناع قبول توبة من كفر بعد إيمانه وازداد كفرا: جاء بيان عدم قبول توبة الكافر في قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تَقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ آل عمران: ٩٠. جاء في سبب نزول هذه الآية عن ابن عباس رضي الله عنه أن قوما أسلموا ثم ارتدوا ثم أسلموا ثم ارتدوا، فأرسلوا إلى قومهم يسألون لهم فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فنزلت هذه الآية³. ولما فسر الشيخ التواتي هذه الآية ذكر سبب نزولها ومعناها الإجمالي وأقسام الكفار، ثم نص على علة امتناع قبول التوبة الكافر الذي ازداد كفرا بعد إيمانه ولخص ما ذكره المفسرون فيها فقال: "علة امتناع قبول توبة: وفي علة امتناع قبول توبتهم ذكر المفسرون أربعة أقوال:

القول الأول: أنهم ارتدوا، وعزموا على إظهار التوبة لستر أحوالهم، والكفر في ضمائرهم، قاله ابن عباس.

القول الثاني: أنهم قوم تابوا من الذنوب في الشرك، ولم يتوبوا من الشرك، قاله أبو العالية.

القول الثالث: أن معناه: لن تقبل توبتهم حين يحضرهم الموت، وهو قول الحسن وقتاد وعطاء الخراساني.

القول الرابع: لن تقبل توبتهم بعد الموت إذا ماتوا على الكفر، وهو قول مجاهد⁴.

¹ فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، سنة: 1379 هـ. (538/13).

² الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (219/9).

³ الصحيح المسند من أسباب النزول، مقبل الوادعي، (ص: 46).

⁴ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (374/5).

المبحث الرابع: المعالم المتعلقة بالوحدة الموضوعية في القرآن الكريم.

اهتم الشيخ التواتي في بيانه لمعاني القرآن الكريم واستنباطه وهداياته بإبراز الوحدة الموضوعية، فكان يثبت المعنى الذي يتماشى مع ما جاء في السورة من معاني وموضوعات، ويتناسب مع سياقها ومحاورها ومقاصدها الأساسية، فطبّق بذلك مفهوم الوحدة الموضوعية في السورة القرآنية، كما اهتم في تفسيره بعلاج مختلف القضايا من خلال تتبع مواضعها في جميع سور القرآن، فطبّق بذلك مفهوم الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم. ووجه كون هذا المعلم من معالم الاتجاه الاجتماعي أن المفسّر المصلح لا يقتصر على بيان المعاني وشرح الغريب فقط، بل يجعل تفسيره دروساً مترابطة يتصل بعضها ببعض، فيخرج بتصورات متماشية مع مضمون السورة ومع ما جاء في القرآن الكريم.

وقد تتبعت ما جاء في تفسير "الدر الثمين" فيما يتعلق بهذا المعلم فوجدته على نوعين، جعلتهما تحت مطلبين، اشتمل كلّ واحد منهما على معلم وهما:

المطلب الأول: معلم "الوَحدة الموضوعية في القرآن الكريم".

المطلب الثاني: معلم "الوَحدة الموضوعية في السورة القرآنية".

و تفصيلهما كما يلي:

المطلب الأول: معلم "الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم":

من أهم المعالم التي يقوم عليها الاتجاه الاجتماعي في التفسير معلم "الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم"، والذي تجمع فيه الآيات ذات الموضوع الواحد في موضع واحد لتعطي صورة شاملة عن القضية محلّ الدراسة، وبه يتم اختيار المعنى الذي يتلاءم مع مفهوم الوحدة الموضوعية، وقد اعتبر الدكتور فهد الرومي هذا المعلم هو الأساس الأول للاتجاه الاجتماعي فقال: "يقوم منهج التفسير لدى المدرسة العقلية الاجتماعية على أسس متعددة،... الأساس الأول: الوَحدة الموضوعية في القرآن الكريم، وقد أيد كثير من علماء السلف الوَحدة الموضوعية في القرآن الكريم؛ ومنهم ابن العربي الذي قال: "ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متّسقة المعاني منتظمة المباني علمٌ عظيم"¹.

ومن المفسرين المعاصرين الذين اهتموا بهذا المعلم والأساس في الاتجاه الاجتماعي؛ مفسّرنا الشيخ التواتي الذي اهتم في تفسيره بما يتماشى مع مفهوم الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، وكان ذلك من خلال ثلاثة مظاهر، جَعَلْتُ كلّ واحد منها تحت فرع وهي:

¹ اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، فهد الرومي، (718/2).

الفرع الأول: الربط بين معاني الآيات والسور المشتركة في الموضوع الواحد:

من مظاهر اعتماد الشيخ التواتي وتطبيقه للوحدة الموضوعية في القرآن الكريم؛ الربط بين الآيات المتفرقة، حيث لم يقتصر في تفسيره على بيان معنى الآيات محلّ التفسير فحسب؛ بل كان إذا رأى آيات لها علاقة مع غيرها في نفس الموضوع بين هذه العلاقة وأبرزها، وكان ذلك بعدّة طرق هي:

أولاً: سرد الآيات والسور ذات الموضوع الواحد:

ف نجد الشيخ أحياناً يسرد كلّ الآيات والسور التي تتوافق في المعنى مع الموضوع الذي يفسّره، وأحياناً يذكر ما تيسّر له واستحضره منها دون استقراء، وقد جاءت تطبيقاته في ذلك على صورتين هما:

1- سرد الآيات وأسماء السور التي تحدثت عن نفس الموضوع:

ومثال ذلك قوله تعالى ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا^ط وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا^ط وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَقَ مَحْنُ نَزْزُفُكُمْ وَإِيَّاهُمْ^ط وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطْنٌ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ^ط﴾ الأنعام: ١٥١. فهذه الآية ذكرت عشر وصايا عظيم خمس منها بصيغة النهي، وخمس بصيغة الأمر، حتى قال كعب الأحبار: «إن هذه الآيات لأوّل شيء في التوراة»، أي: أنها مذكورة في أوائل التوراة¹، فالوصية الأولى جاءت في تحريم الشرك، والثانية جاءت في بر الوالدين. وقد لاحظ الشيخ بأن هذا الاقتران الوارد بين الموضوعين ورد في القرآن الكريم في عدّة مواضع، فاستقرأها الشيخ وبينها بقوله: "وقد اقترن حقّ الوالدين بحق الله تعالى في جملة من الآيات ففي سورة البقرة: قال تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ^ط وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا^ط﴾ البقرة: ٨٣. وفي سورة النساء: قال تعالى ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ^ط وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ^ط شَيْئًا^ط وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا^ط﴾ النساء: ٣٦. وفي سورة الأنعام: قال تعالى ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ^ط شَيْئًا^ط وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا^ط﴾ الأنعام: ١٥١. وفي سورة الإسراء: قال تعالى ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ^ط وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا^ط﴾ الإسراء: ٢٣-٢٤، وفي لقمان: قال تعالى ﴿إِنْ أَشْكُرْ لِي وَلَوْلَايَكَ إِلَى الْمَصِيرِ^ط﴾ لقمان: ١٤².

¹ الأساس في التفسير، سعيد حوى، دار السلام، القاهرة، ط: 1، سنة: 1985م، (1795/3).

² الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (166/9). وينظر للمزيد من تطبيقات الشيخ التواتي: موضوع: اقتران طاعة الله بطاعة الرّسل (169/7)، وموضوع: الإسلام دين جميع الأنبياء (160/11)، وموضوع: نور المؤمنين ونور المنافقين (363/1 و364)، وموضوع: =

2- سرد أسماء السور المفصلة لموضوع معين والاكتفاء بذلك عن سوق الآيات:

ومن أمثلة ذلك: ما ذكره في تفسيره لقوله تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتِيهِمُ الْآخِرُ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾^(٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ^(٩) فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ البقرة: ٨-١٠، فهذه الآيات جاءت في موضوع: وصف منافقي هذه الأمة وأفعالهم، وقد لاحظ التواتي بأن هذا الموضوع تكرر في عدة سور أخرى، فحاول جمعها واكتفى بسرد أسماء السور فقط بقوله: "وفضحهم وكشف أسرارهم ونواياهم الخبيثة الفاسدة المفسدة في سورة: النساء والمائدة والأنفال والتوبة والحشر"¹.

ثانيا: الجمع بين الآيات المتفرقة في موضوعها لكنها متفقة في موضوعها لتحصيل موضوع متكامل:

وبعد تتبعي لتطبيقاته في هذا المجال وجدتها على ثلاث صور هي:

1- دفع التعارض بين الآيات الواردة في موضوع واحد: ومن أمثلة ذلك ما جاء في تفسير الشيخ

لقوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ آل عمران: ٧٧

فهذه الآية ظاهرها أن الله لا يكلم الكفار يوم القيامة، لأن قوله "ولا يكلمهم" فعل في سياق النفي وهو من صيغ العموم. بينما جاءت آيات أخرى تدلّ على أن الله تعالى يكلم الكفار يوم القيامة²، وقد أزال التواتي التعارض المتوهم بين الآيات في هذا الموضوع، فذكر ثلاثة أوجه ثم رجّح الأول منها فقال -

في تفسير قوله تعالى ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾ - : "فيه سؤال وهو أنه تعالى قال ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الحجر: ٩٢-٩٣، وقال تعالى ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ

لا يُجْزَى بالعمل إلا صاحبه (486/2)، وموضوع: فضل الشهداء (94/3)، وموضوع: مغفرة الذنوب وتكفير السيئات للمتقين (354/20 و355)، والآيات التي ذكر فيها مادة "النقض" عند كلامه حول التحليل اللغوي لكلمة "النقض" (423/1).

¹ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (323/1). وينظر للمزيد من تطبيقات الشيخ لذلك: ذكره للسور التي تضمنت موضوع مكر اليهود وكيدهم للمسلمين (268/2)، السور التي ذكرت فيها قصة خلق آدم (303/16)، السور التي ذكرت فيها قصة موسى (342/9)، وقد ذكر الحكمة من ذكرها في مواضع مختلفة (243/18).

² دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، محمد الأمين الشنقيطي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، مكتبة الخراز، جدة، ط: 1، سنة: 1417هـ-1996م، (ص: 27).

الْمُرْسَلِينَ ﴿الأعراف: ٦﴾، فكيف الجمع بين هاتين الآيتين، وبين تلك الآية؟ وقد أجاب المفسرون عن هذا السؤال بثلاث أجوبة نذكرها للبيان:

الجواب الأول: ما قاله القفال: إن المقصود من كلّ هذه الكلمات بيان شدة سخط الله عليهم، لأن من منع غيره كلامه في الدنيا، فإنما ذلك بسخط الله عليه، وإذا سخط إنسان على آخر، قال له: لا أكلمك، وقد يأمر بحجبه عنه، ويقول: لا أرى وجه فلان، وإذا جرى ذكره لم يذكره بالجميل فثبت أن هذه الكلمات كنايات عن شدة الغضب نعوذ بالله منه. وما ذكره القفال يعتبر عند أهل التفسير جواباً صحيحاً مُلماً بمقاصد الخطاب مقنعا بما أورد من أمثلة من واقع الناس.

الجواب الثاني: ... وهنا نشير إلى أن المعتدّ هو الجواب الأول¹.

2- جمع الآيات التي تشكّل بمجموعها أجزاء وعناصر لموضوع قرآني:

حيث كان التواتي يحرص على جمع أجزاء الموضوع القرآني الذي تفرّق عبر سور وآيات القرآن الكريم ويحاول جمعها في موضع واحد لتشكّل عناصره، ومن أمثلة ذلك: ما جاء في تفسير الشيخ لقوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ الأعراف: ٢٠٦، فهذه الآيات تتحدث عن الملائكة وتبيّن بعض صفاتهم ووظائفهم، ولما فسّر الشيخ ذلك استرسل في الحديث عن وظائف الملائكة وجمع الآيات التي وردت في ذلك في القرآن الكريم قال: "وهم بالنسبة إلى الأعمال التي يقومون بها أصناف: فمنهم حملة العرش؛ قال تعالى ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ غافر: ٧، وقال تعالى ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَّةٌ﴾ الحاقة: ١٧. ومنهم المقربون: كما قال تعالى ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ النساء: ١٧٢... ومنهم الموكلون بحفظ بني آدم في الدنيا؛ قال تعالى ﴿لَهُ مَعْقَبَتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ الرعد: ١١؛ أي: معه ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه؛ فإذا جاء قدر الله؛ خلوا عنه. ومنهم الموكلون بحفظ أعمال العباد وكتابتها؛ قال تعالى ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ ق: ١٧-١٨، وقال تعالى ﴿وَأَنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٥﴾ كِرَامًا كَتِبِينَ﴾ الانفطار: ١٠-١١، وقال ﷺ: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل والنهار»²؛ فمع الإنسان

¹ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (326/5 و327). وينظر أيضا في إزالته للتعارض بين الآيات: الدر الثمين (397/8)،

(384/9)، (105/11)، (356/17).

² رواه البخاري في صحيحه، كتاب: مواقيت الصلاة، باب: فضل صلاة العصر، برقم: 530.

ملائكة يحفظونه من المؤذيات، وملائكة يحفظون عليه أعماله وما يصدر منها... ومنهم ملائكة موكلون بقبض الأرواح؛ قال تعالى ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ الأنعام: ٦١، وقال: ﴿قُلْ يَتَوَفَّكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ السجدة: ١١؛ فملك الموت له أعوان من الملائكة يستخرجون روح العبد من جسمه حتى تبلغ الحلقوم، فيتناولها ملك الموت. والمقصود أن الله تعالى وكل بالعالم العلوي والسفلي ملائكة تدبر شؤونهما بإذنه ومشيئته سبحانه وتعالى¹.

3-الجمع بين الآيات للاستدلال على معنى معين وإثباته: ومثاله ما جاء في حديث الشيخ عن موضوع تحديد آجال العباد ووقت وفاتهم، وذلك عندما فسّر قوله تعالى ﴿وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَتَبْنَا مُؤَجَّلَاتُهَا﴾ آل عمران: ١٤٥، فالآية تبين أن الموت بيد الله وبأجل محدد عنده، فلا يموت أحد إلا بقدر الله، وحتى يستوفي المدة التي ضربها الله له². ولما تحدث الشيخ التواتي عن هذا الموضوع استفاض فيه وأراد أن يثبت المعنى المتضمن فيها، فاستدل بآيات أخرى وردت في نفس المعنى فقال: "وبين الله تعالى أن الموت شيء مقضي محكوم به، وهذا معنى ﴿كَتَبْنَا مُؤَجَّلَاتُهَا﴾ فلا تأخير له، ودل على ذلك بآيات أخرى في القرآن منها: قوله تعالى ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ﴾ الأحزاب: ١٦، وقوله تعالى ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ الأعراف: ٣٤، وقوله تعالى ﴿إِنَّمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾ النساء: ٧٨، وقوله تعالى ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَان لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا﴾ آل عمران: ١٥٤³.

الفرع الثاني: إحصاء ما تكرر من الآيات والسور ذات الموضوع الواحد:

من مظاهر اعتماد الشيخ التواتي للوحدة الموضوعية في القرآن الكريم؛ أنه كان يحصي عدد الآيات والسور التي تكرر فيها نفس الموضوع أو تكرر مصطلح منها، وقد صرح الشيخ بأنه استعمل الحاسوب في ذلك فقال: "هذا الإحصاء تحصلت عليه باستعمال جهاز الحاسوب"⁴، وتفصيل ذلك:

¹ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (482/9-483). وينظر أيضا موضوع: أوجه السؤال (444/3-445)، وموضوع: مالا يُغني من الله شيئا (74/5)، وموضوع: تدرج النفس في الوقوع في المهالك (294/6)، وموضوع: نعم الله على بني إسرائيل (55/8-56)، وموضوع: أسماء الرسول ﷺ في القرآن (267/15)، وموضوع: الموصوفات بالنور في القرآن الكريم (432/13-433).

² تفسير ابن كثير، (129/2).

³ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (123/6-124)، وينظر: الاستدلال على عدم تعذيب الميت ببكاء أهله عليه، (307/3).

⁴ المصدر نفسه، (353/3).

أولاً: إحصاء تكرر الآيات:

اعتمد التواتي على منهج الإحصاء في جمع الآيات المكررة بلفظها أو معناها في نفس الموضوع ، وهذا الإحصاء كانت له أنواع هي:

1- إحصاء المواضع التي تكررت فيها الآية بلفظها: ومثال ذلك ما ذكره في تفسير قوله تعالى ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ الأعراف: ٨٠، حيث ذكر أنها تكررت ثلاث مرات فقال: "إن هذه الآية تكررت على ما سنراه لاحقاً - إن شاء الله تعالى - في ثلاث مرات؛ في هذه السورة أي: الأعراف، وفي سورة النمل، وفي سورة العنكبوت"¹.

2- إحصاء عدد الآيات الواردة في الموضوع الواحد: ومثاله ما جاء في تفسير قوله تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ سبأ: ١، حيث قام الشيخ بإحصاء عدد الآيات الواردة في موضوع "حمد المؤمنين لله في اليوم الآخر" فوجدها ستة أحصاها بقوله: "وتتميماً للفائدة أذكركم بأن الحمد لله في الآخرة سوف يصدر عنهم في ستة مواضع منصوص عنها في القرآن الكريم وهاكموها بالدليل من القرآن:

الموضع الأول: هناك في الموقف كلٌّ في ذهول فذلك يوم التغابن، يوم الفرار يوم يجمع الله تعالى الأولين والآخرين في صعيد واحد ويدعوهم إلى التمايز بما تميزوا به في الدنيا، وذلك بقوله تعالى ﴿وَأَمْتَرُوا أَيُّومَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ يس: ٥٩، فإذا تميّز المؤمنون من الكافرين يقولون ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّنا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ المؤمنون: ٢٨، كما قال نوح عليه السلام حين أنجاه الله عز وجل من قومه. **الموضع الثاني:** حين جازوا الصراط، أي: صراط موقف ضنك، فيه جهد وإجهاد غارق إلى الأذنين بعرقه، وغارق إلى الكعبين، وكل يمرّ على الصراط حسب عمله، فإذا جاوزوه قالوا ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾ فاطر: ٣٤. **الموضع الثالث:** لما دَنَوْا إلى باب الجنة، واغتسلوا بماء الحيوان ونظروا إلى الجنة، ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَّنا لِهَذَا﴾ الأعراف: ٤٣. **الموضع الرابع:** لما دخلوا الجنة استقبلتهم الملائكة عليه السلام بالتحية فرحين بقدمهم ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنا وَعَدَهُ وَأَوْرَثَنا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ﴾ الزمر: ٧٤. **الموضع الخامس:** حين استقروا في منازلهم التي بَوَّأَهُمُ اللَّهُ فِي الْجَنَّةِ ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (٢١) الَّذِي أَحَلَّنا

¹ الدرّ الثمين، التواتي بن التواتي، (320/9).

دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٤﴾ فاطر: ٣٤-٣٥. الموضوع السادس: كلما فرغوا من الطعام أو الشراب أو ما وصل إليهم من خير، أو سئلوا عن الصحة والعافية قالوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الفاتحة: ٢^١.

ثانيا: إحصاء مواضع تكرار القصة القرآنية والمصطلح القرآني:

من منهج التواتي في تفعيل الوحدة الموضوعية أنه كان يحصي مواضع السور التي تكررت فيها القصة القرآنية، أو المصطلح القرآني باعتباره أحد أنواع التفسير الموضوعي الثلاثة، وبيان ذلك:

1- إحصاء السور التي تكررت فيها نفس القصة القرآنية: ومثاله ما جاء في تفسيره لقوله تعالى ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشًا قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ الأعراف: ١٠-١١، فهذه الآية ذكرت قصة آدم مع إبليس، وعند تفسيرها أحصى الشيخ التواتي عدد المواضع التي ذكرت فيها هذه القصة فوجدتها سبعة بينها بقوله: "وذكر قصة آدم ﷺ مع قصة إبليس في القرآن في سبعة مواضع: أولها: في سورة البقرة. ثانيهما: في هذه السورة. ثالثها: في سورة "الحجر". رابعها: في سورة "بني إسرائيل". خامسها: في سورة "الكهف". سادسها: في سورة "طه". سابعها: في سورة "ص". وفي كل مرة يبين لنا على أنه عدو لنا، ويأمرنا أن نتخذه عدواً، ولا نركن إليه حتى لا يخرجنا عن طاعة ربنا، بوسوسته وهمزه وإغرائه وتزيينه، وكل هذه الألفاظ استعملها القرآن تحذيراً، كما سيأتي بيان ذلك في تفسير السور التي لم نفسرها، أما سورة "البقرة" فأشرنا إلى العداوة القائمة بين بني آدم وإبليس اللعين"²، وهناك قصص ذكر الشيخ مواضعها في القرآن من دون ذكر العدد³.

2- إحصاء المواضع التي تكررت فيها مصطلح من المصطلحات القرآنية: ومثاله ما ذكره في لفظة "الكتاب"، حيث أحصى عدد المرات التي وردت فيها واختلاف معناها فيها، وذلك لما فسر قوله تعالى ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ البقرة: ١٨٥،

¹ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (326/325/15). وانظر إحصاءه لبعض المواضع: إحصاء المواضع التي ذكر فيها تقديم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس (128/10)، وإحصاء: حول موضوع اليتيم حيث ذكر أنها ثلاثة وعشرون موضعاً (176/9)، وإحصاءه للموصوفات التي اتصفت بـ "النور" حيث ذكر أنها عشرة (432/13 و433).

² الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (223/9).

³ ينظر مثلاً: السور التي ذكرت فيها قصة خلق آدم (303/16)، والسور التي ذكرت فيها قصة موسى (342/9)، وقد ذكر الحكمة من ذكرها في مواضع مختلفة (243/18).

حيث قال: "وتكررت كلمة (الكتاب) مائة وستين مرة، منها أكثر من خمسين آية خاصة بالكتاب المنزل على محمد ﷺ وسمي "قرآنا" في اثنين وخمسين آية منها ثلاثة وأربعون مرة محلى بـ "أل"، ومنها: تسعة مرات مجردا منها، وقد يجمع بينهما في آية واحدة: كقوله تعالى ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ في كِتَابٍ مَّكُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ الواقعة: ٧٧-٨٠، وقوله تعالى ﴿حَمِّمُوا﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٨٠﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ ﴿٨١﴾ الزخرف: ١-٣.¹

الفرع الثالث: اهتمامه بذكر المناسبة بين سور القرآن:

اعتنى الشيخ التواتي بقضية المناسبات بين سور القرآن الكريم والتي تظهر بمجموعها الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم كله²، وبعد تتبعي لهذه المسألة في تفسيره وجدته طبقها على قسمين هما:

أولاً: اهتمامه بعلم المناسبات في القرآن الكريم عموماً بين السور والآيات:

أولى الشيخ اهتماماً كبيراً بالمناسبات القرآنية؛ سواء ما تعلق بالمناسبات بين السور، أو ما تعلق بين آيات السورة الواحدة كما سيأتي بيانه. ومن مظاهر اهتمامه بها ما يلي:

1- إكثاره من ذكرها واجتهاده في استخراجها: القارئ لتفسير "الدر الثمين" يلاحظ الاهتمام الكبير بهذا النوع من أنواع علوم القرآن الكريم، حيث اجتهد في استخراجها اجتهداً كبيراً سواء بنقلها عن سبقه أو ببذل جهده ليتوصل إليها بعد النظر والاجتهاد، وقد كان يُصرِّح بذلك كما جاء في تفسيره لسورة الحجر حيث قال: "إن هذه السورة تبدو وحدة متناسقة، يظهر بعضها بعضاً، وذلك مع ما هو معلوم من أن السور لم تكن تنزل جملة إلا نادراً، وأن الآيات الواردة فيها لم تكن تنزل متتالية تواليها في المصحف، ولكن ترتيب هذه الآيات في السور ترتيب توقيفي، فلا بد من حكمة في ترتيبها على هذا النسق، وقد كشفت لنا جوانب من هذه الحكمة حتى الآن في السور التي عرضناها في تماسك بنيان السور، واتحاد الجو والظلال في كل سورة، والعلم بعد ذلك لله، إنما هو اجتهاد، فإن كان الصواب فيما ذهبت فالفضل لله وحده، وإن أخطأت فأسأل الله العفو والمغفرة فهو الهادي الموفق إلى الصواب"³.

¹ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (352/3 و353). وينظر: إحصاء لمصطلح "الصبر" الدر الثمين (267/3)، وإحصاء لمصطلح "الاستواء" (528/18 و529).

² وأما المناسبات داخل السورة الواحدة فسيأتي الحديث عنها في المطلب الموالي؛ إذ هي معلم وأساس مستقل من أسس الاتجاه الاجتماعي في التفسير كما قرره الدكتور: فهد الرومي في كتابه: اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، (724/2).

³ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (477/11).

2- عدم التكلف في استخراج المناسبات والتوقف عند عدم ظهورها: كان الشيخ التواتي من المعتدلين في ذكر المناسبات، مبتعداً عن التكلف في طلبها، ولهذا نجده يكلّ العلم إلى الله فيما لم يتوصّل لاستخراج المناسبة فيه، فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ البقرة: ٢٣٨، قال: "مناسبة الآية الكريمة لما قبلها: إن قلت: ما وجه مناسبتها مع أن ما قبلها في شأن الزوجات؟ الجواب عن التساؤل بأمرين:

- إما بأنه تنبيه الأزواج أن لا يشتغلوا بأمور زوجاتهم عن الصلوات.

- وإما بأن بعضهم كان لا يراعي (المناسبة ولا يشتغل بها)، ونقول في هذا السياق: إن ترتيب الآيات توقيفي ليس للعقل فيه مجال - والله أعلم بما أراد - وقد التمس بعض المفسرين حكمةً لهذا؛ ولكن لما لم يتعيّن ما ذكره تركنا الحديث عن ذكر المناسبة؛ ونكل العلم إلى الله الحكيم في تدبير منزل القرآن على قلب محمد ﷺ، ونعلم أن لا بدّ أن يكون هناك حكمة أو حكم، الله سبحانه وتعالى أعلم بها¹.

3- الاستفادة والنقل عن العلماء والمفسرين الذين اهتموا بعلم المناسبات: نجد مفسرنا التواتي ينقل عن المفسرين الذين ألفوا كتباً مستقلة في علم المناسبات، أو اهتموا بها في تفاسيرهم. ومن الكتب التي نقل عنها هذا الموضوع؛ "أسرار ترتيب القرآن"، و"تفسير المراغي"، و"نظم الدرر"، و"التحرير والتنوير"، و"البحر المحيط"، و"روح المعاني"، و"مفاتيح الغيب"²، وقد ينقل عنهم دون أن يُحيل إليهم³.

4- تنوع أسلوبه في بيان المناسبات: وله في بيان المناسبات طريقتان:

الأولى: التصريح بلفظ المناسبة: كقوله: "مناسبة هذه السورة بما قبلها"، أو قوله: "مناسبتها لما قبلها"، أو قوله: "المناسبة بينها وبين ما قبلها"، أو قوله: "وجه مناسبتها لما قبلها"⁴.

¹ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (219/4).

² ينظر بالترتيب مواضع نقله عن تلك الكتب في المصدر نفسه، نقله عن "أسرار ترتيب القرآن" (12/11 و314 و386)، (8/12 و9 و149 و428 و429)، (13/271)، (9/302)، (19/294 و295)، (20/219 و516). ونقله عن "تفسير المراغي" (13/9 و10). ونقله عن "نظم الدرر" (11/312). ونقله عن "التحرير والتنوير" (11/314)، (6/319). ونقله عن "البحر المحيط" في الدر الثمين (3/435)، (4/116 و515)، (10/422)، (12/8 و149)، (15/320)، (19/295)، ونقله عن "روح المعاني" (11/314)، (15/320). ونقله عن "مفاتيح الغيب" (18/270)، (7/161).

³ ومثاله على النقل دون عزو ما جاء في تفسير سورة الفيل، بعنوان: مناسبتها لما قبلها، حيث نقل كلاماً للسيوطي من كتابه "أسرار ترتيب القرآن" دون إحالة، وربما يرجع هذا لمنهجه العام في النقل عن الأعلام السابقين، ينظر: الدر الثمين (20/429).

⁴ ينظر: الدر الثمين، التواتي بن التواتي (6/370)، (8/325)، (11/180 و313 و414)، (12/8 و148)، (13/270)، (16/13)، (18/302 و359 و418)، (19/267 و294)، (20/8 و189 و219 و292 و429 و515).

الثانية: استعمال ألفاظ مقاربة لمعنى المناسبة: كقوله في سورة إبراهيم: "وارتباطها بالسورة التي قبلها واضح جدا"، وقوله وفي سورة الحج: "وجه اتصالها بسورة الأنبياء"، وسورة الطور: "وجه وضعها بعد الذاريات"¹.

ثانيا: أنواع المناسبات بين السور وتطبيقاتها في تفسير "الدر الثمين":

بعد استقراء منهج التواتي في ذكر المناسبات بين سور القرآن، وجدتها تنقسم إلى قسمين هما:

1- المناسبة الخاصة بين سورتين: وهي السور المتتالية مباشرة في المصحف؛ ومن أمثلة ذلك:

- **المناسبة بين السورة وما بعدها:** ومثالها ما جاء في تفسيره لسورة الرحمن حيث قال: "مناسبة سورة (الرحمن) لما بعدها: وسورة الرحمن متآخية مع السورة التي قبلها² في أن كلا منهما في وصف القيامة والجنة والنار، وانظر إلى اتصال قوله هنا، أي: في سورة الرحمن ﴿فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ الرحمن: ٣٧، بقوله هناك: أي في سورة الواقعة ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ الواقعة: ١، ولهذا اقتصر في سورة الرحمن على ذكر انشقاق السماء، وفي الواقعة على ذكر رج الأرض، فكان السورتين لتلازمهما واتحادهما سورة واحدة، ولهذا عكس في الترتيب فذكر في أول هذه السورة ما ذكره في آخر تلك، وفي آخر هذه ما في أول الأخرى، فافتتح الرحمن بذكر القرآن، ثم ذكر الشمس والقمر، ثم ذكر النبات، ثم خلق الإنسان والجان من مارج من نار، ثم صفة القيامة، ثم صفة النار ثم صفة الجنة، وابتدأ سورة الواقعة بذكر القيامة، ثم صفة الجنة ثم صفة النار، ثم خلق الإنسان، ثم النبات، ثم الماء، ثم النار، ثم النجوم ولم يذكرها في سورة الرحمن، كما لم يذكر في الواقعة الشمس والقمر، ثم ذكر في الرحمن القرآن فكانت سورة الرحمن كالمقابلة لسورة الواقعة"³.

- **المناسبة بين السورة وما قبلها:** ومثاله ما جاء في تفسير سورة "يس" حيث قال الشيخ

التواتي: "المناسبة بينها وبين ما قبلها: وجه اتصال هذه السورة بما قبلها، أنه لما ذكر في فاطر قوله تعالى ﴿وَجَاءَهُمُ النَّذِيرُ﴾ فاطر: ٣٧، وقوله تعالى ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ فاطر: ٤٢، والمراد به ﷺ، وقد أعرضوا عنه وكذبوه فافتتح هذه السورة بالإقسام على صحة رسالته، وأنه على صراط مستقيم لينذر قوما ما أنذر

¹ ينظر بالترتيب لهذه الأقوال: الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (384/11)، (192/13)، (269/18)

² وهذا سبق قلم من الشيخ التواتي، والأصح أن يقول "التي بعدها" لأن كلامه حول سورة الرحمن والواقعة.

³ الدر الثمين، التواتي بن التواتي (418-419).

آبائهم، وهذا وجه بين. وفي سورة فاطر قوله تعالى ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ فاطر: ١٣-١٤. وفي سورة "يس" قوله تعالى ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ ٣٨ ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْتَهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ يس: ٣٨-٣٩، وذلك أبسط وأوضح.

وفي فاطر قوله تعالى ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَازٍ لِّتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ فاطر: ١٢. وفي "يس" قوله تعالى ﴿وَأَيُّهُ لَهْمُ آتَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ﴾ ٥١ ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ ٥٢ ﴿وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ﴾ يس: ٤١-٤٣، فزاد القصة بسطا¹.²

2- المناسبة العامة بين مجموعة من السور: فقد يذكر الشيخ المناسبة بين أكثر من سورتين، ومثالها:

ما جاء في تفسيره لسورة الأنعام حيث ذكر مناسبة افتتاح السور المكية بها وتقديمها في المصحف على ما تقدّم نزوله منها، ثم ذكر مناسبتها لسورة الفاتحة والبقرة وآل عمران والمائدة، فقال: "ثم لما كان المقصود من هذه السورة بيان الخلق والملئ؛ أكثر فيها من ذكر الرب الذي هو بمعنى المالك والخالق والمنشئ، واقتصر فيها على ما يتعلق بذلك من بدء الخلق الإنساني والملكوتي والملكي والشرطي والحيواني والنباتي، وما تضمنته من الوصايا فكلها متعلق بالقوام والمعاش الدنيوي، ثم أشار إلى أشرار الساعة... وهي في جمعها الأصول والعلوم والمصالح الدنيوية نظير سورة البقرة في جمعها العلوم والمصالح الدينية وما ذكر فيها من العبادات المحضة... وكانت هذه السورة بأسرها متعلقة بالفاتحة من وجه كونها شارحة لإجمال قوله تعالى ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الفاتحة: ٢، وللبقرة من حيث شرحها لإجمال قوله تعالى ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ البقرة: ٢١... وبآل عمران من جهة تفصيلها لقوله تعالى ﴿وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾ آل عمران: ١٤، وقوله ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ آل عمران: ١٨³.

وهذا كله فيه بيان تعلق سور القرآن مع بعضها البعض وأن السورة تفصل وتكمل ما جاء في غيرها، وهو دليل واضح على اهتمام الشيخ بالوحدة الموضوعية في القرآن الكريم.

¹ الدر الثمين، التواتي بن التواتي (13/16).

² وينظر أيضا: المصدر نفسه، (8/325 و326)، (12/149 و150 و318-320)، (13/192-193 و270-271)، (15/320)، (16/13)، (18/269 و270).

³ المصدر نفسه، (8/323-324). وينظر أيضا: المصدر نفسه، (6/370-373)، (12/8-9)، (20/292).

المطلب الثاني: معلم "الوَحدة الموضوعية في السورة القرآنية"

الوحدة الموضوعية في السورة يقصد بها هنا استنباط المفسر مقصد السورة العام "الموضوع الذي تعالجه" والمقاصد الجزئية "المواضيع الفرعية" الخادمة له، وكشف المناسبات، وذكر المعاني المتلائمة مع مقصد السورة.

وقد ذكر الأستاذ فهد الرّومي أن ذلك من الأسس الواضحة في منهج المدرسة العقلية الاجتماعية، ويبيّن أن موقف العلماء السابقين منه بين منكر ومؤيد، وكان اعتمادهم على هذا الأساس من خلال:

1- اهتمامهم ببيان الغرض العام في السورة؛ حتى يكون محور ارتكاز في التفسير.

2 - ردّ التفسير الذي يخالف الوَحدة الموضوعية في السورة أو هدفها العام¹.

وأما عن مفسّرنا الشيخ التواتي، فإن المتأمل في تفسيره "الدرّ الثمين" يظهر له بوضوح اعتماده الوحدة الموضوعية في السورة، وكانت له في ذلك أساليب وطرق، تفصيلها في الفروع الآتية:

الفرع الأول: المناسبة بين أجزاء السورة:

تقدم الكلام قريبا عن اهتمام الشيخ التواتي بعلم المناسبات، وهذا لعلاقتها الواضحة بالوحدة الموضوعية للسورة، كما ذكرت نماذج تطبيقية للمناسبة العامة أو الخاصة بين سور القرآن.

وسأذكر هنا نوعا آخر من المناسبات عند التواتي، وهو: أنواع المناسبات داخل السورة القرآنية بين أجزاء السورة أو بين آياتها، والغرض من ذلك أن تظهر آيات السورة الواحدة كبناء متناسق.

وفيما يلي بيان لما جاء عن الشيخ التواتي في هذه المسألة وذلك كما يلي:

أولا: حرصه على إظهار المناسبات داخل السور لتظهر كالبنا المتناسق:

وقد صرّح بذلك الشيخ التواتي حين قال في تفسيره لسورة "الحجر" وعزمه على إظهار المناسبات فيها حيث قال: "إن هذه السورة تبدو وحدة متناسقة، يظاهر بعضها بعضا، وذلك مع ما هو معلوم من أن السور لم تكن تنزل جملة إلا نادرا، وأن الآيات الواردة فيها لم تكن متتالية تواليها في المصحف، ولكن ترتيب هذه الآيات والسور توقيفي، فلا بد من حكمة في ترتيبها على هذا النسق، وقد كشفت لنا جوانب من هذه الحكمة حتى الآن في السور التي عرضناها في تماسك بنيان السور، واتحاد الجوّ والظلال في كلّ سورة، والعلم بعد ذلك لله²."

¹ اتجاهات التفسير، فهد الرّومي، (728-724/2) بتصرف.

² الدرّ الثمين، التواتي بن التواتي، (477/11).

ثانيا: اتباعه لمنهج واضح في ذكر المناسبات بين آيات السورة، وكان ذلك كما يلي:

- 1- أحيانا نجده يصرح بلفظ المناسبة فيقول: "مناسبة الآية لما قبلها"¹.
- 2- أحيانا يأتي بلفظ مقارب لمعنى المناسبة كقوله: "وبين القسمين اتصال ظاهر"، أو قوله: "ووجه ذكر هذه الآيات هنا"².
- 3- كثيرا ما يذكر المناسبة في بداية تفسير الآيات تحت عنوان: "بين يدي الآيات"، "بين يدي الآية"، "بين يدي الآيتين"، "المعنى الإجمالي للآية"، ثم يُعبر عن المناسبة بقوله: "بعد أن ذكر كذا... ذكر هنا..." أو ما شابه ذلك³.

ثالثا: اهتمامه ببيان مناسبة النصوص -المقاطع- القرآنية لبعضها البعض⁴:

تقدم الكلام عن منهج الشيخ في تفسيره، وأنه يقسم السورة إلى مجموعة من النصوص يعنون لكل واحد منها بعنوان "النص القرآني"، كل نص منها يشمل مجموعة من الآيات. ثم إن الشيخ أثناء تفسيره لهذه النصوص تحده يذكر المناسبة بينها، وقد يذكر الترابط بينها اعتمادا على محور السورة، وفي ذكر هذا الترابط تطبيق للوحدة الموضوعية في السورة القرآنية، ومن أمثلة ذلك:

ما جاء عنه في تفسيره للنص القرآني المبتدأ بقوله تعالى ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَنُ أَذًا مَا مِثُّ لَسَوَفَ أُحْجَرُ حَيًّا﴾ مريم: ٦٦، والمتمهي بقوله تعالى ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هَلْ يُحِشُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ مريم: ٩٨. ذكر مناسبتة للنصوص المتقدمة معتمدا في ذلك على غرض ومحور سورة "مريم" فقال: "بين يدي النص القرآني: لما ذكر الله تعالى طائفة من قصص الأنبياء للعظة والاعتبار، وكان الغرض الأساسي للسورة الكريمة؛ إثبات قدرة الله على الإحياء والإفناء، لإثبات يوم المعاد، ذكر

¹ ينظر مثلا: الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (8/3)، (89/3)، (114/3)، (100/4)، (116/4)، (260/4)، (160/5)، (323/5)، (60/6)، (75/14).

² ينظر مثلا: المصدر نفسه، (251/2)، (324/2)، (259/17).

³ ينظر مثلا: المصدر نفسه، (309/1)، (415/1)، (364/2)، (67/3)، (217/6)، (425/7)، (129/8)، (187/9)، (408/10)، (75/14)، (484/17) وغيرها كثير.

⁴ والمقصود بمصطلح النص عند التواتي في تفسير "الدر الثمين" هو المقطع القرآني الذي يشتمل على مجموعة من الآيات في السورة، ولذا فإنني أقصد بمصطلح "النص" في هذا المطلب: المقطع القرآني، موافقة لإطلاق التواتي لهذا المصطلح.

الله تعالى هنا بعض شبهات المكذبين للبعث والنشور، وردّ عليها بالحجج القاطعة والبراهين الساطعة، وختم السورة الكريمة ببيان ما للسعداء والأشقياء يوم البعث والحساب¹.

رابعا: بيانه لمناسبة آيات النص القرآني -المقطع- لبداية السورة:

ومثال ذلك ذكره للمناسبة بين مقدمة السورة وآيات النص القرآني من قوله تعالى ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾^(١٣٣) وَمَا كَانَ أَسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَيِّهِ إِلَّا عَنْ مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ... مِنْ وَلِيِّي وَلَا نَصِيرَ ﴿التوبة: ١١٣-١١٦﴾، حيث بيّن صلتها ببداية السورة قائلا: "بين يدي الآيات: إن الله تعالى لما بيّن من أول هذه السورة إلى هذا الموضع وجوب إظهار البراءة عن الكفار والمنافقين من جميع الوجوه، بيّن في هذه الآية أنه تجب البراءة عن أمواتهم، وإن كان في غاية القرب من الإنسان كالأب والأم، كما أوجبت البراءة عن أحيائهم، والمقصود منه بيان وجوب مقاطعتهم على أقصى الغايات والمنع من مواصلتهم بسبب من الأسباب"².

خامسا: بيان المناسبة بين نهاية السورة و بدايتها:

وهذا النوع من المناسبات يعتبر أحد أنواع علوم القرآن، وألّف فيه السيوطي كتابا قال في مقدمته: "فإن من علوم القرآن العظيم مناسبة مطالع السور ومقاطعها كما أوضحته في "الإتقان" وكتاب "أسرار التنزيل"... وقد أردت بيان ذلك على ترتيب السور في هذه الكراسة مستخرجاً له بفكري، إما ما صرّحت بنقله عن غيري، وسميتها "مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع"³.

ومثال هذا النوع عند التواتي ما جاء في تفسيره لآخر نص قرآني من سورة آل عمران، المبتدئ بقوله تعالى ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ آل عمران: ١٩٠، وينتهي في آخر السورة، حيث بيّن الصلة بين خاتمة السورة وبدايتها قائلا: "بين يدي النص القرآني: بُدئت هذه السورة بذكر أدلة التوحيد والألوهية والنبوة، وختمها بذكر دلائل الوحدانية ودلائل الخلق والإيجاد، ليستدل منها الإنسان على البعث والنشور فكان ختام مسك، ولما كان المقصود

¹ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (476-475/12)، وينظر أيضا في ما جاء في الربط بين نصوص السورة اعتمادا على محورها:

الدر الثمين، (289/6)، (37/7)، (138/7)، (431/7)، (137/8)، (103/9)، (163/9)، (302/9)، (318/9)، (379/10)، (407/12)، (158/13)، (141/14)، (134/16)، (259/17).

² الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (310/10)، وينظر أمثلة أخرى، الدر الثمين: (335/10)، (473/12)، (164/14).

³ مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع، السيوطي، مكتبة دار المنهاج، السعودية، ط: 1، سنة: 1426هـ، (ص: 47).

من هذا الكتاب العظيم جذب القلوب والأرواح عن الاشتغال بالخلق إلى معرفة الإله الحق، جاءت الآيات تنير القلوب بأدلة التوحيد والإلهية والكبرياء والجلال، فلفتت الأنظار إلى التفكير والتدبر في ملكوت السماوات والأرض، ليخلص الإنسان إلى الاعتراف بوحداية الله وباهر قدرته وهو يتأمل في كتاب الله المنظور (الكون الفسيح) بعد أن تأمل في كتاب الله المسطور (القرآن العظيم) وفيه إشارات عديدة لآيات الكتاب المنظور وهو يدعو إلى معرفة الحقائق باستخدام الحواس¹.

سادسا: بيان مناسبة آيات النص القرآني -المقطع- لبعضها البعض:

تقدّم الكلام حول منهج التواتي في تفسيره وأنه يقسم السورة القرآنية لمجموعة من النصوص القرآنية، كل نص منها يتضمن عددا من الآيات، ثم يقسم النص القرآني لمجموعات تتضمن كل مجموعة جزء من الآيات، وكان يعتني بذكر الصلة التي تجمع بينها جميعا، وكان ذلك كما يلي:

1- اجتهاده في استخراج وجه المناسبة: ومثال ذلك ما جاء في تفسيره للآية الخامسة من النص القرآني والتي قال الله تعالى فيها ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنَّكُمْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ النساء: ١٠١، حيث ذكر مناسبتها لما قبلها مما جاء في نفس النص القرآني الذي جاء فيه ذكر عقاب القاعدين عن الجهاد الساكنين في بلاد الكفر، ورغب في الهجرة من دار الكفر إلى دار الإيمان، ثم ذكر أحكام صلاة المسافرين وصلاة الخوف، فبيّن وجه المناسبة بينها قائلا: "بين يدي الآية: إن الضارب في الأرض في حاجة ماسة إلى الصلة الدائمة برّبه، تعينه على ما هو فيه، وتكمل عدّته وسلاحه فيما هو مُقدّم عليه، وما هو مرصود له في الطريق... والصلاة أقرب الصلوات إلى الله، وهي العدة التي يدعى المسلمون للاستعانة بها في الشدائد والملّات كلما كان هناك خوف أو مشقة، وربنا هو القائل مخاطبا عباده ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ البقرة: ٤٥.

ومن ثمّ يجيى ذكرها هنا في إبانها المناسب وفي وقت الحاجة إليها والاضطرار، فما أحوج الخائف في الطريق إلى أن يطمئن قلبه بذكر الله، وما أحوج المهاجر من أرضه إلى أن يلتجئ إلى حمى الله تعالى مناجيا مستمدا منه الحفظ والسلامة وبلوغ المأمّن، غير أن الصلاة الكاملة -وما فيها من قيام وركوع وسجود- قد تعوق الضارب في الأرض عن الإفلات من كمين قريب أو عدوّ مترصد².

¹ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (321/6)، وانظر مزيدا من الأمثلة في بيانه للصلة بين خاتمة السورة ببدايتها: الدر الثمين (361/6)، (215/18)، (442/19).

² المصدر نفسه، (285/7)، وانظر مزيدا من الأمثلة في بيان وجه المناسبة: الدر الثمين (313/6 و314)، (81/7)، (264/8)، (187/9)، (254/10)، (75/14)، (484/17).

2- اعتماده على سبب النزول: ومثاله ما جاء في تفسير الآية الثالثة من النص القرآني في سورة المائدة وهي قوله تعالى ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَرْتُمْ بِهِ إِطْعَامَ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ...﴾ المائدة: ٨٩، بين صلتها بما قبلها وهو قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَبِيبَتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (٨٧) وكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا...﴾ المائدة: ٨٧ - ٨٨، فقال الشيخ: "بين يدي الآية : إن الله تعالى بين في هذا الموضع أنواعا من الشرائع والأحكام. بقي أن يقال: أي مناسبة بين هذا الحكم وبين ما قبله حتى يحسن ذكره عقبيه؟ فهذا ما يبينه سبب نزول الآية. سبب النزول: عن ابن عباس ؓ قال: لما نزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَبِيبَتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾، في القوم الذين كانوا حرّموا النساء واللحم على أنفسهم قالوا يا رسول الله، كيف نصنع بأيماننا التي حلفنا عليها ؟ فأنزل الله تعالى ذكره: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ الآية" ¹.

سابعاً: بيان مناسبة أجزاء الآية لبعضها البعض:

ومثاله ما جاء في تفسيره لقوله تعالى ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (٨٨) ذلك بما قدّمت أيديكم وأنّ الله ليس بظلام للعبيد﴾ آل عمران: ١٨١-١٨٢، قال الشيخ: "دلالة الآية: ودلّ هذا القول وهذا الفعل على جميع الأقوال والأفعال القبيحة التي صدرت منهم. إذ القول في هذه الآية أشنع الأقوال في الله تعالى، والقتل أشنع الأفعال التي فعلوها مع الأنبياء، وتشريك القتل مع هذا القول يدلّ على أنهما يسببان في استحقاق العقاب. ولما كان الصادر منهم قولاً وفعلًا ناسب أن يكون الجزاء قولاً وفعلًا، فتضمن القول والفعل قوله تعالى ﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾، وفي الجمع بين القول والفعل أعظم انتقام، ويقال للمنتقم منه: أحس وذق. فالخطاب القرآني في هذه الآية تهديد ووعيد في حق الله تعالى؛ ولهذا قرنه بقوله ﴿وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ﴾، أي: هذا قولهم في الله، وهذه معاملتهم لرسول الله، وسيجزئهم الله على ذلك شرّ الجزاء؛ ولهذا قال تعالى ﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾، أي: يقال لهم ذلك تقرّيعاً وتحقيراً وتصغيراً وتهديداً لأنهم حادوا الله ورسوله" ².

¹ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (221/8). وانظر أيضاً: الدر الثمين (395/6).

² المصدر نفسه، (296/6).

وقد يربط الشيخ بين الآية وأسماء الله الحسنى التي ختمت بها الآية، ومثاله ما جاء في تفسير قوله تعالى ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَمَعَشَرُ الْجِنَّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَدُكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ الأنعام: ١٢٨، حيث قال الشيخ: "وختمت الآية بقوله تعالى ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ صفتان مناسبتان لهذه الآية، لأنّ تخليد هؤلاء الكفرة في النار فعل صادر عن حكم وعلم بمواقع الأشياء. وإن تعذيبهم متعلّق بعلمه وحكمته، وكذلك الاستثناء صادر عن علم وحكمة، فهو عليم بما يفعل بهم حكيم في ذلك، وقد ورد في القرآن أن الله إذا ذكر جزاء أهل رحمته وأهل غضبه معا، أبد جزاء أهل الرحمة وأطلق جزاء أهل الغضب"¹.

الفرع الثاني: الاعتناء بالمعنى المتلائم مع الوحدة الموضوعية في السورة:

وقد ظهر اعتناء التواتي بذكر بالمعاني المتلائمة مع الوحدة الموضوعية للسورة ومقصدها فيما يلي:

أولاً: الجمع بين معاني آيات السورة وإزالة الإشكالات في وجه ترابطها:

كان الشيخ أثناء تفسيره لآيات السورة يذكر إشكالات في معاني بعض الآيات ثم يقوم بإزالتها بما يتناسب مع الوحدة الموضوعية للسورة ومقصدها، ويعلّل ذلك بأن لآيات السورة معانٍ تُكَمِّل بعضها بعضاً، فهي كالبنيان المرصوص والبناء المتكامل وليست كل آية مستقلة عن غيرها .

ومثال ذلك ما ذكره الشيخ في تفسيره لقوله تعالى ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ...﴾ الشورى: ٢٧-٣١، حيث ذكر إشكالات في الآية قبلها ثم دفعه بقوله: "بين يدي الآيات: إن الله تعالى لما قال في الآية السابقة إنه يجب دعاء المؤمنين؛ ورد عليه سؤال: وهو أن المؤمن قد يكون في شدة وبليّة وفقر ثم يدعوا فلا يشاهد أثر الإجابة، فكيف الحال فيه مع ما تقدم من قوله ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾؟ فأجاب تعالى عنه بقوله ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ الشورى: ٢٧"².

ثانياً: ترجيح المعنى المتلائم مع الوحدة الموضوعية في السورة: من مظاهر اعتناء الشيخ التواتي بالوحدة الموضوعية في السورة، أنه كان يرجّح المعاني والأقوال المتناسبة مع الوحدة الموضوعية في السورة،

¹ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (9/109)، وانظر مزيداً ممّا ذكره الشيخ حول مناسبة أجزاء الآية لبعضها البعض: (6/135)،

(7/14 و66)، (8/378)، (10/46)، (12/200)، (17/23)، (19/490).

² المصدر نفسه، (17/265).

ويتمثل ذلك في سياق الآية وسباقها ولحاقها. ومثال ذلك ما جاء في تفسيره قوله تعالى ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ البقرة: ١٢١، فإن الشيخ لما فسرها ذكر اختلاف المفسرين في سبب نزولها؛ فحكى عن: ابن عباس أنها نزلت في مؤمني اليهود، وقيل: نزلت في مؤمني أهل الكتاب، وقال عكرمة وقتادة: في المؤمنين من أصحاب رسول الله ﷺ¹، فعلى القول الأول والثاني يكون المقصود من الكتاب في الآية هو التوراة، وعلى القول الأخير يكون المراد به القرآن الكريم²، وبناء على ذلك بين الشيخ وجود اختلاف بين المفسرين في تفسير الآية وبيان معناها، ثم رجع أحد هذه الأقوال بالنظر لسياق الآية وسباقها ولحاقها فقال: "والأصح أنه لما قدّم ذكر المعاندين من أهل الكتاب أراد أن يذكر مؤمنهم. وهذا القول أولى بالصواب من القول الذي قاله قتادة، لأن الآيات قبلها مضت بأخبار أهل الكتابين. وتبديل من بدل منهم كتاب الله وتأولهم إياه على غير تأويله، وادّعائهم على الله الأباطيل، ولم يجر لأصحاب النبي ﷺ في الآية التي قبلها ذكر، فيكون قوله تعالى ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾، موجّهاً إلى الخبر عنهم، ولا لهم ذكر في الآية التي تتلوها، فيكون موجّهاً ذلك إلى أنه خبر مبتدأ عن قصص أصحاب رسول الله ﷺ بعد انقضاء قصص غيرهم، ولا جاء بأن ذلك خبر عنهم أثر يجب التسليم له. فإذا كان ذلك كذلك، فالذي هو أولى بمعنى الآية أن يكون موجّهاً إلى أنه خبر عمّن قصّ الله جلّ ثناؤه قصصهم في الآية قبلها والآية بعدها، وهم أهل الكتابين: التوراة والإنجيل. وإذا كان ذلك كذلك، فتأويل الآية: الذين ءاتيناهم الكتاب الذي قد عرفته يا محمد -وهو التوراة- فقرأوه واتبعوا ما فيه، فصدّقوا وآمنوا بك، وبما جئت به من عندي، أولئك يتلونهم حق تلاوته"³. وقد رجع هذا القول غير واحد من المفسرين بنفس العلة التي رجّح بها التواتي، كما جاء في التفسير الوسيط: "وهذا الحمل خطأ، فإنّ عُرِفَ القرآن: على أن أهل الكتاب هم: اليهود والنصارى ولم يذكر المسلمون فيه. إلا بعنوان المسلمين والمؤمنين. كما أن السياق واللاحق، في بني إسرائيل فلا وجه لما قاله هؤلاء المفسرون"⁴.

ثالثاً: بيان الحكمة من تكرار الآيات في السورة الواحدة: وهذا ممّا يؤكد مفهوم الوحدة الموضوعية في السورة القرآنية، فالآيات التي تكرّرت فيها لحكمة وفائدة، ومثال ذلك ما جاء في تفسيره لقوله تعالى

¹ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (392/2) بتصرف.

² زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي، (107/1).

³ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (394/2)، وانظر مزيداً من الأمثلة: (361/2-362)، (369/8).

⁴ التفسير الوسيط للقرآن الكريم، مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، ط: 1، سنة: 1993م، (185/1).

﴿كَذَبَتْ ثُمُودُ بِالنُّذُرِ... إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةَ فِتْنَةً لَهُمْ فَأَرْتَقِبَهُمْ وَاصْطَبِرْ ٢٧﴾ وَيَنْتَهُمُ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرْبٍ مُّخْتَصِرٌ ٢٨ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِي ٣٠﴾ القمر: ٢٣-٣٢، حيث ذكر الحكمة من تكرير الاستفهام عدة مرات في السورة وعنون لذلك بسؤال ثم أجاب عنه فقال: "الحكمة من التكرار: السؤال هنا؛ ما الحكمة في تكرير ما كرّر في هذه السورة من الآي؟ والجواب أن فائدته تحديد التنبيه على الإدّكار والاتّعاظ والتوقيف على تعذيب الأمم السالفة ليعتبروا بحالهم، وطالما قرعت العصا لذوي الحلوم وأصحاب النهي، وهكذا حكم التكرير في سورة "الرحمن" عند عدّ كلّ نعمة، وفي سورة "المرسلات" عند عدّ كلّ آية لتكون مصورة للأذهان محفوظة في كلّ أوان. ونفس هذه القصص كم كرّرت في القرآن بعبارات مختلفة أوجز وأطنب؛ لأن التكرير يوجب التقرير، والتذكير ينبه الغافل على أن كلّ موضع مختص بمزيد فائدة لمن يعرف من غيره، وإنما كرر قوله تعالى ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِي﴾ مرتين في قصة عاد؛ لأن الاستفهام الأول أوردته للبيان كما يقول المعلم لمن لا يعرف كيف المسألة الفلانية ليصير المسؤول سائلا، فيقول: كيف هي؟ فيقول المعلم: إنها كذا وكذا، والاستفهام الثاني للتوبيخ والتخويف. فأما في قصّة ثمود فاقصر على الأول للاختصار؛ وفي قصة نوح اقتصر على الثاني لذلك، ولعله ذكر الاستفهامين معا في قصة عاد لفرط عتوّهم وقولهم ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ فصلت: ١٥¹.

¹ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (391/18)، وينظر أيضا: الحكمة من تكرار قوله تعالى ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ الرحمن: ١٣، (436/18)، والحكمة من تكرار قوله تعالى ﴿يَبْنَئِ إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ البقرة: ٤٧، (399-398/2).

خلاصة الفصل الثالث:

برز الاتجاه الاجتماعي في تفسير الشيخ التواتي -حفظه الله- من خلال توظيفه مجموعة من المعالم الخادمة لهذا الاتجاه، وقد كانت هذه المعالم متنوعة، فبعضها تعلق بأسس بناء المجتمع وقيام الأسرة المسلمة، وأخرى تعلقت بربط القرآن بأحوال المجتمعات، وثالثة متعلقة بإعجاز القرآن الكريم، ورابعة متعلقة بالوحدة الموضوعية في القرآن الكريم بمجموعه أو بسوره، وهذا كله يبيّن لنا بوضوح اهتمام التواتي بهذا الاتجاه التفسيري المهم.

ويبقى معلم آخر وهو معلم "تنزيل الآيات على الواقع"، والذي سبق بيانه والحديث عنه من الناحية التنظيرية، ويبقى الحديث عن تطبيقاته عند الشيخ التواتي، وهو الأمر الذي سيأتي بيانه في الفصل الموالي.

الفصل الرابع:

تنزيلات التواتي بن التواتي للآيات على الواقع من خلال

تفسيره "الدرّ الثمين"

ويحتوي هذا الفصل على أربعة مباحث هي:

المبحث الأول:

التنزيلات المتعلقة ببيان الأحكام الشرعية لمسائل فقهية وعقدية.

المبحث الثاني:

التنزيلات المتعلقة بأحوال المنتسبين للأمة الإسلامية.

المبحث الثالث:

التنزيلات المتعلقة بالأحوال العامة للأمة الإسلامية.

المبحث الرابع:

التنزيلات المتعلقة بالمجتمعات غير الإسلامية.

تمهيد:

يعتبر معلم "تنزيل الآيات على الواقع" من أبرز معالم الاتجاه الاجتماعي في التفسير، ذلك أن المفسر عند تفسيره للآيات لا يقتصر على بيان معناها فقط بل تراه يقوم بعملية ربط تلك المعاني بالواقع الذي يعيشه المفسر، إما ببيان موافقتها أو مخالفتها -وهو الأكثر-، حيث يجعل معاني القرآن وهداياته مبدأ ومرجعاً ينطلق منه المفسر من أجل الكشف عن علل واقعه، فتجده يصف الداء من الواقع ثم يسعى لأن يكشف عن الدواء من القرآن، وهذه أبرز ميزة تميّزت بها التفاسير الاجتماعية الإصلاحية.

وبعد استقراء تفسير الشيخ التواتي، وجدته اهتمّ بهذا المعلم المهمّ أيّما اهتمام وفي شتى المجالات والمواضيع، فرأيت تخصيصها بفصل كامل نظراً للمادة العلمية الغزيرة، وهذا يضاف إلى ما ذكرته في الفصل السابق من التنظير لهذا المعلم عند التواتي وغيره. وقسمت هذا الفصل حسب مواضيع التنزيلات التي اجتهدت في جمعها فانتظمت تحت أربعة محاور، انطوت تحت أربعة مباحث.

وتفصيل هذه المباحث كما يلي:

المبحث الأول: التنزيلات المتعلقة ببيان الأحكام الشرعية

لمسائل فقهية وعقدية.

اهتمّ الشيخ التواقي -حفظه الله- ببيان الأحكام الشرعية التي تضمنتها الآيات القرآنية سواء آيات الأحكام أو غيرها، وكثيراً ما ركّز حديثه على بيان أحكام بعض المسائل التي يمكن أن تكون نوازل ومستجدّات وقعت في زمنه، أو هي مسائل قديمة تجددت بعض صورها، أو كثرت وشاعت وترتّبت عليها مفسدات معيّنة فرأى وجوب التنبيه عليها؛ وذلك بتقرير الأحكام الشرعية المتعلقة بتلك المسائل، أو بالردّ على من يخالفها، وقد نبّه على ضرورة الربط بين درسي التفسير والفقه فقال: "أدعوكم إلى ربط تدريس التفسير بدرس الفقه كما وجهنا الشيخ أحمد قصبية -رحمه الله-"¹.

وقد قسمت التنزيلات التي تضمنها هذا المبحث إلى ثلاثة مطالب هي:

المطلب الأول: بيان الأحكام الشرعية لمسائل فقهية.

المطلب الثاني: الردّ على فتاوى باطلة متعلّقة بمسائل فقهية.

المطلب الثالث: بيان الأحكام الشرعية لمسائل عقدية.

تفصيلها كما يلي:

المطلب الأول: بيان الأحكام الشرعية لمسائل فقهية:

تنوعت تنزيلات الشيخ التواقي المتعلقة ببيان الأحكام الفقهية لبعض النوازل التي رأى أهمية الحديث عنها في درسه التفسيري، فبيّن حكمها وما ينبغي معرفته فيها وما ينبغي تركه منها. وقد قسمت تلك المسائل على حسب الباب الفقهي الذي تتعلق به، فجاءت في ثلاثة فروع هي:

الفرع الأول: المسائل المتعلقة بالأحوال الشخصية والأسرية:

تحدث التواقي عن بعض المسائل التي تتعلّق بالأحوال الشخصية والأسرية التي شاعت في زمانه، وربطها بالآيات القرآنية، وأهم تلك المسائل هي:

أولاً: مسألة: قتل الأولاد وصوره المعاصرة:

لا شك أن إنجاب الأولاد وتحسين تربيتهم من أعظم الأعمال الصالحة التي يدعوا إليها الإسلام، ولا أدلّ على ذلك من قول الرسول ﷺ «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث... وولد صالح يدعوا

¹ الدرّ الثمين، التواقي بن التواقي، (217/4).

له¹، وقد نبّه مفسّرنا على بعض التصرفات الخاطئة للوالدين في تربية أبنائهم ووصفها بأنّها قتل للأولاد لأنّها تشترك مع القتل الحقيقي في عدم الانتفاع بهم وتحقيق المقصود من إنجابهم، وذلك عندما فسّر قوله تعالى ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ الأنعام: ١٤٠، عنون للآية بعبارة "توجيه الآية حسب الواقع"، ثم قال: "لنتدبّر الآية بعمق، ويتأمل ما وراء قوادمها من خوافيها من توجيه حكيم، وبيان دقيق لحالنا وواقعنا، وذلك أن خسران الأولاد يستلزم خسران كلّ ما كان يُرجى من فوائدهم من العزّة والنصرة، والبر والصلة والفخر والزينة والسرور والغبطة، كما يستلزم خسران الوالد القاتل لعاطفة الأبوة ورأفتها... ولذلك علّل هذا الجرم بسفه النفس وهو اضطرابها وحماقتها، وبالجهل أي: عدم العلم بما ينفع ويضرّ وما يحسن ويقتبح.

– أفلا نقول لمن ترك أولاده لضياح في الشوارع والطرق بدون توجيه ولا مراقبة، ولا تربية صالحة قد قتل أولاده.

– أفلا نقول لمن ترك أولاده للمخدرات والحشيشة بدون مراقبة قد قتل أولاده.

– أفلا نقول لمن غدّى أبنائه من الكسب الحرام ومن الربا والقمار والرشوة والسرقه وغيرهم من الطرق غير المشروعة قد قتل أولاده... يامن أنت غافل عن توجيه أولادك فهم أمانة فُصّنها، فإنّ معنى الآية ينطبق عليك فكن على حذر من عقاب ربك، فإن عين الله لا تنام².

ثانيا: مسألة التبنّي "معضلة العصر" :

التبني هو: ادعاء الرجل أو المرأة من ليس ولدا لهما³. وقد كان هذا الأمر موجودا في الجاهلية وصنّدر الإسلام، ذلك أنّ النبي ﷺ تبّى زيد بن حارثة قبل النبوة، وكان يُدعى «زيد بن محمد»، فأبطلت الشريعة نظام التبني لما فيه من اختلاط الأنساب وأكل حقوق أصحابها وغير ذلك⁴.

وقد تحدث مفسّرنا التواتي عن هذه المسألة مطولا وجعل لها عنوانا واضحا في تفسيره بقوله "أحكام التبنّي". والذي يهمنا من ذلك ما تعلق بالتنزيلات المعاصرة؛ فأهم العناصر التي تناولها عنه هي:

¹ رواه مسلم في صحيحه، كتاب: الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، رقم: 4310.

² الدرّ الثمين، التواتي بن التواتي، (9/135-136).

³ الموسوعة الفقهية الكويتية، مجموعة من المؤلفين، (10/120).

⁴ الفقه الإسلامي وأدلته، وهبة الزحيلي، دار الفكر، سورّة، دمشق، ط: 4، (2/10).

1- وصف التبيّن بأنه "معضلة العصر" وأوضح الفرق بين ما هو عليه اليوم وما كان عليه في صدر الإسلام فقال: "التبني: معضلة هذا العصر، فلم يعد التبني مثلما كان في صدر الإسلام من تبني يتييم وطفل لا عائل له، وتنازل عائلة على أحد أفرادها لمن لم يرزق ولدا، يقوم بتربيته وتنشئته والقيام بشأنه، فهذا أجر عظيم ودليل تراحم وتعاون بين أفراد المجتمع"¹. أما التبني الذي يقصده الشيخ في هذا العصر فهو الذي صار فيه الطفل ينسب لغير أبيه فيرثه كما يرثه ابنه الحقيقي.

2- بيانه لبعض الأحكام الشرعية المتعلقة بالتبني؛ حيث عرّفه وبين حكمه، وذلك عندما فسر قوله تعالى ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾² أدعواهم لإبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعاموا آبائهم فإخوانكم في الدين ومواليكم³ الأحزاب: ٤-٥، فقال معرّفاً له: "التبني: اتخاذ الشخص ولد غيره ابناً له، وكان الرجل في الجاهلية يتبني الرجل فيجعله كالابن المولود له، ويدعوه إليه الناس ويرث ميراث الأولاد"²... وغلب في استعمال العرب لفظ (ادعاء) على التبني، إذ جاء في مثل (ادعى فلان فلانا)، ومنه (الدعي) وهو المتبني³، قال الله تعالى ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾⁴.

وقال في بيان حكم التبني ودليل تحريمه في الإسلام: "أمر محظور شرعاً بقوله تعالى ﴿أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ﴾⁵ هو أقسط عند الله فإن لم تعاموا آبائهم فإخوانكم في الدين ومواليكم⁶، وقد أبطل الإسلام نظام التبني الذي كان متبعاً وشائعاً بين العرب في الجاهلية، وقد جرى العمل بنظام التبني الذي جرى في عرف العرب وعاداتهم فترة من الزمن في صدر الإسلام، ثم نسخ حكم التبني وأبطل العمل به"⁵.

3- حديثه عن موضوع الكفالة⁶، وإنما خصها الشيخ بالحديث لأنها قد تلبس مع التبني فأزال الالتباس وبين شروطها والفرق بينهما، فقال: "إلا أنّ الشرع قد حدّد شروطاً منها: أن يُنسب الطفل

¹ الدر الثمين، التواقي بن التواقي، (198/15).

² هذا التعريف مأخوذ من تفسير "لباب التأويل" للبخاري، لكن التواقي لم يُجَلِّ إليه لأنه اكتفى بذكر مصادره في بداية التفسير. ينظر:

لباب التأويل في معاني التنزيل، الخازن، ت: علي شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 1، سنة: 1415هـ، (409/3).

³ يطلق لفظ "الدعي" على المتبني كما ذكر الشيخ، ويطلق على غيره فيقصد به: المتَّهَم في نسبِهِ والمنسوب إلى غير أبيه. ينظر: المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وغيره، (287/1).

⁴ الدر الثمين، التواقي بن التواقي، (198/15).

⁵ المصدر نفسه، (199/15).

⁶ والكفالة هي: بذل المكلف مَالاً أو مَنْفَعَةً لغيره في الحال أو المآل بلا عَوَض، بِقَصْدِ الرِّبِّ والمعروف غالباً. ينظر: موقع دار الإفتاء

المصرية، المفتي: شوقي إبراهيم علام، رقم الفتوى: 6280، تاريخ الفتوى: 15 ديسمبر 2015، الرابط: <https://www.dar->

الذي هو في حضن الكافل له إلى أهله الأصليين، ولا حقّ في نسبته إليه لما في ذلك من هضم لحقوق الغير، ولما فيه من مخالفة الشرع إذ الأمر واضح في هذه المسألة، وذلك بقوله تعالى ﴿أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ وهكذا تكون الشريعة قد قضت على التبنّي - أي: البنوة الادعائية التي لا حقيقة لها- الذي كان سائدا في زمن الجاهلية واستمرت في صدر الإسلام¹.

ثالثا: قضية التساهل في أمر الطلاق والتسرّع فيه:

تعتبر ظاهرة الطلاق في المجتمعات المعاصرة من الظواهر المتفشية والشائعة شيوعا رهيبا، وإذا ما تحدّثنا عن المجتمع الجزائري فإن الأمر خطير، إذ تسجل آلاف الحالات كلّ سنة، ففي سنة: 2005 بلغت نسبة الطلاق: 31021 حالة، ولا زالت ترتفع إلى أن بلغت سنة: 2016، 62128 حالة²؛ وهي الفترة التي ألف فيها الشيخ التواقي تفسيره، ولذلك فإنه لم يُقوّت الفرصة للحديث عن هذه الظاهرة وتنزيل الآيات عليها، فذمّ ما انتشر بين الناس من الاستهانة بالطلاق، وذلك عند تفسيره لقوله ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿البقرة: ٢٣٠، حيث قال: "وإن كثيرا من الناس ليسارعون إلى التلقّظ بالطلاق وكأنه أمر سهل، وإنما الطلاق ليَهْتَرُ منه عرش الرحمن، وهو آخر دواء يُلجأ إليه حين تُسدُّ كلّ المنافذ وتستحيل العشرة بين الزوجين، فليحذر الناس"³.

ولم يُغفل الشيخ الحكمة من تشريع الله سبحانه للطلاق إذ قد يكون حلاّ مريحا لكلّ من الطرفين عند استحالة العشرة بينهما، لذا ينبغي استعماله في الوقت الصحيح والابتعاد عن التلاعب به، واستعماله لأسباب تافهة، وذلك عند تفسيره لقوله تعالى ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا

16791/alifta.org/ar/fatawa/ وقد ذكر الخطيب الشربيني أن الكفالة مرحلة تأتي بعد الحضانة التي تنتهي في الصغير بالتميز، فتليها الكفالة التي تبدأ من التمييز إلى البلوغ فتسمى كفالة. ينظر: مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، الخطيب الشربيني، دار الكتب العلمية، ط: 1، سنة: 1415هـ - 1994م (5/ 191).

¹ الدر الثمين، التواقي بن التواقي، (15/ 198-200).

² مقال بعنوان "تطور حالات الطلاق في المجتمع الجزائري قراءة سوسيو أنثروبولوجية في المؤشرات الإحصائية، تأليف: سراج جيلالي، سعيد محمد، مجلة: أنثروبولوجية الأديان، الصادرة عن جامعة أبي بكر بلقايد - تلمسان -، المجلد: 18، العدد: 1، بتاريخ:

15-01-2022، الرابط: <https://www.asjp.cerist.dz/en/article/176810>.

³ الدر الثمين، التواقي بن التواقي، (4/ 143).

إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿البقرة: ٢٢٨﴾، حيث قال: "أيها الناس إن الله جعل الطلاق راحة للطرفين ولم يجعله أمرا للتلاعب كما يتصوره بعض الناس، وإن الطلاق ليهتئ منه عرش الرحمن، مع هذا فقد جعله الله حلاً حين تَعَسَّرَ العِشرة بين الزوجين، فأباحه لهما ليستريح كل من صاحبه، لكن الشرع جعل أسبابا يجب مراعاتها، فإن قضايا في الطلاق تَرِدُ إلي من بعض الناس تدل على استهانتهم بهذه المسألة، إذ لم تكن هناك أسباب حقيقية تجعل الرجل يتلفظ بالطلاق، ونسي هؤلاء: أنه أبغض حلال عند الله¹، وأن الله لعن الذواقين والذواقات²، وكل هذه أحاديث واردة عن رسول الله ﷺ. فاتقوا الله عباد الله، وتذكروا أنّ هناك أبناء بالطلاق يُصْبِحون عُرضة للتشرد والضّياع فخافوا الله فيهم فهم أمانة"³.

رابعا: مسألة: الحجاب وبعض صورته المعاصرة:

أمرت الشريعة الإسلامية المرأة بالستر ونحتها عن السفور، من خلال الحجاب الشرعي، الذي يجب أن تتوفر فيه شروطا ليُسمّى حجابا شرعيا، مجملها:

- استيعابه لجميع البدن إلا ما استثنى.

- أن لا يكون زينة في نفسه.

- أن يكون فضفاضا غير ضيق.

- أن لا يشبه لباس الرجل أو الكافرات.

- أن لا يكون مبخرًا مُطَيِّبًا ولا لباس شهرة⁴.

ولم يغفل الشيخ هذه المسألة أثناء دروسه التفسيرية؛ فحينما فسر آية الحجاب ربطها بواقع مجتمع النساء في زمنه، حيث ظهرت موضة الحجاب فتغيرت النساء وصار حجابهن فتنة للرجال. وذلك عند تفسيره لقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ

¹ وهو يشير إلى الحديث المشهور: "أبغض الحلال إلى الله الطلاق"، رواه أبو داود في سننه، كتاب "الطلاق"، باب في كراهية الطلاق، برقم: 374. وقال فيه الألباني: "هذا إسناد موصول، ولكنه شاذ كما ذهب إليه جماعة من الأئمة، وقالوا: الصواب مرسل"، ينظر: ضعيف أبي داود، (2/228).

² وهو يشير إلى حديث: "تزوجوا ولا تطلقوا؛ فإن الله لا يحب الذواقين والذواقات" يعني: السريعي النكاح السريعي الطلاق، ذكره البرهان فوري، في كتابه "كنز العمال"، الكتاب الثاني من حرف الطاء، كتاب: الطلاق من قسم الأقوال، الفصل الثاني في التهيب عن الطلاق، برقم: 27873. قال فيه الألباني: "ضعيف". ينظر: ضعيف الجامع الصغير وزيادته، (ص: 358).

³ الدر الثمين، التواقي بن التواقي، (4/127).

⁴ مختصر كتاب جلاب المرأة المسلمة، الألباني، اختصره: حسام الدين عفانة، ط: 1، سنة: 1998م، (ص: 16-65).

جَلَبِيْهِنَّ ذَٰلِكَ أَذَىٰ أَنْ يُعْرِفَ فَلَا يُؤْذِيَنَّ وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ الأحزاب: ٥٩، حيث قال: "قال ابن عباس وعبيدة: أمر الله النساء المؤمنات أن يغطين رؤوسهنّ ووجوههنّ بالجلابيب، ويبدن عينا واحدة تُبصر بها، وهذه الكيفية هي التي كانت سائدة في مجتمعنا الذي يعرف للقيم معنى وتوجيه حرمة وتقدير، حتى وقد علينا هذا النوع ما يسمى "حجاب" وهو أقرب للفتنة منه إلى الحجاب"¹، فهذا الكلام يدل على تذمر الشيخ من صور الحجاب المعاصرة التي تفتن ولا تستر.

وفي مقابل ذلك ذكر بعض صور الحجاب الشرعي في زمنه تشجيعا للنساء عليها، لأن العبرة بالحقيقة لا بالمسميات، فقال: "وكذلك ما يسمى "بالنقاب" فهو كيفية مسموعة عن السلف الصالح معمول بها في زماننا، ودليل مشروعية هذه الكيفية ما رواه ابن عباس رضي الله عنه وقائدة: وذلك أن ثلويه فوق الجبين ونشده، ثم تعطفه على الأنف وإن ظهرت عيناها، لكنه يستر الصدر ومعظم الوجه"².

الفرع الثاني: مسائل متعلقة بالمعاملات المالية:

تحدث التواقي عن عدّة مسائل تتعلّق بالمعاملات المالية المعاصرة وربطها بالآيات القرآنية، وهي:

أولاً: أحكام بعض صور الربا المعاصرة مع تفنيد الشبه التي تثار حولها:

تعتبر مسألة الربا والبنوك المعاصرة وصيغ معاملاتها والتعامل معها من أهم المسائل التي تحدث عنها العلماء والفقهاء المعاصرون، وذلك لشيوع التعامل بها وسط الناس وعدم مبالاةهم بمصدر مالهم، مصداقاً لقول النبي ﷺ «لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ، لَا يُبَالِي الْمَرْءُ بِمَا أَخَذَ الْمَالَ: أَمِنْ حَلَالٍ أَمْ مِنْ حَرَامٍ»³، وهذا الوصف ينطبق تماماً على عصرنا الحاضر، ولذا فإن الشيخ التواقي نزل كثيراً من الآيات على صور الربا المعاصرة وأحكامها. وقد تناولت تنزيلاته لهذه المسألة عدّة جوانب هي:

1- بيان حكم استثمار المال في البنوك الربوية مقابل الفوائد: تحدث الشيخ عن حكم التعامل مع البنوك الربوية بالفوائد وبين أنها كبيرة من الكبائر، حيث يؤدع الشخص مبلغاً من المال فيرجع له بأكثر من ماله وهذا هو عين الربا، ولذا حذر من ذلك وبين بشاعته لما فسّر قوله تعالى ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا﴾ وَيُرِي الصَّدَقَاتِ ٢ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ البقرة: ٢٧٦، فقال: "ومن المعلوم عند أهل العلم بالشرعية الإسلامية أن استثمار الأموال في البنوك بفائدة ربوية محرم شرعاً، وكبيرة من الكبائر. وفي

¹ الدر الثمين، التواقي بن التواقي، (298/15-299).

² المصدر نفسه، (298/15).

³ رواه البخاري، كتاب: البيوع، باب: السهولة والسماحة في الشراء والبيع ومن طلب حقاً فليطلبه في عفاف، برقم: 1977.

الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «اجتنبوا السبع الموبقات ... وأكل الربا»¹. والآيات والأحاديث في التحذير من الربا وبيان عواقبه الوخيمة كثيرة جداً، ... وليكن في علمكم أيها السادة أن هناك نصاً ثابتاً عن رسول الله ﷺ يصوّر الربا في أبشع صوره تبصرة لذي بصيرة وتذكّرة وتوجيهاً لمن في قلبه ذرّة من الإيمان قال رسول الله ﷺ: «أهون الربا كالذي ينكح أمه»² 3.

كما استغل المعنى المتضمن في قوله تعالى ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ القصص: ٦٠، فحثّ على السعي للكسب الحلال وترك اللّهث وراء الدنيا واستجلاب المال ولو بطريق حرام كما هو الحال في التعامل مع البنوك الربوية، فقال: "وهذا لا يعني أن المرء لا يعمل ليكف نفسه عن السؤال، ويحفظ ماء وجهه عن المسكنة ومد اليد للناس «إن شاءوا أعطوه وإن شاءوا منعه»⁴، ولكن عليه أن يطلبها من حلّها، واعلموا أن المنهي عنه أن يطلبها من سبل الحرام: كالبنوك الربوية، وأن تكون هي الغاية وهي المنتهى فذلك ما ينهى عنه شرعاً"⁵.

2- بيان بعض صور الربا المعاصرة: تعدّدت صور الربا في العصر الحديث لكثرة المعاملات المالية، ولذلك لم يفوّت مفسرنا الحديث عن بعض تلك الصور والتحذير منها لما جاءت المناسبة عندما فسر قوله تعالى ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ البقرة: ٢٧٥، فذكر صورتين هما: ربا الديون عند البنوك الربوية، وبطاقة الائتمان. أما الصورة الأولى فيقول الشيخ التواتي في بيان صورتها وحكمها: "ربا الديون: وهو الذي تمارسه البنوك الربوية، وهو القرض الذي يجزّ منفعة وتقوم عليه البنوك الكبرى، والقاعدة العامة في الشريعة "كلّ قرض جر نفعا فهو ربا"⁶، والقرض يجب أن لا يكون معه أيّ نفع بل بذل مجّاني، ومحض إحسان، حتى لو كان النفع بعقد ثان مقرون بعقد القرض فإنه ربا، ومثاله: نبيعك الأرض بالدين بشرط أن نكون نحن الذين نبنّيها لك، وهذا لا يجوز لأنه جرّ نفعا، وأن

¹ رواه البخاري، كتاب: الوصايا، باب: قوله تعالى {إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون}، برقم: 2615.

² رواه أبو الشيخ في "التوبيخ" عن أبي هريرة. ينظر: كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال (600/3). وقال فيه الألباني: "حسن"، صحيح الجامع الصغير وزيدته، (496/1).

³ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (514/4).

⁴ رواه البخاري في صحيحه، كتاب: الزكاة، باب: الاستعفاف عن المسألة، برقم: 1471.

⁵ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (368/14).

⁶ هذه قاعدة فقهية، ورؤيت مرفوعة عن النبي ﷺ أنه قال: "كلّ قرض جر منفعة فهو ربا". قال الألباني: "ضعيف". ينظر: الجامع الصغير وزيدته، (ص: 973).

هذا الشرط قد أفسد العقد وجعله مظنة ربية، ولذلك شجبه¹ الشرع وعدّه من المعاملات الربويّة المحرّمة².

-وأما الصورة الثانية: وهي بطاقة الائتمان³، فيقول فيها: "ومن الأمثلة المعاصرة المثيرة للجدل بطاقة الائتمان التي فيها سحب على المكشوف، بمعنى: أنه لا يكون ثمة رصيد عندك، فهم يديّنونك من مال البنك إذا سحبت في حال لم يكن رصيدك فيه شيء -أو يكون لديك رصيد ولكن السحب لا يكون من رصيدك فوراً وإنما من شركة الفيزا بالتعاون مع البنك- ثم إذا نزل راتبك أو لاحقاً سحبوا منه ما أقرضوك وأخذوا زيادة وقالوا هذه عمولة⁴. ثم هم فوق ذلك ينتفعون أيضاً من جهة أخرى؛ حيث تبقى أموالك عندهم يستثمرونها، فلو لم تكن أموالك عندهم لم يعطوك هذا الدين، فهم إذاً إنما أعطوك مقابل نفع لهم.

وهناك نوع آخر من النفع وهو الاشتراك السنوي لهذه الفيزا، فلو فرضنا أن مائة ألف شخص دفعوا 60 ديناراً، فالجموع هو ستة ملايين ديناراً سنوياً، وهو مبلغ كبير انتفع به البنك وأعطاك بطاقة يمكن أن تستدين بها، فهل هذا كله من باب النفع الذي يأتي به الدين؟ وبالتالي تكون بطاقة الائتمان التي تُمكن العميل من السحب على المكشوف محرمة؟، أم هي عمولة مقابل تسهيل الوصول المال في هذا العالم المعقد؟، هذه مسألة نازلة اختلف فيها العلماء، وهي بحاجة إلى بحث⁴.

وقد بحث هذه المسألة عدّة باحثين معاصرين ومجامع فقهية، وخلاصة ما ذُكر فيها أنه يجوز إصدار بطاقة الائتمان المغطاة والتعامل بها إذا لم تتضمن شروطها دفع الفائدة الربويّة عند التأخّر في السداد، ويجوز البيع والشراء بها في السلع والذهب والعملات، ولا مانع من منّح حاملها امتيازات غير محرّمة كالتخفيض في الأسعار، وأخذ التاجر على مُصدرها نسبة معينة مقابل تلك الخدمة⁵.

3- تفنيد شبه من زعم بأن القرض بفائدة ليس ربا: من المسائل المهمة التي تحدّث عنها مفسرنا في موضوع الربا؛ الردّ على أدلّة من أجاز العقود الربوية كونها ليست بيعاً، وبيّن وجه كونها ربا، فقال: "وزعم

¹ شجب: الشين والجيم والباء كلمتان، تدلّ إحداها على تداخل، والأخرى تدلّ على ذهابٍ وُطْلان. فهي هنا بمعنى: أبطل وأذهب. ينظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، (193/3).

² الدر الثمين، التواقي بن التواقي، (4/535-536).

³ بطاقة الائتمان: هي مستند يعطيه مصدره لشخص طبيعي أو اعتباري بناء على عقد بينهما، يمكنه من شراء السلع أو الخدمات ممن يعتمد المستند دون دفع الثمن حالاً، لتضمنه التزام المصدر بالدفع. الفقه الإسلامي وأدلّته، الزحيلي، (7/5198).

⁴ الدر الثمين، التواقي بن التواقي، (4/535-536).

⁵ موسوعة الفقه الإسلامي، محمد بن إبراهيم التويجري، (3/490).

بعضهم من أن القرض بفائدة ليس من باب الربا؛ لأن الربا عقد بيع لا بد له من صيغة أو ما يقوم مقامها، وما يتعامل به من الناس الآن من أخذ المال قرضا بفائدة ليس بيعا، وقد صرح الشافعية بذلك، ولكن قد فات هذا القائل أن الفقهاء الذين قالوا: إن مثل ذلك ليس بعقد، قالوا أيضا: إنه من باب أكل أموال الناس بالباطل، وإن مضار الربا الذي حُرِّم من أجلها متحقق فيه فحرمته كحرمة الربا وإثمه كإثمه فالمسألة شكلية لا غير، وأما تحريم ربا النساء من السنة فقد وردت فيه أحاديث كثيرة صحيحة. ومنها في الذهب والفضة قوله: ﴿الذهب بالذهب ربا إلا هاء بهاء﴾¹، ومعناها: خذ وهات يدا بيد فهي اسم فعل².

ثانيا: أضرار المعاملات الربوية والدعوة إلى التوبة منها:

1- أضرار المعاملات الربوية: من مسائل الربا التي تحدث عنها التواتي؛ التنفير من الربا وبيان أضراره على مستوى الفرد والمجتمع كيف لا؟ وقد جاء التصريح بكونها تؤذن بالحرب في القرآن الكريم، كما قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴿ البقرة: ٢٧٨-٢٧٩، يقول القرطبي: " هذا وعيد إن لم يذروا الربا، والحرب داعية القتل"³، وفي هذا المعنى يقول التواتي لما فسّر قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن مِّنْ أَرْوَاحٍ مِّنكُمْ وَأَوَّلَادِكُمْ ءَعَدُوا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ التغابن: ١٤: " انتبهوا أيها الناس فإن الآية تحذير من الله حتى لا تقعوا فيما لا يُحمد عقباه، وإياكم والتعامل الربويّ، فهو سبب فساد المجتمع واخلال الأخلاق، وله أضرار جسيمة منها: قسوة القلب وذهاب الخشية، والتطاول على العباد، وإن كثيرا من أهل زماننا تلبّس بهذا الأمر فتلبّس فكان للشيطان قرين"⁴.

2- الحث على التوبة من الربا: ممّا يدل على حكمة الشيخ التواتي في تفسيره وإرادته الهداية للخلق، أنه كان يحثهم على التوبة ويفتح لهم باب الأمل حتى في الذنوب العظيمة مثل الربا، حيث رغب المتلبّسين به في التوبة إلى الله تعالى أفرادا وهيئات، فعندما فسّر قوله تعالى ﴿يَمَحُقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الصَّدَقَاتِ﴾ البقرة: ٢٧٦، قال: " فالواجب على كلّ من يتعاطى ذلك من الشركات وغيرها التوبة إلى

¹ رواه البخاري في صحيحه، كتاب: البيوع، باب: ما يذكر في بيع الطعام والحكرة، برقم: 2134.

² الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (518/4).

³ الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله القرطبي، (363/3).

⁴ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (204/19).

الله من ذلك وترك المعاملة به مستقبلا طاعة لله سبحانه وتعالى ولرسوله ﷺ، وحذرا من العقوبات المترتبة على ذلك، وابتعادا عن الوقوع فيما حرم الله عملا¹.

الفرع الثالث: مسائل متعلقة بأحكام فقهية متفرقة:

تضمن هذا الفرع ثلاث مسائل فقهية متنوعة، وهي كالآتي:

أولا: مسألة: جواز سياقة المرأة للسيارة:

من المسائل المستجدة والتي تحدث عنها الفقهاء المعاصرون؛ مسألة: حكم سياقة المرأة للسيارة، فمنهم من أجاز ذلك بناء على الأصل وهو الإباحة، فهي كركوب سائر الرواحل، ومنهم من منع من ذلك لعل وأضرار بنوا عليها حكمهم². والذي يهمننا في هذا المقام هو رأي الشيخ التواتي الذي أجاز للمرأة أن تسوق السيارة قياسا على ركوب النساء الدواب زمن الصحابة، لكن بشرط التزامها بالحياء، ولذا فإنه لما فسر قوله تعالى ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾^(٥١) وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ المؤمنون: ٢١-٢٢، قال: "إني لا أدعوا إلى منع المرأة سياقة السيارة كما يظنه البعض أن سياقتها للسيارة خدشا في مروءتها وفي أخلاقها، نتبوني رحمكم الله، أليس الفرس في القديم هو السيارة اليوم؟ فما فعلت خولة بنت الأزور حين اقتحمت جيوش الروم لتفك أسر أخيها، حتى قال خالد بن الوليد ﷺ حين رآها: تجندل جند الروم: لله دره من فارس...؟ كيف ربييت خولة بنت الأزور؟ ربييت على التقوى والإيمان والطهارة وحبها للإسلام فملا قلبها أخلاقا وشيما وإباء ونصرة للأخ والعشير، فهي ليست سافرة تضاحك هذا وتلاعب هذا، بل مؤمنة بما جاء به محمد ﷺ وبأخلاق محمد ﷺ وبما خاطب به الله نساء محمد ﷺ ونساء المؤمنين جميعا"³.

ثانيا: مسألة حرمة التداوي بكل مستخرج من لحم الخنزير:

من الاستنباطات البديعة التي ربط فيها الشيخ التواتي واقعه بمعاني الآيات القرآنية؛ ما جاء في تفسيره لقوله تعالى ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِبَعْثِهِمْ وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ﴾^(٥٢) فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ

¹ المصدر السابق، (514/4).

² ينظر: المقدمة في فقه العصر، د. فضل بن عبد الله مراد، (503/1).

³ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (288/15).

الأنعام: ١٤٦-١٤٧، فهذه الآية تحدثت عن اليهود وما حرمه الله عليهم من الأطعمة، وفيها تكذيب لهم وردّ عليهم في قولهم أن الله لم يحرم علينا شيئاً، وإنما حرّمنا على أنفسنا ما حرمه إسرائيل على نفسه¹، فاستغل الشيخ هذا المعنى ونهى أمة الإسلام أن تحتنب كلّ ما حرمه الله وأن لا تتلاعب في ذلك حتى لا يكون لها شبه باليهود، ومن ذلك اجتناب التداوي بكلّ مادة مصنوعة أو مخلوطة بلحم الخنزير كخيط العمليات الجراحية وحث على إيجاد البديل الشرعي، وفي ذلك يقول: "تنبيه هام: وتخصيص لحم الخنزير لا يقتضي تحليل شحمه وسائر ما فيه، لأن ذلك نص على أفضل ما فيه ليدلّ على ما دونه. قال بعض الفقهاء: لا يجوز الانتفاع بثمنه، ولا باستعمال شيء منه في غير الأكل، وفي غيره كالتداوي بجزء منه كخيط العمليات الجراحية، فإنه يجب على البحث العلمي عندنا أن يجد بديلاً عن الخيط المستخلص من الخنزير، لكن لضعف علماء هذا الاختصاص عندنا مالوا لما اكتشفه أسياهم من علماء الغرب وساروا على نهجهم الحافر على الحافر، ولم يدركوا أن ذلك محرم في شرعنا، وأن واجبهم الديني يحتم عليهم البحث عن البديل امتثالاً لأمر الله تعالى، وتجنب الناس التداوي بما حرم الله، وأن هذا مندوب إليه بالنص، والدليل على ذلك ما روي عن عطاء بن أبي رباح عن جابر بن عبد الله أنه سمع رسول الله ﷺ يقول عام الفتح وهو بمكة: «إن الله ورسوله حرما بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام» قيل: يا رسول الله: أرايت شحوم الميتة فإنه يطلى بها السفن ويدهن بها الجلود والسفن ويستصبح بها الناس؟، فقال: لا حرام، ثم قال رسول الله ﷺ عند ذلك «قاتل الله اليهود إن الله عز وجل لما حرم شحومها جملوه ثم باعوه فأكلوا ثمنه»².

فإذا كان الاستصباح بها ودهن السفن والجلود بها نهى عنه رسول الله ﷺ فأحرى أن التداوي بها يكون حراماً، وهذا مدعاة إلى استعمال المنة الإلهية التي ميّز بها الإنسان عن الحيوان وهو: العقل، ليجد الباحث المخلص البديل بتوفيق الله³.

ثالثاً: مسألة: فتنة النساء وتبرجهن خاصة بالاختلاط في كراسي الدراسة:

تحدّث مفسّرنا عن مسألة مهمّة جدّاً وبيّن خطرها وهي تبرج النساء وأثره على المرأة نفسها وعلى الشباب بانتشار الفواحش كما يشير إليه حديث النبي ﷺ «ما تركت بعدي فتنة أضّر على الرجال من

¹ الجواهر الحسان في تفسير القرآن، عبد الرحمن النعالي، (565/1).

² رواه البخاري في صحيحه، كتاب: البيوع، باب: بيع الميتة والأصنام برقم: 2121.

³ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (156-155/9).

النساء»¹؛ ثم خصص الحديث عن صورة من صور تلك الفتنة وهي: الاختلاط بين الجنسين والجلوس في مقاعد الدراسة معا، وذكر ذلك عندما فسر قوله تعالى ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ...﴾ الأحزاب: ٥٣-٥٤، وسبب نزول هذه الآية أن عمر رضي الله عنه أمر نساء النبي ﷺ بالحجاب، فقالت زينب: يا ابن الخطاب: إنك لتغار علينا والوحي ينزل في بيوتنا، فأنزل الله الآية، وجمع الشيخ بين معنى الآية والحديث المذكور ونزل تلك المعاني على نساء عصره فتحدث عن انتشار التبرج وخلع الحجاب والعزوف عن الزواج، فقال: "ولقد صدق رسول الله ﷺ فإن الفتنة بمن عظمة، ولا سيما في هذا العصر الذي خلع فيه أكثرهن الحجاب، وتبرجن فيه تبرج الجاهلية، وكثرت بسبب ذلك الفواحش والمنكرات، وعزوف الكثير من الشباب والفتيات عما شرع الله من الزواج في كثير من البلاد... ومعلوم أن جلوس الطالبة مع الطالب في كرسي الدراسة من أعظم أسباب الفتنة، ومن أسباب ترك الحجاب الذي شرعه الله للمؤمنات ونهاهن عن أن يبدن زينتهن لغير من بينهم الله سبحانه في الآية السابقة من سورة النور"².

المطلب الثاني: الرد على فتاوى باطلة متعلقة بمسائل فقهية:

لم يفوت مفسرنا الرد على بعض الفتاوى التي رآها مجانبية للصواب في النوازل المعاصرة، ورأى ذلك من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونصرة الشريعة، فالعلماء هم حماة الشريعة مصداقا لقول الرسول ﷺ: «يرث هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تأويل الجاهلين، وانتحال المبطلين، وتحريف الغالين»³، وهذا إخبار من النبي ﷺ بأن الله تعالى صان هذا العلم وحفظه وجعل العدالة لناقليه، فيوفق سبحانه في كل عصر خلقا منهم يحملونه وينفون عنه التحريف⁴.

وقد دافع مفسرنا عن الأحكام الشرعية وصحح ما يراه خطأ من قائلها، من خلال بيان خطر الإفتاء بغير علم ورد بعض الفتاوى وغير ذلك، ولهذا قسّمت هذا المطلب وفق ذلك إلى ثلاثة فروع هي:

الفرع الأول: خطر الفتوى بغير علم:

تحدث مفسرنا على خطورة الجرأة على الفتوى بغير، وكان حديثه عنها من خلال:

¹ رواه مسلم، كتاب: الرقاق، باب: أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء وبيان الفتنة بالنساء، برقم: 7122.

² الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (287/15).

³ رواه البيهقي في السنن الكبرى عن عبد الرحمن العذري، كتاب: الشهادات، باب: الرجل من أهل الفقه يسأل عن الرجل، برقم:

20952. وقال الألباني: "صحيح". ينظر: مشكاة المصابيح، (53/1).

⁴ فيض القدير شرح الجامع الصغير، المناوي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط: 1، سنة: 1356م، (514/6).

1- خطورة التصدر للفتوى بلا مؤهلات: حيث تكلم الشيخ في تفسيره عن ظهور الكثير ممن تصدّر للفتوى وهو غير مؤهل لها ولم تتوفر فيه شروط الإفتاء، وذلك لما فسّر قوله تعالى ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتَكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ النحل: ١١٦، فبعد بيانه لمعنى الآية ذكر معقبا على المعنى قائلا: "تعقيب: انظروا رحمكم الله إلى هذه الفوضى في مجال التحريم والتحليل بدون نص ثابت، وانظروا إلى التعدي الصارخ على الشريعة حين وكل هذا الأمر لمن ليسوا أهله ولا تتوفر فيهم شروط الإفتاء فأفتوا بدون علم حتى قلت: في كثير من الجلسات إلا أن هنالك يتيمن لا كافل لهما في الناس: اللغة والفقه: - أما اللغة فحدث وحرّج وإن شئت مثالا لذلك فدونك الصحف المكتوبة وكذلك المسموعة والمرئية فهي مليئة بالأخطاء، بل إن أصحابها لا يحسنون حتى صياغة السؤال.

- أما الفقه: فثمة الطامة الكبرى، فتاوى على الهواء حسب الهوى، قنوات فضائية بلبت الفقه وأبعدته عن الحياة، أفتى أصحابها بغير تعمق في الوقائع والنوازل¹. وهذا هو الجاري في زمننا هذا للأسف، ولذا فإن حكم هؤلاء وطريقة التعامل معهم تكون وفق ما ذكره ابن القيم بقوله: "من أفتى الناس وليس بأهل للفتوى فهو آثم عاص، ومن أقرّه من ولاة الأمور على ذلك فهو آثم أيضا. قال ابن الجوزي: ويلزم وليّ الأمر منعهم كما فعل بنو أمية، وهؤلاء بمنزلة من يدل الركب وليس له علم بالطريق، وبمنزلة الأعمى الذي يرشد الناس إلى القبلة، وبمنزلة من لا معرفة له بالطب وهو يطبّ الناس، بل هو أسوأ حالا من هؤلاء كلّهم! وإذا تعيّن على وليّ الأمر منع من لم يُحسن التطبيب من مداواة المرضى، فكيف بمن لم يعرف الكتاب والسنة ولم يتفقه في الدين؟"².

ويؤكد التواتي كلامه بأن هذه الظاهرة من علامات الساعة، واستدلّ على ذلك بقوله ﷺ: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالما اتخذ الناس رؤوسا جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا»³.

كما ذكر مفسرنا تهيّب السلف عن الفتوى بخلاف ما هو الحال في زمننا من الجرأة عليها⁴.

¹ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (133/12).

² إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم، ت: مشهور حسن، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، السعودية، ط: 1، سنة: 1423هـ، (131/6).

³ رواه البخاري في صحيحه، كتاب: العلم باب: كيف يقبض العلم، برقم: 100.

⁴ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (135-134/12) بتصرف.

2- **التعصب للفقهاء ولو خالفت أقوالهم الأدلة الظاهرة:** تكلم الشيخ عن ظاهرة أخرى تتعلق بالفتوى وهي ما يقع من بعض مقلّدي فقهاء المذاهب الذين تعصّبوا لأقوال بعض الأئمة الذين يُخطئون ويُصيبون، بحجّة تقليد أقوالهم، مع وجود دلائل واضحة في المسألة تدلّ على خلاف قولهم، فتركوا ما هو نص ظاهر وتمسكوا بما بُني على الاجتهاد، وهذا لما فسّر قوله تعالى ﴿اتَّخِذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ التوبة: ٣١، حيث بين الشيخ معنى الآية ثم قال: "تنبيه هام: إن هذا الأمر مشاهد في عصرنا في جماعة من مقلّدي المذاهب، فكثير من آيات من كتاب الله تعالى في بعض المسائل تخالف ما نصّ عليه بعض الفقهاء إلا أنهم لم يقبلوا تلك الآيات ولم يلتفتوا إليها، وأصرّوا على مخالفة ما هو نص ظاهر في الكتاب والسنة قائلين: كيف يعمل بظواهر هذه الآيات مع أن الرواية عن سلفنا وردت على خلافها، ولو تأملت حق التأمل وجدت هذا الداء ساريا في عروق الأكثرين من أهل الدنيا. ويجب أن نبرئ أئمتنا الأعلام - كالإمام مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد وغيرهم من أئمة الأعلام جميعا¹ - من مخالفة الكتاب والسنة، فعنهم أخذنا وبعلمهم استترنا، وإنما الخطأ في الأتباع حين أصرّوا على المخالفة، ولديّ كثير من الأقوال دسّت على أعلامنا ولم يقولوها البتة"². وهذا المعنى الذي نزله الشيخ على عصره أخذنا من الآية كان موجودا عند السلف أيضا، فقد روي أن رجلا سأل حذيفة فقال: رأيت قوله ﴿اتَّخِذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ أكانوا يعبدونهم؟ قال: لا ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئا استحلوه وإذا حرّموا عليهم شيئا حرّموه"³.

الفرع الثاني: الردّ على فتاوى متعلقة بالمرأة:

تحدث الشيخ التواتي على عدة مسائل تتعلق بأحكام المرأة وربطها بآيات القرآن، وهي:

أولا: الرد على مشروعية الإجهاض⁴:

¹ وقد ألف في ذلك ابن تيمية كتابا قيّما سماه "رفع الملام عن الأئمة الأعلام"؛ ذكر فيه براءة الأئمة ممن يتبعهم بغير دليل، وعذرهم في ترك بعض الأدلة التي قد تبدوا واضحة... الخ.

² الدرّ الثمين، التواتي بن التواتي، (196/10).

³ تفسير ابن أبي حاتم، ابن أبي حاتم الرازي، (1784/6).

⁴ يطلق الإجهاض في اللغة على صورتين: إلقاء الحمل ناقص الخلق، أو ناقص المدة، سواء من المرأة أو غيرها، والإطلاق اللغوي يصدق سواء كان الإلقاء بفعل فاعل أم تلقائيا، وقد يعبر الفقهاء عن الإجهاض بمردافاته كالإسقاط والإلقاء والطرح والإملاص. ينظر: الموسوعة الفقهية الكويتية، مجموعة من المؤلفين، (56/2).

تحدث الشيخ عن الإجهاض وبين أن سببه -في الغالب- فعل الزنا الذي صار شائعاً بين النساء، لأنهن تركن العزة التي أعزهن بها الإسلام وصرن سلعة مهانة مبتذلة، فإذا وقعن في الفاحشة لجأن إلى الإجهاض تخلصاً من الفضيحة، فقال: "وهذه المستشفيات ملئى بأبناء الزنا، وهاهن البنات يسعين إلى الإجهاض، بل يسعى بعض الناس أن يكون الإجهاض مشروعاً، انظروا كيف أصبحت مهانة مبتذلة بسبب ابتعادها عن وظيفتها التي خلقت من أجلها، ومهامها الإلهية التي أنيطت بها شرعاً، هل هذا هو الإسلام الذي جاءنا ليخرجنا من الجهل والضلال والفساد؟، هل هذا هو الإسلام الذي جاء ليرقى بالمرأة من مجرد متاع إلى المرأة العاملة الطاهرة النقية أخلاقاً المريية للأجيال، القائدة للأمة؟، لأن المرأة هي أم الجميع حكماً ومحكومين"¹.

كما نصّ الشيخ على حرمة الإجهاض بعد التخليق وبين حرمة وأنه من الأمور العظيمة، حتى أنه ذكر أن النهي عن الزنا مقدم على النهي عن القتل كما ذكره الرازي ونقله عنه الشيخ التواتي، وذلك عند تفسيره لقوله تعالى ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيٍّهُ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ الإسراء: ٣٣، حيث ذكر الرازي أن فتح باب الزنا يمنع من دخول الإنسان في الوجود، والقتل عبارة عن إبطال الإنسان بعد دخوله في الوجود. ودخوله في الوجود مقدم على إبطاله وإعدامه بعد وجوده². ثم أضاف مفسرنا علّة أخرى وردّ على بعض التشريعات التي تريد استحلال الإجهاض مع أنه قتل للنفس، فقال: "وهناك سبب آخر حدث في العصر الحديث وهو نتيجة يلاحظها كلّ ذي بصيرة، فأول الأمر يكون زنا وآخره قتل -والعياذ بالله- إذ الملاحظ أن كثيراً من اللائي يزنين عندما يحملن يلجأن إلى الإجهاض وهو قتل النفس بدون حق، والغريب في الأمر أن بعض التشريعات في الدول المسماة "إسلامية"، أباحّت الإجهاض ولم يعلموا أن عاقبته الغضب والمقت عند الله تعالى. والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، والحكم يعم بعموم اللفظ، كما أن ذكر سبب القتل في الآية لا يقتضي التخصيص، لأنه ذكر لتصوير الحال الذي كانوا عليه، فالقتل حرام لأي سبب كان. وهذا الفعل الذي كان في الجاهلية على الوجه المتقدم، وهو فعل مؤدّ إلى قطع النسل وخراب العمران -لا تسلم منه الأمم الأخرى في مختلف الأزمنة والبلدان- إما بالقتل بعد الولادة، وإما بإفساد الحمل بعد التخليق، وهو حرام باتفاق"³.

¹ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (287/15-288).

² ينظر: مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، (333/20).

³ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (209-208/12).

ثانيا: مسألة: الردّ على دعوى سفور المرأة وخروجها للشارع:

وهذه من المسائل التي تحدّث عنها كلّ المصلحين من المفسرين وغيرهم، حيث انتشرت ثقافة تحرير المرأة ووجدت دعاء لها ضمن ما يسمى بـ "الفكر النسوي"، فلما جاء الشيخ التواقي إلى تفسير قوله تعالى ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا...﴾ الأحزاب: ٥٣-٥٤، ذكر أن في الآية الأولى دلالة ظاهرة على لزوم النساء لبيوتهن حفاظا عليهن وحذرا من الافتتان بهن؛ إلا إذا كانت لها حاجة تدعوها للخروج فلتخرج بحجابها غير متبرجة لئلا يرى محاسنها الرجال، ثم ردّ الشيخ على أصحاب الفكر التحرري الذي يشجّع المرأة على الخروج ومزاحمة الرجال وسمى بعضهم فقال: "الآية وواقع الناس: إن دعوة السفور التي جاء بها أمين قاسم¹ وتابعه كثير من معوقي الفكر في العصر الحديث حين دعوا المرأة إلى الابتذال والخروج إلى الشارع حتى وصل أمرها إلى المحال، فهذه الفواحش ترتكب جهارا نهارا ... انظروا كيف أصبحت مهانة مبتذلة بسبب ابتعادها عن وظيفتها التي خلقت من أجلها، ومهامها الإلهية التي أنيطت بها شرعا، هذا هو الإسلام الذي جاءنا ليخرجنا من الجهل والضلال والفساد، هل هذا هو الإسلام الذي جاء ليرقى بالمرأة من مجرد متاع إلى المرأة العاملة الطاهرة النقية أخلاقا المربية للأجيال، القائدة للأمة ، لأن هي أم الجميع حكاما ومحكومين"². كما أزال الشيخ بعض اللبس الذي قد يفهم من كلامه، فبيّن أنه لا يدعوا إلى منع المرأة من التعلّم ولا منعها من سياقة السيارة، ولا غيرها ممّا يفهم خطئا من كلامه.

ثالثا: مسألة: الردّ على جواز إتيان المرأة في الدبر:

تحدّث الشيخ عن هذه المسألة لما فسّر قوله تعالى ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِنَفْسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُونَ﴾ البقرة: ٢٢٣، وهذه الآية ورد في سبب نزولها عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه: أن أناساً من حمير أتوا النبي صلى الله عليه وآله يسألونه عن أشياء؛ فقال

¹ قاسم أمين: كاتب مصري، ولد سنة: 1863م، وانتقل مع أبيه إلى الاسكندرية، فنشأ وتعلّم بها، ثم رجع للقاهرة، وأكمل دراسة

الحقوق في "مونبليه"، وعاد إلى مصر سنة: 1885م، فكان وكيلا للنائب العمومي بالحكمة المختلطة، فمستشارا بمحكمة الاستئناف، وتوفي بالقاهرة في: 1908م. اشتهر بحركة تحرير المرأة وهي: مؤامرة استعمارية تستهدف تدمير الأسرة المسلمة وتحطيم البيت المسلم، وألف كتاب "تحرير المرأة"، الذي أحدث انتشاراً مفرعاً لمبدأ العزوبة وأصبحت ساحات المحاكم غاصة بقضايا هتك الأعراض وهرب الشابات من دور أهلهن". ينظر: الأعلام للزركلي، (184/5).

² الدرّ الثمين، التواقي بن التواقي، (287/15).

رجل منهم: إني أحب النساء، وأحب أن آتي امرأتي محبة¹؛ فكيف ترى في ذلك؟ فأنزل الله -عز وجل- ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ...﴾؛ فقال رسول الله ﷺ «انتها مقبلة ومدبرة؛ إذا كان في الفرج»².

فلما فسّر الشيخ هذه الآية ذكر أن الآية مبيحة لهيات الإتيان كلّها إذا كان الوطء في موضع الحرث، وأن لفظة الحرث تفيد أن الإباحة لم تقع إلا في الفرج خاصة لأنه محل الزرع، ثم ردّ بعد ذلك على من أفتى بجواز الوطء في الدبر مخالفاً بذلك لمدلول الآية، فقال: "تنبيه هام: لقد أفتى في عصرنا -مضللاً للناس-، بجواز إتيان المرأة في دبرها، وذلكم ضلال وتضليل، نسأل الله العافية والهداية .
عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «لا ينظر الله يوم القيامة إلى رجل أتى امرأته في دبرها»³
أخرجه البيهقي في السنن الكبرى وابن حبان في صحيحه، وأبو داود في سننه، وأحمد في مسنده، وابن عساكر عن أبي هريرة"⁴.

الفرع الثالث: الردّ على فتاوى متفرقة:

تضمن هذا الفرع ثلاث مسائل فقهية متنوعة، وهي كالآتي:

أولاً: الرد على استحلال الخمر:

الخمر أم الخبائث وهي من أبشع المحرمات وكبائر الذنوب، وقد فصل الشيخ في بيان حكمها وأنها محرمة بالإجماع⁵ واستفاض طويلاً في سوق الأدلة على ذلك من القرآن والسنة النبوية، عند تفسيره لقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رَجَسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ

¹ أي: منكبة على وجهها تشببها بهيئة السجود، وكانت اليهود تقول إذا نكح الرجل امرأته محبة جاء الولد أحول. لسان العرب، ابن منظور، (128/14).

² رواه أحمد في المسند، ومن مسند بني هاشم، رقم: 2414، قال أحمد شاکر "إسناده ضعيف" (101/3).

³ رواه ابن ماجه في سننه، كتاب: النكاح باب: النهي عن إتيان النساء في أدبارهن، برقم: 1913. وقال الألباني: "صحيح"، ينظر: صحيح وضعيف سنن ابن ماجه، (423/4).

⁴ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (92/4).

⁵ قال ابن القطان: "واتفق أهل القبله جميعاً على أن الخمر حرام بتحريم الله تعالى إياها". الإقناع في مسائل الإجماع، ابن القطان، ت: حسن فوزي الصعدي، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، ط: 1، سنة: 2004م، (327/1).

وَيُصَدِّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴿المائدة: ٩٠-٩١﴾. وجعل عنوانا واضحا لذلك بقوله: "الحكم الشرعي للخمر والميسر"¹. وهذا كله في مقام البيان.

ثم زاد المسألة إيضاحا فردّ على من يجوّز الخمر من بني جلدة هذه الأمة متحايلين في تسميتها، فاستنكر على مستحلّها قائلا: "والخمر استحلّته بعض الأمة الإسلامية، ورأت أنه لا بأس به وتجاوزت الحدّ وسمّته الشراب الروحي -قاتلهم الله- شراب لعن الله شاربه وحامله والمحمول إليه ومشتريه، ويسمى "شرابا روحيا؟!" يعني: مطهر للروح وهو أم الخبائث، كما جاء في الحديث.

وحكمه: أن شاربه يعذر بما لا يقل عن أربعين جلدة أو ثمانين أو مائة أو ألف جلدة حسب ما يردع الناس؛ لأنه ما فيه حدّ عن النبي ﷺ معيّن؛ إنما هو راجع إلى نظر القاضي فيعاقب الشارب بما يستحقّ وبما يردعه إذا شرب مرة وجلد ومرة وجلد ومرة رابعة فإنه يقتل. قال شيخ الإسلام: لأنه مثل الصائل الذي لا يندفع إلا بالقتل، هذا جلد ثلاث مرات في الخمر وشرب الرابعة متى يتوب؟، ولهذا قال ابن تيمية: إنّ قتل شارب الخمر في الرابعة مشروع إذا لم ينته الناس بدونه وصدق رحمه الله² "3".

ثانيا: الرد على فتاوى متعلقة بممارسي الألعاب الرياضية وعلى جواز تدليك الذكر للأنتى:

دائما في مقام ردّ الشيخ على الفتاوى الباطلة التي ذهب إليها بعضهم مسايرة منهم للعصر كما زعموا؛ بين الشيخ وجوب طاعة الرسل عند تفسيره لقوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنْهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ النساء: ٦٤، وتذبيلا على ذلك نبّه على خطر الصدّ والابتعاد عما جاءت به الرسل، ومثّل لذلك بما هو منتشر في الواقع من تجرأ بعض الفقهاء على إفتاء الممارسين للألعاب الرياضية بإباحة الاختلاط وجواز تدليك الذكر للأنتى فقال: "لكن كثيرا من الناس طال عليهم الأمد، نبذوا ما جاءت به الرسل وراءهم ظهريا، واتبعوا الهوى فكانوا قوما بورا. ألسنا نحكم غير شرع الله تعالى في حياتنا ونستمد قوانين ملتزمة من آرائنا، وآراء أعداء لأمتنا، ألسنا ننتهك حرّيات ديننا، فاستحللنا الربا وهو حرام بنصوص قطعية منزلة من الله تعالى، بحجة التعامل، ألم نلتمس فتاوى مبسترة حتى لأبنائنا في الألعاب الرياضية، فاستنبت لهم بعض الفقهاء -ساحمهم الله-، ترضية لذوي النفوذ،

¹ ينظر: الدرّ الثمين، التواقي بن التواقي، (52/4-55).

² الفتاوى الكبرى، لابن تيمية، (530/5).

³ الدرّ الثمين، التواقي بن التواقي، (54/4).

فأباحوا لهم انتهاك حرمة رمضان وهو من الدين بمكان، واختلاط الذكور مع الإناث، بل جؤزوا تدليك الذكر للأنتى، وقد رأيتم في الشاشة الصغيرة الطبيب المدلك يدلك فخذ الأنتى بدون حياء ولا وقار"¹.

ثالثا: الرد على جواز التحليق للدعاء بعد الفريضة:

لما فسر الشيخ قوله تعالى ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ البقرة: ١٨٦، تحدت فيها عن الدعاء لأنه المعنى المناسب لسبب نزولها كما قال الحسن بن أبي الحسن: أن قوما قالوا للنبي ﷺ أقریب ربنا فنناجیه أم بعيد فننادیه؟ فنزلت²، ثم استنبط الشيخ جواز الدعاء بعد الفريضة، ثم ردّ وأبطل ما يقوم به البعض من التحليق للدعاء بعد الصلاة والتأمين عليه جماعات فقال: "لكن ما يفعله بعض الناس من التحليق للدعاء بعد الصلاة وتأمين المأمومين عليه، ونحو ذلك من الهيئات التي لم ترد عن النبي ﷺ ولا عن السلف، يجب تجنبه والابتعاد عنه، لأن العبادة مبناها على التوقيف"³.

المطلب الثالث: بيان الأحكام الشرعية لمسائل عقدية:

من المسائل المهمة التي يعتني بها المفسر في الجانب الإصلاحي من تفسيره؛ الاهتمام بالجانب العقدي في التفسير حيث يربط معاني الآيات القرآنية بالمخالفات العقدية محاولا إصلاحها وتعليم الناس الاعتقاد الصحيح الذي ينبغي سلوكه⁴، وهو الأمر الذي قام به الشيخ التواتي في تفسيره فذكر في مواضع كثيرة ما يحدث في زمانه من مخالفات عقدية وربط بينها وبين بعض المسائل الفقهية كونها عبادات ينبغي أن يقصد بها الله دون غيره، كما استعان بمن قبله مثل: الشيخ ابن باديس ومبارك الميلي، وكان كثيرا ما يستغل المعنى المستنبط من الآيات وينزله على المخالفات العقدية التي وقع فيها أهل زمانه، فجمعت هذه المواضع وقد قسمتها على ثلاث فروع بيّناها كما يلي:

¹ المصدر السابق، (170/7).

² المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، القاضي: ابن عطية الأندلسي، ت: عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 1، سنة: 1422هـ، (243/1).

³ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (404/3).

⁴ وقد كان قصب السبق في التأليف في هذا الباب لأحد أعضاء جمعية العلماء وهو الشيخ: مبارك الميلي الذي ألف كتابا كاملا في هذا الباب سماه "الشرك ومظاهره"، تضمن هذا الكتاب أبوابا كثيرة من مظاهر الشرك التي شاعت في المجتمع الجزائري، فوصفها الشيخ وصفا دقيقا ثم بيّن النهي عنها بأدلة واضحة من القرآن والسنة. ينظر كتاب: الشرك ومظاهره، (ص: 167-403).

الفرع الأول: مسائل تتعلق بالشرك بالله تعالى:

تحدث الشيخ التواتي على عدة مسائل تتعلق بالشرك بالله تعالى وربطها بالآيات القرآنية ليصف المعتقد الصحيح فيها مستنبطاً من كلام الله تعالى، وهي:

أولاً: مسألة: صور من الردّة، مثل سب الدين والاستخفاف بأحكامه:

شدّد مفسرنا الكلام في بعض المسائل التي يتعلّق بها إيمان العبد، كالردّة فبيّن خطرها ومآلها، وذلك رحمةً بالمسلم وخوفاً عليه أن يرتدّ دون أن يشعر، ومن ذلك حديثه عن مظهرين من مظاهر الردّة وهما: سب الله تعالى والاستخفاف بأحكام القرآن والسنة، وقد تحدّث عنهما لما فسّر قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ المائدة: ٥٤. فهذه الآية من الأمور الغيبية التي أخبر الله تعالى عنها قبل وقوعها، وقد ارتد بعض العرب في أواخر عهد الرسول ﷺ¹، ولا يزال كثير منهم على خطاهم حتى جاء عصر الشيخ التواتي فرأى بعض المظاهر التي يقع العبد في الردّة بسببها، ولذا لما فسّر الآية قال: "تعقيب هام: من واقع حياتنا يلاحظ أنّ كثيراً من الناس لتظهر عليهم أفعال تُنبئ على أنّ أصحابها يدرجون في صنف المرتدّين، ولا عذر لهم في ذلك، وعليه فالجواب علينا أن نبه هؤلاء بأنّ ينتبهوا إلى أقوالهم وأفعالهم. أما الأقوال: فهي كثيرة جداً نذكر منها: سبّ الدين، فمن سبّ الدين يُعتبر في عرف الفقهاء خارجاً عن الدين يُستتاب ثلاثاً وإلا قتل ارتداداً. أما الأفعال: فكثير من الناس من يرتكب ما حرم الله تعالى وهو معلوم من الدين ضرورة مستخفاً بالخطاب القرآني، والتوجيه النبوي، كشرب الخمر والتعامل الربوي وارتكاب المحرمات كالزنا واللواط، وغيرها من الأفعال الشنيعة التي تُخرج فاعلها من دائرة الإسلام إن استمرّ عليها منتهاكاً حرّماً الإسلام مستهجنًا تعاليمه، كترك الزكاة والصلاة. وقد ورد في السنة أحاديث صحيحة تجرم المرتد وتبيح قتله، منها - ثم ذكر مجموعة من الأحاديث الدالة على ذلك -"².

ثانياً: النهي عن التمسح بقبور الموتى رجاء جلب النفع منهم:

اعتاد الشيخ التواتي بوعظ الناس في آخر مجلسه التفسيري ونهيهم عما يراه من مخالفات، ومن ذلك أن بعض المسلمين لا يزالون يزورون القبور ويطلبون من أصحابها الحوائج، فناههم الشيخ عن ذلك لما فسّر

¹ أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين البيضاوي، (ص: 336).

² الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (151/8).

قوله تعالى ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ الأعراف: ٣٠، فقال: "موعظة الجلسة: أيها الناس إن الكثير من أهل الضلال يحسبون أنهم مهتدون، وهم ما بين كافر جحود للحق كثيرًا وعنادا كأعداء الرسل في عصورهم، وبين عابدٍ لهواه مكابر يعبد الله على حرف، ويوحده كما يريد، وهذا الصنف من الناس كثير جدا في زماننا إذ إنهم يشركون بالله تعالى فيتمسحون بالقبور راجين منها نفعا فيكون أمرهم بفعلهم هذا قد آذو صاحب القبر، وقد يكون صاحب القبر من أهل الصلاح فهو بريء من قيلهم وفعلهم، ووجب على أهل العلم النهي عن هذا؛ لأن صلاحه المشهود به أمانة في أعناقنا فهذا يدفعنا النهي عن المنكر عند قبور سلفنا الصالح، ولا ندع الجهال يسيئون إليهم بعد مماتهم"¹.

وهذا الأمر للأسف كان في الأمة إلى زمن قريب ولذلك لا يزال المصلحون ينكرونه وينهون أقوامهم عنه، كما قال الشيخ مبارك الميلي في رسالته ناقلا عن الشوكاني إنكاره ما صار يعتقده كثير من العوام وبعض الخواص من أهل القبور، وفي المعروفين بالصلاح من الأحياء من أنهم يقدرون على ما لا يقدر عليه إلا الله جل جلاله، ويفعلون ما لا يفعله إلا الله عز وجل، حتى نطقت ألسنتهم بما انطوت عليه قلوبهم، فصاروا يدعونهم تارة مع الله وتارة استقلالا، حتى قال الشوكاني: "وهذا إذا لم يكن شركاً فلا ندري ما هو الشرك، وإذا لم يكن كفراً فليس في الدنيا كفر"².

ثالثا: مسألة الذبح لغير الله:

من المسائل التي ذكرها مفسرنا وحذر منها: الذبح لغير الله وذلك عند تفسير قوله تعالى ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَمْيَتَةُ وَلَدَمْ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ المائدة: ٣، حيث بين أهمية التنبيه على مسائل العقيدة في شرح آيات الأحكام لأن العبادة قد تصرف إلى غير الله فيقع صاحبها في الشرك، فقال: "تنبيه هام جدا: وقد كان من أثر تقصير المفسرين وعلماء العقائد والأحكام في أهم ما يتوقف عليه فهم المراد من أمثال هذه الآيات؛ أن وقع كثير من المسلمين فيما عليه أولئك الضالون من مشركي العرب وغيرهم، حتى أن الذبح لبعض الصالحين أو ما يسمى "بالطعم" في بيئتنا، فتراهم يندرون العجول والخراف للشيخ سيدي عبد القادر الجيلالي رحمته الله وغيره من أرباب الأضرحة والقبور ممن يستشفعون بهم إلى ربهم في زعمهم، وهذا شرك صريح.

¹ المصدر السابق، (258/9).

² نقلا عن صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان، السهسواني الهندي، (ص: 157-158).

ولما سرت هذه الضلالة إلى المسلمين ذكر الفقهاء حكمها وقد أفاض الشيخ مبارك الملي في كتابه "رسالة الشرك ومظاهره" في بيان بعض المحاكاة للمشركين من حيث لا يعلم الفاعلون لذلك مما يجب التنبيه إليه ... وجملة القول أن مسألة الذبح من مسائل العبادات التي كان يتقرب بها إلى الله تعالى، ثم صاروا في عهد الوثنية يتقربون بها إلى غيره وذلك شرك صريح، وهذا هو الوجه لذكرها في هذه السورة بين مسائل الكفر والإيمان والشرك والتوحيد"¹.

وللأسف الشديد أن هذه المظاهر كانت في الجاهلية ولا زالت إلى يوم الناس هذا، ولذلك نهي عنها الدعاة المصلحون وحذروا ممن يميزها، كما قال الشيخ مبارك الملي: "ولو رأى الناس مسلماً يصلي لغير الله؛ لبادروا إلى تكفيره من غير استفتاء علماء الدين، وهم مصيبون، ولو رأوا - وكم رأوا - من يذبح لغير الله؛ لرضوا بهذا الصنيع، وتأول لهم علماء الأغراض ما يُحسن هذا الفعل الشنيع، وما هذه التفرقة إلا أنهم ألقوا الذبح لغير الله ولم يألّفوا الصلاة لغير الله"².

رابعا: مسألة النذر لغير الله:

حيث بيّن مفسرنا صورا للنذر ظهرت عند الناس وشاعت بينهم وهي: النذور على القبور والمشاهد والأموات، فبيّن بطلانها وحرمتها ووجوب النهي عنها بقوله: "النذور المعروفة في هذه الأزمنة على القبور والمشاهد والأموات فلا كلام في تحريمها، لأن الناذر يعتقد في صاحب القبر أنه ينفع ويضر ويجلب الخير ويدفع الشر ويعافي الأليم ويشفي السقيم، وهذا الذي كان يفعله عباد الأوثان بعينه، فيحرم كما يحرم النذر على الوثن. ويحرم قبضه؛ لأنه تقرير على الشرك بالله تعالى وتأيد للفعل، ويجب النهي عنه، وإبانة أنه من أعظم المحرمات، وأنه الذي كان يفعله عبّاد الأصنام لكن طال الأمد حتى صار المعروف منكرا والمنكر معروفا وصارت تعقد اللّوآت لقبّاض النذور على الأموات ويجعل للقادمين إلى محلّ الميت الضيافات وينحر في بابه النحائر من الأنعام. وهذا هو بعينه الذي كان عليه عباد الأصنام فإنا لله وإنا إليه راجعون، وقد تكلم الشيخ الإمام عبد الحميد ابن باديس - رحمه الله تعالى - عن هذا وبين ضرره على الاعتقاد ولاقئ هو وصحبه ما لاقوا من الجهلة وأصحاب المصالح من ضرر وإعراض وعداء ومن أراجيف القول أصنافا"³.

¹ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (73/9-74).

² رسالة الشرك ومظاهره، مبارك الملي، (ص: 367).

³ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (5/188).

وللأسف فإن الأمر لم يقتصر على المجتمع الجزائري في هذه المظاهر، بل كانت منتشرة حتى في بلاد المشرق، ولذلك نهي عنها أهل الإصلاح مثل الإمام الصنعاني الذي نهي أهل اليمن عن ذلك بقوله: "وهذه النذور بالأموال وجعل قسط منها للقبر كما يجعلون شيئاً من الزرع يسئونه (تلما) في بعض الجهات اليمنية، وهذا شيء ما بلغ إليه عبادة الأصنام، وهو داخل تحت قول الله تعالى ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْمُونَ نَصيباً مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ النحل: ٥٦، بلا شك ولا ريب"¹.

الفرع الثاني: مسائل تتعلق بالسحر والرقية:

أولاً: بيان حقيقة السحر:

تكلم الشيخ عن السحر عندما فسر قوله تعالى ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيْطَانِ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ الْمِحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِبَابٍ هَرُوتَ وَمَرُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ...﴾ البقرة: ١٠٢. فبين أن الصور الموجودة في زماننا هي شعوذة وكذب ولا يصح شيء منها ومع ذلك نجد كثيراً من الناس يصدقون بها، فقال: "ولا يُشكُّ في أن السحر كان موجوداً، وهذا ثابت بنص القرآن والحديث الصحيح به، وأما في زماننا الآن، فكل ما وقفنا عليه في الكتب فهو كذب وافتراء لا يترتب عليه شيء، ولا يصح منه شيء ألبتة، وكذلك العزائم² وضرب المندل³، والناس الذين يُعتقد فيهم أنهم عقلاء، يصدقون بهذه الأشياء، ويصغون إلى سماعها، وإنما هي شعوذة يجب الابتعاد عنها"⁴.

وقد ذكر الشيخ مبارك الميلي صفة العزيمة المشتهرة في زمنه فقال: "وصفة العزيمة اليوم عندنا أن يقرأ القارئ على من يظنُّ به مسَّ الجرّ بسورة الجرّ غالباً، ويده فتيلة قد أحرق رأسها، يَكوي بها أنف المصاب، وقد يُدخِلُ له بُخُور، وقد يكتب له مما هو مدوّن في نحو "شمس المعارف"⁵.

وكلام التواتي هذا لا يعني إنكاره للسحر، بل إنه أثبتته وبيّن أن له تأثيراً في الخير أو الشر؛ إذ من الآفات المنتشرة في زماننا أن بعضهم يلجأ إليه للتفريق بين الزوجين أو التقريب بينهما، وهذا محظور

¹ ينظر: تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد ويليهِ شرح الصدور في تحريم رفع القبور، الصنعاني والشوكاني، (ص: 68).

² العزائم: جمع عزيمة وهي كما قال الليث: العزيمة من الرقي: التي يُعزم بها على الجن والأرواح وقال غيره: عزمت عليك لتفعلن أي:

أقسمت. وعزم الراقي والحواء كأنه إقسام على الداء والحياة. ينظر: تهذيب اللغة، الأزهري، (91/2).

³ المندل: ضرب من الكهانة يستدل به على الضائع أو المسروق. ينظر: المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وغيره، (911/2).

⁴ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (282/2).

⁵ رسالة الشرك ومظاهره، مبارك الميلي، (ص: 250).

شرعا، يقول التواتي: "أطلنا الحديث عن السحر لسبب أن هذه الآفة أصبحت منتشرة ويُلجأ إليها للتفريق بين الزوجين، أو لكسب مودة طرفٍ، وكلُّ ذلك محظور شرعا"¹.

ثانيا: مشروعية الرقية وضوابطها:

تحدث مفسرنا عن الرقية وأنها مشروعة بالإجماع، وساق الأدلة على جوازها، ثم بيّن الفرق بينها وبين الشعوذة ببيانها لضوابط الرقية الجائزة وهي: كونها بالقرآن والأدعية وباللسان العربي الذي يعرف معناه²، فقال: "وأما الرقى والتعاويذ فإنها قد اتفق الإجماع على جوازها إذا كانت بآيات من القرآن لورودها في الحديث: منها حديث أبي سعيد المتقدم في أن جبريل رقى النبي ﷺ³.

- ومنها ما روي عن عبيد بن رفاعه الزرقى: « أن أسماء بنت عميس رضي الله عنها قالت: يا رسول الله إن ولد جعفر تسرع إليهم العين، أفأستقي لهم؟ فقال: نعم فإنه لو كان شيء سابق القدر لسبقته العين»⁴.

- وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه «أن النبي ﷺ كان يتعوذ ويقول: أعوذ بالله من الجانّ وعين الإنسان، فلما نزلت المعوذتان أخذ بهما وترك سواهما». أخرجه الترمذي وقال الترمذي: حسن غريب⁵.

فهذه الأحاديث تدلّ على جواز الرقية، وإنما المنهي عنه ما كان فيه كفر أو شرك أو ما لا يعرف معناه مما ليس بعربيّ لجواز أن يكون فيه كفر -والله أعلم-⁶.

ثالثا: الردّ على القنوات الفضائية التي تعلّم الرقية:

من المسائل التي استجدت في الأمة: الرقية من خلال القنوات الفضائية، وقد توسع الناس فيها توسعا غير محمود، حتى صار من هبّ ودبّ يزعم المعرفة بالرقية وأحكامها، ولذا فإن الشيخ التواتي نبّه على هذه المسألة وأنكر ما تبثه القنوات الفضائية من دروس خاصة بتعليم الرقية، فقال: "ونشير هاهنا إلى أن

¹ الدرّ الثمين، التواتي بن التواتي، (203/2).

² واختصر شروط الرقية الإمام الزرقاني بقوله: "الرقية المأذون فيها ما كانت باللسان العربي، أو بما يفهم معناه، ويجوز شرعا مع اعتقاد أنّها لا تؤثر بذاتها، بل بتقدير الله، والمنهي عنها ما فقد فيها شرطا من ذلك". شرح الزرقاني على الموطأ، محمد الزرقاني، ت: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط: 1، سنة: 2003م، (511/4).

³ رواه مسلم في صحيحه، كتاب: السلام، باب: الطب والمرض والرقى، برقم: 5828.

⁴ رواه الترمذي في سننه، أبواب الطب عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في الرقية بالمعوذتين، برقم: 2059. قال الألباني: "صحيح"، ينظر: صحيح وضعيف سنن الترمذي، (62/5).

⁵ رواه الترمذي في سننه، أبواب الطب عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في الرقية بالمعوذتين، برقم: 2058. قال الألباني:

"صحيح"، ينظر: صحيح وضعيف سنن الترمذي، (58/5).

⁶ الدرّ الثمين، التواتي بن التواتي، (524-523/20).

السحر اتخذ أشكالاً¹ منها: صفة الرقية وإن كانت مشروعة، بحديث رسول الله ﷺ لمن رقى بسورة الفاتحة، إلا أن كيفية استعمالها أمر فيه نظر، والذي يعكّر صفاء الذهن ويؤلم القلب، ما اتخذته بعض القنوات الفضائية من دروس خاصة لتعليم الرقية بدلا من الدعوة إلى الإسلام².

الفرع الثالث: مسائل متعلقة بأحكام عقيدة متفرقة:

تضمن هذا الفرع مسائل متنوعة تتعلق بعدة أبواب من العقيدة، بياها كالاتي:

أولا: دعوة ولاية أمور المسلمين لمقاطعة المسيئين لرسول الله ﷺ:

لما فسر الشيخ التواقي قوله تعالى ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَلِيتُّنَا عَنْهُمْ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ النساء: ١٣٩، تحدّث عن ذم موالاة الكفار وأضرار مخالطتهم وابتغاء العزة منهم ودعى ولاية الأمور إلى مقاطعة المسيئين لرسول الله ﷺ، فقال: "أما الآن وقد ذكرنا أن النص القرآني يخاطب الناس جميعا على اختلاف عصورهم؛ فما بال بعض منا في زماننا يبتغون العزّ عند الغرب اللّعين، والاستقواء بأعداء الإسلام على المسلمين، وكأنّ هذ النداء القرآني لا يعني لهم شيئا، ليس مُوجّه إليهم ولا مدافعة على بيضة الإسلام، ولا غيرة عن روح الإسلام، فهذه رسوم لرسول الله ﷺ، شوّهت صورة الرسول الأعظم ازدراء به واحتقارا للمسلمين، ولا غيرة من هؤلاء، قد تغضب الشعوب، تدفعها عاطفتها وحبّها نبيها ﷺ، لكن أين غضب حكّامها وقادتها؟، هل احتجوا وقاطعوا من تعرض لنبيها ﷺ؟، بل إن أصحاب القرار في الأمة المسلمة يزدادون حبا ووثوقا بالكفار، وطلب العزة عندهم"³.

وهذا الأمر الذي دعى إليه الشيخ كان موجودا في السابق ضمن "الحصار الاقتصادي"، وهو: مقاطعة المنتجات بالتوقف عن شراء البضائع والمنتجات بأنواعها، وازداد الأمر تأكيدا لمّا تعرّض أفراد من الدول المعادية للإسلام للإساءة لرسول الله ﷺ بالرسوم القبيحة، أو بالاعتداء على أراضي المسلمين كالصهاينة في فلسطين، فتتأكد حينئذ مقاطعة تلك الدول ومن يدعمها في طغيانها⁴.

¹ وقد ذكر الشيخ مبارك الميلي أنواع السحر الثمانية المشهور، وهي: سحر البابليين، سحر أصحاب الأحوال، سحر أصحاب العزائم، سحر أصحاب الشعوذة، سحر أصحاب التخيل بالصفة، سحر أصحاب التخيل بالخواص، سحر أصحاب التنويم، سحر النمام. رسالة الشرك ومظاهره، مبارك الميلي، (ص: 229).

² الدر الثمين، التواقي بن التواقي، (303/2).

³ المصدر نفسه، (367/7).

⁴ الفقه الميسر، عبد الله الطيّار وغيره، مدائر الوطن للنشر، الرياض، السعودية، ط: 1، سنة: 2011م، (118/13).

ثانيا: مسألة: الهجرة عند العجز عن إقامة الدين¹:

تحدث مفسرنا الشيخ التواتي عن الهجرة وبعض أحكامها، وذلك عند تفسيره لقوله تعالى ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ النساء: ١٠٠، حيث استفتح كلامه عن الهجرة ببيان حالاتها وحكم كل حالة منها ودليلها، فقال: "وفي هذه الآية الكريمة إرشاد إلى وجوب المهاجرة من موضع لا يَتَمَكَّن الرجل فيه من إقامة أمور دينه بأي سبب كان، فقد ثبت عن النبي ﷺ: «من فرّ بدينه من أرض إلى أرض وإن كان شبرًا من الأرض، استوجبت له الجنة وكان رفيق أبيه إبراهيم ونبيه محمد ﷺ»². وهذا الحديث وإن كان في سنده مقال إلا أن الواقع يثبت صحة توجيهه إذ كثرت المناكر والظلم وقلة الصدق، وتفشي الرذيلة في أوساط المجتمع وغيرها مما يدعو إلى الفرار إلى الله تعالى... ويكثر فيه - على طريق الخصوص في زماننا - من فرّ من موضع تكثر فيه الشهوات والعوائد، أو تكثر فيه العلائق والشواغل، إلى موضع يقل فيه ذلك، طلبا لصفاء قلبه ومعرفة ربه، بل هو أولى ويكون رفيقا لهما في حضرة القدس عند مليك مقتدر - . أما إذا ضاق المكان وجهر بالاستهزاء بالدين والتلاعب بآيات الله تعالى وكثر الفساد والانحلال فقد توجبت عليه الهجرة فرارا بدينه، وذلك إذا كان في مقدوره، ووجد مكانا يأوي إليه، أما إن تعسر ذلك فعليه بالصبر، وهو أمر هام لا بدّ من الإشارة إليه أي: الصبر"³. ثم ذكر أمثلة عن بعض الجزائريين الذين هاجروا فرارا بدينهم؛ ومن أشهرهم: الشيخ حمدان لونيبي⁴ الذي فرّ بدينه من الاستعمار الفرنسي واستقر بالمدينة المنورة وصار من علمائها، فقال: "وقد كان من

¹ ووجه كونها من مسائل العقيدة، أن مسألة الهجرة ذكرها العلماء في كتب العقائد لبيان أثرها على عقيدة المسلم، فالإقامة في بلد الكفر قد تكون سببا في ردّه، ويتأثر أولاده به.

² أخرجه السيوطي في كتاب "الزيادات على الموضوعات"، كتاب الجهاد، رقم: 601. (498/1).

³ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (283/7-284).

⁴ هو الشيخ محمد بن أحمد حمدان لونيبي ولد سنة: 1856م بقسنطينة، حفظ القرآن ودرس اللغة والفقه والتفسير والحديث على كبار علماء عصره، بدأ التدريس في الجامع الكبير بقسنطينة منذ سنة: 1880م وعمره لم يتجاوز 25 سنة، من أشهر تلامذته: عبد الحميد بن باديس، ونظرا لنشاطه التعليمي ومناهضته للاستعمار، تعرّض لمضايقات وطرده من التدريس بالجامع الكبير بعد 30 سنة من العطاء، ما دفع به إلى الهجرة إلى المدينة المنورة، فأكمل بها دراسة الفقه والحديث، إلى أن وافته المنية سنة: 1920م، ودفن بمقبرة البقيع. ينظر: مقال بعنوان: العلامة حمدان لونيبي (1856-1920)، بقلم: ديدوي محمد السعيد. موقع: عبد الحميد بن باديس رائد النهضة العلمية والفكرية بالجزائر، بتاريخ: 09/06/2019، الرابط:

سَبَقْنَا يَفْرُونَ بدينهم إلى الجبال ومغارات حتى لا يَرَوْنَ مُنْكَرًا لا يستطيعون دفعه وتغييره، فقد هاجر الشيخ حمدان لونيس -رحمه الله تعالى- إلى أرض الحجاز لما حلَّ الاستعمار ببلادنا¹.

وقد أكّد هذا الحكم وزاده توضيحا بأن المقصود بالهجرة من دول الكفر هو من يقيم فيها بلا ضرورة يعفو عنها الشرع، وهذا عند تفسيره لقوله تعالى ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ المائدة: ٥١، حيث يقول: "ينبغي ألا نفهم أن العلاقات الدولية والمصالح المشتركة بين الدول معنية بهذا الخطاب، وإنما القصد هو الإقامة في الكفر بدون حاجة ضرورة يعفو عنها الشرع"².

ثالثا: الردّ على استحلال دماء المسلمين بقتالهم تحت مسمى الجهاد:

وقد ذكرت هذه المسألة ضمن المسائل العقدية، لأن الحديث هنا عمّن يعتقد وجوب جهاد إخوانه المسلمين ويستحلّ دماء الموحدين الأبرياء، فكان هذا الاعتقاد سببا لسيلان الدماء، وقد أفاض الشيخ الكلام في هذه المسألة عند تفسيره لقوله تعالى ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ البقرة: ١٩٥، حيث بيّن مدلولها من الدعوة إلى القتال والجهاد، ودعوها للإنفاق في سبل الخير والابتعاد عما يؤدّي إلى تلف النفس. وختم حديثه عنها ببيان بطلان ما ذهبت إليه بعض الجماعات من إباحة دماء المسلمين بإنزالها لآيات الجهاد على غير من نزلت فيهم، فقال: "توجيه و إرشاد: أيها الناس اتقوا الله تعالى في هذا الدّين الذي جاء به خاتم النبيين وإمام المهتدين رحمة للعالمين، ويجب ألاّ يُؤوّل حسب الأهواء والرغبات الشيطانية فيستحلّ بها دماء المسلمين، إن لفظ (جهاد) مصطلح شريف له معناه وحكمه في الشريعة الإسلامية السمحاء، فقد استغلّه كثير من المتعطّشين إلى السلطة والحكم وأعلنوا الجهاد في المجتمع المسلم، وراحوا يجاهدون فيمن قال "لا إله إلا الله محمد رسول الله" معلنا الشهادة، وهذا رسول الله يقول «من قال لا إله إلا الله عصم دمه وماله وعرضه»³، أليس هذا مخالفة للشريعة واستعمال مصطلح (الجهاد) في غير محله؟!، ثم ما هي الهيئة التي تعلن الجهاد؟، هل يعلن الجهاد من لا علم له بالشريعة؟!، أم أن الجهاد لأهميته تعلنه هيئة من كبار العلماء الربانيين الراسخين في العلم. أليس ما يفعله كثير من الناس فأباحوا دماء المسلمين مدّعين أنهم

¹ الدر الثمين، التواقي بن التواقي، (284/7).

² المصدر نفسه، (142/8).

³ رواه البخاري في صحيحه عن ابن عمر، كتاب: الإيمان، باب (فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم)، رقم: 25.

ينصرون الدين، وأنهم يجاهدون لإعلاء كلمة الله، وفي حقيقة الأمر أنهم متعطشين إلى الحكم، يا ليت هؤلاء يتقون الله في عباده ولا يبتئون الرعب والخوف في وسط المسلمين"¹.

ولا شك أن كلام الشيخ يدخل فيه ما حدث في الجزائر زمن التسعينيات فيما يسمى بـ "العشرية السوداء" التي قُتل فيها المسلمون بغير حقّ تحت مسمى الجهاد في سبيل الله ضد الطغاة، فراح ضحيتها كثير من الأبرياء وأزهقت أرواحهم وسفكت دماؤهم².

ويؤكد الشيخ كلامه في موضع آخر بقوله: "ومما يحز في النفس ويؤلمها حين أصبح لفظ (الجهاد) يستعمل لقتل من قال "لا إله إلا الله" مع أن الرسول ﷺ هو القائل في الحديث المتفق عليه: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها أحرزوا دماءهم وأموالهم»³ "4.

كما ردّ مفسرنا على القتل المنتشر بين المسلمين، وبين أن فعلهم مخالف لأحاديث الرسول ﷺ فقال: "وهذا الصراع الدائر والقتل المستشري بين المسلمين؛ أليس انتهاكا لقول رسول الله ﷺ، عن الصنابحي الأحمسي، قال: قال رسول الله ﷺ «ألا إني فرطكم على الحوض، وإني مكاثر بكم الأمم فلا تقتلنّ بعدي» رواه ابن ماجه⁵ 6.

¹ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (483/3).

² وقد أُلّف في ذلك كتاب يلخص تلك الأحداث وخلفياتها وأسبابها، وعنوانه "مدارك النظر في السياسة بين التطبيقات الشرعية والانفعالات الحماسية"، عبد المالك رمضان. ينظر: مدارك النظر، (ص: 112-186).

³ رواه البخاري، كتاب: استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب: قتل من أبي قبول الفرائض وما نسبوا إلى الردة، برقم: 6526.

⁴ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (31-30/4).

⁵ رواه ابن ماجه في سننه، كتاب: الفتن، باب: لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض، برقم: 3944.

⁶ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (170/7).

المبحث الثاني: التنزيلات المتعلقة بأحوال المنتسبين للأمة الإسلامية.

اهتمّ الشيخ التواتي -حفظه الله - ببيان حال أبناء الأمة الإسلامية بجميع مراتبهم وصفاتهم، ليعرف سبب الداء الذي وصلت إليه الأمة، ولذلك وصف حال الراعي والرعية والعلماء، لأن هؤلاء هم الذين تركز عليهم الأمة في دينها ودنياها ومبادئها، وكان يحاول تنزيل آيات القرآن الكريم على أحوالهم ليجد العلاج من خلالها. فتحدث عن كلّ طرف من هؤلاء بما رأى أنه نافع له.

وقد تتبعت كلماته في هذا الباب فوجدتها مقسّمة إلى ثلاثة أقسام، جعلت كل واحدة في مطلب، فكانت ثلاثة هي:

المطلب الأول: حال حكام الأمة وعلمائها.

المطلب الثاني: بيان الحالة العامة لأبناء الأمة.

المطلب الثالث: ظاهرة الضعف والفرقة والاختلاف وسط الأمة الإسلامية. تفصيلها كالآتي:

المطلب الأول: حال حكام الأمة وعلمائها:

تنوعت تنزيلات الشيخ التواتي المتعلقة ببيان حال حكام الأمة وعلمائها، فرأى أهمية الحديث عنها في درسه التفسيري فكان دائما يحاول ربط معنى الآية بواقع حكام الأمة و فقهاءها، وقد تنوّعت هذه التنزيلات بين حديثٍ عن حكام الأمة وآخر عن علمائها فناسب تقسيمها إلى فرعين هما:

الفرع الأول: مسائل تتعلق بحال حكام الأمة:

تضمن هذا الفرع مسائل متنوعة تتعلق بحال حكام الأمة الإسلامية المعاصرين، وهي كما يلي:

أولا: وصف غالب المتصدّرين للحكم بأنهم أئمة سوء:

وصف مفسرنا حال حكام الأمة الإسلامية الذين أولاهم الله تعالى تسيير شؤون الأمة؛ فكان شديد اللهجة في ذلك كما هو معروف عنه أنه لا يخاف في الله لومة لائم ويجهر بالحق الذي يراه ولو كلفه ما كلفه، فإنه لما فسر قوله تعالى ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ الأنعام: ٦٥، ذكر تفسير ابن عباس لقوله ﴿عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾ بأنه أئمة السوء¹. ثم ربط الآية بواقع حكام المسلمين فقال: "ربط الآية بالواقع: ... ها هي الأمة الإسلامية سلّط عليها أئمة السوء يحكمون بالأهواء ويستحلّون ما حرم الله... فقد تحكّم السفلة في دواليب الحكم في البلاد فعاثوا فيه فسادا،

¹ محاسن التأويل، القاسمي، ت: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 1، سنة: 1418هـ، (391/4).

وأهلكوا الحرث والنسل فهضموا حقّ الفقير واليتيم والأرملة، وعطلّوا الشريعة، وكلّ ذلك من تحكيم الأهواء واستحلال ما حرّم الله من ربا وسائر المحرمات سببه الابتعاد عن ميراث محمد ﷺ، إذ يريدون من الدين ما يرضيهم، وذلك بأن تكون الفتوى الشرعية وفق أهوائهم، إننا بحقّ في الزمن الذي قال عنه رسول الله ﷺ «الناس في واد والقرآن في واد، فكونوا في وادي القرآن»¹2.

فوصف الشيخ وعدم رضاه عمّن تولوا زمام تسيير أمور الأمة واضح من كلامه، ولذا ينبغي لكلّ من ولّاه الله أمرا أن يكون أهلا له وإلا لحقه الذم، كما لحق كثيرا من حكام الأمة اليوم بسبب تطبيعهم مع اليهود وتخاذلهم في نصرة المستضعفين في غزة.

ثانيا: تشريع مالم يأذن به الله:

فعند تفسير قول الله تعالى ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَمُ وَحَرِّ جَبْرُ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِرَعْمِهِمْ وَأَنْعَمُ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَمُ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءٌ عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ الأنعام: ١٣٨، بيّن معنى الآية التي أبطلت فعل المشركين في التحليل والتحريم بأهوائهم، ثم نزل الآية على واقعنا فذكر أن هذا يشبه حال كثير من حكام زمننا الذين شرّعوا مالم يأذن به الله، فتحاكموا إلى القوانين الوضعية وتركوا التشريعات الربانية، فقال: "وختمت الآية بالوعيد على افتراءهم على الله تعالى واعتدائهم على خاصية من خصائصه تعالى حين شرّعوا لأنفسهم من تحريم وتحليل ما لم يشرّع الله تعالى، وإنّ حالهم ليشبه حال كثير من حكام زماننا حين شرّعوا ما يأذن به الله تعالى، ولم يستمدوا روح قوانينهم ممّا أنزل الله على نبيّه محمد ﷺ"³.

وقال أيضا منتقضا من يتحاكم إلى قوانين غير شريعة الإسلام: "وإننا لنرى الناس في زمننا ينتمون إلى الإسلام، ويدّعون أنهم من المسلمين، وتأخذهم الغيرة عن الإسلام، ولكنهم في حقيقة أمرهم بعيدون كلّ البعد عن شريعة الإسلام في قوانينهم الخاصة أو قانونهم الدولي، وإذا نوقشوا في ذلك قالوا: نحن بحكم انتمائنا إلى الأسرة الدولية مضطرون إلى التحكيم إلى القانون الدولي، فهل تحاكم رسول الله ﷺ إلى القانون الفارسي أو الروماني...؟"⁴.

¹ بحثت عن هذا الحديث في كتب السنة فلم أجده، -والله أعلم-.

² الدر الثمين، التواني بن التواني، (437/8).

³ المصدر نفسه، (129/9).

⁴ وينظر أيضا: المصدر نفسه، (157/7).

وهذه المسألة نبّه عليها كلّ من فسّر كتاب الله تعالى من المعاصرين، حيث ذمّوا ترك تحكيم الكتاب والسنة واستبدلها بالقوانين الوضعية البشرية، وبيّنوا أن سبب ذلك هو الإعراض عن الوحي والميل لتحكيم الهوى، من ذلك قول الشنقيطي: "ولا شك أن النتائج الوخيمة الناشئة عن الإعراض عن الكتاب والسنة من جملتها ما عليه المسلمون في واقعهم الآن من تحكيم القوانين الوضعية"¹.

ثالثاً: موالاة الحكام للكفار:

ففي تفسير قوله تعالى ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَحْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ذَلِيمِينَ﴾ المائدة: ٥٢، فالآية في بيان موالاة المنافقين لليهود والنصارى ومسارعتهم في ذلك، حيث يبادرون في موالاة اليهود والنصارى وأمثالهم ومعاونتهم، والسبب الدافع لذلك أنهم يقولون في أنفسهم نخاف أن تصيب المسلمين حادثة، أو نازلة تدور بالحال التي يكونون عليها من الظهور والغلبة، ولذلك لما فسّر الشيخ الآية نزلها على حال حكام المسلمين اليوم فقال: "مثلما هو الحال اليوم فإن كثيراً من الحكام يستظلون بظل الغرب اللعين، ومُخْتَمُونَ بالكفار مُسْتَنْصِرُونَ بهم على قهر شعوبهم، يُمَجِّدُونَ حضارتهم المادية الخليعة الماجنة"². وهذه الحقيقة للأسف هي الشائعة ويفعلها كثير من حكام المسلمين، ولذلك نبّه كثير من المفسرين عليها ونهوا حكام المسلمين عنها، منهم سعيد حوى لما قال: "كما هو الحال في زماننا، فإنك ترى العجب العجيب من مسارعة أهل النفاق للتهالك على أبواب أهل الكفر وخدمتهم، والتقرّب إليهم بضرب أولياء الله"³.

كما صرح الشيخ بأنّ الأمر قد يتعدّى إلى أكثر من ذلك، فقد يقوم بعض الحكام بتمكين العدو من خذلان المسلمين من أجل الحصول على مكانة عندهم، وفي ذلك يقول: "ومن المؤسف له إن بعض الحكام في زمننا هذا يسعون إلى تمكين العدو خذلان المسلمين، يظهر هذا في تنازعهم فيما بينهم من أجل مكانة عند أعداء الإسلام، مثل ما عليه حال كثير من حكام المسلمين اليوم"⁴.

الفرع الثاني: مسائل تتعلق بحال علماء الأمة ودعائها:

تضمّن هذا الفرع مسائل متنوّعة تتعلّق بحال علماء الأمة ودعائها، وصف فيها الشيخ حال هؤلاء ثم أعطى حلولاً ومقترحات في بعض القضايا المتعلقة بهم، بيّناها كالآتي:

¹ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، الشنقيطي، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، سنة: 1415هـ، (378/7).

² الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (147/8).

³ الأساس في التفسير، سعيد حوى، (3/1426).

⁴ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (191/7).

أولاً: فقدان الفقهاء والعلماء لمكانتهم:

تكلم الشيخ عمّا آلت إليه مكانة الفقهاء وأهل العلم في أوساط المسلمين، حيث همّشوا من طرف الأمة حتى فقدوا مكانتهم الحقيقية، ففي تفسير الشيخ لقوله تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ لقمان: ٦، بين معنى الآية ثم أخذ يقارن بين مكانة العلماء ومكانة المطربين المغنين؛ فوجد أنها رُفعت مكانة الصنف الثاني وهمّش الأول، ثم أعطى أمثلة ونماذج عن علماء جزائريين اندثر ذكرهم ومقامهم، فقال: "وهناك أمر عجيب غريب يذوب منه القلب كمدا؛ أن مصطلح "العظمة" في ميدان الدفاع عن الدين والوطن، أصبح يطلق على كلّ ماجن فاجر أو ماجنة فاجرة، ألا وهو مصطلح "البطل" و "البطلة".
لمثل هذا يذوب القلب من كمد * إن كان في القلب إسلام وإيمان¹.

وإذا قارنت حظّ العالم الفقيه بحظ المطرب المغني أيّهما أكثر حظوة ومقاماً؟، فما على ظهرها أسوأ حالا من العالم الفقيه، ولا أنعم بالا من المطرب المغني... هل سمعتم بفقيه مات أُخِيَّت ذكراه؟ فهذا الشيخ: أحمد شطة²؛ حامل الصحيحين البخاري ومسلم في صدره استظهاراً، ومات شهيدا في سبيل الوطن، وهذا الشيخ: أحمد قصيبة، أجزأ رجل في قول كلمة الحق، وهذا الشيخ: أبو بكر الحاج عيسى - وهو شيعي - عالم دين ولسان، وهو أعلم رجل عرفته الجزائر بعد الشيخ: عبد الحميد بن باديس، وهذا الشيخ: أحمد حماني³، أعلم رجل بالمذهب المالكي أصولاً وفروعاً، هل تسمعون عنهم حديثاً ولو همساً؟

¹ هذه القصيدة لأبي البقاء الرندي ت: 798هـ، يُرثي فيها الأندلس كما ذكرها المقرئ. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، شهاب الدين المقرئ، ت: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان (4/ 488).

² ولد الشيخ: أحمد شطة سنة: 1908م، بمدينة الأغواط، في أسرة علم وفضل، بدأ حفظ القرآن بالكتاب ثم التحق بمدرسة الشبيبة العصرية سنة: 1926م، وتعلم العلوم على يد مشايخها مثل: مبارك المليي وغيره، وبعدها التحق بجامعة الزيتونة سنة: 1929م وبقي حوالي 7 سنوات حتى نال شهادة التطويع وكُرّم من طرف باي تونس كونه من الأوائل، ثم عاد إلى الجزائر وبدأ بتقديم الدروس خفية، وبعدها صار خطيباً ومدرسا بإحدى مدارس الأغواط واشتهر بدروسه وخطبه عند الناس، وكان يركز فيها على الأخلاق ومحاربة الشرك والشعوذة والخرافة، إلى أن قتله المحتلّ الفرنسي بعد أيام من التعذيب، وقبره لا يزال مجهولاً غير معروف، ولذلك يلقب بالشهيد "صاحب القبر المجهول". ينظر: مجلة: دراسات وأبحاث المجلة العربية للأبحاث والدراسات في العلوم الإنسانية والاجتماعية مجلة دولية محكمة، تصدر عن جامعة زيان عاشور بالجلفة، مجلد: 13 عدد: 1، جانفي 2021م السنة الثالثة عشر، الرابط:

<https://asjp.cerist.dz/en/article/144480>

³ ولد أحمد حماني بالميلية سنة: 1915م، تعلم القرآن و مبادئ الفقه وأصول الدين، ثم انتقل إلى قسنطينة سنة: 1930م فآتم حفظ القرآن بكتاب سيدي أحمد النجار، ثم انخرط في طلبة عبد الحميد ابن باديس ابتداء من أكتوبر 1931م مدة ثلاث سنوات، فأتقن عدّة فنون، وبعدها ارتحل إلى تونس في السنة الدراسية: 1934م-1935م فانتظم في سلك طلبة

وغيرهم كثر إذ لا تخلو مدينة من مدن هذا البلد من عالم غير معروف لم يكرم، عاش منسياً ومات منسياً، فإن هذا التغافل عن ذكرهم وذكرهم يوشك أن تنشأ أجيال تجهل تمام الجهل عظماء أمتها، سألت مرة شاباً: هل تسمع بالشيخ الطاهر الجزائري¹؟ فأجاب: من هو؟².

ثانياً: وصف معاناة الدعاة عند جهرهم بالحق:

وتحدث التواتي عن ذلك لما فسّر التواتي قوله تعالى ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُؤْمِنٌ﴾ سبأ: ٤٣، فالآية تبين أن الكفار والمشرّكين إذا تليت عليهم آيات القرآن لم يذعنوا لها بل كذبوها وبثوا فيها شُبهاً، وقالوا في القرآن أقوالاً باطلة؛ منها قولهم: أنه افتراء وكذب مصنوع من عند محمد، وقولهم: هو سحر ظاهر، وغيرها من الأباطيل³.

لما ذكر الشيخ هذه المعاني أسقطها على واقع الدعاة وحالهم مع الناس، إذ إنهم يقولون في الدعاة والمصلحين الذين ينبهونهم على البدع والمخالفات، ما قال المشركون في القرآن الكريم، يقول التواتي: "الآية وواقع الناس: وهو ما يقال اليوم لكلّ مصلح يريد إصلاح ما أفسده الناس بتقاليدهم وبدعهم التي أدخلوها في الدين، وليست من الدين في شيء، وكذبوا فيها على الأولياء والصالحين الذين لهم مقام

الجامع الأعظم، وبقي مدة 10 سنوات حصل على الأهلية في: 1936م، وعلى شهادة التحصيل في 1940م، وعلى شهادة العالمية سنة: 1943م، عاد إلى الجزائر سنة: 1944م، وابتدأ العمل في التربية والتعليم، ولما اندلعت الثورة شارك فيها حتى أُلقي عليه القبض في 11 أوت 1957م، فغلّـب ثم نقل إلى السجن المركزي بتازولت فبقي إلى يوم 4 أبريل 1962م، وبعد تأسيس الحكومة الجزائرية عيّن في وظيفة المفتش العام للتعليم العربي، ولما أسس معهد الدراسة العربية بجامعة الجزائر عيّن أستاذاً به، وقضى في الجامعة 10 سنوات كاملة من 1962 إلى 1972م، وفي سنة 1972م استدعي ليكون رئيساً للمجلس الإسلامي الأعلى. توفي سنة: 1998م. ينظر: موقع: المكتبة الجزائرية الشاملة، إشراف: عمار رقية الشرفي، مقال: بعنوان: ترجمة العلامة أحمد حماني الجزائري، نشر في 13 سبتمبر 2017م، الرابط: <https://shamela-dz.net/?p=681>

¹ الشيخ طاهر السمعوني الجزائري ثم الدمشقي، أصله من الجزائر، ومولده ووفاته في دمشق، ولد سنة: 1852م، بحاث من أكابر العلماء باللغة والأدب في عصره، كان عارفاً بالكتب ومؤلفيها وأماكن وجودها، يحسن أكثر اللغات الشرقية: كالعبرية والسريانية والحبشية والزواوية والتركية والفارسية. عين مفتشاً للمدارس وساعد على إنشاء المكتبة الخالدية في القدس، انتقل إلى القاهرة سنة: 1325هـ، ثم عاد إلى دمشق سنة: 1338هـ، فكان من أعضاء الجمع العلمي العربي، وسمي مديراً لدار الكتب الظاهرية وله نحو عشرين مصنفات، منها: (التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن) و (توجيه النظر إلى علم الأثر) وغيرها. توفي بدمشق سنة: 1338هـ/1920م). ينظر: الأعلام، للزركلي، (3/221-222)، و معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، (5/36).

² الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (15/97).

³ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، (ص: 682).

مشهود وعمل محمود، وهم براء مما نسبته هؤلاء نسأل الله لهم الهداية¹. ويقول في موضع آخر "وإنما أشير إلى دعاة الحق الذين جوبهوا وعذبوا وشردوا ولا ذنب لهم إلا أنهم قالوا: ربنا الله"².

ثالثاً: تحذير الدعاة من استغلال الدعوة لخدمة مصالحهم:

ذكر المفسر في ثنايا تفسيره ظهور طائفة من الدعاة تستغل الدعوة إلى الله من أجل تحصيل الدنيا، مع أن الله تعالى حكى عن نوح عليه السلام أنه دعى قومه ولم يسألهم أجراً ولا مكانة كما في قوله تعالى ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الشعراء: ١٠٩، أي: ما أطلب منكم أجراً على تبليغ الرسالة ولا أطمع في ذلك منكم³، والآية تعم جميع الأنبياء عليهم السلام، فقد جاءت دعوتهم لبيان الحق وكل ما يقرب إلى الله، ولم تكن لهم مطامع ومقاصد دنيوية. فانطلق الشيخ التواتي من هذه المعاني وقارنها بين حال الدعاة في زمانه فوجد كثيراً منهم يخالف ذلك ويستغل الدعوة لتحقيق مآرب دنيوية فنبه على ذلك مُنكرًا بقوله: "وقد أبى أكثر الناس في زمننا إلا استغلال الدعوة إلى الله من أجل حظوة في الدنيا، أو مركز أو جاه أو منصب؛ بل إن القوم تنافسوا وتقاتلوا من أجل الكرسي والإمارة، كفر بعضهم بعضاً؛ بل رُمي من يخالفهم وانتقدهم بالجهل وسوء فهم مقاصد الشريعة، وكأن من مقاصد الشريعة أن يعتلي هذا "الداعي" رقاب الناس، ويسير شؤونهم، وكل من عاكسه في الرأي أو في وجهة فهو عدو للإسلام وعدو للدعوة"⁴. كما بيّن وجوب تجريد الدعوة عن أي غرض دنيوي، وأن لا يطمع فيما بأيدي المدعوين، فقال: "الدعوة يجب أن تكون مجردة من أي غرض من أغراض الدنيا؛ لأنّ الداعي لا يريد ممن دعاهم على الحق المبين أن ينتخبوه، أو ييؤثوه منزلةً، وإنّما دعاهم إلى الله ليعبدوه ويوحّدوه"⁵.

رابعاً: مقترحات لتدارك الوضع:

بعد بيان الشيخ لأحوال العلماء والدعاة في زمننا نجده يقترح حلولاً لتدارك الوضع، ومن ذلك:

- 1- اقتراحه إنشاء مجالس للسمع والرواية عن العلماء: فيحفظ بذلك علمهم وتوحد الفتوى وينغلق باب المتقولين بغير علم، يقول: "دعوة صادقة: ماذا عليهم لو أنهم كوّنوا مجالس العلماء والسمع منهم والرواية عنهم، يحضرها الحاكم والمحكوم، في مدينة معلومة بعلمائها لما فيها من الفوائد: الفائدة الأولى:

¹ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (375/15).

² المصدر نفسه، (191/14).

³ فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق خان القنوجي، (399/9).

⁴ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (145/14)، وينظر أيضاً: المصدر نفسه، (191/14).

⁵ المصدر نفسه، (146/14).

لا يشعر هؤلاء العلماء بالغربة في مُدُنهم خاصة وفي بلادهم بصفة عامة. الفائدة الثانية: توحيد الفتوى بين أهلها وقَطْع الطريق على كلِّ متقوِّل ليس من أهل الاختصاص من أدعياء العلم¹.

2- تعلم العلوم الشرعية الصحيحة، وطلب الفقه الإسلامي بمناهجه السليمة في الاستنباط، أما العلم السطحي فلا يكفي طالب العلم، وفي ذلك يقول: "والناس اليوم بحاجة بل في ضرورة إلى طلب العلم الراسخ المتمكّن في النفوس المبنيّ على الأصول الشرعية، والعلم بالمناهج التي بُني عليها الفقه الإسلامي الصحيح والمستنبط من مداركه الشرعية. وأما العلم السطحي الذي يعرف الإنسان به شيئاً من المسائل التي يتلقاها كما يتلقاها العامة دون معرفة لأصولها وما بُنيت عليه؛ فإنه علم قاصر جدّاً لا يتمكّن الإنسان به من الدفاع عن الحقّ وقت الضرورة وجدال المبطلين"².

3- الالتزام بالميراث النبوي: وذلك بالرجوع إلى الكتاب والسنة، "فلا صلاح لآخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها"³، لذلك يجب الرجوع إلى الكتاب والسنة، فهما الميراث الذي يرحم الله به هذه الأمة، وهما المحجة البيضاء التي لا يزيغ متّبِعها. يقول التواتي: "فاستقيموا يا عباد الله، وعودوا إلى ميراث محمد ﷺ به تسودوا وتفوزوا، وأن لا مخرج لكم من الضلال الذي أنتم فيه إلا بالعودة إلى وصية محمد ﷺ في حجّه: «كتاب الله وسنتي» و «ولا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»⁴. "⁵.

المطلب الثاني: بيان الحالة العامة لأبناء الأمة.

تنوعت تنزيلات التواتي المتعلقة ببيان حالة عموم أبناء الأمة بمختلف أطيافها، فرأى أهمية الحديث عن هذه الفئة إذ هي أكثر شريحة المجتمع، فكان دائماً يحاول ربط معنى الآية بواقع عموم أطياف الأمة. وقد تنوعت هذه التنزيلات بين حديث عن عموم المسلمين وتجارهم، فناسب تقسيمها إلى فرعين هما:

¹ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (97/15-98).

² المصدر نفسه، (430/7).

³ هذا الأثر من كلام أبي بكر الصديق، وقد جاء في آخر خطبة خطب بها الناس. كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، البرهان فوري، حرف الجيم، كتاب: الخلافة مع الإمامة من قسم الأفعال، الباب الأول: في خلافة الخلفاء، رقم: 14183، (681/5).

⁴ رواه البخاري في صحيحه، كتاب: المغازي، باب: حجة الوداع، رقم: 4141.

⁵ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (191/14)، وينظر: الدر الثمين: (437/8).

الفرع الأول: حال عموم المسلمين:

تضمن هذا الفرع مسائل متنوعة تتعلق بحال عموم المسلمين في الأمة؛ وصف فيها الشيخ ما آلت إليه حالهم من مخالفات تسببت في تأخر الأمة، فكان يعدد في ثنايا تفسيره شتى أنواع الفساد والمعاصي التي يشهدها واقع المعيش، ثم يربطها بآيات القرآن الكريم، ومما ذكره في هذا الموضوع:

أولاً: فشو المعاصي والانحلال الخلقي بأنواعه:

اهتم المفسر ببيان حال المسلمين في الجانب الأخلاقي ومدى التزامهم بشرع الله تعالى، فكان كثيراً ما يبين أن انتشار الرذيلة والفساد عثش في المجتمع مما أزال عن الأمة الإسلامية صفة الخيرية التي جعلها الله لها ما أمرت بالمعروف ونهت عن المنكر، وقد تحدت عن ذلك عند تفسيره لقوله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ آل عمران: ١١٠، فقال: "ولعل حالة أمة محمد ﷺ في زماننا ينبغي أن الخيرية التي وصفوا بها بعيدة عنهم كل البعد إلا من رحم الله من عباد صالحين متمسكين بأهداب الشريعة¹ عاضين عليها بالنواجذ"². وذاك أن شرط الخيرية لهذه الأمة مرتبط بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا ظهرت المعاصي، كما قال عمر رضي الله عنه: «يا أيها الناس من سره أن يكون من تلك الأمة، فليؤد شرط الله منها»³.

كما فصل الشيخ في بعض تلك المنكرات التي انتشرت، فقال: "وإن كثيراً من السلوكات يشوبها ابتعاد عما جاء به محمد ﷺ، وكأني بالقوم أصبحوا غير موقنين بحلول العذاب بغتة وهم لا يشعرون: هاهم عَصَوْا رَسُولَهُمْ وَعَصَيْنَا رَسُولَنَا فِيمَا جَاءَ بِهِ، وَإِنْ ادَّعَيْنَا أَنَّنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ: حَرَّمَ الرِّبَا فَأَكَلْنَاهُ، وَحَرَّمَ الزَّانَا فَارْتَكَبْنَاهُ، وَنَهَانَا عَنِ الْقِيلِ وَالْقَالِ وَإِذَا مَجَالَسْنَا كُلَّهَا قِيلَ وَقَالَ، وَنَهَانَا عَنِ التَّبَاغُضِ فَتَبَاغَضْنَا، فِي حُجَّةِ الْوَدَاعِ نَهَانَا عَنِ التَّقَاتِلِ بِقَوْلِهِ: «لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كَفَارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ»، وَقَدْ تَقَاتَلْنَا طَمَعًا فِي دُنْيَا، حَبَا فِي سُدَّةِ حَكْمٍ تَعْتَلَى، بَعْدَ هَذَا هَلْ نَحْنُ حَقًّا مُسْلِمُونَ؟»⁴.

كما بين المفسر أن التدهور الخلقي يهدد كل بيت مسلم، وهذا مما يقود الأمة إلى مصير بائس، فالبشرية اليوم تعيش في جاهلية تماثل أنواع الجاهليات القديمة، ولا خلاص منها إلا بعناية المسلمين

¹ المقصد من العبارة: بأطراف الشريعة، تهذيب اللغة، للأزهري، (309/2).

² الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (473/5).

³ جامع البيان، الطبري، (673/5).

⁴ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (275/5).

برسالة الإسلام الذي لا يتحقق إلا بالعودة إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، يقول التواتي: "والجاهلية التي تتمرغ البشرية اليوم في وحلها لا تختلف في طبيعتها عن تلك الجاهلية العربية أو غيرها من الجاهليات التي عاصرتها في أنحاء الأرض حتى أنقذها منها الإسلام وطهرها وزكّاها... -ثم ذكر ما انتشر في الأمة من أنواع الفساد قائلًا-، ونظرة إلى صحافتها وأفلامها ومعارض أزيائها ومسابقات جمالها ومراقصها وحنانها وإذاعاتها، ونظرة إلى سعارها المجنون للحم العاري والأوضاع المثيرة والإيحاءات المريضة في الأدب والفن وأجهزة الإعلام كلّها إلى جانب نظامها التربوي، وما يكمن وراءه من سعارٍ للمال ووسائل خسيصة لجمعه وتثمينه وعمليات نصب واحتيال وابتزاز تلبس ثوب القانون، وإلى جانب التدهور الخلقي والانحلال الاجتماعي، الذي أصبح يهدّد كلّ نفس وكلّ بيت وكلّ نظام وكلّ تجمع إنساني، نظرة إلى هذا كله تكفي للحكم على المصير البائس الذي تدلف إليه البشرية في ظل هذه الجاهلية"¹.

ثانيا: شيوع السفه بين أبناء الأمة:

تحدث الشيخ عن آفة السفه²، لما فسر قوله تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ البقرة: ١٢-١٣، ومعنى الآية أن المؤمنين إذا قال أحدهم لهؤلاء: صدقوا في إيمانكم وآمنوا إيمان فلان وفلان مثل: عبد الله بن سلام... ردوا قائلين: بأن هؤلاء سفهاء لا رشد لهم ولا بصيرة، فرد الله تعالى عليهم دعواهم فبرأ المؤمنين من هذا العيب ووصم به المنافقين الذين هم أهل حق، فإنه لا سفه أكبر من الكفر بالحق والإيمان بالباطل³. ولما فسر الشيخ التواتي الآية؛ بيّن معناها ثم نبّه على خطر السفه الذي شاع بين أبناء الأمة وكانت له آثار سيئة، فقال منزلاً الآية على واقعه: "توجيه وإرشاد: أيها الناس إن الآية الكريمة التي نحن بصدد تدبرها تحذّرنا من أسوء الأخلاق، ألا وهو: السفه: -عافانا الله وإياكم من صفة الدنيّة- إنه الطيش وإنه الغرور، إنه الإعجاب إنه الاندفاع وعدم التزو، إنه سبب البوار، إنه المفسد للعلاقات، وقد حدّثنا الآية أن كفر من كفر كان سببه السفه، فاحذروا ما حذرکم الله تعالى منه"⁴. وصدق الشيخ في كلامه إذ إن السفه يجعل حياة الإنسان لا قيمة لها، فتصير مجرد فوزى وجرأة على حدود الله تعالى.

¹ المصدر السابق، (220-219/6).

² السفه: خفة تعرض للإنسان من الفرح والغضب فتحمّله على العمل بخلاف طور العقل وموجب الشرع. التوقيف على مهمات التعاريف، عبد الرؤوف المناوي، عالم الكتب عبد الخالق ثروت، القاهرة، ط: 1، سنة: 1410هـ، (ص: 407).

³ أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، أبو بكر جابر الجزائري، (26/1).

⁴ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (328/1).

ثالثاً: انتشار المجاهرة بالمعاصي:

أفلا نقول أن هذه الآية بحق أنها تصف حالنا اليوم².

ثالثا: انتشار التعامل بالربا جمعا للثروة:

الآخر في القدر، وهكذا كلّ عام فرما تضاعف القليل حتى يصير كثيرا مضاعفا³.

بِكُسْبِهِمْ هَذَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذِبُوا، وَأَنْهُمْ لِأَمْرِ اللَّهِ عَصَاةٌ فَمَا رَهَبُوا، وَهَآكُم مَّا قَالَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي أَكْلِ

¹ رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة، كتاب: الأدب، باب ستر المؤمن على نفسه، رقم: 6069.

² الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (328/1).

³ تفسیر ابن کثیر، (102/2).

الربا، عن أنس رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ فذكرنا الربا وعظم شأنه، فقال: «الدرهم الذي يصيبه الرجل من الربا أشد من ست وثلاثين زنية في الإسلام»¹...².

وقد أكد الشيخ في موضع آخر أن المسلمين اتخذوا الربا وسيلة الثروة، فقال: "ونحننا ربنا في القرآن عن التعامل بالربا فاتخذناه وسيلة لجمع الثروة من طرق غير شرعية"³. كما نصح الأمة بتجنب الربا والحرص على الحلال من طعام وشراب ولباس، فقال: "وإني أهيب بكم أيها السادة أن تصغوا إلى خطاب ربكم؛ لا تجعلوا لباسكم من حرام، ومعاشكم من حرام، ومساكنكم من حرام على ما هو مشاهد عند بعض الناس، حتى لا تجعلوا بينكم وبين الله حجاب، فقد جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «... ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب، ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وقد غذي بالحرام، فأني يستجاب له؟» رواه مسلم في الصحيح عن أبي كريب⁴ "5.

رابعاً: فشو الزنا:

من المعاصي التي انتشرت في أوساط المسلمين وذاعت فيها تقليدا للكافرين: الزنا - عيادا بالله-، ولذلك خصه الشيخ بدرس فقهي مفصل في تفسيره لقوله تعالى ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرَكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾⁶ النور: ٣، فقال ممهدا لذلك: "ونظرا لأهمية موضوع فاحشة الزنا وتفشيها في الأوساط أرى من الأهمية بمكان أن أخص هذا الموضوع (الزنا) في جلساتنا المخصصة للتفسير بأبواب من الفقه، فنكون قد جمعنا بين درسي التفسير والفقه"⁶.
ثم استفاد في بيان أحكام الزنا؛ فعرفه وبيّن أدلة تحريمه من الكتاب والسنة والإجماع والنظر، وعدّد أضراره الدنيوية والأخروية، ثم ذكر لمحة عن تدرّج عقوبة الزنا، وطرق ثبوته وشرط الحد⁷.

¹ رواه ابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب: البيوع والأقضية، باب: أكل الربا وما جاء فيه، رقم: 22436. وقال فيه الشيخ الألباني: "صحيح لغيره"، صحيح الترغيب والترهيب، (178/2).

² الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (63/6).

³ المصدر نفسه، (249/7).

⁴ رواه مسلم في صحيحه، كتاب: الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها، برقم: 2393.

⁵ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (511/4).

⁶ المصدر نفسه، (351/13).

⁷ المصدر نفسه، (386-351/13).

ولما فسّر الشيخ قوله تعالى ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَّتَكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَعُوا عَرْضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ النور: ٣٣، ذكر أنّ الآية نزلت في عبد الله ابن أبي بن سلول الذي كان يُكره جاريته على الزنا من أجل المال¹، ثم نزل الآية على واقعه، فذكر صوراً معاصرة لإكراه النساء على هذه الفاحشة في واقعنا، فبيّن أن هذا الرجل لا وجود له اليوم ولا لطريقته، ولكن ظهرت طرق غيرها أشدّ عاراً على المسلمين وغيرهم، وهي خطف النساء من أجل استعماهن في السوق و عرضهن على الأثرياء ممّن ابتلي بالمال، كما شجعت المرأة على الدعارة باسم التمثيل، وفتحت لها معاهد للرقص والغناء باسم الثقافة، يقول الشيخ التواتي: "لم يعد لابن أبي بن سلول وجود، ولا الطريقة التي كان يستعملها مع جاريته لها وجود اليوم، وإنما هناك طرق أخرى أكثر عاراً على البشرية وعلى المسلمين المخاطبين بالقرآن، وهو خطف النساء لاستعماهن في السوق وعرضهن على الأثرياء، ممّن ابتلاهم الله بالمال من بني جلدتنا، والغريب في الأمر ممّن يدعون أنهم حماة الدين... إن الواقع الأليم والمرّ هو ما تعيشه المرأة اليوم في مجتمع يدّعي التمدن والحضارة، والمرأة فيه مهانة سلعة تباع وتشترى، وتعرض للبيع بالمزايدة، ألا نستحي من أنفسنا حين نستعرض الواقع؟، ألم نشجعها لاقتحام الدعارة باسم التمثيل؟، ألم نفتح لها معاهد الرقص والغناء باسم الثقافة؟"².

وختم الشيخ ببيان علاج ظاهرة الزنا وهي تيسير الزواج، فقال: "وإني أختم هذه الآيات بهذا التوجيه والإرشاد والدعوة إلى تيسير الزواج لما فيه من حصانة للمجتمع من الفساد وإشاعة الفاحشة في الأوساط"³. وهذا الذي ذكره الشيخ هو الذي حثت عليه السنة كما جاء في حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «خير النكاح أيسره»⁴.

الفرع الثاني: حال التجار:

خصّص الشيخ التواتي هذه الشريحة من المجتمع بالحديث، لما لها من تأثير على العجلة الاقتصادية التي عليها مدار حياة الأمة مادّيّاً، فبصلاحهم تصلح معيشة الناس وبفسادهم تفسد، ولذا نبّه في كثير من المواضع على أحوال التجار ووجههم لعلّ التجار ينتصحو، ومن المسائل المتعلقة بذلك ما يلي:

¹ أسباب النزول، الواحدي، (ص: 326).

² الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (13/425-426).

³ المصدر نفسه، (13/426).

⁴ رواه ابن حبان، كتاب: النكاح، باب: الولي، ذكر الإباحة للإمام أن يزوج المرأة التي لا يكون لها ولي غيره من رضى من الرجال، وإن لم يفرض الصداق في وقت العقد، رقم: 4072. وقال الألباني: "صحيح"، ينظر: صحيح وضعيف الجامع الصغير، (12/483).

أولاً: مخالفة التجار لشرع الله:

ذكر الشيخ بعض ما يقع فيه التجار من المخالفات الشرعية، وذلك بعد بيانه لقصة النبي شعيب عليه السلام مع قومه المذكورة في قوله تعالى ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ... الشعراء: 176-191، حيث ذكر ما وقع فيه المكذّبون من قومه عليه السلام من مخالفات، ثم نزلها على تجار زماننا قائلاً: "أليس هذا هو حال تجارنا اليوم في بيعهم وشرائهم، والاحتكار ورفع الأسعار وتطيف الكيل والميزان، وقد نُهوا عن تلقي الركبان¹ وقد فعلوا كل ذلك، ومع أنهم ينطقون بالشهادتين، فإنّ الناطق بهما حقاً يكون وفق ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله"².

كما ذكر الشيخ تفنّن التجار في صور الغشّ والمغالة في الأسعار، وعرض البضائع منتهية الصلاحية، وتسائل عن المراقبين للتجار، هل قاموا بواجبهم في معاقبة المخالفين، أم رضوا بالرشوة وتركوا واجبهم؟، فقال: "هل تجارنا صادقون أمناء، أليسوا بطّافين في الميزان مغالين في الأسعار، غشّاشين فيما يعرضون من أغراض تجارية؟، ألم يصل بهم الأمر في عرض البضائع التي انتهت صلاحيتها، ولا يبالون بإذاتها للصحة، وقد تؤدّي إلى الهلاك، هل نظام الحسبة³ قائم بواجبه في معاقبة المتجاوزين الحدود؟، أم هو مرتشي يرضيه الدينار من هذا وذاك، ولا يبالى؟"⁴.

ثانياً: ضرر التطفيف:

من المسائل التي شاعت بين تجّار زماننا ولم يفوّت التواتي تنزيل الآيات عليها؛ مسألة التطفيف⁵، والتي شاعت وذاعت وتفنّنت فيها التجار، ولذا نبّه عليها وبيّن عاقبة التطفيف في الدنيا والآخرة بقوله: "موعظة الجلسة: يا أيها الناس إن هذه الآيات قد بيّنت لكم مغبة جريمة التطفيف، وأنه يُكسب المطّقف بعداً ومقتناً وغضباً من الله تعالى، وأن ما حسب أن كسب الإنسان مالا بهذه الطريقة الشنيعة الدنيئة ففي الحقيقة إن ما كسبه من مالٍ لا يلبث أن يزول ويذوب، وأن إثمّه له أثر على سلوكه الدنيوي والأخروي. أما أثره الدنيوي فقد غلّف قلبه فلا يعمل صالحاً يرضى به الله عنه.

¹ ويقصد به الشيخ حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: "نهى النبي صلى الله عليه وآله عن التلقي، وأن يبيع حاضر لباد". رواه البخاري في صحيحه، كتاب: البيوع، باب: النهي عن تلقي الركبان، برقم: 2162.

² الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (163/14).

³ يقصد بها الشيخ بعض المنظمات والجمعيات التابعة لوزارة التجارة، مثل "المنظمة الجزائرية لحماية المستهلك" أو "قمع الغش".

⁴ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (181/13)، وينظر: (369/19)، حيث جعل حالات للغش منها: الغش في التجارة.

⁵ التطفيف: من طفف وهي مبالغة من طف، وهو: إعطاء المرء أقل من حقه. معجم لغة الفقهاء، محمد رواس قلعجي - حامد صادق قنبي، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، ط: 2، سنة: 1408هـ - 1988م، (ص: 134).

وأما أثره الأخرى فيبقى حالاً في صحيفته حتى يلقي الله تعالى فيحاسب به ويقال له: هذا ما أرداك، وأبعدك عن مولاك، فقد ارتكبت ما أشقاك. أيها الناس: لا تحسّوا تطفيف الميزان شيئاً تافهاً لا قيمة له، فقد نبّهنا خالفنا في القرآن مغبة ذلك حين قال ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ النور: 15، إذ إن كثيراً منكم يستصغرون مثل تلك التعاملات وهي عند الله عظيمة تُؤدّي إلى غضب الله، ومن يكن الله عنه غاضباً فأبى أرض تُقلّه وأبى سماء تُظله¹.

ثالثاً: نصيحة للتجار فبصلاحهم تصلح معيشة الأمة:

كان الشيخ التواتي ناصحاً أميناً لفئات المجتمع، لا يدع فرصة إلا نصح أبناء بلده، ولذا نصح التجار والحرفيين وحثهم على تجبّ الغشّ، وذلك بالتجارة والمهنة الحلال، وربط بهم صلاح المجتمع، إذ هم من الأعمدة التي يقوم عليها صلاح الأمة، فقال: "وصلاح الأمة يقوم على أربعة عمد:... أن يقوم أبناء الحرف المختلفة؛ من تجار وصناع وزرّاع بأداء أعمالهم على الوجه المرضي، وكلّ طائفة منها تظاهر الطوائف الأخرى وتعاونها لخير الجميع، وتقوم بما يجب نحوها من المساعدة فيما يكفل نجاح الأعمال"².

وصلاح التاجر وصدقه في عمله، فيه أجر عظيم يوم القيامة وفساده فيه وعيد شديد، مصداقاً للحديث المروي عن النبي ﷺ «إِنَّ التَّجَارَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فُجَّارًا، إِلَّا مَنْ اتَّقَى وَبَرَ وَصَدَقَ»³.

المطلب الثالث: ظاهرة الضعف والفرقة والاختلاف وسط الأمة الإسلامية:

تنوعت تنزيلات الشيخ التواتي المتعلقة ببيان حالة عموم أبناء الأمة والعلاقات بينهم، ومما ركّز عليه في ذلك؛ ظاهرة التفرّق والاختلاف بين أبنائها؛ لأن ذلك أعظم أسباب ضعفها، وهو ممّا نهى عنه القرآن تصريحاً وتلميحاً، ولذا اعتنى بها الشيخ وربط الآيات القرآنية بما يحدث في مجتمعه منها، فذكر أسباب تفرّق الأمة، وأنواع التفرّق، وآثاره الوخيمة، ولذا قسمت هذا المطلب إلى ثلاثة فروع تفصيلها كما يلي:

الفرع الأول: أسباب ضعف وذلّ المسلمين وهوانهم على أعدائهم:

تضمّن هذا الفرع مسائل متنوّعة تتعلّق بأسباب ضعف المسلمين استنبطها التواتي من الآيات القرآنية، فذكر عدّة أسباب لهذا الضعف والذلّ وربطها بحال الأمّة في هذا العصر، وركّز على أن سبب ذلك هو ترك اتباع الشريعة، لأن الخير في الالتزام بها والذل في تركها، ومما ذكره من الأسباب:

¹ الدرّ الثمين، التواتي بن التواتي، (114/20).

² المصدر نفسه، (180/13-181).

³ رواه ابن ماجه في سننه، أبواب التجارات، باب: إذا قسم للرجل رزق من وجه فليزمه، رقم: 2146. وقال فيه الأرئؤوط: "حسن لغيره". ينظر: سنن ابن ماجه، (277/3).

أولاً: الإعراض عن اتباع تعاليم الشريعة الإسلامية عموماً:

ابتدأ الشيخ بالتنبيه العام على أن سوء حالة المسلمين وشقائهم في الدنيا؛ سببه الابتعاد عن شرع الله وتعاليم دينه وإهمالهم لأدابه وأخلاقه، واتباع ما تمليه الأهواء الضالة. ولذا فإنه لما فسر قوله تعالى ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ آل عمران: ٢٦، نزل الآية على واقع المسلمين، فبين أن ما أصابهم من ذلّ وخضوع للأعداء إنما كان بسبب إعراضهم عن دينهم، فقال: "انظروا إلى حال المسلمين اليوم حين تركوا التمسك بجبل الله تعالى، وحادوا عن المنهج القويم الذي ارتضاه لهم رب العالمين، فدبّ الذلّ فيهم وخضعت رقابهم لأعدائهم، وما أذلّهم الله إلا حين ابتعدوا عن تعاليم الدين الصحيح، الذي انتصر به رسول الله ﷺ مسير شهر¹، وذلّ هؤلاء اليوم في عقر ديارهم. والسؤال هنا: هل هم قلة؟، لا بل كثرة كثرة ولكنهم «غثاء كغثاء السيل»، ذاك ما قاله رسول الله ﷺ².

وقد نبّه على هذه القضية الإمام ابن العربي أيضاً قبل التواتي بقرون فبين سبب نصرة الأمة وسبب خذلانها فقال: "والمسلمون ينصرون بعده على قدر طاقتهم... كما أنه إذا فشا فيهم الزنا كثر فيهم الموت، لأنهم طلبوا تكثير الوجود من غير طريق الشرع فسلب الله تعالى عليهم الفناء"³.

وعندما فسر التواتي قوله تعالى ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ النور: ٦٣، قال: "وإن الأمة الإسلامية أصابها ما أصابها من تقهقر وذلّ وانصياع لعدوّها إلا حين ابتعدت عن شريعتها السمحاء التي جاء بها محمد ﷺ وأرادها الله تعالى منهجاً لنا، وقد تنبأ رسول الله ﷺ بهذا فيما روي عنه أنه قال «يوشك الأمم أن تتداعى عليكم كما تتداعى الأكلة على قصعتها، قيل: أومن قلة نحن يومئذ؟ قال: لا بل أنتم أكثر ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله المهابة منكم وليقذفن في قلوبكم الوهن» قلنا: يارسول الله وما الوهن؟ قال «حب الدنيا وكراهية الموت»⁴ 5.

¹ يشير إلى الحديث الذي في البخاري، كتاب: الصلاة، باب: قول النبي ﷺ "جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً"، رقم: 438.

² الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (147/5).

³ القيس في شرح موطأ مالك بن أنس، ابن العربي، ت: الدكتور محمد عبد الله ولد كريم، دار الغرب الإسلامي، ط: 1، سنة:

1992م، (ص: 595).

⁴ رواه أبو داود في سننه، كتاب: الملاحم، باب في تداعى الأمم على الإسلام، رقم: 4299. وقال الألباني: "صحيح". ينظر: صحيح

وضيعف سنن أبي داود، (297/9).

⁵ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (157/7).

ثانيا: مخالفة السنة النبوية وعدم العمل بها:

بيّن الشيخ في مواضع كثيرة أن مخالفة السنة النبوية من أعظم أسباب ذلّ المسلمين وتحلّفهم، ومن ذلك ما جاء في تفسيره لقوله تعالى ﴿أَوَلَمَّا أَصَبْتُمْ مُمْصِيَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ آل عمران: ١٦٥ ، فهذه الآيات نزلت متحدة عما أصاب المسلمين يوم أحد فقتل سبعون منهم، وأصابوا مثلها يوم بدر، قتلوا من المشركين سبعين، وأسروا سبعين¹. فذكر الشيخ أن سبب انهزام المسلمين في عقر دارهم هو مخالفة السنة فقال: "أيها الناس إن نبيكم محمد ﷺ نصر بالرعب مسيرة شهر، مالكم انهزمت في عقر دياركم؟ كل ذلك سببه مخالفة ما أوصاكم به نبيكم فقد قال لكم: «تركتم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يضل عنها إلا هالك: كتاب الله وسنتي»²، وقال: «لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض». هل أخذنا بما وصّى به هذا النبي الكريم؟"³.

كما أكد الشيخ ذلك عندما فسّر قوله تعالى ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ البقرة: ٢١٢، فقال: "وحال الأمة اليوم دليل على ابتعادها عن منهج الله الذي ارتضاه لعباده، والابتعاد عن المنهج الرباني كفر نعمة، وما ساء حال الأمة وأصابها الذل والهوان إلا بعد أن أصبحت في غير الواد الذي أوصاهم رسول الله ﷺ وبعد أن ضربوا رقاب بعضهم بعضا، فقد جاء الحديث صريحا بهذا البيان وهذه الوصية عن أبي بكر قال: خطبنا رسول الله ﷺ يوم النحر فقال: «لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض»"⁴. وصدق رسول الله ﷺ فهذا مما انتشر في واقع المسلمين، حيث فشا القتل واستُحِلَّتْ الأنفس والدماء والله المستعان، وإليه المشتكى وعليه التكلان.

الفرع الثاني: أنواع تفرق أبناء الأمة الإسلامية:

ذكر التواتي أنواعا من التفرق الذي أصاب أبناء الأمة أخذا من آيات القرآن الكريم، مبينا ما شهده عصره. والأنواع التي ذكرها هي:

أولا: النوع الأول: التفرق في الدين:

¹ مسند أحمد، مسند الخلفاء الراشدين، أول مسند عمر بن الخطاب ﷺ (335/1)، وهو صحيح، ينظر: الصحيح المسند من

أسباب النزول، مقبل الوادعي، (ص: 54).

² رواه أحمد في مسنده، مسند: الشاميين، حديث العرياض بن سارية عن النبي ﷺ، رقم: 17142، (367/28).

³ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (227/6).

⁴ المصدر نفسه، (9/4).

وقد تحدث الشيخ عن مسألة التفرق في الدين من عدّة جوانب أهمها:

1- وصف الشيخ درجة التفرق في الدين وما وصل إليه في عصره: حيث إنه لما جاء إلى تفسيره لقوله تعالى ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ النصر: ١- ٢، أورد في تفسيرها حديثا يصف تفرق المسلمين في دينهم، فقال: "... حدثني جابر لجابر، قال سألتني جابر عن حال الناس، فأخبرته عن حال اختلافهم وفرقتهم، فجعل يبكي ويقول سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس دخلوا في دين الله أفواجا وسيخرجون منه أفواجا»¹. تعليق: إذا كان هذا الأمر في عصر جابر، وبكى لاختلاف الناس، فكيف بزماننا وقد تفرقنا شذر مذر، ولم يعد للمسلمين كلمة جامعة للصنفوف، بل تشعبت الأهواء وصار كل واحد يفهم الدين كما يريد، بل أصبح من يكذب بالدين وينبذه كلياً؛ أليس هذا ما أخبر عنه رسول الله ﷺ².

2- الحث على الاجتماع والتحذير من التفرق: ذكر التواتي أن الله تعالى أمر في كتابه بالاجتماع على الحق الذي جاء في الكتاب والسنة، ونهانا في المقابل عن التفرق في ذلك، فإنه لما فسر قوله تعالى ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا﴾ آل عمران: ١٠٣، استنبط من الآية: وجوب التمسك بالكتاب والسنة والرجوع إليهما عند الاختلاف ودم التفرق في الدين، فقال: "محمل القول: ...أمرنا الله تعالى بالاجتماع على الاعتصام بالكتاب والسنة اعتقاداً وعملاً، وذلك سبب اتفاق الكلمة وانتظام الشتات الذي يتم به مصالح الدنيا والدين والسلامة من الاختلاف، وأمر بالاجتماع ونهى عن الافتراق الذي حصل لأهل الكتابين"³.

3- أسباب الاختلاف في الدين: وذكر الشيخ سببين تسببا في الاختلاف في الدين وهما:

أ- أسباب ذاتية: وتتمثل في ابتغاء السلطان والجاه وحب النفس وغيرها مما يتعلق بهوى النفوس وهو أمر مبني على المشاحة فيسبب اختلاف النفوس، يقول: "ألم نستخدم الدين لتحقيق أغراض دنيوية، فكان

¹ أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند جابر بن عبد الله ﷺ، رقم: 14696. قال شعيب الأرنؤوط: "إسناده ضعيف"، (47/23).

² الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (480/20).

³ المصدر نفسه، (440/5).

الصراع من أجل الكرسي والجاه والسلطان وتمكين أنفسنا لا من أجل تمكين الدين الذي ارتضاه لنا الله جمعا لكلمتنا على التوحيد... إنه شرك حب النفس والأنانية، فقد استأثر الهوى بالناس"¹.

ب - أسباب شرعية: وهي:

- اتباع الهوى وترك الاحتكام للشرع: فقد بين المفسر أن ممّا أوصى به رسول الله ﷺ التمسك بالكتاب والسنة، ومن ذلك ما جاء في الموعظة التي وعظها رسول الله ﷺ لأصحابه وفيها «أوصيكم بالسمع والطاعة؛ فإنه من يعيش منكم فسيروا اختلافًا كبيرًا ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة»²، وقد علق الشيخ بقوله: " وهذا الاختلاف الذي حذر منه رسول الله ﷺ هو ما نلاحظه في حياتنا ومن أبناء الإسلام، كلّ يشايح فرقته ويدّعي ضلال من خالفه، وهو منهي عنه"³.

- سوء النظر في المسائل الخلافية: وذلك بعدم التفريق بين أصول الدين وفروعه وجعل الفروع في مرتبة أسس الدين وأصوله، والتشديد على المخالف وعدم التخلّق معه بأخلاق الإسلام، وفي ذلك يقول الشيخ: "وإذا أمعنت النظر وجدت أنّ أكثر هذه المسائل المتنازع فيها هي من الفروع الخفية التي يسوغ فيها الخلاف"⁴، وأغلب هؤلاء المتعصبين إنما قامت عصبيّتهم على الانتصار للنفس والهوى لا الانتصار للحق، وهذا أمر يتسلّل إلى القلوب والنفوس ولذلك تّبّهت عليه..."⁵.

4 - مظاهر الاختلاف في الدين: ذكر التواتي عدة مظاهر للاختلاف في الدين، مجملها:

أ- التفرق إلى أحزاب وشيع يضلّ بعضها بعضا: نبه الشيخ في تفسيره على ما انتشر في هذه الأمة من تفرّق المسلمين إلى فرق يذمّ بعضها بعضا، وكلّ واحدة منها تفهم الدين كما تهوى، ومثاله ما قاله الشيخ عند تفسيره لقوله تعالى ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ الْبَصَرِيّ عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرِيّ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ

¹ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (305/13).

² رواه ابن حبان في صحيحه، باب: الاعتصام بالسنة وما يتعلق بها نقلا وأمرًا وزجرا، رقم: 5، قال شعيب الأرناؤوط: "إسناده صحيح"، صحيح ابن حبان، (178/1).

³ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (51/15).

⁴ ومصطلحي "الفروع والأصول" هما مصطلحين اصطلاح عليهما العلماء ولم يريدوا بهما انتقاص مسائل الشريعة، فمن الناس من يسمى: الاعتقاد "علم الأصول" و "أصول الدين" أو "علم الكلام" أو "الفقه الأكبر"... الخ، ويسمى النوع الآخر: "علم الفروع" و "فروع الدين" و "علم الفقه والشريعة"... الخ. مجموع الفتاوى، ابن تيمية، (134/19).

⁵ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (55/15).

أَلْفَيْمَةً فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿البقرة: ١١٣﴾، فبعد أن بين اختلاف أهل الكتاب فكانت كل فرقة تُضلل الأخرى؛ أخبر بحال أبناء الأمة الإسلامية المتشبهين بهم، فقال: "أما تفرق صفوف المسلمين إلى شيع وأحزاب، وكل يؤول القرآن الكريم حسب هواه وما يُدعّم به نظره ومخالفته لغيره، وأما التكفير بين المختلفين فحاصل فحدث عنه ولا حرج... كان مشايخنا يعملون على بث روح المحبة ويربّوننا على حب المسلم فيقولون كل من قال «لا إله إلا الله محمد رسول الله، قد عصم دمه وعرضه وماله»، وكل من رأيتموه يتردد على المسجد فهو مؤمن، وتلكم هي قيم منصوص عنها في الحديث واجبة الاتباع، لكن اليوم لم يعد هذا هو السائد بين الناس، بل من كان في حزبك فهو أخوك ولو كان على غير دينك، ومن كان من غير حزبك فهو عدوك ولو كان على دينك، انقلبت المعايير، لم يعد الميزان هو العقيدة والدين بل أصبح الحزب هو العقيدة -والعياذ بالله-"¹.

وأضاف الشيخ في موضع آخر أنّ هذا التفرق من أسباب نزول البلاء عليهم، وذلك عندما فسّر قوله تعالى ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴿١٣﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُو كَاتِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ الأنبياء: ٩٣-٩٤، فقال: "دلالة الآية على واقع الناس اليوم: إن هذه الآية تحديد للذين تفرقوا في الدين، ويسعون إلى تفريق المسلمين إلى أحزاب وشيع، وجعلوهم في تنازع واقتتال ممّا أدى إلى اضطراب أمورهم وتفرق أحوالهم، فكان لابد أن ينالهم البلاء فيستأصلهم ويوهنهم"².

ب- التعصب للمذاهب الفقهية: ظهرت المذاهب الفقهية نتيجة اختلاف العلماء في المسائل الفرعية مع اتفاقهم في الأصول، وهذا من محاسن الشريعة ومرونتها وصلاحها لكل زمان، إلا أن هذا الاختلاف استغلّه البعض على نحو خاطئ فانقلب سلبا عليهم، وذلك بسبب التعصب لمذهب معين وذمّ المذاهب الأخرى، ممّا أدى إلى تفرق المسلمين ومعاداة المذاهب المخالفة وهذا مشاهد في زمننا. وقد بين الشيخ ذلك في مواضع، منها تفسيره لقوله تعالى ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١٨٨﴾ إِلَّا مَنْ رَّجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٨٩﴾﴾ هود: ١١٨-١١٩، حيث قال: "ها نحن قد خالفنا كل هذه النصوص فتفرقنا وتنازعنا وشاق بعضنا بعضا بشبهة الدين، إذ اتخذنا مذاهب متفرقة، كل فريق يتعصب لمذهب ويعادي سائر إخوانه المسلمين

¹ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (2/358).

² المصدر نفسه، (13/173).

لأجله، زاعما أنه ينصر الدين وهو يخلّده بتفريق كلمة المسلمين، ناسيا على أن هذه المذاهب ما هي إلا فهم، وأن الأصل واحد وهما: كتاب الله وسنة نبيه ﷺ. فهذا سني يقاتل شيعيا، وهذا مالكي ينزل إباضيا، وهذا شافعي يغري التتار بالحنفية، وهذا حنفي يقيس الشافعية على الذمّية، وهؤلاء مقلّدة الخلف، يحادّون من اتّبع طريقة السلف ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ المؤمنون: ٦٨، أم أمروا بهذا من الله ورسوله ومن الأئمة المجتهدين؟ كلا؛ بل كان التعادي والتنازع انحرافا عن الصراط المستقيم، واتباعا لخطوات الشيطان الرجيم¹.

وقد أشار الشيخ إلى حصول هذا في بلده "الجزائر"، بين مُتَعَصِّبَةِ المالكية والإباضية²، ولهذا فقد ألف كتابا حاول إزالة الصّراع بين أتباع المذهبين فقال: "وقد كتبت كتابا في بيان أوجه الاختلاف والتقارب بين مذهبين في بلدي وهما: المذهب المالكي والمذهب الإباضي³، لقطع الطريق عمن أراد إثارة الفتنة في هذا البلد الطاهر بدماء الشهداء، والقائم على التوحيد والعقيدة الصحيحة إذ إن ما يجمع أهل هذا البلد العزيز وهو كتاب الله وسنة رسول الله فهما الأصل، ولا اختلاف فيهما بين المذهبين أما الباقي فكله فروع والأمر فيهما يسير"⁴.

ثانيا: النوع الثاني: تفرق أبناء الأمة في كلمتهم:

ذكر الشيخ التواتي النوع الثاني من أنواع التفرق؛ وهو تفرق أبناء الأمة في كلمتهم فلا يجتمعون على كلمة واحدة، وقد ذكر هذا النوع لما فسّر قوله تعالى ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَيُشَرِّقُ مَشْرِقُ الظَّالِمِينَ﴾ آل عمران: ١٥١، حيث قال: "ما يستفاد من الآية: إن واقع حال المسلمين الآن تبين لنا أن سبب ضعفهم هو تخاذلهم وافتراق كلمتهم"⁵. ثم فصل أسباب ذلك، فذكر سببين:

1- تفرق الكلمة بسبب العصبية الجنسية: التعصّب للجنس من أعظم أسباب تفرق الكلمة، ولذلك قطع النبي ﷺ دابر هذا الأمر في قوله: "«يا أيها الناس: ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا

¹ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (173/11)، وينظر أيضا: المصدر نفسه، (305/13).

² ولا يخفى على كلّ جزائري، ما حدث بين المالكية والإباضية سنة 2015م، من اقتتال بين شباب منتسبين للإباضية وآخرين للمالكية، ممّا أدى إلى تدخل الأمن وتهدئة الأوضاع، وتدخل العقلاء أيضا لمحاولة إرجاع المياه إلى مجاريها -ومنهم التواتي-.

³ ويقصد به كتاب "الفقه المقارن بين الفقه المالكي والفقه الإباضي: دراسة تقابلية بين المذهبين من حيث الأصول والفروع".

⁴ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (55/15).

⁵ المصدر نفسه، (149/6).

فضل لعربيّ على أعجميّ ولا لعجميّ على عربيّ ولا لأحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى، أَبْلَغْتُ؟¹، ولهذا نبّه مفسرنا التواتي على مسألة: تفرّق كلمة العرب بسبب العصبية الجنسية محذرا منها عندما فسرّ قوله تعالى ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَذَكِّرُوا أَنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ أَعْدَاءُ﴾ قَالَ فَبَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ آل عمران: ١٠٣، فذكر حال العرب وبعض بلاد الإسلام في هذا الزمن من تفرّق؛ تمسّكا وعملا بما تفرضه العصبية الجنسية فقال: "وقد سار المجتمع العربي على نهج أهل أوروبا في العصر الحديث فاعتصموا بالعصبية الجنسية كما كانت العرب تفعل ذلك في الجاهلية وسرى ذلك إلى بعض البلاد الإسلامية، فحاول أهلها أن يجعلوا في المسلمين جنسيات وطنية مختلفة، بعد أن كانت تجمعهم جنسية واحدة وهي: عقيدة التوحيد.

وليس الأمر كما يظنون، فإن الوطن لا يرقى إلا باتحاد كلّ المقيمين فيه لإحيائه، لا في تفرقهم ووقوع الشحناء والبغضاء بينهم، فالدين يأمر باتحاد كلّ قوم تضمهم أرض واحدة، وإن اختلفت أديانهم وأجناسهم، ويأمر بالاعتصام بحبل الله المتين بين جميع الأقوام"².

2- تفرّق الكلمة بسبب البعد عن الشريعة: وذكر مفسرنا هذا السبب عندما فسرّ قوله تعالى ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ المائدة: ١٤، فبعد ذكر المفسر حال أهل الكتاب الذين جعل الله بينهم العداوة والبغضاء لأنهم نسوا حظا مما ذكروا به³ وذلك بانحرافهم وتبديلهم لدينهم، قام بتنزيل الآية على واقعه فقال: "والنتيجة أنّ العباد إذا نسوا شيئا حظا مما ذكروا به بعد أن بيّنت لهم الرسل الطريق المستقيم وأنارت لهم السبيل، فنكسوا على أعقابهم بعد أن كانت الحجة قائمة عليهم، فإنهم يعاقبون بأنواع من العقوبات وأشدّها وقوع الفرقة فيما بينهم، ووقوع الفرقة التي معها العداوة والبغضاء، ولا شك أن هذا حقّا في هذه الأمة وفي تاريخها وحصل هذا الزمان"⁴.

¹ رواه أحمد في مسند: أحاديث رجال من أصحاب النبي ﷺ، حديث رجل من أصحاب النبي ﷺ، رقم: 23489، (38/ 474)

² الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (5/ 441).

³ ومعنى ذلك: أنهم نسوا كتاب الله، وضيّعوا فرائضه، وعطلوا حدوده. ينظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين، الفاروق الحديثة،

مصر، القاهرة، ط: 1، سنة: 1423هـ - 2002م، (2/ 16).

⁴ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (8/ 39).

الفرع الثالث: آثار تفرق أبناء الأمة:

تضمن هذا الفرع عدة مسائل تتعلق بآثار التفرق الذي أصاب أبناء الأمة، حيث ذكر الشيخ آثار الفرقة مما استنبطه من آيات القرآن الكريم وربطها بحال أبناء الأمة في هذا العصر، ومما ذكره في ذلك:

أولاً: تضليل المخالف: وهذا يعدّ من أشدّ مخاطر الاختلاف، فلا يكتفي فيه المخالف بعرض رأيه بل يتعدّى إلى تضليل مخالفه بل إلى تكفيره، وربما يصل الأمر إلى الكلام في الصحابة وردّ أقوالهم، مع أن المسألة من الفروع التي لا ينبغي الغلو فيها، وقد نبّه الشيخ على هذا في كثير من المواضع؛ منها ما جاء في تفسيره لقوله تعالى ﴿مُتَّبِعِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(١) من الذين فرّقوا دينهم فاختلفوا وصاروا فرّقاً كلّ فرقة تُشايِع من تَبَعُه، كلّ فريق منهم بما عندهم مسرورون يظنون أنهم على الحق،... وهذا الاختلاف الذي حدّر منه رسول الله ﷺ هو ما نلاحظه في حياتنا ومن أبناء الإسلام، كلّ يشايِع فرقته ويدّعي ضلال من خالفه، وهو منهي عنه. وتعدّى الأمر في زمننا إلى الادّعاء على أن أقوال الصحابة لا يُعوّل عليها، وفي هذا يقول الشيخ العلامة ابن عثيمين -رحمه الله تعالى- في كتبه ورسائله: فمن طريقة أهل السنة والجماعة أن ينظروا في سبيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، فيتبعونها لأنّ اتّباعها يؤدّي إلى محبتهم، مع كونهم أقرب إلى الصواب والحق، خلافاً لمن زهد في هذه الطريقة وصار يقول: هم رجال ونحن رجال، لا يبالي بخلافه، كأنّ قول أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ ﷺ كقول فلان وفلان من أواخر هذه الأمة... وهذا خطأ وضلال، فالصحابة ﷺ أقرب إلى الصواب، وقولهم مقدّم على قول غيرهم من أجل ما عندهم من الإيمان والعلم، وما عندهم من الفهم السليم والتقوى والأمانة، وما لهم من صُحبة الرسول ﷺ¹ "2".

ثانياً: تقسيم البلد إلى فرق: حيث نبّه على ذلك عند كلامه على شرور الخلاف، فقال: "وليت الأمر وقف عند هذا الحد فقد تعدّاه إلى إحياء النعرات الطائفية وتقسيم البلد الواحد إلى فرق وشيع وأحزاب خدمة للأجنبي، ووفق أجندات معينة تمهيدا لإعادة محتلّ الأمس الذي أُخرج من الباب ليعود من الشبّاك، كما أدّت هذه الدعوات الضالة المضلة إلى تشويه صورة الإسلام الناصعة الطاهرة، دينٌ ينقذ من الضلال ويُخرج الناس من ظلمات الجهل إلى نور المعرفة، من العداوة إلى المحبة"³.

¹ شرح العقيدة الواسطية للعثيمين، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، السعودية، ط: 6، سنة: 1421هـ، (312/2).

² الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (51/15).

³ المصدر نفسه، (55/15).

ثالثاً: التباغض بين المسلمين وتصدع الصف: وذكر الشيخ التواتي هذه المسألة لما فسّر قوله تعالى ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ الروم: ٣٢، والمقصود بالمتفرقين ابتداء هم: المشركون؛ بعضهم يعبدون الملائكة ويزعمون أنهم بنات الله، وبعضهم يعبدون الأصنام، وأما كونهم كانوا شيعاً: فلأن كل قبيلة كانت تنتصر لصنمها، وقيل: هم اليهود والنصارى؛ لأن النصارى تفرقوا فرقا ويكفر بعضهم بعضاً، واليهود أخذوا ببعض الكتاب وتركوا بعضه، وقيل: هم أهل البدع والشبهات من هذه الأمة¹. وقد أخذ الشيخ من معنى الآية أثراً من آثار الخلاف فقال: "وشرور الخلاف لا تنقضي، وشرها إذا استحال إلى تعصب للمذاهب واتباع للظن وما تهوى الأنفس، وما يتبع ذلك من تباغض وتدابير بل وتلاعن"².

وفي آخر هذا المطلب أسوق نصيحة جامعة للشيخ تتعلق بالنهي عن التفرق والأمر بالاجتماع، وذلك بعد تفسيره لقوله تعالى ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ فذَرَهُمْ فِي عَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٦﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا يُنَادِيهِمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَيَبِينَ ﴿٥٧﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ المؤمنون: ٥٣-٥٦، فقال: "خطاب الآية وواقع الناس: وكأني بهذا الخطاب القرآني يتحدث عن حالنا في زماننا، ألم نفرق أمرنا إلى أحزاب وفرق متنافرة متقاتلة متعادية، ألم تنتصر بأعداء الإسلام على بعضنا، ألم نستخدم الدين لتحقيق أغراض دنيوية... ونسينا أن كلمة (لا إله إلا الله) تجمعنا، وعصمت دماءنا، وأن وجهتنا قبله واحدة، نتجه إليها في صلاتنا ناطقين (الله أكبر)، ومع ذلك كفر بعضنا بعضاً وقاتل بعضنا بعضاً، أفلا نعود إلى ديننا الصافي النقي لنجمع كلمتنا، فقد ترك لنا نبينا محمد ﷺ ميراثاً جامعاً، كالجبا للفرقة ألا وهو (كتاب الله وسنته) .. هل في الشريعة التي جاء بها هذا النبي الكريم ﷺ اختلاف؟ أليست متحدة الأصل والعقيدة؟ إله واحد وكتاب واحد ونبي واحد، وأين أنتم يا أتباع محمد ﷺ؟ ما لكم تفرقتم أحزاباً؟ هل اختلاف المذاهب كشافعية ومالكية وزيدية وإباضية وشيعة يفرق العقيدة؟ وكيف يكون هذا سبب التفرقة، فهل تغير الدين؟ وهل تغيرت القبلة؟ وهل حدث إشراك بالله... ظننتم أن أسس الدين هي المسائل الخلافية وتركتم الأخلاق وراءكم ظهرياً، وتركتم آيات التوحيد والنظر في الأكوان، ولو أنكم نظرتُم إلى شيء من هذا لعلمتم أن كل ذلك من دينكم وأنتم عنه غافلون"³.

¹ الباب في علوم الكتاب، ابن عادل الدمشقي، (8/ 530). والتحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، (8/ 192).

² الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (15/ 55).

³ المصدر نفسه، (13/ 305).

المبحث الثالث: التنزيلات المتعلقة بالأحوال العامة للأمة الإسلامية.

تنوعت تنزيلات الشيخ التواتي المتعلقة ببيان الأحوال العامة للأمة، والتي لم ينسبها لفئة معيّنة كما سبق؛ بل تركها متعلّقة بالمعالم العامة التي تتكون منها الأمة الإسلامية وهويتها، مثل: حال مقدسات الأمة وأسباب الضعف والقوة... الخ، فكان الشيخ يحرص في درسه التفسيري على ربط معنى الآية بواقع الأمة. وقد شملت تلك التنزيلات ثلاثة مواضيع كبرى، أدرجت كل واحد تحت مطلب، وهي:

المطلب الأول: ضعف الأمة الإسلامية وذهاب هيبتها بين الأمم.

المطلب الثاني: حال الأمة الإسلامية مع القرآن الكريم.

المطلب الثالث: حال الأمة الإسلامية مع مقدساتها.

وتفصيلها كالاتي:

المطلب الأول: ضعف الأمة الإسلامية وذهاب هيبتها بين الأمم:

من القضايا المهمة التي ركز عليها الشيخ التواتي في حديثه عن الأحوال العامة للأمة، تعديده للأسباب التي أوصلت الأمة الإسلامية إلى هذه المرحلة من الضعف وأذهبت هيبتها بين الأمم، مما أدى إلى تسلّط الأعداء عليها، وقد حرص بشدّة على ربط الآيات القرآنية بما يحدث في مجتمعه واصفا الداء والدواء، ويمكن تقسيم ما ذكره في هذا الموضوع إلى قسمين جعلتها تحت فرعين هما:

الفرع الأول: أسباب ضعف الأمة الإسلامية:

سبق الكلام عن أسباب وقوع المسلمين في الضعف والهوان حتى هانوا على أعدائهم، وسأذكر هنا تفصيل بعض الأسباب التي أدت إلى ضعف الأمة الإسلامية، وسيكون الحديث عنها كالاتي:

أولاً: عدم الإتيان بأسباب النصر:

من أهم أسباب نصر الأمة: صدق وقوّة الإيمان، وما يستلزمه من التقوى وترك المعاصي والمحافظة على الإسلام وحمائته ونشره، وتعليمه لمن لا يعلمه، وإعزاز حامل لوائه من العلماء والأولياء¹. وقد تكلم

الشيخ عن هذا في تفسيره لقوله تعالى ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ النساء: ٨٢، فقال: "موعظة الجلسة: أيها الناس إن تقوى الله أفضل العدة على العدو وأقوى المكيدة في الجهاد، وإن الله قد أمرنا بأن نكون أشدّ احتراساً من المعاصي من عدونا، فإن ذنوب المسلمين أخوف عليهم من عدوهم، وإنما ينصر الله تعالى المسلمين بمعصية أعداء الله، ولولا ذلك

¹ البحر المديد، ابن عجيبة الحسني، (625/4).

لم تكن لنا بهم قوة؛ لأن عدد المسلمين اليوم ليس كعددهم ولا عُدتنا كعُدَّتْهم، فإن استويننا معهم في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة، واعلموا أن المسلمين من سيرتهم في هذه الحياة، وهم في حفظ من الله تعالى يعلم ما أنتم عليه، فاستحيوا من الله حقّ الحياء ولا تعملوا بمعاصي الله تعالى وأنتم في سبيله في هذا الوجود"¹.

كما نبّه مفسرنا تنبيهاً مهماً وهو: أن الأمة لما تخلّت عما جعلها خير الأمم تداعت عليها الأمم من كلّ حذب وصوب، فنهبت خيراتها وانتهكت أعراضها واستعمرت أوطانها وثارَت الفتنة بين أفرادها فقاتل بعضهم بعضاً، والعزّ والنصر لا يكون إلّا بالعودة إلى كتاب الله وسنة رسوله، وبما يُردّده الشيخ مراراً في ثنايا تفسيره "لا صلاح للأمة إلّا بما صلح به أولها"².

ثانياً: موالاة المسلمين للأمم الكافرة:

ذكر مفسرنا أن المسلمين اتخذوا الكافرين أولياء، وخاصة اليهود والنصارى؛ حيث تقوّوا بهم وتناصروا بهم على إخوانهم المسلمين، ولذا فإنه في تفسير قوله تعالى ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ النساء: ٨٩، قال: "إن الواقع اليوم -أيها السادة- يدلّ على أننا لم نتخذ القرآن منهجاً نعتدي به ونطبّق أحكامه ونستضيئ بما جاء فيه من الحقّ المبين، فقد نهانا على أن نتخذ المشركين والكافرين أولياء فقد تحدّينا النهي، فاتخذنا اليهود والنصارى أولياء من دون المؤمنين، وانتصرنا بهم على بعضنا، وقاتلنا معهم المؤمنين، وحكّمناهم في أخصّ خصائصنا، بل أوّلنا نصوص القرآن وفق ما يرضي أعداء الله ورسوله"³. ثمّ فصلّ في مواضع من تفسيره بعض صور موالاتهم، فذكر منها:

1- الاقتداء بهم في جميع أحوالهم: فعند تفسيره لقوله تعالى ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ آل عمران: 67، قال: "يا من أنتم متخذون اليهود والنصارى قدوة، وتقلّدونهم في أحوالكم، حتى إنّ أحدكم تفوّه بكلمة بملء فيه: "النصارى كذا" "النصارى كذا" إعجاباً بنظامهم وسلوكهم، فنقول له: يا هذا إن النصارى الذين أنت مُعجّبٌ بهم نظاماً وسلوكاً، قد حكم عنهم الله تعالى في هذه الآية أنهم مشركون، وإنما المسألة أنك لم تلتزم بالدّين الذي

¹ الدرّ الثمين، التواتي بن التواتي، (222/7). وينظر أيضاً المصدر نفسه، (205/6) و (381/7).

² المصدر نفسه، (205/6). وينظر أيضاً المصدر نفسه، (272/7) و (514/2).

³ المصدر نفسه، (249/7). وينظر المصدر نفسه، (388/7).

أخرج الله به من الظلمات إلى النور، وجعلك من أمة خير الأمم لو التزمت بدينها، وبما جاءها به نبيها محمد ﷺ، لكنها انحرفت عن المنهج فبدا لكم أن النصارى واليهود خير منكم، نعم لما آل حالنا إلى ما بينت لكم¹.

وقد صرح في موضع آخر أن هذا التقليد والاحتذاء بهم كان أيضا في المظهر وفي كيفية التخاطب، وحكمهم وأمنهم المسلمون على أموالهم فانتهبوها وعلى أنفسهم ورقابهم فذبجوها، فقال: "تأمل وتدبر: فكيف بحال بعض الناس وقد اتخذوا اليهود والنصارى نمودجا يُحتذى به، وأُسوةً في الابتداء والمنتهى، وقُدوةً في المظهر حتى في كيفية التخاطب وموالاتهم، وقَلْدُوهم في كل شيء، وحكْمُوهم في أموال المسلمين فبَعَثُوهَا، وفي كُنُوزهم الباطنية فانتهبوها، وفي رقاب المسلمين فذبجوها، أي أرض ثَقُلُ وأي سماء تُضِلُّ² -رحمك ربي فلا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا-"³. كما ذكر التواتي أن هذا التقليد الأعمى لأهل الكتاب أخبر به رسول الله ﷺ حيث قال: «ستبعون سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه، قلنا: يارسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟»⁴ "5.

2- التشبه باليهود في تزكية النفوس بادعاء الصلاح: ففي تفسير قوله تعالى ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَى﴾ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿البقرة: ١١١﴾، قال الشيخ: "أيها الناس إن حال كثير من الناس يشبه حال هؤلاء اليهود، كثير يسارع في ارتكاب الآثام، ويسعى في الأرض فسادا، ويقسئوا قلبه على الخلق، ويترفع خيلاء وتكبرا، ويدّعي لنفسه أنه من الصالحين، كَلَّا ثم ألف كَلَّا"⁶. فهذه صفة معروفة عن اليهود والنصارى وهي: تزكية النفس والتكبر على الخلق حتى في زمن النبوة، فقد اختصم يهود المدينة ونصارى نجران عند النبي ﷺ، فقالت اليهود: ليست النصارى على شيء، ولا يدخل الجنة إلا من كان يهوديا، وكفروا بالإنجيل وعيسى، وقالت النصارى: ليست اليهود على شيء، وكفروا بالتوراة وموسى⁷.

¹ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (293/5).

² هذا جزء من كلام أبي بكر الصديق ﷺ لما قال في تفسير القرآن: "أي أرض تقلني، وأي سماء تظلي، إذا قلت في القرآن برأيي أو بما لا أعلم". جامع البيان، الطبري، (72/1).

³ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (390/2).

⁴ رواه البخاري في صحيحه، كتاب: الأنبياء باب: ما ذكر عن بني إسرائيل، برقم: 3269.

⁵ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (142/2).

⁶ المصدر نفسه، (341/2).

⁷ زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي، (102/1).

3- التشبه باليهود في الاغترار بالأماي: ذكر الشيخ التواتي أن الاغترار بالأماي من سمات اليهود الذين قالوا ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ آل عمران: 24، فكذبهم الله بخلودهم فيها، وهو أمر وقع فيه المسلمون اليوم مشابهة باليهود، فإذا نُبِّه أحدهم على معصية قال: إن الله غفور رحيم، وفي ذلك يقول: "تنبيه عام: ذلكم هو الغرور بالأماي، والافتراء على الله تعالى، وهو ما يُقال عند بعض الناس اليوم عندما يُنبَّه إلى معصيته فيقول: - كلمة حق ولكنّه وضعها في غير موضعها- إن الله غفور رحيم، نعم؛ ولكنه شديد العقاب لمن عصى وعاند وانتهك حرّمت الله جهارا نهارا بدون توبة ولا وازع"¹.

4- التشبه باليهود في ارتكاب موجبات الهلاك: وقد نبّه الشيخ أن الكثير من المسلمين توفّر فيهم ما يَسْتَوْجِب غضب الله والذلة والمسكنة مثلما وقع لليهود المغضوب عليهم، فقال: "وأن من أسباب غضب الله تعالى خصلتين ذميتين هما: الكفر بآيات الله، وقتل الأنبياء بغير حق، وقتل الذين يأمرهم بالقسط، هذه هي المؤهلات لغضب الله، وللهزيمة والذلة والمسكنة... وهي تتوافر اليوم في كثير من ذراري المسلمين الذين يُسَمُّون أنفسهم -بغير حق- مسلمين!، هذه هي المؤهلات التي يتقدّمون بها إلى ربهم اليوم، فينالون عليها كلّ ما كتبه الله على اليهود من الهزيمة والذلة والمسكنة، فإذا قال أحد: لماذا لا نغلب في الأرض ونحن مسلمون؟ فلينظر قبل أن يقولها: ما هو الإسلام، ومن هم المسلمون؟!"².

ثالثا: ترك إعداد القوة:

وقد تحدّث مفسرنا التواتي عن مسألة القوّة التي تركتها الأمة في عدّة نقاط هي:

1- أمر الله تعالى في كتابه بإعداد القوّة: وهذا أمر جاء في قوله تعالى ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ الأنفال: ٦٠، ولذلك فإن الشيخ لما فسّر الآية بيّن أن "القوّة" بمعنى: الرمي، كما جاء تفسيرها في حديث عقبة بن عامر قال سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول: « "وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ" ألا إنّ القوّة الرمي، ألا إنّ القوّة الرمي، ألا إنّ القوّة الرمي»³، ومن فقه الشيخ التواتي في الاستنباط إيضاحه أن لفظ الرماية لم يُخصّص بنوع مُعيّن، فالقوّة تختلف من عصر لآخر، فقال: "وإن لفظ الرماية جاء مطلقا بدون تخصيصه بنوع معيّن من

¹ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (134/5).

² المصدر نفسه، (5/6).

³ رواه مسلم في صحيحه، كتاب: الإمارة، باب: فضل الرمي والحث عليه وذم من علمه ثم نسيه، برقم: 5055.

الرماية، ولعلّ صناعة الصواريخ وهي نوع من الرماية أصبحت السلاح الأكثر فتكا في عصرنا، لعلّه يتفطن قومنا قوما إلى هذا النوع من السلاح امتثالا لقول نبينا محمد ﷺ¹.

2- الحث على تطوير الوسائل الحربية: دعى الشيخ التواقي إلى الأخذ بأسباب القوة من خلال تطوير سلاح الأمة بإنشاء البوارج المدرّعة، والمدافع المدمّرة، وتعلّم ما يلزم للحرب من العلوم الرياضيّة والطبيعيّة والميكانيكيّة وغيره؛ بل جعل ذلك واجبا على الأمة لأنه به يتحقّق واجب الجهاد، وفي ذلك يقول: "وإنما غلب المسلمون في هذه القرون الأخيرة وفتح الكفار بلادهم التي فتحوها من قبل بقوة الإيمان وما يقتضيه من الأعمال، لأنهم ما عادوا يقاتلون لإعلاء كلمة الله وتأييد الحقّ ونشر الإسلام، ولا عادوا يُعِدُّون ما استطاعوا من قوّة كما أمرهم القرآن، فهم يستطيعون أن يُنشئوا البوارج المدرّعة والمدافع المدمّرة ويتعلّموا ما يلزم لها وللحرب من العلوم الرياضيّة والطبيعيّة والميكانيكيّة، وهي فرض عليهم بمقتضى قواعد دينهم²، لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب"³.

3- ترك شعيرة الجهاد في سبيل الله:

من أسباب ضعف الأمة التي ذكرها التواقي، التخلّي عن الجهاد في سبيل الله، لأنه شرّع لئصرة الحق وعدم الخضوع للأعداء، فلما تركته الأمة أصابها الذل والهوان، وتسلّط عليها الأعداء واستعمرت البلدان، وهذه المسألة اهتم بها الشيخ اهتمام بالغاً، فتكلّم عن موضوع الجهاد في عدة نقاط:

- فصلّ في الجهاد بأنه على حالتين: فيكون فرض كفاية إذا كان الخطب لم يلحق الوطن، وفرض عيّن إذا لحق الخطب فمسّ الوطن⁴.⁵

- بيّن مصير البلاد الإسلاميّة لما تركت الجهاد في سبيل الله، فعند تفسيره لقوله تعالى ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ البقرة: ٢١٦، بيّن معنى الآية، ثم حثّ الأمة على الجهاد وبيّن أن تركه شرٌّ لها فقال: "والمذكور هنا صحيح لا غبار عليه، إذ تحقّق ذلك في البقاع الإسلاميّة قاطبة كما

¹ الدر الثمين، التواقي بن التواقي، (106/10).

² والمقصود به فرض كفاية لا فرض عين، كما ذهب إليه الغزالي وغيره. ينظر: إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، (16/1).

³ الدر الثمين، التواقي بن التواقي، (381/7).

⁴ المصدر نفسه، (272/7).

⁵ واشترط الفقهاء للجهاد سبعة شروط: الإسلام، والبلوغ، والعقل، والحرية، والذكورة، والسلامة من الضرر، ووجود النفقة - وهذا كان في الماضي، وأما في عصرنا فالدولة تمدّ المجاهد بالسلاح والنفقة-. ينظر: الفقه الإسلامي وأدلته، الزحيلي، (7/8).

هو الحال في بلاد الأندلس، تركوا الجهاد وجبُّنوا عن القتال وأكثروا من الفرار، فاستولى العدو على البلاد، وأي بلاد؟ وأسر وقتل وسبي واسترقَّ، فإنا لله وإنا إليه راجعون، وضاعت بلاد الأندلس، وخرجت من الرقعة دار الإسلام، واضطَّهد المسلمون، ذلك بما قدمت أيدينا وكسبته.

وتحقق بعد ذلك في البلاد الإسلامية، إذ ما إن حاد الناس عن المنهج القويم وتركوا فرض الجهاد حتى تداعت عليهم الأمم كما تتداعى الأكلة على القصعة، فتحول حال المسلمين من عزٍّ إلى ذلٍّ، ومن قوَّة جامعة إلى ضعف مفترق للصفوف لله درَّ الشاعر قال:

لمثل هذا يذوب القلب من كمد * إن كان في القلب إسلام وإيمان¹.

وما ذكره التواتي من عواقب ترك الجهاد، نصَّ عليه المفسرون حيث بيَّنوا علَّة تشريع الجهاد، كما جاء عن وهبة الزحيلي حيث قال: "فإنه السبيل للحفاظ على كرامة الأمة ومنعة البلاد واستقلالها ومصالح الأفراد، وسبب للدُّود عن الحرمات والأموال والأعراض، وطريق لدفع العدوان وقمع الأطماع، وأساس لتوفير عزَّة الأمة ومجدها، وبدونه تكون المصالح العامة والخاصة مهددة بالزوال. لذا فرَّضه تعالى للضرورة من أجل الحفاظ على هذه المقاصد، ولمنع الفتنة في الدين، وحماية المستضعفين، والتمكين لحرية انتشار الإسلام بالطرق السلمية، وكانت محبته أمراً مطلوباً لحياة المسلمين"².

الفرع الثاني: تسلط الأعداء على الأمة الإسلامية:

وقد تحدث الشيخ في هذه القضية من خلال مسألتين هما:

أولاً: ضياع هبة الأمة وتسلط غيرها عليها:

وقد تحدث الشيخ عن هذه المسألة بحديث يغلب عليه الحزن والتأثر، وذلك بعد بيانه لمعنى قوله تعالى ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ البقرة: ٢٥٢، حيث قال: "فإن حالنا اليوم أضعف ممَّا هو عليه في عصر دولة الإسلام في الأندلس على ما كسبنا من عدَّة وعتاد، وأنفقنا أموالاً طائلة لكسب آلة الحرب، لكنَّ ضعف إيماننا بالله تعالى ولم نعلّق سبب النصر بإذن الله، تغلب علينا أعداؤنا وعُزينا في عُقر دارنا، وهذا أحد أئمتنا وهو الإمام مالك رحمه الله وهو يقول: "لا صلاح لآخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها". وهذا رسول الله الصادق الأمين صلى الله عليه وآله يقول: «توشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها» فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: «بل أنتم

¹ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (30/4). وينظر أيضاً: (381/7).

² التفسير المنير، وهبة الزحيلي، دار الفكر المعاصر، دمشق، ط: 2، سنة: 1418هـ. (152/10).

يومئذ كثير لکنکم غناء كغناء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن" فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال: "حب الدنيا وكراهية الموت" إسناده حسن. صدق رسول الله ﷺ فيها هي ذا الأمم قد تداعت علينا الأمم من كلّ حذب وصوب، وأذلتنا ورمّلت نساءنا ويّمتت أبناءنا ونهبت خيراتنا، بل تنهب منّا حتى الشمس والرياح وتحكّمت في رقابنا، وكلّ ذلك بسبب ابتعادنا عن المنهج القرآني والجنوح عن الطريق المستقيم الذي رسمه رب العالمين حين قال وهو خير القائلين ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ الأنعام: ١٥٣^١.

ثانيا: ابتغاء العزة عند الأمم الكافرة:

حيث وصف الشيخ حال كثير من المسلمين -حكاما ومحكومين- وأنهم يسعون لتحصيل العزة في الدنيا عن طريق الكافرين فقال: "فما بال بعض منّا في زماننا يبتغون العزة عند الغرب اللعين، والاستقواء بأعداء الإسلام على المسلمين، وكأنّ هذا النداء القرآني لا يعني لهم شيئا، ليس موجّه إليهم، ولا مدافعة عن بيضة الإسلام، ولا غيرة عن رسول الإسلام، فهذه رسوم لرسول الله ﷺ شوّهت صورة الرسول الأعظم ازدراءً به، واحتقاراً للمسلمين، ولا غيرة من هؤلاء -قد تغضب الشعوب، تدفعها العاطفة وحبها نبيها ﷺ، لكن أين غضب حكامها وقادتها؟، هل احتجوا وقاطعوا من تعرّض لنبيها ﷺ؟؛ بل إن أصحاب القرار في الأمة المسلمة يزدادون حبّا ووثوقا بالكفار، وطلب العزة عندهم، لاحول ولا قوة إلا بالله"^٢. فجميع أنواع العزة وأفرادها مختصّ بالله سبحانه في الدنيا والآخرة، ولا ينالها إلا أولياؤه الذين كتّب لهم العزة، وما كان منها مع غيره فهو من فضله وتفضّله، وعزة الكفار ليس معتدّا بها بالنسبة إلى عزة المؤمنين لأنه لا يعزّ إلا من أعزه الله^٣.

المطلب الثاني: حال الأمة الإسلامية مع القرآن الكريم:

اعتنى الشيخ التواتي في تفسيره بالقرآن الكريم وهداياته اعتناء بالغاً؛ ومن ذلك حديثه عن حال الأمة مع القرآن الكريم لأنه عزّها وشرّفها إن تمسّكت به، وهلاكها ودُها إن تخلّت عنه، وقد تتبع مفسّرنا واقع

^١ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (297/4-298).

^٢ المصدر نفسه، (367/7).

^٣ فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق خان القنوجي، (267/3).

الأمة مع القرآن الكريم، فوجدها - في الغالب - مخالفة لآداب تلاوته، وتاركة للعمل به، إضافة إلى هجره بمختلف أنواع الهجر. ولذا فإنه يمكن تقسيم هذا الموضوع إلى قسمين هما:

الفرع الأول: حال المسلمين مع تلاوة القرآن وتدبره:

هجران القرآن الكريم له عدّة صور لخصها ابن القيم في خمسة هي: هجر سماعه والایمان به، والثاني: هجر العمل به والوقوف على حدوده، والثالث: هجر تحكيمة والتحاكم إليه، والرابع: هجر تدبره وتفهمه، والخامس: هجر الاستشفاء والتداوي به¹. وقد تحدث التواتي عن وصف الأمة وبيان حالها مع تلاوة القرآن وتدبره، ومما له علاقة بهجر التدبر والتلاوة ما يلي:

أولاً: هجر آداب التلاوة الصحيحة للقرآن:

وتحدث مفسرنا عن هذه المسألة في عدّة نقاط هي:

1- بيان معنى تلاوة القرآن حق تلاوته: كما بينّ المفسر معنى تلاوة القرآن حق تلاوته بأنها: حسن التدبر وتطبيق ما فيه، ولكن الناس تركوا هذا واشتغلوا بصوت القارئ، فقال: "رتلنا القرآن وما تلوناه حقّ تلاوته، وحقّ تلاوته يعني: حسن التدبر والتطبيق، وإنّا اكتفينا بحسن صوت القارئ فأعجبنا به، وأطربنا حسن صوته"².

2- ذكر بعض آداب التلاوة التي ينبغي التزامها: حيث عدّد بعض آداب تلاوة القرآن عندما فسّر قوله تعالى ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَبِّهًا مِّثْقَالِي ثَقْلِهِ مِنْهُ جُلُودٌ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِيْنَ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدًى اللَّهُ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ الزمر: ٢٣، حيث ذكر جملة من الآداب التي ينبغي لقارئ القرآن أن يلتزم بها والتي منها: أن يقرأه وقلبه حاضر وأن يلتزم الخشوع والتدبر وإظهار الحزن، ويحسن صوته به، ولا يسرع في القراءة، وأن يكون طاهراً مستقبلاً للقبلة جالساً بأدب ووقار³.⁴

¹ بدائع الفوائد، ابن القيم، ت: هشام عبد العزيز عطا، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة، ط: 1، سنة: 1996م، (ص: 82).

² الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (218/15).

³ المصدر نفسه، (365/16) بتصرف.

⁴ وقد ألفت العلماء في آداب التلاوة مؤلفات كثيرة، من أعظمها ما ذكره الإمام النووي في الباب السادس من كتابه: التبيان في آداب حملة القرآن. ينظر: التبيان في آداب حملة القرآن، النووي، ت: محمد الحجار، ط: 3، سنة: 1994م، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، (ص: 70-163).

3- مخالفة الأمة لآداب التلاوة: حيث ذكر ما وقع فيه بعض المسلمين من مخالفة هذه الآداب، كالغلو في البكاء عند التلاوة وغيرها، فقال: "وما نلاحظه في زمننا هذا من بعض القراء حين يأخذون في البكاء إلى درجة مُغالٍ فيه، حتى دفع أحد العوام إلى القول لأحد القراء وهو قائم يصلي بالناس: يا هذا أتم لنا الصلاة ثم إن شئت اقض الحياة باكياً -أشير أن العبارات التي استعملها ذاك العامي ليست بهذه الدقة وإنما أردت تلطيفها- لقد استعمل ألفاظاً فيها جفاء وغلظة، والغريب أن هذا القارئ بكى عند تلاوة آيات ليس فيها وعيد ولا تهديد، وإنما بكى من أجل البكاء فحسب؛ لأنهم ألفوا ذلك تكلفاً وتصنعاً -والله أعلم بالسرائر-"¹.

ثانياً: شكوى القرآن من هجر تدبره والتركيز على حسن الصوت:

فقد أصبح قصد الكثيرين ممن يتلون القرآن؛ التباهي والتلذذ بحسن الصوت فقط، وقد ذكر التواتي هذا في مواضع كثيرة من تفسيره، منها ما جاء في تفسير قوله تعالى ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ^٢ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ^٣ وَاتَّخَذُوا ءَايَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا^٤﴾ الكهف: ٥٦، حيث قال: "مثل ما هو حاصل اليوم فقد اتَّخَذَ الْقُرْآنُ هُزُوًا يستظهرونه للتباهي، وتسمع تلاوته لحسن الصوت، لا لتدارك الفوت والرجوع إلى الحق والعمل به قبل الموت، ذلكم حال الأمة التي جعلها الله خير الأمم"². وقد وردت بعض الأحاديث في الحث على التغني بالقرآن، منها: حديث البراء بن عازب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «حَسَنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ فَإِنَّ الصَّوْتَ الْحَسَنَ يَزِيدُ الْقُرْآنَ حُسْنًا»³، والمقصود به: الهجوا بقراءته واشغلوا أصواتكم به واتخذوه شعاراً وزينة لأصواتكم، لأن في أدائه بحسن الصوت وجودة الأداء بعث للقلوب على استماعه وتدبره والإصغاء إليه، بشرط ألا يصرفه عن مراعاة النظم في الكلمات والحروف فإن انتهى إلى ذلك عاد الاستحباب كراهة، وأما التكلف بمعرفة الأوزان والموسيقى فيأخذون في كلام الله مأخذهم في التشبيب والغزل فإنه من أسوأ البدع فيجب على السامع النكير وعلى التالي التعزير⁴.

¹ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (364/16).

² المصدر نفسه، (12/ 387).

³ رواه الدارمي في مسنده، كتاب: فضائل القرآن، باب: التغني بالقرآن، رقم: 3736، (2/1103). وقال الألباني "صحيح"، ينظر:

مشكاة المصابيح، (676/1).

⁴ فيض القدير شرح الجامع الصغير، المناوي، (90/4).

وختم الشيخ كلامه بالتحذير من شكوى القرآن بهجر تدبره والانشغال بحسن صوت القارئ فقال: "يا أيها الناس: إن القرآن يشكونا إلى الله، لأننا نتلوه مُعْجِبِينَ بأصواتنا وغير آهِينَ بأوامره ونواهيه ولا متدبرين خطابه، أليس هذا إعراضا عن القرآن؟"¹.

ثالثا: الاقتصار على تلاوة القرآن في الجنائز والمساجد:

حيث تحدّث الشيخ عن ظاهرة الاقتصار على تلاوة القرآن في الجنائز والمساجد وعدم تجاوز ذلك، وتعجب من ذلك قائلا: "ولا يتذكّره القوم إلا عند الجنائز، وكأنّ القرآن نزل ليقرأ على الأموات، وربّنا يقول وهو خير القائلين ﴿لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ يس: ٧٠، ولم يقل: لتقرأه على ميت إذا مات. إنّ الميت -إن كنت فطنا ولك بخطاب القرآن دراية- قد أخذ زاده؛ إن كان خيرا فهو يلاقيه، وإن شراً فما ظلمه الله لكن العبد ظلم نفسه"². وقال في موضع آخر: "الواقع قد جعلنا القرآن وراءنا ظهريا ولم نعد نتفقده إلا في الجنائز، ولم نتلوه إلا حين ندخل المسجد، فحصرناه بين جدران المساجد"³.

الفرع الثاني: حال المسلمين مع العمل بالقرآن:

وقد تحدث مفسرنا التواتي عن بعض هذه الصور خاصة قضية هجران الأمة للعمل بالقرآن الكريم، حيث سلط عليها الضوء من خلال عدّة مسائل هي:

أولا: هجر العمل بالقرآن:

والمقصود هنا تنبيه الشيخ على نوع من أنواع الهجر للقرآن الكريم، وهو: هجر العمل به عموما، فلا ياتمر بأوامره ولا ينجز عن نواهيه، وهذا أعظم أنواع الهجر، يقول التواتي: "وفي زماننا هذا إن القوم لم يعملوا بمنهجه، ولم ياتمروا بأوامره ولم يقفوا عند نواهيه، وإن عدم اجتناب زواجه من هجرانه، والعدول عنه إلى غيره من شعر أو قول أو غناء أو هو أو كلام أو طريقة مأخوذة من غيره، من هجرانه"⁴.

ثانيا: نماذج من هجر التحاكم للقرآن: من صور الهجر التي تحدث عنها مفسرنا واهتمّ بها وذكر أمثلة عليها: حكاية واقع المسلمين في مخالفتهم لما في القرآن من الأحكام في شتى النواحي؛ كالمعاملات والأخلاق والزواج والطلاق وغيرها، آيات القرآن تُتلى على المسلمين دائما لكن لا أثر لها في معاملاتهم ولا في أفعالهم، فلما فسّر قوله تعالى ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتْ الْبَصَرِي عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرِي لَيْسَتْ

¹ الدرّ الثمين، التواتي بن التواتي، (161/19)، وينظر المصدر نفسه: (357/2).

² المصدر نفسه، (358/2)، وينظر المصدر نفسه: (227/6).

³ المصدر نفسه، (227/6).

⁴ المصدر نفسه (47/14).

أَلْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتَّبِعُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ قَالَ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿البقرة: ١١٣﴾، ذكر فائدتين؛ إحداهما لأهل الكتاب، وهي منطوقة في الآية، وهي: توبيخ أهل الكتاب لأنهم تركوا العمل بالشرعية مع علمهم بها، والثانية: مستنبطة من الآية ويمكن ربطها بالأمة المحمدية، فقال: "الثانية: وفي هذا تنبيه لأمة محمد ﷺ من أن من كان عالماً بالقرآن يكون واقفاً عنده، عاملاً بما فيه قائلاً بما تضمنه، لا أن يخالف قوله ما هو شاهد على مخالفته منه، فيكون في ذلك كاليهود والنصارى... إن حالنا اليوم أسوأ من حال من سبقنا، فإن القرآن لا يوزع به في أخلاق، ولا يحكم لا في زواج ولا طلاق، وغائب عند التجار في الأسواق"¹.

ثالثاً: نصيحة الرجوع للقرآن وتحكيمه: ختم الشيخ التواتي كلامه عن هجر القرآن وصوره، بنصيحة مشفق لأبناء أمته وذلك بوصف دواء نافع لهذه الحال؛ تكون بالتصديق بما في القرآن والتوبة إلى الله، وتصحيح ما مضى والرجوع إلى الشريعة الإسلامية والعمل بها، فقال: "موعظة الجلسة: يا أيها الناس ماذا تنتظرون للرجوع إلى الله تائبين... هذه آيات الله تتلى عليكم بكرة وأصيلاً في صلواتكم وأثناء مكوثكم في المساجد، ولكن لم يُر لها أثرٌ في أفعالكم ولا في معاملتكم حين تخرجون من المسجد، هلاًّ عدتم إلى رشدكم مصدقين بما قرأتم وصححتهم ما بدر منكم، وتبتم إلى الله قبل أفول شمسكم، واعلموا أن الله يُجهل ولا يُهمَل، وأنّ عذابه يأخذ بغتة وأنتم لا تشعرون وأنّ نعم الله تستحقُّ الشكر للمنع، وأن لا تجاهروا بمعصية الله"².

المطلب الثالث: حال الأمة الإسلامية مع مقدساتها:

من المواضيع المهمة التي تحدث عنها الشيخ التواتي في تفسيره ورَبَطَ هِدَايَاتِ القرآن الكريم بها؛ حال مقدسات المسلمين، من الحرمين الشريفين وبيت المقدس وما آلت إليه، وسأتحدث عن ذلك من خلال تقسيم كلامه حول هذا الموضوع إلى قسمين، كل واحد منها تحت فرع وهما:

الفرع الأول: حال الحرمين الشريفين:

وقد تحدّث الشيخ التواتي عن هذه القضية، من خلال عدّة مسائل، أهمها:

أولاً: تحول محيط الحرم المكي إلى أسواق عالمية:

¹ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (357/2-358)، وينظر المصدر نفسه: (159/19).

² المصدر نفسه، (225/14). وينظر المصدر نفسه: (414/10).

لما ذكرت¹. وقال في موضع آخر: "ألا إن الحرمين الشريفين تحول حالهما إلى ملك للأشخاص، فطمست المعالم والآثار"².

ثالثا: جهالة سدنة البيت³:

لما فسّر الشيخ قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ﴾⁴ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿النساء: ٥٨﴾، ذكر أن الآية نزلت في عثمان بن طلحة سادن الكعبة، لما أخذ منه مفتاح الباب، فنزلت الآية أمرًا برده إليه، فلما مات دُفع إلى أخيه شَيْبَةَ، فبقي المفتاح والسدانة في أولادهم إلى يوم القيامة⁴، ثم علق التواتي مُستغربا جهالة من بيده المفتاح اليوم، فقال: "أما اليوم فلا ندري ما حلّ بالمفتاح وفي يد من هو؟، لأن الأمر تَغَيَّرَ في أرض الحجاز مما يدعوا إلى الاستغراب في كثير من الأمور"⁵.

رابعا: المخالفات التي ترتكب عند الروضة الشريفة:

تكلم المفسر عن بعض ما يقوم به المسلمون من أعمال باطلة في الروضة الشريفة، وذلك عند تفسيره لقوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنَ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ الحجرات: ٤-٥، فبين أن الآية في توقير وتعظيم رسول الله ﷺ ثم أراد ربط معناها بواقع الناس فعنون بـ "الآية وواقع الناس" وقال: "إن مدلول هذه الآية ليدعوا إلى العَجَب؛ وذلك ممّا يلاحظ في الحرم المديني حين يتزاحم الناس على الروضة الشريفة، وليت الأمر هو في تزاحم الخير، وإمّا هو تخاصم يصل في كثير من الأحيان إلى التلاكم بالأيدي، وذلك بقرب من قبر الرسول ﷺ ولا يعطون للنبي الكريم حُرمة ولا وقارا، وقد هُينّا أن نرفع أصواتنا عنده، ووجوب حرمة وتوقيره ميّتا أو حيا، فنحن ملزمون شرعا بالتأدب مع رسول الله ﷺ، وذلك حين سماع سنته ﷺ تُدَرِّسُ

¹ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (70/10).

² المصدر نفسه، (272/7).

³ وسدنة البيت: حُجَّابُه، وسدنة الأصنام في الجاهلية قَوْمُئِهَا، وكانت السدانة واللواء لبني عبد الدار في الجاهلية فأقرها النبي ﷺ لهم

في الإسلام، وقال أبو عبيد: سدانة الكعبة: خِدْمَتُهَا وتولي أمرها وفتح بابها وإغلاقه. تاج العروس، الزبيدي، (180/35).

⁴ أسباب النزول، الواحدي، (ص: 157).

⁵ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (140/7 و142).

للناس فوجب الاستماع إليها والعمل بها، وإحيائها ونشرها بين الناس، فذلكم هو التأدّب الحقيقيّ مع رسول الله ﷺ¹.

وللأسف فإن أمر النساء في الروضة أدهى وأمرّ، حيث تَراهن بين لطمٍ للخدود، وندب للوجوه، واستغاثة بالرسول، و... إلا من رحم الله، مع أن الرسول ﷺ جعل الروضة مكاناً شريفاً، فقال ﷺ «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة»².

خامساً: حلول ومقترحات تتعلق بالحرمين:

كعادة الشيخ التواتي وبعد بيانه لواقع الناس تجده يقترح العلاج المناسب لكل قضية، حيث دعا إلى تطهير وتحرير الحرمين الشريفين، فهما أمانة الله في أعناق المسلمين، الذين سيُحاسَبون ويُسألون عن بيته العتيق الذي تُرك في أيدي السماسرة - كما عبّر المفسّر -، فقال ناصحاً: "أيها الناس: إنكم سائرون للقاء الله وتُسألون عن بيته العتيق، وقد تركتموه أسيراً في أيدي السماسرة الذين يُرى على ملامح وجوههم التكبر والتجبر، إنها صيحة غيور على دينه، فهل من أذن صاغية تسمعي؟"³.

وقال أيضاً: "أيها الناس: إذا كانت هناك بقعة على وجه الأرض تحتاج وتستحق التحرير والتطهير، فإن أرض الحجاز حيث الحرمين الشريفين الذين تشدّ إليهما الرحال للعبادة وأداء ركن من أركان الإسلام في حاجة إلى تطهير، فهما أمانة في أعناق عباده الذين آمنوا بمحمد ﷺ رسولا من قبل الله مبعوثا بالحق المبين"⁴.

الفرع الثاني: حال المسجد الأقصى:

لا يمكن لأيّ مفسر أن يتجاوز الحديث عن المسجد الأقصى في كتاباته، يبيّن فيها آراءه ويجهر فيها بموقفه، ولم يجد الشيخ التواتي عن هذا الأمر؛ بل كانت له كلمات مؤثرة عن فلسطين والمسجد الأقصى وما آل إليه حاله في العصر الحاضر، ومن المواضيع التي تحدّث عنها في ذلك:

أولاً: منع المسلمين من الصلاة بالمسجد الأقصى:

ذكر المفسّر منع المسلمين من الصلاة في المسجد الأقصى لما فسّر قوله تعالى ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾

¹ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (129/18).

² رواه البخاري في صحيحه عن عبد الله بن زيد، في أبواب التطوع، باب: فضل ما بين القبر والمنبر، برقم: 1137.

³ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (70/10).

⁴ المصدر نفسه، (70/10).

لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿البقرة: ١١٤﴾، وهذه الآية قيل: نزلت في ططوس الرومي وأصحابه من النصاري، وذلك أنهم غزوا بني إسرائيل، فقتلوا مقاتلتهم، وسبوا ذراريهم، وحرقوا التوراة، وخرّبوا بيت المقدس، وقذفوا فيه الجيف، وهذا قول ابن عباس في رواية الكلبي. وقال قتادة والسدي: هو بختنصر وأصحابه؛ غزوا اليهود وخرّبوا بيت المقدس، وأعانتهم على ذلك النصاري من أهل الروم. وقال ابن عباس في رواية عطاء: نزلت في مشركي أهل مكة ومنعهم المسلمين من ذكر الله تعالى في المسجد الحرام¹.

وبعد بيان الشيخ التواتي اختلاف المفسرين في المعنى بالآية انطلاقاً من سبب نزولها، عمّم حكم الآية قائلاً: "إن إطلاق النص يوجي بأنه حكم عام في منع مساجد الله أن يُذكر فيها اسمه، والسعي في خرابها، ولعلّ ما يحدث الآن في فلسطين حين يمنع الناس من أداء الصلاة في المسجد الأقصى ثالث الحرمين الشريفين، على مرأى ومسمع من العالم أجمع، كأنهم اتفقوا جميعاً يهوداً ونصارى ومجوساً وعرباً على منع المسلمين من ذكر الله تعالى في حرم قدسي، ومسرّى رسول الله ﷺ"².

ثانياً: وصف جرائم العدو في فلسطين:

لما فسّر التواتي قوله تعالى ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِّ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٥٥﴾ دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ النساء: ٩٥-٩٦، تكلم عن الجهاد وفرضيته وفصل في ذلك، وذكر أنّه يتأكّد إذا دخل العدو للبلاد، وقام بالتمثيل لما يعانيه أهل فلسطين من جرائم كثيرة، فقال: "فكيف بحالنا وديارنا معزّوة، والقدس مدنّس والأبرياء يُقتلون، والأعراض تُنتهك، والأموال تُنهب، وأمرنا بأيديهم، ونحن غناء كغناء السيل، تداعت علينا الأمم الكافرة من حذب وصوب"³.

ثالثاً: موقف الأمة الإسلامية من قضية المسجد الأقصى:

حيث ذكر المفسّر موقف العرب خاصة والأمة الإسلامية عامة من هذه القضية. ومما جاء في بيان الأول ما ذكره في تفسير قوله تعالى ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ ۖ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

¹ أسباب النزول، الواحدي، (ص: 36).

² الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (363/2).

³ المصدر نفسه، (271/7). ولو توافقت دروس الشيخ وكتابة لتفسيره ومع الأحداث التي تحدث في غزة الآن وحملة "طوفان الأقصى"، لكان له كلام أكثر تفصيلاً وأشد لهجة.

كُلُّ لَهُ قَلْبُوتٌ ﴿ البقرة: ١١٦ ، فالآية تذكر افتراء اليهود والنصارى والمشرّكين زمن البعثة، وهذه الفرق الثلاثة هي التي كانت تناهض الإسلام يومها، ثمّ صرح المفسّر بأنها هي التي تناهض الإسلام اليوم وأنها متعاونة مع بعض العرب، ومثّل بقضية فلسطين مبينا موقف العرب منها قائلا: "ومن العجب أنها لا تزال - يقصد الفرق الثلاثة المذكورة سابقا- هي التي تناهضه اليوم تماما ممثلة في الصهيونيّة العالمية والصليبية العالمية، ولها مؤازرة من بعض العرب، قد يقول قائل هذا تحامل على العرب، فأقول: إنّ الواقع يشهد بذلك، ألم يُعتدّ على المسجد الأقصى حرّقا وعلى أهله تشريدا ؟... وكان في مقدور العرب أن يتحرّكوا، ويهبطوا دفاعا عن بَيْضَةِ الإسلام لكنّهم لم يفعلوا، ألم تُقتل النساء والصبيان، وتنهب الأموال، وتنتهك الأعراض، وبقوا جامدين؟، وكلّ ما فعلوه -يعني العرب- قدّموا احتجاجا إلى الأمم المتحدة على الباطل - كما قال الشيخ البشير الإبراهيمي - رحمه الله، وهو احتجاج في مهبط الريح ليس له أثر" ¹.

وقد بيّن الاعتداء الصهيوني الأخير المواقف الحقيقية للدول العربية؛ بين مؤيّد وساكّ ومندّد، ولكن الموقف الرسمي العربي لا يزال دون المستوى المطلوب؛ حيث لم تطرد الدول العربية السفير الإسرائيلي ولم تقطع علاقاتها بها، ومُنعت تلك الدول من تقديم المساعدات إلى قطاع غزة بالرغم من الوضع الخطير الذي يعيشه الغزّايون، بل وصلت المواقف المخزية ببعض الدول العربية أنها قامت بإدانة الطرفين على حد سواء؛ في تنكّر صريح لحق الفلسطينيين في المقاومة وتأييد مُبَطَّن للصهاينة ².

وقد صرّح التواتي بموقف الأمة الإسلامية في موضع آخر بأنّ القدس دُتس بجرائم العدوّ والأمة الإسلامية متقاعسة عن واجب الجهاد منغمسة في زخارف الدنيا، فقال: "ألا إنّ ثالث الحرمين مدّس، فهل من مُنقذٍ لما آل إليه حال الأمة من تقاعس عن الواجب، والركون إلى الدنيا وزخارفها" ³.

¹ الدرّ الثمين، التواتي بن التواتي، (371/2).

² مقال بعنوان: طوفان الأقصى: المواقف العربية الرسمية والشعبية، أ: عبد الرحمن عادل، بتاريخ: 18 أكتوبر 2023م، موقع:

مركز الحضارة للدراسات والبحوث، الرابط: <https://hadaracenter.com>.

³ الدرّ الثمين، التواتي بن التواتي، (272/7).

المبحث الرابع: التنزيلات المتعلقة بالمجتمعات غير الإسلامية.

تنوعت تنزيلات الشيخ التواتي المتعلقة ببيان بعض أحوال المجتمعات غير الإسلامية، حيث قام بوصف طرفٍ من المخالفات والآفات التي وقعت فيها تلك المجتمعات وما تجنيه من آثارٍ لما تركت العمل بتشريعات الدين الإسلامي الموافق للفطرة وبيان موقفها من المسلمين. وقد وجدت كلمات كثيرة للشيخ في هذا المجال تنوعت بين الحديث عن اليهود والنصارى، والمجتمعات الغربية عموماً، فكان الشيخ يحرص في درسه التفسيري على ربط معاني القرآن الكريم واستنباطاته بحال تلك المجتمعات ليبيّن حقيقتها، وقد تنوعت هذه التنزيلات على عدّة فئات تناسب تقسيمها إلى أربعة مطالب كل واحد يتحدث عن فئة وهي:

المطلب الأول: تنزيلات مشتركة بين أهل الكتاب (اليهود والنصارى).

المطلب الثاني: تنزيلات خاصة باليهود.

المطلب الثالث: تنزيلات خاصة بالنصارى.

المطلب الرابع: تنزيلات متعلقة بالدول الغربية.

وتفصيلها كالاتي:

المطلب الأول: تنزيلات مشتركة بين أهل الكتاب (اليهود والنصارى):

تحدّث التواتي عن حالة أهل الكتاب من اليهود والنصارى، فبيّن بطلان دينهم ووصف أخلاقهم المشتركة، كما ذكر ارتفاع نسبة الجرائم عندهم بسبب تركهم للشرائع كالقصاص، فكان يربط بين هدايات القرآن وواقع هؤلاء، ويمكن تقسيم كلامه حول هذا الموضوع إلى مسائل تحت فروع هي:

الفرع الأول: بطلان الديانات التي عليها أهل الكتاب اليوم:

حيث بيّن مفسّرنا بطلان الدين الذي يزعم أهل الكتاب اتباعه اليوم عندما فسّر قوله تعالى ﴿قَتَلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ التوبة: ٢٩، فبيّن معنى الدين الحقّ إجمالاً، وهو الذي تكون فيه الدينونة لله وحده، والذي يمثله في الأخير ما جاء به محمد ﷺ، بعيداً عن الوثنيات التي يتبعها اليهود والنصارى اليوم، فقال: "والمقصود إجمالاً بدين الحق هو الدينونة لله وحده في الاعتقاد والشعائر والشرائع، وهذه قاعدة في دين الله كلّها، هو الدين الممّثل أخيراً فيما جاء به محمد ﷺ، ولا يدخل فيه طبعاً تلك الديانات المحرفة المشوهة المشوبة بالوثنيات في الاعتقاد

التي عليها اليهود والنصارى اليوم. كما لا تدخل فيه الأنظمة والأوضاع التي ترفع لا فئة الدين وهي تقيم في الأرض أربابا يعبدونها الناس من دون الله، في صورة الاتباع للشرائع التي لم ينزلها الله، فأيّما شخص أو قوم لم يدينوا لله وحده في الاعتقاد والشعائر والشرائع مجتمعة؛ انطبق عليهم أنهم لا يدينون دين الحق، ودخلوا في مدلول آية القتال¹. وأيد التواتي كلامه بنقل عن الشيخ ابن عثيمين مفاده: أنّ التوراة والإنجيل التي بأيدي أهل الكتاب اليوم لا يؤثّق بهما، لأنهما تعرّضا للتحريف والتبديل وكتمان الحق، فقال: "يقول ابن عثيمين: وأما الأحكام فما جاءت شريعتنا بخلافه فالعمل على ما جاءت به شريعتنا؛ لأنه منسوخ؛ وأما ما لا يخالف شريعتنا فاختلف العلماء في العمل به؛ والصحيح أنه يعمل به؛ وبسّط ذلك في أصول الفقه؛ وليُعلّم أنّ التوراة التي بأيدي اليهود اليوم، والإنجيل الذي بأيدي النصارى لا يؤثّق بهما؛ لأنهم حرّفوا، وبدلوا، وكنتموا الحق"².

الفرع الثاني: أخلاق أهل الكتاب:

قبل أن يفسّر الشيخ التواتي قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً^٣ قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ البقرة: ٦٧، ذكر ملخصا لصفات بني إسرائيل وأخلاقهم قديما وحديثا، فقال: "وفي نهاية هذا الدرس تجيئ قصة "البقرة" تبين أخلاق بني إسرائيل وخداعهم ومكرهم، تحديهم لإرادة الله تعالى، وكيف يتلاعبون بالألفاظ - قديما وحديثا - ولا عهد لهم ولا ذمة، وتجيئ القصة مفصلة وفي صورة حكاية، لا مجرد إشارة كالذي سبق، ذلك أنها لم ترد من قبل في السور المكينة، كما أنها لم ترد في موضع آخر، وهي ترسم سمة اللّجاجة والتعنت والتلكؤ في الاستجابة، وتمحل المعاذير التي تتسم بها إسرائيل"⁴.

وقد جعل المفسر ما يشهده العالم اليوم وما ألحقه اليهود والنصارى بالبشرية في الحربين العالميتين دليلا على جرمهم ومكرهم وخداعهم؛ فقال: "لكن لما بدّلوا وحرّفوا وأولّوا، سلبوا ذلك المقام، وصارت قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه، فلا عمل صالحا، ولا اعتقاد صحيحا، وصاروا مفسدين في الأرض

¹ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (188/10).

² تفسير القرآن، العثيمين، (349/5).

³ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (361/15).

⁴ المصدر نفسه، (50/2). وقد ألفت كتب ورسائل ومقالات عديدة تبين أخلاق بني إسرائيل استقلالا، منها: كتاب: "أخلاق وطبائع بني إسرائيل في قصة يوسف عليه السلام في القرآن الكريم والعهد القديم"، إبراهيم الدسوقي عبد الرحمن.

ويسعون في الأرض فسادا. ولعلّ ما يشاهد اليوم على وجه الأرض دليل على جرمهم، وما عانته البشرية في الحرين الكونيين السابقين، ولا تزال تعاني البشرية من مكرهم وخداعهم" ¹.

الفرع الثالث: ارتفاع نسبة الجرائم عند أهل الكتاب:

لما تكلم المفسر عن الإعجاز التشريعي للقصاص عند تفسيره لقوله تعالى ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ ۖ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ ۖ وَالْأُنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ ۖ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ ۖ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ۚ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ ۚ يَأْتُلِي أَلَالِبِ لَعَدَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿ البقرة: ١٧٨-١٧٩، ذكر أن هذا الحكم أنزل على بني إسرائيل، كما رواه الطبري عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كان على بني إسرائيل القصاص في القتل، ليس بينهم دية في نفس ولا جرح ². ولكنهم لما خالفوا هذا الحكم انتشرت الجرائم عندهم، وفي ذلك يقول: "وهذا هو حكم الله الذي فيه طمأنينة المجتمع، وإخافة الفاعل، والزدغ عن التماذي في العمل الضارّ، قد أنزله سبحانه على بني إسرائيل في توراتهم، فخالفوا وعاندوا وبدّلوا، فكانت النتيجة جرائم متتالية، واضطرابات تزعزع النفوس، وصار على منوالهم النصارى فحلّ بهم ما لحق بسابقيهم، حسبما نلمسه اليوم في قوانينهم الوضعية من امتداد لذلك العمل، حيث تجنى الثمرات السيئة، فيما يطفح على الصحافة من أخبار، وما يبرز من تقارير الجريمة من أرقام" ³.

المطلب الثاني: تنزيلات خاصة باليهود:

بعد ذكر بعض المسائل المشتركة بين أهل الكتاب من اليهود والنصارى، نذكر بعض ما يختص بكل واحد منهما، وأولهما اليهود، الذين كان التواتي ينزل عليهم آيات من القرآن الكريم، وفيما يلي بعض تلك التنزيلات التي تندرج تحت فروع وهي كالآتي:

الفرع الأول: صفة قسوة قلوب اليهود:

ذكر الشيخ التواتي عدّة صفات اختص بها اليهود في ثنايا تفسيره؛ أبرزها: قسوة قلوبهم والتي كانت في أجدادهم ولا زالت في أحفادهم إلى العصر الحاضر، وقد ذكر مفسرنا هذه الصفة لما فسّر قول الله تعالى ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ ۖ أََوْ أَشَدُّ قَسَوَةً﴾ البقرة: ٧٤، والقسوة: الصلابة

¹ الدرّ الثمين، التواتي بن التواتي، (169/15-170)، ينظر: المصدر نفسه، (406/2).

² جامع البيان، الطبري، (471/8).

³ الدرّ الثمين، التواتي بن التواتي، (283/3).

والشدة واليُس، وهي عبارة عن خلّوها من الإنابة والإذعان لآيات الله تعالى. والآية توبيخ من الله تعالى لليهود على قلوبهم التي لا ترقُّ ولا تليّن ولا تَحْشَع على عكس الحجارة، إذ منها ما تتفجّر منه العيون، ومنها ما يلين فيهبط من خشية الله¹.

ولما ذكر التواتي معنى هذه الآية التي كشفت أن يهود بني إسرائيل كانوا أكثر البشر قسوة وفضاعة، ذكر أن هناك إشارة في قوله تعالى ﴿مَنْ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ تدلّ على مبدأ القسوة عندهم ولم تذكر نهايتها، فهي مستمرة فيهم عبر العصور حتى عصرنا هذا، وفي ذلك يقول: "كلمة حدّدت مبدأ تاريخ القسوة ولم تحدّد نهايتها، كأنّه بذلك وضعت عليه طابع الاستمرار وتركته يتخطى العصور والأجيال في خيال السامع، حتى يظن أن الحديث قد أشرف به على العصر الحاضر"².

الفرع الثاني: عداوة اليهود للمسلمين ومكرهم بهم:

كشف القرآن طبائع اليهود وحقائقهم، ومن أبرزها عداوتهم ومكرهم بالمسلمين، وقد بيّن الشيخ استمرارهم على ذلك إلى اليوم، فلما فسّر الشيخ قوله تعالى ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ آل عمران: ١١٨، بيّن اختلاف المفسّرين في تحديد من نهي عن مخالطتهم وهم اليهود أو المنافقون³. ولما حكى القول بأنهم اليهود قال: "وهؤلاء اليهود عداوتهم للمسلمين اليوم ظاهرة، فلا يتعمى عليها إلا من في قلبه شكّ بما جاء به محمد ﷺ، وندب إليه الإسلام، ومن هؤلاء من يخفون في صدورهم غير ما يبدونه"⁴.

كما ذكر المفسّر -نقلا عن سيد قطب- أنّ الذي يتصفّح التاريخ منذ إقامة دولة الإسلام بالمدينة إلى يومنا يرى كيد اليهود للإسلام وإرادة إزالته، وفي العصر الحديث كانت لهم ألوان من الحرب والمكر والكيد وتنوعت أساليبهم وضُعفت من أجل الوصول لهدفهم، يقول سيد قطب -رحمه الله-: "والذي يراجع التاريخ بعد ذلك -منذ اليوم الذي أعلن فيه الإسلام بالمدينة، وقامت له دولة- إلى اللحظة الحاضرة، يدرك كذلك مدى الإصرار العنيد على الوقوف لهذا الدين وإرادة محوه من الوجود!... ولقد استخدم في العصر الحديث من ألوان الحرب، والكيد والمكر أضعاف ما استخدمته طوال القرون الماضية، وهي في

¹ الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، (1/ 462)، وأيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، أبو بكر جابر الجزائري، (1/ 71).

² الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (2/ 76). وينظر: المصدر نفسه، (2/ 98).

³ محاسن التأويل، القاسمي، (2/ 393).

⁴ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (6/ 20).

هذه الفترة بالذات تعالج إزالة هذا الدين بجملته؛ وتحسب أنها تدخل معه في المعركة الأخيرة الفاصلة، لذلك تستخدم جميع الأساليب التي جربتها في القرون الماضية كلها -بالإضافة إلى ما استحدثته منها- جملة واحدة!... ويشنون عليهم حرباً تتسم بكل بشاعة الحروب الصليبية، سواء عن طريق أجهزتهم المباشرة في المستعمرات في آسيا وإفريقية أو عن طريق الأوضاع التي يقيمونها ويسندونها في البلاد (المستقلة!) لتحل محل الإسلام عقائد ومذاهب علمانية! تنكر «الغيبية» لأنها «علمية»! و «تطور» الأخلاق لتصبح هي أخلاق البهائم التي ينزو بعضها على بعض في «حرية!»، و «تطور» كذلك الفقه الإسلامي، وتقيم له مؤتمرات المستشرقين لتطويره¹.

الفرع الثالث: مكر اليهود للسيطرة على العالم كله:

وقد ذكر الشيخ التواتي عدة حيل وحُطط لليهود يتبعونها ليكون العالم كله تبعاً لهم؛ أهمها:

أولاً: تسبب اليهود في نكبات مالية عالمية:

وذكر مفسرنا ذلك لما فسّر قوله تعالى ﴿وَمَنْ أَهْلُ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَّهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَّهُ بدينارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿آل عمران: ٧٥﴾، ذكر المفسرون سبب استحلال اليهود للأمانة، وهما سببان: أحدهما: لأن العرب مشركون عندهم، والثاني: لأنهم تحولوا عن دينهم الذي عاملناهم عليه². ثم ذكر تعقيباً وضّح فيه تسبب اليهود فيما يعانيه العالم من أزمات مالية اقتداء بفعل أجدادهم، قائلاً: "تعقيب مفيد: ولعل ما يحدث الآن في مجال التسيير المالي في العالم دليل على صدق ما أخبر به القرآن الكريم، وبرهان ساطع على دنس ضمائر اليهود، وإنّ النكبات المالية التي مرّ بها المجتمع البشري المعاصر، والإفلاس المالي الذي تمر به بعض الدول الآن إلا من سببهم إذ إنهم استأثروا بمجريات الأمور والتسيير الاقتصادي والتنظير له، والقنوات المالية في العالم"³.

كما بيّن هذا عند تفسيره لقوله تعالى ﴿وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ النساء: ١٦١، أن تعامل اليهود بالربا وتحكّمهم في الأوساط المالية العالمية هو سبب الأزمات، فهي شر منتشر بين الناس، فقال: "إن الربا من أعظم الآفات التي تمحق

¹ في ظلال القرآن، سيد قطب، (301/3) بتصرف . وينظر: الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (406/9).

² النكت والعيون، الماوردي، (1/ 403).

³ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (320/5).

الأموال، وتنشر الفساد والظلم بين العباد، ولذلك جاء النهي صريحاً عن الربا، وإن الأوساط المالية العالمية اليوم لها شر مستطير، وإن المتحكمين فيها هو اليهود الذين عنهم هذه الآية¹.

ثانياً: التحالف مع الدول الكافرة:

مما ذكره الشيخ التواتي من خطط اليهود في السيطرة على العالم، تحالفهم مع الدول الكافرة بكل طريقة، وذلك عندما فسر قوله تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا...﴾ البقرة: 83-86، حيث بيّن المفسر أنّ اليهود وقعوا في نقض ميثاقهم مع الله تعالى بسبب تحالفهم مع المشركين بما يُملّي عليهم مخالفة دينهم وكتابهم وهذا هو شأنهم اليوم، ثمّ بيّن خطّتهم في ذلك، فتجد بعض اليهود متحالفين مع فئة من الكافرين، وبعضهم متحالف مع فئة أخرى معادية للفئة الأولى، وهي خطة جهنمية قديمة منهم، والهدف أن يضمن لهم الغنائم وتحقيق المصالح في كلّ حال سواء انتصر هؤلاء أو هؤلاء، وفي ذلك يقول: "حيث ارتقى فريق في أحضان حلف، وفريق في أحضان حلفٍ معاد للحلف الأول بحجة الاستنصار... فإن انقسامهم فريقين وانضمامهم إلى حلفين، هي خطة إسرائيل التقليدية في إمساك العصا من الوسط، والانضمام إلى المعسكرات المتطاحنة كلّها من باب الاحتياط، لتحقيق بعض المغام على أية حال؛ وضمان صوالح اليهود في النهاية سواء انتصر هذا المعسكر أم ذاك!"².

ثالثاً: وصف التسيير العالمي لليهود:

لما فسر الشيخ التواتي قوله تعالى ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وَقَطَعَتْهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ الأعراف: 167-168، ذكر أن أكثر أهل التفسير بأن الآية في اليهود زمن البعثة، وعقب بأن ذلك يوم كان أهل الإسلام في قوّة وعزّ ليس كما هم عليه اليوم في ذلّ وهوان، وقد ذكر ابن كثير بعض العذاب الذي أصابهم، من لدن موسى عليه السلام الذي ضرب عليهم الخراج - كان أول من ضرب الخراج-، ثم كانوا في قهر الملوك من اليونانيين والكشديانيين والكلدانيين، ثم صاروا في قهر النصارى وإذلالهم وإيأهم، حتى جاء الإسلام وبعث محمد ﷺ فكانوا تحت ذمته يؤدون الخراج والجزية³. أما اليوم: فقد تغيّر حال اليهود في زمننا وأصبحت الأمور

¹ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (426/7).

² المصدر نفسه، (167-166/2).

³ تفسير ابن كثير، (497/3).

ييدهم فسيطروا على العالم كلّ، وفي ذلك يقول التواتي: "فما أشبه اليوم بالبارحة فقد تحكّم في زمننا اليهود في الكلّ، فاندسوا في الهيئات العالمية، فهم الذين يُسيّرون الاقتصاد العالمي، ويضعون البرامج، ويثيرون النزاعات الطائفية بين المسلمين ممّا جعل بلاد الإسلام اليوم ميدانا للقتل، إذ أبناء الإسلام حدثت بينهم نزاعات وعداوات مُختلفة، الإسلام منها براء"¹.

المطلب الثالث: تنزيلات خاصة بالنصارى:

بعدما تمّ تخصيص اليهود ببعض الصفات الخاصة بهم، نأتي لبعض التنزيلات الخاصة بالنصارى مما ذكره التواتي، وهي كثيرة جعلت كلّ واحد منها تحت فرع، تفصيلها كالآتي:

الفرع الأول: فرق النصارى في عصرنا:

بيّن التواتي فرق النصارى المتواجدة في هذا العصر وتاريخ ظهورها وأماكن انتشارها عندما فسّر قوله تعالى ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّوْهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ المائدة: ١٨، فقال: "والمسيحيون في هذا العصر فرق ثلاث، الكاثوليك والأرثوذكس والبروتستانت (أي: إصلاح النصارى)، وهذا المذهب الأخير حدث من نحو أربعة قرون وصار هو المذهب السائد في أعظم الأمم مدنيّة وارتقاء كالولايات المتحدة وإنجلترا وألمانيا، وقد أزال هذا المذهب كثيرا من التقاليد والخرافات النصرانية التي كانت قبله واستبدل بها تقاليد أخرى، ومع كلّ هذا فهؤلاء المصلحون لم يستطيعوا أن يرجعوا المسيحية إلى التوحيد الصحيح الذي هو دين المسيح ودين سائر الأنبياء، فلا يزالون يقولون بالتثليث ويعدون الموحد غير مسيحي كما تقول بذلك الفرقتان الكبيرتان الأخريان"².

وفيما يلي تعريف بالفرق الثلاث التي ذكرها الشيخ التواتي وهي:

أ- **الكاثوليك**: وهم أتباع البابا في روما، وأهم ما يتميزون به هو:

1 - قولهم بأن الروح القدس انبثق من الأب والابن معا.

2 - يبيحون أكل الدم والمخنوق .

3 - أن بابا الفاتيكان هو الرئيس العام لجميع الكاثوليك.

4 - تحريم الطلاق بتاتا حتى في حالة الزنا.

¹ الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (420/9).

² المصدر نفسه، (49/8).

ب- الأرثوذكس: وهم نصارى الشرق الذين تبعوا الكنيسة الشرقية في القسطنطينية وأهم مميزاتهم:

- 1 - أن الروح القدس انبثق عندهم من الأب فقط.
- 2 - تحريم الطلاق إلا في حالة الزنا، فإنه يجوز عندهم.
- 3 - لا يجتمعون تحت لواء رئيس واحد، بل كل كنيسة مستقلة بنفسها. وهذا المذهب منتشر في أوربا الشرقية وروسيا .

ج- البروتستانت: ويسمون الإنجيليين: وهم أتباع مارتن لوثر الذي ظهر في أوائل القرن 16م في ألمانيا، وكان ينادي بإصلاح الكنيسة وتخليصها من الفساد. وأهم ما تتميز به:

- 1 - أن صكوك الغفران دجل وكذب، وأن الخطايا والذنوب لا تغفر إلا بالندم والتوبة.
 - 2- أن لكل أحد الحق في فهم الإنجيل وقراءته، وليس وقفا على الكنيسة.
 - 3 - تحريم الصور والتماثيل في الكنائس؛ لأنها مظهر من مظاهر الوثنية.
 - 4 - منع الرهبنة.
 - 5 - أن العشاء الرباني تذكّار لما حلّ بالمسيح من الصלב في زعمهم، وأنكروا أن يتحوّل الخبز والخمر إلى لحم ودم المسيح عليه السلام.
 - 6 - ليس لكنائسهم رئيس عام يتبعون قوله.
- وهذه النحلة تنتشر في ألمانيا وبريطانيا وكثير من بلاد أوربا وأمريكا الشمالية¹.

الفرع الثاني: قوة دول النصارى:

من المسائل التي تحدّث عنها مفسّرنا فيما يخص النصارى؛ قوة دول النصارى اليوم، وأنها أعظم قوة من اليهود، وذلك عند تفسيره لقوله تعالى ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَرَافِعَكَ إِلَىٰ وَمُطَهِّرَكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ آل عمران: ٥٥، حيث قال: "فإننا نرى أن دول النصارى في الدنيا أعظم وأقوى من دول اليهود؛ فلا نرى طرفا من أطراف الدنيا ملوكا يهوديا ولا بلدة مملوءة من اليهود، بل يكونون أين كانوا بالذلة والمسكنة، وأما النصارى فأمرهم بخلاف ذلك، وإذا كان الواقع دلّ على أن لليهود اليوم كيانا فإن ذاك إلى حين، فما هو إلا استدراج لتحقيق ما تنبأ به رسول الله ﷺ إذ قال: «لا

¹ دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية، سعود بن عبد العزيز الخلف، مكتبة أضواء السلف، الرياض، السعودية، ط: 4، سنة: 1425هـ-2004م، (ص: 374-376).

تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود، حتى يحتبئ اليهودي خلف الحجر، فيقول الحجر: يا عبد الله، يا مسلم، هذا يهودي ورائي فتعال فاقتله» أخرجه مسلم في صحيحه¹ 2.

المطلب الرابع: تنزيلات متعلقة بالدول الغربية:

بعد ذكر كلام الشيخ التواتي في تنزيلاته على المنتسبين لإحدى الملل من اليهود والنصارى مفردين أو مجتمعين، أذكر هنا كلامه عن أصحاب المجتمعات الغربية غير الدينية، فتحدث عن بعض صفات المجتمع الغربي عموماً ونزل عليه بعض آيات القرآن الكريم التي يتوافق معناها مع أحوالهم، وفيما يلي بعض التنزيلات الخاصة بهم، جعلت كلّ واحد منها تحت فرع وهي:

الفرع الأول: ادّعاء راحة العقل والمعرفة الكاملة:

ففي تفسير قوله تعالى ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ الملك: ١٠، تحدث عن معنى الآية ثم ربط معناها بواقع حال أهل الكفر المعاصرين، فقال: "ربط خطاب الآية بواقع الناس: انظروا -رحمكم الله- لقد نفوا على أنفسهم السمع والعقل، وهم اليوم في الدنيا يدعون لأنفسهم أنهم أصحاب العقل الراجح، وأصحاب المعرفة الكاملة، ويتشدقون في كلامهم، وهم في ضلال من أمرهم، ولو كانوا حقاً أصحاب عقول راجحة لهدتهم عقولهم إلى الصراط السويّ، ولو كانوا من أهل العذاب"³.

ولهذا دعا التواتي بعدها لاستعمال العقل في معرفة الحكمة من الخلق، وللتمييز بين النافع والضار، فيقع التسليم لله ولشرعه الحكيم، فقال: "... يامن يدّعي لنفسه أن له عقلاً يميّز به بين الأشياء، هلاً استعملت عقلك الذي ميزك الله به عن سائر مخلوقاته لتدرك أن الله ما خلقك عبثاً وما تركك هملًا، بل زوّدك بعقل تمايز به لتدرك بين النافع والضار، وبعث إليك رسلاً بما لا يتناقض وإدراك عقلك لتصل إلى كُنْهِ الأشياء فتسلّم تسليماً لما جاءتك به رسل الله مبشرين ومنذرين، ولتعلم يقيناً أن الله تعالى ضَبَطَ

¹ رواه مسلم في صحيحه، كتاب: الفتن وأشراف الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى يمرّ الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء، رقم: 7523.

² الدر الثمين، التواتي بن التواتي، (256/5).

³ المصدر نفسه، (277/19).

الفاحشة في المجتمع، يريدون أن يزيّنوا للناس منابع ومذاهب لم يأذن الله تعالى بها، ولم يُشَرِّعها لعباده، إنهم يريدون لهم أن يميلوا ميلا عظيما عن المنهج الحقّ الراشد، الداعي إلى الصراط المستقيم... يضاف إليه إطلاق الغرائز من كلّ عقال: ديني أو أخلاقي أو اجتماعي، يريدون أن ينطلق السُّعار الجنسيُّ المحموم بلا حاجز ولا كابح من أي لون كان... فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها"¹.

الفرع الثالث: موقف الدول الغربية من التشريعات الإسلامية:

لم يفوت الشيخ التواقي الحديث عن موقف الدول الغربية من بعض التشريعات الإسلامية؛ قبولاً أو ردّاً، وتدرّسهم للتشريع الإسلامي في جامعاتهم، وقد كان حديثه كالآتي:

أولاً: تدريس التشريع الإسلامي في الجامعات الغربية:

ذكر مفسّرنا أن الجامعات الغربية تدرّس التشريع الإسلامي لما فسّر قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ ۖ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ ۖ وَالْأُنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ۚ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ البقرة: ١٧٨، حيث تكلم المفسّر عن مشروعية القصاص ودوره في الردع والكفّ عن الجرائم وتحقيقه لما لم تحقّقه القوانين الوضعية، ثم أردف ذلك بأنّ التشريع الإسلامي يُدرّس في زمننا في الجامعات الغربية لأنه يعالج أصل الجريمة ويقضي عليها، وفي ذلك يقول: "وإن التشريعات الإسلامية تدرس الآن في الجامعات الغربية نظراً لمعالجتها لأصل الجريمة، والقضاء على تعدّدها وتسلسلها. وهذا حكم الله الذي فيه طمأنينة المجتمع وإخافة الفاعل، والردع عن التماادي في العمل الضارّ، قد أنزله سبحانه على بني إسرائيل في توراتهم فخالفوا وعاندوا وبدّلوا، فكانت النتيجة جرائم متتالية واضطرابات تزعزع النفوس، وصار على منوالهم النصارى فحلّ بهم ما لحق بسابقيهم، حسبما نلمسه اليوم في قوانينهم الوضعية من امتداد لذلك العمل؛ حيث تجنى الثمرات السيئة، فيما يطفح على الصحافة من أخبار، وما يبرز من تقارير الجريمة من أرقام"².

والشيخ التواقي باحث أكاديمي وله كثير من الأسفار والاحتكاكات العلمية والمطالعات وهو يعي جيداً ما ذكر، فقد شهد بذلك المستشرقون وأساتذة الجامعات الغربية، ومن ذلك قول "لامبير" الذي أشاد

¹ الدر الثمين، التواقي بن التواقي، (35/7).

² المصدر نفسه، (283/3).

بالفقه الإسلامي قائلا: "الفقه الإسلامي في المعاملات كنز لا يفنى ومعين لا ينضب"، وكان يشير على الطلبة المصيرين بجعل رسائلهم في الدكتوراه متعلقة بمواضيع من فقه الشريعة الإسلامية¹.

ثانيا: إنكار جريمة الزنا جهرا مع قبولها سرا:

ذكر الشيخ التواقي مثالا عن بعض أفعال المجتمعات الغربية التي يملؤها النفاق وإخفاء الحقيقة، وهي إنكار بعض الجرائم التي تأذت منها مجتمعاتهم أشد الأذية؛ مثل جريمة الزنا التي رفضوها جهرا مع قبولها سرا، وذلك عند تفسير قوله تعالى ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيَشْهَدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ النور: 2-3، حيث قال الشيخ: "ويرى الباحثون أن جريمة الزنا هي من أقذر الجرائم حتى أنكرها كل دين، بل وأنكرها العقلاء والراشدون من الناس، كما أنكرها أصحاب المدنية الغربية جهرا وإن قبلوها سرا، وذلك لما فيها من عدوان على حقوق الأزواج، ومن اختلاط للأنساب وحلّ لروابط الأسرة وقتل لما في قلوب الآباء من عطف وحنان على الأبناء، ورعاية وبذل سخي لهم بما يبلغ حدّ التضحية بالراحة والنفس؛ الأمر الذي لا يكون إلا إذا ملأت عاطفة الأبوة قلوب الآباء، وذلك لا يكون إلا إذا وقع في قلوب الآباء وقوعا محققا أن هؤلاء الأبناء من أصلابهم"².

وجريمة الزنا أنكرتها كلّ الأديان، فهناك اتفاق تامّ بين اليهودية والمسيحية والإسلام على تشديد العقوبة على جريمة الزنا، وعلى كلّ الممارسات الجنسية الخاطئة، مع تفاوت بينها في درجات الشدة؛ ففي الإسلام: إما الرجم أو الجلد مائة جلدة، وفي اليهودية: يُقتلان بالنار حيث يُحرّقونه وإياها لكيلا يكون رذيلة بينهم، وفي المسيحية: القتل رجما³.

¹ ينظر مقال بعنوان "مكانة الشريعة الإسلامية بين النظم القانونية الغربية من خلال: شهادات ومواقف أجنبية"، د: عبد القادر حرز الله، ود: بوجمعة حمد، مجلة العلوم القانونية والاجتماعية، جامعة زيان عاشور الجلفة، العدد: الرابع، جانفي: 2017، الرابط:

<https://www.asjp.cerist.dz/en/article/64382>.

² الدر الثمين، التواقي بن التواقي، (385/13).

³ مقال بعنوان "تشديد العقوبة على جريمة الزنا في اليهودية والمسيحية والإسلام (نقاط الاتفاق)"، د: أحمد عبد الوهاب علي، نشر بموقع الألوكة، بتاريخ: 21/2/2015، الرابط: <https://www.alukah.net/sharia/0/82804>.

خلاصة الفصل الرابع:

تنوعت تنزيلات الشيخ لآيات القرآن الكريم على واقعه على عدة مواضيع ومحاور، يمكن جعلها تحت قسمين: الأول يتعلق بالتنزيلات الخاصة بالمجتمعات الإسلامية؛ حيث ربط آيات القرآن ببعض المسائل الفقهية والعقدية المتعلقة بآبواب المعاملات المالية والأحوال الشخصية وبعض المسائل الشريكية المنتشرة في الأمة، كما تحدث عن أحوال المسلمين بذكر مخالفاتهم لتعاليم الشريعة وفشو المعاصي بينهم وأعقبه بالكلام عن مسألة حال الأمة عموماً ببيان ضعفها وزوال هيبتها بين الأمم. وختم هذا القسم الأول بالحديث عن مقدسات الأمة بحديثه عن الحرمين الشريفين والمسجد الأقصى ووصف أحوالها ودعى إلى إصلاحها مما نزل بها لأنها رموز الأمة الإسلامية وعنوان بقائها.

أما في القسم الثاني فقد تعلّقت تنزيلاته بالمجتمعات غير الإسلامية، حيث تكلم عن أهل الكتاب والأمم الغربية مبيناً كيد الكافرين وسعيهم بكل الطرق لإضلال الأمة الإسلامية، لتبقى تابعة لها.

خاتمة

خاتمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ثم أما بعد:

فإنني أحمد الله تعالى على أن وفقني لإتمام هذا البحث والوصول إلى ختامه، لأسجل فيه أهمّ النتائج والتوصيات التي توصلت إليها من خلال رحلتي معه وهي:

1- ظهور الاتجاه الاجتماعي في العالم الإسلامي كان بسبب الضعف الذي أصاب الأمة المسلمة جرّاء استعمار دول الكفر لها، فأراد علماء الإصلاح إرجاعها إلى دينها وربطها بكتاب ربها مشخّصين الداء وواصفين الدواء، فوجدوا فيه بغيتهم.

2- برز عدّة رواد للاتجاه الإصلاحية في العالم الإسلامي على رأسهم جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده الذي امتدت مدرسته للعالم الإسلامي أجمع، إلى أن وصلت إلى القطر الجزائري فتأثر به رواد الإصلاح الجزائريون.

3- قاد الحركة الإصلاحية في الجزائر إبان الاستعمار الفرنسي عدة علماء ينتمي كثير منهم إلى جمعية العلماء المسلمين، فحاولوا ربط الأمة الجزائرية بالقرآن الكريم واستخرج هداياته لإصلاح الفساد الفكري والمادي الذي أصاب المجتمع، حتى ظهر عندهم الاتجاه الاجتماعي في التفسير بوضوح، خاصة ابن باديس وبيوض وكعباش وأبو بكر الجزائري وغيرهم، وذلك من خلال تفاسيرهم للقرآن الكريم.

4- ركّز هؤلاء المصلحون جميعاً على المحافظة على الهوية الجزائرية الإسلامية باختلاف لغات أهلها ومناطق سكنهم، سواء كانوا عرباً أو أمازيغ، أو كانوا من سكان الشمال أو الجنوب، وحذّروا من أعداء هذه الأمة ومكايدها لأهلها.

5- من أبرز الشخصيات التفسيرية الجزائرية المعاصرة الشيخ: التواتي بن التواتي، الذي ألف تفسيراً يعدّ أضخم التفاسير الجزائرية المطبوعة وهو "الدر الثمين"، وقد أعانه على ذلك تكوينه العلمي الرصين، حيث نشأ الشيخ في أسرة محافظة هيأت له الأرضية ليكون مفسراً مصلحاً.

6- تفسير "الدر الثمين" يعد موسوعة علمية بحقّ، حيث وظّف فيه صاحبه عدّة علوم كاللغة العربية بعلمها، وعلم الفقه وأصوله وعلوم الحديث وعلوم القرآن... الخ، ولذلك برزت في هذا الكتاب عدّة اتجاهات تفسيرية، تنوعت بين الاتجاه الفقهي و البلاغي و العلمي و الاجتماعي — وهو موضوع البحث—.

7- برز الاتجاه الاجتماعي في التفسير عند الشيخ التواتي بن التواتي في كتابه "الدر الثمين"، فكان يربط الناس بهدايات وإرشادات القرآن الكريم، وينزّله على واقعهم، وقد سهّل عليه ذلك جمعه بين الدرس الشفاهي والكتابي وهذا ما يسهّل توظيف معالم هذا الاتجاه.

8- وظّف الشيخ التواتي الاتجاه الاجتماعي في تفسيره من خلال معالم كثيرة، منها: المعالم المتعلقة بأسس بناء المجتمع وقيام الأسرة المسلمة، حيث أبرز من خلالها، أسس قيام الأسرة الكبيرة وهي المجتمع بكلّ أطيافه، وأسس قيام الأسرة الصغيرة وهي العائلة، وحذّر مما يفسد ذلك البناء الرصين.

9- من المعالم التي وظّفها التواتي في تفسيره: المعالم المتعلقة بمقارنة أحوال وواقع المجتمعات بما ورد في هدايات القرآن الكريم، واستخدم في ذلك منهج تنزيل الآيات على الواقع وكذلك أسلوب الوعظ والإرشاد ليؤتي كلامه أكله.

10- اعتمد الشيخ التواتي في تفسيره على إعجاز القرآن الكريم، فكان يبرز الإعجاز العلمي في الآيات الكونية والإعجاز التشريعي في الأحكام الشرعية، وذلك ليعظم الناس كتاب الله في قلوبهم فيثمر ذلك رغبتهم في العمل به، وبذلك يحقق الغرض من الدرس التفسيري وهو إرجاع الناس للعمل بالقرآن الكريم.

11- أبرز مفسرنا عظمة القرآن من خلال المعالم المتعلقة بالوحدة الموضوعية للقرآن الكريم، فجاء تفسيره منقسماً إلى دروس مترابطة، يتصل بعضها ببعض، كما كان يجمع للموضوع ماورد فيه من آيات تخدمه وتصب في بيانه.

12- أبرز معلم وظفه الشيخ التواتي في خدمة الاتجاه الاجتماعي، هو "معلم تنزيل الآيات على الواقع"، حيث كان التواتي ينطلق من هداية الآيات وما يستنبطه منها ثم يربطها بواقع الأمة، فيصف ما أصابها من أمراض ثم يصف علاجها من خلال ما أرشدت إليه الآيات، وذلك سعياً منه في بيان أن القرآن الكريم كتاب مصلح لكل زمان ومكان مهما تجددت الأحوال واستجدت الأمور، وقد تنوعت المواضيع التي نزلها التواتي على واقع مجتمعه، لتشمل مجالات متعددة.

13- ربط التواتي آيات القرآن الكريم بواقع مجتمعه في المجال العقدي: حيث نبّه على بعض المسائل التي تصادم العقيدة الصحيحة مثل التعلق بغير الله وطلب جلب النفع أو دفع الضر من المخلوقات.

14- تحدث التواتي عن الحالة العامة للأمة الإسلامية، فبيّن أحوال مقدسات المسلمين وما آل إليه حال الحرمين الشريفين والمسجد الأقصى، سواء من أبنائها أو من أعدائها.

15- لم يفوت مفسرنا النوازل والمستجدات في المجال الفقهي: حيث تنوعت المسائل التي نزل فيها آيات القرآن الكريم على واقعه، مثل المعاملات المالية وأحكام الأسرة من زواج وطلاق... الخ.

16- كان للمجال الأخلاقي والتربوي نصيب في تفسير "الدر الثمين"، حيث ركز التواتي في دروسه الشفاهية على وعظ الحاضرين وإرشادهم لما فيه خير دينهم ودنياهم ثم أثبت ذلك في كتابته لتلك الدروس وطبعها مع تفسيره.

17- لم تغب القضية الفلسطينية عن ذهن التواتي في تفسيره، بل كان كلما وجد المناسبة للتنبيه على حال المسجد الأقصى، نبّه على ذلك وتحدّث عن واجب الأمة نحوه، ليتحرر من أيدي اليهود.

18- لم يقتصر التواتي في تفسيره على تنزيل الآيات على واقع المجتمعات الإسلامية فقط، بل وسّعها لتشمل حتى الأمم الأخرى، فتحدث عن واقع الأمم غير الإسلامية سواء الملحدة أو غيرها من أهل الكتاب، وبيّن أن الرابط الذي يجمعها جميعا هو العداوة للإسلام والمسلمين والكيد لهم بكل الطرق والحيل لأن الكفر ملّة واحدة. كما بيّن الصفات الذميمة لتلك الأمم ليحذر المسلمون منها ومن أهلها. هذه هي أهم النتائج التي توصّلت إليها في بحثي، وهي مبسّطة في ثنايا المباحث—والله أعلم—.

وفي آخر هذا البحث أختتم الكلام بالتوصيات الآتية:

- 1- الاهتمام بتفسير "الدر الثمين" قراءة وبحثا، لاستخراج ما فيه من كنوز علمية شملت علوما كثيرة، كالقواعد الفقهية والأصولية وأصول التفسير، وقواعد النحو والبلاغة
- 2- إفراة كلّ اتجاه من اتجاهات التفسير بدراسة أكاديمية مستقلة تستخرج من "الدر الثمين" خاصة الاتجاه الفقهي واللغوي، فالمادة العلمية موجودة بكثرة فيه.
- 3- إعادة طبع تفسير "الدر الثمين" لأن الطبعة الحالية لا تليق بمقام أوسع تفسير جزائري مطبوع، وذلك بسبب كثرة الأخطاء المطبعية الموجودة فيه.
- 4- إدراج اسم الشيخ التواتي بن التواتي، ضمن مقياس "أعلام التفسير" الذي يدرسه طلبة التفسير وعلوم القرآن، فهو جدير بذلك، كيف لا ؟ وقد أخرج لنا موسوعة علمية تصدر بها قائمة التفاسير الجزائرية المطبوعة عبر التاريخ.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

الفهارس:

فهرس الآيات القرآنية.

فهرس الأحاديث النبوية المرفوعة.

فهرس الأعلام المترجم لهم.

فهرس المصطلحات العملية والألفاظ الغريبة.

فهرس المصادر والمراجع.

فهرس الموضوعات.

وقد رتبت الآيات داخل سورها حسب ورودها في صفحات الأطروحة

الصفحة	رقمها	السورة وطرف الآية
		سورة الفاتحة
108	7	قوله تعالى ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾
276	2	قوله تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾
		سورة البقرة
36	106	قوله تعالى ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا ...﴾
166/40	59-58	قوله تعالى ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾
276/250/227/57 310/	186-183	قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ...﴾
58	177	قوله تعالى ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ﴾
90	55-54	قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَقُومِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ ...﴾
90	142-141	قوله تعالى ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا ...﴾
91	210	قوله تعالى ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ ...﴾
91	211	قوله تعالى ﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا ءَاتَيْنَاهُمْ مِنْ ءَايَةٍ بَيِّنَةٍ ...﴾
108	37	قوله تعالى ﴿فَتَلَقَّى ءَادَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾
108	51	قوله تعالى ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾
108	90	قوله تعالى ﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾
108	77	قوله تعالى ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ﴾
109	187	قوله تعالى ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ ...﴾
117	196	قوله تعالى ﴿وَاتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾
201/117	232-231	قوله تعالى ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ ...﴾
118	180	قوله تعالى ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ ...﴾
	275	قوله تعالى ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا ...﴾

169	14	قوله تعالى ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّهُمْ عَن قِبَلِهِمْ...﴾
262/170	179	قوله تعالى ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ...﴾
335/171	212-211	قوله تعالى ﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا آتَيْنَاهُمْ مِّنْ آيَاتِنَا بَيِّنَةً...﴾
172	213	قوله تعالى ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ...﴾
186	253	قوله تعالى ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ...﴾
195	277	قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ...﴾
196	220	قوله تعالى ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ...﴾
197	280	قوله تعالى ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ...﴾
252/201	221	قوله تعالى ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَ...﴾
212	174	قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ...﴾
213	159	قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ...﴾
220	40	قوله تعالى ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ...﴾
224	258	قوله تعالى ﴿الْمَرَّتْ إِلَىٰ الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ...﴾
278/226	238	قوله تعالى ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ...﴾
228	197	قوله تعالى ﴿الْحُجَّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ...﴾
272/229	13-8	قوله تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَا لَيْتَ لَنَا الْآخِرَ...﴾
229	109	قوله تعالى ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ...﴾
242	164	قوله تعالى ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخْتِلَافِ أَلْوَانِ...﴾
245	115	قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾
361/262/247	178	قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي...﴾
249	149	قوله تعالى ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ...﴾
251	158	قوله تعالى ﴿إِنَّ الصِّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ...﴾
253	157-156	قوله تعالى ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ...﴾
255	222	قوله تعالى ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٰ...﴾

256	229	قوله تعالى ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا...﴾
299/260	275	قوله تعالى ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا...﴾
264	217	قوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ...﴾
265	224	قوله تعالى ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا...﴾
266	219	قوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ...﴾
268	155	قوله تعالى ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ...﴾
364/272	83	قوله تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ...﴾
281	21	قوله تعالى ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾
284	45	قوله تعالى ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾
287	121	قوله تعالى ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ...﴾
295	230	قوله تعالى ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا...﴾
296	228	قوله تعالى ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَضَّعنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ...﴾
300/296	276	قوله تعالى ﴿يَمَحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيَرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ...﴾
300	279-278	قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ...﴾
308	223	قوله تعالى ﴿نَسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَاتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ...﴾
316	102	قوله تعالى ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنٍ...﴾
318	195	قوله تعالى ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ...﴾
353/328	13-12	قوله تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ...﴾
338	113	قوله تعالى ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتْ الْبَصَرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ...﴾
245	111	قوله تعالى ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ...﴾
347	216	قوله تعالى ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ...﴾
348	252	قوله تعالى ﴿تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ...﴾
357	114	قوله تعالى ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا...﴾
358	116	قوله تعالى ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي...﴾

361	67	قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ ... ﴾
396	178	قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي ... ﴾
		سورة آل عمران
/336/185/52/24 340	103	قوله تعالى ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾
37	37	قوله تعالى ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾
39	64	قوله تعالى ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾
91	113-112	قوله تعالى ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلِيلَةُ أَتَيْتَ مَا تُقِفُوا الْآيَةَ﴾
110	97	قوله تعالى ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا﴾
329/167	130	قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا ... ﴾
174	100	قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ ... ﴾
183	149	قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَطِيعُوا الَّذِينَ ... ﴾
187	159	قوله تعالى ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾
213	77	قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا ... ﴾
339/214	151	قوله تعالى ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ... ﴾
215	23	قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى ... ﴾
225	9	قوله تعالى ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ ... ﴾
269	90	قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا ... ﴾
274	154	﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾
274	145	قوله تعالى ﴿وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ... ﴾
275	80	قوله تعالى ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا ... ﴾
281	14	قوله تعالى ﴿وَالْأَنْعَمَ وَالْحَرْثَ﴾
281	18	قوله تعالى ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَاقَةُ الْمَوْتِ﴾
283	190	قوله تعالى ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ ... ﴾

286	182-181	قوله تعالى ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ...﴾
327	110	قوله تعالى ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى...﴾
334	26	قوله تعالى ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ...﴾
335	165	قوله تعالى ﴿أَوَلَمَّا أَصَبْتُمْ مَصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا...﴾
246	24	قوله تعالى ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾
362	118	قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ...﴾
363	75	قوله تعالى ﴿وَمَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ...﴾
366	55	قوله تعالى ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَرَافِعَكَ إِلَى...﴾
		سورة النساء
45	1	قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَحِدَةٍ﴾
91	22-21	قوله تعالى ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ...﴾
206/118	34	قوله تعالى ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ...﴾
165	75	قوله تعالى ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾
184	59	قوله تعالى ﴿فَإِنْ تَنَزَّعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ...﴾
271/193	36	قوله تعالى ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا...﴾
199	28	قوله تعالى ﴿وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا﴾
203	35	قوله تعالى ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ...﴾
204	19	قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا...﴾
223	32	قوله تعالى ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ...﴾
368/247	28-26	قوله تعالى ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ...﴾
250	102	قوله تعالى ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ...﴾
253	23-22	قوله تعالى ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِّنْ...﴾
254	54	قوله تعالى ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ...﴾
272/264	77	قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ...﴾

267	83	قوله تعالى ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ...﴾
273	172	قوله تعالى ﴿لَن يَسْتَنْصِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ..﴾
275	78	قوله تعالى ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾
284	101	قوله تعالى ﴿وَإِذَا ضَرَيْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا...﴾
309	64	قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنٍ...﴾
316	139	قوله تعالى ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ...﴾
317	100	قوله تعالى ﴿وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَافَعًا...﴾
343	82	قوله تعالى ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ...﴾
345	89	قوله تعالى ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً...﴾
355	58	قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا...﴾
357	96-95	قوله تعالى ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولَىٰ...﴾
363	161	قوله تعالى ﴿وَأَخْذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ...﴾
		سورة المائدة
82	16-15	قوله تعالى ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ...﴾
42	115	قوله تعالى ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾
91	6-5	قوله تعالى ﴿أَيُّومَ أُحْلَ لَكُمْ الطَّيِّبَتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ...﴾
91	6	قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ...﴾
108	60	قوله تعالى ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾
119	64	قوله تعالى ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾
122	99	قوله تعالى ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ...﴾
170	82	قوله تعالى ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا...﴾
171	44	قوله تعالى ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ...﴾
194	28-27	قوله تعالى ﴿وَأَنزَلَ عَلَيْهِمْ نَبَأَ أَبِي ءَادَمَ بِالْحَقِّ...﴾
218	81-78	قوله تعالى ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ...﴾

285	89-87	قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ ...﴾
309	91-90	قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْحُمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ ...﴾
311	54	قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ ...﴾
313	3	قوله تعالى ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمِيتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِزْيِرِ وَمَا أَهْلَ ...﴾
318	51	قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَرَى أَوْلِيَاءُ ...﴾
322	52	قوله تعالى ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ ...﴾
340	14	قوله تعالى ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرَى أَخَذْنَا مِيثَقَهُمْ ...﴾
365	18	قوله تعالى ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَرَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ ...﴾
		سورة الأنعام
43	145	قوله تعالى ﴿قُلْ لَا آجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ ...﴾
54	107	قوله تعالى ﴿وَهَدَى وَرَحْمَةً﴾
58	160	قوله تعالى ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَثْمَالِهَا﴾
271/58	151	قوله تعالى ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ﴾
109	82	قوله تعالى ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾
174	137	قوله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ...﴾
185	92	قوله تعالى ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ...﴾
217/207	19	قوله تعالى ﴿وَأُوْحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾
211	18-17	قوله تعالى ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ...﴾
218	51	قوله تعالى ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾
274	61	قوله تعالى ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ ...﴾
286	128	قوله تعالى ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَلْمَعُشَرُ الْجِنِّ ...﴾
293	140	قوله تعالى ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ ...﴾
302	147-146	قوله تعالى ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ ...﴾
320	65	قوله تعالى ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ ...﴾

321	138	قوله تعالى ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَعْلَمُ وَحَرَّتْ حِجْرٌ لَا يَطْعُمَهَا إِلَّا...﴾
349	153	قوله تعالى ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا...﴾
		سورة الأعراف
58	203-199	قوله تعالى ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾
91	95-94	قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾
108	23	قوله تعالى ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا...﴾
108	142	قوله تعالى ﴿وَوَعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ﴾
269/110	9-8	قوله تعالى ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ...﴾
207/139	158	قوله تعالى ﴿فَاتَّبِعُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ...﴾
173	32	قوله تعالى ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ...﴾
225	30	قوله تعالى ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ...﴾
273	6	قوله تعالى ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾
273	206	قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ...﴾
274	34	قوله تعالى ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾
275	43	قوله تعالى ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾
276	11-10	قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا...﴾
312	30	قوله تعالى ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ...﴾
364	168-167	قوله تعالى ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيَسْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ...﴾
		سورة الأنفال
40	60	قوله تعالى ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾
52	46	قوله تعالى ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا﴾
58	24	قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ...﴾
108	152	قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾
346/166	60	قوله تعالى ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِّبَاطٍ...﴾

173	65	قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ...﴾
210	27	قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا...﴾
354	34	قوله تعالى ﴿وَمَا لَهُمْ ءَلًا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ...﴾
		سورة التوبة
89	119	قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا...﴾
183	8	قوله تعالى ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ...﴾
263	73	قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ...﴾
283	114-113	قوله تعالى ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا...﴾
359	29	قوله تعالى ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا يَوْمِ الْيَوْمِ...﴾
		سورة يونس
182	103	قوله تعالى ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا...﴾
		سورة هود
218	83	قوله تعالى ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾
338	119-118	قوله تعالى ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً...﴾
		سورة يوسف
171	40	قوله تعالى ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾
		سورة الرعد
273/52	11	قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾
		سورة إبراهيم
139	27	قوله تعالى ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ...﴾
		سورة الحجر
236	22	قوله تعالى ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ﴾
272	93-92	قوله تعالى ﴿فَرَبِّكَ لَنَسْتَلَنَّهِنَّ أجمعين﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ
		سورة النحل

32	90	قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ...﴾
36	101	قوله تعالى ﴿وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ...﴾
137	125	قوله تعالى ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ...﴾
226	97	قوله تعالى ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنِثَىٰ وَهُوَ...﴾
304	116	قوله تعالى ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ...﴾
305	31	قوله تعالى ﴿اتَّخِذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّنْ...﴾
		سورة الإسراء
24	82	قوله تعالى ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾
65	9	قوله تعالى ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾
142	56	قوله تعالى ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ...﴾
155	27	قوله تعالى ﴿إِنَّ الْمُبَدِّينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ...﴾
211	78	قوله تعالى ﴿اقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ﴾
223	84-83	قوله تعالى ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَا بِجَانِبِهِ...﴾
238	88	قوله تعالى ﴿قُلْ لِّئِنْ جُمِعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنَّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ...﴾
271	24-23	قوله تعالى ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا...﴾
306	33	قوله تعالى ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ...﴾
		سورة الكهف
111	26-1	﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا...﴾
	56	﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ...﴾
		سورة مريم
282	66	قوله تعالى ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ إِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾
282	98	قوله تعالى ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ هَلْ يُحْسِنُ مِنْهُمْ...﴾
		سورة الأنبياء
338	94-93	قوله تعالى ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلُّ إِلَيْنَا...﴾

سورة الحج		
105	15	قوله تعالى ﴿كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾
سورة المؤمنون		
244	16-12	قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ...﴾
275	28	قوله تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّيْنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾
301	22-21	قوله تعالى ﴿وَأَنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا...﴾
339	68	قوله تعالى ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ...﴾
342	56-53	قوله تعالى ﴿فَنَقْطَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ...﴾
سورة النور		
370/258/119	2	قوله تعالى ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾
331/199/198	33-32	قوله تعالى ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ...﴾
257	30	قوله تعالى ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا...﴾
330/257	3	قوله تعالى ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا...﴾
333	15	قوله تعالى ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾
334	63	قوله تعالى ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ...﴾
سورة الفرقان		
137	67	قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا...﴾
185/138	2-1	قوله تعالى ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ...﴾
139	57	قوله تعالى ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ...﴾
140	30	قوله تعالى ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَذَرُ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا...﴾
143	68	قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾
237	53	قوله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ...﴾
سورة الشعراء		
226	109	قوله تعالى ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ...﴾
332	177-176	قوله تعالى ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ...﴾

سورة النمل		
142	25	قوله تعالى ﴿أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ...﴾
240	40	قوله تعالى ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ...﴾
241	88-87	قوله تعالى ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَوَاتِ...﴾
سورة القصص		
115	19-1	قوله تعالى ﴿طَسَمَ ﴿١﴾ نَزَلَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ...﴾
175/167	4	قوله تعالى ﴿إِنِّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا...﴾
200	28-27	قوله تعالى ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ...﴾
216	13-12	قوله تعالى ﴿وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ...﴾
298	60	قوله تعالى ﴿وَمَا أَوْتِيتُمْ مِّن شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّهَا﴾
سورة العنكبوت		
209	24	قوله تعالى ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ...﴾
227	45	قوله تعالى ﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ...﴾
سورة الروم		
172	59	قوله تعالى ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾
187	22	قوله تعالى ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ...﴾
342/341	32-31	قوله تعالى ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ...﴾
سورة لقمان		
47	10	قوله تعالى ﴿وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ نَمِيدَ بِكُمْ﴾
153/109	13	قوله تعالى ﴿يَبْنَى لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾
169	21-20	قوله تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى...﴾
271	14	قوله تعالى ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَا دَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ﴾
223	6	﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ...﴾
سورة السجدة		
274	11	قوله تعالى ﴿قُلْ يَتَوَفَّكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾

سورة الأحزاب		
297/145	59	قوله تعالى ﴿يَتَّيْنَهَا النَّيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ...﴾
204	21	قوله تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ...﴾
274	16	قوله تعالى ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ...﴾
264	5-4	قوله تعالى ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ قَوْلُكُمْ...﴾
307/303	54-53	قوله تعالى ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ...﴾
368	68-67	قوله تعالى ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا...﴾
سورة سبأ		
185	28	قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا...﴾
224	43	قوله تعالى ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ...﴾
سورة فاطر		
243	28-27	قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا...﴾
275	35-34	قوله تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾
279	37	قوله تعالى ﴿وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ﴾
279	42	قوله تعالى ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ...﴾
280	14-13	قوله تعالى ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ...﴾
سورة يس		
/234/116/109 280	38	قوله تعالى ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ...﴾
139	21	قوله تعالى ﴿اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾
236	36	قوله تعالى ﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾
244	80	قوله تعالى ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا...﴾
275	59	قوله تعالى ﴿وَأَمْتَرُوا أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾
280	43-41	قوله تعالى ﴿وَأَيُّهُمْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ...﴾
سورة الصافات		

155	173	قوله تعالى ﴿وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾
		سورة الزمر
209	54	قوله تعالى ﴿وَأَنبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمْ...﴾
275	74	قوله تعالى ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ...﴾
350	23	قوله تعالى ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَبِّهًا مِّثْقَالِي...﴾
		سورة ص
207	87	قوله تعالى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾
		سورة غافر
273	7	قوله تعالى ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ﴾
		سورة فصلت
58	36-30	قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾
289	15	قوله تعالى ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا...﴾
		سورة الشورى
139	23	قوله تعالى ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾
215	13	قوله تعالى ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا...﴾
286	31-27	قوله تعالى ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ...﴾
		سورة الزخرف
277	3-1	قوله تعالى ﴿حَمَّ ۝ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ...﴾
		سورة محمد
107	24	قوله تعالى ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾
		سورة ق
139	45	قوله تعالى ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدَ﴾
273	18-17	قوله تعالى ﴿إِذْ يَتَلَفَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ...﴾
		سورة الحجرات
187	11	قوله تعالى ﴿يَنَّايُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ ...﴾

187	13	قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى...﴾
356	5-4	قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ...﴾
		سورة الذاريات
236	49	قوله تعالى ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾
288	32-23	قوله تعالى ﴿كَذَبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ... فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾
		سورة الرحمن
245	14	قوله تعالى ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾
261	9-7	قوله تعالى ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا...﴾
279	37	قوله تعالى ﴿فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾
		سورة الواقعة
277	80-77	قوله تعالى ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ...﴾
279	1	قوله تعالى ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾
		سورة الحديد
261	25	قوله تعالى ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ...﴾
		سورة الحشر
139	7	قوله تعالى ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ﴾
222	21	قوله تعالى ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا...﴾
		سورة الممتحنة
110	10	قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ...﴾
		سورة التغابن
300/202	18-14	قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ...﴾
		سورة الطلاق
216	6	قوله تعالى ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَارْحَمْنَ أُولَئِهِنَّ﴾
256	1	قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ...﴾
		سورة الملك

367	367	قوله تعالى ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾
		سورة المعارج
237/225/106 246/	40	قوله تعالى ﴿فَلَا أَقْسَمُ بِرَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾
		سورة الحاقة
273	17	قوله تعالى ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَّةٌ﴾
		سورة المذثر
208	11	قوله تعالى ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾
		سورة المزمل
252/249	20-1	قوله تعالى ﴿يَتَابِعُهَا الْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ فُرُ الَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ...﴾
		سورة المرسلات
110	32	قوله تعالى ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ﴾
111	1	قوله تعالى ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾
		سورة عبس
45	31	قوله تعالى ﴿وَفِكْمَةً وَابْنَا﴾
		سورة الانفطار
273	11-10	قوله تعالى ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كَرَامًا كَاتِبِينَ﴾
		سورة المطففين
262	6-1	قوله تعالى ﴿وَيَلُّ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ ...﴾
		سورة الأعلى
117	5	قوله تعالى ﴿فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾
		سورة الشمس
120	8-7	قوله تعالى ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾
		سورة الليل
44	17-15	قوله تعالى ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ...﴾

		سورة البينة
114	1	قوله تعالى ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾
		سورة الإخلاص
336	2-1	قوله تعالى ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ﴾...

وربتت فهرس الأحاديث ترتيباً ألفبائياً

الصفحة	طرف الحديث
230	« إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث »
308	« انتها مقبلة ومدبرة؛ إذا كان في الفرج »
257	« أيما امرأة سألت زوجها طلاقاً من غير بأس فحرام عليها رائحة الجنة »
256	« أتردّين عليه حديقته؟... »
292	« إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث... »
42	« أرسل معاذًا إلى اليمن... »
347/41	« ألا أن القوة الرمي »
319	« ألا إني فرطكم على الحوض، وإني مكاثركم الأمم فلا تقتلنّ بعدي »
319	« أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله... »
333	« إنّ التجار يُبعثون يوم القيامة فجاراً... »
259	« أن السماوات السبع والأرضين السبع، ليلعن الشيخ الزاني... »
114	« إن الله أمرني أن أقرأ عليك "لم يكن الذين كفروا"... »
304	« إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد... »
226	« إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم... »
336	« إن الناس دخلوا في دين الله أفواجا... »
315	« أن النبي ﷺ كان يتعوذ ويقول: أعوذ بالله من الجان »
315	« أن جبريل رقى النبي ﷺ »
197	« أن رجلاً مات فدخل الجنة فقيل له: ما كنت تعمل؟... »
298	« إن شاءوا أعطوه وإن شاءوا منعه »
337	« أوصيكم بالسّمع والطاعة؛ فإنه من يعش... »

259	«أيما امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم فليست من الله في شيء...»
296	«أبغض الحلال إلى الله الطلاق»
298	«أهون الربا كالذي ينكح أمه»
335	«تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها...»
296	«تزوجوا ولا تطلقوا؛ فإن الله لا يحب الذواقين والذواقات»
259	«تفتح أبواب السماء نصف الليل فينادي مناد...»
253	«تناكحوا تكاثروا فإني أباهي بكم الأمم يوم القيامة»
330	«... ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء»
298	«اجتنبوا السبع الموبقات ... وأكل الربا»
41	«الحج عرفه»
334	«حب الدنيا وكراهية الموت»
261	«حرمة مال المسلم كحرمة دمه»
351	«حسنوا القرآن بأصواتكم»
331	«خير النكاح أيسره»
330	«الدرهم الذي يصيبه الرجل من الربا أشد من ست وثلاثين زنية في الإسلام»
300	«الذهب بالذهب ربا إلا هاء بهاء»
258	«الزنا يورث الفقر»
203	«استوصوا بالنساء خيرا فإنهن عندكم عوان...»
346	«ستتبعون سنن من قبلكم شبرا بشبر...»
173	«طلب العلم فريضة على كل مسلم»
211	«اطلبوا الخير دهركم كله...»
254	«العينان تزنيان واليدان تزنيان»

268	«عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذلك لأحد...»
250	« فعليه بالصوم فإن الصوم له وجاء»
40	«فدخلوا يزحفون على أستاههم...»
200	«فقد زوجتكها بما معك من القرآن...»
166	«فُكُّوا العاني»
118	«اقتصي منه، ثم قال لها اصبري حتى أنظر...»
302	«قاتل الله اليهود إن الله عز وجل لما حرم شحومها جملوه...»
229	« كانت أخلاقه القرآن»
329	«كل أمتي معافي إلا المجاهرين...»
227	« كل عمل لابن آدم إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به »
218	« كَلَّا؛ وَاللَّهِ؛ لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ...»
262	« لعن الله آكل الربا وموكله وشاهده وكتابه»
184	« لا أَلْفَيْنِ أَحَدَكُم مَّتَكَّنَا عَلَى أُرَيْكَتِهِ...»
367	« لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود...»
263	« لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه»
259	« لا يدخل الجنة مسكين مستكبر ولا شيخ زان»
308	« لا ينظر الله يوم القيامة إلى رجل أتى امرأته في دبرها»
168	« لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القُذَّة بالقُذَّة...»
297	« لِيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ، لا يبالي المرء بما أخذ المال...»
109	« ليس هو كما تظنون إنما هو كما قال لقمان لابنه...»
259	«المقيم على الزنا كعابد وثن»
186	«المؤمنون كرجل واحد إن اشتكى رأسه تداعى له...»

356	«ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة»
303	«ما تركت بعدي فتنة أضّر على الرجال من النساء»
260	«ما من رجل من القاعدين يخلف رجلا من المجاهدين في أهله فيخونه...»
258	«مُزّه فليرفع يده، فرفعها فإذا تحتها آية الرجم»
109	«مستقرها تحت العرش»
253	«من أحب فطرتي فليستن بسنتي، ومن سنتي النكاح»
214	«من اقتطع حقّ امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب...»
259	«من زنا أو شرب الخمر نزع الله منه إيمانه...»
317	«من فرّ بدينه من أرض إلى أرض وإن كان شبرًا من الأرض..»
318	«من قال لا إله إلا الله عصم دمه وماله وعرضه»
260	«من قعد على فراش مغيبة قيض الله له ثعبانًا...»
227	«من لم تنهه صلاته عن الفحشاء لم يزد من الله إلا بعدا»
253	«من مات له ثلاثة من الولد فاحتسبهم دخل الجنة...»
332	«نهى النبي ﷺ عن التلقي، وأن يبيع حاضر لباد...»
157	«النكاح من سنتي فمن رغب عن سنتي فليس مني»
315	«نعم فإنه لو كان شيء سابق القدر لسبقته العين»
44	«نهى النبي ﷺ عن كلّ ذي ناب من السباع، وكلّ ذي مخلب من الطير»
44	«نهى النبي ﷺ عن لحوم الحُمُر الأهلية يوم خير»
164	«وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج»
258	«وقال له: لا تنكحها»
194	«يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا»
340	«يا أيها الناس: ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد...»

273	«يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل والنهار»
303	«يرث هذا العلم من كل خلف عدوله...»

وربتت فهرس الأعلام المترجم لهم ترتيباً ألفبائياً

الصفحة	العلم المترجم له
82	1- أبو بكر الحاج عيسى الأغواطي
159	2- أبو بكر جابر الجزائري
83	3- أحمد قصيبة الأغواطي
323	4- أحمد حماني
223	5- أحمد شطة
130	6- البشير صفر
77	7- التواتي بن التواتي
51	8- جمال الدين الأفغاني
105	9- ابن جابر الأندلسي
129	10- حمدان الونيسي
60	11- سيد قطب
82	12- الشيخ كويسي مبروك
324	13- طاهر السمعوني الجزائري
160	14- الطيب العقبي
128	15- عبد الحميد ابن باديس
82	16- عبد الرحمن الحاج صالح
307	17- قاسم أمين
176	18- محمد سعيد كعباش
129	19- محمد الطاهر بن عاشور
133	20- محمد الصالح رمضان

130	21- محمد البشير الإبراهيمي
133	22- محمد النخلي
144	23- محمد بيوض
240	24- محمد دراز
54	25- محمد رشيد رضا
52	26- محمد عبده
56	27- محمد مصطفى المراغي
58	28- محمود شلتوت
64	29- المكى الناصري
64	30- نعيم النعيمى

وربتت فهرس المصطلحات والغريب ترتيباً ألفبائياً

الصفحة	المصطلحات العلمية والألفاظ الغريبة الواردة في الرسالة
241	1- آبولو APOLO
17	2- الاتجاه
18	3- الاجتماعي
305	4- الإجهاض
327	5- أهذاب
299	6- بطاقة الائتمان
293	7- التبني
332	8- التطفيف
329	9- الحسد
294	10- الدّعي
242	11- السّباق
355	12- سدة البيت
329	13- السفه
299	14- شجب
214	15- شرع من قبلنا
138	16- الضغاء
314	17- العزائم
368	18- العقل السليم
245	19- علم الأجنة

237	20- الفروع والأصول
294	21- الكفالة
308	22- مُجبية
314	23- المندل
121	24- النسخ
35	25- الوحدة الموضوعية
330	26- اليباب
196	27- اليتيم

واحتوى على ثلاثة أنواع من المصادر والمراجع رتبها ترتيباً ألفبائياً، وهي:

أولاً: الكتب والمؤلفات العلمية:

- 📖 القرآن الكريم، مصحف المدينة الإلكترونية، برواية حفص عن عاصم.
- 📖 أحكام القرآن، أبو بكر بن العربي، ت: محمد عبد القادر عطا، ط: 3، سنة: 1424هـ - 2003م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- 📖 إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، دار المعرفة، بيروت.
- 📖 الأساس في التفسير، سعيد حوى، دار السلام، القاهرة، ط: 1، سنة: 1985م.
- 📖 أسباب النزول، الواحدي، ت: الحميدان، دار الإصلاح، السعودية، ط: 2، سنة: 1992م.
- 📖 الاستيعاب في بيان الأسباب، سليم بن عيد الهلالي ومحمد بن موسى آل نصر، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، السعودية، ط: 1، سنة: 1425هـ.
- 📖 أصول الفقه الذي لا يسع الفقيه جهله، عياض بن نامي السلمي، دار التدمرية، الرياض، ط: 1، سنة: 1426هـ.
- 📖 الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة: 1394هـ - 1974م .
- 📖 أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، الشنقيطي، دار الفكر، بيروت، سنة: 1415هـ.
- 📖 أطواق الذهب في المواعظ والخطب، الزمخشري، مطبعة نخبة الأخبار، سنة: 1304م.
- 📖 إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم، ت: مشهور حسن، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، السعودية، ط: 1، سنة: 1423هـ.
- 📖 الأعلام، خير الدين الزركلي الدمشقي، دار العلم للملايين، ط: 15، سنة: 2002م.
- 📖 إغاثة اللفهان، ابن القيم، ت: محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت، ط: 2، سنة: 1975م.
- 📖 اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، ابن تيمية، ت: ناصر عبد الكريم العقل، دار عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط: 7، سنة: 1419هـ - 1999م.
- 📖 الإقناع في مسائل الإجماع، ابن القطان، ت: حسن فوزي الصعيدي، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، ط: 1، سنة: 2004م.
- 📖 الإمام المجدد ابن باديس والتصوف، أحمد الجزار، دار المعارف، الإسكندرية، ط: 1، سنة: 1999م.

- 📖 أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين البيضاوي، ت: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: 1، سنة: 1418هـ.
- 📖 أيسر التفاسير لكلام علي الكبير، أبو بكر الجزائري، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ط: 5، سنة: 1424هـ-2003م.
- 📖 آثار ابن باديس، عبد الحميد بن باديس، ت: عمار طالبي، مكتبة الشركة الجزائرية، ط: 1، سنة: 1968م.
- 📖 آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، محمد بن بشير الإبراهيمي، جمع وتقديم: أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، ط: 1، سنة: 1997م.
- 📖 ابن باديس فارس الإصلاح والتنوير، محمد بهي الدين سالم، دار الشروق، القاهرة، ط: 1، سنة: 1420هـ-1999م.
- 📖 البحر المديد، ابن عجيبة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 2، سنة: 2002م.
- 📖 البحر المحيط في التفسير، أبو حيان، ت: صدقي جميل، دار الفكر، بيروت، سنة: 1420هـ.
- 📖 بحوث في أصول التفسير ومناهجه، فهد الرومي، مكتبة التوبة، الرياض، سنة: 1416هـ.
- 📖 البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط: 1، سنة: 1376هـ-1957م.
- 📖 بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، الفيروز آبادي، ت: محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة.
- 📖 تاج العروس من جواهر القاموس، مرتضى الزبيدي، ت: مجموعة من المحققين.
- 📖 تاريخ الجزائر الثقافي، أبو القاسم سعد الله، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، سنة: 2007م.
- 📖 تاريخ الجزائر المعاصر، محمد العربي الزبيري، من منشورات اتحاد الكتاب العرب، سنة: 1999م.
- 📖 التبيان في آداب حملة القرآن، النووي، ت: محمد الحجار، ط: 3، سنة: 1994م، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان.
- 📖 اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، د: فهد الرومي، طبع بإذن رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد في المملكة العربية السعودية برقم 5/951 وتاريخ 1406/8/5، ط: 1، سنة: 1407هـ-1986م.
- 📖 التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، سنة: 1997م.

التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، للسخاوي، الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط: 1، سنة: 1414هـ-1993م.

التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزى الغرناطى، ت: الدكتور عبد الله الخالدى، شركة دار الأرقم بن أبى الأرقم، بيروت، ط: 1، سنة: 1416هـ.

تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد وىله شرح الصدور فى تحريم رفع القبور، الصنعانى، محمد بن على الشوكانى، ت: عبد المحسن العباد، مطبعة سفير، الرياض، السعودية، ط: 1، سنة: 1424هـ.

تعريف الدارسين بمناهج المفسرين، صلاح عبد الفتاح الخالدى، دار القلم، دمشق، سنة: 1429هـ/2008م.

التعريفات، على بن محمد الجرجانى، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 1، سنة: 1403هـ-1983م.
التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان، الألبانى، دار با وزير للنشر والتوزيع، جدة، المملكة العربية السعودية، ط: 1، سنة: 2003م.

تفسير الإمام الشافعى، ت: د: أحمد بن مصطفى الفرّان، دار التدمرية، المملكة العربية السعودية، ط: 1، سنة: 1427-2006م.

تفسير المنار، محمد رشيد بن على رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة: 1990م.

تفسير القرآن العزيز، ابن أبى زمنين، الفاروق الحديثة، مصر، القاهرة، ط: 1، سنة: 2002م.

تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ت: سامى سلامة، دار طيبة، ط: 2، سنة: 1999م.

تفسير القرآن، أبو المظفر السمعانى، ت: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن، الرياض، السعودية، ط: 1، سنة: 1418هـ-1997م.

تفسير الكهف، محمد بن صالح العثيمين، دار ابن الجوزى للنشر والتوزيع، السعودية، ط: 1، سنة: 1423هـ.

تفسير المراغى، أحمد مصطفى المراغى، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى وأولاده بمصر، ط: 1، سنة: 1946م.

التفسير المنير، وهبة الزحيلي، دار الفكر المعاصر، دمشق، ط: 2، سنة: 1418هـ.

التفسير والمفسرون أساسياته واتجاهاته ومناهجه فى العصر الحديث، فضل حسن عبّاس، دار النفائس للنشر والتوزيع، الأردن، ط: 1، سنة: 1437هـ-2016م.

التفسير والمفسرون، حسين الذهبى، دار الحديث، القاهرة، سنة: 1426-2010م.

- ﴿التفسير ورجاله، محمد الفاضل بن عاشور، مجمع البحوث الإسلامية، الأزهر، سنة: 1970م.﴾
- ﴿التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ابن عبد البر، ت: مصطفى بن أحمد العلوي، محمد عبد الكبير البكري، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، سنة: 1387هـ.﴾
- ﴿تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين، عبد العزيز بن عبد الرحمن الضامر، ط: 1، سنة: 1428هـ-2007م، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم.﴾
- ﴿تهذيب اللغة، الأزهرى ، ت: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربى، بيروت، ط: 1، سنة: 2001م.﴾
- ﴿التوقيف على مهمات التعاريف، عبد الرؤوف المناوى، عالم الكتب عبد الخالق ثروت، القاهرة، ط: 1، سنة: 1410هـ.﴾
- ﴿تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، ت: عبد الرحمن بن معلا اللويح، مؤسسة الرسالة، ط: 1، سنة: 1420هـ-2000م.﴾
- ﴿التيسير في أحاديث التفسير، محمد المكي الناصري ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط: 1، سنة: 1985م.﴾
- ﴿التيسير في أصول واتجاهات التفسير، عماد علي عبد السميع، دار الإيمان، الإسكندرية، سنة: 2006م.﴾
- ﴿جامع البيان، الطبري، مؤسسة الرسالة، ط: 1، سنة: 1420هـ-2000م.﴾
- ﴿سنن الترمذي، الترمذي، ت: أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربى، بيروت.﴾
- ﴿الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله القرطبي، ت: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط: 2، سنة: 1384هـ-1964م.﴾
- ﴿جمهرة اللغة، لابن دريد، ت: رمزي منير، دار العلم للملايين، بيروت، ط: 1، سنة: 1987م.﴾
- ﴿الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، ابن القيم، دار المعرفة، المغرب، ط: 1، سنة: 1997م.﴾
- ﴿الجواهر الحسان في تفسير القرآن، عبد الرحمن الثعالبي، ت: الشيخ محمد علي معوض وعادل أحمد عبد الموجود، ت: دار إحياء التراث العربى، بيروت، ط: 1، سنة: 1418هـ.﴾
- ﴿الحجة في القراءات السبع، ابن خالويه، دار الشروق، بيروت، ط: 4، سنة: 1401هـ.﴾
- ﴿دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية، سعود بن عبد العزيز الخلف، مكتبة أضواء السلف، الرياض، السعودية، ط: 4، سنة: 1425هـ-2004م.﴾

- 📖 دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، محمد الأمين الشنقيطي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة ، مكتبة الخراز، جدة، ط: 1، سنة: 1417هـ-1996م.
- 📖 رسالة الشرك ومظاهره، مبارك المليي، ت: أبي عبد الرحمن محمود، دار الراية للنشر والتوزيع، ط: 1، سنة: 1422هـ-2001م.
- 📖 رفع الملام عن الأئمة الأعلام، ابن تيمية، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض، المملكة العربية السعودية، سنة: 1403هـ-1983م.
- 📖 روائع البيان تفسير آيات الأحكام، الصابوني، طبع على نفقة: حسن عباس الشربتلي، مكتبة الغزالي، دمشق، مؤسسة مناهل العرفان، بيروت، ط: 3، سنة: 1400هـ-1980م.
- 📖 روضة الناظر وجنة المناظر، ابن قدامة، مؤسسة الريان للطباعة والنشر، ط: 2، سنة: 2002م.
- 📖 زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي، ت: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط: 1، سنة: 1422هـ.
- 📖 سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، السعودية، ط: 1، سنة: 1412هـ-1992م.
- 📖 السلسلة الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض.
- 📖 سنن ابن ماجه، ابن ماجه القزويني، دار إحياء الكتب العربية، فيصل عيسى البابي الحلبي.
- 📖 سنن أبي داود، دار الكتاب العربي . بيروت.
- 📖 السنن الكبرى، البيهقي، ت: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية، القاهرة، ط: 1، سنة: 1432هـ-2011م.
- 📖 السيرة النبوية والدعوة في العهد المدني، أحمد غلوش، مؤسسة الرسالة، ط: 1، سنة: 2004م.
- 📖 شرح العقيدة الواسطية للعثيمين، دار ابن الجوزي، السعودية، ط: 6، سنة: 1421هـ.
- 📖 شعب الإيمان، البيهقي، ت: محمد السعيد بسيوني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 1، سنة: 1410هـ.
- 📖 صحيح ابن حبان، ت: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: 2، سنة: 1993م.
- 📖 صحيح البخاري، ت: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، بيروت، ط: 3، سنة: 1987م.
- 📖 الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور، أد: حكمت بن بشير بن ياسين، دار المآثر للنشر والتوزيع والطباعة، المدينة النبوية، ط: 1، سنة: 1420هـ-1999م.

📖 الصحيح المسند من أسباب النزول، مُقْبَلُ بْنُ هَادِي بِالْوَادِعِيِّ، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط: 4، سنة: 1408هـ-1987م.

📖 صحيح سنن أبي داود، الألباني، مؤسسة غراس للنشر، الكويت، ط: 1، سنة: 2002م.

📖 صحيح مسلم، دار الجليل - بيروت و دار الأفاق الجديدة - بيروت.

📖 صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان، السهسواني الهندي، المطبعة السلفية، ط: 3.

📖 ضعيف أبي داود، الألباني، مؤسسة غراس للنشر و التوزيع، الكويت، ط: 1، سنة: 1423هـ.

📖 ضعيف الجامع الصغير وزيادته، الألباني، أشرف على طبعه: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي.

📖 المعجم الكبير، الطبراني، ت: حمدي بن عبدالمجيد، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، ط: 2، سنة: 1404هـ-1983م.

📖 العجائب في بيان الأسباب، ابن حجر العسقلاني، ت: عبدالحكيم محمد الأنيس، دار ابن الجوزي، الدمام، السعودية، ط: 1، سنة: 1997م.

📖 العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية رواية محمد الصالح رمضان، عبد الحميد بن باديس، ت: محمد الصالح رمضان، دار الفتح، الشارقة، ط: 1، سنة: 1995م.

📖 عبد الحميد بن باديس وجهوده التربوية، مصطفى محمد حميداتو، وقد صدر هذا الكتاب في العدد: 57، ضمن سلسلة "كتاب الأمة" التي يصدرها مركز البحوث والدراسات، برعاية وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، سنة: 1418هـ.

📖 غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام، المكتب الإسلامي، بيروت، ط: 3، سنة: 1405هـ.

📖 فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، سنة: 1379هـ.

📖 فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق خان، المكتبة العصرية للطباعة، بيروت، سنة: 1992م.

📖 فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي الشوكاني، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، دمشق، بيروت، ط: 1، سنة: 1414هـ.

📖 فصول في أصول التفسير"، مساعد الطيار، دار ابن الجوزي، ط: 2، سنة: 1423هـ.

📖 فقه الزكاة، يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة، بيروت.

📖 الفقه الميسر، عبد الله الطيّار وغيره، مَدَارُ الْوَطْنِ للنشر، الرياض، ط: 1، سنة: 2011م.

📖 في رحاب القرآن، إبراهيم بن عمر بيوض، جمعية التراث، القرارة، غرداية، ط: 2.

- 📖 في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، بيروت، ط: 17، سنة: 1412هـ.
- 📖 في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، عبد الحميد بن باديس، ت: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط: 1، سنة: 1416هـ-1995م.
- 📖 فيض القدير شرح الجامع الصغير، المناوي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط: 1، سنة: 1356م.
- 📖 القاموس المحيط، الفيروز آبادي، ت: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسوسي، بيروت، لبنان، ط: 8، سنة: 1426هـ-2005م.
- 📖 القبس في شرح موطأ مالك بن أنس، ابن العربي، ت: الدكتور محمد عبد الله ولد كريم، دار الغرب الإسلامي، ط: 1، سنة: 1992م.
- 📖 قواعد الأحكام في مصالح الأنام، العز بن عبد السلام، ت: محمود بن التلاميذ الشنقيطي، دار المعارف، بيروت.
- 📖 كتاب "أئمة الحرمين -1343/1436هـ-"، عبد الله بن أحمد العلاف الغامدي، دار الطرفين للنشر والتوزيع، فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية، الطائف، السعودية، سنة: 1436هـ.
- 📖 كتاب الاعتصام للشاطبي، سليم بن عيد الهلالي، دار ابن عفان، السعودية، ط: 1، سنة: 1412هـ-1992م.
- 📖 كتاب الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، ت: سمير جابر، دار الفكر، بيروت، ط: 2.
- 📖 كتاب الكليات، أبو البقاء الكفوي، ت: عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، سنة: 1419هـ-1998م.
- 📖 الكشف والبيان عن تفسير القرآن، أبو إسحاق الثعلبي، ت: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط: 1، سنة: 2002م.
- 📖 الكشف والبيان عن تفسير القرآن، الثعلبي، ت: الإمام أبي محمد بن عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط: 1، سنة: 1422هـ-2002م.
- 📖 كفاية الطالب الرباني لرسالة أبي زيد القيرواني، أبو الحسن المالكي، ت: يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر، بيروت، سنة: 1412هـ.
- 📖 لباب التأويل في معاني التنزيل، الخازن، ت: محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 1، سنة: 1415هـ.

- 📖 الباب في علوم الكتاب، ابن عادل الدمشقي، ت: عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط: 1، سنة: 1419هـ-1998م.
- 📖 لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، ط: 3، سنة: 1414هـ.
- 📖 لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير، محمد الصباغ، المكتب الإسلامي، بيروت، ط: 3، سنة: 1990م.
- 📖 مجموع الفتاوى، ابن تيمية، ت: عبد الرحمن بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، السعودية، سنة: 1416هـ-1995م.
- 📖 محاسن التأويل، القاسمي، ت: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمي، بيروت، ط: 1، سنة: 1418هـ.
- 📖 المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية الأندلسي، ت: عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 1، سنة: 1422هـ.
- 📖 المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 1، سنة: 1421هـ.
- 📖 مختار الصحاح، الحنفي الرازي، المكتبة العصرية، بيروت، صيدا، ط: 5، سنة: 1999م.
- 📖 المختصر في تفسير القرآن، جماعة من العلماء بإشراف: مركز تفسير للدراسات القرآنية، ط: 3، سنة: 1436هـ.
- 📖 مختصر كتاب جلاباب المرأة المسلمة، الألباني، اختصره: حسام الدين عفانة، ط: 1، سنة: 1998م.
- 📖 مرصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع، جلال الدين السيوطي، مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ط: 1، سنة: 1426هـ.
- 📖 مساوئ الأخلاق، الخرائطي ت: مصطفى بن أبو النصر الشلي، مكتبة السوادي للتوزيع، جدة، ط: 1، سنة: 1993م.
- 📖 مسند الإمام أحمد، أحمد بن حنبل، ت: شعيب الأرناؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط: 2، سنة: 1420هـ-1999م.
- 📖 مشارق الأنوار الوهاجة ومطالع الأسرار البهاجة في شرح سنن الإمام ابن ماجه، محمد بن علي بن آدم بن موسى، دار المغني، الرياض، السعودية، ط: 1، سنة: 1427هـ-2006م.
- 📖 مصنف ابن أبي شيبة، ابن أبي شيبة، ت: سعد بن ناصر الشثري، دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، السعودية، ط: 1، سنة: 1436هـ-2015م.

- معالم التنزيل في تفسير القرآن، البغوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: 1، سنة: 1420هـ.
- المعجزة القرآنية حقائق علمية قاطعة، أحمد عمر أبو شوفة، دار الكتب الوطنية، ليبيا، سنة: 2003م.
- المعجم الكبير، الطبراني، حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط: 2.
- معجم اللغة العربية المعاصرة، د أحمد مختار عبد الحميد عمر بمساعدة فريق عمل، عالم الكتب، ط: 1، سنة: 1429هـ-2008م.
- معجم المفسرين - من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر-، عادل نويهض، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، لبنان، ط: 3، سنة: 1409هـ-1988م.
- معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، مكتبة المثنى، بيروت، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وأحمد الزيات وحامد عبد القادر ومحمد النجار، دار الدعوة.
- معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، ت: عبد السلام هارون، دار الفكر، ط: 1، سنة: 1979م.
- المغرب في ترتيب المعرب، المطرزي، مكتبة أسامة بن زيد، حلب، ط: 1، سنة: 1979م.
- مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، الخطيب الشربيني، دار الكتب العلمية، ط: 1، سنة: 1415هـ-1994م.
- مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: 3، سنة: 1420هـ.
- المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ت: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية، دمشق بيروت، ط: 1، سنة: 1412هـ.
- مقدمة في أصول التفسير، ابن تيمية، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، سنة: 1980م.
- المقدمة في فقه العصر، د. فضل بن عبد الله مراد، الجيل الجديد ناشرون، صنعاء، ط: 2، سنة: 2016م.
- المقصد من العبارة: بأطراف الشريعة، وتهذيب اللغة، للأزهري، ت: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: 1، سنة: 2001م.
- مناهج التفسير واتجاهاته -دراسة مقارنة في مناهج تفسير القرآن الكريم-، د: محمد علي الرضائي الأصفهاني، تعريب: قاسم البيضائي، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، سلسلة الدراسات القرآنية، مكتبة مؤمن قريش، بيروت.
- مناهج المفسرين، منيع بن عبد الحليم، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، سنة: 2000م.

- مناهل العرفان في علوم القرآن، الزرقاني، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، ط: 3.
- منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير، فهد الرومي، مؤسسة الرسالة، الرياض، سنة: 1983م.
- موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، محمد راتب النابلسي، دار المكتبي، سورية، دمشق، الحلبوني، جادة ابن سينا، ط: 2، سنة: 1426هـ-2005م.
- موسوعة العلماء والأدباء، إعداد مجموعة من الأساتذة، إشراف: رابح خدوسي، منشورات الحضارة، الجزائر، بئر توتة، سنة: 2014م.
- موسوعة الفقه الإسلامي، محمد بن إبراهيم التويجري، بيت الأفكار الدولية، ط: 1، سنة: 2009م.
- الموسوعة الفقهية الكويتية، مجموعة من المؤلفين، ط: 1، مطابع دار الصفوة، مصر.
- موسوعة مسائل الجمهور في الفقه الإسلامي، محمد نعيم ساعي، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، مصر، ط: 2، سنة: 1428هـ-2007م.
- موسوعة مسائل الجمهور في الفقه الإسلامي، محمد نعيم محمد هاني ساعي، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، مصر، ط: 2، سنة: 1428هـ-2007م.
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين البقاعي، ت: عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، سنة: 1415هـ-1995م.
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقرئ، ت: إحسان عباس، دار صادر، بيروت.
- نفحات من علوم القرآن، محمد أحمد معبد، دار السلام، القاهرة، ط: 2، سنة: 2005م.
- النكت والعيون، الماوردي، ت: ابن عبد المقصود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- الواضح في علوم القرآن، مصطفى ديب البغا، محي الدين ديب مستو، دار الكلم الطيب، دار العلوم الانسانية، دمشق، ط: 2، سنة: 1418هـ-1998م.
- التفسير والمفسرون في غرب أفريقيا، محمد بن رزق بن طهوني، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط: 1، سنة: 1426هـ.

ثانيا: الرسائل والمقالات العلمية:

أ: رسائل الدكتوراه والماجستير ومذكرات الماستر:

- 1- رسالة دكتوراه "اتجاهات التفسير في الجزائر في العصر الحديث: التواتي وكعباش أنموذجا"، د: إبراهيم محفوظ حاج، إشراف: شنطاوي يحيى بن ضاحي، جامعة: اليرموك، الأردن، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، نوقشت سنة: 2018م.

- 2- رسالة دكتوراه "التفسير الشفاهي وأثره في الإصلاح الحديث"، نادية وزناجي، رسالة دكتوراه مقدمة بجامعة الحاج لخضر باتنة، تخصص: كتاب وسنة، نوقشت سنة: 2008م.
- 3- رسالة ماجستير "الإمام عبد الحميد ابن باديس ومنهجه في الدعوة من خلال آثاره في التفسير والحديث"، عامر علي العراي، إشراف: صادق البيرة، جامعة أم القرى، السعودية، نوقشت سنة: 1408هـ-1409هـ.
- 4- رسالة ماجستير "الاتجاه الاجتماعي في التفسير عند الشيخ عبد الحميد بن باديس من خلال تفسيره "مجالس التذكير"، ط: سعيدي عائشة، إشراف: أ د: رمضان يخلف، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، سنة: 2012-2013م.
- 5- مذكرة ماستر "أوضاع الجزائر السياسية من نهاية القرن التاسع عشر إلى بداية القرن العشرين"، وردة سيساوي-بوذن مروة، بإشراف: د: ياسر فركوس، جامعة قلمة، قسم التاريخ، سنة: 2023م.
- 6- مذكرة ماستر "الحياة الاجتماعية والثقافية في الجزائر إبان الثورة التحريرية 1945-1962"، بابا عروج نور الإيمان، جامعة محمد بوضياف المسيلة، قسم التاريخ، سنة: 2018م.

ب: المقالات العلمية:

- 1- مقال بعنوان "الاتجاه الاجتماعي في التفسير في العصر الحديث"، عمر عبد العزيز بوريني، مجلة مركز الخدمة للاستشارات البحثية واللغات، المجلد 16، العدد 49، يناير 2014، الرابط: <https://ebook.univeyes.com/229718>.
- 2- مقال بعنوان: "الاتجاه الاجتماعي في التفسير ودوره في تأصيل العلوم الاجتماعية"، الدكتور: مولاي عمر بن حماد، مقال منشور في ملتقى أهل التفسير، بتاريخ: 2008/02/23، الرابط: <https://tafsir.net/article/5237/al-atjah-al-ajtma-y-fy-at-tfsyr-wdwrh-fy-t-asyl-al-lwm-al-ajtma-yh>.
- 3- مقال بعنوان: "الخطاب الإصلاحية عند بعض رجالات العلماء المسلمين الجزائريين - خلال الفترة 1930-1945م"، سليم مزهود، مجلة التميز الفكري للعلوم الاجتماعية والإنسانية، العدد السادس جويلية 2021، (ص: 12-14)، الرابط: <https://search.mandumah.com/Record/1253401>.
- 4- مقال بعنوان: "الحركة الإصلاحية الجزائرية الحديثة وجهودها في تفسير معاني القرآن الكريم في تفسير إبراهيم بن عمر بيوض نموذجاً"، د يحيى بن بهون حاج محمد، ومجلة: "دراسات" جامعة عبد الحميد مهري

- قسنطينة2-: العدد التاسع، ديسمبر 2018، قسم اللغة والأدب العربي، جامعة غرداية، الرابط: <https://asjp.cerist.dz/en/article/76869>.
- 5- مقال بعنوان: " قاعدة (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب) وأثرها في تعميم مقاصد الآيات دراسة نظرية تطبيقية"، د: هشام شوقي، مجلة الشهاب، المجلد:9، عدد:1، تاريخ:2023/03/16، رابط: <https://www.asjp.cerist.dz/en/article/217728>
- 6- مقال بعنوان: "النزعة الإصلاحية في التفسير بالغرب الإسلامي"، عبد الرزاق هرماس، مجلة "الواضحة" العلمية المحكمة، دار الحديث الحسنية، ص 125، الرابط: <https://quranpedia.net/book/23375>.
- 7- مقال بعنوان: "الحركة الوطنية: تعريفها، أسباب ظهورها، تطورها وأثرها على مسار الثورة"، صخري محمد، نشر بموقع: politics-dz ، بتاريخ: 03-07-2015، الرابط: <https://www.politics-dz.com/ar> .
- 8- مقال بعنوان: "تحولات الحركة الوطنية الجزائرية بعد الحرب العالمية الثانية 1945-1954"، د: قدادة شايب، مجلة العلوم الإنسانية، العدد: 30 ديسمبر 2008، مج: أ، (ص: 145-156)، الرابط: <https://www.asjp.cerist.dz/en/article/3857>،
- 9- مقال بعنوان: "جوانب من مظاهر الفقر وتداعياته الاجتماعية والاقتصادية لدى الجزائريين خلال فترة الاستعمار الفرنسي"، د: عمر مقدم، مجلة دراسات تاريخية، مج: 9، العدد: الأول، سبتمبر 2021، (ص:182-188). الرابط: <https://www.asjp.cerist.dz/en/article/163893>
- 10- مقال بعنوان: "تاريخ ولاية الأغواط الجزائر"، مجلة مدينة الأغواط، نشر في: أغسطس 2020، الرابط: <https://magazinlaghouatcity.blogspot.com/2020/08/history-of-province-of-laghouat-algeria.html>
- 11- مقال بعنوان: "المرأة الجزائرية وأدوارها الإنسانية خلال الثورة التحريرية الجزائرية 1954-1962"، أ: محمدي أحمد، مجلة قبس للدراسات الإنسانية والاجتماعية، مج: 3، العدد: 2، ديسمبر: 2019، (ص:680-686). الرابط: <https://www.asjp.cerist.dz/en/article/105177>
- 12- مقابلة الطالبة: هاجر بوغراة مع الشيخ التواتي بن التواتي في بيته، يوم: 13 نوفمبر 2018م، على الساعة: 14:11، الرابط: https://justpaste.it/Imam_touati

- 13-** مقال بعنوان: "موسوعة الأغواط في الفكر الإسلامي"، عطاء الله حمدي، بتاريخ: 7 نوفمبر 2013، الرابط: <http://sidielhadjaissa.over-blog.com/article-121003757.html>
- 14-** مقال بعنوان: "نابغة الأغواط: العلامة الشيخ: أبو بكر الحاج عيسى"، سمراد سمير، مجلة الإصلاح، مج:4، عدد: 23، سنة: 2010م.
- 15-** مقال بعنوان: "تنزيل الآيات على الواقع عند الإمام ابن باديس من خلال تفسيره "مجالس التذكير"، المجلد: 30، العدد 4، الصفحة 45- د: هشام شوقي، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية <https://asjp.cerist.dz/en/article/9470>، الرابط: 722016-12-31، بتاريخ:
- 16-** مقال بعنوان: "الخطاب الدعوي عن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين(دراسة مقارنة بين عبد الحميد بن باديس ومحمد البشير الإبراهيمي)"، شهرة شفري، وهي رسالة ماجستير صدرت عن جامعة الحاج لخضر بباتنة، كلية: العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية، سنة: 1430هـ-2009م،
- 17-** مقال بعنوان: "الاتجاه الاجتماعي في تفسير أبي بكر جابر الجزائري "أيسر التفاسير" من خلال تنزيل الآيات على واقع المجتمع الإسلامي"، ط د: أمينة بوزيب و أد: عبد القادر شكيمة، مجلة : الشهاب، جامعة الوادي ، المجلد: 09، العدد: 03 (2023) ، الرابط: <https://www.asjp.cerist.dz/en/article/233559>
- 18-** مقال بعنوان: "الشيخ نعيم النعيمي حياته وإسهاماته الفكرية والإصلاحية"، بوطبة لخضر، مجلة المعرفة للبحوث والدراسات التاريخية، مج:8، العدد الأول، أكتوبر 2022 ، الرابط: <https://asjp.cerist.dz/en/article/202966>
- 19-** مقال بعنوان: "التيسير اللغوي لمعاني القرآن بالتفسير والبيان لدى أبي بكر الجزائري من خلال كتابه- أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير-"، حيزية كروش، أقلام الهند، السنة الرابعة، العدد الرابع، (أكتوبر-ديسمبر 2019)، دراسات ومقالات.
- 20-** مقال بعنوان: "الشيخ أبو بكر جابر الجزائري الواعظ، المصلح، الفقيه، المفسر"، د المسعود جمادي، مجلة الإحياء، المجلد 19، العدد 22، سبتمبر 2019م، (ص:627-660)، الرابط: https://salafcenter.org,wp_content/uploads
- 21-** مقال بعنوان: "تطور حالات الطلاق في المجتمع الجزائري قراءة سوسيو أنثروبولوجية في المؤشرات الإحصائية"، سراج جيلالي، سعيدي محمد، مجلة: أنثروبولوجية الأديان، الصادرة عن جامعة أبي بكر بلقايد

، الرابط: 15-01-2022-تلمسان-، المجلد: 18، العدد: 1، بتاريخ:

<https://www.asjp.cerist.dz/en/article/176810>.

22- مقال بعنوان: "مكانة الشريعة الإسلامية بين النظم القانونية الغربية من خلال: شهادات ومواقف أجنبية"، د: عبد القادر حرز الله، ود: بوجمعة حمد، مجلة العلوم القانونية والاجتماعية، جامعة زيان عاشور الجلفة، العدد: الرابع، جانفي: 2017، الرابط: <https://www.asjp.cerist.dz/en/article/64382>.

23- مقال بعنوان: "مكانة الشريعة الإسلامية بين النظم القانونية الغربية من خلال: شهادات ومواقف أجنبية"، د: عبد القادر حرز الله، ود: بوجمعة حمد، مجلة العلوم القانونية والاجتماعية، جامعة زيان عاشور الجلفة، العدد: الرابع، جانفي: 2017، الرابط: <https://www.asjp.cerist.dz/en/article/64382>.

ثالثا: المواقع الإلكترونية:

أ- موقع الألوكة: والمقالات المأخوذة منه هي:

1- مقال بعنوان "آفة الجهل"، د: حامد شاكر العاني، بتاريخ: 8/11/2014، الرابط:

: <https://www.alukah.net/social/0/78185/%D8%A2%D9%81%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%AC%D9%87%D9%84/#ixzz7xRgyqAYn>

2- موقع دار الإفتاء المصرية، المفتي: شوقي إبراهيم علام، رقم الفتوى: 6280، تاريخ الفتوى: 15 ديسمبر 2015، الرابط: <https://www.dar-alifta.org/ar/fatawa/16791>

3- مقال بعنوان "تشديد العقوبة على جريمة الزنا في اليهودية والمسيحية والإسلام(نقاط الاتفاق)، د: أحمد عبد الوهاب علي، بتاريخ: 21/2/2015، الرابط: <https://www.alukah.net/sharia/0/82804>.

4- مقال بعنوان: "الحكمة من تعدد زوجات الرسول ﷺ"، د: مصطفى مسلم، بتاريخ: 23/10/2018، الرابط: <https://www.alukah.net/social/0/130196>.

5- مقال بعنوان: "أثر عقيدة الإيمان في توجيه السلوك والأخلاق"، د: أحمد مجاهد الشيباني، نشر بتاريخ: 16/7/2013، الرابط: <https://www.alukah.net/sharia/0/5741/1>.

ب- موقع: عبد الحميد بن باديس رائد النهضة العلمية والفكرية بالجزائر: وأخذت منه هي:

1- مقال "جوانب من شخصية أديب الفقهاء الرحالة الشيخ نعيم النعيمي"، محمد بسكر، نشر في: 26/06/2014، الرابط: <https://binbadis.net/archives/864>.

2- مقال بعنوان: العلامة حمدان لونيسي (1856-1920)، بقلم: ديدى محمد السعيد. بتاريخ: 09/06/2019، الرابط: <https://binbadis.net/archives/8753>.

3- أحمد قصيبة الشيخ الكاتب المناضل المصلح، مقال: بقلم: محمد الطيب، 04/07/2021، الرابط: <https://binbadis.net/archives/11552>.

4- مقال "ذكرى وذاكرة العلامة محمد الصالح رمضان"، د. محمد سيف الإسلام بوفلاقة، نشر موقع: عبد الحميد بن باديس رائد النهضة العلمية والفكرية بالجزائر، نشر بتاريخ: 22/07/2022، الرابط: <https://binbadis.net/archives/13693>.

ج- موقع: المكتبة الجزائرية الشاملة، إشراف: عمار رقة الشرفي، والمقالات المأخوذة منه هي:

1- مقال: بعنوان: ترجمة المفسر محمد سعيد كعباش الجزائري، بتاريخ: السبت 9 سبتمبر 2017، الرابط: <https://shamela-dz.net/?p=638>.

2- مقال: بعنوان: ترجمة العلامة أحمد حماني الجزائري، نشر في 13 سبتمبر 2017م، الرابط: <https://shamela-dz.net/?p=681>.

د- موقع: مركز الحضارة للدراسات والبحوث: مقال بعنوان: طوفان الأقصى: المواقف العربية الرسمية والشعبية، أ: عبد الرحمن عادل، بتاريخ: 18 أكتوبر 2023م، الرابط: <https://hadaracenter.com>.

هـ- موقع: أشعة من الفكر الإباضي: مقال بعنوان: الشيخ إبراهيم بن عمر بيوض، بقلم د. محمد صالح ناصر، الرابط: <https://istiqama.net/olama/ibrahai-biodh.htm>.

و- موقع: "منتديات الشروق"، منتدى القرآن الكريم، بتاريخ: 2016/06/27، من تقرير بعنوان: العلامة ابن التواتي الجزائري الذي فسر القرآن في 20 مجلدا، تغطية: زهيرة مجراب وقدور جربوعة، الرابط: <https://montada.echoroukonline.com/showthread.php?t=345781>.

ز- موقع: جمعية التراث: الرابط: <https://tourath.org/index.php/%D8%A5%D8%A8%D8%B1%D8%A7%D9%87%D9%8A%D9%85-%D8%A8%D9%86-%D8%B9%D9%85%D8%B1%D8%8C-%D8%A8%D9%8A%D9%88%D8%B6>.

ز-: موقع: ويكيبيديا الموسوعة الحرة، الرابط:

https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A3%D8%A8%D8%B1%D8%A7%D9%84%D8%B3%D8%A7%D8%B9%D8%A9%D8%AC_%D8%A

ح- صفحة الفايسبوك "عبد القادر بن التواتي"، ترجمة التواتي، الرابط:

<https://www.facebook.com/abdelkader.touati.397>

	الإهداء
	الشكر والتقدير
أ - ص	مقدمة
124-17	الفصل الأول: مدخل مفاهيمي لدراسة مصطلحات البحث
34-17	المبحث الأول: مفهوم الاتجاه الاجتماعي في التفسير ونشأته
27-17	المطلب الأول: تعريف الاتجاه الاجتماعي في التفسير وبيان خصائصه وأهدافه وموضوعاته...
17	الفرع الأول: التعريف التجزيئي لمصطلحات "الاتجاه" و "الاجتماعي" و "التفسير".....
21	الفرع الثاني: تعريف "الاتجاه الاجتماعي في التفسير".....
25	الفرع الثالث: خصائص الاتجاه الاجتماعي في التفسير وبيان أهدافه وأهم موضوعاته....
34-27	المطلب الثاني: نشأة الاتجاه الاجتماعي وأسباب ظهوره في العالم الإسلامي عموما والجزائر..
27	الفرع الأول: نشأة الاتجاه الاجتماعي في التفسير وأسباب ظهوره في العالم الإسلامي عموما...
30	الفرع الثاني: نشأة الاتجاه الاجتماعي في التفسير في الجزائر المحروسة خصوصا.....
66-35	المبحث الثاني: معالم الاتجاه الاجتماعي في التفسير وأهم رواده
51-35	المطلب الأول: معالم الاتجاه الاجتماعي في التفسير.....
35	الفرع الأول: أساس الوَحْدَةِ الموضوعية في القرآن الكريم.....
36	الفرع الثاني: أساس الوَحْدَةِ الموضوعية في السورة القرآنية.....
37	الفرع الثالث: أساس تحكيم العقل في التفسير.....
39	الفرع الرابع: أساس إنكار التقليد وذمه والتحذير منه.....
39	الفرع الخامس: أساس التقليل من شأن التفسير بالمأثور.....
41	الفرع السادس: أساس التحذير من التفسير بالإسرائيليات.....
42	الفرع السابع: أساس القرآن هو المصدر الأول في التشريع.....
43	الفرع الثامن: أساس الشمول في القرآن الكريم.....
45	الفرع التاسع: أساس التحذير من الإطناب.....

46	الفرع العاشر: أساس الإصلاح الاجتماعي.....
47	الفرع الحادي عشر: أساس التفسير العلمي للقرآن الكريم.....
49	الفرع الثاني عشر: تقويم للمدرسة العقلية في التفسير الاجتماعية كونها رائدة لهذا الاتجاه..
66-51	المطلب الثاني: أهم رواد التفسير الاجتماعي في العصر الحديث.....
51	الفرع الأول: جمال الدين الأفغاني (1839م-1897م).....
52	الفرع الثاني: محمد عبده (1849م-1905م).....
55	الفرع الثالث: السيد محمد رشيد رضا (1865م-1935م).....
57	الفرع الرابع: محمد مصطفى المراغي (1881م-1945م).....
58	الفرع الخامس: الشيخ محمود شلتوت (1893م-1963م).....
61	الفرع السادس: سيد قطب (1906م-1967م).....
62	الفرع السابع: محمد الطاهر بن محمد بن عاشور التونسي (1879م-1973م).....
64	الفرع الثامن: المكّي الناصري (1906م-1996م).....
65	الفرع التاسع: تذييل للإنتاج التفسيري في الاتجاه الاجتماعي.....
86-67	المبحث الثالث: ترجمة الشيخ التواتي بن التواتي
77-67	المطلب الأول: الأوضاع والظروف العامة التي نشأ فيها الشيخ التواتي.....
67	الفرع الأول: الأوضاع السياسية.....
72	الفرع الثاني: الأوضاع الثقافية والدينية.....
74	الفرع الثالث: الحالة الاقتصادية.....
75	الفرع الرابع: الحالة الاجتماعية.....
86-77	المطلب الثاني: الحياة الشخصية والعلمية للشيخ التواتي.....
77	الفرع الأول: الحياة الشخصية للشيخ التواتي بن التواتي.....
81	الفرع الثاني: الحياة العلمية للشيخ التواتي بن التواتي.....
123-87	المبحث الرابع: تفسير "الدر الثمين في تفسير الكتاب المبين" ومنهج التواتي في تحريره
104-87	المطلب الأول: التعريف بتفسير "الدر الثمين في تفسير الكتاب المبين"، ومصادر المؤلف فيه
87	الفرع الأول: التعريف بتفسير "الدر الثمين".....

93	الفرع الثاني: مصادر التواتي في تفسيره "الدر الثمين".....
123-103	المطلب الثاني: منهج الشيخ التواتي في تفسيره "الدر الثمين".....
103	الفرع الأول: المعالم المنهجية العامة التي نص التواتي على التزامها في مقدمة تفسيره.....
106	الفرع الثاني: بيان الأصول التفسيرية التي اعتمد عليها في تفسيره.....
110	الفرع الثالث: منهج التواتي في التعامل مع سور القرآن وتوظيف علوم القرآن فيها.....
113	الفرع الرابع: منهج التواتي في تفسير الآيات والخطوات المتبعة فيه.....
122	الفرع الخامس: تقييم لكتاب "الدر الثمين".....
189-126	الفصل الثاني: معالم الاتجاه الاجتماعي عند المفسرين الجزائريين
144-127	المبحث الأول: معالم الاتجاه الاجتماعي عند الإمام عبد الحميد ابن باديس من خلال تفسيره "في مجالس التذكير"
136-127	المطلب الأول: ترجمة عبد الحميد ابن باديس، وتعريف بتفسيره "في مجالس التذكير"...
127	الفرع الأول: ترجمة للإمام عبد الحميد ابن باديس.....
132	الفرع الثاني: تعريف بتفسير "في مجالس التذكير" من كلام الحكيم الخبير" وبيان منهج مؤلفه فيه
143-136	المطلب الثاني: نماذج من معالم الاتجاه الاجتماعي في تفسير "في مجالس التذكير".....
136	الفرع الأول: تنزيل الآيات على الواقع.....
138	الفرع الثاني: الحديث عن أسباب ضعف الأمة وسبيل استرجاع قوتها.....
141	الفرع الثالث: مواجهة الأخطار الأخلاقية والفكرية التي تهدد الأمة.....
158-144	المبحث الثاني: معالم الاتجاه الاجتماعي عند الشيخ بيوض من خلال تفسيره "في رحاب القرآن"
151-144	المطلب الأول: ترجمة الشيخ بيوض وتعريف بتفسيره "في رحاب القرآن"
144	الفرع الأول: ترجمة للشيخ: إبراهيم بيوض.....
148	الفرع الثاني: تعريف بتفسير "في رحاب القرآن" وبيان منهج مؤلفه فيه.....
158-151	المطلب الثاني: نماذج من معالم الاتجاه الاجتماعي في تفسير "في رحاب القرآن"
151	الفرع الأول: تنزيل الآيات على الواقع.....
152	الفرع الثاني: مواجهة الأخطار الأخلاقية والفكرية التي تهدد الأمة.....

155	الفرع الثالث: أسباب ضعف الأمة وسبيل قوتها.....
157	الفرع الرابع: قضايا الأسرة.....
159-174	المبحث الثالث: معالم الاتجاه الاجتماعي عند الشيخ أبي بكر جابر الجزائري من خلال تفسيره "أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير"
159-165	المطلب الأول: ترجمة أبي بكر جابر الجزائري وتعريف بتفسيره "أيسر التفاسير".....
159	الفرع الأول: ترجمة الشيخ أبي بكر جابر الجزائري.....
163	الفرع الثاني: التعريف بكتاب "أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير" وبيان منهج مؤلفه فيه.
165-	المطلب الثاني: نماذج من معالم الاتجاه الاجتماعي في تفسير "أيسر التفاسير".....
165-175	الفرع الأول: تنزيل الآيات على الواقع.....
186	الفرع الثاني: مواجهة الأخطار الأخلاقية والفكرية التي تهدد الأمة.....
170	الفرع الثالث: أسباب ضعف الأمة وسبيل قوتها.....
174	الفرع الرابع: قضايا الأسرة.....
176-188	المبحث الرابع: معالم الاتجاه الاجتماعي عند الأستاذ كعباش من خلال تفسيره "نفحات الرحمن في رياض القرآن"
176-182	المطلب الأول: ترجمة الأستاذ محمد سعيد كعباش وتعريف بتفسيره "نفحات الرحمن"..
176	الفرع الأول: ترجمة للأستاذ محمد سعيد كعباش.....
180	الفرع الثاني: تعريف بتفسير "نفحات الرحمن في رياض القرآن" وبيان منهج مؤلفه فيه....
182-188	المطلب الثاني: نماذج من معالم الاتجاه الاجتماعي في تفسير "نفحات الرحمن".....
182	الفرع الأول: تنزيل الآيات على الواقع.....
184	الفرع الثاني: مواجهة الأخطار الأخلاقية والفكرية التي تهدد الأمة.....
185	الفرع الثالث: أسباب ضعف الأمة وسبيل قوتها.....
191-289	الفصل الثالث: معالم الاتجاه الاجتماعي في التفسير عند التواتي من خلال تفسيره "الدر الثمين"
192-206	المبحث الأول: المعالم المتعلقة بأسس بناء المجتمع وقيام الأسرة المسلمة
192-197	المطلب الأول: معلم "أسس قيام المجتمع المسلم وخصائصه".....

192	الفرع الأول: إقامة المجتمع وفق المنهج الرباني الصحيح.....
194	الفرع الثاني: "دار الإسلام" صفاتها ومميزاتها.....
165	الفرع الثالث: تحقيق التكافل الاجتماعي.....
206-197	المطلب الثاني: معلم "أسس قيام الأسرة المسلمة في الإسلام".....
198	الفرع الأول: الإقبال على الزواج وتجنب عقباته.....
200	الفرع الثاني: العلاقات الأسرية ومقومات نجاحها.....
203	الفرع الثالث: عوامل هدم العلاقات الأسرية.....
204	الفرع الرابع: مكانة المرأة في الإسلام.....
232-207	المبحث الثاني: المعالم المتعلقة بربط القرآن بأحوال المجتمعات
216-207	المطلب الأول: معلم "شمول القرآن".....
208	الفرع الأول: عموميّة القرآن.....
212	الفرع الثاني: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.....
214	الفرع الثالث: شرع من قبلنا شرع لنا.....
221-216	المطلب الثاني: معلم "تنزيل الآيات على الواقع".....
217	الفرع الأول: مقدمات نظرية لمعلم "تنزيل الآيات على الواقع".....
220	الفرع الثاني: منهج الشيخ التواتي في تطبيق معلم "تنزيل الآيات على الواقع".....
232-221	المطلب الثالث: معلم "الوعظ والإرشاد".....
222	الفرع الأول: منهج الشيخ التواتي في الوعظ والإرشاد.....
224	الفرع الثاني: نماذج من المواعظ التي ذكرها الشيخ التواتي في تفسيره.....
269-233	المبحث الثالث: المعالم المتعلقة بإعجاز القرآن الكريم
246-233	المطلب الأول: معلم "الإعجاز العلمي للقرآن الكريم".....
234	الفرع الأول: الإقرار بوجود الإعجاز العلمي، والاستفادة من المصنفات التي اعتنت به....
236	الفرع الثاني: بيان أوجه أهمية الإعجاز العلمي للقرآن الكريم وفوائده.....
239	الفرع الثالث: بيان ضوابط قبول التفسير العلمي للقرآن الكريم.....
243	الفرع الرابع: نماذج من الإعجاز العلمي.....

269-246	المطلب الثاني: معلم "الإعجاز التشريعي والحكمة من تشريعات القرآن الكريم".....
247	الفرع الأول: منهجه في بيان الإعجاز التشريعي للقرآن الكريم.....
248	الفرع الثاني: حكم وعلل من تشريع بعض العبادات الخاصة.....
252	الفرع الثالث: حكم وعلل من أحكام الأسرة وحفظ الأعراض.....
260	الفرع الرابع: حكم وعلل من تشريع بعض المعاملات المالية والحدود والجهاد.....
265	الفرع الخامس: حكم وعلل من تشريعات متنوعة.....
288-270	المبحث الرابع: المعالم المتعلقة بالوحدة الموضوعية في القرآن الكريم
280-270	المطلب الأول: معلم "الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم".....
271	الفرع الأول: الربط بين معاني الآيات والسور المشتركة في الموضوع الواحد.....
274	الفرع الثاني: إحصاء ما تكرر من الآيات والسور ذات الموضوع الواحد.....
277	الفرع الثالث: اهتمامه بذكر المناسبة بين سور القرآن.....
288-281	المطلب الثاني: معلم "الوَحدة الموضوعية في السورة القرآنية".....
281	الفرع الأول: المناسبة بين أجزاء السورة.....
286	الفرع الثاني: الاعتناء بالمعنى المتلائم مع الوحدة الموضوعية في السورة.....
371-291	الفصل الرابع: تنزيلات التواتي بن التواتي للآيات على الواقع من خلال تفسيره "الدر الثمين"
319-292	المبحث الأول: التنزيلات المتعلقة ببيان الأحكام الشرعية لمسائل فقهية وعقدية
303-292	المطلب الأول: بيان الأحكام الشرعية لمسائل فقهية.....
292	الفرع الأول: المسائل المتعلقة بالأحوال الشخصية والأسرية.....
297	الفرع الثاني: مسائل متعلقة بالمعاملات المالية.....
301	الفرع الثالث: مسائل متعلقة بأحكام فقهية متفرقة.....
310-303	المطلب الثاني: الرد على فتاوى باطلة متعلقة بمسائل فقهية.....
303	الفرع الأول: خطر الفتوى بغير علم.....
306	الفرع الثاني: الردّ على فتاوى متعلقة بالمرأة.....
308	الفرع الثالث: الردّ على فتاوى متفرقة.....

319-310	المطلب الثالث: بيان الأحكام الشرعية لمسائل عقدية.....
311	الفرع الأول: مسائل تتعلق بالشرك بالله تعالى.....
314	الفرع الثاني: مسائل تتعلق بالسحر والرقية.....
316	الفرع الثالث: مسائل متعلقة بأحكام عقدية متفرقة.....
342-320	المبحث الثاني: التنزيلات المتعلقة بأحوال المنتسبين للأمة الإسلامية
326-320	المطلب الأول: حال حكام الأمة وعلمائها.....
320	الفرع الأول: مسائل تتعلق بحال حكام الأمة.....
322	الفرع الثاني: مسائل تتعلق بحال علماء الأمة ودعاتها.....
333-326	المطلب الثاني: بيان الحالة العامة لأبناء الأمة.....
327	الفرع الأول: حال عموم المسلمين.....
331	الفرع الثاني: حال التجار.....
342-333	المطلب الثالث: ظاهرة الضعف والفرقة والاختلاف وسط الأمة الإسلامية.....
333	الفرع الأول: أسباب ضعف وذل المسلمين وهوانهم على أعدائهم.....
336	الفرع الثاني: أنواع تفرق أبناء الأمة الإسلامية.....
341	الفرع الثالث: آثار تفرق أبناء الأمة.....
358-343	المبحث الثالث: التنزيلات المتعلقة بالأحوال العامة للأمة الإسلامية
349-343	المطلب الأول: ضعف الأمة الإسلامية وذهاب هيبتها بين الأمم.....
343	الفرع الأول: أسباب ضعف الأمة الإسلامية.....
349	الفرع الثاني: تسلط الأعداء على الأمة الإسلامية.....
353-349	المطلب الثاني: حال الأمة الإسلامية مع القرآن الكريم.....
350	الفرع الأول: حال المسلمين مع تلاوة القرآن وتدبره.....
352	الفرع الثاني: حال المسلمين مع العمل بالقرآن.....
358-353	المطلب الثالث: حال الأمة الإسلامية مع مقدساتها.....
253	الفرع الأول: حال الحرمين الشريفين.....
356	الفرع الثاني: حال المسجد الأقصى.....

370-359	المبحث الرابع: التنزيلات المتعلقة بالمجتمعات غير الإسلامية
361-359	المطلب الأول: تنزيلات مشتركة بين أهل الكتاب (اليهود والنصارى).....
359	الفرع الأول: بطلان الديانات التي عليها أهل الكتاب اليوم.....
360	الفرع الثاني: أخلاق أهل الكتاب.....
361	الفرع الثالث: ارتفاع نسبة الجرائم عند أهل الكتاب.....
364-361	المطلب الثاني: تنزيلات خاصة باليهود.....
361	الفرع الأول: صفة قسوة قلوب اليهود.....
362	الفرع الثاني: عداوة اليهود للمسلمين ومكرهم بهم.....
363	الفرع الثالث: مكر اليهود للسيطرة على العالم كله.....
367-364	المطلب الثالث: تنزيلات خاصة بالنصارى.....
364	الفرع الأول: فرق النصارى في عصرنا.....
366	الفرع الثاني: قوة دول النصارى.....
370-367	المطلب الرابع: تنزيلات متعلقة بالدول الغربية.....
367	الفرع الأول: ادعاء رجاحة العقل والمعرفة الكاملة.....
368	الفرع الثاني: السعي في تضليل المجتمع المسلم.....
369	الفرع الثالث: موقف الدول الغربية من التشريعات الإسلامية.....
375-373	الخاتمة.....
393-377	فهرس الآيات القرآنية.....
398-394	فهرس الأحاديث النبوية المرفوعة.....
400-399	فهرس الأعلام المترجم لهم.....
402-401	فهرس المصطلحات والألفاظ الموضحة في الرسالة.....
417-403	فهرس المصادر والمراجع.....
425-418	فهرس الموضوعات.....
427	ملخص الرسالة باللغة العربية.....
428	ملخص الرسالة باللغة الإنجليزية.....

ملخصات البحث:

أولاً: الملخص باللغة العربية

ثانياً: الملخص باللغة الإنجليزية

ملخص باللغة العربية

تهدف هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على أحد أهم الاتجاهات في تفسير القرآن الكريم وهو "الاتجاه الاجتماعي"، وقد اقتصر فيها على أحد الأعلام الجزائريين المعاصرين وهو الشيخ التواتي بن التواتي الأغواطي الذي لا يزال حيًا -أمد الله في عمره- وذلك من خلال كتابه "الدر الثمين"، ولم أغفل الحديث عن هذا الاتجاه عند غيره من المفسرين الجزائريين، ولذا جاءت الأطروحة **بعنوان:**

"الاتجاه الاجتماعي في تفسير القرآن بالجزائر -تفسير "الدر الثمين" للتواتي بن التواتي أنموذجاً-".

وقد حاولت الإجابة من خلال البحث عن **إشكاليات رئيسة** مفادها:

- ماهي معالم الاتجاه الاجتماعي التي وظفها التواتي في تفسيره "الدر الثمين"؟، وما منهج توظيفه لها؟.

- ما هي أهم المسائل التي نزل فيها التواتي آيات القرآن على الواقع الجزائري خصوصاً والعالمي عموماً؟.

وقد حاولت الإجابة عن هذه الأسئلة من خلال خطة علمية من شأنها إزالة تلك التساؤلات، وقد تضمنت **خطة البحث** أربعة فصول، كلّ فصل منها يحتوي على مسائل وجزيئات عديدة؛ أما الفصل الأول: فهو مدخل مفاهيمي لمصطلحات البحث، عرّفت فيه بمصطلحات: "الاتجاه الاجتماعي" و"التواتي" و"تفسير الدرّ الثمين". وأما الفصل الثاني: فهو: معالم الاتجاه الاجتماعي عند المفسرين الجزائريين. وسلطت فيه الضوء على أربعة مفسرين جزائريين يمثل كلّ اثنين منهم مدرسة تفسيرية في الجزائر، وهم: ابن باديس وأبو بكر الجزائري، ويمثلون المدرسة المالكية السّنيّة، ويوض وكعباش ويمثلون المدرسة الإباضية. وأما الفصل الثالث: فهو بعنوان "معالم الاتجاه الاجتماعي في التفسير عند الشيخ التواتي من خلال تفسيره". وقد شرحت فيه معالم الاتجاه الاجتماعي التي وظفها التواتي في تفسيره ومنهجه في ذلك، بدءاً بأسس تكوين الأسرة الصالحة إلى غيرها من المعالم، ليأتي الفصل الرابع: بعنوان "تنزيلات الشيخ التواتي بن التواتي للآيات على الواقع من خلال تفسيره. وتحدثت فيه عن أهم المسائل التي نزل فيها التواتي آيات القرآن الكريم على الواقع، من المسائل العقديّة والفقهية وأحوال الأمة الإسلامية وغيرها من الأمم في هذا العصر.

لأخلص في الأخير إلى أن الاتجاه الاجتماعي كان بارزاً بروزاً واضحاً عند الشيخ التواتي في تفسيره، الذي كان مطلقاً على أحوال الأمة متتبّعاً للأحداث الجارية فيها، يحاول ربط كلّ شؤنها بآيات القرآن الكريم واصفاً للداء من الواقع والدواء من القرآن شأنه شأن العلماء المصلحين، وقد أبدع الشيخ في توظيف هذا الاتجاه لأنه كان يجمع في درسه التفسيري بين المشافهة والكتابة.

Summary of English

This study aims to highlight one of the most important trends in the interpretation of the Holy Quran, which is the "social trend." It focuses on one of the contemporary Algerian figures, Sheikh Tawati Ben Tawati Al-Aghwati, who is still alive – may God prolong his life – through his book "Al-Durr Al-thamin" I did not neglect to discuss this trend in the works of other Algerian interpreters, and thus the thesis is titled: "The Social Trend in Quranic Interpretation in Algeria - The Interpretation of 'Al-Durr Al-Thamin' by Tawati Ben Tawati as a Model." I attempted to answer the main issues through research, which are:

- What are the features of the social trend that Tawati employed in his interpretation "Al-Durr Al-Thamin"? What is his methodology in employing them?
- What are the most important issues that Tawati addressed by applying Quranic verses to the Algerian reality in particular and the global context in general?

I sought to answer these questions through a scientific plan aimed at addressing these inquiries. The research plan consists of four chapters, each containing numerous issues and details. The first chapter serves as a conceptual introduction to the research terms, where I defined the terms "social trend," "Tawati," and "interpretation of Al-Durr Al-Thamin." The second chapter focuses on the features of the social trend among Algerian interpreters, shedding light on four Algerian interpreters, where each pair represents a school of interpretation in Algeria: Ibn Badis and Abu Bakr Al-Jaza'iri, representing the Maliki Sunni school, and Bayoud and Kabbash, representing the Ibadhi school. The third chapter is titled "Features of Social Interpretation by Sheikh Tawati Ben Tawati through His Interpretation." In this chapter, I explained the features of the social trend that Tawati employed in his interpretation and his methodology in that, starting from the foundations of forming a righteous family to other aspects.